جامعـــــــة الجزائـــــر
كليـــة العلـــوم الإنسانيـــــة والاجتماعية
قســـم التاريـــــــخ

المـوراد المائيـة وطـرق استغـلالها ببـلاد المغرب، من الفتـــح الإسلامي إلى سقـوط دولة الموحديـــن

رسالــــة لنيــل شهـــادة دكتوراه دولــة
في تـاريخ المغـــرب الإسلامــي

إعــــداد الطـــالب:
محمد بن عميرة

إشـــــراف:
أ. الدكتور/ موســى لقبـــــــال

2005 - 2004

مقـــــدمـــة

اختيار الموضوع:

حَظي اهتمامي في بداية الأمر بموضوع" التجارة البحرية في بلاد المغرب، منذ الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين"، وبعدما قرأت الكثير عنه، رحت أجمع مادته، فتبين لي، بعد قطع أشواط، من عملية الجمع، أن الفصل المدخلي منه، وهو الأوضاع الاقتصادية ببلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين" يكفي لموضوع بحث ذي قيمة علمية معتبرة، فرحت أركز، في عملي، على جمع المعلومات ذات طابع اقتصادي، وبعد مُضي شوط آخر، في مرحلة الجمع، ارتأيت أن الموضوع واسع ويحتاج، هو الآخر، إلى تقسيم يشمل الموارد الفلاحية والصناعية والطبيعية فاقتصرت في اختياري على الموارد الطبيعية فواصلت جمع مادها إلى أن بَدا لي، في آخر الأمر أنها بدورها تحتاج إلى أن تقسَّم إلى عدة مواضيع ومن بينها الموارد المائية التي استقرّ عليها اختياري في آخر المطاف ليصبح عنوان بحثي:" الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين".

ويعود سبب استقرار رأيي على هذا الاختيار لما تبيّن لي، من أن الماء الذي لا تزال مشكلته مطروحة علينا اليوم، في بداية القرن العشرين، رغم الوسائل التقنية المتطورة التي أصبحت في حوزتنا والتقدم العلمي الكبير الذي أحرزناه، يحتاج إلى دراسة في الفترة المذكورة.

إشكالية الموضوع:

أول نقطة شغلت بالي، في علاج هذا البحث، هي تحديد إطارٍ جغرافي له، في فترة ما بين الفتح الإسلامي وسقوط دولة الموحّدين، لأن المصادر والمراجع لم تحسم هذا الأمر بصفة قاطعة إلى حدّ الساعة، وكان عليّ، بعد ذلك، أن أبحث على أشكال تواجد الماء على الطبيعة وطرق حفظه واستغلاله، وقد رأيت أن مثل هذا الموضوع لا يكون كاملا إلاّ إذا تطرقت فيه لأشياء يتوقف وجودها على الماء كالأسماك التي لا يمكنها العيش خارجه والملح الذي يستخلص مما تحمله مياه الفيضانات إلى الأحواض المغلقة المشكلة من طبقات أرضية غير منفذة والتي تعرف بالسبخات أو الشطوط أو البحيرات الداخلية كما يستخلص أيضا من البحار.

خطة الموضوع:

تناولت هذا الموضوع في أربعة أبواب مقسمة إلى اثنتي عشر فصلا؛ ويشتمل الباب الأول منها على ثلاثة فصول عالجت في أوّلها:" الحدود الشرقية لبلاد المغرب، وتطرقت فيه إلى تعريف بلاد المغرب واعتمدت على العامل الديموغرافي لحسم الأمر، وفي الأخير حاولت إظهار الحدود الجنوبية الشرقية.

وبيّنت في ثاني فصول هذا الباب" الحدود الشمالية لبلاد المغرب" حسب المصادر الجغرافية أوّلا والمصادر التاريخية، ثانيا.

وتناولت في فصله الثالث" الحدود الجنوبية" على أساس استعراض آراء أهمّ المؤرخين والجغرافيين في محاولة رسمها ثم الاعتماد على العامل الديموغرافي في ترسيخها.

ويتضمن البابُ الثاني" أشكال تواجد الماء على الطبيعة، وحفظه وطرق استغلاله" خمسةَ فصول، تعرضت في الأوّل منها لدراسة:" نظام تساقط الأمطار ومصير ميّاهها" بدْءًا بإلقاء الضوء على مناخ المغرب وعلاقة الحياة الاقتصادية به ثم تطرّقت لمصير مياه الأمطار المتساقطة فإلى الطرق التقليدية في استغلال المياه.

وقمت في الفصل الثاني" الأنهار وطرق استغلالها، حسب المصادر العربية" بعملية مسح للأنهار التي ورد ذكرها في المصادر العربية ثم بينت الطرق التي كانت تلك الأنهار تستغل بها؛ ونفس الشيء فعلته بالنسبة للفصل الثالث الخاص بـــ" العيون وطرق استغلالها حسب المصادر العربية" وبعدما انتهيت من عملية مسحها رُحت أسلّط الضوء على العوامل المتحكمة في انتشارها وتطرقت إلى الحديث عن انتشار الفجارات وتقنياتها وإلى طرق استغلال مياه العيون.

وقد عالجت في الفصل الرابع" الآبار وطرق استغلالها، حسب المصادر العربية" وقُمتُ بعملية مسح للآبار الواردة في المصادر العربية وتعرّضت للفرق بين البئر و الحِسي والعين وإلى الآبار العادية والأرتوازية وآلات السقي التي كانت مستعملة في استغلال مياهها وإلى الدراسات الحديثة لآلات الريّ التقليدية ثم إلى الأحكام الشرعية في ملكية ميّاهها والاستفادة بها وإلى أهمية الآبار التجارية والعسكرية.

أمّا في الفصل الخامس والأخير من هذا الباب، فقد تطرّقت إلى " توصيل المياه وتخزينها ببلاد المغرب" بدءًا بالمنطقة المحصورة ما بين برقة وتونس ثم مدينة القيروان وضواحيها،

وتعرّضت بالمناسبة إلى سياسة الأغالبة المائية فإلى تقنيات تخزين المياه في إفريقية ثم رُحت أُلقي الضوء على توصيل المياه وتخزينها من منطقة قفصة إلى منطقة طنجة، مستعرضا سياسة الموحدين المائية، واستغلال الصهاريج الطبيعية ومحاولا التمييز بين الصهريج والماجل والجبّ قبل أن أتعرّض لأحكام التّصرف في مياهها وإلى ملاءمة نظام استغلال الماء للظروف المحلية وتجارة السقاية وأخيرا أصحاب الماء أمام مسئولياتهم.

وخصصت الباب الثالث لموضوع" الأسماك وطرق استغلالها ببلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين" وقسمته إلى فصلين، عالجت في أوّلهما " الأسماك وأنواعها ببلاد المغرب" وتعرضت فيه إلى" الظروف الطبيعية لتواجد الأسماك وأنواعها" وتطرقت إلى أنواعها بسواحل البحر الأبيض المتوسط في مصادر العصر الوسيط، وركزت على الأسماك بساحلي تونس وبنـــزرت، على الخصوص، ثم في بقية المناطق المتوسطية وانتقلت إلى الأسماك في سواحل المحيط الأطلسي، حسب المصادر العربية وبعدها رحت أسلّط الضوء على التي كانت تعيش في الأنهار والمناطق الصحراوية.

وفي الفصل الثاني من الباب الثالث تناولت" طرق استغلال الأسماك ببلاد المغرب" فعالجت فيه ظروف الصيد البحري في السواحل المغربية وطرق الصيد فيها وفي السواحل الأطلنطية والأنهار والبحيرات الداخلية، ودور الفقه الإسلامي في تنظيم عملية الصيد البحري وانتشار صناعة تمليح الأسماك وتجفيفها وتصنيع المرجان.

وفي الأخير خصّصت الباب الرابع لـــ" لملح وطرق استغلاله في بلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين" وقسمته ، هو الآخر، إلى فصلين كرّست أولهما إلى "تكوّن الملح وطرق استخدامه"، وبحثت فيه تكوّن الملح وحكمه الشرعي وتوزيعه واستخراجه من مناطق المغرب التلية والصحراوية التي اشتهرت بها معادن ملح تانتال(تغازا) وإيجيل وأوليل، وتعرضت إلى أثر قيام الدولة المرابطية على استغلال هذا الملح وإلى معدن ملح توتك والمعادن الواقعة إلى الشرق من مدينة تادمكة أي شرق ما صار يعرف، فيما بعد، بخط غرينويتش.

وأوضحت في الفصل الثاني والأخير " أهمية الملح الاقتصادية والتجارية" وتعرضت فيه إلى الأوضاع الاقتصادية لبلاد المغرب قبل نهاية القرن التاسع الميلادي، و وضعية الاتصالات بين بلدي المغرب والسودان، عشية الفتح الإسلامي، وتنشيط العرب المسلمين للاقتصاد والتجارة

بينهما وأهمية الملح بالنسبة للسودان ودور القوافل في نقله إليهم وتسويقه ثم دور المناطق التلية المغربية في التجارة مع بلاد السودان وفوائد هذه التجارة عليها.

المنهج المطبق في كتابة البحث

اعتمدت في كتابة هذا البحث، أساسا، على استغلال المعلومات الموجودة في المصادر الجغرافية وترجماتها إلى الفرنسية والمراجع التاريخية والمصادر الفقهية وكتب الحسبة والنوازل وبعض الدراسات التاريخية والجغرافية والأثرية الحديثة، وحرصت دائما على مقارنة المعلومات التي قمت باستغلالها، بعضها ببعض، وإثرائها بالنتائج التي توصل إليها بعض المحدثين، وكنت أتوقف، كلما اقتضت الضرورة، عندما كان يبدو لي فيها من أخطاء للقيام بالتعليقات المناسبة عليها كما كنت، كذلك، أنبّه في كل مرّة، سواء في المتن أو في الهامش، إلى الأخطاء الواردة في الترجمات الفرنسية للنصوص العربية المستخدمة في إنجاز هذا العمل.

تقييم المصادر و المراجع المعتمد عليها في البحث

لقد استفدت، في إنجاز هذا البحث، بالدرجة الأولى، على المصادر الجغرافية العربية القديمة ومن أهمها:

كتاب صورة الأرض،ط،بريل1967.لابن حوقل(ق 4 هـ/10م) الذي أفادني بمعلومات عن حدود بلاد المغرب الشرقية، والجنوبية الشرقية، والشمالية والجنوبية وعن الأنهار والعيون والآبار وآلات الرّي التي كانت تستخدم آنذاك والمواجن أو المواجل والأسماك والمرجان في السواحل المغربية وطرق صيدها وأسماك الأنهار والعيون وعن التعامل بالمرجان وتصديره وإشراف السلطان على ذلك وعن ملح أوليل ووصوله إلى أودغست وسعره ببلاد السودان.

وكتاب "المُغرب في ذكر إفريقية والمغرب" وهو جزء من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري (ت.487 هـ/1094-1095م) الذي زوّدني بمعلومات عن الحدود الشرقية لبلاد المغرب وانتشار البربر قديما بتلك النواحي، وفي واحة سنترية(من الناحية الجنوبية الشرقية) وعن الحدود الشمالية والجنوبية والآبار والأنهار والعيون والسقي بالإبل والدواليب والخطاطير وتخزين الماء والأسماك في المحيط الأطلسي وفي نهري فاس وسبُو، وتربية الأسماك في الصهاريج وصناعة التمليح وجباية المرجان وتوزيع الملح في مناطق المغرب التلية والصحراوية وسعره ببلاد

السودان والآبار الموجودة عبر طريق تامدُلت-أودغُست والتي كان الفضل في حفر الكثير منها إلى عبد الرحمن بن حبيب.

وقد اعتمدت أيضا على طبعتين مختلفتين مقتبستين من كتاب " نُزهة المشتاق لأبي عبد الله الشريف الادريسي(ت. سنة 548/1154م): أولهما" المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق" حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق، ط، الجزائر 1983، وثانيهما:" القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس"، من تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ط الجزائر 1983؛ ومما استفدت منهما: معلومات خاصة بحدود بلاد المغرب الشرقية وانتشار البربر بتلك النواحي، منذ وقت مبكر من التاريخ، وموقع العَقَبة الكبرى، والحدود الجنوبية الشرقية، والشمالية الجنوبية، والأنهار والعيون والسواني، وتخزين المياه، والأسماك وطرق صيدها، وأنواعها في بحيرة بنـــزرت، والصيد في سواحل المحيط الأطلسي، والمرجان بسبتة والتماسيح في أرض الواحات، وصيد التن، وتصنيع المرجان، والملح في أوليل، والشب في مناطق كوّار المختلة، وصادرات بلاد المغرب إلى بلاد السودان.

ويلاحظ أن معلومات الادريسي تتشابه مع معلومات ابن حوقل الذي سبقه، كما تتشابه مع معلومات ابن سعيد المغربي الذي أتى بعدهُ(ت.سنة 673 هـــ/685-686م) والذي تعرّض في كتاب الجغرافيا لعدة نقاط تتعلق بالحدود الشرقية والشمالية والجنوبية لبلاد المغرب، وأخرى تتعلق بالأنهار والعيون وتخزين المياه، وسمك التّن وصيد السمك والسلاحف بسواحل المحيط الأطلسي ومعلومات عن التلّ والصحراء، وتسويق ملح أوليل.

كما يلاحظ أن معلومات صاحب كتاب الاستبــــــصار(ألّف سنة 587 -588هـــ/ 1191- 1192م) تتشابه به كثيرا، هي الأخرى، مع معلومات أبي عبيد البكري الذي سبقه، وقد أفادتني بصفة خاصة في الحديث عن الحدود الشمالية لبلاد المغرب وعن الأنهار والعيون والآبار وآلات الرّي وتخزين المياه وأماكن الأسماك والمرجان في السواحل المغربية وفي بعض الأنهار، وطرق صيدها وتمليحها وتصديرها ووجود الملح بأوليل.

وبنفس الدرجة استفدت من كتاب" Description de l'Afrique " الذي ألّفه الحسن الوزّان المعروف بـــJ.Lèon L'Africain (ت.قبل 1550) والذي زوّدني بمعلومات عن حدود المغرب(إفريقية) الشرقية والشمالية والجنوبية وعن الأسماك في السواحل المتوسطية والأطلنطية والأنهار المغربية والبحيرات الدّاخلية وطرق صيدها وصيد العنبر في سواحل المحيط الأطلسي

واستغلال التجار البرتغاليين لسمك منطقة أزمور في عهده وتصدير سمك الشابل مملوحا إلى البرتغال وعن مَلاّحة تغازا.

واستفدت أيضا من مصادر أخرى، من نفس النوع بمعلومات قيّمة في الموضوع ولكن بحجم أقل،ومن أهمها" كتاب البلدان، ط. ليدن 1967" لأحمد بن أبي يعقوب اليعقـــوبي (ت.278 هــ/891م)، وقد تطرّق فيه إلى انتشار البربر شرق البلاد المغربية وإلى معلومات يمكن توظيفها في الحديث عن الحدود الشمالية والجنوبية وبعض الأنهار والعيون والآبار وتخزين المياه. وكتاب وصف المغرب وأوربا Description du Maghreb et de L'Europe الذي اقتبسه محمد حاج صادق من" كتاب المسالك والممالك.ط. الجزائر 1949" لصاحبه ابن خرداذبة (عاش في القرن الثالث الهجري/ 9 م)، وكتاب المسالك والممالك، وهو معمول من كتاب صور الإقليم للبلخي، ط.ليدن 1967 للإصطخري (ت.340 هــ/951م)، وتزوّدت منه بمعلومات وظفتها في رسم الحدود الشرقية والشمالية والجنوبية لبلاد المغرب وتواجد المرجان بطبرقة، وكتاب " آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت. للقزويني(ت.682 هــ/1283 م) الذي كتب معلومات مفيدة عن الحدود الجنوبية لبلاد المغرب وعين غدامس وتخزين الماء والسمك في نهر شلف وصيد المرجان وتمليح سمك موسى وتصديره.

وبالإضافة إلى المصادر الجغرافية، اعتمدت أيضا على مصادر تاريخية،أفادتني في إثراء جوانب كثيرة من الموضوع وخاصة منها" كتاب فتوح إفريقية والأندلس" لابن عبد الحكـــــم(ت.257 هــ/871م)، نشره وترجمه إلى الفرنسية Albert gateau الجزائر 1948، فاستفدت منه في حديثي عن أقدم هجرات البربر من فلسطين إلى لوبية ومُراقية ، من مصر الغربية، وعن الحدود الشمالية والجنوبية لبلاد المغرب، وحملة حبيب بن أبي عبيدة على بلاد السودان، وحفر عبد الرحمن بن حبيب لبعض الآبار في طريق تامدُلت-أودغست.

و" كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبادهم ونسّاكهم وسيّر من أخبارهم وفضلائهم وأوصافهم" لأبي عبد الله بن أبي عبد الله المالكي(ت.453 هــ/1061-1062م) وقد أفادني بمعلومات عن ماء فرس وعن بعض الآبار.

وكتاب" البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذارى المراكشي واستعنت به في رسم حدود بلاد المغرب من الجهات الشرقية والشمالية والجنوبية.

وكتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون الذي أفادني بمعلومات عن معنى لفظ المغرب وحدود هذا البلد الشرقية وعلاقته بالبربر وحدوده الشمالية والجنوبية، وعن الآبار التي صارت تُعرف فيما بعد بالأرتوازية.

وكتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لابن أبي زرع الفاسي، يتضمن معلومات هامة عن مياه نهر فاس والأسماك وتوفّر الملح بالقرب منها.

وقد اعتمدتُ كذلك على مجموعة من كتب الفقه والنوازل والحسبة، ومن أهمها: كتـــــاب" متن مُوطأ الإمام مالك، رواية يحي بن يحي اللّيثي، نشر دار الكتاب، الجزائر" واستفدت منه في الحديث عن صيانة الماء وحكم الشرع في الأسماك التي صادها مجوسي وفي كيفية التبادل باللحوم.

وكتاب" المدوّنة الكبرى للإمام مالك بن أنس الأصبحي، رواية الإمام سحنون بن سعيد التّنوخي عن الإمام عبد الرحمن بن قاسم، نشر دار الفكر بيروت 1406هـــ/1986م وقد تزودت بمعلومات عن حبس الأنهار وأحكام استعمالات الماء، وحقّ جرّ ماء العين وكيفية تقسيمه والتصرف فيه وصيانته، وتحمّل البائع مسئولية نقص الماء، وأحكام التصرف في مياه المواجل والصهاريج والجباب، والشراكة في الصيد وحكم بيع الأسماك في الغدير أو البركة والتبادل بلحومها.

وكتابا " الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي المتوفي سنة 450 هـــ/1058-1059م؛و" الأحكام السلطانية" للفرّاء الحنبلي المتوفي 458 هـــ/1065-1066م؛ وقد أفادني كلاهما بمعلومات عن تصنيف الأنهار وتقسيم مياهها وحريمها وكذلك الأمر بالنسبة للعيون وأقسام السقي وأقسام الآبار والتصرف في مياهها وشروط ملكية الآبار وأحكام الملح الشرعية.

وكتاب المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب لأحمد ابن يحي الونشريسي(ت.914هـــ/1508-1509م) واستفدت منه في حقوق الذين يحتفرون الآبار وتقسيم مياهها، واستعمالات المياه المجلوبة، وصيانة المجاري المائية ومجالات استعمال المياه والاستفادة من مياه العيون والتصرف بها كأية بضاعة وكيفية تقسيمها واحترام الشروط الموضوعة في العقود بشأنها، وحكم تزويد المواجل بالماء والتصرف فيه ومسئولية ملكيته، والشراكة في صيد الأسماك، والمتاجرة فيها، وكيفية حملها أو نقلها ، وأحكام الملح الشرعية وكيفية التعامل به.

وكتاب" بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي(ت. 520هـ/1126-1127م) ويتناول فيه ما وقع بين الفقهاء من الاختلاف في ميتة البحر وتحريم بعض الحيوانات المائية وبيع السمك في الغدير أو البركة وتصنيف اللحوم.
وكتاب" معالم القربة في أحكام الحسبة" لمحمد بن محمد بن أحمد القُرشي المعروف بابن الأخوة (ت.729هـ/1329م)، وقد تحدث فيه عن تجارة السقاية وتحريم بعض الحيوانات المائية وكيفية حفظ الأسماك والتعامل بها وتنظيفها وطهيها.

وكتاب المجالس والمسايرات، للقاضي النعمان بن محمد المغربي(ت.363هـ/974م)، وبه معلومات عن أحكام التصرف في الماء مثله في ذلك مثل كتاب" المختصر في الفقه، لخليل ابن إسحاق، وكتاب" جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا بالمفتين" وهو مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم 1333 كتبه أبو القاسم بن أحمد بن محمد البرزلي.

وقد استعنت في بحثي أيضا بمراجع عديدة مكتوبة باللغة الفرنسية في جوانب موضوعي المختلفة ومن هذه المراجع:كتاب"L'Afrique blanche,T.1" الذي تطرق فيه J.Despois لمفهوم المغرب ومناخه ونظام التساقط والأودية فيه، ونظام الرّي المطبق في التلّ والصحراء، وظروف الصيد البحري في السواحل المتوسطية والأطلنطية.

وكتاب " L'Afrique blanche française,T.2,le Sahara français "الذي تعرض فيه إلى أودية بلاد المغرب، ونظام الري فيها ومصادر المياه في التلّ والصحراء وتصرّف الناس فيها، والعيون، والعيون الأرتوازية في الصحراء، وعن اختلاط مصطلحات العيون والآبار على الناس في مختلف المناطق، واتفاق القانون الفرنسي مع الفقه الإسلامي في التعامل بالماء وتوضيح الفرق بين العين والحِسي والبئر، وآلات الري التقليدية والرّي في الصحراء، وشروط ملكية البئر، وكيفية استغلال مياه الصهاريج الطبيعية، وملاءمة نظام استغلال المياه للظروف المحلية ، والبحار أو البحور أو القُلت أو الغدران، والصيد البحري في السواحل الأطلنطية وأقدمية استغلال ملح إيجيل، وحاجة الإنسان إلى الملح وبالأخص الإنسان السوداني وكذلك الحيوان، وأعداد القوافل التي كانت تتردّد بين بلاد المغرب وبلاد السودان سنويا.

وكتاب"L'Afrique blanche "الذي تحدث فيه E.F.gautier عن مفهوم المغرب وانتشار البربر في أرياف برقة قبل الفتح الإسلامي، وحدود بلاد المغرب من الناحية الجنوبية الشرقية، وعن الحدود الجنوبية والمناخ، وماء غدامس والعيون الأرتوازية وعيون الصحراء، وتقنيات

الفجارات وظروف الصيد البحري؛ وتحدّث نفس المؤلف في مقال "L'or du soudan dans l'histoire الذي نشـــره في Annales d'histoire économique et sociale, T. VII, n °32,31 Mars 1935 عن تسويق الملح جنوب بلاد السودان.

وكتاب Tableau géographique de L'ouste africain au m.âge الذي عالج فيه R.Mauny مصادر الملح وتكوّنه وأنواعه واستغلاله، وتسويق ملح تغازا في بلاد السودان ومصير معدنه وعن ملح إيجيل والمقارنة بينه وبين ملح تغازا ، وتسويق ملح أوليل وتحديد موقع معدنها واستغلال ملحها ونقله إلى الأسواق وتحديد موقع معدن ملح توتك، وتوزيع الملح شرق ما صار يعرف فيما بعد بخط غرينويتش وخلافه مع H.Lhote في تفسير ما ذكره البكري عن معدن حجارة تاسي النسمت وكذلك الأمر بالنسبة لما ذكره ابن بطوطة عن معدن نحاس تكدا، واعتقاده بوجود الملح في كوّار منذ القدم، و وجود اتصالات بين البربر والسودان ، عبر الصحراء؛ قبل الفتح الإسلامي للمنطقة، و وجود تجارة الذهب أيضا ولكن على نطاق ضيق، وتنشيط التجار العرب لإنتاج الذهب ببلاد السودان، بعد وصولهم إلى أودغُست وغانة، منذ القرن الثامن الميلادي وعن حاجة السودان إلى المملح، وتنظيم القوافل التجارية، وتسويق الملح ببلاد السودان وأسعار بيعه والفوائد التي كانت تجنيها، من تجارته، القبائل المسيطرة على طرق القوافل والمدن التي كانت تنطلق منها تلك القوافل والتي كانت تصل إليها.

وقد استعنت كذلك بما كتبه J.Devisse في مسألة أوغست La question d'Audaguste" في مجلة" Tegdaouste I, Recherches sur Aoudaguste,Paris1970 "في رسم الحدود الجنوبية لبلاد المغرب وتوضيح أهمية الملح والسيطرة على مناطقه في الصحراء أو بداية تسويقه في بلاد السودان وتسويق ملح أوليل وأَقْلمة تجارته منذ القرن 11 م(5 هـــ)، وتخريب المرابطين لأودغسْت والصعوبات التي وجدها تسويق ملح أوليل بسبب الأحداث السياسية الغامضة التي عرفتها تلك المنطقة، ومحاور الطرق الصحراوية، وأعداد القوافل التي كانت تقطع الصحراء سنويا، وأسعار الملح في بلاد السودان، ودور إفريقية في التجارة الصحراوية ودور الإباضيين كذلك، وانتقال طرق التجارة من النواحي الغربية إلى النواحي الشرقية والسياسة التي اتبعها الفاطميون، بعد قيام دولتهم للحصول على الذهب، وسيطرتهم على سجلماسة ودخولهم في صراع مع أُمَويّي الأندلس وحُلفائهم الزناتيين الذين سيطروا بدورهم على طريق الذهب،

بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، وأن أقوى نشاط اقتصادي عرفته المنطقة يعود إلى العهد المرابطي.

كما استعنت أيضا بكتاب L'économie de l'empire portugais au XV e et XVI e siècles الذي ذكر فيه V.M.godinhoمعلومات مفيدة حول العيون النابعة في العروق والحمادات الصحراوية وعن الآبار، والملح في أوليل وتوتك وطرق نقله في القوافل وتنظيمها وممارسة السودان للتجارة الصحراوية، وإبعاد التهمة التي تحمّل الهلاليين مسؤولية قطع الطريق الشرقي عن التجارة الصحراوية والفوائد التي تعود بها تلك التجارة على مختلف الأطراف.

وكتاب L'histoire économique du Maghreb الذي كتب فيه B.Rosenberger عن أوضاع المغرب الاقتصادية في العهدين البيزنطي والإسلامي، خاصة بعد ثورات الخوارج وأوضح سبب تركيز الفاطميين في السيطرة على سجلماسة، بعد سقوط تاهرت والصراع الأموي الفاطمي حول السيطرة على محطات تجارة الذهب وتبرئة بني هلال من الأزمة التي أصابت إفريقية نتيجة تحول طرق الذهب إلى الأندلس، وسيطرة صنهاجة الجنوب أي المرابطين على كل من سجلماسة وأودغست، المحطتين الرئيسيتين للتجارة الصحراوية وإلى زوال الاضطرابات مع قيام الدولة الموحدية التي تمكنت من توحيد بلاد المغرب سياسيا.

واستفدت أيضا بما كتبه M.Vonderheyden عن الصيد البحري في السواحل المغربية بالعصر الوسيط"La pêche maritime sur les côte barbaresques au moyen âge"حيث تطرقت فيه إلى تاريخ الصيد وأنواع الأسماك و وجود المرجان في خليج بجاية والعنبر في سواحل المحيط الأطلسي وسمك الحبار والشيخ اليهودي (عجل البحر) في سواحل المتوسط، وظروف الصيد هناك، وقابلية البربر لممارسة مهنة الصيد وطرق صيد الأسماك والمرجان والتن وصناعة التمليح وتصنيع المرجان وتصديره.

وما كتبهM.Solignac عن Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppe tunisiennes du VII e au XI e siècle (J.C) عبارة عن دراسة قيّمة حول وسائل تخزين الماء بمنطقة مُزاف(Byzacène) التي بُني فيها القيروان، فأوضح تقنيات تلك الوسائل التي تقوم دليلا على أن الأغالبة كانت لهم سياسة مائية خاصة.

وهناك كتب أخرى كثيرة، لا يسع المجال لذكرها هنا جميعا، استفدت منها، هي الأخرى في إثراء مادة بحثي في مختلف جوانبه؛ والملاحظ أن المراجع العربية لم تهتم إلاّ قليلا بهذا

المجال وأهمها كتاب " المغرب الإسلامي" الذي عالج فيه الحبيب الجنحاني الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرنين الثالث والرابع الهجريين/9-10م وأفادني ببعض المعلومات عن نهر سجلماسة وآبار أودغست ، وأسباب ازدهار اقتصاد المغرب في العصر الوسيط ومظاهر ذلك الازدهار وعن النقود المستعملة آنذاك.

وكتاب" النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري/ 12 م" لعز الدين أحمد موسى الذي عرض فيه مفهوم مصطلح المغرب وإشكالية حدوده الشرقية وحاول تحديد حدوده الشمالية وتعرض للحديث عن نظام الأدوية وتخزين المياه وإنجازات الموحدين في مجال تخزين المياه والرّي.وكتاب" تاريخ المغرب العربي" من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال" الذي تحدث فيه سعد زغلول عبد الحميد عن مفهوم مصطلح بلاد المغرب وحدودها الشرقية والجنوبية-الشرقية، والشمالية والتمييز بين الأحساء والآبار والآبار الأرتوازية.

وكتاب" تاريخ المغرب وحضارته، من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي" الذي سلّط فيه حسين مؤنس الضوء على حدود بلاد المغرب الشرقية وانتشار البربر في منطقة برقة إلى جانب اليونان في الفترة السابقة للفح الإسلامي وعلى الحدود الشمالية وتقديم وصف للجبّ.

الجديد في هذه الدراسة.

بفضل المادة التي وفرتها لي المصادر الجغرافية والتاريخية والفقهية والدراسات الأجنبية والعربية المذكورة تمكنت من إقامة بناء موضوع يبدو لي أنه جديد في معظم جوانبه بحيث لم يتم التطرق، في حدود معرفتي، إلى بعضها سوى جزئيا:

إذ لم أعثر على عمل مماثل لما قمت به في الباب الأول من رسمٍ لحدود المغرب، في نواحيها الشرقية والشمالية والجنوبية وهذا الرسم مهمّ جدًّا لأنه يشكل الإطار الجغرافي لكثير من الدراسات المغربية.

ومما لاحظته أن الدراسات التي أُنجزت حتى الآن في موضوع الباب الثاني الذي عالجت فيه" أشكال تواجد الماء على الطبيعة وحفظه وطرق استغلاله" اقْتَصَرَتْ على الاهتمام بالفجارات والمواجل والصهاريج وقنوات توصيل الماء وآلات الري وركزتْ اهتماماتها، بصفة

خاصة ، على منطقة القيروان، لا سيما في العهد الأغلبي، واعتَمَدَتْ إلى حدّ كبير على المخلفات الأثرية في تغطية الموضوع؛ والذي حَرصتُ على إضافته هنا هو توسيع تلك الدراسات إلى مستوى بلاد المغرب كلها، بالاعتماد على مصادر جغرافية قديمة وحديثة، وتنظيمها إلى خمسة فصول درست فيها نظام التساقط والأنهار والآبار والعيون، كلّ على حدة، إضافة إلى وسائل التخزين السابقة الذكر التي حاولت إكمال نقائصها.

وقد رأيت أن موضوع الموارد المائية وطرق استغلالها لا يكون كاملا إلاّ بتخصيص حيّز فيه للأسماك التي لا تعيش إلاّ فيها، وآخرَ للأملاح التي يعود فضل ترسّبها إليها، و لم أعثر في الموضوع الأول سوى على دراسة واحدة أنجزها Vonderheyden فأكملتها وقمت بنقد آراء كثيرة فيها.

أمّا الجديد في الحيّز المخصص للملح، أي الموضوع الثاني، فيتمثل في إلحاق الملاّحات الصحراوية ببلاد المغرب، أي إدخالها في إطار حدوده الجنوبية، و هو ما ينسجم مع الحدود المسطرة في الباب الأول، سواء تعلق الأمر بملاّحة أوليل أو إيجيل أو تانتال (تغازا) أو توتك أو غيرها مع الإشارة إلى أن دراسات كثيرة تعرضت لتلك الملاحات ولكن في إطار آخر، غير الإطار المغربي، بل إن دارسيها، وأغلبهم فرنسيون، ينسبونها إلى صحراء، لا علاقة لها ببلاد المغرب، صحراء يطلقون عليها أحيانا كثيرة تسمية الصحراء الفرنسية أو ينْسبونها إلى إفريقيا الغربية ويقصدون بها بلاد السودان الغربي.

الصعوبات التي واجهتني أثناء العمل

من الصعوبات التي اعترضت سبيلي، أثناء إنجاز هذا البحث، قلة المادة التاريخية: إذ أن المصادر المختلفة لم تزد، عندما تهتم بإحدى النقاط المكوّنة للموضوع، عن مجرّد إشارات عابرة يصعب الاعتماد عليها لبناء موضوع كامل.

والغريب في الأمر أن استغلال تلك الإشارات يكاد يقتصر على الدّارسين الأجانب الذين وجدوا المجال فسيحا لملء الفراغات المتروكة، بافتراضات كثيرا ما تُعوزُها الدقة والموضوعية، ومن ثمة يحتاج من يريد الاستفادة منها إلى كثير من الاحتراز كي لا ينساق بسهولة وراء ما قد يرتكبونه من أخطاء، عن قصد أو غير قصد.

كما أن المنشآت المائية مثل السواقي والمواجل، المذكورة في المصادر العربية، تحطم أغلبها وزال تماما، بحيث أصبح من الصعب تصوّرها بالدّقة المطلوبة، على الرغم من الأثريين تمكنوا من دراسة الكثير منها؛ ومن الصعب أيضا معرفة حجم التغيير أو مدى التطور الذي عرفته آلات الرّي، وما إذا كانت هناك فروق تُذكر بين آلاتنا "التقليدية" والآلات المذكورة في المصادر العربية، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن أدوات أو آلات الصيد البحري وطرق ممارسته وكذلك الأمر بالنسبة للطرق الصحراوية التي كانت القوافل تقطعها بين بلاد السودان وبين مناطق التلّ المغربية.

الشكر و العرفان

يطيب لي في نهاية المطاف أن أقدم جزيل الشكر والعرفان لأستاذي الفاضل،الدكتور موسى لقبال الذي تعب معي في إنجاز هذا العمل، و لم يبخل علي بنصائحه القيمة وتوجيهاته الرّشيدة، وأعترف أنني لو كنت استمعت إلى إرشاداته لناقشت عملي هذا منذ سنوات عديدة وأنا أتحمل مسؤولية ما حدث من تأخير كاملة.

وأشكر كذلك كلّ الذين ساعدوني، من قريب أو بعيد لبلوغ هذا الهدف والذين سيساعدونني من أعضاء لجنة المناقشة الموقرة بتوجيهاتهم المفيدة.

الموارد المائية و طرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين

الباب الأول

حدود بلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين

الفصل الأول: الحدود الشرقية لبلاد المغرب

الفصل الثاني: الحدود الشمالية لبلاد المغرب

الفصل الثالث: الحدود الجنوبية لبلاد المغرب

الباب الأول

الفصل الأول

الحــدود الشرقية لبـــلاد المغرب

التعريف ببلاد المغرب:

عندما فكّرت في علاج موضوع بحثي المتعلق بـ " الموارد المائية و طرق استغلالها في بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي، إلى سقوط دولة الموحدين، واجهتني مشكلة تحديد إطاره الجغرافي خلال الفترة المختارة و المحصورة " ما بين القرن السابع و الثالث عشر الميلاديين " و ذلك لأن هذا التحديد هو الذي يمكنني من تغطية موضوعي تغطية أفقية كاملة.

و أول ما بادر إلى ذهني من أفكار، في هذا الصدد، هو طرح إشكالية العلاقة بين مغرب تلك الفترة التاريخية، و مغرب اليوم الذي تشمله بلدان " اتحاد المغرب العربي ": و هي الجماهيرية الليبية و جمهورية تونس و الجمهورية الجزائرية، و المملكة المغربية و جمهورية موريطانيا بالإضافة إلى الصحراء الغربية التي لا نعرف بعد مصيرها السياسي.

و عند اطلاعي على المقالة التي كتبها G. Yver، عن المغرب في دائرة المعارف الإسلامية وجدته يستثني منه كلاّ من موريطانيا و الصحراء كما يطرح مشكل اختلاف المؤلفين العرب في ضبط حدوده الشرقية و يشير إلى أن بعضهم يلحق به الأندلس.[1]

فرحت أتوسع في القراءة حول الموضوع لغرض توضيحه أكثر، ففوجئت أنني بقدر ما كنت أقرأ بقدر ما كنت أتيه في أكثر: إذ لاحظت أن المصادر كانت تختلف كثيرا في تحديد إطاره و أن المراجع حدت حدوها، مما دفعني إلى المزيد من التعمق فيه أكثر ما يمكن، عساني أتوصل إلى إيجاد الحل المناسب لمشكلتي.

التعريف ببلاد المغرب عند بعض المؤرخين:

و قد تبين لي أثناء عملي أن هذا المشكل قد طرح على الكثير من الباحثين قبلي، بل إن هناك من توقف عنده فحاول إيجاد حلّ له و من هؤلاء، على سبيل المثال، لا الحصر، عزّ الدين أحمد موسى الذي يرى أن مفهوم المغرب " سياسي يختلف من عصر إلى آخر، و مغرب القرن السادس الهجري/ 12 م هو ما بسط الموحدون عليه سلطتهم السياسية في الأندلس و ما اصطلح على تسميته بالمغرب الأقصى و المغرب الأوسط و الأدنى، و لما فتح عبد المؤمن بن علي بلاد إفريقية دخلت طرابلس في طاعته، و يضيف ابن الأثير كما يقول، أن جبَل نفوسة أطاعه في الوقت نفسه... و عليه فطرابلس و جبل نفوسة يمثلان الحدود الشرقية للمغرب في القرن

1-أنظر Encyclopédie de L'Islam art. Maghreb, vol. III, p 113

السادس الهجري (12 م). " [1] و يجعل موسى " الصحراء خارج حدود مغرب القرن السادس الهجري ". [2]

و يُلاحظ أن حدود المغرب بالنسبة لهذا الطرح ليست قارة، مثل حدود البلدان الأخرى، بل يُكيّفها صاحبه، لَسْتُ أدري لماذا؟ مع الأوضاع السياسية، فهي مطاطة قابلة للتوسع و التقلص، و هي فكرة غريبة بطبيعة الحال.

و بالنسبة لسعد زغلول عبد الحميد، فإن كلمة المغرب تعرّف البلاد الواقعة غرب مصر تعريفا يشبه شيئا من الإبهام، و مع أن هذا الإبهام أخذ يتبدّد، مع مرور الوقت، بعد أن تعرّف العرب على البلاد بأقاليمها المختلفة، إلاّ أن مفهوم الكلمة، لم يتضح تماما حتى بعد نموّ و اكتمال علم الجغرافيا، و هي لا تشمل مصر و لا الأندلس. [3]

و لا ندري على أيّ أساس بنى زغلول رأيه القائل: إن بلاد المغرب " مصطلح يقصد به الكتاب العرب كل الأقاليم الواقعة غرب مصر و التي تشمل شمال القارة الإفريقية، و تتضمن حاليا: البلاد الليبية بولاياتها الثلاث (برقة و طرابلس و فزّان) و تونس و الجزائر بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان، أخيرا المغرب الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مرّاكش، نسبة إلى عاصمته الجنوبية و يمتد طبيعيا نحو الجنوب إلى السنغال و النيجر ". [4]

و زغلول، فيما كتبه هنا، لم يستثن أحداً من الكتاب العرب الذين يقول إنهم زوّدوه بهذه المعلومات المسجلة كما أنه لم يذكر أحدا منهم، مع العلم أن اختلافاتهم كثيرة حول هذا الموضوع و لا يوجد، من بين مصادر العصر الوسيط، من عبّر عن فكرة زغلول هذه؛ بوضوح فزغلول قام بقفزة من مغرب العصر الوسيط الذي يتميز بنوع من الغموض إلى مغرب العصر الحديث الذي صارت فيه الأمور واضحة و طبّق بكل بساطة، وضعية اليوم، على وضعية العصر الوسيط، مع عدم إشارته إلى دولة موريطانيا.

1- عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي، خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1403 هـ 1983 م، ص 44.

2- نفسه.

3- تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال، ج1، الاسكندرية 1995، ص 63.

4- نفس المرجع، ص 53.

و في مكان آخر يذهب زغلول إلى القول: إن اسم بلاد المغرب هو اسم الاتجاه الأصلي الذي يحدد مغرب الشمس، و هو مصطلح عام يعني البلاد الواقعة في اتجاه غـروب الشـمس، عكس البلاد الواقعة في اتجاه شروقها، و كان هذا الاتجاه، في بداية الأمر نسبة إلى بلاد العـرب، و بعد انتقال الخلافة إلى دمشق، تحوّلت النّسبة إلى بلاد الشام ثم إلى بلاد العراق، بعد انتقـال الخلافة إلى بغداد، و مفهوم المغرب هنا عام و شامل يعني التّصف الغربي للدولة الإسلامية، غـير أن العرب عندما استخدموا هذه الكلمة في عصر الفتوح الأولى، لم يكن لها هذا المعنى الشـامل، إذ أطلقوا على البلاد المتاخمة لشبه الجزيرة العربية أسماءها المعروفة: الشام و العراق و مصر؛ ممّـا يدفع إلى الاعتقاد بأن كلمتي المشرق و المغرب لم تستعملا، على نطاق كبير إلاّ بعـد توسـع الفتوح في بلدان ذات أسماء غريبة بالنسبة لهم، عندها ظهرت الحاجة إلى استعمال مصطلحـات سهلة التداول، و ذلك قبل ظهور الحاجة إلى التنظيم الدقيق، و قد ظلت كلمة المشرق لا تعـني أكثر من مفهومها اللّغوي، في حين اتخذت كلمة المغرب مفهوما جغرافيـا سياسـيا خاصـا. في ظروف يصعب تحديدها.[1]

و بالنسبة لحسين مؤنس فإن " بلاد المغرب " في " مجموعها قطر طويل مسـتعرض، أي أنه يمتد من الشرق إلى الغرب بطول ساحل البحر المتوسط، من المحيط الأطلسي الذي تطل عليه بلد المغرب، بساحل طويل، يبدأ عند طنجة في الشمال و لا ينتهي إلاّ عندما يعـرف بـالرأس الأخضر، على الساحل الغربي لإفريقيا، و عنده ينحرف الساحل الإفريقي انحرافا شـديداً إلى الجنوب الشرقي، و المسلمون يسمون نقطة الانحراف هذه باسم نـول أو نـول لمطـة..."[2] و يعتبرها " وحدة جغرافية مترامية الأطراف، و هي كذلك وحدة بشرية لأن سـكانها مـن حدود مصر إلى المحيط الأطلسي شعب واحد هو شعب البربر ".[3]

و يشير نفس المؤلف إلى أنه استعمل في دراسته للجناح الغربي لعالم الإسلام مصطلحين: أحدهما قديم و هو " المغرب " و يطلق على كل ما يلي مصر غربا من بلاد الشمال الإفـريقي

1- سعد زغلول:نفس المرجع، ص 62.

2- تاريخ المغرب و حضارته، من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، مج 1.ج 5، بـيروت ، لبنـان 1992/1412، ص 21؛ أنظر الخريطة رقم 1.

3- نفس المرجع، ص 17.

حتى المحيط الأطلسي، و بعض كتاب العرب مثل عليّ بن سعيد المغربي، صاحب كتاب " فلك الأرب، المحيط على لغة العرب " يُدخل مصر في بلاد المغرب... و لكن بقية المؤلفين العرب يدخلون مصر في المشرق (و هذا غير صحيح كما سنرى) و يبدأون بلاد المغرب من إقليم برقة الذي يعرف اليوم ببَنْغازي.(1)

أمّا المصطلح الثاني، فهو حديث ابتكره الفرنسيون فقالوا L'Occident musulman أي الغرب الإسلامي و قد تُرجم إلى لغات أوربية كثيرة، و يشمل ست وحدات جغرافية و تاريخية: - أولها بلاد المغرب المذكورة .

- ثانيها الأندلس.

- ثالثها: صقلية.

- رابعها:بقية جزائر الحوضين الأوسط و الغربي من البحر المتوسط و تدخل فيها جزائر البليار المعروفة عند المسلمين باسم الجزائر الشرقية، و ما فتحه و حكمه المسلمون لفترة صغيرة من بلاد غالة و جنوبي إيطاليا و جزيرتي سردينيا و قرسقة.

- خامسها: الصحراء الكبرى.

- سادسها: بلاد إفريقيا المدارية و الاستوائية التي دخلها الإسلام، غربي وادي النيل.(2)

و بالنسبة لـ .Lombard M فإن " الغرب الإسلامي الذي استقبل... التأثيرات الإسلامية: إفريقية و المغرب و صقلية و الأندلس (Espagne) يتكوّن ...من بلدان مختلفة "(3) كما أنه يجعل موقع " جزيرة المغرب، بين المشرق الإسلامي و بين الأندلس (إسبانيا الإسلامية) و كذلك بين الصحراء و السودان و بين البحر الأبيض المتوسط ".(4)

أي أن Lombard يفرق بين جزيرة المغرب و الغرب الإسلامي و بين إفريقية و المغرب و الصحراء.

و يقول J. Despois إن " شمال إفريقيا ينتهي عند بداية بلاد بساتين النخيل الجميلة

1- مؤنس: نفس المرجع، ص 17؛ أنظر الخريطة رقم 1.

2- نفس المرجع، ص 19؛ و يقابل مصطلح الجناح الغربي، مصطلح الجناح الشرقي من العراق شرقا: أمّا قلب عالم الإسلام، جغرافيا، فهو : جزيرة العرب و امتدادها إلى الشمال من الشام إلى جبال طوروس، و تدخل مصر و السودان في قلب عالم الإسلام (نفسه)

3- L'Islam dans sa Première grandeur (VIII^{e}- XI^{e} . S, Paris 1971, p 56.

4- Ibid, p 56.

(و يقصد بها الواحات الواقعة شمال الصحراء الكبرى) فهي تبدو، في نهاية المطاف كمنطقة جوار (Jux- taposition) بين أرض متوسطيّة متنوعة... حيث يمكن الاستقرار و ممارسة الزراعة، من جهة و بين أرض الإستبس، و هي مدخل للصحراء، و مكرّسة مثلها لحياة رعوية متنقلة تقريبا...".[1]

و يقصد J. Despois بلفظ " شمال إفريقيا " المغرب بطبيعة الحال، فكلمة المغرب كثيرا ما ترادف، عند المؤرخين الفرنسيّين، كلمة شمال إفريقيا أو إفريقيا الشمالية.

و هذا ما يتضح، على سبيل المثال، من أحد تعابير E.F. Gautier " من خلال الصحراء الغربية، الصحراء الفرنسية، يتصل بيض المغرب بإفريقيا السوداء "[2] و هو هنا يفصل بين المغرب أو شمال إفريقيا و بين الصحراء، مثله في ذلك مثل B. Rosenberg الذي نَقَلَ نصًّا عن Mauny R. جاء فيه " أن النحاس الكثير الاستعمال، بإفريقيا السوداء يأتي من المناجم الواقعة شمالا، بعضها في الصحراء... و البعض الآخر في إفريقيا الشمالية..."[3] أي أن Mauny R. هنا يفصل الصحراء عن إفريقيا الشمالية أو المغرب و B. Rosenberg نقل عنه بدون تعليق أو تحفظ فهو إذا يوافقه في الرأي.

بل أكثر من ذلك فإن gautier راح يدّعي أن هذه البلاد التي توحدها بنيتها و مناخها و إنسانيتها لم يكن لها اسم في الماضي، لأنها لم تعرف، في نظره، أية وحدة سياسية، و نحن كما يقول، نشير إليها بشمال إفريقيا الفرنسية (و يعني بها مستعمرات بلاده الثلاث: الجزائر و تونس و مرّاكش (أي المغرب الأقصى) في حين كان آباؤنا (الفرنسيون) يسمونها البلدان البربرية (Pays Barbaresques) لأن هُويّة سكانها كانت من جنس البربر، و هي المغرب عند العرب.[4]

و لا يأخذ Gautier بعين الاعتبار هنا ليبيا التي كانت تابعة آنذاك للاستعمار الإيطالي و الصحراء الغربية التي كانت تابعة للاستعمار الإسباني و موريطانية التي يصنفها الغربيون،

1- L'Afrique blanche, T .1, L'Afrique du Nord , presses Universitaires de France 1964, p p .107-108.

2- L'Afrique blanche, Paris 1939, p 345.

3- Les Vieilles exploitations miniéres et les centres métallurgiques du Maroc (2e Partie), Revue de Géographie du Maroc, no 18, 1970, p 77.

4- L'Afrique blanche, p. 150.

عادة، ضمن إفريقيا الغربية و المدارية.

و من خلال هذا العرض الوجيز للدّراسات التي حاولَتْ أن تضع إطارا لبلاد المغــــرب يتبين أنها لا تنسجم مع بعضها البعض و أن معظمها يَستخدم هذا المصطلح استخداما عشوائيا، لا تستند فيه على المصادر اللازمة و أن الموضوع يحتاج إلى بحث علميّ....

الحدود الشمالية الشرقية لبلاد المغرب، حسب المصادر العربية:

سأحاول إنجاز هذا العمل انطلاقا من رأي G. Yver القائل بأن المؤرخين يتفقون فيمـــا بينهم حول ضبط حدود بلاد المغرب " الشمالية و الغربية و الجنوبية "[1] ملاحظا أنه إذا كـــان رأيه هذا يحتاج إلى نقاش، فهو و لا شك محق في قوله بأنهم اختلفوا في تحديدها مـــن الناحيـــة الشرقية.[2] و هذا ما يفرض علينا العودة إلى المصادر الأولى التي تناولت الحديـــث عـــن هـــذا الموضوع و دراستها دراسة متأنّية يكون الغرض منها التوصل في النهاية إلى رسم حدود بـــلاد المغرب من الناحية الشرقية رسما مبنيا على أسس موضوعية قدر الإمكان.

فلفظ المغرب يعتبر اسما إضافيا " يدل على مكان من الأمكنة، بإضافَتـــه إلى المشـــرق و لفظ المشرق كذلك بإضافته إلى جهة المغرب "[3]، و قـــد تحـــدث عنـــه ابـــن خرداذبـــه (ت. حوالي 272 هـــ / 885 م) و ذكر المسافات الفاصلة بين مختلف المراحل في " الطريق مـــن الفسطاط إلى المغرب "[4] ثم في " الطريق من برقة إلى المغرب "[5] دون أن يشـــير إلى الحـــدود الفاصلة بين مصر و المغرب أو بين برقة و المغرب، و كل ما يمكن استخلاصه، عند تأمّل هذين العنوانين أن صاحبهما يستخدم تسمية المغرب بمعنى الاتجاه الغربي ، و من هنا فهو ليس بحاجـــة إلى وضع أيّة حدود له.و عند دراسة عنوان " المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب " و هـــو جزء من كتاب المسالك و الممالك الذي ألفه أبو عبيد البكري (ت 487 هـــ/ 1094 م) نراه

1- أنظر E.I, Vol.III, art . Maghrib , p.113 .

2- نفسه.

3- ابن خلدون (ت 808 هـــ/ 1406 م).كتاب العبر، طبعة دار الكتاب اللبناني 1959، المجلد السادس، ص 193.

4- Ibn Khurra dàdhbih dans Description du Maghreb et de L'Europe au III^e / IX^e siecle, extrait du Kitab al Masàlik Wa'l – mamàlik », Texte arabe et Trad. Fr. Par Hadj – Sadok Mohammed, Alger 1949, pp 2-3.

5- نفس المصدر، ص 4-5.

يتضمن " المشهور من المدن و القرى في الطريق من مصر إلى برقة و المغرب "[1]. بدءا من ترنوط، و هي قرية جامعة على النيل [2] إلى ما يقع منها، أي على المدن و القرى، على سواحل المحيط الأطلسي، بما في ذلك " بلاد السودان و مدنها المشهورة و اتصال بعضها ببعض و المسافات بينها ".[3]

و أثناء علاج البكري لهذا الموضوع لم يحاول أن يشير إلى أي حدّ فاصل بين مصر و المغرب، و يمكن التساؤل فيما إذا كان تعبيره " من مصر إلى برقة و المغرب " مدروسا؟ و في حالة ما إذا كان كذلك، فهل كان يعتبر برقه مستقلة عن المغرب أم تابعة له؟. لأن الأمر يختلف، فقد يكون قصده به: من مصر إلى برقه و سائر بلاد المغرب، و في هذه الحالة يكون قد اعتبر برقه جزءا من المغرب.

فتكون بالتالي أوّل أجزائه الشرقية، و يكون معنى مصطلح المغرب: الأراضي التي تشمل برقة و المناطق الواقعة إلى الغرب منها.

و قد يكون قصده بنفس التعبير " من مصر إلى برقة و المغرب " معنًى آخر هو: برقة زائد المغرب، و في هذه الحالة يكون قصده الناحية أو الاتجاه الغربي، و بطبيعة الحال لا تدخل فيه برقة من الناحية الشرقية.

و من الرّاجح أن يكون البكري أطلق لفظ المغرب هنا بمعنى الاتجاه الغربي مثله في ذلك مثل ابن خُردَاذبة قبله.

و بالنسبة لابن خلدون فإن " المغرب قطر واحد مميّز بين الأقطار "[4]، و هو يمتدّ شرقا، حسب بعض الجغرافيين، كما يقول، إلى " بحر أهل القِلْزَم (البحر الأحمر)... و يدخُل فيه إقليم مصر و برقة "[5] و نلاحظ أنه حتى في هذه الحالة فإن ابن خلدون يميّز بين إقليمي مصر و برقة.

1- المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك، ط البارون دوسلان، الجزئر 1857، ص 2؛ عن موقع برقة أنظر الخريطة رقم 1.

2- المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك، ط البارون دوسلان، الجزئر 1857، ص 2.

3- نفس المصدر، ص 172.

4-المصدر السابق، مجلد 6، ص 193؛ أنظر Hist. Des Berberes et des dynasties musulmanes de L'Afr. Sept. Traduit de l'Arabe Par Le Baron de Slane, Paris, 1978, p 193.

5- نفس المصدر، ص 200؛ Ibid, p 201

و في مكان آخر يذكر أن البحر الرومي (الأبيض المتوسط) يخرج من البحر المحيط (الأطلسي)... ثم يذهب مشرقا... و عليه من جهة الجنوب سواحل المغرب، أولها طنجة، عند الخليج (مضيق جبل طارق) ثم إفريقية ثم برقة إلى الإسكندرية "[1]، و هنا يفصح ابن خلدون، على ما يبدو، عن قناعته بانتهاء حدود المغرب شرقا، بعد " كورة " برقة، عند الإسكندرية، دون إضافة إقليم مصر إليه، و هذا ما ينبغي تسجيله عن ابن خلدون؛ و أما ما أورده بعض الجغرافيين من امتداد حدود المغرب شرقا إلى بحر أهل القِلزم، فيبدو جليا أنه فعل ذلك لاطلاع الناس على هذا الرأي فقط، دون أن يُبدِي أي شيء يدُلّ على أنه اقتنع به، و هذا عكس ما يفهمه القارئ من تعبير عزّ الدين أحمد موسى عن نفس هذه الفكرة، حيث يذكر أن ابن خلدون يقول: " إن الحدّ (حدّ المغرب) في عرف أهل الجغرافية هو بحر القِلزم "[2] في حين أن تعبير ابن خلدون يختلف عن ذلك تماما. بل أكثر من ذلك فإن ابن خلدون، في مكان آخر يضع حدود المغرب من الناحية الشرقية عند طرابلس[3]؛ و في قوله بإن بعض الجغرافيين " يدخل فيه (أي المغرب) مصر و برقة " إشارة واضحة عن عدم موافقته على ذلك، لما سيأتي ذكره.

و هناك من يجعل نهاية حدود المغرب من الناحية الشرقية، عند مدينة مليانة، حيث تنتهي حدود إفريقية من الناحية الغربية [4] بمعنى أن المناطق الواقعة إلى الشرق من مليانة، و هي إفريقية و برقة، حسب هذا التحديد لا تدخل ضمن إطار المغرب.[5]

و الملاحظ أن المعلومات التي زوّدنا بها ابن خلدون تتفق، في مضمونها، مع ما قدّمها لنا ابن عذاري المراكشي قبله حيث أورد عن أبي مروان " في كتاب " المقياس " و ابن حَمَّدُو، في كتاب " القبس " و غيرهما من المؤرخين لأخباره (المغرب)... أن حدّ المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية... إلى آخر بلاد المغرب " [6] ثم يضيف ابن عذاري في مكان آخر ما قاله

1- ابن خلدون (عبد الرحمان): مقدّمة، ط. المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ص 45-46.

2- عزّ الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص 37.

3- ابن خلدون: العبر، جـ.6، ص 201.

4- ياقوت الحموي: معجم البلدان، نشر أحمد الشنقيطي سنة 1323 هـ/ 1906 م، مجلد 8، ص 103.

5- يربط عزّ الدين أحمد موسى ظهور هذا التعريف الجديد للمغرب ببسط المرابطين سلطانهم، من تلمسان إلى المحيط الأطلسي، و من الصحراء الإفريقية إلى جبال الشارات الأندلسية و يقول بأنه يقتصر على حدود الدولة المرابطية (المرجع السابق، ص 38).

6- البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق و مراجعة ج. س كولان و إ. ليفي بروفانسال، بيروت، جـ 1، ص 5.

" ابن حَمَادُه الذي نقل عنه معلوماته (من) أن حدّ المغرب من بَحْر القِلزم "[1].

و من خلال هذه المعلومات يتضح أن ابن عذاري يريد أن يقول لنا: أن كل المصـــادر التي اطلع عليها، تتفق فيما بينها على جعل حدود المغرب الشرقية تبدأ " عنـــد ضفّـــة النيـــل بالإسكندرية " لكن كتاب " القبس " الذي يتفق معها هنا ينفرد في جعل تلك الحدود تمتـدّ إلى بحر القِلزم في مكان آخر.

و يذكر أبو حميد الأندلسي أن المغرب يشمل الاسكندرية، أي أنه ينتهي بشـــرقها [2] و يستثني منه بذلك أنحاء مصر الواقعة شرق الإسكندرية في حين يجعل ابن حوقل " حدّه مـــن مصر: الإسكندرية على النيل (شمالا) و أرض الصعيد، حتى يمضي على ظهر الواحات إلى بريّة تنتهي إلى أرض النوبة (جنوبا) "[3]، و الملاحظ أن تعبير ابن حوقل ينقصه كثير من الدقة؛ أمّـا ابن عذاري المراكشي، فقد زوّدنا مرّة بمعلومات في هذا الموضوع من كتاب القبس تفيـد " أن حدّ بلاد المغرب من ضفّة النيل بالإسكندرية التي تلي بلاد المغـــرب "[4] أي أن الإســكندرية بصريح العبارة، لا تدخل في المغرب، و مرّة أخــرى زوّدنـا بمعلومـات وردت في كتـاب " المقباس " لابن حَمادُه مضمونها " و صار المغرب كالجزيرة، داخل فيه بعض أعمـال مصـر و إفريقية كلها و ... ".[5]

و مما يلفت الانتباه في تعبير النص الأخير القفز مـن " بعـض أعمـال مصـر " إلى " إفريقية " دون الإشارة إلى برقة الواقعة بينهما. فلماذا لم يذكر برقة ؟

أهو مجرّد سهو، أم أن التعبير مقصود؟

فإذا كان التعبير مقصودا، فذلك لأنه اعتبرها إمّا لأنها تابعة لـ " بعض أعمال مصـر " و إمّا لأنها تابعة لإفريقية آنذاك و تعبير " إفريقية كلها " يرجّح هذا الافتراض الأخير أي بما فيها برقة، و هذا ينسجم تماما مع تعريف عبد الواحد المراكشي لإفريقية.

2- البيان المغرب، جـ.1، ص 6.

2- أنظر Abou Hamid Andalosi, dans Extraits relatifs au Maghreb, traduit Par E. Fagnan, Alger 1924, p 35.

3- صورة الأرض، ط الثانية، أبريل. 1967، ص 60، الترجمة الفرنسية G. Wiet et J.H. Kramers ج. 1، ص 57 ؛ أنظر الخريطة رقم 1-2 .

4- المصدر السابق، جـ 1، ص 5.

5- نفس المصدر، ص 5-6.

و يرسم أغلب المؤرخين و الجغرافيين الحدود الشـــرقية للمغـــرب مـــا بـــين برقـــة و الاسكندرية، و من هؤلاء الاصطخري (ت بعد 340 هـ/ 951 م) الذي يحدها " بـــين الإسكندرية و برقة، من حدّ بحر الروم (الأبيض المتوسط) حتى يمضي على ظهر الواحـات إلى بريّة تنتهي إلى أرض النوبة "[1]، أي أنّه يبيّن حدود المغرب بخط عمودي تقريبا، يصعـد مـن أرض النوبة، خلف منطقة الواحات، في ناحية جنوبه الشرقي لينتهي في الضفة الجنوبية للبحـر الأبيض المتوسط، بين الإسكندرية و برقة في شماله الشرقي.

و هذا يتماشى مع رأي المقدّسي (ت . حوالي 375 هـ / 985 م) الذي زار المغـرب على ما يبدو [2] و جعل أوّل كُوَرِه ، " من قبل مصر برقة " مشيرا إلى أن اسمها يطلق كذلـك على اسم القصبة [3] ، و يعتبر حسين مؤنس إقليمها المسمى اليوم بنغـازى امتـداداً طبيعيـا لصحراء مصر الغربية [4] مما يحتاج، بطبيعة الحال، إلى إقامة دليل علميّ، و إلاّ تبقـى العمليـة العكسية، أي اعتبار صحراء مصر الغربية امتداداً طبيعيا لإقليم الصحراء الليبية، ممكنة، خاصـة و أن اسم الصحراء الليبية (المغربية) هو الذي عُمّم، منذ القديم، على كـامل المنطقـة، أمّـا الزهري (عاش في غرناطة حوالي 532 هـ/ 1137 م) فيدقّق أكثر في هذا الموضوع بجعلـه أوّل بلاد المغرب من جهة المشرق جبال برقه و جبال أوثان [5] " و هذه الجبال على آخر عمل مصر و أوّل عمل القيروان "[6]، فالقيروان هنا كما هو واضح يرادف مصطلح المغـرب و يبيّـن أن كورة برقة تابعة له.

و يقدر الشريف الإدريسي (ت. حوالي 550 هـ/ 1160 م) المسـافة بـين برقـة و الاسكندرية، بإحدى و عشرين مرحلة " و هي من الأميال خمسمائة ميل و خمسون ميلا،

1- كتاب مسالك الممالك، ط ليدن، 1967، ص 38.

2- يستنتج ذلك من قوله: و قد جعلنا المغرب مع الأندلس كهيطل و خرسان، غير أنّا لم ندْخل الأندلس فنوكوّرها؛ فأوّل كورة من قبل مصر برقه ثم الاسكندرية...(Al – Muqaddasi ; description de L'Occident musulman au IV e Xe Siècle, Texte Arabe et Trad. française, Par Charles Pellat, Alger 1950, p p 4-5).

3- نفسه.

4- المرجع السابق، ج1. ص 27.

5- كتاب الجغرافية، حققه محمد حاج صادق، نشره المعهد الفرنسي بدمشق في Bulletin D'Etudes Orientales, T.XXI , 1968, p 106. ؛ أنظر الخريطة رقم 1.

6- نفسه.

و الأرض التي بينهما يقال لها أرض برنيق "[1] و يبدو من خـــــلال اقتفاء أثر المعلومات التي أوردها الإدريسي أن برنيق عبارة عن ميناء أو مدينة تقع على نصف مجرى (يوم) من قصـــر قافز،و على مجرى واحد من الأربعة بروج، و تطلق هذه التسمية أيضا على أرض بوسطها قصر قافز، و هو يقع على بعد أكثر من أربعة مراحل من قصر طلميثه أو طليمشة المعروف، عنـــد سفح الجبل الأخضر[2] (أوثان).

و إلى أرض برنيق هذه تمتدّ، حسب ابن خلدون (ت 808 هـ/ 1406 م) جبـــال درن أي الأطلس[3]، و هي تنتهي حسب الإدريسي، عند البحر حيث الطرف (الرأس) المســـمّى أوثان "[4].

و المقصود بهذه الجبال طبعا هي سلسلة الأطلس الصحراوي التي يتوقف امتدادها عندما يعرف اليوم بينغازي.[5]

و الذي يمكن استخلاصه من المقارنة بين كلام كل من الزهري و الإدريســـي و ابـــن خلدون أن منطقة الحدود بين مصر و المغرب، أو بين الإسكندرية و برقة، هي واحدة و تتمثـل في جبال أوثان أو جبال برقة الواقعة بأرض برنيق، و بالضبط فيما يعرف اليوم بِبَنْغازي، حيـث يتوقف امتداد سلسلة الأطلس الصحراوي.

و يذهب سعد زغلول عبد الحميد إلى القول، مثلهُ مثل حسين مؤنس و عز الدين أحمـد موسى، إن الحدود غير واضحة، بين مصر و بين إقليم برقة و هذا، في نظره " طبيعي، فـــأرض برقه امتداد طبيعي لأرض مصر نحو الغرب دون ما حدود و لا فواصل طبيعية، اللـــهم تلـك العقبات الصغيرة الموجودة في الصحراء، و أهمها عقبتان في الطريق الساحلي: إحداهما عنـــد

1- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب المشتاق، تحقيق إسماعيل العـــربي، الجزائــر 1903، ص 212؛ حسب يبدو على الخريطة التي رسمها E. Demougeot في « Le chameau et l'Afrique du Nord romaine, Annales E.S.C., 1960, n° 2, pp 232-233. »
فإن برنيق هي نفسها بن غازي و تقع غرب مدينة برقة (أنظر الخريطة رقم 10).

2- الإدريسي: نفس المصدر، ص 215 فما بعدها؛ أنظر الخريطة رقم 1.

3- العبر، ج6، ص 198؛ الترجمه الفرنسية: Op. Cit, T 1, P 191.

4- الإدريسي: المصدر السابق، ص 132.

5- أنظر Mac. Guckin de Slane dans description de l'Afrique septentrionale, paris 1965, p. 17, Note 3.

مرسى مطروح الحالية و تعرف بالعقبة الصُّغرى، و الأخرى عند السلوم و تعرف بالعقبة الكبرى "[1]، و لا ندري لماذا لم يأخذ زغلول بعين الاعتبار تعيين الزهري، على سبيل المثال، للحدّ الفاصل بين المشرق و المغرب، ألم يطلع عليه؟

و عن الناحية الجنوبية من تلك المنطقة يتحدث زغلول عن تداخل صحراء مصر و صحراء المغرب و انتشار الواحات بها، بحيث لا توجد تفرقة بين واحات مصر و واحات المغرب الكبرى، و قد أطلق، في رأيه، الجغرافيون المحدثون اسم الصحراء الليبية على صحراء مصر و ليبيا معا.[2]

و يعتبر عبد الواحد المراكشي في كتابه: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (كُتب سنة 621 هـ/ 1224-1225م) آخر حدّ البلاد المصرية مما يلي المغرب " مدينة أنطابلس، المعروفة ببرقة... و أوّل حدّ بلاد إفريقية و المغرب مدينة أنطابلس ..."[3] أيضا، كما يرسم حدّ مصر " في الطول ثغر أسوان إلى مدينة رشيد "[4] على الساحل المتوسطي، و يُلاحَظ هنا أن عبد المراكشي هو الوحيد، من بين أصحاب المصادر المستخدمة حتى الآن، الذي ضبط حدود المغرب و إفريقية، الشمالية، بمدينة " برقه و ليس بعمل أو بكورة أو ولاية برقة، كما فعل الذين سبقوه، و إفريقية بالنسبة إليه عبارة عن الجزء المحصور بين " مدينة أنطابلس...، و ... مدينة قسنطينة الهواء " [5] أي الجزء الشرقي من بلاد المغرب.

مع العلم أن المؤرخين و الجغرافيين يختلفون كثيرا في تحديد إطار إفريقية هي الأخرى: فابن أبي دينار القيرواني يجعل " حدود المغرب من سيب بحر النيل بالمشرق إلى ساحل البحر المحيط (الأطلسي) من ناحية المغرب و حدّ إفريقية من برقة إلى طنجة "[6] أي أن إفريقية بالنسبة

1- سعد زغلول، عبد الحميد: المرجع السابق، ج.1، ص 64.

2- سعد زغلول، عبد الحميد: المرجع السابق، ج.1، ص 64؛ مع العلم أن اسم الصحراء الليبية ليس حديثا، كما يذكر زغلول هنا.

3- تحقيق محمد سعيد العريان، و محمد العربي العلمي، القاهرة 1368 هـ/ 1949 م، ص 347؛ الترجمة الفرنسية. E. Fagnan R. africaine no 209, 1893, p 225.

4- نفسه؛ I.d.

5- نفس المصدر، ص 349؛ و من الواضح أن عبد الواحد المراكشي يُدخل إفريقية في إطار المغرب و هي تمثل جزأه الشرقي، و ليس كما ورد في تعليق محققي كتابه: بأنه " يعني ببلاد إفريقية، ما يشمل المغرب الأدنى و إقليم تونس إلى مدينة قسنطينة، و ما يلي ذلك غربا فهو المغرب في اعتباره " (أنظر نفس المصدر، ص 247، هامش 1).

6- المؤنس في أخبار إفريقية و تونس، تحقيق و تعليق محمد شمام، تونس، ص 20.

إليه ترادف بلاد المغرب تقريبا.

و يجعل البكري (ت 1094/487) حدّ إفريقية مطابقا لإطار المغرب عند غيره و يحصر حدودها من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا "[1] و يتفق معه في ذلك صاحب كتاب الاستبصار[2] (انتهى من تأليف كتابه سنة 587 أو 588 هـ/ 1191 أو 1193م) لكن الجغرافيّين المذكورَيْن لم يبينا ما إذا كان الأمر متعلقا ببرقة المدينة، القصبة أم بالكورة.

أما إطار المغرب، عند البكري، فيتجاوز ذلك ليشمل بلاد السودان، و هو ما يُستنتج ذلك من عنوان كتابه " المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب " [3] حيث وصف فيه إفريقية " من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا... و من البحر (شمالا) إلى الرمال (الصحراء، جنوبا) ثم وصف فيه بلاد السودان بعد ذلك؛ و كثيرا ما كان يطلق تسمية المغرب على الاتجاه الغربي، و هو ما يستنتج، على سبيل المثال، من اسم عنوانه الفرعي " المشهور من المدن و القرى في الطريق من مصر إلى برقة و المغرب "[4]؛ و كذا " ذكر مدينة تلمسان و ما والاها إلى المغرب "[5].

و قد رسم الحسن الوزّان (ت . 1552م) خط حدود إفريقية الشرقية، مع نهر النيل، انطلاقا من روافد بحيرة Gaoga جنوبا، إلى مصب النّهر المذكور في البحر الأبيض المتوسط، شمالا[6]، حيث يجعل من جبل Meiies الواقع خلف رأس (La Pointe) الأطلس، على بعد حوالي 300 ميل من الاسكندرية حدًّا فاصلا، من ناحيتها الشمالية الشرقية، و أطلق عليها تسمية " بلاد البربر "[7].

و عند مقارنة كلام الوزان بكلام من سبقه من الجغرافيين، يتضح لنا أن ما يطلق عليه تسمية جبل Meiies يوافق تقريبا، ما عُرف عند غيره، بجبال أوثان أو جبال برقة، و هي التي

1- المصدر السابق، ص 21؛ الترجمة الفرنسية لـ Ma Guckin de Slane: op.cit, p 49.

2- أنظر E.Fagnan : L'Afrique septenfrionale au XIIe Siécle de notre ére, description extraite du Kitab el istibçar, Constantine 1900, p 6.

3- نشره Le Baron de Slane , Alger 1857

4- المصدر السابق، ص 2.

5- نفس المصدر، ص 86.

6-أنظر Jean Léon L'Africain : Description de L'Afrique, N[elle] ed, Traduit de L'italien Par Epaulard et annoté Par A. Epaulard, Th. Monod, H Lothe et R. Mauny, Paris 1980, p .3.

7- نفس المصدر، ص 3.

حدّد الادريسي قبله بُعدها عن الاسكندرية، بـــ 246 ميلا، و هي مسافة لا تختلف كثيرا عـــن 300 ميل التي قدّرها الوزان؛ أمّا بحيرة Gaoga التي يجعل منها حدًّا فاصلا للمغرب من ناحيـــة جنوبه الشرقي فهي غير معروفة.[1]

الحدود الشرقية لبلاد المغرب بناء على العامل الديموغرافي:

و قد طرح ابن خلدون (ت 808 هــ/ 1406م) إشكالية هامة جـــدًّا، لا شـــك و أن علاجها، سيساهم إلى حدّ كبير، في تحديد إطار بلاد المغرب، و مضمون تلك الإشكالية هـــو: أن العُرف الجاري بين سكان المنطقة لا يُدخل إقليم برقة ضمن المغرب الذي " يختص بطرابلس و ما وراءها إلى جهة المغرب... و هذا الذي كان في القديم ديار البربر و مواطنـــهم "[2] فـــابن خلدون هنا نبهنا إلى القاعدة الهامة التي يتم على أساسها وضع حدود بلاد المغرب و هي أَخْـــذُ الناحية الديموغرافية بعين الاعتبار مما يدفعنا إلى البحث في موضوع " ديار البربر و مواطنـــهم " في القديم و هو ما سيساعد كثيرا على وضع إطار لبلدهم المغرب.

و قد تصرّف عزّ الدين أحمد موسى في تعبير ابن خلدون تصرفا غيَّرَ تماما ما يريد ابـــن خلدون قوله، حيث يقول موسى " و منهم (الجغرافيون) من نظـــر إلى الـــتركيب البشـــري (كأساس لتعريف المغرب) فالمغرب عند هذا الفريق هو ما كان " في القـــديم ديـــار الـــبربر و مواطنهم "، و وفق هذه النظرة فالمغرب يمتد من طرابلس إلى البحر المحيط، و يخرج الأندلـــس منه "[3] و الواضح من كلام ابن خلدون أن أصحاب هذه النظرة هم " سكان هذه المنطقـــة " و ليس الجغرافيون، انطلاقا من أن أولئك السكان كانوا يعتقدون، وقت ابن خلدون، في نهايـــة القرن 9 هــ/14 م، أن منطقتهم كانت " في القديم ديار البربر و مواطنهم " و بمعنى آخر فـــإن تلك الديار و المواطن لم تكن تمتد خارج حدود طرابلس الشرقية في نظرهم.

و لكن الجغرافيين و كذلك المؤرخين لم يكن يخفى عليهم أن ديار البربر قديما كـــانت تمتد إلى ما وراء كورة طرابلس بكثير، في النواحي الشرقية، و لم يكن هذا الأمر خفيا أيضا على ابن خلدون بالذات.

1- J. léon l'Africaine: op.cit. p.3, note 6.

2- المصدر السابق، جــ6، ص 206.

3- المرجع السابق، ص 38.

و لا نرى أية علاقة لكلام ابن خلدون بما يضيفه موسى من أن إخراج الأندلس من المغرب تم وفق هذه النظرة و تعليل ما أورده ابن خلدون بتقلص المغرب في عصره حتى أنه لم يبق منه، كما يقول من " جناحه الأندلسي سوى قطعة أرض صغيرة، هي مملكة غرناطة، و بمعنى آخر، لم يبق من المغرب إلاّ موطن المغرب القديم تقريبا "[1] و نتسائل: من أين جاء موسى بكلام كهذا؟

و مهما كان رأي موسى، فإن الفكرة التي طرحها ابن خلدون هي: تحديد العلاقة بين " ديار البربر و مواطنهم " و بين بلاد المغرب، فإذا أخذنا بعين الاعتبار قاعدة (عُرف) سكان " المنطقة " بأن المغرب هو ماكان " في القديم ديار البربر و مواطنهم " فهذا يؤدي إلى فتح مسلك جديد أمام الباحث، يمكنه إذا ما اتبعه، من تدعيم نتائج بحثه: و يتعلق الأمر بتحديد الرقعة الجغرافية التي كان البربر ينتشرون فيها خلال الفترة المدروسة هنا.

و المعروف تاريخيا أن برقه (Cyrénaique)، كانت تابعة، منذ فجر التاريخ، للإغريق و في عهد الإمبراطورية الفرعونية الثانية(Second Empire)، حوالي 1200 ق م، ظهرت على حدود مصر الغربية شعوب البحر، و كانوا بدون شك، إغريقا، و قد حدّدت الوثائق المصريّة مواقعهم، بمراقية.[2]

و قد أطلق قدماء المصريين، حسب .Gostynski T، اسم اللّيبُو على السكان المجاورين لإقليم برقة الحالي، غرب دلتا النيل، و منذ الأسْرة الفرعونية التاسع عشرة في عهد مرنيبتة (Mernépta)و رمسيس الثالث تعرضت مصر سنة 1080 ق.م لغزو شعوب البحر الذي قامت به قبائل هندو – أوربية لكن مصر تمكنت من طردها ؟إلى المناطق الواقعة غرب دلتا النيل، حيث كان ينتشر جنس الليبو الأسود فاختلطت به، و هؤلاء البيض في رأي نفس المؤلف هم أوّل من عمّر أرض المنطقة المسماة ليبيا، و هم أيضا البربر الأوائل(Proto – Berbéres)[3].

و يعتبر المؤرخون، حسب حسين مؤنس، إقليم برقة " من مواطن القبائل الليبية القديمة التي طال الصراع بينها و بين فراعنة مصر، و هم معروفون في النصوص المصرية باسم التّحنُو،

1- المرجع السابق، ص 38.

2- يعتبرها E.F.gautier برقة الشرقية (أنظر L'Afrique blanche, p 114)؛ أنظر الخريطة رقم "2".

3- أنظر La Libye Antique et Ses Relations Avec L'Egypte, Bulletin de L'I.F.A.N, T. 37, Serie B, no 3, 1975, p 491.

و هم فرع من البربر...... و قد اختلطت بالبربر هنا جماعات من المهاجرين اليونان و جزائـــــر البحر، و هؤلاء هم الذين أعطوا الإقليم أوّل اسم تاريخي له، و هو بنطابلس، و هو تحريــــــف بنتا بوليس أي المدن الخمس... مثل برنيق (بنغازي، اليوم) و طلميثه "[1].

و استمرت تبعية برقة إلى الإغريق حتى الفتوحات الإسلامية، و كان المعمرون منـــــهم يقطنون المدن، دون الأرياف، على ما يبدو، و منذ عهد السيفيريّين (Les Sévères) أدّى التأزم في العلاقات، بكامل أنحاء الإمبراطورية، بين سكان الأرياف و سكان المدن، إلى تدهور أحـوال هذه الأخيرة، و كان ذلك التدهور ببرقة، على حساب الإغريق، لأن الفلاحين كانوا بربــــرا، و في نفس ذلك الوقت تقريبا، تغيّرت ظروف البربر بدخول الجمل إلى بلادهم بدءا ببرقة[2].

و يشكل إقليم برقة إلى جانب إقليم طرابلس منطقة صحراوية في الطرف الشرقي لبـلاد المغرب[3] و لا يجد E . F. gautier مبررا للعرب، الذين ألحقوها بالمغرب، سوى العنصر العرقـي: إذ هي بلاد للبربر (Barbarèsque)، كما يقول، و سكانها، و إن تعربوا، هم، في الواقـــع مـــن جنس البربر، و اللهجة البربرية تظهر فجأة بواحة سيوة و هذا الانتساب العرقي الأكيد، هـــو الرابط الوحيد تقريبا بين ليبيا الحالية و بقية المغرب[4] في حين أن حسين مؤنس يعتـــبر بـــلاد المغرب" وحدة جغرافية مترامية الأطراف، و هي كذلك وحدة بشرية، لأن سكانها من حـدود مصر إلى المحيط الأطلسي شعب واحد هو شعب البربر " [5].

و ممن أفادنا في هذا الموضوع، بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ابـــن عبـــد الحكـــم (ت .257 هـــ/ 871 م) فهو أقدم من تحدث عن هجرة البربر من فلسطين، و ذكر أن مسيرهم انتهت إلى " لوبيه و مراقية، و هما كورتان من كور مصر الغربية... فتفرّقوا هنالك، فتقدّمـــت زنانة و مغيلة إلى المغرب أو سكنوا الجبال و تقدّمت لوّاتة فسكنت أرض انطابلس و هي برقه،

1- تاريخ المغرب حضارته، من قبيل الفتح إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، ط. العصر الحديث للنشـــر و التوزيـــع، بيروت.لبنان 1412هـــ/ 1992م، ص 27؛ أنظر الخريطة رقم 1.

2- E.F. Gautier : L'Afrique blanche, p 115.

3- حسين مؤنس: المرجع السابق، مج.1، جـــ.1، ص 27.

4- L'Afrique Blanche, p 113.

5- المرجع السابق، مج.1، جـــ.1، ص 17.

و تفرّقت في هذا المغرب ".[1]

و قد أورد نص ابن عبد الحكم، فيما بعد، الشريف الإدريسي (ت حوالي 550 هـ/ 1160م) مع تغيير طفيف حيث ذكر أن " البرابر " هاجروا فلسطين " إلى المغرب حتى انتهوا إلى أقصى المغرب،فتفرّقت (تفرقوا) هناك، و نزلت مزاتة و مغيلة و ضريسة الجبال، و نزلت لواتة أرض برقة، و نزلت طائفة من هوّارة بجبل نفوسة، و نزل الغير منهم بالمغرب الأقصى، و نزلت معهم قبائل من مصمودة، فعمروا تلك البلاد."[2]

فمن الواضح، من خلال نص ابن عبد الحكم، أن البربر وصلوا مجتمعين إلى كورتي لوبية و مراقية الواقعتين غرب مصر، و هناك انقسموا: فواصلت منهم قبيلتا زناتة و مغيلة الطريق غربا لتستقرا في المناطق الجبلية، دون تحديد هذه المناطق في حين انتشرت قبيلة لوّاتة بأرض أنطابلس أو برقة و استقرت بها[3].

مع العلم أن ابن عبد الحكم تطرّق إلى هذا الموضوع بمناسبة حديثه عن " ذكر فتح برقة " من قبل والي مصر عمرو بن العاص بمساعدة عقبة بن نافع الفهري و ذلك حوالي سنة 22 هـ/ 642-243 م[4]، و كأنّ ابن عبد الحكم فعل ذلك ليبيّن لقارئه أن أهل برقة الذين صالحهم عمرو بن العاص، و هم " لوّاتة من البربر " [5] كانوا قد استقروا بها، منذ هجرتهم من فلسطين، إثر قتل ملكهم جالوت على يد داود عليه السلام، و بقوا منتشرين بنواحيها أثناء شروع المسلمين في فتحهم للمناطق الواقعة غرب مصر .

و تختلف الأخبار التي أوردها الشريف الادريسي، فيما بعد، حول نفس الموضوع ذلك

1- كتاب فتوح إفريقية و الأندلس، نشره و ترجمه إلى الفرنسية A.Gateau، الجزائر 1948، ص 34-35؛ (و هو نفس ما ذهب إليه ابن خُرداذبه في كتاب المسالك و الممالك، و هو أقدم كتاب جغرافي عربي تم تأليفه ما بين 232-272 هـ/ 845-885م (أنظر: Ibn Khurradàdhbih : op .cit, p p . VIII et 12) و كذلك ابن الفقيه الهمداني (ت. حوالي 290 هـ/ 903 م) Ibn Al Faqih Al – Hamadhani, Extrait du Kitab Al – Buldàn, Dans description du maghreb et de L'Europe au IIIe -IXe Siécle, Texte Arabe et traduction française Par Hadj – Sadok Mahammad, Alger 1949, p p.10 et 38).

2-المصدر السابق، ص 124-125؛ أنظر أيضا كتاب المشتاق للإدريسي، حققه و نقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق، ص 72-73؛ الترجمة الفرنسية، ص 63.

3- فتوح، النص العربي و الترجمة الفرنسية، ص 34-35؛ أنظر الخريطة رقم 2.

4- نفسه.

5- نفسه.

أن الادريسي لم يتحدث كما فعل ابن عبد الحكم قبله، عن انتهاء رحلة البربر، قبل انقسامهم، إلى كورتي ليبيا و مراقية، بل يجعلها الإدريسي تستمر إلى أقصى المغرب؛ و الشيء الوحيد الذي يتفق فيه المصدران هو استقرار قبيلة لوّاتة البربريه بأرض برقة[1]. و يعتقد E.F. Gautier أن اسم لُوى أو لُواته قد يكون حُوِّل إلى ليبيين من طرف الإغريق.[2]

و هذا بالضبط ما يهمنا هنا، لأنه يبين لنا أن إقليم برقة الواقع شرق إقليم طرابلس و غرب الإسكندرية، كان منذ القديم إذاً " ديارا للبربر و مواطن لهم " على حدّ تعبير ابن خلدون، و لا يقتصر الأمر على طرابلس و المناطق الواقعة إلى الغرب منها،كما جاء في حديثه عنهم، إلاّ بعد الزحف الهلالي الذي أدّى، كما هو معروف، إلى تغيير ديموغرافي تدريجي في منطقة برقة، حيث وقعت عملية دمج واسعة هناك نجم عنها تعريب كامل لها.

و يتضح من نص ابن عبد الحكم أن أنطابلس كما كانت تسمى في العهد اليوناني و التي أصبحت برقة في العهد الإسلامي، ثم صارت فيما بعد Cyrénaique في عهد الاستعمار الإيطالي فبنغازي بعد استقلال ليبيا، كانت منذ العهد السابق للفتح الإسلامي جزءا من المغرب[3].

في حين أن " عمل لوبية، و هي كورة تجري مجرى كورة الإسكندرية "[4] كانت جزءا من مصر و كذلك مراقية[5] و هي تلك الهضبة الكلسية الممتدة من منخفضات الوديان، الواقعة بين وادي نترون و واحة سيوة (سنترية)، جنوبا إلى العقبة الكبرى، عند البحر، شمالا، في بداية صعود هضبة برقة الكبرى المسماة أيضا السّلوم.[6]

1- الإدريسي، القارة الإفريقية، ص 124-125.

2- E.F. Gautier : Le Passé de l'Afrique du Nord, Petite Bibliothèque, Payot, Paris 6e, p.214 .

3- إن Cyrénaique هي التسمية الرسمية التي أطلقتها الإدارة الاستعمارية الإيطالية على تلك المنطقة وقد كانت Cyréne هي عاصمة أنطابلس Pentapole ، وتقع في أقصى الشمال ،في أقرب نقطة من بلاد الاغريق ، قريبة جدًّا من البحر؛ وقد أطلق عليها العرب برقة وهو إسم مدينة أخرى لأنطابلس Barké ، تقع جنوب غرب Cyréne في سهل فيض طويل يطلق عليه العرب اسم المرج (أنظر E.F. Gautier : L'Afrique blanche, p114).

4- اليعقوبي: كتاب البلدان .ط . ليدن 1967، ص342، أنظر الترجمة الفرنسية Gaston Weet القاهرة1937، ص201؛ ابن عبد الحكم ، نفس المصدر,ص 34_35.

5- ابن عبد الحكم : نفس المصدر، ص 35.

6- انظر E.F. Gautier : op.cit, p. 27؛ أنظر خريطة 1، 2.

فبهاتين الكورتين، لُوبية و مراقية، إذًا، تنتهي الأرض المصرية من الناحيـــة الغربيـــة [1] و يبدأ بعدهما المغرب بإقليم برنيق، عند العقبة الكبرى أو الســـلوم مـــن الناحيـــة الشـــمالية الشرقية،وهذا ما يؤكده كل من أبن سعيد المغربي (ت 673هـــ او 685هـــ/1274م أو1286م) في كتاب الجغرافيا[2] وأبو الفداء (ت.732هـــ/1331م) في كتاب تقويم البلدان[3]،و يحدد هـــــذا الأخير موقعهـــا جنوب شرق رأس تبني الواقع شرق رأس أوثان[4] .

ويحدّد الادريسي موقع العقبة الكبرى,عند طريق الصحراء أو الطريق العليـــا ويقـــدر بُعدهـــا ب 243ميلا عن مدينة برقة شرقا و 246ميلا عن مدينـــة الإســـكندرية غربـــا أي في منتصف الطريق بينهـــما تقريبا,ويسميهـــا عقبة السّلم[5] دون أن يشير إلى مسألة الحدود بـــين مصر والمغرب.

ويجعل ابن سعيد الذي يظهـــرانه عرف المغرب معرفة جيدة[6] " العقبة الكبـــيرة "أوّل الديار المصرية. وهـــناك مرسىَ السلّوم، من المراسي المذكورة "[7] ويحدّد موقعهـــــا "حيـــث الطول تسع وأربعون درجة والعرض اثنتان وثلاثون درجة"[8] وهـــو ما يؤكده بعده أبو الفـــداء موضحا أن البحر" ينعطف من أوّل حدود برقة إلى جهـــة الشمال ولايزال مشـــتملا إلى رأس أوثان، وهـــو جبل داخل في البحر...، ثم يشرّق البحر من رأس أوثان إلى رأس تبنى، وهـــــو جبل في البحر قبالة رأس أوثـــــان، مـــن جهـــة الشـــرق، وإذا وصـــل البحر إلى رأس تبنى انعطف إلى جهـــة الجنوب وامتـــــدّ إلى أن يسامت العقبة وهـــي أوّل حـــــدّ الديـــــار

1- يعتبر سعد زغلول عبد الحميد لوبية ومراقبة وحدة إدارية أو كورة تشملهـــا أقاليم برقة الشرقية،وهـــذه الكورة كمـــا يقول،كانت وثيقة الصلة بالإسكندرية،وكان الإقليم الشرقي منهـــا هـــو لوبية،وقد أطلق اليونان هـــذا الاسم على القارة الإفريقية ،دون مصر ،أما الإقليم الغربي فهـــو مراقية (Marmarica)فكانت حدوده تنتهـــي عنـــد أرض مدينـــة برقـــة نفسهـــا (المرجع السابق،64-65).

2 – حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، ط. الجزائر1982، ص147.

3- ط.و تصحيح رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس 1840، ص28.

4- نفسه.

5- القارة الإفريقية، ص 219- 220.

6- أنظر المصدر السابق، ص 8 فما بعدها من عدة صفحات.

7- نفس المصدر، ص 147.

8- نفسه.

المصرية..."[1] من "جهـــة المغرب، وعندهـــا مرسى"[2].

أما محمد العبدري البلنسي الذي مرّ على المنطقة وهـــو في طريقه إلى الحـــج ســـنة 688هـــ/ 1289-1290م فيُحدّد المسافة بين العقبة الكبيرة وبين مدينة الإسكندرية بعشرة أيـــام، وبينهـــا و بين العقبة الصغيرة ستة أيام ومن هـــذه الأخـــير إلى الإســـكندرية أربعـــة أيـــام. وكلتاهـــما خلاء، لا ساكن بهـــا ولا مسكن"[3]، كما يلاحظ أيضا أنه "ليس الآن (آنـــذاك) مدينة تسمى برقة ولا مدينة مذكورة إلاّ طلميثة، وهـــي قديمة "[4]، ويتساءل ما إذا كـــانت هـــي نفسها برقة , ويكون اسمهـــا حينئذ قد تغيّر إلى طلميثة، مثل ما سبق له وان تَغَيّر قبـــل ذلك، من أنطابلس إلى برقة [5] مضيفا أن طلميثة " هي مدينة أرض برقة و مرسى سفنها "[6].

و شهادة العبدري هذه تبين بوضوح التغييرات الديموغرافية و العمرانية التي طرأت علـــى المناطق الواقعة شرق طرابلس، آنذاك نتيجة انتشار الأعراب فيها منذ انطلاق الغزو الهلالي علـــى المغرب، و هذا ما يفسر اعتقاد الناس في عهد ابن خلدون (ت.808/ 1406م) أن مواطن الـــبربر تنحصر في طرابلس و المناطق الواقعة غربها.

و قد تحدث اليعقوبي (ت. 278هـــ/ 891م) الذي جال المغرب انطلاقا من الفســـطاط بمصر عن وجود سكان بربر من قبيلة مزاتة بالرمادة، من عمل لوبية، في المنطقة الساحلية الواقعة شرق العقبة الكبرى، و إلى جانبهم يوجد عجم قدماء و قوم من العرب[7]، و هو ما يؤكـــــد

1- أبو الفداء: المصدر السابق، ص 28.

2- نفس المصدر، ص 127.

3- الرحلة المغربية، تحقيق الأستاذ أحمد بن جدُّو، نشر كلية الآداب الجزائر، ص 80 فما بعدها.

4- نفس المصدر، ص 80.

5- نفسه.

6- نفس المصدر، ص 89.

7- كتاب البلدان، نشره M.J. De Geje، ط. بريل 1967، ص 342-343؛ الترجمة الفرنسية لـــ Gaston Wiet، القاهرة 1937، ص 201؛ و الرمادة هي، حسب البكري، مدينة صغيرة قريبة من البحر (الغرب ص 4؛ الترجمة الفرنسية لـــ Mac Guskin de Slane، ص 13) ؛ و يحدّد الإدريسي جون (خليـــج) الرمـــادة بـــــ 450 ميـــلا، غـــرب الاسكندرية، باتباع طريق الساحل؛ أمّا المسافة التي تفصله عن عقبة السّلم فيمكن تقديرها بـــ 50 ميلا، اعتمـــادا علـــى المعلومات التي زوّدنا بها الإدريسي عن الطريق الذي يربط الإسكندرية ببرقة، عن طريق الساحل (القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 220).

انتشار البربر خارج حدود برقة، من ناحية المشرق، قرب الإسكندرية، لكنهم كما نلاحظ هنا، كانوا يعيشون جنبا إلى جنب، مع غيرهم من عرب " و عجم قدماء " في تلك المنطقة.

و إلى الغرب منهم، توجد، بعد صعود العقبة المذكورة، عـــدّة منـــازل أي محطـــات (Stations) يسكن جميعها " بربر، من لوّاتة، و أخلاط من الناس "[1] و آخرها هو وادي مخيـل " و هو منزل كالمدينة ... و فيه أخلاط من الناس و أكثرهم بربر "[2] و الأراضي الواقعة بينـــه و بين برقة غربا، تقدّر بثلاث مراحل " في ديار البربر... من بطون لوّاتة "[3].

فاليعقوبي كما يتبيّن، لم يتحدّث سوى عما شاهده في رحلته، أثناء عبـــوره المنـــاطق الساحلية في الاتجاه الغربي، و هو يصف لنا تركيبة السكان المنتشرين بعد صعود العقبة الكبرى، أي بعد تجاوز النقطة الحدودية، الشمالية الشرقية، بين إقليمي الإسكندرية و برقة، حيث لاحظ أن سكان كل المنازل أي المحطات المنتشرة هناك من بربر " لوّاتة و أخلاط من الناس " و معـــنى ذلك أن غالبيتهم من البربر و معهم أناس، لم ير داعيا للإشارة إلى هويتهم، مما يعود، و لا شك إلى قلتهم. بحيث لم يشكلوا قوّة لافتة للنظر. و هو ما يفصح عنه بكل وضوح بمناسبة حديثـــه عن وادي مخيل "و هو منـــزل كالمدينة " يبعد عن برقة بثلاث مراحل " في ديــــار الـــبربر... لوّاتة ".

و الجدير بالملاحظة أن اليعقوبي، عند حديثه عن هذه الديار التي مرّ بها، في الطريق بـــين برقة و منـــزل وادي مخيل لم يشر إلى وجود عناصر سكانية أخرى، إلى جانب بربر لوّاتة مثلما فعل عند حديثه عن المنازل أو المحطات الأخرى مما يبعث على الظن أن سبب ذلك، يعـــود إلى أن أغلب منازل المنطقة الممتدة، من العقبة الكبرى إلى وادي مخيل الواقع على ثلاثـــة مراحـــل غرب مدينة برقة كانوا من بربر لوّاتة دون غيرهم.

1-هذه المنازل هي: القصر الأبيض ثم مغاير ثم قصور الروم ثم حب الرمل (كتاب البلدان، ص 342؛ الترجمة الفرنســـية، ص 201؛ مع العلم أن هناك خطأ في الترجمة هنا: حيث نقرأ في النص العربي " ... ثم العقبة... فإذا علاها (المسافر) صار إلى منزل يعرف بالقصر الأبيض... " و قد كانت ترجمته كما يلي:>> On Arrive à la région de Aqaba sur le littoral en passant par les stations suivantes : Ksar Abiyad ... << لأن المنازل المذكورة هنا تقع بعد صعود العقبة و ليس قبله.

2-اليعقوبي: نفس المصدر، ص 342؛ الترجمة الفرنسية، نفسه.

3- نفسه.

و يتفق اليعقوبي بشهادته هذه، تماما، مع ابن عبد الحكم، فيما أورده من أخبار انتشـــار البربر و استقرارهم في لوبيا و المناطق الواقعة إلى الغرب منها، على امتـــــداد طـــول الطريـــق الساحلي.

و في حديث البكري (ت. 487هــ/ 1094 م) عن المشهور من المـــــدن و القـــرى في الطريق من مصر إلى برقة و المغرب " يتحدّث فيما بعد، عن نزول أقوام من لوّاتة و زناتـــــة في خصائص (Huttes de Brouissailles) حول الحنيّة (Arcade)، قرب مدينة الإسكندرية[1] و إلى الغرب من خرائب القوم، عند قصر أبي معدّ نزار، ينزل حوالي ألف بيت من بربر بني فاضلـــــة و بني عقيجان و إلى جانبهم نحو عشرين بيتا قرشيا و أحياء كثيرة من عرب بني مدلج.[2]

مع العلم أن الحنية التي يفترض Mac Guckin de Slane، مترجم البكري إلى الفرنســـية، أنها تشغل موقع بُصير (Bousir)المعروفة قديما (Busiris)و المعروفة لدى الأوروبيين باســـم بـــرج العرب (Tour des Arabes) في حلق (à La Gorge) شبه الجزيـــرة الضيقـــة الـــتي تقـــع مدينـــة الاسكندرية في نهايتها، و تفصل المدينتين مسافة " عشرين ميلا، غير أن الإدريسي يحدّد بُعـــــد إحداهما عن الأخرى باثنتي و سبعين ميلا.[3]

كما أن خرائب القوم تبعد عن برقة، حسب الادريسي الذي يسميها خربة القـــوم 302 ميلا عن برقة، من ناحيتها الشرقية، و عن الإسكندرية بـــ 196 ميلا، عن ناحيتها الغربية.[4]

و من الواضح أن المعلومات الواردة في شأن موقع الحنية و خرائب القوم تؤكد صحـــــة ما زوّدنا به اليعقوبي، قبل ذلك، من المعلومات الخاصة بانتشار البربر خارج حدود كورة برقـــة، من الناحية الشرقية، و في الناحية الغربية من كورة الإسكندرية حيث وصلـــــوا إلى مشـــارف مدينتها، لكنهم لم يكونوا وحدهم، بل كان لهم جيران من القبائل العربية يتقاسمون معهم تلـــك المواقع.

1- يعرف البكري الحنيّة على أنها شطر حنية قائمة وسط فحص، أي جزء من قوس قائم وسط سهل، بينها و بين البحـــر تلّ، و يقال إنها كانت باب الإسكندرية (المصدر السابق، ص 3)؛ الترجمة الفرنســـية Mac Guckin de Slane، ص 11.

2- البكري: نفس المصدر، ص 4؛ الترجمه لـــ Mac Guckin De Slane، ص 12.

3- أنظر الادريسي: القارة الإفريقيـــة، ص 220. Description de l'Afrique septentionale Par Abou- Obeid el- Bekri, Traduit. Par Mac Guckin de Slane, Paris 1965, p. 11, note 2.

4- القارة الإفريقية، ص 219-220؛ يحدّد البكري بُعد خرائب القوم بـــ 35 ميلا شرق مدينة الرمتادة (المغرب، ص 4؛ الترجمة الفرنسية لـــ Mac Guckin de Slane ، ص 13).

و السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو التالي: ألم يكن التواجد البربري في كـورة الإسكندرية هو مبرّر الجغرافيين الذين حاولوا إدخالها في إطار المغرب، بطريقة صريحة مثل ما فعل أبو حميد الأندلسي؟ أو بطريقة يشوبها نوع من الغموض مثل ما فعل ابن حوقل؟

لا يستبعد إطلاقا أن يكون الجواب بنعم.

و على كلّ فإن ابن عبد الحكم يذكر لنا أن : " أنطابلس (برقة) و لوبية و مراقيه إلى حدّ أجدابية (كانت) من عمل حسان "[1] عندما عيّنه عبد الملك بن مـروان " واليـا علـى المغرب "[2] سنة 73 هـ/ 692-693 م.

الحدود الجنوبية الشرقية لبلاد المغرب:

و قياسا على ما سبق يمكننا استنتاج نفس الشيء بالنسبة لمراقية (Marmique)أي تلـك الهضبة الكلسية الممتدة بين عَقَبَة السّلّم أو العقبة الكبرى، شمالا، و منخفض الوديـان الواقـع شرق واحة سيوة أو سنترية جنوبا.[3]

فبدون شك أن البربر هنا أيضا كانوا ينتشرون و يستقرون بمراقية هذه و المناطق الواقعة إلى الغرب منها بطريقة مماثلة لما حدث لإخوانهم، في الشمال، و لعلّ هذا ما يفسّر ما ذهب إليه البكري (ت 387هـ/ 1094 م) في حديثه عن واحة سنترية بقوله إنّ " أهلها كانوا بربـراً لا عرب فيهم "[4] و ذكر المسعودي قبله (ت 346 هـ/957-958م)، من جهتـه، أن صـاحب الواحات، في وقته، سنة 332 هـ/943-944م " هو عبد الملك بن مروان، و هو رجل من لوّاتة، يركب في ألوف من الناس، و بينه و بين الأحباش (من النوبة و غيرهم) نحو من سـتة أيـام، و كذلك بينه و بين سائر ما ذكر من العمائر..."[5] و يحـدّد موقعـها " بـين بـلاد مصـر و الاسكندرية، و صعيد مصر و المغرب و أرض الأحباش، من النوبة و غيرهم "[6].

و إلى الشرق من كوّار تقع الواحـات الجنوبيـة[7] أي الواحات التي يطلق عليها

1- فتوح إفريقية و الأندلس، النص العربي و الترجمة الفرنسية، ص 76-77.

2- نفسه.

3- عنها، أنظر .E.F Gautier: L'Afrique blanche, p.127؛ أنظر الخريطة رقم 2.

4- المصدر السابق، ص 14.

5- مروج الذهب و معادن الجوهر، في تحف الأشراف و الملوك، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط. الرابعة، مصـر 1384 هـ/ 1964 م، مج. 1، جـ .2، ص 26.

6- نفسه.

7- كتاب الجغرافيا، ص 115؛ الترجمة الفرنسية، Cuoq : op.cit, p 2,8.

الإدريسي تسمية شَبْرو بمعنى واحات الكفرة [1] و كانت خرابا في عهده و إلى الشمال منـــها أرض الواحات الخارجة و كانت تعرف آنذاك (ق 6هـــ/12 م) بسنترية و يقول بأنها حديثـــة النشأة [2] و هي في سمت عرض أوجلة، حيث الطول 48° و 60´، تبعد عن العقبـــة الصغـــيرة الواقعة على البحر بثماني مراحل، و في شرقيها و جنوبيها (جنوب – شرق) الواحات الشمالية و في شمالي هذه الأخيرة بلاد الفيّوم.[3]

و كانت بلاد الواحات الخارجة في عهد الإدريسي (ق 12م) خرابا، لا أنيس فيها " أما الواحات الدّاخلة، فإن بها قوما من البربر و عربا متحضرين..."[4] كما كان يعيش بمدينة سنترية في عهد الإدريسي " قوم من البربر و أخلاط من العرب المتحضرين ".[5]

و تقع الواحات هذه، حسب E.F. Gautier ، في أسفل الانحدار الجنوبي من هضبة برقة، و تنقسم إلى مجموعتين: أوجلة، غربا، و جربوب، شرقا، بالاضافة إلى سيوة أو سنترية (Jupiter Ammon) و هذه المجموعات الثلاث، ترسم منخفضا يبدأ من القاهرة، و بين القاهرة و ســيوة، يبدأ الانخفاض بوادي نترون، و بين سيوة و وادي نترون، فإن الطريق مســـطّر بمنخفضـــات أخرى، من طرف لآخر، يسميها المصريون الوادي، و تمتدّ، من منخفض الـــوادي إلى البحـــر المتوسط، هضبة مراقية التي تنتهي عند برقة، في بداية صعود هضبة برقة الكـــبرى، أي العقبـــة الكبيرة، كما يسميها العرب، و يسمونها كذلك السّلّوم[6].

و ينسب نفس المؤلف هذه الواحات إلى مصر فيسميها " الواحات المصرية "[7] و يجعـــل موقعها في الصحراء الليبية – المصرية، و يذكر من بينها: الخارجـــة (Khargea) و الدّاخلـــة (Dakhla) و الفرفرة (Farfara) و البحرية (Bahria)[8] مضيفا أن الإله الخاص بطيبه (Thébe)،

1- Cuoq : op. Cit, 218, Note 1 ؛ أنظر الخريطة رقم 2.

2- القارة الإفريقية، ص 100؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.158 ؛ أنظر الخريطة رقم 2.

3- ابن سعيد المصدر السابق، ص 128؛ يُحدّد الإدريسي بُعدها عن البحر بتسع مراحل (نفس المصدر، ص 105).

4- القارة الإفريقية، ص 104؛ الترجمة الفرنسية Cuoq : op.cit, p.163

5- نفس المصدر، ص 105: الترجمة الفرنسية C uoq : op.cit, p.163. ؛ أنظر الخريطة رقم 2.

6- L'Afrique blanche, p. 127.

7- L'Afrique blanche, p. 127.

8- Le Sahara, Paris 1923, p.12.

و هو أمُون رَعْ، الذي صار جوبيتير أمون (Jupiter Ammon)الخاص بالرومان، و هو مـــجسّد في رأس كبش، انتشرت عبادته بعيدا، في الصحراء، عبر الطريق العابر للواحات، و في الطـرف الآخر من هذا الطريق، بطرف الصحراء المغربية، توجد واحة سيوة الــتي اشـتهرت بمعبـد جوبيتير أمون و أُطلق عليها اسمه خلال حقبة التاريخ القديم بكاملها، و هي نهاية مصر و بدايـة صحراء أخرى.[1]

و تقع سيوة كما يلاحظ نفس المؤلف دائما عند بداية العقبة الكبرى التي تحدّ مراقبـة بكاملها من الناحية الجنوبية و سكانها لا يتحدّثون العربية و لا القبطية بل يتحدثـون بلهجـة بربرية، إذ هم على عتبة المغرب، عالم البربر[2] و هذا ما ينسجم مع كلام البكري الذي يعتبرهم " بربرا لا عرب فيهم ".

و ينعت Gostynski الواحات المنشرة في المنخفض الواقع غرب وادي النيل و هي: واحة الخارجة المسماة بالواحة الكبرى و الداخلة و الفرفرة و البحرية و سيوة، بالليبية[3]، و لا ينسبها إلى مصر، كما فعل Gautier، بل يذهب إلى القول: بأن الصيادين ثم مُربّي المواشي بـالصحراء الشمالية و الغربية كانوا من بربر البحر المتوسط الأوائل و هم الذين عَمّرُوا الواحات الكـبرى المنتشرة من الجنوب نحو الشمال بليبيا الشرقية في نهاية العصر الباليوليتيكي تقريبا.[4]

و النتيجية التي يمكن التوصل إليها مما سبق قوله: إنه ما دام أغلب الجغرافيين و المؤرخين يعتبرون العقبة الكبيرة أو الكبرى أو السّلّوم الحدّ الفاصل، بين مصر غربا، و بين بلاد المغـرب شرقا، و هي تحدّ مراقبة المصرية من ناحية شمالها الغربي، على الرغم من انتشار السكان الـبربر مختلطين بغيرهم، في المناطق الواقعة إلى الشرق منها.

فلا شك أن الخط المشكّل لحدودها الغربية و الذي يستمر امتداده إلى منخفض الوادي، بين واحة سيوة (سنتريه)، غربا، و وادي نترن، شرقا، هو نفسه الخط الذي يحدّ المغرب، مـن ناحية جنوبه الشرقي و مصر من ناحية جنوبها الغربي، بالرغم كذلك، من انتشار السكان البربر

1- E.F. gautier : le Sahara, p.120.

2- Ibid, pp.121-122.

3- Gostynski : La Libye antique et ses Relations Avec L'Egypte, Bulletin de L'I.F.A.N, T.37, Série B, no 3, 1975, p.485.

4- Ibid, pp. 490-491.

في الواحات الواقعة شرق سنتريه و هو ما ينسجم مع الخط الوهمي الذي رسمهُ ابن حوقل مـــن الاسكندرية شمالا و أرض الصعيد مرورا بظهر (خلف) الواحات إلى بريّـــه تنتـــهي إلى أرض النوبة جنوبا[1] ثم رسمه بعده بقليل و بكيفية أدق الاصطخري (ت. بعد 340 هــ/ 951م)حيث جعل امتداده " بين الإسكندرية و برقه من حدّ بحر الروم (الأبيض المتوسط) حتى يمضي علـــى ظهر الواحات إلى برية تنتهي إلى أرض النوبة "[2].

1- ابن حوقل: المصدر السابق، ص 60.

2- المسالك و الممالك، ص 14.

الفصل الثاني

الحدود الشمالية لبلاد المغرب

الحدود الشمالية لبلاد المغرب، حسب المصادر الجغرافية العربية:

يتبين من خلال المعلومات التي زوّدتنا بها المصادر و المراجع أن مشكل حدود بلاد المغرب لا يقتصر على الناحية الشرقية، بل يتجاوزه إلى النواحي الأخرى و منها الناحية الشمالية التي ترتسم فيها حدود طبيعية واضحة كل الوضوح: و هي متمثلة في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، ذلك أنه عند اقتفاء أثر هذا الموضوع في كتب الجغرافيا نجدها تقول فيه كلاما كثيراً و من ذلك:

أن كلاًّ من ابن خرداذبة (ت. 272 هـ/ 885 م) و اليعقوبي (ت .278 هـ/ 891 م) الذي زار المغرب و تجوّل فيه، كما هو معروف، و ابن الفقيه الهمداني (290 هـ/903 م)، تحدثوا عن الأندلس أثناء وصفهم للمغرب[1] مما يستنتج منه أنهم كانوا يعتبرونها جزءا منه آنذاك أي أنهم كانوا يدخلونها في إطاره .

و ربما يكون هذا ما جعل حسين مؤنس يكتب بأن " العرب يدخلون في بلاد المغرب بلاد الأندلس، و يراد بها ما دان للإسلام من شبه الجزيرة الأيبرية، و يَعدّون منه، كذلك الحوضين الأوسط و الغربي من البحر المتوسط "[2] ،و ينسجم هذا الطرح كثيرا مع ما ذهب إليه عزّ الدين أحمد موسى، من أن الحدود الشمالية لبلاد المغرب كانت " في تغيير مستمر، خلال القرن السادس (الهجري) نتيجة الصراع المسيحي الإسلامي في الأندلس، و لهذا لا بدّ من استبعاد المناطق التي لم يسيطر عليها المرابطون و الموحدون أغلبَ سنوات القرن السادس، مثل الجُزر الشرقية و سرقسطة "[3].

و هذا ما لا نجد له صدى كثيرا في المصادر الجغرافية و التاريخية العربية، و حتّى إدخال الأندلس في المغرب أو إخراجها منه دارت في شأنهما خلافات كبيرة بينها؛ كما أن تلك المصادر لم تطرح مشكل تبعية الحوضين: الأوسط و الغربي من البحر الأبيض للمغرب، و لم

1- أنظر على التوالي: كتاب المسالك و الممالك في Hadj- Sadok Mahammad : Description du Maghreb et de L'Europe p.2-3؛ اليعقوبي: كتاب البلدان، ص 3، ص 342 فما بعدها من عدة صفحات؛ ابن الفقيه الهمداني: كتاب البلدان في Hadj – Sadok Mahammad : op.cit, p.30 Sqq.

2- المرجع السابق، مج 1، جـ.1، ص 17.

3- النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، ص 45.

تأخذ، على الإطلاق، بعين الاعتبار المدّ و الجزر السياسيين، في مسألة رسم حدود المغـــرب، لا من ناحية الشمال و لا من النواحي الأخرى، و لا يوجد أيضا صدًى لـــ " مفـــهوم المغـــرب السياسي (الذي) يختلف من عصر لآخر " ،كما يقول عز الدين أحمد موسى. [1]

و قد جاء في النص الخاص بـــ " صفة البحور " الوارد في " كتاب الأعلاق النفيســـة " الذي ألفه ابن رسته قبل 290 هـــ/902-903م [2] و هو يحاول تعريف البحر الأبيض المتوسط أن " بحر الروم و إفريقية و مصر: طوله من بحر المغرب إلى ناحية المشرق، ينتهي إلى صور (Tyr) و صيدان (صيدَة) (Saida) ، و بحر أوقيانوس (المحيط) هو بحر المغـــرب، البحـــر الأخضـــر، لا يعرف منه إلاّ ما يلي المغرب و برطينية (Bretagne) ... و فيه... جزيرة ...تســـمى غديـــرة مقابل الأندلس، عند الخليج، و هذا الخليج يجري من البحر المغربي، عرضه سبعة أميال، و هـــو بين الأندلس و طنجة يسمى سبطَى (سبتة) يدخل في بحر الروم "[3].

و الذي يمكن استنتاجه، عند محاولة التدقيق في فهم المصطلحات الجغرافية المستخدمة في هذا النص، بصرف النظر عن دقة محتواها، أن لفظ المغرب هنا يدلّ على اتجاه غـــربي، حيـــث أطلقت تسمية بحر المغرب، بمعنى البحر الواقع جهة الغرب، و تسمية البحر الأخضر أو أُقيانوس على المحيط الأطلسي، كما أطلقت تسمية " بحر الروم و إفريقية و مصر " على البحر الأبيـــض المتوسط؛ و من الواضح أن كلمة إفريقية المستخدمة هنا أطلقت على ضفته الجنوبيـــة المحاذيـــة لمصر من الناحية الغربية بما فيها (منطقة) طنجة التي يفصل بينها و بين الأندلس الخليج المســـمى سَبْطَى (سبتة) الذي يصل مياه المحيط الأطلسي بمياه البحر المتوسط، أي مضيق جبل طارق.

فابن رسته إذًا اقتصر على إطلاق تسمية المغرب على الاتجاه الغربي، و لم يطلقه على أي إطار جغرافي معين؛ و من خلال إطلاقه تسمية " بحر الروم و إفريقية و مصر " على جزء مـــن البحر الأبيض المتوسط يتبين لنا أنه يعني ببحر الروم السواحل الشمالية التي ينتشر فيها الـــروم، و يعني بإفريقية السواحل الجنوبية. من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر، و يعني بمصر ســـواحلها الواقعة شرق إفريقية.

1- المرجع السابق ، ص 39.

2- أنظر. كتاب الأعلاق النفيسة في Hadj – Sadok Mahammad : Description du Maghreb et de L'Europe au IIIe – IVe Siècle, Texte arabe et trad. française, Alger 1949, p.XIV.

3- نفس المصدر، ص 66-67.

و بعد هؤلاء يقسم الاصطخري (ت 340 هـ/951 م) الغربَ نصفين ممتدّين على بحر الروم (الأبيض المتوسط): النصف الشرقي، و يمثل الضفة الجنوبية منه، من حدّ مصر على ما يحادي برقة شرقا إلى أزيلة غربا، مرورا بطرابلس فالمهدية فتونس فطبرقه فتنس فجزيرة بني مزغنا فتاكور ثم البصرة؛ و النصف الغربي، و هو الأندلس الذي يتصل مما يلي البحر ببلاد الإفرنجة و مما يلي البرّ ببلاد علجسكس ثم ببلاد بسكونس ثم ببلاد الجلالقة حتى ينتهي إلى البحر (المحيط).[1]

و في حديثه عن بحر الروم (الأبيض المتوسط) يَذْكر الاصطخرى أنه " يأخذ (يبدأ) من البحر المحيط (الأطلسي) في الخليج الضيّق (المضيق) الذي بين المغرب و أرض الأندلس حتى ينتهي إلى الثغور الشاميه "[2].

و في مكان آخر يقول: " و إنما تركنا أن نذكر في طول الإسلام حدّ المغرب إلى الأندلس، لأنها مثل الكمّ في الثوب، و ليس في شرقيّ المغرب و لا في غربيها إسلام، لأنك إذا جاوزت مصر في أرض المغرب كان جنوبي المغرب بلاد السودان و شمالي المغرب بحر الروم ثم أرض الروم "[3].

فاصطخري كما هو واضح يدخل الأندلس في إطار النصف الغربي (الشمالي) من المغرب، عند تقسيمه نصفين، و يُميّز المغرب عن الأندلس عند وصفه لبحر الروم، و يجعل الفاصل بينهما مضيق جبل طارق، و يلاحظ أنه عند تجاوز مصر " في أرض المغرب كان ... شمالي المغرب بحر الروم ثم أرض الروم " و بمعنى آخر، فإن هذه الأراضي لا تدخل في دار الإسلام و بالتالي فهي غير تابعة لمغربه.

و يضرب سعد زغلول عبد الحميد مثالا بالاصطخري، فيما ذهب إليه، في نظره، بعض الجغرافيين العرب في تقسيمهم المغرب، على أساس " الأوضاع الإدارية و الظروف

1- كتاب مسالك الممالك، ص 36-37؛ حسب ابن حوقل فهي تتصل ببلاد الكفر مما يلي البحر بناحية إفرنجة و مما يلي المغرب ببلاد غلجشكش إلى بلاد بشكونس (Basques) ثم إلى بلاد الجلالقة (Galiciens) حتى ينتهي إلى البحر (صورة الأرض ط. بريل 1967، ص 62؛ الترجمة الفرنسية J.H. Kramers et G. Wiet, Beyrouth- Paris 1964, T.1, p.59.

2- نفس المصدر، ص 6.

3- نفسه المصدر، ص 11-12.

السياسية"[1] إلى قسمين " مغرب إفريقي بمدنه و أقاليمه و مغرب أندلسي، و هذا يعني (في نظر زغلول) أن الأندلس أخذت تخرج من نطاق التحديد (من إطار المغرب).و الظاهر أن الظروف السياسية في الأندلس أكّدت هذه التفرقة، بعد أن استقلت الأندلس...، فلم تصبح جزءا من المغرب الذي ظلت الخلافة متمسكة بشرعية سلطانها عليه ".[2]

و في مكان آخر يضيف زغلول أن " الاصطخري الذي كتب في وقت تبلور فيه استقلال الأندلس عن الخلافة العباسية و أصبح الشمال الإفريقي (بلاد المغرب) موطن نزاع بين أُمويّي الأندلس و فاطميي إفريقية، نجده يقسّم المغرب إلى مغربين: إفريقي و أندلسي " .[3]

و التعليل الذي يقدمه زغلول لِمَا يُريد استخلاصه من أن بعض الجغرافيين قسموا المغرب على أساس الأوضاع الإدارية و الظروف السياسية لا يقوم، كما هو واضح، على أساس متين: فأغلب أجزاء المغرب كانت مستقلة عن الدولة العباسية قبل أيام الاصطخري، فلماذا يقتصر الأمر، إذاً، على إخراج الأندلس، دون الأجزاء المستقلة سياسيا و إداريا عن الخلافة العباسية؟

و من ثمة فإنّه يكون من الخطأ فهم أن منهج الاصطخري، في تفسير المغرب، هو انعكاس للأوضاع الإدارية و الظروف السياسية.

و يطلق ابن حوقل (ت. 378هـ/ 988م) أحيانا مصطلح بحر المغرب على البحر الأبيض بدلا عن بحر الروم و يعتبر جانبه الغربي هو الذي يمتد عليه بعض المغرب من برقه، شرقا، إلى أزيلَى، غربا، مرورا بإفريقية و تنس و طنجة؛ في حين يشمل الجانب الشرقي، من بحر المغرب، بلد الروم، من حدود الثغور الشامية إلى القسطنطينية إلى نواحي رومية (Rome) و قلورية (Calabre) و الأنكبردة (Lombardie) و الإفرنجة (France) و جليقة (Galice) ثم باقي ذلك إلى آخره للعرب في يد أصحاب الأندلس[4]. و هذه " جزيرة تتصل بالبرّ الأصغر من جهة جليقية و إفرنجة، و هي في جملة المغرب "[5].

1-أنظر تاريخ المغرب العربي جـ1، ص 6.

2- نفس المرجع، ص 63.

3- نفس المرجع، ص 37.

4- صورة الأرض، ص 60؛ الترجمة الفرنسية J.H Kramers et G Wiet, op.cit, p.57 .

5- نفس المصدر، ص 61-62؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p .58 .

و لم يوضح ابن حوقل ما إذا كانت صقلية بلد الإسلام " الذي يساير أرض الأندلس و يحاذيه "[1] ملحقة بالمغرب كالأندلس أم لا. و هو يرسم خط الحدود الشمالية للمغرب انطلاقا من أرض طنجة على البحر و مرورا بنواحي تنس فتونس فالمهدية فطرابلس فبرقة إلى الإسكندرية[2] و هو الجزء الممتدّ، في نظره، على الجانب الغربي من بحر المغرب (الأبيض المتوسط).[3]

أمّا المُقدّسي (ت. حوالي 375 هـ/ 985 أو 390 هـ/1000م) فهو يعتبر كلاًّ من الأندلس و صقلية من جزائر إقليم المغرب[4] و لا يُحَاوِلُ رسم خط الحدود الشمالية لهذا الإقليم.

و في إطار تحديد المسعودي (ت.346هـ/957-958م) لطول و عرض البحر الرومي (المتوسط) يذكر على التوالي المناطق الواقعة على ضفافه و من بينها " ... ساحل الشام و مصر و الإسكندرية و ساحل المغرب "[5]و في حديثه عن بدايته " من خليج يخرج (جاريا) من بحر أوقيانوس (المحيط) "[6]و " أضيق موضع من هذا الخليج (المضيق) يوجد بين ساحل طنجة من بلاد المغرب و بين ساحل الأندلس، و هذا الموضع المعروف بسيطاء (سبتة)، و عرضه فيما بين الساحلين نحو عشرة أميال، و هذا الموضع هو المعبر لمن أراد العبور من الغرب إلى الأندلس و من الأندلس إلى الغرب و يعرف بالزقاق... "[7]

و يذكر نفس المصدر في وصفه لمضيق جبل طارق أن " هذا الخليج (المضيق) يسميه أهل المغرب و أهلُ الأندلس الزقاق؛ إذْ كان على هيئة ذلك ".[8]

1-نفس المصدر، ص 60؛ الترجمة الفرنسية، Ibid, p .57 .

2-نفس المصدر، ص 61؛ الترجمة الفرنسية، Ibid., p .58 .

3-نفس المصدر، ص 60؛ الترجمة ، Ibid., p .57 .

4- المصدر السابق، النص العربي و الترجمة الفرنسية، ص 2-3.

5- مروج الذهب، مج.1، جـ.1، ص 118.

6- نفسه.

7- نفسه.

8- نفس المصدر، ص 119.

و في حديثه عن مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي يقول: " و صاحب صقلية و إفريقية من بلاد المغرب قبل ظهور الإسلام كان يُدعَى جرجير، و صاحب الأندلس [كان] يُدعى لُذريق... "[1]

فإذا تأمل المتتبع مختلف تعابير المسعودي يستخلص أنه أطلق تسمية المغرب على المنطقة الواقعة غرب الإسكندرية، من شمال القارة الإفريقية، و أنه استخدم كلمة الغرب إلى جانب كلمة المغرب و أدخل في إطاره صقلية في حين أخرج منه الأندلس.

و من اللاّفت للنظر أن أبا عبيد البكري (ت 487هـ/ 1094م) تناول الحديث في كتابه " المغرب في ذكر إفريقية و المغرب "[2] عن إفريقية و بلاد السودان، كما حصر حدود إفريقية من " برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا... و عرضها من البحر (الأبيض المتوسط) إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان (جنوبا) ".[3]

مما يوحي أنه يقصد بعنوانه: أن إفريقية جزء من المغرب الذي يضم الصحراء، أول بلاد السودان دون أن يشير إلى الأندلس و لا إلى صقلية، كما لم يتطرق إلى الحديث عنهما في كتابه.

و يعتبر عزّ الدين أحمد موسى " تعريف البكري الذي يسمّي الشمال الإفريقي (بلاد المغرب) بإفريقية ما هو إلاّ صدًى للنزاع الذي عرفته المنطقة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بين أُموي الأندلس و فاطميي إفريقية"[4] و من ثمة فهو يصنف البكري ضمن فئة الجغرافيين الذين يعرّفون المغرب (في نظره) على أساس " الأوضاع الإدارية و الظروف الجغرافية " كما يضيف قائلا: إنه، بعدما بسط المرابطون " سلطانهم من تلمسان إلى المحيط و من الصحراء الإفريقية إلى جبال الشارات الأندلسية، ظهر تعريف جديد للمغرب يقتصر على أراضي الدولة المرابطية "[5] و حجته في ذلك تعريف ياقوت الحموي للمغرب حيث

1- المسعودي: نفس المصدر، ص 161.

2- و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك، ط.بغداد، نشره البارون دوسلان، الجزائر 1857.

3- نفس المصدر، ص 21؛ الترجمة الفرنسية لـ Mac Guckin de Slane : op.cit, p.49 .

4- النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، ص 38-39.

5- المرجع السابق، ص 39.

يجعل نهاية المغرب من الناحية الشرقية، في مدينة مليانة، عند انتهاء حدود إفريقية من الناحية الغربية.[1] فكأن ياقوت، حسب رأيه، أخذ تعريفه من مصدر مرابطي.[2]

و بعد البكري بحوالي نصف قرن يجعل الزهري (ت. 532هـ/ 1137م) من مضيق جبل طارق (الخليج من البحر الأعظم المسمى بالزقاق) الحدّ الفاصل بين بلاد الأندلس و بلاد المغرب "[3] و يضم جزر يابسة و ميورقة إلى الأندلس[4] و جزيرة صقلية إلى بلاد الإفرنج [5].

و في نفس ذلك الوقت تقريبا، نرى الشريف الإدريسي (ت. حوالي 550 هـ/ 1160 م) يُحدّد بداية الجزء الأول من الإقليم الرابع بـ " المغرب الأقصى " " حيث البحر المظلم، و منه يخرج خليج (مضيق) البحر الشامي (الأبيض المتوسط) ماراً إلى المشرق، و في هذا الجزء المرسوم بلاد الأندلس... و سُميت جزيرة الأندلس... لأنها شكل مثلث و تضيق من ناحية المشرق حتى تكون بين البحر الشامي و البحر المظلم (خمسة) أيام و رأسها العريض نحو سبعة عشر يوما، و هذا الرأس هو في أقصى المغرب، و في نهاية انتهاء المعمور من الأرض "[6].

و يروي الإدريسي أيضا قصة مفادها أن " أهل المغرب الأقصى، من الأمم السالفة (كانوا) يُغيرون على أهل الأندلس فيضرون بهم كل الأضرار و أهل الأندلس أيضا يكابدونهم و يحاربونهم جهد الطاقة، إلى أن كان زمن الاسكندر الأكبر...فأحضر الفعلة و المهندسين... ثم أمر أن تحفر الأرض التي بين طنجة و بلاد الأندلس "[7] و بعد الحفر اتصلت مياه البحر

1- معجم البلدان، نشر أحمد الشنقيطي سنة 1323هـ/1906م، مجلد 8، ص 103.

2- عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص 39، ها من 1.

3- كتاب الجغرافيا، ص 120.

4- نفس المصدر، ص 128 فما بعدها.

5- نفس المصدر، ص 130-131.

6- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس؛ مع الملاحظة أنني أضفت عدد " خمسة " إلى أيام في النص الذي حققه إسماعيل العربي، اعتماداً على النص الذي حققه و ترجمه إلى الفرنسية محمد حاج صادق و الذي سقط من النص الأول (أنظر: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، النص العربي، ص 179؛ الترجمة الفرنسية، ص 161. مع ملاحظة أن ترجمة هذا النص تنقصها بعض الدقّة.

7- القارة الإفريقية، ص 246؛ المغرب العربي، ص 180؛ الترجمة الفرنسية، ص 162.

الأعظم بمياه البحر الشامي عن طريق المجاز المسمى بالزقاق (مضيق جبل طارق) و تحُدُّه من جهة الشرق مدينة الجزيرة الخضراء، و تقابله من العُدْوة مدينة سبتة، و تحدّه من جهة المغرب المدينة المسماة طريف و يقابلها في الضفة الثانية، من البحر، مرسى القصر المنسوب لمصمودة.[1]

و من كل هذه المعطيات يتبيّن أن الإدريسي أطلق تسمية " المغرب الأقصى " في المرة الأولى على ما كان يعرف في وقته بـ " نهاية انتهاء المعمور من الأرض، أي المناطق المجاورة للبحر المظلم (المحيط، الأطلسي) بما فيها الأندلس.

و في المرة الثانية نراه يميّز، مرّة، بين المغرب الأقصى و بين الأندلس، و مرّة، يُعوّض تسمية المغرب الأقصى بتسمية طنجة، مما يوحي بنوع من التردّد في توظيفه لمصطلح " المغرب الأقصى ".

و في المرة الثالثة يطلق تسمية " المغرب " على اتجاه غربيّ ببلاد الأندلس، و على الجهة المقابلة لها من الناحية الجنوبية للبحر الأبيض و تسميته " عُدْوة ".

و النتيجة التي يمكن التوصل إليها، بناء على هذه المعطيات أن الإدريسي تردّد كثيرا في فصل المغرب عن الأندلس، فهو لم يحسم الأمر بوضوح.

و يطلق صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (ألّف سنة 587 هـ أو سنة 588 هـ/ 1191 أو 1192 م) تسمية " بلاد المغرب " على الجزء الممتدّ من " بلاد تازا إلى آخر بلاد المغرب، على ساحل البحر الكبير (الأبيض المتوسط) الدّاخل في البحر المحيط (الأطلسي) عند مرسى أزمور (غربا) و من بلاد طنجة و سبتة (شمالا) إلى بلاد ملوية و أحوازها (جنوبا)..."[2] كما يطلق تسمية " المغرب الأوسط " على الجزء الممتد " من وادي مجمع، في نصف الطريق، بين مدينة مليانة و مدينة تلمسان (شرقا) إلى بلاد تازا (غربا)، و من البحر...في البلاد الساحلية مثل مدينة وهران و مليانة و غيرها (شمالا)... إلى مدينة تنزل

1-الإدريسي؛ نفس المصدر، ص 181؛ الترجمة الفرنسيّة، ص 163.

2- مؤلف مجهول، ص 68؛ ترجمة E.Fagnan : op.cit, p.p.120-121؛ يلاحظ : E.Fagnan أن نهر ملوية هو الذي يحدّ عادة المغرب الأقصى من الناحية الشرقية (op. cit., p.120, note 2).

(جنوبا)... "[1] و يُدخل هذين المغربين في إطار إفريقية التي تُعَدُّ طرابلس أولى مُدنها الساحلية من الناحية الشرقية[2] و مدينة طنجة " آخر حدودها في المغرب "[3] دون محاولة رسم الحدود الشمالية للمنطقة المحصورة بين طرابلس و المغرب الأوسط و يرجع ذلك و لا شك، إلى اعتبارها امتدادا طبيعيا للناحية الغربية، و من ثمة يبقى الخط الرّابط بين المدن الساحلية هو الذي يشكل تلك الحدود، و بمعنى آخر فإن السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط تشكل الحدود الشمالية لإفريقية التي تضمّ كلاً من المغربين الأوسط و الأقصى.

و يُميّز الزهري بوضوح تام بين بلاد المغرب و بلاد الأندلس: إذ يجعل بداية المغرب " جبال برقة و جبال أوثان... على آخر عمل مصر و أوّل عمل القيروان، و آخره أقصى السوس "[4] و يُقَسّمه إلى ثلاثة أصقاع، يضمها جميعا الجزء السادس من مساحة الكرة الأرضية، و أول هذه الأصقاع إفريقية و تمتد " من جبال برقة إلى جبال نفوسة و جبال وانشريس "[5] و ثانيها: المغرب الأقصى و يبدأ حدّه " على ساحل البحر في المشرق من جبل وانشريس و في المغرب الطرف المسمّى بطرف أشبْرتال الدّاخل في البحر الأعظم "[6]؛ أما ثالثها فهو السوس الأقصى ..."[7] و لا يشير الزهري إطلاقا إلى الأندلس في حديثه عن المغرب بل يتحدث عنها في مكان آخر، في إطار كلامه عن الجزء الخامس الذي يضم كذلك " الشام و بلاد الروم "[8].

1- مؤلف مجهول، نفس المصدر، ص 64؛ الترجمة الفرنسية. E Fagnan، ص 114-115؛ يلاحظ E Fagnan أن اسم وادي مجمع خاطئ، و لا شك، ما دامت النصوص و الخرائط لا تشير إلى أي شيء قريب من هذا اللفظ. (op.cit, p.115, note 1).

2- نفس المصدر، ص 2؛ ترجمة E. Fagnan : op.cit, p .2.

3- نفس المصدر، ص 24؛ الترجمة ؛ op.cit, p.50.

4- الزهري: المصدر السابق، ص 106.

5- نفس المصدر، ص 107.

6- نفس المصدر، ص 113.

7- نفس المصدر، ص 117.

8- نفس المصدر، ص 131.

و يرسم عبد الواحد المراكشي، في بداية تأليف كتابه " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " سنة 621 هـ/1234-1235م حدّ جزيرة الأندلس الجنوبي بـ " منتهى الخليج الرومي الخارج من بحر مانطسْ، و هو البحر الرومي (المتوسط)[1] مما يقابل طنجة، في موضع يعرف بالزقاق، سعة البحر هنالك اثنتي عشر ميلا، و هذا الخليج هو ملتقى البحرين أعني بحر مانطس (الأبيض المتوسط) و بحر أقيانوس (المحيط الأطلسي) "[2].

و يصف المراكشي، في آن واحد، الأندلس على أنها " آخر المعمور في المغرب لأنها... منتهية إلى بحر أُقيانوس الذي لا عمارة وراءه "[3] و لم يطلق كلمة " المغرب " هنا على بلاد معينة، بل أطلقه على الاتجاه الغربي.

و في مكان آخر يعلن المراكشي أنه سيتعرض في مؤلفه إلى " ذكر أقاليم المغرب و تَعْيين مدنه و تعيين ما بينها من المراحل عددا، من لدُن برقة إلى السوس الأقصى، و ذكر جزيرة الأندلس و ما يملكه المسلمون من مدنها... "[4] و هو هنا يفصل بوضوح بين الأندلس و بلاد المغرب التي يكون أوّلها " مما يلي ساحل البحر الرومي، مدينة... برقة و آخرها على ساحل البحر الأعظم، مدينة طنجة، و مسافة ما بين ذلك على التقريب، ست و تسعون مرحلة... "[5] أي أنه يجعل من سواحل بحر الروم الجنوبية حدًّا طبيعيا لبلاد المغرب من الناحية الشمالية.

و يعتبر المراكشي ما بعد طنجة " من البلاد فإنما هو في الجنوب، كمدينة سلا، و مدينة مراكس ثم لا يزال دائرا في الجنوب إلى أن يأتي بلاد الحبشة و الهند "[6] و هنا يلاحظ أنه لم يشر أبدا لامتداد المغرب إلى الناحية الشمالية ليشمل الأندلس، كما فعل بالنسبة للجهة

1- و مانطسْ عند الجغرافيين العرب القدماء هو اسم البحر الذي يطلق عليه الآن بحر آزوف، و هو يتصل بالبحر الأسود المتصل ببحر مرمرة الذي يتصل بالمتوسط (المعجب، ص 5، هامش 5)، غير أن المراكشي يطلق هذه التسمية كما نرى على البحر الأبيض المتوسط.

2- نفس المصدر، ص 5-6.

3- نفس المصدر، ص 7.

4- نفس المصدر، ص 346.

5- نفس المصدر، ص 354.

6- المراكشي: المصدر السابق، ص 354.

الجنوبية، فهو يخرج الأندلس من المغرب بكل وضوح، و لم يلاحـــظ أيّ أثــر للاضطــراب أو التناقض الذي ينسبه عز الدين أحمد موسى لـ " عبد الواحد المراكشي في محاولته تعريـــف المغرب، و الذي يردّ سببه إلى كون كلمة المغرب كانت تستعمل وقت تصنيف كتاب المعجب استعمالا اصطلاحيا إداريا خاصا، حيث أطلق المرابطون ثم الموحدون، بعدهم، كلمة " بـــلاد المغرب " أو " المغرب " على ولاية فاس في تنظيماتـــهم الإدارية"[1] و يبقى من حق القـارئ أن يتساءل، على أي شيء اعتمد موسى لتقديم من هذه المعلومات؟ .

و يمكن التوصل إلى نفس النتيجة، عند الإطلاع على المعلومات التي سجلها ابن ســعيد المغربي (ت.673 أو 685هـــ/ 1274 أو 1286 م) عن الأقاليم الثالث و الرابع و الخامس و هـــي التي تشمل المناطق المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، فمع أنه لم يُعر اهتمامـــا لقضيـــة الحـــدود الشمالية للمغرب، إلاّ أنّه يتبين من خلال استخدامه للمصطلحات الجغرافية أنه يميّز بوضوح بين المغرب و الأندلس.[2]

و هو ما يؤكده أبو الفداء الذي يخصص في كتابه تقويم البلدان (تمّ تأليفه ســـنة 721 هـــ/ 1321 م) فصلا خاصا بالمغرب و آخر خاصا بالأندلس إضافة إلى فصُول خاصـــة بمصـــر و بلاد السودان و أمم أخرى.[3]

لكن ابن فضل الله العمري بعده بقليل (ت.749 هــــــ/ 1349 م) تفـــادى اســتخدام مصطلح المغرب و راح يطلق تسمية إفريقية على الجزء المحصور بين طرابلس، أوّل مدنها مما يلي برقة، شرقا، و تادلس (دلس) آخر مدنها مما يلي الغرب الأوسط و هي مجاورة لجزائـــر بـــني مزغنّة، آخر عمالة صاحب برّ العدوة[4] التي تمتدّ غربا إلى البحر المحيط (الأطلسي)[5] و تشـــمل ثـــــلاث إمـــــارات هي: إمـــارة فاس و إمارة تلمسان و إمارة سبتة و الجزء التابع لها من

1- النشاط الاقتصادي، ص 39.

2- كتاب الجغرافيا، ص 124 فما بعدها بعدة صفحات.

3- أنظر كتاب تقويم البلدان.

4- أنظر مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في Gaudefroy – Demombines : Description de L'Afrique et D'Al- Andalous au Milieu du VIII^e S/ XIV^e S, Extraits des Massalik Al- Absar Fi Mamàlik Al- Amsàr , Les Cahiers de Tunisie, T.XXI, no 81-84 1ere et 2émé Trimestre 1973, p. 227, Trad.fr, faites Par Gaudefroy- Demombynes, Paris 1927, pp.89-99 .

5- Ibid, Trad, p .153.

الأندلس[1] و يرسم حدود " برّ العدوة " من الناحية الشمالية مع ســـواحل البحــر الشــامي (المتوسط) [2] مثلها في ذلك مثل حدود إفريقية.

و في رأي الحسن الوزان المعروف بـــ Jean- Léon L'Africain (ت. 1552م) فإن العرب لا يطلقون تسمية إفريقية إلاّ على ضواحي قرطاجة تقريبا، أما إفريقية في مجموعها فيســـمونها المغرب،و يحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط.[3]

الحدود الشمالية لبلاد المغرب، حسب المصادر التاريخية العربية:

و الملاحظ أن أراء جغرافيي العصر الوسيط لا تحسم، بصفة قاطعة مسألة حدود بـــلاد المغرب الشمالية و إن كان أغلبها يميل إلى رسم تلك الحدود مع الســـواحل الجنوبيـــة للبحـــر الأبيض المتوسط و يبقى الموضوع في حاجة إلى توضيح أكبر، و هذا ما يفرض علينا الاســـتعانة بمصادر التاريخ علّها تساعدنا على إيجاد الحل المناسب لمشكلنا المطروح، و أقدم هؤلاء هو ابـــن عبد الحكم (ت. 257 هـــ/871 م).

و عند تتبع ما سجله في كتابه " فتوح إفريقية و الأندلس " نراه يســـتخدم مصطلـــح المغرب منذ بداية حديثه عن فتح برقة حيث يقول: " و كان البربر بفلسطين، و كان ملكـــهم جالوت، فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجّهين إلى المغرب حتى انتـــهوا إلى لوبيـــة و مراقية، و هما كورتان من كوّر مصر الغربية،... و تقدّمت لوّاتة فسكنت أرض أنطـــابلس، و هي برقة: و تفرّقت في هذا المغرب ... حتى بلغوا السوس ..."[4] و يضيف في مكان آخـــر أن عمرو بن العاص أراد " أن يوجّه إلى المغرب (حملة) فكتب إلى عمر بن الخطاب... إن الله قـــد فتح علينا اطرابلس، و ليس بينها و بين إفريقية إلاّ تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوهـــا و يفتحها الله على يديه فعل..."[5] و تحدث أيضا عمّن " كان يخرج على غزو المغرب: بعد عمرو ابن العاص... "[6] و ذكر منهم معاوية بن حُدَيْج الذي غزا " إفريقية " سنة 34 هـــ/654-655م

1- العمري، نفس المصدر، ص 137.

2- نفس المصدر، ص 153.

3- Description de L'Afrique, T.1, N^elle éd, traduite de L'Italien Par A.Epaulard et Annotée A.E Paulard, Th. Monod, H. Lhote et R. Mauny Paris 1980, pp.3-4.

4- أنظر. ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 34-35(النص العربي و الترجمة الفرنسية).

5- نفس المصدر، ص 40-41.

6- نفس المصدر، ص 56-57.

و عقبة بن نافع الذي خرج " إلى المغرب "[1] بعده، و أبا المهاجر دينـــار و هـــو " أوّل مـــن جُمعت له ولاية مصر و المغرب " [2] و لما قدم " أبو المهاجر إفريقية كره أن يترل في الموضــــع الذي اختطه عقبة..."[3] و قَدِم عقبه " على يزيد بن معاوية، عند موت أبيه، فردّه واليا علـــى إفريقية...".[4]

و قد جاء حسان بن النعمان " واليا على المغرب، أمّره عليها عبد الملك بن مـــروان في سنة ثلث و سبعين... ،و كانت أنطابلس و لوبية و مُراقية إلى حدّ أجدابية من عمل حسان "[5] و قَدِم " موسى بن نصير إلى المغرب سنة ثمان و سبعين... (و) أُمِر... على إفريقية ســـنة تســـع و سبعين... و افتتح عامة المغرب..."[6]

و مما سبق يُلاحَظ أن ابن عبد الحكم، لم يحاول، بطبيعة الحال، وضع حـــدود لبـــلاد المغرب و لكننا نستنتج من تعبيره الأخير " و افتتح (موسى) عامة المغرب " أن حدوده الشمالية قد توقفت عند هذا الحد، بدليل أنه كفّ عن استخدام لفظ " المغرب " بمجر مـــا شـــرع في الحديث عن " فتح الأندلس " على الرغم من أن هذه الأخيرة، كانت بعد فتحها تخضع سياسيا لولاة إفريقية إلى أن سقطت الدولة الأموية.[7]

و يمكن أن يقام هذا دليلا على عدم اعتبار الأندلس كجزء من المغـــرب لأنـــه، عنـــد افتراض العكس لا يجوز أن يقال، في نظرنا، أن الأندلس كانت تابعة لولاة المغرب، ما دام هـــذا تحصيل حاصل.

و لم يكن إطار إفريقية التي تقع على بُعد تسعة أيام غرب طرابلس، كما ورد في كتـــب " فتوح إفريقية و الأندلس " ليشمل إطار المغرب الذي يتسع من لوبية و مُراقية و أنطـــابلس إلى المحيط الأطلسي، غير أن احتضانها للقيروان عاصمة الولاية جعلت تسميتها تحتل مكان تســـميته، أحيانا، لكنّ ابن عبد الحكم يبيّن، أحيانا أخرى، كما ورد في قوله " إن موسى بن نصير خرج

1- ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص 56-57.

2- نفس المصدر، ص 60-61.

3- نفس المصدر، ص 66-67.

4- نفس المصدر، ص 68-69.

5- ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 76-77.

6- نفس المصدر، ص 86-87.

7- نفس المصدر، ص 88-89 و هنا و هناك.

من إفريقية غازيا إلى طنجة، و هو أوّل من نزل طنجة من الولاة..."[1] أن إفريقية هي جزء من المغرب مثلها مثل غيرها كطنجة على سبيل المثال.

و قد أورد البلاذري (ت 279هـ/892-893م) رواية مفادها أن عمرو بن العاص سار في جنده، بعد فتح الإسكندرية، يريد المغرب، حتى قدم برقة[2] ، و يضيف في روايات أخرى: أن أهلها كانوا " أخصب قوم بالمغرب "[3] و أن عمرو بن العاص كتب " إلى عمر بن الخطاب يُعلمه أنه قد ولّى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة..."[4] و أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، لمّا وُلي مصر و المغرب، بعث المسلمين، في جرائد خيل، فأصابوا من أطراف إفريقية و غنموا[5] ، و أن معاوية بن حديج وجه من مصر " عقبة بن نافع... و يقال ولاّه معاوية (ابن أبي سفيان) المغرب، فغزا إفريقية... و اختط قيروانها "[6] و أن معاوية بن أبي سفيان عزل ابن حُدَيْج " و ولى مصر و المغرب مسلمة بن أبي مخلد الأنصاري، فولّى المغرب أبا المهاجر مولاه. فلما وُلي يزيد بن معاوية ردّ عقبلة بن نافع على عمله، فغزا السوس الأدنى و هو خلف طنجة... ثم وُلي عبد الملك بن مروان... فاستعمل أخاه عبد العزيز، على مصر، فولّى إفريقية زهير بن قيس البلوي... ثم ولّى حسان بن النعمان الغساني "[7].

و أن عبد العزيز بن مروان وجّه " موسى بن نصير.. واليا على إفريقية... ففتح طنجة ... و انتهت خَيْلُه إلى السوس الأدنى... ثم ولاها (طنجة) طارق بن زياد مولاه، و انصرف إلى قيروان إفريقية." [8]

و البلاذري، هو الآخر، استعمل مصطلحي المغرب و إفريقية في تعابيره، مثل ابن عبد الحكم، و عند التدقيق لفهم القصد من ذلك، يتبيّن أنه استخدم مصطلح المغرب بمعنى المناطق

1- ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص 86-87.

2- كتاب فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجد، ط. القاهرة، ج.1، ص 264.

3- نفسه.

4- نفسه.

5- نفس المصدر، ص 267.

6- نفس المصدر، ص 269.

7- نفس المصدر، ص 270.

8- البلاذري: المصدر السابق، ص 271.

الواقعة غرب مصر، عموما، في حين أطلق مصطلح إفريقية على المنطقة التي أصبحت تأوي مدينة القيروان، عاصمة المغرب.

كما تعرض نفس المصدر لذكر خبر فتح الأندلس على يد طارق بن زياد ثم اللقاء الذي بينه و بين موسى بن نصير بقرطبة[1] دون أن يُضيف أي شيء من شأنه أن يجعلها داخلة في إطار المغرب أم خارجة عنه، مع أنه استمر يذكر أخبار هذا الأخير طيلة العهد الأموي، و إلى بداية عهد الإمارة الأغلبية.[2]

و قد أورد الرقيق القيرواني (ت. بعد 417 هـ/1026-1027م) أن عقبة بن نافع، بعد انتصاره، على البربر و الروم، في معركة بوادي سهر، الواقع على بعد ثلاثة أميال من مدينة أذنه، رحل " حتى نزل على المغرب بتيهرت "[3] ثم واصل طريقه إلى أن دخل طنجة، و منها سار إلى السوس الأدنى " و هو مغرب مدينة طنجة التي تسمى " تَارُودَانت "... و مضى كذلك حتى دخل السوس الأقصى، فاجتمع به البربر... فقاتلهم قتالا شديدا ما سَمع أهل المغرب بمثله "[4] و الرقيق هنا استعمل، كما يلاحظ، مصطلح المغرب في المرتين: الأولى و الثانية بمعنى الاتجاه الغربي، و في المرة الثالثة، أطلقه على بلاد المغرب، دون اللجوء إلى تحديد أبعادها.

و في حديثه عن استعدادات الكاهنة لخوض معركتها الثانية و الأخيرة ضدّ حسّان بن النعمان يذكر أن " إفريقية (كانت) من طرابلس إلى طنجة ظِلاًّ و قرى متصلة، فأخربت (الكاهنة) جميع ذلك "[5] و يقول كذلك: إن موسى بن نصير عندما خرج " من إفريقية غازيا إلى طنجة... وجد البربر قد هربوا من المغرب خوفا من العرب، فتبعهم...، حتى بلغ السوس الأدنى... "[6].

و هنا يبدو جليا أن الرقيق استخدم مصطلحي المغرب و إفريقية استعمالا غير دقيق بالمرة: فهو يحصر إفريقية بين طرابلس و طنجة، و لما ذكر،بعد ذلك،أن موسى بن نصير خرج

1- نفس المصدر، ص 273.

2- أنظر، نفس المصدر، ص 273 فما بعدها من عدة صفحات.

3- تاريخ إفريقية و المغرب، تحقيق المنجي العكي، ط. تونس، ص 43.

4- نفس المصدر، ص 45-46.

5- نفس المصدر، ص 61.

6- نفس المصدر، ص 69.

من إفريقية إلى طنجة، أَوْحَى أن طنجة خارجة عن إفريقية، و إذا أخذنا بعين الاعتبار تحديـــده لإطار إفريقية، ما بين طرابلس و طنجة، هل معنى ذلك أننا يمكن أن نفهم أن نقطـــة انطـــلاق موسى كانت طرابلس، مثلا؟.

مع أن نقطة الانطلاق كانت، بدون شك، القيروان، فهو يريد أن يقول " القـــيروان " و ليس إفريقية. ثم ما معنى قوله: إن موسى، عندما خرج إلى طنجة وجد " البربر قد فرّوا مـــن المغرب... فتبعهم... حتى بلغ السوس الأدنى... "؟ فهل يقصد بالمغرب منطقة طنجة أم المنـــاطق الواقعة في الاتجاه الغربي الذي كان يسلكه جيش موسى؟.

و قد تحدث الرقيق أيضا عن فتح الأندلس، على يد طارق بن زياد و التحاق موسى بن نُصير به، ثم عودته إلى المشرق، بعدما ولّى عليها ابنه عبد العزيز، و على إفريقية ابنه عبـــد الله[1] ثم إن الخليفة سليمان بن عبد الملك ولّى إفريقية محمد بن يزيد مولى قريش[2] فاســـتعمل علـــى الأندلس الحسن بن عبد الرحمان القيسي " و كانت الأندلس إذ ذاك إلى والي إفريقية "[3] و هـــو ما جعل بشر بن صفوان يولّي عليها عبد الله بن سحيم الكلبي بدلاً عن الحسن بن عبد الرحمـــان القيسي[4] و عبيد الله بن الحبحاب يولّي عليها عقبة بن الحجاج بدل ابن ســـــحيم " و بعـــث حبيب ابن أبي عبيدة... غازيا إلى المغرب فبلـــغ الســـوس الأقصـــى و أرض الســـودان... "[5] " و استعمل على طنجة ابنه إسماعيل "[6] أو " عمر بن عبيد الله المرادي، فأساء السيرة... و أراد أن يخمّس البربر... و في المغرب يومئـــذ قـــوم فيـــهم دعوة الخـــوارج... "[7] فثـــاروا عليـــه و قتلوه.

فعند التمعّن في تعابير الرقيق المختلفة يتبين لنا أنه تفادى استخدام كل ما يمكن أن يفهم منه أن الأندلس " تابعة للمغرب " الذي يبقى مفهومه مقصورا على الاتجاه، بل على النـــواحي

1- الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 73 فما بعدها من عدّة صفحات.

2- نفس المصدر، ص 93.

3- نفس المصدر، ص 96.

4- نفس المصدر، ص 102.

5- نفس المصدر، ص 108.

6- نفسه.

7- نفس المصدر، ص 109

الغربية، كما تحدّث الرقيق، مثل ابن عبد الحكم، قبله عن تبعية الأندلس لـــولاة " إفريقيـــة " (وليس للمغرب)، و كأنه تفادي كذلك استخدام مصطلح المغرب.

و يمضي الرقيق دائما، في القول إنه لما " بلغ أهل الأندلس ثورة البربر... وثبـــوا علـــى أميرهم عقبة بن الحجاج... فقتلوه و ولوا عبد الملك بن قطن الفهري... و بلغ ذلك هشام بـــن عبد الملك، و قال: أَقُتِل أولئك الرجال الذين كانوا يفدون علينـــا مـــن المغـــرب، أصحـــاب الغنائم؟.

و في استعمال الخليفة هشام هنا لمصطلح المغرب علامة استفهام كبيرة: إذ ليـــس مـــن السهل معرفة ما إذا كان قصد الرقيق أن الخليفة أطلقها على الرجال الذين قُتلـــوا في " ثـــورة البربر " التي بلغ صداها أهل الأندلس، أم أنّه أطلقها على ثورة هؤلاء على أميرهم، عقبة بـــن الحجاج، و قَتْلِه، أم أنه أطلقها على الحالتين معا: ففي الحالة الأولى يكون قـــد أطلـــق هـــذا المصطلح، إذاً، على المناطق الواقعة على الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوســـط؛ أمـــا في الحالتين الباقيتين فتكون الأندلس معنية بها.

و بمناسبة قدوم حنظلة بن صفوان على ولاية إفريقية " كتب إليه أهـــل الأندلـــس... يسألونه أن يبعث إليهم واليا، فبعث إليهم أبا الخطار... الكلبي..."[1] و بوصوله إليها خاف عبـد الرحمان بن حبيب، الذي كان يحاول التغلب عليها، منذ فراره إليها من إفريقية، بعـــد وقعـــة الأشراف، فَعَبَرَ ابن حبيب إلى إفريقية و تمكن من إخراج حنظلة منها، و تَنَصَّب واليا عليـــها ثم " كتب إلى مروان بن محمد و أَهدَى إليه هدَايا و تقوَّل في حنظلة... فكتب إليه مروان بولايتـــه على إفريقية و المغرب كلّه و الأندلس "[2].

و إذا صحت المعلومات الواردة في شأن هذه " المكاتبة " و بهذه " الصِّغة " أي بولايته " على إفريقية و المغرب كلّه و الأندلس " يكون فيها الدليل القاطع على أن إفريقية كانت تعتـــبر جزءا من المغرب و ليست مرادفة له و أن الأندلس، كانت خارجة تماما عن إطـــاره آنـــذاك، و بالتالي تكون حدود المغرب لا تتجاوز، من الناحية الشمالية، الضفة الجنوبية للبحر الأبيـــض المتوسط.

1- الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 115.

2- نفس المصدر، ص 129.

و عند سقوط دولة بني أمية، كان عبد الرحمان بن حبيب أميرا على إفريقية[1] فـ" وجّه... كتابا إلى أبي العباس السفاح: بِسَمْعه و طاعته "[2]؛ و لما صار الأمر إلى أخيه، أبي جعفر المنصور، خلعَ طاعة بني العباس[3] لكن أخاه إلْياس اغتاله، و وجه بطاعته وَفْدًا إلى أبي جعفر المنصور فلجأ ابنه حبيب إلى عمه عِمران و اصطلح ثلاثتهم في النهاية " على أن يعود عمران إلى ولاية تونس و صَطْفُورة و الجزيرة، و يكون حبيب على قفْصة و قَصْطيلية و نفْزاوة و إلياس بسائر إفريقية و المغرب "[4] و يُلمس في هذا التعبير كذلك التأكيدُ بأن إفريقية جزء من المغرب بعيدا عن الأندلس.

و قد رافق إلياس أخاه عمران إلى تونس، حيث وثب عليه و على مجموعة من أصحابه " فشدّهم وثاقا و وجّه بهم إلى يوسف بن عبد الرحمان بن عقبة في سفينة و هو إذ ذاك والي الأندلس "[5] غير أن حبيبا ابن أخيه عبد الرحمان تمكن منه في آخر الأمر و قتله.

و لم يشر الرقيق بعد ذلك إلى أية علاقة بين إفريقية و ولاية الأندلس التي استقلّ بها، كما هو معروف، عبد الرحمان الدّاخل، و مع ذلك فإنّه استمر في إطلاق مصطلح المغرب إلى جانب مصطلح إفريقية على الأراضي التي بقيت تحت سيطرة الخلفاء العباسيين في الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط، و من ذلك أنه أورد، على سبيل المثال، أن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب " تولّى ولايات كثيرة قبل قدومه المغرب، منها أرمينية و السند و مصر و أذربيجان "[6] و أن أبا جعفر المنصور " كان ...عالما بالمغرب خائفا عليه، و كان لا يبعث إليه إلاّ أهل ثقته، من ذوي الرأي الأصيل ..."[7] و أنّ يزيد (بن حاتم) قال: " و لما ولاّني المغرب انتهى في تشييعي إلى فلسطين "[8] و أنّ يزيد هذا استخلف، قبل موته، ابنه داود فـ" أقام واليا

1- الرقيق القيرواني: نفس المصدر، ص 130.

2- نفس المصدر، ص 133.

3- نفس المصدر، ص 133-134.

4- نفس المصدر، ص 137.

5- نفسه.

6- نفس المصدر، ص 150-151.

7- الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 151.

8- نفسه.

على إفريقية إلى أن قدم عمُّه رَوْحٌ أميراً على المغرب "[1] من قبل هارون الرشيد الذي وجَّه، بعد ولاية هرثمة بن أعين، " ابنَ مقاتل أميرا للمغرب "[2] و أن " سبب عزل ابـــن العكـــي عـــن المغرب "[3] أنه اقتطع من أرزاق الجند و أساء السيرة فيهم و في الرعية.

و قد استمرت تسمية المغرب تُطلق على المنطقة الواقعة غرب مصر، من شمال القـــارة الإفريقية، حتى بعد قيام دول: بني رُستم و الأدارسة و الأغالبة التي استقلت كلٌّ واحدة منـــها عن الخلافة العباسية بدليل أن إجابة بعض أصحاب إبراهيم بن الأغلب، عندما استشـــارهم في شأن إدريس الثاني، كانت كما يلي: " أصلح الله الأمير، قد علم من حضر و غاب، من أمـــر المغرب أنه لم يظفر بمثل ظفرك، و لا كان له ما كان لك، فدَعْ ابن إدريس مَا وادَعَك..."[4]

و مما يمكن استنتاجه، من الاطلاع، على مضمون " تاريخ إفريقية و المغرب " أن إطـــار موضوعه لا يتعدّى السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط و أن مصطلح إفريقية الذي كـــان يطلق على الإقليم الذي كانت تشرف عليه قرطاجة ثم القيروان بعدها، كثيرا ما كان يـــرادف مصطلح المغرب الذي كان يطلق على المناطق الواقعة غرب مصر، و كثيرا ما كان يطلق علـــى الاتجاه الغربي لكن حدوده الشمالية بقيت محصورة في الضفة الجنوبية مـــن البحـــر الأبيـــض المتوسط.

و في كتاب " المعجب في تلخيص أخبار المغرب "(تمّ تأليفه سنة 621هـ/1224-1225)، يُميِّزُ عبد الواحد المراكشي بوضوح بين المغرب و الأندلس[5] و يستنتج من المعلومـــات الـــتي قدّمها عن مدن المغرب الساحلية[6] أنه يعتبر السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط بمثابة خط الحدود الشمالية للمغرب بدءا بمدينة برقة " أوّل بلاد المغرب مما يلي ساحل البحر الرومـــي "[7] إلى مدينة طنجة " آخرها مما يلي ساحل البحر الأعظم (المحيط) "[8].

1- الرقيق القيرواني: نفس المصدر، ص 169-170.

2- نفس المصدر، ص 203.

3- نفس المصدر، ص 205.

4- نفس المصدر، ص 225.

5- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 346 فما بعدها من عدّة صفحات؛ الترجمة الفرنسية : E . Fagnan. dans Revue Africaine, no 209, 1893, p.224 Sqq.

6- نفسه؛ Id.

7- نفس المصدر، ص 354؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.231.

8- نفسه؛ I.d.

و قد يعتقد المتأمل في عنوان " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب " الذي خصصه ابن عذاري المراكشي[1] (ت. نهاية القرن7هـ/ 13 م) لكتابهِ أنه يريد أن يفصل بين البلدين (الأندلس و المغرب) و يؤكد أنهما مستقلان عن بعضهما، لكن هذا المتأمل سيفاجأ، و لا شك، عندما يطلع على مضمون الفصل الخاص بـ " ذكر حدّ المغرب و إفريقية و ما اتصل بهما و عُدَّ معهما "[2] و فيه يلخص ابن عذاري ما نقله عن أبي مروان " في كتاب " المقباس " و ابن حماده في كتاب " القبس " و غيرهما من المؤرخين لأخباره (المغرب)..."[3] و خَلُص إلى القول بأن " حدّ المغرب هو، من ضفة النيل بالإسكندرية... إلى آخر بلاد المغرب، و حدّه سلا، و يَنقسم أقساما: فقسم من الإسكندرية إلى إطرابلس... و قسم من إطرابلس و هي بلاد الجريد و يقال أيضا بلاد الزاب الأعلى؛ و يلي هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل و حدّها إلى مدينة تيهرت، و يليها بلاد المغرب؛ و هي بلاد طنجة؛ و حدّها مدينة سلا، و هي آخر المغرب... و بلاد الأندلس أيضا من المغرب و داخلة فيه لاتصالها به، و يليها المجاز الأعظم المسمى بحر الزقاق... و حدّ المغرب في الجوف (الشمال) البحر الشامي (المتوسط)، و هو بحر الإسكندرية، و هو المتفرّع في بحر الزّقاق (مضيق جبل طارق) من جزيرة طريف و علامته صنم قادس و حدّ المغرب من الغرب البحر المحيط المسمّى الأبلايه (الأطلسي) و صار المغرب كالجزيرة: داخل فيه بعض أعمال مصر، و أفريقية كلها، و الزاب و القيروان و السوس الأدنى و السوس الأقصى و بلاد الحبشه... ".[4]

و ابن عذاري هنا يقسم المغرب، كما يلاحظ، مرّتين: ففي المرة الأولى أطلق على أحد أقسامه و هو الجزء المحصور بين مدينتي تيهرت شرقا و سلا غربا، و سماه " بلاد المغرب " و " بلاد طنجة " في آن واحد؛ و هنا يعتبر بلاد الأندلس من المغرب (الكبير) أي المغرب غير المُقسّم.

1- راجع ابن عذاري المراكشي: المصدر السّابق.

2- نفس المصدر، جـ.I، ص 5.

3- نفسه.

4- نفس المصدر، ص 5-6.

أمّا في المرة الثانية، و هي التي جعل فيها البحر الشامي (الأبيض) حدًّا فاصلا للمغـــرب من الجوف (الشمال) فلم يتعرض فيها لذكر الأندلس و لا للمغرب (الصغير) الذي هو عبـارة عن إقليم طنجة.

و النتيجة التي يمكن التوصل إليها أن ابن عذارى هو أوّل من ذكر من المؤرخين بوضوح مغربين: كبيرا و صغيرا، إن صح التعبير، كما يمكن تسجيل تردد ابن عذاري في إلحاق الأندلس بالمغرب من عدمه، و لكن عند أخذ عنوان كتابه" البيان المغرب في ذكـــر أخبـــار الأندلـــس و المغرب " بعين الاعتبار، يَتولّد لدينا شك بعدم قناعته بتبعيّة الأندلس للمغرب، و إلاّ كـــان عليه اختيار عنوان أنسب لكتابه.

و بالنسبة لعبد الرحمان بن خلدون (ت.808هـ/ 1406م) فإن حدّ المغرب، من جهـــة الشمال هو البحر الرومي (المتوسط) المتفرّع من البحر المحيط " يخرج من خليج متضايق، بـــين طنجة من بلاد المغرب، و طريف، من بلاد الأندلس، و يسمّى هذا الخليج الزقاق (مضيق جبل طارق)... ثم يذهب هذا البحر الرومي في سمت الشرق إلى أن ينتهي إلى سواحل الشام..."[1].

و في مكان آخر يذكر ابن خلدون، في نفس الموضوع: أن البحر الرومي يبدأ في خليـج متضائق... ثم يذهب مشرقا... و عليه، من جهة الجنوب سواحل المغرب: أوّلها طنجـــة عنـــد الخليج (مضيق جبل طارق) ثم إفريقية ثم برقة إلى الإسكندرية..."[2].

و في حديث ابن أبي دينار القيرواني (عاش في القرن 11 هـ/16 م) عـــن المؤرخـــين و الجغرافيين يذكر أنهم " جعلوا حدود المغرب من سيب بحر النيل بالمشرق إلى ساحل البحـــر المحيط، من ناحية المغرب، و حدّ إفريقية، من برقة إلى طنجة، و عرضها من البحر الشـــامي إلى الرمال... قاله غير واحد "[3] كما يقول.

و يتبيّن من هذا النص أن ابن أبي دينار استخدم مصطلح المغرب إلى جانب مصطلـــح إفريقية، يبدأ أوّلهما من " سيب بحر النيل " و يبدأ ثانيهما " من برقة لينتهيا معـــاً في طنجـــة، و عندما تحدث عن العرض الذي يمتد، من الشمال حيث يحدّه البحر الشامي (المتوســـط) إلى الجنوب. لم يشر إلى ما يوحي بأن الأندلس أو غيرها تابعة للمغرب أو لإفريقية.

1–ابن خلدون: العبر، جـ .6، ص 195.

2– ابن خلدون: مقدّمة، ص 45–46.

3– ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 20.

و يردّ هشام جعيط سبب الربط بين مصطلحي إفريقية و المغرب إلى كـــون المصطلـــح الأول، و هو كلمة Africa اللاّتينية، قد أُطلقت تسميته (Africa Vetus ou Propria) في بدايـــة السيطرة الرومانية على شمال تونس الحالية، و في عهد القيصر César أطلق على نوميديا اســـم Africa Nova التي بقيت منفصلة إداريا حتى سنة 25 ق.م و منذ ذلك التاريخ بلـــغ التّصـــوّر القانوني لإفريقية أوج توسّعه باحتوائه منطقتي طرابلس و برقة لكنه لم يشمل الموريطانيتين. و في عهد ديوكليسيان وُلدت أسقفية (Diocése) إفريقية التي تشمل الإفريقيتين و الموريطـــانيتين، و من هنا، حسب رأي جعيط جاء اللّبس الذي صار يخيّم على مصطلح إفريقية بمعنى أن المفهوم القانوني يمكن أن ينطبق صدفه مع المفهوم الجغرافي أو يتجاوزه. و بمجيء العرب أصبح المصطلح الإداري المتداول لتسمية الولاية هو إفريقيَة الذي وصلنا في قِطع النقود لكن اللّبس نفسه استمر قائما بسبب التقلبات المختلفة التي اجتازها الولاية... و بســـبب بَقـــاء المخلفـــات الجغرافيـــة راسخة.[1]

أمّا مصطلح " المغرب "، في نظر نفس المؤلف، فهو مفهوم غامض يمكن أن يعوّض بـــه المؤرخون مفهوم إفريقية، و ما هو، عموما، سوى انبعاث لمفهوم موريطانيا و هو يبـــدأ مـــن الناحية الغربية، حيث تنتهي إفريقية، و كثيرٌ ما تطلق عليه عبارة " إفريقية و المغرب " فيبـــدو إسما ملحقا، و في حالات أكثر نُدرة يستعمل عِوضا عن إفريقية سواء في صيغـــة " المغـــرب " البسيطة، سواء في صيغة " المغرب كلّه " الأشمل و النّغمة القانونية هي الأكثر شيوعا، و تطلـــق على ولاية المغرب الإسلامي الكبرى و تشمل الأندلس أيضا.[2]

و إذَا كُنّا لا نعارض جعيط فيما قاله في شأن إفريقية، فإننا لا نوافقه على كل ما قاله في شأن المغرب، و بالأخص ما يتعارض مع محتويات النصوص الجغرافية و التاريخية التي عـــالجت الموضوع، إذ لا تجعل تلك النصوص بداية المغرب عند انتهاء إفريقية، كما يقول، بل إنها كثـــيرا ما تطلق تسمية المغرب عوضا عـــن إفريقية و ما يليها من المناطق الواقعة في نواحيها الغربية،

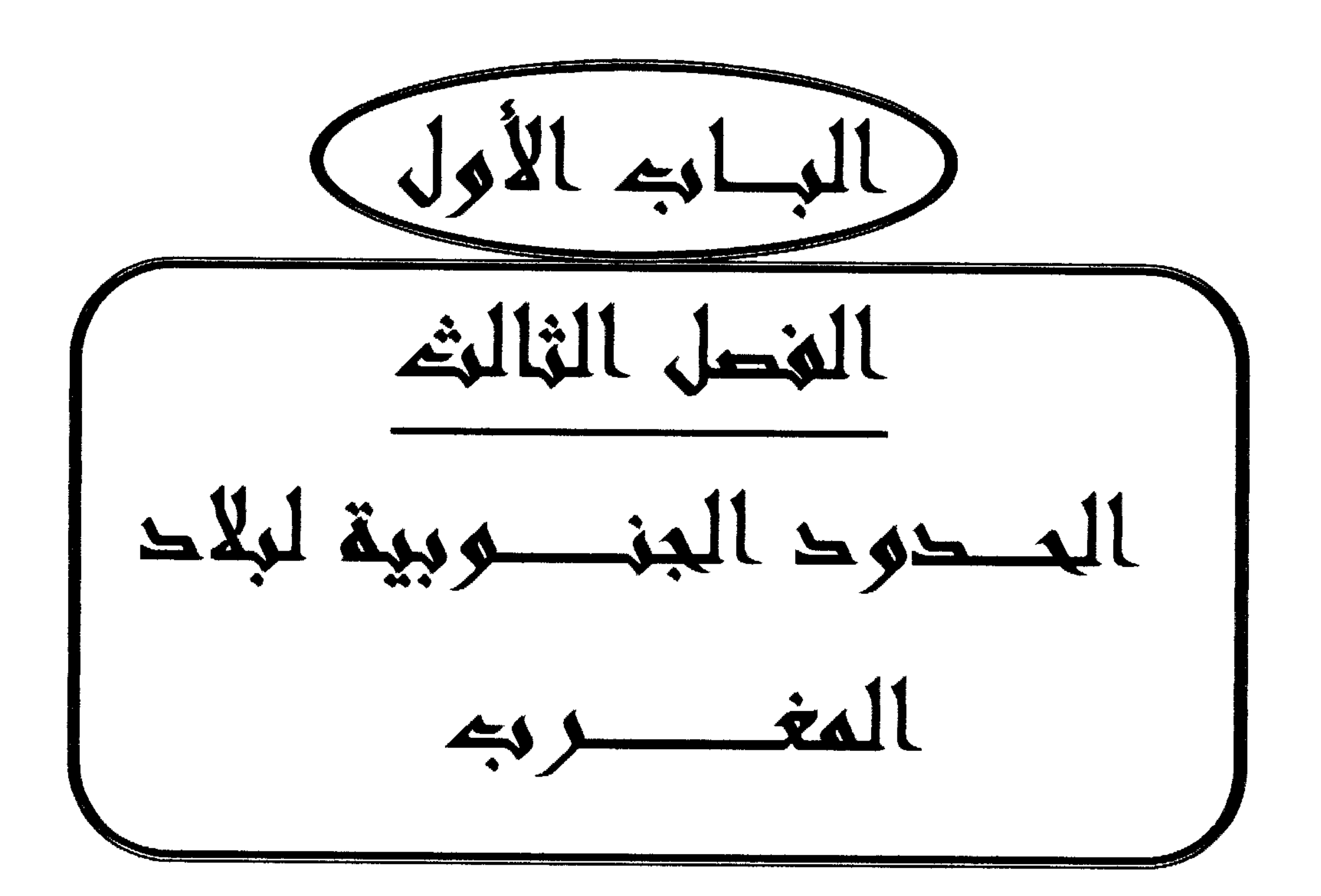
H. Djait : La Wilaya , d'Ifriquiya au IIe/VIIIe Siècle, Etude institutionnelle, Studia -1
. Islamica, T.27, 1967, p.p 88-89.
. Ibid, p.89. -2

و في حالات قليلة جدًّا تستعمل تعابير أخرى منها " المغرب و إفريقية " أو " المغرب كله " أمّا نغمة " ولاية المغرب الإسلامي الكبرى التي تشمل الأندلس و التي أسماها جعيط النغمة القانونية الأكثر شيوعا فلا وجود لها تماما في المصادر المستخدمة في هذا البحث.

فالمؤرخون كما رأينا منسجمون أكثر من الجغرافيين في تعيين حدود بلاد المغرب الشمالية و هم، باستثناء، تردّد ابن عذاري، مجمعون على تحديدها بالخط الساحلي لضفة البحر الأبيض المتوسط الجنوبية و هذا الموقف المشترك يرجّح كفة الجغرافيين الذين كانت لهم مواقف مشابهة و بالتالي يمكن القول أن أغلب الجغرافيين و المؤرخين العرب يعتبرون حدود بلاد المغرب من الناحية الشمالية مَرسومة بخطوط السّواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، و لا تتجاوزها إلى الأندلس و لا جزر البحر المذكور.

و يدعّم هذه النتيجة بطبيعة الحال العنصر الديموغرافي، بحيث أننا إذا طبقنا القاعدة المعمول بها في رسم الحدود الشرقية و الجنوبية و التي يراعى فيها العنصر البشري باعتبار أن بلاد البربر (Berberie) هي نفسها بلاد المغرب فتُرسم حدود بلاد المغرب مع نهاية انتشار السكان البربر في كل نواحي البلاد و منها الناحية الشمالية.

و المعروف تاريخيا أن انتشار البربر شمالا لم يتجاوز الضفة الجنوبية من البحر المتوسط إلاّ بعد مساهمتهم الفعّالة في حركة الفتوحات الإسلامية التي اتجهت إلى الأندلس و جزر البحر المتوسط، بعد نهاية القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) غير أن الأعداد التي استقرت منهم هناك كانت محدودة نسبيا، و يمكن القول إنهم لم يكونوا فيها ببلادهم.



الباب الأول
الفصل الثالث
الحدود الجنوبية لبلاد
المغرب

رسم الحدود الجنوبية لبلاد المغرب، حسب المصادر العربية:

يتفق جغرافيو و مؤرخو بلاد المغرب في العصر الوسيط، عموما، على أن الصحراء كانت دائما تشكل الحدود الجنوبية لهذا البلد، غير أنهم لم يحددوا بدقة هذه الحدود، ذلك أن الصحراء واسعة جدًّا، و هم لا يذكرون عادة ما إذا كانت تابعة كليا أم جزئيا أو أنها لم تكن تابعة لها بالمرة.

و من ثمة أصبح من الضروري القيام بسبر آراء أهم الجغرافيين و المؤرخين واحداً واحداً لغرض تكوين حوصلة في آخر الأمر، و رسم خطٍّ لتلك الحدود اعتمادا عليها.

و أوّل هؤلاء ابن عبد الحكم (ت 257هـ/871م) الذي تحدّث عن أخبار حملة عقبة بن نافع سنة 46هـ/666 م على أرض فزّان، و حدد بالمناسبة موقع هذه الأخيرة في مدخل الصحراء، و ضبط المسافة التي تفصلها عن " كوّار " عاصمة بلاد كوّار بمسيرة خمسة عشر يوما ثم أضاف أن عقبة عسكر، أثناء عودته من تلك الحملة بالمكان المعروف آنذاك بزويلة و منها التحق بجيشه ليتجه به نحو المغرب.[1]

و هنا يمكن التساءل، فيما إذا كانت منطقتا فزّان و كوّار، تُعتبران من بلاد المغرب؟ و إذا كان الأمر كذلك، ففي هذه الحالة، يكون ابن عبد الحكم قد استعمل لفظ " المغرب " بمعنى الاتجاه الغربي.

و في حالة ما إذا كان قد أطلق هذه التسمية " على بلاد المغرب " و ليس على الاتجاه الغربي فهذا يعني أن المنطقتين المذكورتين لا تدخلان فيها؛ مع ملاحظة أن ابن عبد الحكم لم يستعمل بهذه المناسبة مصطلح " السودان " أو " بلاد السودان " مما يستنتج منه أن كوّار لم تكن تابعة لبلدهم.

و رغم أن اليعقوبي (ت.278هـ/ 891 م) كان، بصفته موظفا ساميا، في البريد العباسي، يعرف الكثير عن دار الإسلام، و هو لم يقصر في جمع الملاحظات و المعلومات أثناء تنقله عبر بلاد المغرب[2]، إلاّ أنه لم يضف جديدا من شأنه أن يبين ما إذا كانت فزّان و كوّار تابعتين

1- ابن عبد الحكم: في Joseph M. Cuoq: Recueil des Sources Arabes Concernant L'Afrique occ. Du VIII au XVe siécle, trad.et notes Par Joseph M. Cuoq, Paris 1975, pp45-46. ؛ أنظر الخريطة رقم 1.

2- أنظر اليعقوبي في Joseph M. Cuoq: op.cit, pp.3-4.

لبلاد السودان و إن كان من الواضع جدًّا أن كلامه عنهما يدخل في إطار كلامه عن الناحية الجنوبية الشرقية من بلاد المغرب.[1]

و لم يحاول اليعقوبي أثناء وصفه للمنطقة الجنوبية الغربية لبلاد المغرب أن يبيّن الحدّ الفاصل بينها و بين بلد السودان، غير أنه يذكر، عند وصفه للطريق الرابط بين هذه الأخيرة و بين مدينة سجلماسة أنه يقع بعد أرض غُسْط (أَوْدغست)[2].

و أوّل من حاول تسطير حدود المغرب الجنوبية بصفة عامة هو الاصطخري (ت. بعد 340هـ/ 951م) حيث لا حظ أن الرمال تغطي حدود بلاد المغرب من حدّ البحر المحيط إلى ما وراء سجلماسة، ثم تمتدّ بعدها إلى زويلة فإلى ظهر الواحات بمصر.[3]

و في مكان آخر يقول الاصطخري إن " بلد السودان الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط ... ليس بينه و بين شيء من الممالك اتصال غير أن حدًّا له ينتهي إلى البحر المحيط و حدًّا له إلى برية بينه و بين أرض المغرب و حدًّا له إلى بريّة بينه و بين أرض مصر على ظهر الواحات..."[4].

و يجعل مدينة زويلة (قصبة فزّان) " من حدّ المغرب... و لها كورة عريضة متاخمة لأرض السودان "[5] و الكورة التي يتحدث عنها الاصطخري هنا هي، بطبيعة الحال، فزّان، ما دامت زويلة قَصبتها.

و قد كان ابن حوقل (ت. 378 هـ/ 988 م) الذي يعرف مناطق كثيرة من بلاد المغرب، و الذي جمع معلومات ضافية عنها[6]، أدق من الاصطخري، في رسم خط هذه الحدود، ما بين بلاد النّوبة الواقعة جنوب مصر و بين البحر المحيط (الأطلسي) " بنواحي أرض غانة و أرض أودغست "[7].

كما يحدد بُعد هذه الأخيرة عن سجلماسة بشهرين " على سمت المغرب، فتقع منحرفة

1- أنظر J.M. Cuoq : op.cit., p.345.

2- أنظر . J.M.Cuoq : op.cit., p.p.226-227 ؛ أنظر الخريطة رقم 1.

3- كتاب المسالك و الممالك، ص 37.

4- نفس المصدر، ص 10-11.

5- نفس المصدر، ص 40.

6- ابن حوقل: المصدر السابق، ص 8؛ الترجمة الفرنسية J.H. Kramers et G.Wiet T.1, p p .79-80.

7- نفس المصدر، ص 60؛ الترجمة الفرنسية Ibid, 50.

محاذاة عن السوس الأقصى و كأنهما مع سجلماسة مثلث طويـــــــل الساقين أقصر أضلاعـــه من السوس إلى أودغست "[1].

" و على سمت (عرض) أودغست (كما يضيف)... في نقطة المغرب (إلى الغرب منـــها) أو ليل و هو على نحر البحر و آخر العمارة، و أوليل معدن الملح ببلاد المغرب ، بينها و بـــين أودغست شهر، و من أوليل إلى سجلماسة... شهر و كسر..."[2].

و ما يهمنا في هذا النص هو إدراج " معدن أوليل " الذي يبعد عن سجلماسة بمســـافة شهر و كسر، صراحة ضمن إطار المغرب و ما دام آخر العمارة، كما يقول، فهو إذا يمثل نقطة الحدود الفاصلة بين بلاد المغرب و بين السودان؛ في حين يبقى أمر إدراج أودغست في نفـــس الإطار، حسب النص، مجرد احتمال يستنتج من سياق كلام ابن حوقل.

و يحدد البكري في كتابه المسالك و الممالك (انتهى من تأليفه سنة 460هـــــ/ 1068م) عرض إفريقية (و يعني بها بلاد المغرب)" من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد الســـودان "[3] و هذه عبارة يمكن إضفاء عدة تفسيرات عليها؛ إذ قد يفهم من كلمة الرمال (الصحراء): أنهـا تدخل في إطار المغرب دون السودان أو العكس، و لا يفهم كذلك ما إذا كان هذا الدخـــول كليا أو جزئيا و خاصة و أنه عندما يتحدث عن مدينة زويلة مثلا يحدد موقعها بـــ " وســـط الصحراء "[4] مضيفا بأنها " أول حد بلاد السودان "[5] أي أن حد بلاد السودان، حسب هـــذا التعبير، يبدأ أو ينتهي في هذه المدينة، بفزان جنوب غرب طرابلس، على بعد أربعة عشر يومـــا من مدينة أجدابية أي أنه: لا يبدأ من شمال الصحراء و لا من جنوبها، و إنما يبدأ من وســـطها؛ و لا يوضح البكري ما إذا كانت مدينة زويلة نفسها تابعة للمغرب أم للسودان.

و لحسن الحظ أنه في مكان آخر يقول " و بين زويلة و بلد كانم أربعون مرحلة، و هـــم وراء صحراء بلاد زويلة، لا يكاد أحد يصل إليهم، و هم سودان مشركون "[6] مما يستنتج منه، في حالة ما إذا تأكدنا من أن مدينة زويلة تابعة للمغرب، أن حدوده تمتد جنوبا إلى مـــا وراء

1- كتاب صورة الأرض، ص 92.

2- نفس المصدر، ص 92-93؛ أنظر الخريطة رقم 1.

3- المصدر السابق، ص 21؛ الترجمة الفرنسية **Mac Guckin de Slane : op.cit., p .490** .

4- نفس المصدر، ص 10؛ أنظر الترجمة **Dans J.M.Cuoq : op.cit., p p 81-82** .

5- نفسه؛ الترجمة. **Id** .

6- نفس المصدر، ص 10-11؛ الترجمة، **Ibid, p.82.** .

صحرائها التي تنتهي بعد أربعين مرحلة، حيث تبتدىء بلاد كانم، و في هذه الحالة يكون ضم كوار الذي يبعد عنها بمسافة خمس عشرة مرحلة بمثابة تحصيل حاصل.

و بعيدا عن مدينة زويلة، في الناحية الغربية، يتحدث البكري عن قيطون بياضة[1] بمنطقة الزاب، و يلاحظ تفرع الطريق هناك إلى ثلاث اتجاهات، منها: اتجاه يؤدي إلى بلاد السودان[2]؛ و يبدي نفس الملاحظة التي أبداها قبله ابن حوقل في شأن سجلماسة، جنوب المغرب الأقصى، فيحدد المسافة التي تفصلها عن أودغست بمسيرة شهرين، و يقدر المسافة بين أودغست و غانة بخمسة عشر يوما [3] و يوضح إمكانية السفر إلى بلاد السودان، عن طريق الصحراء، انطلاقا من وادي درعة، على أربع أو خمس مراحل غرب مدينة سجلماسة[4] كما يمكن ذلك أيضا، انطلاقا من تامدلت[5]، على بعد ثلاثة مراحل إلى أربعة، من وادي درعه ".[6]

و يعتبر البكري، أخيرا، مدينة نول لمطة التي تبعد عن وادي درعة بثلاث مراحل، غربا، " آخر مدن الإسلام " و... أول الصحراء[7] أو هي " أول العمران من الصحراء "[8]، أي أول مدينة يجدها من يعبر الصحراء من الجنوب إلى الشمال. و عند التمعن فيما كتبه البكري يظهر و كأنه رسم الحدود الجنوبية لما يسميه إفريقية التي أطلق عليها غيره المغرب، بدءا بزويلة و مرورا بقيطون بياضه فسجلماسة و درعة و تامدلت إلى نول.

و بعد البكري يحدد الشريف الإدريسي (ت.560/ 1160 م) موقع مدينة سنترية بأول الصحراء، على بعد تسع مراحل من البحر الشامي (المتوسط) قائلا " و من سنترية يسير من أراد الدخول إلى كوار و سائر بلاد السودان "[9]، كما يمكن الدخول إلى كثير من أرض

1- تقع بالقرب من مدينة باديس، على بعد مرحلة من مدينة تهوذا (نفس المصدر، ص 74؛ الترجمة لـ M-ac Guckin de Slane : op.cit, p.152.

2- نفسه؛ Id

3- يحدد ابن حوقل المسافة بينهما بما يزيد قليلا عن عشرة أيام في غير القوافل (أنظر J.M. Cuoq : op.cit, pp.72-73)

4- أنظر المغرب، ص 149، 163-164.

5- نفس المصدر، ص 156 فما بعدها.

6- نفس المصدر، ص 163.

7- المغرب، ص 161-162.

8- نفس المصدر، ص 86.

9- القارة الإفريقية، ص 106.

السودان. مثل بلاد كوّار و بلاد كوكو انطلاقا من مدينة أوجلة[1] الواقعة على بعد عشرة أيام غرب سنترية[2] و خمسة من أجدابية في أرض برقة[3] و من مدينة زالة الواقعة على عشر مراحل غرب أوجلة[4] و من ودّان الواقعة على ثمانية أيام من زالة، و على خمس مراحل من مدينة سُرت[5] و من مدينة زويلة الواقعة على عشر مراحل جنوب غرب زالة[6] و على خمس مراحل كبار من سُرت[7] و من وارقلان الواقعة على بعد إثنتي عشرة مرحلة كبار من مدينة المسيلة ".

و الإدريسي هنا كما يلاحظ يخالف البكري، في أمر مدينة زويلة، فهو لم يتردّد، مثله، في جعل زويلة من بلاد المغرب بل يعتبرها إحدى نقاط الانطلاق إلى بلاد السودان التي تبدأ بكوار و كوكو جنوبا لكن الإدريسي لم يوضح ما إذا كان الخط الذي يربط مدينة سنترية بوارقلان، مرورا بأوجلة وزالة و ودّان و زويلة يشكل جزء من الحدود الجنوبية لبلاد المغرب مع بلاد السودان مما يجعل الباحث يستنتج أن تلك السلسلة تشكل آخر المدن التي يتركها المسافر في بلاد المغرب عندما يقصد بلاد السودان.

و لم يواصل الإدريسي مدّ خط هذه المدن إلى المناطق الواقعة غرب وارقلان و كأنه تفادي تكرار ما سبقه إليه البكري، بل عمل على ملء ما تركه هذا الأخير من فراغ في المنطقة الجنوبية، متبعا نفس المنهج، لكنه حاول أن يأتي بجديد في المنطقة الجنوبية الغربية: فحدّد موقع مدينة أرَنْسَى بسبع مراحل من مدينة نول لمطة أو نول الغربية و بثلاث عشرة مرحلة من سجلماسة و ذكر أنها تسمّى بالبربرية أَزُقي أو أَزُكي و بالجناوية (السودانية) قُوقدم و أنها أوّل مراقي (محطات) الصحراء و أن من يقصد مدن سَلى و تكرور و غانة السودانية، لا بدّ له أن يمرّ بها.[8]

1- الإدريسي: نفس المصدر، ص 213.

2- نفس المصدر، ص 106.

3- نفس المصدر، ص 213.

4- نفسه.

5- نفس المصدر، ص 101، 213-214.

6- نفس المصدر، ص 101، 213.

7- نفس المصدر، ص 214.

8- أنظر القارة الإفريقية، ص 127-128؛ المغرب العربي في كتاب نزهة المشتاق، ص 75-76.

و من هذه المعلومات يتضح لنا أن مدينة أرنسَى أو أزُقي أو قوقدم لم تكن تابعة لبـــلاد السودان التي تفصلها عن أقرب مدنها إليها خمسٌ و عشرون مرحلة[1] جنوبا.

و على كلّ يمكن اعتبار معلومات الإدريسي مكمّلة، بحق لمعلومات البكري، في مجـــال محاولة رسم أوّل خط يشكل حدود بلاد المغرب الجنوبية، دون الإفصاح عن ذلك بصراحـــة، و يقتفي أثرهما صاحب كتاب الاستبصار (تم تأليفه سنة 587 أو 588 هـــ/ 1191 أو 1192 م)، متبعا نفس المنهج و بوضوح أكثر.

و مما سجله عن بلاد الواحات أنها كبيرة، في الصحراء، ما بين إفريقية و مصر، و هـــي آخر بلاد الإسلام، بينها و بين النوبة ستة مراحل[2] كما حدّد موقع زويلة في الصحراء، قـــرب بلاد كانم السودانية[3] و جعل مدينة غدامس، الواقعة في الصحراء، على بعد سبعة أيام من جبل نفوسة نقطة انطلاق المسافرين إلى بلد تادمكة و غيرها من بلاد السودان[4] مضيفـــا أن بـــلاد الجريد هي " آخر بلاد إفريقية على طرف الصحراء "[5]، و من كُوَرها قســـطيلية و قاعدتهـــا مدينة توزر الواقعة على طرف صحراء لم يتمكن أي أحد الدخول فيها.[6]

و بالقرب من مدينة درجين، آخر بلاد الجريد، يقع بلد سوف الذي لا يوجد خلفـــه سوى جبال من رمل يُصادُ فيها الفنك[7]؛ أمّا وارقلان التي تفصلها عن الجريد مســـافة تقـــدّر بحوالي أربعة عشر مرحلة[8] فتقع على طرف الصحراء بنواحي إفريقية[9] و تبعد عـــن تادمكـــة شمالا بمسيرة خمسين يوما تقريبا."[10]

1- أنظر Nuzhat al- Mushtak في J.M. Cuoq : op.cit, p.130.

2- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 33-34؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit, pp 63-63.

3- نفس المصدر، ص 32؛ الترجمة الفرنسية، Ibid, p.61.

4- نفس المصدر، ص 31-32؛ الترجمة الفرنسية .Ibid, pp.61-62.

5- نفس المصدر، ص 36.

6- نفس المصدر، ص 41-42؛ الترجمة الفرنسية، Ibid, pp.76-77.

7- نفس المصدر، ص 46؛ الترجمة الفرنسية .Ibid, p.85.

8- نفس المصدر، الترجمة الفرنسية Ibid, p.209(سقطت من النص العربي في طـــ. كريمر).

9- نفس المصدر، الترجمة الفرنسي Ibid, p.208 (سقطت من النص العربي في طـــ. كريمر).

10- نفس المصدر، الترجمة الفرنسية Ibid, p.209 (سقط النص العربي في طـــ. كريمر).

و تقع في طرف الصحراء كذلك بلاد الزاب، في سمت بلاد الجريد[1] أي على نفس العرض و تنتهي بقرية قيطون بياضة، حيث يتفرع الطريق إلى ثلاث اتجاهات منها واحد يؤدي إلى بلاد السودان[2].

و تنتهي حدود المغرب الأوسط[3]، جنوبا، بمدينة تنزل الواقعة بأول الصحراء على الطريق الرابط بين سجلماسة و وارقلان و غيرهما من بلاد الصحراء [4].

أما حدود المغرب (الأقصى) الجنوبية فهي تمتد، من نهاية بلاد ملوية و أحوازها، في أول بلاد سجلماسة، إلى الصحراء و إلى أقصى الجهة الغربية.[5] و سجلماسة تقع في أول الصحراء، و لا توجد بعدها عمارة، سواء في الناحية الجنوبية أو الغربية، ما عدا بوادي درعة على بعد خمسة أيام منها، و تفصلها عن غانة مسافة شهرين.[6]

و يشمل السوس الأقصى أراضي واسعة تقع على وادي سوس، و كذلك على مدن عديدة، من بينها نول لمطة، بأول الصحراء، على بعد حوالي ثلاث مراحل عن وادي درعة و هي آخر مدن السوس الأقصى.[7]

و الذي يتبين من كل ما قاله صاحب كتاب الاستبصار، أنه يفصل بكل وضوح بين بلاد المغرب و بين الصحراء، أي بين البلاد التي بها مدن و البلاد التي تخلو منها.

و يرسم الزهري (ت.أواسط القرن السادس الهجري/ 12 م) بدوره، خط الحد الشمالي لبلاد السودان " مما يلي المغرب " بدءا من مدينة نول، في الناحية الغربية إلى مدينة أرمس[8] ثم

1-مؤلف مجهول، نفس المصدر، ص 59؛ الترجمة الفرنسية .Ibid, p107

2- نفس المصدر، ص 64؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.114

3- يشمل المغرب الأوسط، حسب صاحب كتاب الاستبصار، على مدن كثيرة، و عاصمته تلمسان، و يحده من الناحية الشرقية بوادي مجمع، الواقع بين مدينة مليانة و تلمسان و من الناحية الغربية تازا (نفس المصدر، ص 64؛ الترجمة الفرنسية .(Ibid, pp.114-115

4- نفس المصدر، ص 64-65؛ الترجمة الفرنسية .Ibid. pp. 114-115

5- نفس المصدر، ص 68؛ الترجمة الفرنسية .Ibid, pp.120-121

6- نفس المصدر، الترجمة الفرنسية، Ibid, p.162 (سقطت من النص العربي، ط. كريم).

7- نفس المصدر، الترجمة الفرنسية Ibid, p.184 Sq(سقطت من النص العربي).

8- لا شك و أنه يقصد بها ما أسماه الإدريسي بأرنسى أو أزقي أو أزكي أو قوقدم.

إلى مدينة وارقلان، في الناحية الشرقية[1] و في مكان آخر: يرسم الحـــدود الجنوبيـــة للســـوس الأقصى، في بـــلاد المغـــرب، مـــن " مدينـــة نـــول في المغـــرب (إلى) مدينـــة أزقـــي في المشرق "[2].

و مدينة أَرَمَسّ هذه هي التي يطلق عليها الإدريسي تسمية أرنسى و يقول بأنها تســـمى بالبربرية أزقي أو أزكي أي أن الزهري هنا أطلق تسميتي أرمس (أرنسى) و أزقي على مدينـــة واحدة،و إذا قمنا بالتصويب اللازم ينجم عنه أن حدود بلاد السودان الشمالية تمتد من مدينـــة نول غربا إلى مدينة أرمس أو أرنسى أو أزقى إلى مدينة وارقلان مشرقا.

و قد ورد في كتاب معجم البلدان (تم تأليفه سنة 617 هـــ/1220 م) لياقوت الحمـــوي أن " زويلة السودان "[3] تقع ما بين بلاد السودان و إفريقية[4] و أن غدامـــس تقـــع جنـــوب المغرب، داخل بلاد السودان[5] و أن سجلماسة تقع في طرف بلاد السودان [6] و أن غانة تقـــع جنوب المغرب و فيها يتزود التجار أثناء رحلتهم إلى بلاد السودان[7] و هي معلومات تفتقـــر، كما يبدو، إلى كثير من الدقة.

و في حديث ابن عذاري المراكشي (ت. نهاية القرن السابع الهجري/ 13م) عن حـــدود المغرب الغربية انطلاقا من مدينة سلا " آخر المغرب (في الناحية الشمالية الغربية) [8] يبيـــن أن ما يأتي بعدها، من جهة السواحل الأطلسية في اتجاه الجنوب، بلاد تامسنا أي الســـوس الأدنى و تنتهي بجبل درن ثم بلاد السوس الأقصى، و هي بلاد ماسه " و يتصل السوس الأقصى ببـــلاد الصحراء إلى بلاد السودان و هي بلاد الزنج "[9].

1- الزهيري: المصدر السابق، ص 119.

2- نفس المصدر، ص 117.

3-نشره أحمد سعيد الشنقطي سنة 1323هـــ/ 1906 م، مجلد 8، ص 370.

4- نفس المصدر، ص 268.

5- نفسه.

6- نفس المصدر، مجلد5، ص 41.

7- Yakut في J.M.Cuoq : op.cit, p186.

8- البيان المغرب، ص 1، 5.

9- نفس المصدر، ص 6.

و ابن عذاري الذي لخص معلومات أبي " مروان في كتاب " المقباس " و ابن حماده في كتاب " القبس " و غيرهما من المؤرخين لأخباره (المغرب) "[1]، يبين هنا، بما فيه الكفاية، أن بلاد السودان تقع وراء الصحراء من نواحيها الجنوبية الغربية.

و يبين من جهة أخرى أن " المغرب " صار كالجزيرة " تدخل فيه " بعض أعمال مصر و إفريقية كلها، و السوس الأدنى و السوس الأقصى و بلاد الحبشة، و منه يتفرع نيل مصر "[2].

و يزودنا عبد الرحمان بن خلدون (ت 808هـ/1406م) بأفضل توضيح في موضوع الحدود الجنوبية لبلاد المغرب حيث يذكر أن رمالا متحركة تعرف بالعرق، تشكل خطا مستقيما، لا يقل عرضه عن ثلاث مراحل، يمتد من المحيط الأطلسي إلى وادي النيل بمصر، فيفصل ما بين بلاد المغرب و بلاد السودان.[3]

و توجد، حسب نفس المصدر، شمال العرق، جبال: أولها درن، عند المحيط الأطلسي و آخرها برنيق ببرقة تشكل سياجا أي حاجزا آخر يحيط بالتلول، بينه و بين العرق سهول و قفار، أكثر نباتها الشجر، منها أرض السوس الأقصى جنوب مراكش و سجلماسة و درعة جنوب فاس و قصور متعددة جنوب تلمسان، و أخرى جنوب تاهرت و جنوب الجزائر، و واركلى (وارقلان) جنوب بجاية، و في سمت (اتجاه) واركلى، من جهة التلول تقع بلاد ريغ، و عاصمتها بسكرة، و بعدها بلاد الجريد، جنوب تونس، و تسمى كلها بلاد قسطيلية ثم قابس جنوب سوسة و فزان و ودان، جنوب طرابلس و أخيرا الواحات جنوب برقة. و كل ما وراء هذه الأماكن و المدن المذكورة في ناحية الجنوب قفار و رمال إلى أن ينتهي إلى العرق.[4]

و توجد وراء العرق من جهة الجنوب، بعض البلاد الجريدية ذات نخيل و أنهار، تعتبر

1- ابن عذارى: البيان، جـ1، ص 5.

2- نفس المصدر، ص 6.

3- العبر، 6، ص 177-178.(طـ.بيروت)

4- العبر، 6، ص 197-198؛ و يعترض هذا العرق، في جهة المغرب الأوسط أرض محجرة تسمى عند العرب الحمادة ما بين مصاب و وادي ريغ (نفس المصدر، ص 198؛ أنظر الترجمة الفرنسية Le Baron de Slane, Histoire des Berbères, traduction française Faite Par Le Baron de Slane, Paris 1978, T.1, p.190.

من بلاد المغرب، و منها: بلاد بودة و تمنطيت، جنوب المغرب الأقصى، و تسابيت و تيكورارين، جنوب المغرب الأوسط، و غدامس و فزان و ودان جنوب طرابلس، و يشتمل كل واحد من هذه الأقاليم على المائة و أكثر من بلدان عامرة ذات قرى[1] و يلاحظ هنا أن ابن خلدون سجل كلا من فزان و ودان شمال امتداد العرق و جنوبه.

و إلى ما وراء العرق كانت، تنتهي، في بعض السنوات، مجالات أهل صنهاجة و متقلبهم الجائلين هناك إلى بلاد السودان[2] في الصحاري المتصلة التي تمتد بين هذه الأخيرة و بين " أرض البربر "[3] أي أنها تفصل بينهما.

رسم الحدود الجنوبية لبلاد المغرب حسب العامل الديموغرافي:

و في تعريف القزويني (ت.682 هـ/1283 م) لبلاد السودان، يذكر أنها " تمتد شمالا إلى بلاد البربر، و جنوبا إلى الصحاري، و شرقا إلى الحبشة، و غربا إلى المحيط (الأطلسي)، و هي أرض أحرقتها الشمس..."[4] .و هو تعريف لا ينطبق، كما يبدو على بلاد السودان لكن الذي يهمنا هو استخدام القزويني كالإدريسي لمصطلح " بلاد البربر " الذي أطلقه مثله على بلاد المغرب و هذا ينسجم مع العرف الذي كان جاريا بين سكان هذه المنطقة و الذي تحدث عنه ابن خلدون (ت. 804هـ/1406 م) و يقضي أن تسمية المغرب كانت تطلق على ما " كان في القديم ديار البربر و مواطنهم "[5].

و إذا سلمنا بصحة هذه النظرية، يكون من البديهي التسليم بمبدأ القول " و العكس صحيح ": أي أن بلاد البربر تمتد جنوبا إلى بلاد السودان، و يبقى أن نعرف، عندئذ، إلى أي حد تمتد بلاد البربر جنوبا؟ و إلى أي حد تمتد بلاد السودان شمالا؟ حتى تكون الأراضي التي يعيش أو ينتشر فيها البربر للبربر و بالتالي جزءا من بلاد المغرب؛ و الأراضي التي يعيش أو ينتشر فيها السودان للسودان، و هي كذلك جزء من بلاد السودان. و لتوضيح هذه القضية يحتاج الأمر إلى اقتفاء آثار التسجيلات التي تركها لنا المؤرخون و الجغرافيون القدماء في هذا الموضوع.

1- ابن خلدون: نفس المصدر، ص 198؛ الترجمة الفرنسية، Ibid , p.191 .

2- نفس المصدر، ص 198، 200؛ الترجمة الفرنسية. Id.

3- الإدريسي: المصدر السابق، ص 39؛ الترجمة الفرنسية لـ J.M. Cuoq : op, cit, p.134.

4- أنظر al- Kazwini في J.M.Cuoq, op.cit, p.199.

5- العبر، 6، ص 201؛ الترجمة الفرنسية لـ Le Baron de Slane : op.cit, p.194.

و بمناسبة حديث ابن عبد الحكم (ت.257 هـ/871م) عن حملة عقبة بن نافع، لبلاد السوس، في ولايته الثانية على المغرب ذكر أن " أهل السوس بطن من البربر يقال لهم أَنْبِيَة..."[1]

و يذكر اليعقوبي (ت .278/ 891م) بعده أن المسافر من سجلماسة، يجد في طريقه قوما يقال لهم أَنْبِيَة، على بعد خمسين يوما من سجلماسة، و هم رحالة يتلثمون بعمائمهم و ينتسبون إلى صنهاجة، و بَعدهم مباشرة، ينتهي إلى بلد يقال له غسط (أودغست) بوادٍ عامر فيه منازل و مَلِكٌ لهم، لاَدينَ له و لا شريعة، يغزو بلاد السودان.[2]

و يردّ ابن الفقيه (ت 290هـ/903 م)أصل أنبية إلى السوس الأقصى و يجعل بلادهم تمتدّ مسافة سبعين ليلة، في صحراء قاحلة[3] و يستنتج T. Lewicki مما ذكره ابن الفقيه: أن الأمر يتعلق باتحاد يضم معظم القبائل الرحالة في الصحراء الغربية، و قد كان هذا الاتحاد، حسب رأيه، موجوداً في القرن الثامن و التاسع و أن .Marquart J يُدخِل في اتحاد أنبية قبائل مسوفة و لمتونة و جُدَّالة التي كانت تعيش مستقلة هناك.[4] و يرى أن اسم أنبية غير مؤكد، و هي فرع من صنهاجة (زناقة) و تنتشر في أغلب أرض الصحراء الغربية، و أن مسافة خمسين يوما التي تحدث عنها اليعقوبي تفصل مدينة سجلماسة عن أرض (أو ربما المركز السياسي) لتلك القبيلة الغامضة بل اتحاد القبائل[5] و عما قاله اليعقوبي من أنه بَعْدَ أَنْبِية تقع أرض غست و المقصود بها هي أودغست، و هي مدينة و مملكة للبربر يستنتج Lewicki من خلال ما ذهب إليه ابن حوقل الذي زارها عام 340 هـ/951-952 م و حدّد بُعْدها عن سجلماسة بشهرين، أنّ فرق عشرة أيام بين التحديدين هو نفسه البعد الذي يفصل أودغست عن مركز أنْبية السياسي، إذا صح ضبط المسافة بين سجلماسة و أنبية كما ذكر اليعقوبي. [6]

1- فتوح، ص 70.

2- كتاب البلدان، ص 360؛ الترجمة الفرنسية لـ Gaston Wiet, Le Caire 1973, pp.226-227 أنظر كذلك J.M. Cuoq : op.cit, p.48 .

3- أنظر Ibn al Fakih, Dans J.M. Cuoq: op.cit, p:48 .

4- L'Etat Nord Africain de Tahart et Ses relations Avec Le Soudan Occidental a La Fin de VIIIe et au IXe Siécle, Cahiers d'études africaines , Vol.II, 1965, p 529.

5- Ibid. p .528.

6- Ibid, p.529.

و من جهته يعتبر Devisse أن " قوم أنبية " عبارة عن اتحاد قَبَلي غير معروف جيّـــــداً و أن Marquartيعتبره اتحاداً مؤقتا لقبائل مَسّوفَة و لَمتونة و جُدّالة.[1]

و بعد اليعقوبي يفيد ابن حوقل (كان حيا سنة 340 هـــ/ 951–952 م) أن " الغـــالب على ما واجه البحر (الأبيض المتوسط) من أرض مصر إلى نواحي عمـــل إفريقيـــة: الـــبراري و المفاوز التي بين بلاد السودان و أرض المغرب، و في أطرافها سكان من البربر و في قلب الـــبرّ أيضا مياه عليها قوم منهم "[2] كما تحدّث أيضا عن وجود عدّة قبائل بربرية تعيـــش في عزلـــة تامة، فيما بين سجلماسة و أودغست، و من بينها قبائل شرطة و سمسطة و بنو مسوفا؛ و لهـــم مَلِك يملكهم تُكبِّره صنهاجة و سائر تلك الدّيار، لأنهم يملكون تلك الطريق.[3]

و يخبر في مكان آخر عن وجود " قبائل من البربر المهملين... قـــوام حيـــاتهم بـــاللّبن و اللحم "[4] على المياه الموجودة بداخل براري سجلماسة و أودغست [5].

و في وصفه للطريق الرابط بين وادي درعة و بلاد السودان، سجل أبو عبيد البكـــري (ت 487 هـــ/ 1094 م) معلومات تتعلق بانتشار قوم بني ينتسر الصنهاجيين في المجابة الكـــبرى، على بعد ثمانية أيام من جبل الحديد المسمّى بالبربرية أدْرَار إن وزّال[6] و القريب من منجم غـــلو جبيـــــلات بنواحي تِنْدُوفْ في الصحراء الكبرى [7] .

كما تحدّث ابن فضل الله العمري (ت.749/1349م) عن قبائل بربرية تعيش شمال مالي، و تخضع لسيـــــطرة مـــلوكها، و من بينها أنتصر (Les Antasar)، و ينتغراس (Yantarràs)

1- La Question D'Awdagust I, Recherches Sur Aoudaghost, Paris 1970, p 133 ،

2- صورة الأرض، ص 83.

3- نفس المصدر، ص 101–102؛ الترجمة الفرنسية لـــ J.H Kramers et G Wiet : op.cit, p 99-100 .

4- نفس المصدر، ص 84؛ الترجمة الفرنسية Ibid ،

5- نفسه؛ . Id .

6- المغرب، ص 163–164؛ الترجمة الفرنسية لـــــ V. Monteuil, Al – Bakri, Routier de L'Afrique Blanche et Noire, Dans B. de L' I.F.A.N, T XXX, Série B. no 1, 1968, p.58 .

7- أنظر V. Monteuil : op.cit, p 99, Note 2 .

و مدُّوسه (Meddusa) و لمتونة [1]، و كانت تقوم في بلاد السودان، تحدّث أيضا عن ثـــلاث ممالك بربرية مستقلة في كل من الآيْر (Air) و أودغست و تادمكة، يحكمها ثـــلاث ملـوك مسلمون من الجنس الأبيض[2].

و لا ندري هنا على أي أساس اعتبر العمري مناطق هذه الممالك سودانية؟

مع أنها كانت معمورة، دائما، بسكان بيض من البربر، أَلِمُجرّد خضوعـــها لســلطان مالي؟ و يكون معنى ذلك، أن بلاد السودان كانت تشمل كل المناطق الخاضعة لسلطان ملـوك مالي و غيرهم من ملوك السودان، غير أن مثل هذه النظرية تفرض علينا طرح سؤال آخر، هـو: ماذا يكون شأن هذه المناطق عند انحسار نفوذ أولئك الملوك عنها، مع بقاء نفـــس التركيبـة البشرية؟.

و إذا عكسنا المسألة و افترضنا أن ملوكا بيضا من البربر مثلا سيطروا على مناطق آهلـه بسكان سود، فهل هذا يكفي لإطلاق تسمية جديدة عليها؟.

و أقرب جواب، في اعتقادنا، إلى الصواب عن مثل هذه التساؤلات يكون كما يلـــي: ما دام الأمر يتعلق بالتمييز بين بلاد السودان و بلاد البربر المتجاورتين، فلا بدّ من أخذ التركيبة البشرية بعين الاعتبار، بحيث تُنسَب البلاد التي ينتشر فيها البيض للبربر و تنسب البــلاد الــتي ينتشر فيها السكان السود للسودان، و تبقى مناطق الاتصال المختلطة اللّون تابعة لمن يســـيطر عليها سياسيا .

و هذا ينسجم مع ما ذهب إليه الحسن الوزان (ت.1552م) في اعتباره الصحراء المسماة ليبيا باللاّتينية جزء من إفريقية[3] و إفريقية عنده هي ما تعرف عند العرب بالمغرب [4] مع العلـم أن كلا من الإغريق و اللاّتين كانوا يطلقون تسمية ليبيا على المناطق المحصورة بين نهـــر النيــل (نيل مصر) و بين المحيط الأطلسي، حيثما ينتشر الجنس الأبيض بما في ذلك الصحراء[5] و هـــو

1- Ibn Fadl Allah al- Omari, Massalik el Absar Fi Mamàlik al Amsàr, Traduite Par Gaudafroy – Demonbynes, Paris 1927, I , pp 59-60.

2- Ibid, p.94.

3- Léon L'Africain: description de L'Afrique, nelle ed, Traduite de L'Italien Par A. Epaulard, Th. Monod, H. Lhote et R. Mauny, Paris 1980, T.1, pp 4-5.

4– نفس المصدر، ص 3؛ و يحدّد المغرب أو إفريقية في نظره، في الجنوب نُون Noun، آخر بلاد الصحراء على المحيـــط الأطلسي الذي يحيط بها (Ibid, pp.3-4).

5 – أنظر A.Epaulard et Autres, Dans Léon L'Africain: op.cit, p.5, Note 12.

ما يتفق تماما مع فكرة ابن خلدون التي تعتبر المغرب هو بلاد البربر منذ القديم.

و يذهب H. Lhote إلى القول: إن البكري حدّد موقع " بني ينتسر " شمال غانة ثم أكّد فيما بعد، العمري، (حوالي 1345م) هذه التسمية و جعلهم أتباعا لمملكة مالي من ناحيتها الشمالية.(2)

و هؤلاء، حسب رأيه، هم كَلْ انتصر (Kel Antassar) الذين أشار إليهم مارتي (Marty) و ينتسبون إلى قبيلة مسّوفة لكنهم ينسبون أنفسهم إلى الأنْصار، من أصحاب النبي (صلعم) ملاحظا أن معتنقي الإسلام كانوا يقتنون عادة نسبا عربيا، بل نسب الأشراف، و يضيف أن مارتي Marty الذي تَقبَّل نسبهم الأنصاري، يجعل قدوم جدّهم من الهقار حيث كان يقيم بين الإدنان (Les Idnâne) الذين كانوا يسيطرون آنذاك على تلك النواحي.(3)

و من المعروف، حسب نفس المؤلف، أن القبائل الليبية (البربرية) الأولى التي وصلت النيجر، في عهد العربات التي تجرها أربعة أحصنة (à L'époque des Chares) مرّت من هناك و من أدرار إيفوراس مما يوحي بأن الإدنان وصلوا إلى السودان قبل القرن العاشر الميلادي.(4)

و يهمنا من كل ما قاله لوط Lhote. H. أن مَنْ أسماهم البكري بني ينتسر، و هم الذين صاروا، فيما بعد، كَلّ انتَصَر، قدموا إلى منطقة شمال غانة في عهد العربات التي تجرها أربعة أحصنة عن طريق الهُقار و أدرار إيفوراس ممّا يوحي أن الإدنان (من البربر) وصلوا بلاد السودان قبل القرن العاشر (أي قبل عهد البكري) .

و بمعنى آخر فإن لوط يدخل مناطق انتشار بني ينتسر و إدنان البربر، شمال غانة و النيجر و الهقار في بلاد السودان دون أن يبرّر ذلك خاصة و أنها، كما يتضح من نص البكري، كانت مناطق ينتشر فيها السكان البربر البيض دون السودان. و بالتالي فهو، وفق النظرية المعروفة منذ القديم، بلادٌ للبربر أي أنّها جزء من بلادهم: المغرب.

2- Contribution à L'étude des Touaregs Soudanais, Bul de L'I. F. A. N., T.17, Série B, n^{os} 3-4, p. 1955, p.353.؛ و يرى محمد الشنافي أنه إن كان البكري استقى معلوماته عن الوراق في ق.4هـ (10 م) فإن مناطق تنقل بني ينتسر تكون الدّهار (Dhar) و تَشِيت (Tasit) و الأوكار (Awkàr) (Chennafi Med sur les traces d'Awdagust : les Tagdàwost et leur ancienne cité, Tagdaoust I, recherches sur Aoudaghost, paris 1970, p.103).

3- Ibid, pp 352-353.

4- Ibid, p.353.

و بعد بني ينتسر، من الناحية الجنوبية، تقع مُدُّوكن، و هي لصنهاجة أيضا، بينها و بين غانة مسافة أربعة أيام.[1]

و هناك قبيلة بني لمتونة الصنهاجية، في المناطق الواقعة جنوب جبل أَيْـزَل[2] أي كُديه أيْجَلْ التي صارت تعرف عند الفرنسيين فيما بعد بقلعة غُورُو(Fort Gouraud)[3]، و هم ظواعن رحالة يمتدّ مجال تجوالهم مسافة شهرين في شهرين بالصحراء، ما بين بلاد السودان و بلاد الإسلام، و يُصيّفون في مكان يُسمَّى أَمَطْلُوس[4] و آخر يُسمّى تَالِيوِين[5] و يَغْزُون السودان على بُعد عشر مراحل من بلادهم.[6]

و يعتبر Lagardère V. قبيلة الملثمين، لمتونة، من أهم القبائل الصنهاجية المنتشرة في الصحراء، ما بين خط طول طرابلس و المحيط الأطلسي و هؤلاء الرحالة كانوا يحتلون، على حدّ تعبيره، عددًا من المدن و القلاع و منها مدينة أَزُقّي[7] الواقعة بعد 25 يوما من تكرور، و مدينة نول الواقعة على نهر و قلعة أَرْقي [8] Arĝi.

1- المغرب، ص 164؛ الترجمة الفرنسية لـ V. Monteuil : op.cit., p.99 ؛ و يرى V. Monteuil أن تسمية مُدُّوكن قد تكون لها علاقة بقبيلة أَبْدُكّال المطرودة من إيجدي إلى إيوالاتن أو بكلمة أَمُدُّوكُنْ (أَمَدَّاكُنْ بالبربرية) و تعني المسالك بين الجبال الرملية، مع العلم أن موقعها غير معروف (Id , Note 2)) .

2- المُغرب، ص 164؛ الترجمة الفرنسية Monteuil V : op.cit,p.58 ؛ Fagnan. E. : Kitab el – Istibçar, p.189؛ (سقطت في النص العربي).

3- أنظر. Monteuil V.: op.cit., p.99, note 3.

4- يُرجّح أن تكون أَمْطْلِيش الموجودة بموريطانيا.(Monteuil : op.cit., pp.99-100, note 3)

5- المُغرب، ص 164؛ الترجمة Ibid, p.58؛ Fagnan E. :Ibid, p.189 (سقطت في النص العربي)؛ و كثيرا ما يطلق اسم تاليوين على موقع و هو جمع كلمة تَلاَ البربرية و تعني المنبع (Monteil V. : op.cit, p.100 note 3) .

6- نفسه؛ Id؛ Id.

7- تقع مدينة أَزُقّي على بُعد 13 كلم غرب- شمال – غرب أدرار الحالي(Godinho V.M : L'économie de L'empire Portugais aux XV e et XVI e S. Paris 1969, p.104. El- Chennafi M, op.cit, p.100) و مازالت آثارها غير بعيد عن أطار Atar، و هي تحمل نفس الإسم .

8- Les Almoravides Jusqu'au Régne de Yusuf b. Tàsfin (1039-1106) éd. L'Harmattan, Paris 1989, p.17 Sq؛و يبدو، حسب Gaden H، أن قلعة أَرْقي التي يتحدث عنها البكري هي نفسها التي يسميها الإدريسي على التوالي أَرْكَى و أَزْكَى و أَزْكَاي و أَزُكاي و ربما تكون أزقي (Gaden H. : Les Salines D'aoulil, Revue du monde musulman, Vol.12, no 11, Novembre 1910, p.440).

و بالنسبة لـــ Ch. A. Julien فإن مهد لمتونة هو أدرار الموريطاني[1] و يرى J. Cuoq أنهم كانوا يتجوّلون، في القرن السابع الميلادي، من منطقة السوس إلى أدرار الموريطاني، بين جدالـه جنوبا و مسوفة شمالا[2] و تطلق على جميع هؤلاء تسمية بربر الجنوب الغـــربي الصحـــراوي، محددا مناطق انتشارهم بشمال نهر السنغال، و ملاحظا أن مركز اجتذابهـــم كـــان مدينـــة أودغست[3]، و قد كانوا مقيمين بها عندما اســـتولى عليـــها حكـــام غانـــة الســـونينكين[4] (Soninké).

و يذهب p. Laforgue إلى القول: إن بربر زناقة (Zenaga) المعروفـــين أكـــثر باســـم صنهاجة، و أصلهم من المغرب الأقصى، قد توغلوا في المناطق الغربية للصحراء، علـــى طـــول الساحل الأطلسي، قبل عصرنا، ليبلغوا شمال موريطانيا و استولوا على أدرار الموريطاني، حـــوالي القرن الثامن (ميلادي) و دخلوا تاقنت (Tagant)، و كانت حركة زناقة هذه، في نظره، تشـــمل مجموعات لمتونة و جدالة و مسوفة و جزولة و بني وارث الخ... و قد أُطلق اسم لمتونـــة علـــى تجمع (Association) كل هذه العناصر البربرية التي شكلت اتحادا حقيقيا، و واصلت تقدمـــها نحو الجنوب و الشرق في منطقتي الأوكار (Aouker) و الحوض (Hoth) اللتين كانتا قبـــل ذلـــك بأيدي الصو نتكين (Soninké)، و كانت عاصمة لمتونة في القرن التاســـع (ميـــلادي) هـــي أودغست.[5]

و قد قصد اللمتونيون، بعد قدومهم من جنوب المغرب الأقصى، حسب هـــ. لـــوط (Lhote) منطقة إيوالاتن (Oualata) و الأزواد (Azouad)، و كان مركزهم الرئيســـي إيوالاتـــن، و يتبين للوط، من خلال رواية ابن بطوطة أنهم كانوا يعيشون مثل الطوارق بحيـــث صعـــب التمييز بينهم فيما بعد.[6]

1- Histoire de L'Afrique du Nord, de La Conquête Arabe à 1830, 2e ed., Payot – Paris, 1966, p.77.

2- Histoire de L'Islamisme de L'Afrique de L'ouest, des Origines à La Fin du XVI e Siécle, Paris, p.8.

3- Ibid, p.6.

4- Lombard M.: Les Métaux dans L'Ancien Monde, du Ve au XI e Siécle, Paris – La Haye, 1974, p.212.

5- Notes Sur Aoudaghost, ancienne Capitale des Berbéres Lemtouna, Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran, 66e Année, T.64, Année 1943, pp.26-27.

6- op.cit, pp 351-352.

و خلف بني لمتونة، في المناطق المجاورة للبحر (المحيـــط) تنتشــر قبيلـــة بـــني جدّالـــة الصنهاجية[1]، و هم آخر الإسلام، بينهم و بين أقرب بلاد السودان إليهم، مدينة صُنْغَانـــة [2] مسيرة ستة أيام، و لهم معدن ملح بموضع يسمّى أوليل.[3]

و تحتل قبيلة بني جدّالة، حسب Lagardère الجزء الجنوبي من موريطانيا الحالية، شمـــال نهر السنغال، في محاذاة المحيط الأطلسي، و تتصل أرضهم، جنوبا ببلاد السودان و شمالا بـــأدرار الموريطاني الحالي، حيث يعيش إخوانهم من لمتونة و مسوفة الصنهاجيين، و هم أساسا، رحّالـــة جمّالون، و لهم مركز تجمّع، هو نَغيرة (Nağira)،على بعد ستة مراحل من نهر السنغال تقريبا.[4]

و في وصف البكري للطريق الرابط بين تامدلت و أودغست يلاحظ ترصـــد قبيلـــتي جزولة و لمطة للتجار بموضع وانزمين[5] و يعتبر .Lagardére V قبيلتيّ لمطة و جزولة أقل قوّة من لمتونة، و هما مثلها من صنهاجة، تنتشران بالسوس (الأقصى) و وديان (Vallées) الأطلـــس في المغرب الأقصى[6] و أراضيهما متجاورة؛ و عند مصب وادي نول (يُسمى الآن نـــون) تقـــع مدينة نول لمطة، و الأراضي الموجودة بينها و بين وادي سوس، و هي ثلاث مراحل، عـــامرة ببني لمطة، و لهم بها مدن، أهمها: أَزُقّى (أزقي)؛ و كانت جزولة متصلة بها و تنتقل جنـــوب الأطلس الصحراوي (L'Anti – Atlas)، بين وادي سوس و وادي درعة، و استقر البعض منها

1- المغرب، ص 164؛ الترجمة الفرنسية لـــ .Monteuil V : op.cit., p.59 .

2- تطلق هذه التسمية في اللّغتين العربيّة و البربرية الزناقية (Znàga) علـــى مقاطعـــة كـــايور Kayor الســـنغالية (Sunghan)(Monteuil V. : op.cit. , p.107, note 1) .

3- أنظر ما بعد، ص 71فما بعدها .

4- Les Almoravides Jusqu'au Régne de Yusuf b .Tasfin, p.p 20-21.

5- يكتبها .Monteuil V في ترجمة للبكري وانزمين Wan – n- Zmiren و يقول إن معناها بالبربرية قد تكون " آبار الكباش " و هي تذكر باسم الموقع المعروف بـــ نزمران Nzemrân (note 11 op.cit., p 50,) و تقع عند سفوح ظهر أدرار و يمكن جدًّا أن تكون البَيّض، نقطة المياه العذبة الموجودة بجوار الآبار المالحة (Mauny R. : un Itinéraire Transsaharien du Moyen Age, Bul. De Liaison Saharienne , no 13, Juin 1953, p.36)و الأمر يتعلق بفج défilé الغلوية الذي يُمكّن من اجتياز حاجز النهر الكبير لأدرار الموريطاني الممتد على مسافة 300 كلم في الناحية الجنوبية الغربية و يقع ذلك الفج في الطرف الشرقي منه (Daveau. S, Itinéraire de Tamadelt à Awdoghost Selon Al – Bakri, Tagdaoust I, Recherches Sur Aoulaghost, Paris 1970, p.35) .

6- Les Almoravides Jusqu 'au Régne de Yusuf b. Tašfin, p.18.

بالسوس، في مدينتي ماسة و تارودانت و كذلك في الجزء الغربي من جبل هَنْكِسَة (Hankisa).[1]
و يحدد J. Cuoq مجال ترحال لمطة جنبا إلى جنب مع هوّارة (هقّار)[2] شمال منحنى نهر النيجر و يطلق عليهم تسمية بربر منحنى النيجر، و مركزهم حسب رأيه، هو مدينة كوكو أو كاو كاو (Gao).[3]

و على مسيرة خمسة أيام من وانزمين، حسب نفس المصدر، ببلد وَارَان (أي عرق واران)[4] توجد بئر عظيمة في حدود بني وارث الصنهاجيين، و على مسافة يومين بَعدهم تقع آبار أَغْرُف الملحة، تَرِدُها صنهاجة لسقي إبلها[5] و بعدها بثلاث مراحل يبدأ جبل أزجونلن[6]، و منه إلى بئر واران[7] الزُّقاق (المالح جدّا) مسافة يوم و هناك تبدأ أرض لصنهاجة تمتد على ثلاثة أيام يأتي بعدها تَلٌّ مشرف على أودغست[8] التي يقطنها " أهل إفريقية و برقجانة و نفوسه و لوّاتة و زناتة و نفزاوه و هؤلاء أكثرهم[9].

و يتسائل .Devisse J عمن كان يسكن أودغست في القرنين العاشر و الحادي عشر؟ و يجيب أن اليعقوبي، إذا كان لا بدّ من مزج واحه غُست التي تحدّث عنها، بمدينتنا أودغست،

1- Lagardère V : op.cit., p 21 Sqq , Ibid, p.21 Sqq .

2- يطلق اسم الهقار أو الأهَقَار على قمّة الكتلة الجبلية، و توجد هناك مصطبة متآكلة، طول قطرها 250 كلم، و ارتفاعها لا يقل عن 2000 م تسمَّى أتكور الهُقار، و يقل الارتفاع حولها تدريجيا بحيث لا يرى بالعين المجرّدة، و يمتدّه من الناحية الجنوبية كتلتا الآيْر (Air) و يصل ارتفاعها إلى 1700 م و أدرار إيفُوراس (حوالي 1000 م) (E.F. Gautier : Le Sahara, p.141).

3- Histoire de L'Islamisme de L'Afrique l'ouest, p.6 .

4- أنظر Monteuil V.: op.cit, p.91, Note12 .

5- المُغرب، ص 157؛ الترجمة الفرنسية Monteuil : op.cit. pp .51-52؛ و كانت تسمية أَغْرُف تطلق على عِدّة مواقع في مناطق مختلفة (Monteuil V : op.cit, p .92, Note 13).

6- قد يكون هذا الجبل هو جبل تاقنت Tagant (Monteuil V., P.92, Note 15) و يبدأ بموضع يسمى أقرتندي، و معناه مجتمع الماء (Réservoir D'eau) (المُغرب، 157؛ الترجمة الفرنسية، (Monteuil V : op.cit.52)؛ أو هو الجزء الجنوبي الشرقي من تاقنت Tagant بين تيجكجة Tidjikja و بين حافة الظهر الذي تمر منه الطريق في منطقة الفراوة Faraoua (Mauny R : op.cit., p.39).

7- لا علاقة لهذه البئر بواران الشمال، بل هناك آبار ماؤها مالح بشمال أُوكَر Aouker و تسمى أُورِيين Uréyyen أو أورّيّنات Ureyyenàt (Monteuil V: Ibid, p.92, Note 16) .

8- المُغرب، ص 157؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.52 .

9-المغرب، ص 158.

يصفها بأنها بوادٍ عامر و به منازل، و هذه إشارة غامضة تُمكّن فقط من إثبات وجود هؤلاء البربر المستقرّين في مقابل مجموعات رحاله فقط يعيشون في النّواحي الشمالية التي يقطعها طريق سجلماسة.(1)

و يحدّد ابن سعيد الغرناطي موقع أودغست في صحراء نيسر، مع خط الإقليم الثاني (16°27/عرضا) حيث الطول 22° (2)، و هي تبعد حسب الإدريسي، عن مدينة باريسَى السودانية، الواقعة إلى الجنوب منها باثنتي عشر مرحلة(3) و بمثلها عن غانة و بإحدى و ثلاثين مرحلة عن وارقلان(4)؛ و تتفق أغلب المصادر المستخدمة في هذا البحث على القول بأن سكانها من بربر صنهاجة.(5)

و يعتقد ب. لافورق (p.Laforgue) أن أودغست أُسِّست مدّة طويلة قبل أن تصبح عاصمة لبربر لمتونة في القرن التاسع الميلادي من طرف السُّنُنْكِيّين السودان الذين قدموا من غانة تحت اسم آخر لكن البربر و التجار العرب أقاموا بها فيما بعد، و منذ القرن التاسع لم يَعُدْ السودان السُّنُنْكِيُّون يُشكلون سوى الأقلية من سكانها؛ و في حوالي 1000م استولى عليها هؤلاء و حطموا جزءا منها، و بعد ذلك بنصف قرن استولى عليها المرابطون و خرّبوها كلّية.(6)

1- Devisse op.cit., p.120.

2- كتاب الجغرافيا، ص 113؛ الترجمة الفرنسية في J. .M. Cuoq : op.cit., p.214-215 ؛ و يتحدث عنها الإدريسي مرّة في الجزء الأول من الإقليم الأول (القارة الإفريقية، ص 34؛ و مرّة أخرى في الجزء الأول من الإقليم الثاني؛ و هنا يعتبرها قطعة من شمال أرض غانة (نفس المصدر، ص 89)؛ و في رأي محمد الشنّافي فإن اسم قبيلة كلّ انتصرْ التي تعيش شمال مالي و تتحدث لغة تماشيق Tamăsyğ هي ما أطلق عليه البكري اسم " بني ينتسر " و نقله عنه الإدريسي لكن بتحويل اسم القبيلة إلى صحراء نيسر و نقله عنه ابن سعيد بهذه الصورة و تبعهما ابن خلدون (M. El- Chennafi : op.cit., p.103).

3- القارة الإفريقية، ص 34؛ و حسب J.. Cuoq فإن المقريزي يطلق تسمية برسنة على مدينة باريسَى كما يطلق عليها برسناه و البكري إرسني و يحدّد موقعها غرب غيارو على نهر النيل (النيجر) و حسب النظام المتبع من قبل الإدريسي فهي تقع شمال جاو (كوكو) و ملال (مالي) (Recueil des Sources Arabes, p.128, Note e).

4- القارة الإفريقية، ص 89.

5- و من هؤلاء اليعقوبي: المصدر السابق، ص 360؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص 100-101؛ ابن سعيد الغرناطي: المصدر السابق، ص 113؛ و يذكر البكري مرّة أن سكانها من زناتة مع العرب (المصدر السابق، ص 168) و مرّة أخرى يذكر أن أغلبيتهم من أهل إفريقية و برقجانة و نفوسة و لوّاتة و نفزاوة و زناتة بالإضافة إلى أقلية من مختلف الجهات (نفس المصدر، ص 158).

6- op.cit., pp 27-28.

و يعتبر .Mauny R أودَغُست من بين مدن المغرب القائمة في حدود بــــلاد الســـودان بالإضافة إلى غانة (كُمْبي صالح) و تادمكة (السوق) و المخلفات الأثرية في نظره، مقنعة بمـــا فيه الكفاية، في هذا الشأن: فالتجار الذين كانوا يقطنون بها، من العـــرب و الـــبربر، نقلـــوا هندستهم المعمارية، و طريقة معيشتهم و آلاتهم و أدواتهم إلى جنوب الصحراء[1].

و ما تجدر الإشارة إليه، عند التأمل في المعلومات التي زوّدتنا بها المصادر حول التواجـــد البشري، في المناطق التي تخترقها الطرق التي تربط شمال الصحراء بجنوبها، في الجهة الغربية هـــو أنها أجمعت كلها على انتشار العنصر البربري الأبيض و لم تشر بتاتا إلى أي تواجد للســـودان بتلك النواحي إلاّ ما ذكره الإدريسي من أن أهل زغاوة و أهل لمتونة الصحراء قد أفنوا أكـــثر أهل قمنورية السودان و بدّدوا شملهم على البلاد، و كانت أرضهم تقع شمـــال أرض مقـــزارة السودانية، ما بين المحيط الأطلسي و صحراء نيسر[2]، و لم يبق منهم في عهده (ق.12 م) ســوى قوم قلائل متفرّقين في تلك الصحراء، بمقربة من الساحل، يتنقلون هناك مع مهادنة جيرانهم[3].

مع العلم أن الإدريسي لم يتعرض إلى تاريخ وقوع هذه الأحداث، و هذا ما جعل .J.M Cuoq يفترض أنه يريد أن يتحدث عن وقوع هجرة أو غزو متعاقب قامت به القبائل البربريـــة (لمتونة) و قبائل السفانا السودانية (زغاوة) ضد قمنورية، قبل وصول الإسلام إلى الصحـــراء، و قبل الدفع المرابطي، و أنه قد نقل المعلومات الواردة في هذا ا لشأن عن بطليمـــوس[4] و رَأْيُ J.M. Cuoq يبدو مقبولا هنا بدليل عدم تطرق الجغرافيين المسلمين الآخرين لأخبار قمنوريـــة، و لا لأخبار السودان على العموم في المناطق الواقعة شمال الخط الممتد من جنوب أرض جدالـــة إلى جنوب أرض لمتونة، أي من ناحية المحيط و صحراء نيسر (أو بني ينتسر)، باســـتثناء مـــا أورده البكري، مرّة، عند وصفه للطريق الرابط بين تامدالت و أودغست،من أن السودان كانوا

1- Tableau géographique de L'ouest Africain au M.Age d'aprés Les Sources écrites Les traditions et L'Archéologie, Mémoire de L'institut français D'Afrique N° 6, Dakkar 1961, p.390.

2- حسب محمد الشنافي، فهي الصحراء التي كان ينتشر فيها بنو ينتسر الذين ذكرهم البكري، حيث نقل الإدريسي هـذه التسمية لكن بتحويل اسم القبيلة إلى إسم صحراء (أنظر Chennafi M: op.cit., p.103).

3- القارة الإفريقية، ص 86-87؛ الترجمة الفرنسية J. M .Cuoq : op.cit., p. 145-146.

4- و قد يكون الإدريسي، حسب J.M.Cuoq اطلع على أعمال بطليموس مباشرة بصقلية أو عن طريق الخوارزمـــي أو سُهْراب Suhrâb (op.cit., p.146, Note 1).

يقطعون الطريق على التجار في جبل أزجونان، الواقع بين أقرتندي و بئر واران[1] و لم يضف البكري أي شيء من شأنه أن يساعد على التعرف عليهم.

تلك هي الوضعية الديموغرافية في المناطق الغربية للصحراء الإفريقية، و بالأخص في الخط الرابط بين أودغست و أوليل و ما يقع إلى الشمال منه، أمّا في النواحي الواقعة وراء ذلك من الناحية الشرقية، فقد سجل البكري أنه، بعد موضع أَوْغام الواقع شرق مدينة غانة (و هي جنوب شرق أودغُست) بأربعة أيام يوجد رأس الماء[2]، حيث يخرج النيل (النيجر) من بلاد السودان، و به ينتشر قوم من بربر صنهاجة المسلمين يسمون مداسه[3] و يقابلهم في الجانب الآخر للنيل سودان مُشركون.[4]

كما تنتشر مداسة كذلك في بوغرات الواقع على النيل، بعد سَفَنْقُو، آخر أعمال غانة، في طريق الجادة التي تصل غانة بتادمكة[5]، و بعد بُوغرات (في اتجاه الشرق دائما) تقع مدينة تِيرَقّى، مع النيل، على بعد ست مراحل من رأس الماء، حسب البكري[6] أو من مدينة مدّاسة،

1- المُغرب، ص 157.

2- يقع رأس الماء، حسب Monteuil V. قرب تُمبُكتو (Ibid , p. 114, Note 16) و هو الذي تنبع منه مياه نهر النيجر و تسيل في الشرق لتعبر منطقة آهلة بالبربر من ناحيتها الشمالية و بالسودان من ناحيتها الجنوبية (delafasse M, Le Găna et le Mali et L'emplacement de Leures Capitales, Bul. De Comité D'études Historiques et Scientifiques de L'Afrique Occidentale Française, T.9, no3, Juillet-Septembre 1924, p.502 و حسب delafosse فإن هذا المكان الذي يقع اليوم على الضفة الغربية لبحيرة Faguibine و هو يبعد بـ 340 كلم عن كومبي (غانة) في حين أن تقدير البكري لمسافة ما بين غانة و رأس الماء توافق ما يقرب من 100 كلم فقط و يرد هذا الفرق إلى تقلص تلك البحيرة المستمر منذ ذلك الوقت (Id).

3- يلاحظ Lhote H أن مدَاسة و بني ينتسر الذين كانوا، حسب البكري، من صنهاجة كانوا يعيشون جنبا إلى جنب، ما دامت مداسة موجودة برأس الماء و بني ينتسر بشمال غانة . (op.cit., p.354)

4- المُغرب، ص 180؛ الترجمة الفرنسية Monteuil : op.cit. p.76؛ أنظر الخريطة رقم 1.

5- المُغرب، ص 181؛ الترجمة الفرنسية Monteuil op.cit, p.77-78؛ الاستبصار الترجمة الفرنسية : E. Fagnan op.cit., p.207 و يرى Délafosse أنه يمكن قراءة سَفَنْقو: Safongo ثم تصليحه ليصبح Sabongo أو Issabongo ، ذلك لأنه حدث أكثر من مرّة للبكري – بصفة خاصة – أن يعوّض في كلمات سودانية الباء بالفاء، سواء بسبب خطأ في النقل أو بسبب حدوث تغيير، مع الوقت، من "ف" إلى "ب" في بعض اللغات السودانية. و معنى Sabongoأو Issabongo في لغة صُونغاي Songhai هو " رأس الماء " بالعربية التي تطلق على نقطة بحيرة فاقبين Faguibine (أنظر op .cit, pp.503-504).

6- المُغرب، ص 181؛ الترجمة الفرنسية لـ Monteuil, op.cit, p.77؛ أنظر أيضا ترجمة كتاب الاستبصار E. Fagnan : op.cit, p.205.

حسب الإدريسي[1] و يجتمع بسوقها أهل تادمكة و أهل غانة.[2]

و بعد تيرقي بثلاث مراحل، مع النيل الذي ينحرف جنوبا إلى بلاد السودان تبدأ بلاد سغمارة[3]، و هي قبيلة بربرية في عمل تادمكة و هذه مدينة مجاورة لتيرقى، من ناحيتها الغربية، يقطنها بربر مسلمون يتلثمون كما يتلثم بربر الصحراء[4].

و يحدد Lewicki موقع تادمكة على الحافة الجنوبية للصحراء، في منطقة أدرار إيفوراس الجبلية، حيث توجد لها خرائب واسعة و تسمى السوق و هي على بعد 45 كلم شمال غرب قرية Kidal، و قد شيدت هذه المدينة البربرية في تاريخ غير معروف لكنه سابق للنصف الثاني من القرن التاسع الميلادي و يستنتج Lewicki مما قاله ابن حوقل بأن " بني تاتماك، ملوك تادمكة، و القبائل المنسوبة إليهم يقال إن أصلهم سودان ابيضت أبشارهم و ألوانهم لقربهم إلى الشمال و بعدهم عن أرض كوكو (كاوكاو)" أن ابن حوقل كان على علم بوجود علاقات بين سكان شمال إفريقيا و مدينة قاو (كوكو)[5] .

و يعتبر ابن حوقل هو أقدم من أشار إلى تادمكة في كتابه المؤلف 973-975 م و أن بني تاتماك (تادماك) أصحاب مملكة تادمكة ينتمون إلى صنهاجة و لكن هناك من يراهم سودان ابيضوا مما يوحي أن بربر صنهاجة الذين قدموا إلى أدرار إفوراس وجدوا أمامهم عناصر من السكان القدماء السودان فجاوروهم.[6]

1- القارة الإفريقية، ص 40؛ الترجمة الفرنسية J. M. Cuoq و يلاحظ .Monteuil V أن Lewick يرجح أن يكون اسم تيرقي تحريفا لاسم الطوارق (op.cit., p.114, Note 17) في حين يرى J.M. Cuoq أن كلا من البكري و الإدريسي يتفقان على تحديد موقعها على نهر النيل (النيجر) و عليه قد يكون هذا الموقع في أعلى تمبكتو (Recueil, p.135, Note 3) و يسجل .Lhote H اختفاء هذه المدينة في أيامنا و يتفق مع .delafasse M في تحديد موقعها بمنطقة Ernessé أو بمنطقة بورم Bourem (.Lhote H,op.cit, pp.334-335)

2- المغرب، ص 181؛ الترجمة الفرنسية Monteuil : op.cit., p.77؛ E.Fagnan : L'Afrique Septrentionale, p .205.

3- نفسه؛ الترجمة الفرنسية. Id.

4- المغرب، ص 181؛ الترجمة الفرنسية، ص 78؛ كتاب الاستبصار Id؛ و قد عثر على بقايا تادمكة الأثرية بما يعرف اليوم بالسوق (Monteuil, op.cit., p. 115, Note 3) أي سوق أدرار إيفوراس و معنى اسم تادمكة بالبربرية: هيئة مكة، لأنها تشبهها، بما يحيط بها من الجبال و الشعاب (المغرب، ص 118؛ الترجمة الفرنسية Id؛ الاستبصار E.Fagnan : op.cit, p.206).

5- Ibid, p.534؛ أنظر نص ابن حوقل: المصدر السابق، ص 105؛ أنظر الخريطة رقم 1.

6- Ibid, p.439.

و يعتبر Lhote H. سغمارة من الطوارق و يلاحظ أن البكري يشير إليهم مرة أخرى، في حديثه عن الطريق من تادمكة إلى غدامس مما جعله يستنتج أنهم كانوا ينتشرون وسط و شمال أدرار إيفوراس و يستغرب نفس المؤلف من إطلاق الإدريسي(1154م) اسم سغمارة على مدينة، و تلك المدينة ما هي إلا تادمكة.[1]

مع الإشارة إلى أن البكري يذكر فعلا أن المسافر في أحد الطريقين المؤديين إلى مدينة غدامس، يسير، بعد خروجه من تادمكة، ستة أيام، في أرض سغمارة[2].

و يعيش قوم بغامة، حسب الإدريسي، مع الصحراء الممتدة شمال الخط الفاصل بين بلاد سغمارة و مدينة مداسة الواقعة على ست مراحل منها[3]، و هم قوم رحالة يرعون جمالهم على ساحل واد يأتي من ناحية المشرق فيصب في النيل[4] و الأرض الواقعة ما بين مدينة كوكو و مدينة كوغة[5] التي تبعد عنها بعشرين مرحلة إلى الجنوب هي أرض بغامة، حسب الإدريسي الذي يصفهم هنا بأنهم سودان برابر قد أحرقت الشمس جلودهم و غيرت ألوانهم و لسانهم لسان بربر[6] أي أنهم بربر اسودت ألوانهم.

و يصفهم ابن سعيد الغرناطي بأنهم بربر سودان من جنس كوكو و يحدد أرضهم بالجهة الغربية من النهر الذي تقع مدينة كوكو في شرقه،[7] (أي النيجر).

1- op.cit., p.334 S.q.

2- المغرب، ص 189؛ الترجمة الفرنسية Monteuil : op.cit., p.182.

3- بالنسبة للبكري فإن مداسة قبيلة، و يتساءل J.M Cuoq ما إذا كان الإدريسي لا يريد من وراء اعتبار مداسة مدينة، أن يشير إلى مدينة تادمكة شمال مداسة (op.cit., p.136, Note 2) و يلاحظ Lhote H. هذا الاختلاف بدون تعليق (Les Touaregs Soudanais, p.335).

4- الإدريسي المصدر السابق، ص 40؛ الترجمة الفرنسية J.M.Cuoq : op.cit., p.136؛ و هذا الوادي قد يكون شعبة فيضان تزود، عند الفيضان بحيرتي Télé و Faguibine بالماء و قد يكون واد Telemsi المنحدر من أدرار إيفوراس (Lhote H., op.cit., p.335).

5- يعتقد أن الإدريسي يقصد بكوغه: كوكيا Kukiya قرب Tillabery أول مقر لحكام سنغاي، و يحتمل أن يكون موقعها بين غانة و دنقولة Dongola، عاصمة النوبة، كما يحتمل أن تكون هذه التسمية أطلقت على عدة مدن (J.M. Cuoq : op.cit., p. 138, Note 1).

6- القارة الإفريقية، ص 43؛ الترجمة الفرنسية J.M . Cuoq : op.cit., p.138.

7- كتاب الجغرافيا، ص 93؛ الترجمة الفرنسية في J.M. Cuoq : op.cit., pp.205-206.

و كان ابن حوقل الذي زار الصحراء، في منتصف القرن العاشر الميلادي قد ذكــــر أن " بني تَنماك ملوك تادمكة و القبائل المنسوبة إليهم، فيقال إن أصلهم سودان ابيضّت أبشـــارهم و ألوانهم لقربهم إلى الشمال و بعدهم عن أرض كوكو "[1]

و يعتبر Lhote H. أن بغامة المذكورة هنا عوّضت مداسة و ســـغمارة عنـــد البكـــري و لَيست قبائل معيّنة من الطوارق بل هي تحريف لاسم بوردام (Bourdame) الــــذي يطلقـــه السُّنغَيْ على طبقة الطوارق الأرستقراطية أي على إيما جيرن، (Imajeuren) و سبب ما وقع من تغيير يعود إلى أن الإدريسي لم يكن سوى ناقل و قد استقى معلوماته عن رجل طـــاف بـــلاد السودان مدّة عشرين سنة و هو يجهل ، على ما يبدو، اسم سغمارة، و هذا ليـــس في صـــالح الوجود الفعلي لهذا التجمع من القبائل المُهيْمِنة[2] .

و يلاحظ Lhote في مكان آخر أن بغامة هي التي أصبحت بردمة عند ابـــن بطوطـــة الذي احتاز أرضها أثناء تنقّله من مدينة كوكو إلى مدينة تاكدّة على أطراف الأيْر الجنوبية و أن الأمر لا يتعلق بقبيلة خاصة لكن بمصطلح شامل يطلق على جميع الطوارق المتنقلين مـــا بـــين إيوالاتن و الآيْر، و هو ما ينطبق على مناطق انتشار لغات البول Peul و السُّنغَيْ (Songhai)، و أراضي بردمة هي نفسها الطواق السودان الحاليين، مع العلم أن ابن بطوطة قد قسّم الملثمـــين الذين قابلهم إلى ثلاثة أقسام هي: مسوفة التي يمتد مجالها من سجلماسة إلى إيوالاتـــين و حـــتى تمبكتو، و بردمة، من إيوالاتن إلى الآير، و الهقار بالأهجار، و يعدّ الطوارق المنتشرين بمنطقـــة تاكدّا أيضا من مسوفة[3].

و يربط سعد زغلول عبد الحميد بين تسمية الطوارق و تسمية قبائل ترغـــة (كمـــا وردت عند البكري) أوتارجا (كما وردت، عند صاحب كتاب الاستبصار) و التي يمكـــن أن تكون انحرفت، حسب رأيه، إلى تارغة و طارجة و طارقة بمعنى قبائل الطوارق.[4]

1-صورة الأرض، ص 105؛ أنظر Lewicki : op.cit., p.534 .

2- Contribution à L'étude des Touareg, p.335.

3- Recherches Sur Tekedda, Ville Décrite Par Le Voyageur Arabe Ibn Battouta, et Située en Air, Bul de L'I.F.A.N., T.34, Série B, no 3, 1972, p.429, Note 1؛ أنظر الخريطة رقم 1.

4- تاريخ المغرب العربي، من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال، جـــ4، ص 71.

لكن Gautier F.F يذهب إلى القول بأن البربر الذين يعيشون في أعمـــاق الصحـــراء، بجوار السودان لا يدخلون في أي صنف من صنفي البربر، البتر أو الـــبرانس، فـــهم الملثمـــون المعروفون اليوم بالطوارق، و كانوا يُعرفون في عهد ابـــن خلـــدون بلمطـــة و لمتونـــة الخ... و يقسّمهم إلى مجموعة غربية، و تتكوّن من لمطة و لمتونة و غيرهما، و لهم قرابة كبيرة بكتلـــة زناقة (Zenaga) المغرب الأقصى و ينسبون أنفسهم إلى صنهاجة بلاد القبـــائل أي صنهاجـــة الشمال، و بذلك فهم برانس[1]؛ أما الملثمون الشرقيون فهم الهقار (Les Hoggars) الذين يوجد في أسمائهم اسم هوّارة التي قدمت من برقة و طرابلس، و هي من البتر، إخوة نفوسة و لوّاتة.[2]

و في إجابة Lhote H. عن سؤال طرحه على نفسه عَمَّن بنى تادمكة، أهم السُّـــنغَيْ أم الطوارق؟

يذهب إلى القول: عادة ما يُعتَبر السُّنغَيْ هم السكان الأوائل لأدرار إيفوراس، غـــير أن اسمه البربري مشتق من اسم قبيلة إيدَمْكِيون (Idemkioun) القديمة. كما أن المباني التي عُثر علـــى أثرها في السوق (تادمكة) و طاهولوس (Taholos) و قُوبَان (Gouban) و كيدال (Kidal) و غيرها من الأماكن لها صِلة أكيدة بمباني المواقع البربرية القديمة في فزّان و في خرائب أباليســـة بالهقار و لا توجد لها بنايات مماثلة في بلاد السُّنغي، ثم إن قبور أدرار القديمة، و خاصة تلك التي توجد في أطراف الأماكن المذكورة تحتوي، أوّلا، على جثوات فترة ما قبل الإسلام (Tumilis Préislamique) من النوع الصحراوي، و ثانيا، على قبور إسلامية، و لم يتم العثور أبداً علـــى ضريح جنائزي آخر، ذي طابع وثَنِيّ، و هذه الحقيقة وحدها تُكوّن لغزاً عن هُوية سكان أدرار إيفوراس، قبل وصول الرعاة الصحراويي،ن و ليست في صالح وجود سكان سُنغَيْ، يضاف إلى ذلك أن تسميات مواقع أدرار و الأماكن المحصورة بينه و بين النيجر هي أساسا طُرقيّة.[3]

1- Le Passé de L'Afrique du Nord, pp.224-225.

2- Ibid, p.225.

3- Contribution à L'étude des Touaregs Soudanais, pp.403-404؛ و قـــد ســـجل Lhote H. أن Richer اعتمد على روايات محلية للقول: إن الصنغاي سيطروا على أدرار منذ القرن العاشر و تلك الروايات تختلـــف في مضامينها من شخص لآخر مما يدلّ على أنها مستقاة من غموض عام (Ibid, pp.404-405)؛ و يفنّد Lhote ما جـــاء في الأسطورة التي جمعها Duveryrier (1864, p.319) و مضمونه أن " الســـودان Les Noirs بنـــوا الســـوق (تادمكة)؛ و الطوارق غزوها و احتلوها و وسعوها و زخرفوها..." و لا يرى السبب الذي جعلهم يبنون هذه المدينـــة، وسط أدرار إيفوراس، في حين لم يوجد أي تجمع آخر بينه و بين النيجر (Ibid, pp. 405-406).

و موقع تادمكة الجغرافي، في رأي Lhoteهو، بلا منازع، مخزن (Magasin)أو سوق، و يمكن تفسير وجوده وسط القبائل الطرقية على أساس أنها هي وحدها القادرة على حمايته و هو يقع على طريق يصل بين البحر الأبيض المتوسط و بلاد السودان. لكن ما الدور الذي كان يمكن أن يلعبه هذا السوق بالنسبة للسنغي، بعيدا عن بلادهم و لم يكونوا أصحاب قوافل؟[1]

و بالنسبة لـ .Mauny R فإن السوق (تادمكة) بالإضافة إلى كومبي صالح (غانة) و أودغست مدن مغربية أقيمت على حدود بلاد السودان، و يعتبرها مستعمرات تجارية حقيقية، و هي في نظره، شقيقة لمدن سجلماسة و نول لمطة و تامدلت و وارجلان و غدامس و زويلة فزان التي كانت لها معها اتصالات دائمة كما كانت لها معها أيضا نقاط مشتركة أكثر مما لها مع مدن السودان جنوبا[2] و اللافت للانتباه هو التناقض الذي يحمله كلام Mauny فهو، من جهة يقر أن المدن المذكورة و من بينها تادمكة مغربية و من جهة أخرى يعتبرها مستعمرات تجارية حقيقية، لقد فعل ذلك بدون شك للتعبير عن قناعته بأن هذه المدن و إن كانت مغربية ديموغرافيا، فهي سودانية جغرافيا (معزة و لو طارت).

أما مدينة كوكو التي تقع على شط النيل (النيجر) المقابل لمدينة تادمكة، و على بعد تسع مراحل منها فهي للسودان[3]، و في شرقي جبل مقورس الفاصل بين الكانم و كوكو،

1- op.cit., p.406 ·

2- Tableau Géographique, p.390. .

3- المغرب، ص 181؛ الترجمة الفرنسية Monteuil : op.cit., p.77 ؛ الاستبصار الترجمة الفرنسية E. Fagnan op.cit., p.205؛ و تقع مدينة كوكو، حسب ابن سعيد، على خط 44 ° طولا و 10° 15 عرضا، و يستنتج من قوله بأن أرض بغامة تقع غرب النهر الذي تقع مدينة كوكو إلى الشرق منه، دون أن يسميه، أن هذا النهر يمتد من الشمال إلى الجنوب أو العكس (كتاب الجغرافيا، ص 93؛ الترجمة الفرنسية J.M. Cuoq : op.cit., pp.206-207)؛ و هذه المدينة التي يطلق عليها الغربيون تسمية gao تنطق بعدة كيفيات منها كاوكاو و قاوقاو و كوكو و قوقو و كانكو و بالتمشاق قانقو) (Cuoq J. : Histoire de L'Islamisme, p.13, Note.31) و جوجو أو جوجو، و يعتقد Lewicki T. أن النطق السليم لهذا الإسم هو قاوقاو Gawgawبل Gaogao و هذه الصيغة الافتراضية كما يقول قريبة جدا من الاسم الذي استعمله الحسن الوزان الذي كتب سنة 1926 و هو قاوقا أو Gago (L'Etat Nord- africain de Tahart, pp.519-520).

مجالات الكانم و أتباعهم من البربرة الذين أسلموا على يد سلطان الكانم، و في شرقي ما كـــان مجالات الزغاويين، و تمتدّ شمال كانم أرض الكوّار[1] و تقع عاصمتها كوّار حيث الطـــول 45° و العرض 20° و دقائق[2]، و هي عبارة عن سلسلة من واحات الصحــــراء الجنوبيـــة، وســـط الطريق، الذي يربط فزّان، شمالا، بالتشاد، جنوبا[3]، غرب كتله جبل تيبستي.[4]

و قد أورد اليعقوبي أن أهل كوّار مسلمون من سائر الأحياء، أكثرهم بربـــــر يـــأتون بالسودان[5] و يعلق كيوك (Cuoq)على كلام اليعقوبي بقوله " إذا فسّرنا بدقة تأكيد اليعقـــوبي، يجب أن نستنتج أوّلا: وجود سكان غير مسلمين، يحتمل أن يكونوا من زواغة، و ثانيا: وجـود أقلية مسلمة غير بربرية، يستحيل تحديد جنسها؛ أمّا هؤلاء البربر فإننـــا نجـــد أثرهـــم لـــدى الإدريسي في القرن الثاني عشر، و بعده ببضع عشرات من السنين لدَى ياقوت الحموي الـــذي يصف لونهم بالاصفرار.[6]

و ينسب .Lewicki T سكان واحات كوّار الأوائل إلى جنس التُّوبُو (Tubu) و يقـــول إنهم اختلطوا، فيما بعد، (دون أن يحدّد الفترة)، بعناصر الكنّوري (Kanuri)، على إثر غـــــزو ملوك كانم لهذه الواحات، و يرى أن الاسم الذي أطلق على هذه المنطقة عربي.[7]

و قد نسب الإدريسي أكثر من مرّة كوّار إلى بلاد السودان، دون أن يتعرض للحديـــث عن عناصر سكانها، غير أن ما قدّمه من معطيات عن النظامين: السياسي و الاجتماعي.[8] كان كافيا لـــ Cuoq J.M كي يستنتج أن كوّار، في عهد الإدريسي، كان، بدون شـــك مســـتقلا تحكمه أسرة بربرية، يحتمل أن تكون من الطوارق.[9]

1-كتاب الجغرافيا، ص 96؛ الترجمة الفرنسية J.M . Cuoq : op.cit., p.210 ؛

2- نفس المصدر، ص 115 ؛ للترجمة الفرنسية Ibid, p.218 ؛

3- J.M.Cuoq : L'histoire de L'islamisme de L'Afrique de L'ouest, p.22 ؛

4- Lewicki T. , Sur L'oasis de Sbru (Dbru, Shbru) des Géographes Arabes, Revue Africaine, No 378, 1er Trimestre 1939, p.62. ؛ أنظر الخريطة رقم 1.

5- كتاب البلدان، ص 345؛ الترجمة الفرنسية J. M.Cuoq : op.cit., p.p.48-49 ؛

6- L'histoire de L'islamisme de L'Afrique de L'ouest, pp.23-24. ؛

7- أنظر. Sur L'oasis de Sbru, pp.62-63. ؛

8- أنظر. القارة الإفريقية، ص 99؛ الترجمة الفرنسية J.M. Cuoq : op.cit., pp.156-157 ؛

9- op.cit, p.156, Note 1 ،

و يطلق Cuoq في مكان آخر، تسمية الطوارق على القبائل البربرية التي كانت تنتقل في الأجزاء الشرقية من الصحراء، بين الأير و تيبستي و الكردفان و التشاد، و يطلق عليهم كذلك تسمية بربر جنوب شرق الصحراء.[1]

و يفيد ابن سعيد المغربي أن بلاد كوار كانت(في عهده ، بداية القرن 8 هـ/ 13 م) على طاعة سلطان كانم و أن أهلها سودان مسلمون تخلقوا بأخلاق البيض، في لبس الصوف، و القطن و الرحلات التجارية[2] مضيفا أن الفتن كثيرا ماكانت تقع على بحيرة كوار الواقعة على مرحلتين إلى الغرب منها و بحيرة السول الواقعة على مرحلة شرقها، بين سكانها و بربر الصحراء و عرب فزان.[3]

و يختلف كل من ابن سعيد (ق. 13 م) و الإدريسي (ق.12 م) في شأن قبائل يسميها الأول سندراتة و يحدد مجالاتها شمال شرق كوار، و هم حسب رأيه، بربر مسلمون ملثمون[4]، و يسميها الثاني سدراتة[5] و يروي ما قيل عنهم بأنهم بربر تشبهوا بالزغاويين (السودان) في جميع حالاتهم، و صاروا جنسا من أجناسهم[6] و يضيف أن هناك أمة تسمى سغو من زغاوة تعيش على جبل لونيا، جنوب أرض زغاوة[7].

و يحدد ابن سعيد مجالات زغاوة، جنوب الجبل المذكور الذي يقع،حسب رأيه، جنوب بلاد كوار، غير أن كيوك Cuoqيؤكد أن هذه التسمية تطلق على الأير، غرب كوار، و ليس

1- Histoire de L'islamisme de L'Afrique de L'ouest, p.6 .

2- المصدر السابق،ص 114.

3- كتاب الجغرافيا، ص 114؛ الترجمة الفرنسية، ص J. M. Cuoq : op.cit., p 216؛ مع العلم أنه لا توجد اليوم أية بحيرة في كوار (J. M. Cuoq : op.cit., p.216, Note 1) .

4- نفس المصدر، ص 115؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.21 .

5- يتوقع J.M. Cuoq أن يكون هؤلاء هم صواتة Sawata الأبس (الآير) التي استولى عليها الملك كاتسينة Katsina، رمبة – رمبة Ramba – Ramba حوالي 1150 (op. Cit., p.151, Note 1) .

6- القارة الإفريقية، ص 92-93؛ الترجمة الفرنسية cuoq : op.cit., pp.151-152 .

7- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id و يبدو لـ Cuoq j.M من خلال النص أن اسم لونيا يطلق على كتلة الآير L'Air من أرض زغاوة و قد لا يكون تيبستي Tibesti و لا تيبو Tebou و لا هو الأهقار L'hahaggar البعيد جدا (op.cit., p.151, note 3).

جنوبه[1]، و يبدو من خلال المقارنة بين نَصَّيْ ابن سعيد و الإدريسي أن كيوك Cuoq على حق، أي أن تحديده من طرف الإدريسي أدق.

و يُسمَّى الآير Air بالهَاوْسَة أَسْبَن، و هو عبارة عن كتلة جبلية، كانت في الماضي، على ما يبو، مفترقَ طرقٍ هاماً، و هو عامر، في يومنا، بسكان سود (الهاوسة) و بيض (طوارق كَلّ آيْر (Kel Air) و ينقسمون إلى كَل جيريس (Kel Gérés)و كَلّ وِي (Kel oui)، مما يدُل بوضوح، في نظر Cuoq ، أن هذه الكتلة كانت مكان لقاء الجنسين، و لم يكن للموجة البربرية هنا نفس الأهمية التي كانت لها جنوب غرب الصحراء.[2]

و يجعل ابن سعيد شمال هذا الجبل الممتد، من الغرب إلى الشرق بلاد بركامي، و هم سودان أيضا، و في جنوبه الغربي تقع، حسب رأيه مدينة تادمكة، شمال خط الإقليم الثاني، حيث الطول 44 ° و دقائق، و أهلها بربر مسلمون في طاعة سلطان كانم[3] كما كانت في طاعة سلطان كانم آنذاك (في بداية القرن الثالث عشر) كلّ من غدامس و ودّان و فزّان.[4]

مع العلم أن سكان غدامس كانوا، حسب البكري، بربرا مسلمين[5] و كان سكان وُدّان، حسب اليعقوبي، يدّعون أنهم عرب من اليمن و لكن أكثرهم من مزاتة (البربر) و هم الغالبون على البلاد، و فزّان في رأيه هم جنس يتكوّن من أخلاط من الناس[6] لكن ابن حوقل

1- op.cit, p.216, Note 3 .

2- Histoire de L'islamisme de L'Afrique de L'ouest, p.22 .

3- كتاب الجغرافيا، ص 115؛ الترجمة الفرنسية Cuoq : op.cit., pp.217-218؛ و يعتقد كيوك Cuoq أن ابن سعيد يقصد بتادمكة، تاكدّةَ الواقعة على مشارف الآير L'Air الجنوبية الغربية و ليس تادمكة و هي أدرار إيفوراس، أي السوق الحالية، لأن نفوذ امبراطورية كانم لم تصل يوما إلى أدرار إيفوراس .(op.cit., p.218, Note 1) .

4- نفس المصدر، ص 127؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.218-219 .

5- المُغرب، ص 182؛ الترجمة الفرنسية Monteuil : op.cit, p.78؛ و توجد غدامس على الطرف الشرقي من عرق إيغرغار الكبير (Gautier E.F. : Le Sahara, p.145) .

6- كتاب البلدان، ص 345؛ الترجمة الفرنسية Cuoq J.M. : op.cit., p.p.48-49؛ و ينفرد الإدريسي بالقول: إن أرض ودّان كانت عامرة بالسودان الذين هربوا أمام زحف الفاتحين المسلمين و تفرّقوا في الصحراء و لم يبق بها في عهده (ق 6 هـ/ 12 م) سوى مدينة دَاوُد، و هي خراب، و يعيش فيها بقايا قوم من السودان بسفح جبل طنطة (القارة الإفريقية، ص 97؛ الترجمة الفرنسية Cuoq : op.cit. , pp.154-15) .

بعده (ق.10م) يوضح أنها أرض تعيش على المياه الموجودة في نواحيها قبائل من البربر المهملين، قوام حياتهم من اللّبن و اللحم.[1]

و في جنوبي فزّان و ودّان مجالات قبيلة أزكان أو أزكار البربرية[2] و هم رحّالة يُصَيِّفون و يربّعون حول جبل طنطنَة[3] الذي يمتدّ من الشرق إلى الغرب مسافة ستّ مراحل، بالقرب من خط الإقليم الثالث.[4]

و إلى الشرق من أرض كوّار تقع أرض الواحات الجنوبية[5] أي واحة الكفرة و كانت خرابا في عهد الإدريسي و إلى الشمال منها أرض الواحات الخارجة التي تعرف بسنترية.[6]

و مما يمكن استخلاصهُ من المعلومات التي زوّدتنا بها المصادر في موضوع حدود بلاد المغرب من الناحية الجنوبية أن معظمها كان يأخذ بعين الاعتبار الجانب العمراني، حيث كانت تعتبر المدن الواقعة على مشارف الصحراء، كسجلماسة و وارقلان و الواحات، المحطات الأخيرة التي يتجمع فيها المسافرون، و بالأخص التجار، للتوغل في الصحراء و عبورها إلى بلاد السودان و تمتدّ في تلك الصحراء على طول بلا د المغرب الجنوبية من الشرق إلى الغرب.

و عند أخذ العنصر البشري بعين الاعتبار نجد البربر، من مختلف القبائل، يتجوّلون في الصحراء طولا و عرضا، و لهم بها مراكز تجمع كثيرة و الكثير منها مشرف على بلاد السودان و من بينها: نغيرة و هو مركز تجمع بني جُدّاله، و يقع بالقرب من المحيط الأطلسي، جنوب موريطانيا الحالية، و يبعدُ عن نهر السنغال مسافة ست مراحل، أوليل، جزيرة الملح، الواقعة على مسافة مجرى (أي يوم واحد) من نهر السنغال ثم أودغست التي تفصلها عن مدينة باريسَى

1-صورة الأرض، ص 84؛ الترجمة الفرنسية J. H. Kramers et G. Wiet, p.80.

2- ابن سعيد: المصدر السابق، ص 127؛ الترجمة الفرنسية J. M. Cuoq : op.cit, p.19.

3-الإدريسي: المصدر السابق، ص 94؛ الترجمة الفرنسية C uoq : op.cit., p.152.

4- ابن سعيد: المصدر السابق، ص 127؛ الترجمة الفرنسية C uoq. Op.cit., p.219 ؛ و يمكن البحث عن جبل طنطنة، حسب Cuoq، جنوب زويلة بتبستي و المكان الوحيد الغني بمراعيه و مياهه يوجد على السفح الجنوبي للكتلة الجبلية غربا (op.cit, p.155, Note 3).

5- نفس المصدر، ص 115؛ الترجمة الفرنسية I bid, p.218.

6- أنظر ما قبل، ص26 فما بعدها.

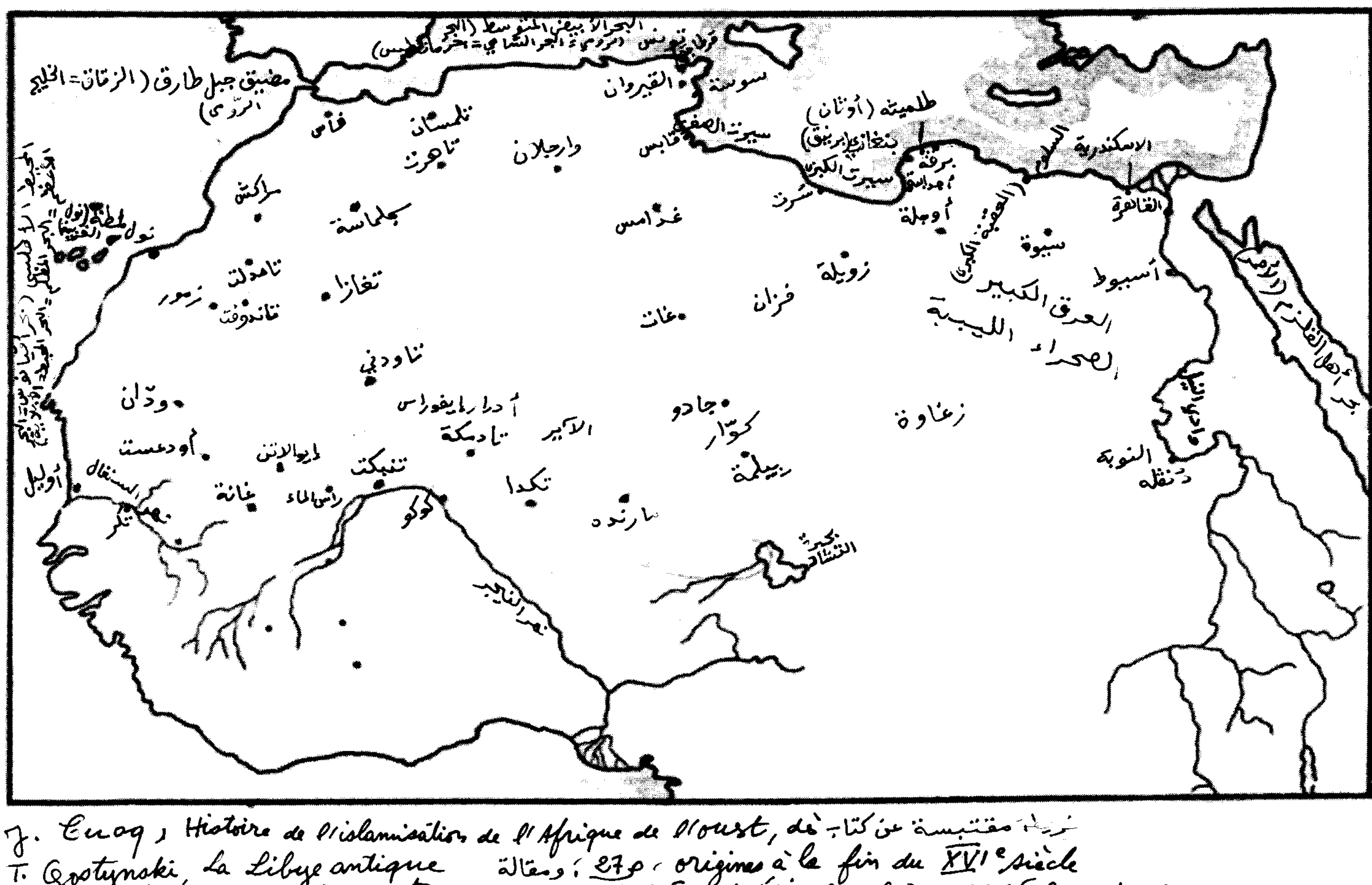
السودانية اثنتَا عشر مرحلة، و كذلك الأمر بالنسبة غانة الواقع في جنوبها الشرقي؛ و تادْمكّة على الحافة الجنوبية للصحراء، في أدرار إيفوراس، على بعد تسع مراحل من مدينة كوكو السودانية، و كوّار، غرب كتلة جبال تيبستي، في وسط الطريق الذي يربط بين فزّان، شمالا، و التشاد، جنوبا. و أخيرا، الواحات شمال شرق كوّار.

مع العلم أن التواجد البشري البربري شمال خط تادمكة - أَوْدَغُست- نَغيرة أوليل مؤكد أكثر منه في الخط الواقع شرق تادمكة و نواحي كوّار و الواحات حيث يلاحظ نوع من التداخل العرقي بين السكان البيض البربر و السكان الزنوج السودان، في مناطق كثيرة.

و في النهاية يمكن القول إن حدود المغرب تبدأ في الناحية الشمالية الشرقية، عند بداية هضبة برقة، أو العقبة الكبرى عند السلوم أو السّلّم و تتبع سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى مدينة سلا في أقصى الناحية الشمالية الغربية ثم تنعطف جنوبا على طول سواحل المحيط الأطلسي إلى موقع أوليل الواقع في بلاد جدّالة و التي يُعدّ مركز تجمّعها (أي قاعدتها) نغيرة و أودغست -و تادمكة و كوّار و الواحات في الزاوية الجنوبية الشرقية ثم نقطة البداية السّلم أو السلّوم في الناحية الشمالية الشرقية.

خريطتا البــاب الأول

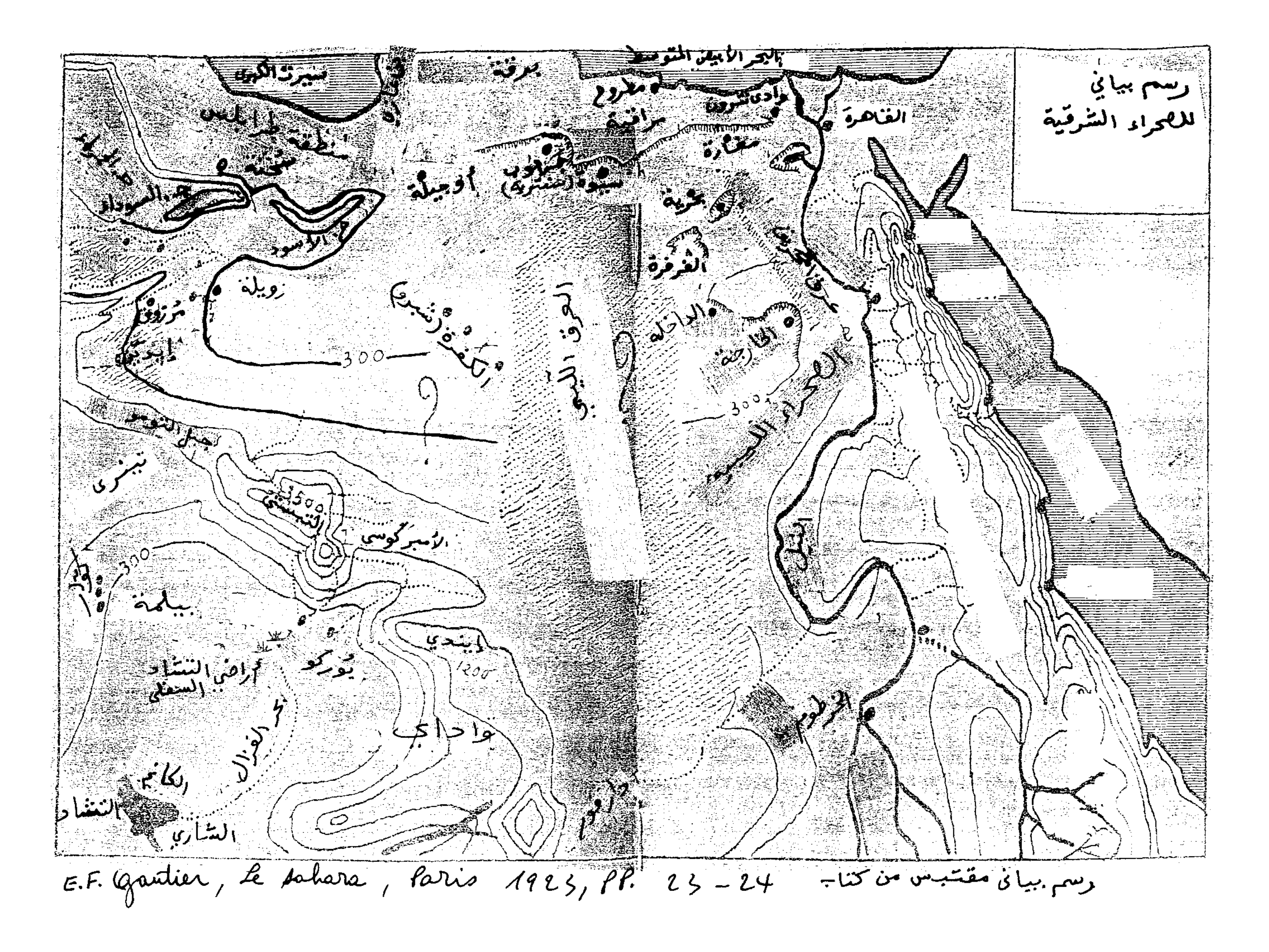
خريطة رقم «1»



خريطة مقتبسة عن كتاب: J. Cuoq, Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest, des origines à la fin du XVIe siècle: 27p، ومقالة: T. Gostynski, La Libye antique et ses relations avec l'Egypte, dans B. de l'I.F.A.N, série B., n° 3, 1975, p. 481 à 487؛ E. Demougeot, Le chameau et l'Afrique du Nord romaine, Annales E.S.C., N°2, pp. 232-233

الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية (ق. 3-4 هـ/ 9-10 م)، ط. الجزائر، ص 209.

خريطة رقم «2»



رسم بياني مقتبس من كتاب E.F. Gautier, Le Sahara, Paris 1923, pp. 23 - 24

الباب الثاني

أشكال تواجد الماء على الطبيعة و حفظه و طرق استغلاله ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين

- الفصل الأول: نظام تساقط الأمطار في بلاد المغرب و مصير مياهها.
- الفصل الثاني: الأنهار و طرق استغلالها ببلاد المغرب.
- الفصل الثالث: العيون و طرق استغلالها حسب المصادر العربية.
- الفصل الرابع: الآبار المذكورة في المصادر العربية و طرق استغلالها ببلاد المغرب حسب المصادر العربية.
- الفصل الخامس: توصيل المياه و تخزينها ببلاد المغرب.

الباب الثاني

الفصل الأول

نظام تساقط الأمطار في بلاد المغرب و مصير مياهها

منـــــاخ بـــــــلاد المـــــغرب:

يحتاج علاج موضوع " نظام تساقط الأمطار في بلاد المغرب " في الفترة المحصورة، مـــن بداية الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين، طرح سؤال بديهي هو: ألم يحدث، منذ ذلـك الوقت تغيير في مناخ المنطقة، من شأنه أن يؤثر في زيادة المياه أو نقصانها؟

و لحسن الحظ فإن هناك نتائج دراسات سابقة تجيب بشكل مباشر على هذا الســـؤال، و من ذلك ما توصّل إليه .Gostynski T من" أن جفاف مناخ ليبيا،(ويعني بها مناخ بلاد المغـرب قديما،حيث ينتشر العنصر الأبيض بشمال القارة الإفريقية) هذا المناخ بلغ مستواه الحالي في بداية الألفية الأولى قبل الميلاد، تقريبا، لكن الخاصية الصحراوية (في الجنوب) كانت أقلّ وضوحا مما هي عليه اليوم، ما دامت الخيل كانت تستطيع التنقل فيها.و يضيـــــف Gostynski أن أغلـــب الباحثين يؤكدون بأن مناخ إفريقيا الشمالية لم يتغيّر كثيرا،منذ الألفية الأولى قبل الميلاد.[1]

و هذا نفس ما انتهى إليه Xavier De Planhol في بحثه لهذا الموضوع حيث يقـــول: إن " الخلاصة العامة التي تفرض نفسها هي أن المناخ (في المغرب) لم يتغيّر بالفعل، منـــذ العصـــر القديم (Antiquité)، على الأقل في خطوطه الأساسية ".[2]

و في نفس السياق يذهب .Golvin L إلى القول: " إن مناخ أي بلد لا يتغـــيّر تغيـــيرا محسوسا في ألفية واحدة... نحن نعلم مثلا، إذا اقتصرنا على المنطقة الـــتي تـــــهمنا (المغـــرب الأوسط في عهد بني زيري) أن منابع المياه (Les Sources) المعروفة حاليـــا (بمنطقــة) بَنْيَــة (Benia) هي التي وصفها البكري، في بداية القرن الحادي عشر الميلادي "[3]أي أنها لم تتغــــير منذ ذلك الوقت إلى اليوم، و هذا الاستنتاج بالذات مهمّ بالنسبة لموضوعنا.

و المهم أن كل هذه الآراء تنصبّ في قالب واحد، يشكل جوابا، عن السؤال المطـروح، و هو: عدم حدوث أي تغيير لافت للنظر بين مناخ الفـــترة الـــتي نحـــن بصـــدد دراســـتها و المناخ السائد في أيامنا ببلاد المغرب، و بالتالي فإن معطيات الأرصاد الجوية لم يطرأ عليـــها أي تغيير، منذ العصر القديم، هي الأخرى، كما لاحظ Gostynski [4].

1- La Libye antique et ses relations Avec L'Egypte, 482 Sq.

2- Les fondement géographiques de L'histoire de L'Islam, Paris 1968, p.136.

3- Le Maġrib central à l'époque des Zirides, Paris 1957, p.77.

4- op. Cit., p.484.

و إذا سلّمنا بهذا الواقع يحق لنا التعرّف على مناخ المغرب في العصر الوسيط، من خلال ما نعرفه عنه في وقتنا الحالي و لأخذ فكرة سليمة عن موارد الماء في هذه المنطقة من العالم، يحتاج الأمر إلى الاطلاع عن أوضاع الأحوال الجوية في أيامنا.

و من المعروف أن العوامل التي تؤثر في مناخ المغرب (L'Afrique du Nord) هي: مَوْقعُه، بالنسبة لخطوط العرض، بين خطّيْ عرض 37°و 29 °، شمال خط الاستواء، و امتداد البحر الأبيض المتوسط على سواحله من الغرب إلى الشرق، و اتجاه سواحله، و تضاريسه المتنوّعة التي يَغلب عليها الطابع الجبلي عَلى العموم.(1)

و لنقتصر على تأثير الموقع بالنسبة لخطوط العرض لِنلاحظ ما يجري في عرض المغرب الأقصى بالمحيط الأطلسي: ففي مستوى جزر الأصور، يوجد إعصار معاكس (anticyclone)، هو عبارة عن كتلة هوائية مدارية (Tropicale) دافئة على المحيط، في شكل حزام مداري للضغط الجوي المرتفع يلتفّ بالكُرة الأرضية و يفصل بين منطقة الأليزي و الأمطار الاستوائية و بين الرياح الغربية التي تحمل المطر إلى المناطق المعتدلة، و يُقفل حزام الضغط المداري المرتفع هنا على المحيط الأطلسي، فيما أسماه عُلماء الأرْصَاد الجوي الضغط الأصوري المرتفع (Le Maximum des Açores)، و هو الذي يتحكّم في نظام الأمطار، و منه تنطلق الرياح المنتظمة في اتجاه خط الاستواء بالجنوب الغربي و تسمى رياح الأليزي؛ و يُغذّي في الناحية الشمالية، مع تيار من كتل الهواء القطبي، الرياح الغربية غير المنتظمة التي تسود المناخات المعتدلة، و يتسبب اختلاط كتل الهواء الدّافيء بكتل الهواء البارد، على طول جبهة قطبية متحركة، في تكوين زوابع واسعة من انخفاضات بارُومِتْرية أو أعاصير (Cyclones) تتحرك من الغرب إلى الشرق، و تَحمل إلى أوربا و البلاد المتوسطية جوًّا متغيّرا و أمطاراً غير منتظمة، و إلى جبال الأطلس، التي تقع مباشرة، شمال حزام الضغط المداري المرتفع، مناخا متوسطيا، و كل ما تستقبله من أمطار يصلها عن طريق المنخفضات الإعصارية التي تحملها الرياح الغربية عَبْر المحيط الأطلسي.(2)

1- Despois J, L'Afrique blanche, T.1, p.3؛ يضيف Despois في نفس المكان عاملا آخر، هو جوار الصحراء، غير أنّنا تركنا تسجيله على اعتبار أن الصحراء جزء من المغرب.

2- E. F. Gautier, L'Afrique blanche, p.153.

و في الصيف، بعد الانتقال الظاهري للشمس، نحو القطب الشمالي، تصعد الكتل الهوائية المدارية إلى مستوى شبه الجزيرة الإيبيرية، و تطرد الأعاصير القادمة من الغرب إلى الشمال، مما ينتج عنه جوّ هادئ و منتظم يمتدّ شمالا إلى ما يقرب من خط عرض 45 ° [1] و لا تتلقى منطقة جبال الأطلس قطرة واحدة من المطر لمدّة ستة أشهر من الجفاف المطلق، تحت شمس حارة: إنه فصل الموت النباتي.[2]

و هذا ما جعل E.F. Gautier يقول بأنه لا يوجد، في هذا البلد عموما، سوى فصلان مميّزان: الصيف و الشتاء؛ و الشتاء هو الفصل الحيويّ، فصل الإنبات و الاخضرار، لأنه فصل الأمطار[3].

أما J. Despois فهو يصف مناخ البحر الأبيض المتوسط الذي يسود بلاد المغرب " بشتاء لطيف على الساحل و أمطار في الخريف و الشتاء و الربيع، و بصيف حار و جاف و الخاصية الأساسية لهذا المناخ، في رأي هذا المؤلف، هي الصُّدفة التي تجمع بين الصيف و فترة الجفاف، و هو متأثر بقوة، من ناحيته الجنوبية (منطقة الهضاب العليا) بالصحراء، و هي أرض قارية، شديدة الجفاف، ذات شتاء بارد جدًّا و صيف حارق[4].

و يفيد امتداد البحر الأبيض المتوسط، بين أوربا و إفريقيا البلدان التي تحيط به بمناخ متشابه تقريبا: ففي الصيف يبقى البحر بارداً نسبيا، و يمتدّ على حوضه الضغط الجوّي الأطلسي المرتفع الذي يصعد إلى مستوى عرض البرتغال، فيستقرّ فيه الضغط، دون أن يرتفع، و يبقى الجوّ هادئا و جميلا، و تهبّ رياح الشمال الشرقي الخفيفة نحو منطقة الضغط المنخفض بالصحراء الحارقة، و هي تشبه أحيانا نسيم البحر على الساحل و تنتشر بواسطة رياح الأليزي فتُلطّف المناطق الساحلية لشمال إفريقيا دون أن تحمل لها أمطارا، و على العكس من ذلك تكون الأوضاع في الشتاء حيث يكون البحر دافئا و درجة حرارته أعلى من درجة حرارة الهواء

1- E. F.Gautier, op.cit , p.154.

2- J . Despois, op.cit., p.5.

3- E. F. Gautier, op.cit., p.155.

4- J .Despois : op.cit., p.3.

بثلاث أو أربع درجات مئوية، و تكون المنطقة الأطلسية الجبلية. و الصحراء القارية، أبرد نسبيا، و يمتدّ ضغط الأصور المرتفع على الصحراء الشمالية و منطقة الأطلس[1] .

و عندما يصل البحر المتوسط جزء من الأعاصير القادمة من المحيط الأطلسي فهو يحتذبها و يحفظها و يغذيها بالضغوط المنخفضة التي تسود البحر، و عندها يعرف شمال إفريقيا جوًّا متغيّرا جميلا و بارداً، و يكون دافئا و مضطربا و أحيانا ممطرا. أثناء مرور انخفاض الضغط على حوض المتوسط أو عندما يكون تجويف الأعاصير الواقعة شمالا ـــ في بحر المانش و بحر الشمال أو البلطيق ـــ عميقا لدرجة تمكّنه من مدّ تأثيره إلى شمال إفريقيا.[2]

و تكون الوضعية البارومترية، خلال الفصلين الانتقاليين، أقلّ وضوحا، و يقلّ الاختلاف الحراري بين البرّ و البحر، و يبقى الجوّ مضطربا بسبب مرور انخفاضات بحرية قادمةمن الغرب و لكن في الصحراء تظهر أحيانا، في فصل الربيع أعاصير أخرى تنتقل نحو الشرق أو الشمال الشرقي، و منشأ بعضها على الأقل، مداري يمكنه أن يحمل جوًّا رديئا و أمطارا على كافّة المغرب(جبهة الأليزي).[3]

و على العموم يُقَدّر .Gautier E.F ما يسقط من الأمطار، بغزارة، كافيا على السفوح الشمالية لجبال الأطلس فقط، في المنطقة الساحلية، و بمجرّد ما نبتعد عن البحر بمائة أو بمائة و خمسين كيلومتراً ينخفظ مجموع ما يسقط من الأمطار سنويا إلى 200 مم في السنة، و أَقَلّ من ذلك هو مدخل الصحراء، منطقة السهوب المكرّسة للحياة البدوية.[4]

و يوضح .Despois J بأن شمال إفريقيا (و يعني به المناطق الواقعة شمال الصحراء من بلاد المغرب) لا تتلقى أقلّ من 200 مم سنويا، في أي مكان، تقريبا و أن الثلث من مساحة هذه المنطقة تفوق كمية ما يسقط فيه، من المطر سنويا 400مم، و المناطق المروية بكثرة لا تنعدم.[5]

و تشكل الجبال الأطلسية حاجزا بارداً، في طريق الأمطار القادمة من المحيط الأطلسي، أو من البحر الأبيض المتوسط، و بذلك تكُون السلاسل المجاورة للبحر و التي لها سفوحٌ مواجهة

1- J .Despois : op.cit., p.5 .

2- Ibid, p. 6 .

3- Id .

4- L'Afrique blanche, p.155 .

5- L'Afrique blanche, T.1, p.14 ؛ أنظر الخريطة رقم 3.

نحو الغرب أو الشمال هي أكثر ارتواء، و بالأخص سلسلة جبال الريف، في منطقـة جبّالـة (Djebala). و شمال الأطلس التلي الأوسط، من غرب مدينة الجزائر إلى بترورت، حيث يفوق ما يسقط من الأمطار سنويا 800 مم و 1000 مم في كثير من الأحيان، و تتلقّى جبـال الظـهرة التونسية، و الأطلس الصحراوي الجزائري، بفضل ارتفاعها و تضاريسـها الواقعـة في أعلـى الهضاب، أكثر من 400 مم أحيانا، و الارتفاع هو الذي يمدّ الأطلس الغربي، الواقـع في خـطّ عرض منخفض جدًّا، بأمطار محلية يمكنها أن تبلغ أو تفوق 800 مم.[1]

و تتلقى السهول و التلال الواقعة بجوار البحر أمطاراً كافية تتراوح ما بـين 400 و 650 أو 700مم، بفضل برودة الشتاء النسبية، شريطة ألاّ تكون تحت السلاسل الساحلية و ألاّ تكـون ضيقة جدًّا.[2]

كما أن السهول و الهضاب الأطلنطية للمغرب (الأقصى)، شمال الجديـدة (Mazagan) و واد زم، و مجموع سهول و أحواض الأطلس التلّي بالجزائر، و كل الأراضي الواقعة شمـال الظهرة التونسية تقريبا، تتلقى أمطار كافية.[3]

لكن التساقط يقلّ شيئا فشيئا، جنوب الجديدة، من 400 إلى 250 مم، و حتى أقلّ مـن 200 مم(شيشاوة)، بسبب الموقع بالنسبة لخطوط العرض، و تأثير تيـار الكنـاري البـارد، و السهول المرتفعة الواقعة شرق المغرب(الأقصى) و في الجزائر هي كذلك جافة نسبيا (من 150 إلى 350مم)؛ و نفس الشيء يقال عن سهول تونس الشرقية الواقعة جنوب الظـهرة(200 إلى 400مم) رغم تعرضها لساحل البحر و وجود أعاصير صغيرة أحيانا على خليج قابس.[4]

و يُسجّل Despois واقعين خاصين: أوّلهما بقاء أمطار كافية في منطقة تيارت (تيـهرت أو تاهرت) و السرسو الغربية، على أطراف السهول المرتفعة الجزائرية، بفضل تقويرة وادي مينة و قلة ارتفاع هضبة فرندة نسبيا؛ أما ثانيهما فيتمثل في جفاف سهول منطقة وهران المرتفعـة و أكثر منها سهول المغرب (الأقصى) الشرقية، لوقوعها، في ظل الأطلس الأوسط و الريـف،

1- Despois : op.cit , p.14 Sq ؛ أنظر الخريطة رقم 3.

2- Ibid, p.16 .

3- Id. .

4- Ibid, pp.16-17؛ قارن بعز الدين أحمد موسى: النشاط الإقتصادي في المغرب الإسـلامي، ص 53-54؛ أنظـر الخريطة رقم 3.

و كتلة شبه الجزيرة الإيبرية المجاورة، مما يحجز عنها الرياح الممطرة القادمة من الغرب و الشمال- الغربي و الشمال.[1]

و لا يُلاحَظ سقوط أقل من 200 مم سنويا من المطر، سوى في منطقة السوس و سهول الساحل التونسي الجنوبي لكن رطوبة الجوّ هنا تصحّح جزئيا ذلك الجفاف؛ و كذلك في عمق حوض الحضنة و على السهول المرتفعة للحدود الجزائرية المغربية التي لها صلة قوية بالصحراء.[2]

أمّا المشكل الحقيقي الذي يَطرحُه تساقط الأمطار، في بلاد المغرب فهو عدم انتظامها حيث " تتسبب ارتفاع التضاريس، حسب Gautier E.F، في فوارق كثيرة، ... و هي غير منتظمة في كلّ جهة، و لا يمكن الاعتماد عليها بكل ثقة، إذ يحصل أنها تنعدم في الشهر الذي تكون فيه ضرورية بحق، و قد يسود الجفاف سنوات عديدة، ينقص فيها منسوب مياه الآبار، و تجفّ المحاصيل، و تموت المواشي بالآلاف ".[3]

و الصّيف هنا، كما هو الشأن في كل المناطق المتوسطية جاف بالفعل، من ثلاثة إلى خمسة أشهر، من شهر مايو إلى شهر سبتمبر، لا تسقط فيه سوى أمطار إعصارية قليلة بالدّاخل، في أماكن محدودة، في حين أن الصيف بطبيعة الحال، هو وقت التبخر الكثير.[4]

و بينما تسقط أغلبية الأمطار بأوربا المتوسطية في فصلي الخريف و الربيع، فإن أغلبها بشمال إفريقيا يترل دائما، تقريبا خلال ثلاثة أشهر هي: نوفمبر، ديسمبر و يناير أو ديسمبر، يناير فبراير؛ و أمطار الربيع أقل من أمطار الخريف، في كل مكان تقريبا ما عدا، في المناطق القارية، و التغيّرات التي تحدث، من سنة إلى أخرى، في كمية الأمطار الساقطة على منطقة واحدة قد تصل إلى ثلاثة أضعاف، و قد تتجاوز هذه النسبة، في حالات استثنائية، حتى في المناطق البحرية.[5]

1- Despois : op.cit., p.17.

2- Id.

3- L'Afrique blanche, pp.154-155.

4- Despois J: op.cit, p.17.

5- Ibid, p.17 Sq.

و الأهم هو توزيع الأمطار، على السنة الزراعية، من سبتمبر إلى أغسطس: إذ تكفي 300 مم موزعة توزيعا جيّدا، مع زخّات جيّدة في الخريف و الربيع، لضمان إصابة جيّدة من الحبوب، في حين أن 400 أو 500 مم غير موزعة توزيعا جيدا تعطي نتائج رديئة.[1]

و الزراعة لا تستفيد من أغلب الأمطار الإعصارية[2] و بالأخص إن سقطت على أرض مشبعة بالماء، و تمرّ العواصف أحيانا في مايو أو يونيو و أكثر من ذلك في سبتمبر و لا يصحبها بالضرورة البَرَدُ، فهو يسقط بالأخص في فصل الشتاء، باستثناء أعالي الجبال، و بعض المناطق الساحلية النائية، و تتسبب الأمطار الإعصارية في كوارث، لما تحدثه من انزلاقات أرضية و فيضانات...[3]

و كثيرا ما تُشاهَد، عكس ذلك، أشهر جافة طويلة أو ذات أمطار خفيفة تتبعها رياح شديدة، و أمطار خريفٍ متأخرة جدًّا، تمنع أو تزعج البذر و الحرث، كما تُعرِّضُ قلّةُ أمطار الربيع محاصيل الحبوب للخطر لدرجة أنها تكون معدومة في بعض الجهات و كذلك محاصيل العنب و الزيتون؛ فعلى توزيع الأمطار تتوقف المحاصيل و المراعي.[4]

و يلاحظ Gautier E.F. أن ليبيا مقارنة بما أسماه " مغربنا الفرنسي " (و يقصد به تونس و الجزائر و المغرب الأقصى) الذي هو امتداد لها " ذات خصوصية مشتركة، كونها تقع بكاملها خارج الأطلس، في قطاع الساحل المتوسطي الذي تتصل فيه الصحراء بالبحر مباشرة في كل ناحية تقريبا، و هذه الخاصية الصحراوية، توجد على طول الساحل الممتدّ على مسافة 2000 كلم، و هي بلد متنوع.[5]

فبرقة عبارة عن هضبة كلسيّة كبيرة، يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر في بعض نقاطها 700م، و موقعها المتقدّم في الشمال يجعلها بعيدة عن طريق الانخفاضات الغربية الكبرى، مع أنها تقع، إلى حدٍّ ما، في ظل التضاريس الصقلية و الأطلسية، فلها من البروز الواضح ما يمكنها من الحصول على أمطارٍ تضاريسية: فهضابها تتلقى سنويا من 300 إلى 400مم، و تتلقى

1- Despois : op.cit, p.19.

2- و هي التي تسقط فيها أكثر من 30 مم من الماء في 24 ساعة (Despois, op.cit, p.19, note 2).

3- Despois, op.cit, p.19.

4- Ibid, pp.19-20؛ قارن بعز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص 54-55.

5- L'Afriqueblanche , p.113.

برقة (Ciréne)معدّلا سنويا يتراوح بين 500 و 600 مم، و تلك الأمطار موزعة توزيعا جــيّدا؛ فهي تسقط في برقة مدّة 70 إلى 75 يوما و في الجهات الأخرى من 40 إلى 60 يوما.[1]

و المقصود ببرقة (Cirénaïque)هو الجبل الأخضر، شرق بنغازي، و المقصود بطرابلــس ضواحي مدينة طرابلس، ما بين الحدود التونسية و رأس مَسْراتة؛ و ما بين مسراتة و بنغــازي يمتدّ ساحل سيرت الكبرى، على مسافة 600كلم، و هو صحراوي، يفوق فيه المعدّل الســنوي للأمطار 100 مم بقليل؛ و إلى الغرب من مسراتة تحيط سواحل سيرت الصغرى بتونــس الــتي تُعتَبر طرابلس امتدادا لها.[2]

و سِيرتُ الصّغرى عبارة عن رصيف قارّي، لها ميزة خاصة: فأشعة الشمس الإفريقيــة تُسخّن قشرة الماء التي تُغطّي الرصيف، بدرجة كبيرة، بحيث تبلغ درجــة الحــرارة في بعــض البحيرات الشاطئية صيفاً، 32°مئوية، و هي مُوَلّدٌ هائل لبخار تحمله الرياح بعيداً، إلى حدٍّ مــا، نحو الدّاخل، و يحمل زيادة من الرطوبة على طول الساحل الجاف.[3]

و يبلغ معدّل ما يتساقط من المطر حول مدينة طرابلس من 300 إلى 350 مم، كما يبلــغ هذا المعدّل في أعلى شاطيء القصبة الصخري بجبل غريان 300 مم لكن هذه النقــاط المميَّزة متفرقة، و مساحتها محدودة، و على العموم فإن معدّل التساقط يتراوح ما بين 150 و 250 مــم، و هو معدّل أقل بكثير من معدّل منطقة برقة.[4]

و الشريط الساحلي المتقطع وحدّه هو الذي يستقبل أكثر من 200 مم سنويا، و هو يمتد شمال خط عرض 32 °، و ينحصر شمال منطقة طرابلس و هضبة برقة، و تحيط الصحراء بخليــج سيرت؛ و تمتدّ غرب وادي النيل الصحراء الليبية التي تستفيد سواحلها بحوالي 100 مم سنويا من الأمطار المتوسطية لكن داخلها تَشْغَل جزؤه الغربي كُتَلٌ هائلة من كُثبان العرق اللّيبي الكبــير، أوسع عروق الصحراء.[5]

1- E. F. Gautier : op.cit., p.122. ؛ أنظر الخريطة رقم 4.

2- Ibid, p.130.؛ أنظر الخريطة رقم 4.

3- Ibid, p.132.

4- Gautier E.F.: op.cit., p.132.؛ و هذا يتناقض مع ما ذهب إليه Gostynski من أن الأمطار تقل تدريجيــا في اتجاه الشرق(أنظر La Libye antique, p.485).

5- Gostynski : Ibid., pp.484-485.

و في الطرف الآخر من بلاد المغرب، في نواحيه الجنوبية الغربية، بعد حــدود المغــرب الأقصى الحاليّة[1] تقع موريطانيا، و هي على العموم ليست بلداً جبليا، باستثناء كتلتين جبليتـين صغيرتين: إحداهما شمالا، عند منبع الساقية الحمراء، و الأخرى جنوبــا، أدرار الموريطــاني، لا يتعدّى ارتفاعه بضعة مئات من الأمتار.[2]

و إذا كانت موريطانيا أكثر رطوبة من الصحراء الوسطى فالفضل في ذلك لا يعـود إلى ارتفاعها بل ينبغي إلقاء نظرة على علاقتها بالمحيط الأطلسي، فهي في مجــال الألــيزي حيــث تــهبّ الرياح طول العام، من الشمال إلى الجنوب، مثيرة تيارا بــارداً ينتقــل مــن المغــرب (الأقصى) إلى السنغال؛ و بفضل هذه الرياح و التيارات تحصل موريطانيا على الزيادة القليلـــة (بالنسبة للصحراء الوسطى) من الأمطار غير المنتظمة التي توفّر المراعي للرحل.[3]

و يقسّم Maire R. الصحراء الغربية في موريطانيا إلى مجالين هما:

1- الصحراء المحيطية، و تمتد على طول سواحل المحيط الأطلسي، من جنوب وادي نون إلى الرأس الأبيض مكوّنة شريطا يمكن أن يصل عمقه، في بعض النواحي إلى 50 كلم، و يسمح المناخ الخاص بالصحراء المحيطية بانتشار نباتات كثيرة نسبيا و مختلفة، على الرّغــم مــن قلـة الأمطار و عدم انتظامها، و قد يَسّر نُموَّ تلك النباتات، الضبابُ المتواتر (Fréquent) و التكاثفات الخفية التي تسمح بها نسبة الرطوبة المرتفعة جدًّا باستمرار تقريبا. و تقــل ملاءمَــةُ الظــروف المناخية لنمو النباتات، كلّما ابتعدنا من الشمال إلى الجنوب، حيث يكثر تذبــــذب الأمطــار المتوسطية النادرة، دون أن تعوّضها الأمطار السودانية التي يبدأ سقوطها بانتظام تدريجي، جنوب رأس تيميريس (Timiris) .[4]

1- مع ملاحظة أن هناك منطقة تفصل بين المغرب الأقصى و موريطانيا، كانت تخضع للاستعمار الإسباني هي محل نــزاع بين سكانها الذين يريدون الإستقلال و المملكة المغربية التي تريد إلحاقهم بها و لن تخصص لها حيزا خاصا في هذا البحــث على اعتبار أنها امتداد طبيعي لبلدي موريطانيا و المغرب و الجزائر.

2- Gautier : L'Afrique blanche, p.348.

3- Ibid, pp.348-349.

4- La flore et La Végétation du Sahara Occidental, Societé de biographie, VI, La Vie dans La région désertique Nord tropicale de L'ancien monde, Paris- VI, 1938, p p.327-328.

2- الصحراء شبه المحيطية: التي تمتد بعد السابقة، و تبعد عن الساحل بما يجعلها تتحوّل شيئا فشيئا إلى الصحراء الوسطى شرقا، و الصحراء الشمالية في الشمال الشرقي و المنطقة الساحلية جنوبا[1]، و جوّ هذه الصحراء أكثر جفافا من الأولى، و الضباب بها نادر، و نسبة الرطوبة منخفضة عادة، و نباتاتها الصحراوية واضحة.[2]

و المناطق الجافة تنحصر بين المناطق المعتدلة و بين المناطق المدارية، في المساحات القارية، و هو ما يقابل في المحيطات مناطق الضغط الجوي المرتفع التي تفصل مناطق الضغط الأكثر انخفاضا عن الرياح الغربية و رياح الأليزي، و هذه وضعية ثابتة: حيث يتضح، من إلقاء نظرة على خريطة خطوط التساوي الضغطي (des Isobarres) بالمحيط الأطلسي، وجود منطقة الضغط الأصوري المرتفع في امتداد الصحراء، و هي تسدّ المحيط، و في ناحيتها الشمالية، تجوب المحيط الأطلسي، على مدار السنة، زوابع تأتي من أمريكا و أوربا، لا يصل إفريقيا إلاّ عدد قليل منها، في فصل الشتاء، حيث يكون الضغط الأصوري المرتفع في أقصى الجنوب؛ و في الناحية الجنوبية لمنطقة الضغط الأصوري المرتفع، تتبع الأمطار المدارية الشمس، في شكل أعاصير عنيفة تنفجر بعد الظهر، و توجد هذه الظاهرة في السنغال، و لا تمتدّ وراء حدوده الشمالية؛ و بين المنطقتين: الشمالية و الجنوبية تمتدّ الصحراء على اليابس، و منطقة الضغط الأصوري على المحيط.[3]

و الميزة الأساسية للصحراء هي مناخها، فهي تمتدّ بين خطي عرض 29° و 16° شمالا[4] و الأهم في المناخ الصحراوي هو المطر، ما دام نقصه هو الذي يخلق القفر، و قد تسقط في الصحراء أمطار " لكن المشكل يبقى في تحديد كيفية سقوطها و كميتها، و معطيات محطات الأرصاد الجوي غير كافية لذلك حيث يتبيّن من استشارة بعضها أن الكمية الساقطة سنويا، تدور حول 100 مم، بل أقل من هذا الرقم، و العواصف الكبرى تُحدِث خسائر معتبرة

1- Maire., op.cit., p.328 .

2- Ibid, p.331.

3- Gautier E.F : Le Sahara, pp.7-8.

4- Ibid, pp.12-13.

في الواحات لكن كوارثها قابلة للتصليح بسهولة، و يُستسلم لها بكل ســـرور، لأن الأمطـــار الكبرى النادرة، المدمّرة هي وحدها التي تُعتبر من الناحية العملية فهي وحدها التي تغذي طبقـــة المياه الجوفية و التي لها أهمية زراعية؛ أمّا المطرات الصغيرة، فهي تعود في حينها، عـــن طريـــق التبخّر، إلى السماء من حيث أتت.[1]

علاقة الحياة الاقتصادية بالمناخ:

و يلاحظ Despois أن الحياة الاقتصادية كلها تقريبا، لها علاقة وطيدة بالمنـــاخ: ففـــي بلدان مناخ البحر الأبيض المتوسط، بالمعنى الدقيق، حيث يقترب معدّل سقوط الأمطار السنوي من 400 مم أو أزيد، تعطي الزراعة الشتوية، و خاصة الحبوب، و بعض الأشجار التي لا تتطلّب ماءا كثيرا، مثل الكروم و التين و الزيتون، تعطي دائما محصولا، و إن كان نقص بضع عشرات من المللمترات مطرا، في الوقت الملائم أو هبوب رياح السيروكو بضعة أيام قد يُترْجم انخفاضـــا محسوسا في الإنتاج[2].

و لا تكون الماشية هنا عُرضة لانعدام وجود المراعي، بفضل وجود الغابات و الجنبـــات (Arbustes)[3] و الحشفة (Chaume)[4] بل إن الثلوج التي تغطي الأرض في المنـــاطق المرتفعـــة و الرياح الباردة التي تهبّ بعد سقوط الأمطار هي التي تتسبب في كـــوارث(Hécatombe)، في صفوف القطعان المحرومة من المأوى؛ أمّا الزراعة الصيفية كالذرة البيضـــاء (Sorgho)و الـــذرة و كل أشجار الفواكه تقريبا، فتحتاج ريًّا متكررا خلال ثلاثة إلى خمسة أشهر.[5]

و في المناطق التي يسودها مناخ نصف جاف أو جاف، حيث يكون المعدّل الســـنوي للأمطار، دون 400 مم، و في الغالب 300مم، لا تكون زراعة الحبوب فيها سوى رهانا، كمـــا أن الزيتون و شجر التين لا ينمو و لا يثمر سوى في ظروف خاصة جدًّا. فيما يخـــص التربـــة و الرطوبة الجويّة، و على العموم، لا يوجد هنا محصول مضمون بدون ريّ، و على الرعاة أن

1- E. F. gautier : op.cit., pp.17-18.

2- L'Afrique blanche, T.1, p.27.

3- الجنبة: كل شجرة، علوُّها متران إلى سبعة أمتار، تظل صغيرة، و إن شاخت (جبور عبد النور و ســـهيل إدريـــس: المنهل، قاموس فرنسي عربي، بيروت 1970، ص 64).

4-الحشفة: أصل الزرع، يبقى بعد الحصاد (نفس المرجع، ص 192)؛ يوسف محمد رضا: الكامل الكبير، قاموس اللّغـــة الفرنسية الكلاسيكية و المعاصرة و الحديثة، فرنسي- عربي، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت 1996، مادة chaume .

5- Despois : op.cit., p.27.

يذهبوا في غالب الأحيان إلى المناطق المتاخمة المروية أكثر أو إلى مناطق المناخ المتوسطي، بحثا عن المراعي الصيفية الضرورية لقطعانهم.[1]

و إذا قلّ معدّل الأمطار السنوي عن 250 أو 200 مم تكون الزراعة بدون ريّ مستحيلة، باستثناء مناطق نادرة يزوّدها البحر برطوبة كثيرة كالتي تحيط بخليج قابس[2].

فالرّي إذاً ضرورة ملحة تتطلبها الزراعة في بلاد المغرب و خاصة في منطقتي الاستبس و الصحراء و هو ما يلزمنا بالبحث عن مصادر المياه التي يحتاجها و هذا يتطلب الخوض في موضوع مصير مياه الأمطار المتساقطة.

مصير مياه الأمطار المتساقطة:

من المعروف أن مياه الامطار المتساقطة تسيل في أنهار، و أغلب أنهار بلاد المغرب عبارة عن سيول مؤقتة، لا تمتليء مجاريها سوى في فترة الفيضانات و الكثير منها تقلّ مياهها كلما ابتعدت عن المنابع نحو المصب، و سيلان بعضها عرضيٌّ، و هناك تمييز يفرض نفسه، بين أودية مناطق المناخ المتوسطي و أودية منطقة الاستبس و أودية الصحراء.

فأودية المناخ المتوسطي وحدها تصب في البحر و مياهها عادية لكنها غير منتظمة بدرجة كبيرة، مع فيضانات قوية لمدة قصيرة شتاءا، و تحاريق [3] (étiage) كثيرة الانخفاض صيفاً مع أن أغلبها يتغذى من المناطق الجبلية الأكثر حظا من الأمطار؛ و لا توجد المياه طول السنة سوى في وديان المغرب (الأقصى) الأطلنطي و وديان التل الجزائري التونسي لكن التحاريق التي تحدث دائما تقريبا في شهر أغسطس، و نادرا ما تحدث في يوليو و سبتمبر، تكون منخفضة جدًّا و يكون أقصى معدلاتها عادة في شهري ديسمبر و يناير، غير أن ذوبان الثلوج قد يؤخره إلى فبراير و بداية مارس بالنسبة للأودية الجزائرية- التونسية، و إلى مارس بل إبريل بالنسبة للأودية النابعة من الأطلس الأوسط، و لا ينتج عن عواصف الصيف سوى فيضانات خفيفة و قصيرة لكن تكفي لأحداث زيادة في المعدّلات ابتداء من سبتمبر.

و هناك أودية لها منسوب ماء مرتفع جدًّا و فيضانات قوية في فصل الشتاء، تصل بصعوبة إلى البحر في الصيف، كما هو الحال بالنسبة لتنسيفت(Tansift) الذي تستنزفه كثرة

1- Despois : op.cit., p.27.

2- Id.

3-أدنى مستوى يهبط إليه النهر في السنة (المنهل، ص 412).

السقي، و أودية أخرى كثيرة، ذات أهمية ثانوية، لها في الفصل الحار سيلان سطحي متقطـــع، تكون مجاريها جافة لعدّة كيلومترات،ليس بها سوى بعض البرك المتعفنة و من حين لآخر يَحمل إليها رافد أو عين هامة شريط ماء.[1]

و تنتهي أودية الاستبس(السهوب) في منخفضات مغلقة، و هي غير منتظمة إلى أقصى حد، و منسوب مياهها ينقص بسرعة كبيرة في اتجاه سيرها، بسبب التبخر و التسرب الكثـيرين جدًّا، و الفيضانات الكبرى هي وحدها التي تجعلها تصل إلى عمق المنخفض الـــذي يشـكل مستواها القاعدي[2]، و تكون حالةُ جفاف الكثير منها أمرا عاديا في غالبية مجاريها، و لا يكون سيلانها سوى طارئا.[3]

و بعض هذه الوديان الطويلة تأخذ مجاريها من كتل جبلية ممطرة نسبيا و أحيانا مغطـاة جزئيا بالثلوج في فصل الشتاء، و تنزل نحو السهوب أو الصحراء، و عندها تكون لها في البدايـة مجاري دائمة تغذيها عيون لمدّة معيّنة، غير أن الرّي يستنزفها، و عند الخروج من الجبال تتسرّب المياه في مخاريط ترسبية[4] أو في منحدرات الطّمي و أهم هذه الأودية، هي وحدها التي تحتفـظ بساقية صغيرة.[5]

و بالنسبة لغالبية وديان الاستبس فإن مياه الفيضانات وحدها هي التي تصل إلى المستوى القاعدي الذي يشكل مستنقعاً موحلا تغطيه أحيانا قشرة مائية رقيقة لكنه غالبا ما يكون جافا، و كثيرا ما يكون لامعا بسبب الأملاح.[6]

و فيما يَخُصّ أودية السهوب التي لا تنبع من الجبال، فإن جفاف مجراها هـــو الوضـــع الطبيعي، لأن كلمة واد تطلق في الواقع على مجرى صغير (Vallon) دائم الجفاف تقريبـــا، و لا يكون في تلك الأودية ماء سوى لمسافات قصيرة، بعد أهم العيون التي تزوّدهـــا بمائـــها، و لا يكون بها سيلان حقيقي إلاّ بعد سقوط أمطار غزيرة إلى حدّ ما، و عندما يكون وقت السقوط

1- Despois : op.cit.p.22-23؛ قارن بعز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص 55 فما بعدها؛ حسين مؤنـــس: المرجع السابق، ص 27؛ أنظر الخريطة رقم 3.

2- حدٌّ نظري تكف المجاري تحته عن الحمل و النقل (المنهل، ص 699).

3- Despois : op.cit., p.25 .

4- مخروط ترسّبي هو تراكم ترسّبي، ينشأ بالقرب في مصب سيل (المنهل، ص 303).

5- Despois : op.cit., p.25 .

6- Despois : op.cit., p.25 .

قصيرا فهي تسيل ربعُ أو نصف ساعة، بعد بداية السقوط، و تتوقف بعد ساعة أو ساعتين من نهايته؛ و إذا كانت الزخة (Averse)قصيرة فالماء يجري عدّة كيلومترات فقط.[1]

و الأودية النازلة من الأطلس الأعلى المغربي، نحو الصحراء، تثري شوارع حقيقية بالنخيل[2] و هي دائمة، تجري في مسافة بعيدة إلى حدٍّ ما عن منبعها مثل: درعة وزيز و غريس؛ و درعة على سبيل المثال لا ينقطع منه الماء لدرجة أنه يتوغّل في الصحراء إلى ما بعد أقدز (Agdz) و الفيضانات تصل إلى 400 كلم من المنبع و بعضها يصل إلى البحر.[3]

و أقل من هذه الأخيرة غزارة الأودية النابعة من جبال الحضنة و الأوراس و الظهرة التونسية، حيث لا تبتعد مجاريها الدّائمة كثيرا عن سفوح الجبال، و تتسرّب في الأرض، بعد وصولها إلى السهوب بقليل، و تحتاج إلى فيضانات كبيرة كي تصل إلى سبخة الحضنة أو إلى بحيرة كلبية (Kelbia) شمال شرق القيروان.[4]

و في جنوب الصحراء، حيث المطر الصيفي الموسمي الذي يزوّد أنهار غرب إفريقيا، و أهمها نهرا النيجر و السنغال اللذان يخترقان الصحراء و منطقة الساحل، و أنهار إفريقيا الوسطى الجارية في مرتفعات الهُقار و أدرار و آير (بلاد الطوارق) و تيبستي (بلاد التيبو) من حيث تهبط أودية تافساسيت و تامنراست و إيغرغار التي قد تلتقي مع بعضها بعض في الصحراء، و هذه المياه تتجمع مع مياه الأطلس الصحراوي تحت سطح التربة و تنفجر في شكل مياه جارية من العيون و الآبار الأرتوازية في الواحات الشمالية، و في وادي ريغ و بلاد الجريد و وارقلان و صحراء وهران و في توات.[5]

و الخلاصة التي ينتهي إليها Despois في شأن هذه الأودية أن " نجدتها للرجال، في كفاحهم المضاد للجفاف، ضعيفة جدًّا: فالتي تسيل منها نحو البحر تكون غزيرة، وقت سقوط

1- Despois : op.cit., p.26.

2- Ibid, p.25.

3- Capot- Rey : L'Afrique blanche française, T.2, Le Sahara français, presses universitaires ; de France, Paris 1953, p.310؛ أنظر الخريطة رقم 3.

و بالنسبة لعز الدين أحمد موسى فإن مصدر مياه هذه الأودية هو ذوبان ثلوج جبل درن صيفا و يطلق عليها تسمية أنهار صيفية (المرجع السابق، ص 57 فما بعدها).

4- Despois : op.cit ., pp.25-26.

5- سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، جـ .4، ص 61.

أمطار كافية لأغلب الزراعات، و عندما تكون الحاجة ملحة للرّيّ الصّيفي، لا يبقى فيها سوى خيط ماء؛ أمّا أكثر الأودية الأخرى، فهي متقلّبة مثل الأمطار التي أنشأها و بالتالي لا يعتمد عليها للقيام بريّ منتظم ".[1]

الطرق التقليدية في استغلال المياه ببلاد المغرب:

لا تملك بلاد المغرب شبكة من أودية كبيرة،و الجزء الأهم المستعمل من أرضها تقدّمه لها الزراعة المطرية أو، على الأكثر، تعتمد فيه على تجهيزات مائية متواضعة جدًّا و متقطعة، من وديان Vallées و سفوح ضيقة.[2]

و يُلاحظ Despois أن جبال المغرب (الأقصى) عبارة عن خزّانات مائية، لكن الرّيّ بها لا يأخذ مكانة كبيرة بسبب نقص الفضاء و الأرض الزراعية، مع أنّ الري كثير الانتشار عند اتصاله بالسهول حيث تنتشر مياه الأنهار في مخاريط ترسبية (Cônes de déjection) واسعة و حيث تنفجر العيون العديدة و الغزيرة، و هناك ظَهَرَ مفهوم جديد هو الدّير و المقصود من هذه الكلمة المناطق المتاخمة للجبال و اتصالها بالسهل، و هي عبارة عن شريط ضيق إلى درجة كبيرة، فيه بساتين و مباقل و مزارع للحبوب و يعود الفضل في كثافتها إلى الماء النابع من الجبال، و الدير الحقيقي يمتد عبر مناطق اتصال الأطلس بسهوب تادلة و الحاوز (Haoug)و لكن أطراف الجبال مُنَقّطة في كل جهاتها تقريبا بقُرى غارقة في اخضرار بساتينها و محاطة بمزارع القمح و الشعير، و أطلس المغرب الأقصى الذي يصنع غناء الدّير هو أيضا أصل غناء الواحات التي تتكاثر عند سفوحه، على طول الأودية الرئيسية التي تأتي لتموت جنوبا في الصحراء.[3]

و في وصف Capot – Rey R. لطرُق الريّ في بلاد المغرب، سجّل: أن سكان القصور يستخدمون تارة المياه السطحية و طورا المياه الجوفية، و أحيانا الاثنين معًا.[4]

و يُميّز المياه الجارية إلى:

- مياه الأنهار الدّائمة.
- المياه التي تجري بعد سقوط الأمطار فقط.

1- op.cit., p.26.

2- Xavier de Planhol: op.cit., p.124.

3- Despois : op.cit., p.106.

4- op.cit., p.308.

- العيون (Sources) و هي عودة ظهور مياه الطبقة الجوفية على السطح.
- الطبقة الجوفية العادية التي ترفع مياهها بواسطة الآبار.
- الطبقة الأرتوازية التي يصعد فيها الماء إلى السطح بفعل الضغط الهيدروستاتي[1].
- الفُقّارات و هي عبارة عن رواقات تحت الأرض لجرّ ماء طبقة جوفية نحو نقـــاط تقـــع في مستوى أدنى.[2]

و يلاحظ نفس المؤلف أن الناس يفضلون، عموما استعمال مياه الأودية و المياه الجاريــة و يخصّصون العيون و الآبار لاستهلاكهم لكن الأنهار ليست دائما في متناولهم و يبْقى عليـــهم اللّجوء إلى العيون و الطبقات الجوفية و الفقارات، و غالبا ما تُتّبع عدة أنظمة في آن واحـــــد، فتيديكلت (Tidikelt)، التي تُسقى عادة بواسطة الفقّارات، أنقذهَا من الخراب الآبار الأرتوازيــة التي حُفرت بعد 1900 م، و مع ذلك فهي لم تتخل عن الطريقة القديمة. و تُســــقى غدامـــس بواسطة أربعة أنظمة مختلفة: عين أتوازية طبيعية و هي الأساس الذي قـــامت عليـــه الواحـــة. و عيون صاعدة ببساطة (simplement ascendantes) ترفـــــع مياهـــها بواســـطة آلات الرّفـــع أو مضخات بخارية؛ و الآبار التي تجر مياه الطبقة الجوفية (phréatique) و أخيرا بـــئر أرتوازيـــة. و توجد الآبار بالرّجاحة (à balancier) في كل جهات الصحراء و تكــــون تـــارة وحدهـــا (تِيبِسْتِي) و تارة مقرونة بزراعة البُور (سُوف) و تارة مقرونة بالآبار الأتوازية (وادي ريــــغ) و تارة بالفقارة (توات): فهو نظام الري المستعمل في كل مكان .

غير أنه يوجد دائما، في منطقة معينة نظام ريّ ملائم أكثر مع الظروف المحليـــة و هـــو الذي يكون أكثر انتشارا بها و يفسّر هذا كَوْن الثروة المائية الجوفية لجهةٍ مَا غالبا مـــا تكـــون عكس مواردها من المياه السطحية: إذ أن منطقة مطماطة الجبلية المحظوظة من جهـــة الأمطـــار و جريان المياه لا تتوفرُ إلاّ على القليل من الطبقات المائية الجوفية في حين أن منطقـــة الجريـــد المجاورة لها و هي جافة أكثر منها بكثير تمتلك طبقات مائية جوفية بوَفْرة؛ و المواجل كثـــيرة في الأولى و غائبة عن الثانية التي تنتشر فيها العيون. و هكذا يمكن التمييز بين مجال للـــرّي بمياه الأنهار و مجال للطبقات الجوفية العادية و آخر للآبار الأرتوازية.[3]

1- متعلّق بتوازن المواقع و ضغطها (المنهل، ص 527).

2- Capot- Rey : Ibid, p.309.

3- Ibid, pp.309-310.

و يلاحظ .Capot – Rey R أن الأودية التي تستقبلها الصحراء، من الجبال المحيطة بهـــا، شديدة الانحدار، و مجاريها في العادة بارزة بين الحافتين، و هي سهلة الجرّ لغرض الرّي و يتـــمّ حبس مائها: إمّا بواسطة حاجز بسيط و إمّا بإقامة سدّ، بجُذُوع النخيل و الأحجار، يســـمّى بالبربرية أُوقُوق (Ouggoug) و منه يُدفع الماء في قناة من طين تُسمّى الساقية و بالبربرية تَرْقَـــة (Tergua) : يكون انحدارها أقل من انحدار مجرى الواد، و يُقدَّر ذلك الانحدار بحيث يُجرى فيه الماء، بَعد حفر بسيط إلى الأرض المُرادِ ريّها. و عندما يكون الماء متوفرا، في فصل الشتاء، يأخذ كل واحد من الناس كفايته من ماء الساقية؛ و في الصيف عندما تشح الميـــــاه يضطـــرون إلى قسمتها، و يكون الحق لكل منهم في كمية مناسبة لمساحة أرضه أو، بصفة أدق، حسب عـــدد مُزارعيه.[1]

و نظام الرّي بالساقية هذا هو الوحيد المطبق الآن، في أعلَى وادي درعة، بـــين المنبـــع و أقدَز (Agdz) مع أنّ تَرسُّباتِه تحتوي على ماء غير بعيد عن سطح الأرض؛ و يُعَـــدّ نظـــام السدود و السّوَاقي من خصائص السفوح الصحراوية، جنوب المغرب الأقصى، فهو الذي مكّن تافلالت من التطوّر الزراعي، قديما، إذ كان موقع سجلماسة، بين مجرى نهر زيز و بين ســـاقية كبيرة، مازالت آثارها واضحة للعيان.[2]

و إلى الشرق من غير (Guir) يقل ارتفاع الجبال و تَجفّ الأودية صيفا[3] و لا تظـــهر المجاري المائية الدّائمة إلاّ في سفح الأوراس. و تُذكّر الطرق المستعملة في الرّي بالزاب الشـــرقي، شرق بسكرة، بمثيلتها في المغرب الأقصى، مع فرق واحد: يتَمثّل في حبس الماء مـــرّة وحيـــدة ليوزّع على مختلف الواحات؛ فمن ذلك مثلا أن وادي الأبيوض (el- Abiod) تمّ ســـدّه في فُـــمّ الغَرْزه (Foum el- Gharza) بمكان إنطلاقه من الجبل، و من هناك أرسلت المياه في ساقية كبـــيرة نحو واحات السهل. و يقسّم منسوب مياه الساقية في فترة الوفرة، شتاءا و ربيعا، بين الأراضـــي المزروعة و الواحات، و في وقت الجفاف يحجز كل الماءللواحات، و عندما يكون الماء الواصل

1- op.cit., p.311.

2- Ibid, p.311 Sq.

3- باستثنا واد مزي Mzi قرب الأغواط الذي يجري فيه الماء حـــتى في الصيـــف بفضـــل عيـــون نابعـــة في مجـــراه . (Ibid, p.313, Note 1) .

إليها لا يكفي لسقيها يتفق الملاك فيما بينهم على بيع مجموع المنسوب المتوفر؛ و قد تفيض المياه عن مصبّ السدّ الكبير أثناء فيضان ما، فيُجهّزُ لحجزهـــا، قبـل الواحـة، سـدٌّ مؤقـت، و تُقسَّم هذه الزيادة من الماء على كلّ السكان الذين شاركوا في بناء السدّ، سواء كـان لهـم نصيب من ماء، السدّ الكبير أم لا، و مع الأسف فإن الفيضانات لا تأتي في الصيـف عندمـا يكون الناس في أشدّ حاجة إليها.[1]

و غالبا ما لا توجد في الصحراء سوى أودية (des Oueds) بمعنى مجاري جافة، يجـري فيها ماء بعد سقوط الأمطار فقط، و يمكن سدّ تلك المجاري، مثل الوديان، لكنها لا توفّر المـاء إلاّ لأيام معدودة في السنة، و خلال فصل واحد فقط ممّا لا يسمح بأية زراعة دائمة[2].

و يمارس الرّي بتعويم ماء الفيضان في كامل شمال إفريقيا: في منطقة الاستبس و حـتى في التلّ، و في الناحية الجنوبية، على مستوى جميع المنطقة الانتقالية، بين الاستبس و الصحراء، مـن وادي نون غربا، إلى خليج قابَس، شرقا.

إذ تطلق تسمية مَعْذَر(Maader) جنوب المغرب الأقصى، على قطاع مُوسَّع من رَقّـة[3] وادٍ حيث تنتشر المياه بعد الفيضان، و الذي يمكن زراعته، و يقدّم واد درعة أفضل نموذج عـن هذه العملية: فبعد أقلّ من ثمانية أيام، من توقف الفيضان يسرع إلى مكان حلوثة جمع غفير من الناس، من رحالة و نصف رحالة و حضر، و يصطحب الأوائل منهم حيوانات الجرّ و لا يـأتي الآخرون سوى بأيديهم، و سرعان ما يبدأ البذر في أرض عذراء، و عادة ما يقيم السكان أيضا سدودا تقليدية صغيرة و يحفرون سواقي لتوجيه ماء الفيضان، و توجد، في نفس المنطقة سـدود التحويل، و سدود قعر الأودية التي تجبر المياه المحتواة في الطمي على الصعود إلى السطح، فيمـا يشبه العين؛ و المعَذَر الذي يغمر الأرض، في الخريف و الربيع، لا تزرع فيه سـوى الحبـوب؛ و أمّا إذا حدث الفيضان، من باب الصّدفة، صيفا، يمكن أن يُزرع ذرّة[4].

و الفرق الموجود بين المعذر و بُستان النخيل، جنوب المغرب الأقصى، و بين الدّاية و الواحـة، بالجزائر و بين القرعة (garaas) و الجنان، بتونس، يوجد بموريطانيا بين القرارة (grara) المملوءة

1- Capot- Rey : op.cit. , pp.313-314.

2- Capot- Rey R: op.cit., p.14.

3- رَقّة: هي ساحة يغمرها النهر عند فيضانه (المنهل، ص 618).

4- Capot –Rey: op.cit., p.314 Sq.

بالأمطار الشتوية و الزربية، و هي تعني هنا الجنان المسقي بمياه الآبـــار و لا يكتفـــي ســـكان موريطانيا (Les Maures) بزراعة القرارة بل يقيمون سدودا صغيرة الخليق (Khelig)لحبس المـــاء عدة ساعات أو عدّة أيام و تُمَكّن من مدّ التعويم، و بعدما تتشبع الأرض بالماء تُفتـــح ثغـــرةٌ ليجري فيها السيل المخصّب بعيدا.[1]

و فيما عدا مدخل الصحراء الشمالي و موريطانيا، يأخذ استعمال مياه السيول شـــكلا آخر ، إذ يمكن أن يمتلئ مجرى الواد فجأة بسبب مرور عاصفة حتى في أكثر المنـــاطق جفافـــا، و بعد الفيضان تبقى كمية معينة من الماء في القِلَتِ (Gueltas) و الغدران (Ghdirs)و يمكـــن تجهيز هذه لحجز الماء مدّة طويلة و بتغطيتها تصبح مواجل يشرب منها القطعان لكنها لا تكفي للزراعة؛ أمّا إذا أمكن سدُّ المجرى فعند ذلك تُحجز كميات معتبرة من الماء و يمكن استغلالها في الرّي.[2]

و حتى يكون مثل هذا السدّ ممكنا ينبغي أن يكون الوادي واضحا جدًّا، غـــير مختنـــق بالطمي و تكون جانبيّته[3] (Profil) حديثة مقطوعة بعتبات (Seuils) صخرية، و لا يكـــون الفيضان مدمّرا، و هذه الشروط تتوفّر في أودية ميزاب التي تجري بمعدّل مرّة كل سنة، في ســـنة من سنتين على الأقل، و من حين لآخر يَكنِس فيضانٌ كبير كلَّ المجاري، و يُوجد اليـــوم (في الخمسينات من القرن العشرين) نوع من السدود بوادي ميزاب (Vallée du Mezab): تكـــون في البداية سدوداً تحويلية، تُقسِّم السَّيل و تحوّل جزءا منه إلى الأجنة، و وراء ذلك سدود الحجـــز التي تجبر الماء على الانتشار في ضفاف الوادي و التسرّب تحت الأرض، و بعض هذه الســـدود مكوّنة من أكوام الأقذار التي توضع فوقها القِمامات المنـــزلية و يُمدَّد السد بجسر من الحنايـــا (Arcades) يُستخدم للتصريف (Deversoir)، و تُجهَّز مسالك الواحة لتقوم بدور السواقي أثناء الفيضان، و تَوقُعا لهذا الأخير تُبَنى جُدران السياجات في جهاتها السفلى.[4]

و توجد في النواحي الشرقية، من بلاد المغرب، ثروة مائية مماثلة للنواحي الغربية لكنها أكثر تواضعا بكثير: ففي الجزائر الشرقية و تونس، انطلاقا من ســـــــور الغـــــــزلان

1- Capot- Rey: op.cit., p.316 .

2- Ibid, p.317 .

3- الجانبية: المظهر الجانبي لشخص أو لشيء (المنهل، ص 831).

4- Capot –Rey: op.cit., p.317 ,

(Aumale) إلى الشرق من خط طول مدينة الجزائر، و حتى القيروان، فإن حوض الحضنة و منخفض جنوب الأوراس و السهوب التونسية كلها تحت إشراف سلاسل جبلية مرتفعة نسبيا و مروية و منها ونُوغة (Ounnougha)و جبال الحضنة و الأوراس و النمامشة و تبسّة و الظهرة التونسية: فتلك السهول السهبية أو الصحراوية غنية جزئيا بمياه ذات أصول جبلية أو تلية لكنّها أقلّ غزارة بكثير و أكثر تذبذبا من تلك التي بأطلس المغرب (الأقصى)[1].

و تتجمع الحياة الحضرية في الصحراء و في أغلب مناطق الاستبس حول نقاط المياه: الآبار و العيون، و الأودية الهابطة من الجبال، و فيما عدا الواحات التي تروى بانتظام و زراعتها متنوّعة جدًّا، فإن بعض المساحات المزروعة و المبذورة في السهوب، و على الهامش الشمالي للصحراء، في عمق المنخفضات حيث تلتقي الأودية، و على ضفاف هذه الأخيرة التي تُحَوَّل مياهها بواسطة سدود تقليدية، فإن الزراعة البعلية للأشجار مستحيلة عادة، و حتى زراعة الحبوب التي كثيرا ما تمارس، في أغلب السهوب، لا يكون لها محصول إلاّ في السنوات ذات الأمطار الاستثنائية أي كل أربع أو خمس سنوات.[2]

و كانت في سهل جفارة، بمنطقة طرابلس، طبقة من المياه الجوفية، ذات عمق قليل، محل استغلال دائم من طرف السكان[3]، و ماء عين غدامْس المتوغلة في الصحراء على بعد حوالي 500كلم من البحر، يأتيها عن طريق وادي غدامس المُنتمي إلى شبكة العصر الجيولوجي الرابع الجزائري لِوَادي إيغرغار الذي يفصلها عنه سمك العرق الشرقي بكامله.[4]

و تمتدّ فجوة سِيرت الكبرى العميقة إلى الدّاخل بصَدعين(deux faille)متوازيين، و دليل أثرهما على الأرض وجود صخور بركانية هامة متمثلة في جبل غريان و جبل سودة، و قد حَدَّدت الإنكسارات هنا و هناك انبعاثات الطبقة المائية الجوفية بمعنى سلسلة من واحات صغيرة وصلت بفزّان إلى واحة سبهة.[5]

1- Despois J: op.cit., T.1, P.106 .
2- Ibid, p.217 .
3- E.F. Gautier : L'Afrique blanche, p.132 .
4- Ibid, p.137؛ أنظر الخريطة رقم 5.
5- Ibid, p.139 .

و يطلق اسم فزّان على سلسلة أو سَبْخةٍ من أحواض منخفضة و واحات تُغطّي عرضَ الصحراء بكاملها عند خط طول (Meridien) سيرت الكبرى[1] و في شرقها سهول جـــرداء لا نهاية لها تسمّى " سرير " (Serir) و تسمى في الصحراء الجزائرية "عِرْق "، و في غربها فـــإن عرق إدّيْنْ (Edeyen)[2] يحجب عنها كل شيء، و المطر هنا كما هو الحال في أماكن أخـــرى من الصحراء غير معروف تقريبا و الماء الذي ينفُخُ تمرَها لا يمكن أن يكون له أصل محلّي، فـــلا بدّ له أن يأتي من مكان آخر، و هي محاطة، من الجنوب و الغرب، بأكـــبر الكتـــل الجبليـــة الصحراوية: التيبستي و الطاسيلي[3] و هما كتلتان جبليتان متماثلتان في الصحـــراء تفصلـــهما منطقة كثيرة الانخفاض (Profondément déprimée) انْفِصالا عريضا و واضحـــا و جذريـــا، و على طول هذا الصدْع المزدوج: الشرقي و الغربي، أنْهارَ وسطُ الصحراء كله، بـــين الهُقـــار و بين التبستي، و بَقِيَ الفصل عميقا بحيث بلغ ارتفاع التّومُو (Le Tummo) ، الواقع بينـــهما، 700 م فقط، و تجوّفت في جهتيه أحواض شاسعة، لا يبتعد مستوى ارتفاعها على سطح البحـــر عن 300 م، و نحو هذه الأحواض المنخفضة تُوجّه الكتلتان الضخمتان الملتصقتان بها انحداراتهمـــا الطوبوغرافية و تُوَجِّهان بصفة عامة أيضا قواعد هضابهما، الحُثية[4] (Gréseuses) و الكلســـيّة (Calcaire)، و بالتالي فهما توجهان نحو تلك النقاط المنخفضة نسبة معتبرة من احتياطاتهما المائية التي تَنْفجر (Sourd) بغزارة ملحوظة و تُزوّد مجموعات واحات فزّان بما تحتاجه من المـــاء.[5] و فزّان بالذات، أي مجموعة الواحات التي كانت عاصمتها، خلال التاريخ القديم كلّـــه، جرمـــة (Garama) و في العصر الوسيط زويلة و هي اليوم مُرزوق، (Mourzouk)، تقع في أجزاء كتلـــة الطوارق (الهقار) السفلى، عند منفذ الأودية الكبرى الهابطة من الناحية الغربية : واد شيـــاطي

1- E.F. Gautier : Le Sahara. P.134؛ في مكان آخر يعرف Gautier فزّان على أساس أنها: حوض واسع بـــه عدد كبير من الواحات (Le Passé L'Afrique du Nord, p.140).

2- تعني كلمة إدّين : الكثبان بالطرقية. Gautier L'Afrique blanche, p.141.

3- Id. ؛ أنظر الخريطة رقم 6.

4- محتواة على حُثّ؛ و الحثُّ حجر رمليّ أو صلصال رمليّ (المنهل، ص 497)؛ أنظر الخريطة رقم 6.

5- E.F. Gautier : Le Sahara, pp.133-134؛ في مكان آخر يذهب Gautier. E.F إلى القول بـــأن جبـــال التيبستي لا تشكل خزان فزّان المائي بل يصبّ في حوض التشاد المـــائي؛ و يبقـــى خزّانـــه هـــو الطاسـيلي الأحـــرّ Tassilides Ajjers أي النصف الشمالي للهقار بقممه البركانية الـــتي يبلـــغ ارتفاعـــها 2300م (L'Afrique blanche, p.141).

و واد الشرقي حيث عرق إيديّن (Edeyen)،و هو نظير مطابق لعـــروق إيغرغـــار الجزائريـــة و عروق الصاورة، و هو رطب، صالح للسكن، ظهر به الماء في شكل بحيرات و ليست بحيوات مؤقتة أي شطوط و إنما هي بحيرات ماء جارٍ، عميقة أحيانا، غالباً ما يكون ماؤها أجاجــــا[1] أو مالحا و أحيانا صالحا للشرب، أشهرها بحر الدود. و لعرق إيغرغار بحيرة مشابهة لها عميقــة، و هي بكل وضوح فتحةٌ لطبقة مائية أرتوازية.[2]

و يتحدث Gautier E.F. عن وفرة الماء في مجموعة واحات الكفرة، على وجـه الأرض، في شكل مستنقعات و بحيرات صغيرة، و هو يجري بدون أعمال هندسية، مضيفـاً أن لاَبْيِـير (Lapierre) يكون قد رأى فيها آبارا أُرتوازية و فُقّارَات و أن هذا الأخير قد لاحــظ، أثنــاء رحلته، من فزّان إلى الكفرة، عدة نقاط من المياه: من بينها واوُ الكبير و واو الناموس و في رأي Gautier فإنه من البديهي أن تكون أودية كتلة التيبستي الجبلية قد امتدّت، تقريبا، لتزوّد هنــاك الطبقة الجوفية.[3]

و حيثما كانت الطبقة المائية جوفية فهي، عموما، قريبة من السطح لدرجة أن عـــروق النخيل تنغمر فيها حتى أن عمل الإنسان يتقلّص في فزّان إلى حدّه الأدنى، و النخيـــل ينبــت تلقائيا، عكس ما يحدث في الصحراء الجزائرية بوادي ريغ و توات، حيث يحصل السكان علــى الماء الضروري لأجنتهم بفضل أعمال صعبة و معقّدة، ينجزها تقنيون مائيون تقليديّون من آبار أرتوازية و فُقّارات، يمتدّ طولها إلى عشرات الكيلومترات.[4]

و تنقسم واحات الصحراء الجزائرية عموما إلى مجموعتين واضحتين: شرقية و غربيـــة؛ ففي الشرق يشكّل وادي إيغرغار الأسفل طيّة مقعرة شاسعة و منتظمة حيـــث أن الطبقـــات بكاملها لها شكل قعر سفينة و ملعقة بدأً بالعصر الطباشيري في القاعدة إلى طبقـــات الطمـــي السميكة التي تغطّيه، و العيون ليست معدومة تماما، و يطلق عليها الســـكان تســـمية البحـــر و المقصود به عادة، كل ماءٍ جارٍ و عميق، فالبحور هي بحيرات صغيرة، غالبا ما تكون عـــلى

1- أجّاج: أي شديد الملوحة و المرارة (المنهل، ص 937).

2- E.F. Gautier : Le Sahara, pp.136-137.

3- Ibid , p.130-131.

4- Ibid, pp.141-142.

شكل بَاطِيَة[1] و عمقها يمكن أن يبلغ أربعين مترا، و هو كبير بالنسبة لمساحتها الصغيرة و هي عبارة عن ثقب معزول، إلى حدّ ما، للطبقة المائية العميقة، و قد تكون أوْحت، في الأصل، بفكرة الآبار الأرتوازية ذات المياه المتفجّرة التي زوّدت واحات الجريد و نفزاوة في تونس و واحات وادي ريغ و وارقلان في الجزائر بالماء[2].

و الواحات الشرقية مجمّعة، إلى حدّ ما، في قعر الحوض، عند سفح الأطلس الصحراوي، في حين أن الواحات الغربية مصطفة، على شكل شريط ممتدّ بين الأطلس الصحراوي، بين فقيق من جهة و واحة عين صالح من جهة أخرى، على طول 1200 كلم، مكوّنةً ما يعرف بشارع النخيل، عند العرب، و تُقسّم إلى قطاعات و هي، على التوالي من الشمال إلى الجنوب: واحة الصّاورة و قورارة، و أعلَى توات و أسفله، و تيديكلت، و كل هذه الواحات تشخّص بانتظام حدًّا جيولوجيا، بين سهب الصخور القديمة، من جهة، و هضاب العصر الجيولوجي الثالث الطباشيرية، من جهة أخرى و يتبع خط الواحات الحدّ الجيولوجي، في أقل انحناءاته، و العلاقة واضحة: فالهضاب الكبرى الطباشيرية، ذات قواعد منحدرة انحدارا خفيفا و منتظما نحو الواحات. تمتص كمية كبيرة من الأمطار المتساقطة و التي تعوّض نُدرتَها في نقطة معينة شساعةُ الأحواضِ المستقبِلة حيث تعيد ذلك الماءَ بالنضح على الأطراف و هذا النضح لا يكفي للرّي إلاّ بمساعدة تلك الأحواض و تفريغها، و هذا بالضبط ما فعله الإنسان الذي راح يجرّ العيون بواسطة الفقارة.[3]

فمناخ بلاد المغرب، إذاً، لم يتغيّر تغيّرا ملحوظا، منذ بداية الألفية الأولى، قبل الميلاد، على الأقل، و ما يتساقط بها من الأمطار، يكون كافيا للزراعة، على السفوح الشمالية لجبال الأطلس، فقط، ثم تنقص كميتها كلما سرنا نحو الدّاخل، بحيث أن معدّلها لا يزيد عن 200 مم في السنة، على بُعْد 100 أو 150 كلم من الساحل، و تسقط في الصحراء معدلات سنوية تدور حول 100مم و أقل، في شكل عواصف مدمّرة، في أغلب الأحيان، و تتميّز أمطار بلاد المغرب بعدم انتظام سقوطها و تكرار تعرّض البلاد للجفاف الذي يمتد أحيانا لسنوات عديدة.

1- الباطية: إناء لمزج الخمر بالماء و له عُروتان، كان يستخدمه الإغريق و الرومان (المنهل، ص 268).

2- Gautier E.F., Le Sahara, p.147؛ أنظر الخريطة رقم 5.

3- Ibid , p.144.

و تُصرف مياه الأمطار المتساقطة ببلاد المغرب في أنهار مناطق المناخ المتوسطي و أنهار مناطق الاستبس و الأنهار الصحراوية، و هي أنهار تكون غزيرة وقت سقوط الأمطار، و جافة عندما تكون الحاجة ملحّة للرّي، و من ثمّة فالجزء الأهم المستعمل من بلاد المغرب للزراعة يعتمد، في ريّه على المطر، في أغلب الأحيان، بالإضافة إلى تجهيزات مائية تقليدية متواضعة كالعيون و الآبار العادية و الأرتوازية و الفُقّارات، و يمارس الرّي في الصحراء أيضا بتعويم ميله الفيضانات و استغلال مياه القِلت و الغُدران و إقامة سدود تقليدية على المجاري المؤقتة للأودية.

الباب الثاني

الفصل الثاني

الأنهار و طرق استغلالها، حسب المصادر العربية

مسح للأنهار المذكورة في المصادر العربية:

سنحاول القيام في هذا الفصل بعملية مسح لأنهار بلاد المغرب انطلاقا من نواحيه الشرقية و اعتمادا على المعلومات التيّ زوّدتنا بها المصادر العربية حول هذا الموضوع ثم نحاول بعد ذلك استخلاص ما يُمكّننا من تسليط الضوء على طرق استغلالها مع الاستعانة بكل ما يساعدنا من بلوغ هذه الغاية؛ و خاصة بمصادر الفقه و النوازل.

و كلمة النّهْرِ أو النّهَرِ تعني مجرى الماء؛ إذ يقال نَهَر الماءُ إذا جرى في الأرض و جعل لنفسه نهراً؛ و نَهرَ النّهر حفره أو أجراه[1] و للنهر اسم مرادف كثيرا ما يحلّ محلّه، في بلاد المغرب، هو الواد أو الوادي.

و قد أشار أبو عبيد البكري (ت.487 هـ/1068م) إلى وادي مسّوس في الطريق من برقة إلى إفريقية و ذكر أن "فيه" جبابٌ يقال إن عددها ثلاث مائة و ستون، و بساتين."[2]

و هو ما يعني أن الجباب كانت تُمْلأُ من مياه الوادي لتستعمل في ري أشجار البَساتين.

كما أشار المقَدسي(ت. حوالي 310هـ/1000م) إلى " وادٍ جرّار كثير النخيل و الأعناب و التفاح ".[3]دون أن يضيف أي شيء من شأنه أن يفيد فيما إذا كان لهذا الوادي علاقة بريّ الأشجار المشار إليها؛ و يفيد الإدريسي أن واد مدينة قابس " يأتيها من غدير كبير و على هذا الغدير قصر (أي قرية) سجّه...... و ماء مدينة قابس غير طيب لكنه شروب "[4]

و لم يشر الإدريسي، هو الآخر إلى كيفية استغلال مياه هذا النهر في عهده (ق.6هـ/12 م).

و قد زوّدنا صاحب كتاب الاستبصار، في نفس هذا الوقت، بمعلومة عن نهر بجردة (مجردة) الواقع بالقرب من مدينة تونس بنحو عشرة أميال على الطريق إلى المغرب مفادها، أنه يقال: إن من شرب من مائه قسّا قلبه و هذا ما جعل الناس يتجنبون ذلك[5] و هي معلومة أسطورية بطبيعة الحال، ما دام الواد باقياً و الأسطورة نُسيت.

1- ابن منظور: لسان العرب، مج.6، ص 728.

2-المغرب، ص 5؛ الترجمة الفرنسية- Mac Guckin de Slane : L'Afrique septentionale par Abou-obeid- El- Bekri, Paris 1965, p.15.

3- المصدر السابق، ص 12؛ الترجمة الفرنسية Charles Pellat : Description de L'occident musulman au IV e X e siècle, p.13.

4- القارة الإفريقية، ص 180؛ أنظر الخرية رقم 3.

5- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 11؛ أنظر الخريطة رقم 4.

و من عيون مدينة قفصة، حسب نفس المصدر، عينان كبيرتان " إحداهما عند باب الجامع تسمى بالوادي الكبير،..... و فوقها عين أصغر منها...... و تسمّى بالطرميد..... فإذا اجتمع ماء هذا العين مع ماء العين الكبيرة... جاء منهما نهر كبير، عليه أرحاء كثيرة و يسقي نصف غابة قفصة، و نصف أرضها و مزدرعاتها، و النصف الثاني من غابة قفصة يُسقى... من عين المنستير... يخرج منها نهر كبير... و هي في جانب النهر الكبير المسمى بوادي بايش[1]، و هو يشقّ غابة قفصة و لكن في آيّام الصيف يقلّ جريانه، و لا ينقطع، و أرض هذا الوادي كلدٌ تُشبع ماءً، ...و لأهل قفصة في سقي جناتهم هندسة عظيمة... و يسمون الماء الذي يخرج من المدينة فيسقي نصف جناتهم الماء الدّاخل و ... الذي يخرج خارج المدينة، و هو عين المنستير و ماء وادي بايش، بالماء الخارج، ......و سقيهم بالساعات، و ترى خدّام تلك الجنات و البساتين أعرف الناس بأوقات النهار... و أهل قفصة يتنافسون في هذه المياه و يتبايعون سقيها بأغلى ثمن، و لمدينة قفصة غابة كبيرة قد أحاطت بها من كل ناحية... كثيرة النخيل و الزيتون و جميع الفواكه..."[2].

و عند التمعّن في عبارات هذا النّص يتبيّن أن مياه الأنهار المذكورة تُستغَلّ في إدارة الأرحية أو المطاحن و السقي و في حفر الأحساء في الأجزاء المشبعة بالماء من تلك الأنهار و قد لفت انتباه صاحب كتاب الاستبصار ما " لأهل قفصة من هندسة عظيمة (grand art) و برشام* شديد (Beaucoup d'ingénissité) و توفيق حساب "[3] لكنه لم يشرح، مع الأسف الشديد، المقصود بهذه العبارات بالضبط و قد يكون ما ذُكر في نفس النص بطريقة غير مسترسلة، و هو أن " سَقْيَهم بها بالساعات، و تَرى خُدام تلك الجنات و البساتين أعرف

1- كتبها E.Fagnan في ترجمته بايش بناء على خريطة Pellissier (L'Afrique septentionale au XII[e] siécle de notre ére, p.72, Note 2)

2- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 38، فما بعدها الترجمة الفرنسية E. Eagnan : L'Afrique septentionale ; aux 12[e] siécle de notre ère, p.71 Sqq قارن البكري: المغرب، ص 47؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit, p.100؛ ابن حوقل المصدر السابق، ص 94.

*- برشام: حدّة النظر (ابن منظور: لسان العرب، المجلد 1، ص 195).

3- مؤلف مجهول: ص 39؛ الترجمة E.Fagnan : Ibid, p.72 .

الناس بأوقات النهار..." هو المقصود خاصة و أن صاحب النص أبْدى إعجابه بخـــدّام تلـــك الجنات و البساتين بحيث أن الرجل الذي لا يفقه منهم شيئا (أي الجاهل) إذا سُئِل " عما مضى من ساعة النهار وقف و نظر إلى الشمس و اكتال بقدمه في موضع ظِلّه و يقول... مضى كـــذا و كذا ساعة و كذا سُدُس ساعة "[1] غير أن هناك شيئا لافتا للنظر فيما ورد، بهذا النص دائمـــا و هو أن " أهل قفصة يتنافسون في هذه المياه و يتبايعونها بأغلى ثمن "[2] مما يدعو إلى التفكير في أسباب هذا التنافس ما دامت عملية التقسيم واضحة و السيطرة على الوقت قائمة فالمفروض أن عملية المنافسة تزول و لكن التبايع يبقى موجودا بطبيعة الحال، حسب قاعدة العرض و الطلب.

و من عبارة " و يسمون الماء الذي يخرج من المدينة فيسقي نصف جنانهم الماء الدّاخل " يستنتج أن أهل قفصة كانوا يستغلون المياه " المستعملة " في السقي، لأنـــه مـــن الطبيعـــي أن تستعمل جُلّ المياه التي تدخل أيّة مدينة أو كلها ثم تُصرف بعد استعمالها إلى خارج تلك المدينة و بالتالي قد تكون كلمة الدّاخل تعني " المُستعْمَل " و يبقى معنى كلمة الماء الخارج في النـــص: الماء الذي لم يدخل المدينة و لم يستعمل؛ أمّا الماء الصغير فمعناه على ما يبدو، المـــاء الـــذي لا يَجري في الأنهار المذكورة، و الموزّع هنا و هناك لسقي مساحات محدودة؛ و بجـــوار قفصـــة مدائن قسطيلية، من بينها نفطة[3] بينها و بين توزر، عاصمة الإقليم، عشرون ميلا " و لها غابـــة النخل و البساتين و جميع الفواكه، و هي كثيرة الخصب و لها نهر يسقى بساتينها... ".[4]

و يصف البكري توزر في القرن (5هـــ/ 11 م) بأنها " كثيرة النخل و البساتين و الثمـــار ... و حولها سواد عظيم من النخل، و هي أكثر بلاد إفريقية تمرا و يخرج منها في أكثر الأيـــام ألف بعير موقورة تمرا و أزيد شربها من ثلاثة أنهار تخرج من رمال... يُســـمّى ذلـــك الموضـــع بلسانهم سرش و إنما تنقسم هذه الثلاثة الأنهار بعد اجتمـــاع مياه تلك الرمـــال بـــمـــوضع

1- مؤلف مجهول: ص 39؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan : op.cit, p.73 .

2- نفسه؛ Id .

3- و المدائن الأخرى هي توزر (المدينة العظمى، أي قاعدة الإقليم) و الحامة و تقيوص (ابن حوقـــل: المصـــدر الســـابق، ص 349-350).

4- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 43؛ الترجمة الفرنسية E. Eagnan : op.cit, pp.79-80 .

يسمّى وادي الجمال[1] يكون قعر النهر هناك نحو مائتي ذراع[2] ثم ينقسم كل نهر مـــن هـــذه الأنهار الثلاثة على ستة جداول و تتشعب تلك الجداول (Canaux) إلى سواقي (Conduits) لا تحصى كثرة، تجري في قنوات مبنية بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شـــيئا، كل ساقية سعة شبرين في ارتفاع فِتْر[3] يُلْزَمُ كل من يسقي منها أربعة أقداس (Tasses) مثقـالٌ في العام، و بحساب ذلك في الأكثر و الأقلّ، و هو أنّ يعمد الذي يكون له دولة الســـــقي إلى قَدَس، في أسفله ثقبة بمقدار ما يسُدّها وتر قوس النّدّاف فيملؤه بالماء و يعلّقه و يسقي حائطـــه (Clos) أو بستانه من تلك الجداول حتى ينفَذ ماء القَدَس، ثم يملؤه ثانية، و هم قد علمـــوا أن سقي اليوم الكامل هو مائة و اثنان و تسعون قدسا..."[4].

و قد اعترف Berbruger الذي زار توزر في نوفمبر 1850 أن نظام السقي هذا الـــــذي وصفه البكري بدقّة ما تزال ممارسته جارية و أن السواقي (Conduits) في حالة جيّـــــدة، و أن الرومان هم الذين بنوها كما بنوا السدّ أيضا.[5]

و مما ذكر اليعقوبي (ت.278هـ/ 895 م) أن شرب أهل القيروان كان من ماء المطـــر: " إذا كان الشتاء و وقعت الأمطار و السيول دخل ماء المطر في الأودية إلى ... المواجل فمنـــها شرب السقاة، و لهم وادٍ يسمّى وادي السراويل في قبلة (جنوب) المدينة، يأتي فيه ماء مـــالح، لأنه في سباخ، الناس يستعملونه فيما يحتاجون إليه"[6]، و بَعْدَه مـــن جهـــة الشـــرق " وادي الطرفاء، كبير شتوي إذا حمل أهلك ما حوله من القرى و المنازل "[7].

1- يقترح Mac Guckin de Slane قراءة وادي الجَمْرْ و تفسيره " وادي الرمل " (op.cit., p.103, Note 3)

2- ليس لقعر النهر في هذا الموضع متران (Ibid, p .103, Note 4)

3- الفِتْر هي المسافة بين طرفي الإبهام و السّبابة في أكبر تباعد لهما (Mac Guckin de Slane, op.cit., p.103, Note 5)

4- المغرب، ص 48؛ 49 ؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., pp.103-104 بمعنى أن وقـــت الساعة المائية (Clepsydre) أي القَدَس كان يستغرق سبع دقائق و نصفاً (Ibid, p.104 , Note 2)

5- . Ibid, p.104, Note 1

6- اليعقوبي: المصدر السابق، ص 347-348؛ يحدّد البكري موقعه في الطريق من القيروان إلى مصر، بعد رقادة و مدينـــة القصر (المغرب؛ ص 28).

7- المغرب، ص 29.

و الذي يمكن استخلاصه من نَصّي اليعقوبي و البكري أن السيول التي كانت تجـــري في الأودية أثناء سقوط الأمطار هي التي كانت تزوّد مواجل القيروان بالماء و أن سكان هذه المدينة لم يكونوا يستغنون حتى عن المياه المالحة، حيث كانوا يستغلونها في بعض أغراضهم، مما يـــدلّ، بطبيعة الحال، على نقص المياه العذبة الصالحة للاستهلاك، و هو ما جعلهم يعرّضون أنفســـهم لخطر الفيضانات من أجل الحصول على ما يكفيهم منها.

و قد تحدث ابن حوقل (ق 4هـ/10م) عن إقليم سطفورة إلى الشمال من القـــيروان، على البحر، و ذكر أن له " ثلاث مدائن أقربها إلى تونس أنبلونة ثم متيجة ثم بنـــزرت و يصـــف أنهار هذه الناحية بالواسعة و الغزيرة.[1]

أمّا مدينة نفزاوة الواقعة على مسافة ستة أيام غرب مدينة القيروان[2] أو بالأحرى نحـــو الجنوب الغربي على بعد 45 أو 50 فرسخا منها [3] و على ثلاثة أيام من قابس فهي تقع " علـــى نهر كثير النخل و الثمار و حواليها عيون كثيرة "[4].

و على طريق القيروان ـــ طبرقة فإن مدينة باجة التي تبعد تسع مراحل عـــن القـــيروان " كثيرة الأنهار، و هي على جبل يسمّى عين الشمس... و لها نهر، من جهة الشرق جار، مـــن الجوف (الشمال) إلى القبلة (الجنوب) على ثلاثة أميال منها و حولها بساتين عظيمة تطرد فيـــها المياه "[5]، و مدينة طبرقة على شاطيء البحر و " بها نهر كبير تدخله السفن الكبار و تخـــرج في بحر طبرقة "[6].

1- صورة الأرض، ص 74.

2- البكري: المصدر السابق، ص 47؛ يعتبر صاحب كتاب الاستبصار " بلاد نفزاوة من بلاد الجريد، و من مدن نفـــزاوة: طُرة و بشَرى و إيتملين، و بين بلاد نفزاوة و قسطيلية مرحلة (مؤلف مجهول)، ص 44؛ الترجمة الفرنسية : E. Fagnan op.cit., p.82.

3- Mac Guckin de Slane: op.cit, p.101, Note 4.

4- المغرب، ص 47؛ الترجمة الفرنسية، Mac Guckin de Slane : op. Cit., p.101.

5- نفس المصدر، ص 56؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.119.

6- نفس المصدر، ص 56؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.121.

و في الطريق من القيروان إلى قلعة أبي طويل[1] (قلعة بني حماد) توجد حسب البكـــري قرية وادي الرمل، على بعد أربعين ميلا في اتجاه الغرب ثم مدينة سبيبة " ذات أنهار و ثمار "[2]، و بعد قلعة الدّيك و السّكة (Relais) و مدينة مجانة المطاحن، يأتي نهر ملاّق[3] و هــو عظيـــم عليه آثار قديمة.

و في شرقه تقع مدينة تبسا، و هي كثيرة الثمار و الأشجار[4]، ثم إلى قرية مســـكيانة " و هي على نهر... إلى مدينة باغاية ... ذات أنهار و ثمار و مزارع و مســـــارح "[5] إلى مدينـــة قاساس[6] " و هي على نهر... إلى قبر مادغوس... إلى بلزمة لمزاتة... و هي مدينة كثيرة الأنهـــار و الثمار و المزارع و بشرقيها مدينة... نقاوس إلى طبنة... و بها صهريج كبير يقع فيـــه نهرهـــا و منها تسقى بساتينها... و تشق سكك المدينة جداول الماء العذب... و لها بســـــاتين يســـيرة ملاصقة للريف... و اسم نهرها بَيْطام، إذا حمل سقى جميع بساتينها و فحوصها... إلى مدينـــــة مقرّة و هو بلد كبير ذو ثمار و أنهار و مزارع و منها إلى قلعة أبي طويل "[7].

في حديث نفس المؤلف عن طريق آخر من القيروان إلى قلعة أبي طويل عن طريق مدينة

1- يرجع الفضل في أهمية هذه القلعة و المدينة التابعة لها إلى حماد بن بلكين، مؤسّس الأسرة الحمّادية في نهاية القرن الرابـــع الهجري/10م، و يعتقد Mac Guckin de Slane أنّ اسم أبي طويل هو لقب (Surnom) حماد، و كان اسم القلعـــة قبل أن يحلّ بها حماد تسمى كيانة و لم يبق من القلعة، الواقعة على بُعد سبع فراسخ، تقريبا، شمال شرق المســـيلة، ســـوى مئذنة جامعها (Mac Guckin de Slane, p.105, Note 2) .

2- المغرب، ص 49؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, pp.105-106؛ و كانت الأرحية تطحـــن علـــى أنهارها (مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 48) .

3- حسب Mac Guckin de Slane فإن التسمية التي يطلقها عليه السكان حديثا هي مَلاّقة Mellagua؛ و تسميته على الخريطة Mellègue (op.cit., p.106, Note 2).

4- المغرب، ص 49؛ الترجمة الفرنسية، Mac Guckin de Slane : op.cit, p .106 .

5- المغرب، ص 50؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin De Slane, p.106 مؤلف مجهول: الاستبصار، ص 50.

6- تطلق هذه التسمية على مكانين Localités: تقع إحداهما على بعد سبعة فراسخ إلى الجنوب الغربي من تبسة و تقـــع الأخرى على بعد ثمانية فراسخ شرق باتنة ؛ و هذه الأخيرة هي التي تقع على طريق البكـــري (Mac Guckin de Slane, p.107, Note 1) .

7- المغرب، ص 50-51؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, p.108 Sqq .

أُبة التي تبعد عن القيروان بثلاثة أيام ثم إلى نهر ملاّق الذي " يسقي فحص بُل "[1] و بعد قصر الإفريقي يقع " وادي الدنانير و هو واد خصيب و منها إلى مدينة تيجس "[2]، و من المدن الواقعة على نهرٍ في هذا الطريق مدينة دكّمة (Degma)و بعدها مباشرة مدينة الغدير حيث منابع نهر سهر و هو نهر المسيلة.[3]

و مع أن المصادر المستخدمة في هذا البحث لا تتحدث عن نهر يُزوّد قلعة بني حماد بميله واد فرَج (Fredj)لكن L. golvin الذي انشغل باله بما أسماه " لغز تزويد القلعة بماء الشرب " لاحظ وجود عيون كثيرة على طول واد فرج (Fredj)و قرب قرية الفاضل (Al- Fadel)؛ لكن منسوبها قليل، لا يكفي سكان بعض الضيعات الصغيرة في أيامنا إلا بصعوبة و لا توجد في جهةٍ ما، من ضواحي القلعة، عين قادرة على تزويد مجموعة سكانية كبيرة بمائها مع أن الأعمال المائية الكثيرة التي أُنجزت على موقعها مكنت من العثور على آثار لصهاريج (Bassins) و حمامات و بحيرة قصر الأمراء المشهورة و هذا يُؤكّد، بما فيه الكفاية، أن المدينة كانت مزوّدة بمياه غزيرة و يشير Golvin إلى أن المصادر تقول إنها كانت تُجلب إليها من بعيد ثم يلاحظ عدم وجود عيون كافية، لتزويد المدينة بمياهها، بقمم تاقربوست و يضيف أن واد فرج الذي يتساقط ماؤه في قعرٍ مضيق، بأسفل المنار، و ينخفظ عنه بحوالي 30 م، له منسوب منتظم و غزير إلى حدٍّ ما. و يجلب السائل النفيس في الوقت الحالي من سدٍّ أُقيم في أعلى الوادي بطريقة سهلة إلى سفح هضبة جراوة بواسطة قنوات صغيرة، حُفرت على شكل خنادق على الأرض. و وُزع الماء بعد ذلك على السكان حسب قاعدة محدّدة. و في غياب معطيات أخرى، يمكن افتراض أن وادي فرج كان قد حُجز (était Barré) في أعلاه بعيداً عن القلعة (مما يعطي معنى لنص كتاب الاستبصار) و أن جزءا هاما من مياهه كان يساق إلى مدينة الحمّاديين، و قد عثَر De Beylié، قرب باب الأقواس، فوق المنار، بالجهة العليا الشمالية الشرقية للقلعة، على

1- المُغرب، ص 53؛ حسب Mac Guckin de Slane فإن هذه المعلومة غير صحيحة؛ لأن نهر ملاق يجري على بعد ست فراسخ (Lieues)جنوب شرق منطقة بُلْ (Bulla Regia) التي تفصلها عنه سلسلة من التلال المرتفعة و بالفرع الأعلى من نهر مجردة (Ibid, p.114, Note 1).

2- المغرب، ص 53؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, p.114.

3- نفس المصدر، ص 54؛ الترجمة الفرنسية op.cit., p.115 .

آثـــارقناة تكون قد زوّدت ينبوعاً(Fontaine) بيّن فيها تصاميمها، و يمكن التفكير في وجـــــود قنوات غيرها يمكنها الوصول إلى قصور المدينة الأخرى، و بالأخص إلى البحيرة المشهورة، فوق باب الأقواس؛ فغزارة مياه الواد يمكن تقديرها لأوّل وهلة بما يكفي حاجيات مدينـــــة يصـــل مجموعة سكانها 4000 نسمة.[1]

و مدينة المسيلة الواقعة في أوّل مراحل الطريق، من قلعة أبي طويل إلى مدينـــــة تنـــس، موجودة على نهر سَهْر (وادي القصب)[2]، و قد أسست عام 313 هـــ/925-926م " في بساط من الأرض، عليها سوران بينهما جداول ماء جار يستدير بالمدينة و له منافذ تُسقى منها عنـــد الحاجة، و للمدينة أسواق و حمامات و حولها بساتين كثيرة... و نهر سَهْر... الذي عليه مدينـــة المسيلة منبعه من عيون داخل مدينة غدير وارُّو (Ouarrou)..." [3] و هو منبسط علـــى وجـــه الأرض و مياهه كثيرة و عليه كروم و أجنة كثيرة.[4]

و في الطريق من المسيلة إلى أشير زيرى و تبعدان عن بعضهما مسافة مرحلتين يذكر ابن حوقل أن الماء " يترل... بينهما في وادي المالح... (و) يجري بماء مالح "[5] كما يذكر البكري نهـر جُوزة (خُرزه).[6]

1- Golvin L: Le Mağrib central à L'époque des Zirides, Recherches d'arch . et d'histoire, Arts et Métiers graphiques, Paris, p.139.

2- يسمى اليوم وادي القَصَب (Mac Guckin de Slane, p.123, Note 3)؛ و يسميه ابن سعيد المغربي نهر سحر و يذكر أنه يمرُّ بغربيّها لتغوص مياهه في رمال الصحراء، هذه الصحراء التي تمتدّ شرقي المدينة إلى جبل رحوبة الذي يخـــرج منه نـــهر يغوص في شماليه (كتاب الجغرافيا، ص 126) و يسمى صاحب الاستبصار هذا النهر مرّة سهور (مؤلف مجهول، ص 54) و مرّة أخرى نهر سهر (ص 60).

3- المغرب، ص 59؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.123 Sq.

4- ابن حوقل المصدر السابق، ص 85؛ و قد لاحظ G. Marçais et A. Dessus Lamare أن النهر الدّائم الـــذي حافظ على استقرار السكان، في أماكن تجمعاتهم القديمة، كما في دمشق و قرطبة، انعدم في زابي (Zabi) ، مدينـــة الرومان و البيزنطيين في الخضنة و منها نُقل المركز إلى المسيلة التي يقطعها وادي قصب (Ksab) ، و تبعد عن زابي بأربعـة كيلومترات (Tihert Tagdemt, Recherches d'archéologie musulmane, Revue Africaine, TX[c] No 406-409, 1946, p.28).

5- صورة الأرض، ص 88.

6- يقترح Mac Guckin de Slane قراءة اسم جُوزَة : خُرزة و هو اسم واد يمثل أحد روافد وادي يَسَّر العليا و الذي يُعثر عليه قبل الوصول إلى المسلك المؤدي إلى موقع أشير (op.cit., p.126, Note 1).

و الطريق من مدينة القيروان إلى مرسى الدجاج، يـــأخذ إلى المســـيلة ثم إلى أوزقـــور و هي عين عذبة باردة... إلى سوق مَاكْسن " و هي مدينة علـــــى وادي شـــلف إلى ســـوق حَمزة...و منها إلى مرسى الدجاج "[1] و يفيد المقدّسي (ق.4هـــ/10 م) أن شرب أهل ســـوق حَمزة من أنهر (في الجمع) و أعْين و شرب أهل مَرْسَى الدجاج من نهر (في المفرد) و أعـــين[2] و مما أورد اليعقوبي (ق.3هـــ/9 م) عن نهر شلف أنه يفيض كما يفيض نيل مصر و عليه قـــرى و عمارات و عليه أيضا يُزرع العُصفر و الكتان و السمسم و غير ذلك من الحبـــــوب و هـــو يصب في البحر المالح.[3]

و الطريق من مدينة أشير إلى مدينة جزائر بني مزغنّي يمـــرّ عـــبر المديّـــة و منـــها إلى خزرونة ، و هي مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء و البساتين و يقال لها متيجة و لها مـــزارع و مسارح و هي أكثر تلك النواحي كتانا... و فيها عيون سائحة و طواحين ماء[4] و هي تقـــع حسب المقدسي (ق. 4هـــ/ 10م) في مرج و لسكانها ماء جار عليه أرحية، و شعبة من النّـــهر تدخل الدور.[5] و منها إلى مدينة إغزر و معناها الوادي الصغير بالبربرية.[6]

و على مسافة اثنين و ثلاثين و مائة ميلا إلى الشرق من جزائر بني مزغني تقـــع مدينـــة بجاية[7] " و على بعد ميل منها نهر، يأتيها من جهة المغرب(الغرب) من نحو جبـــال جرجـــره، و هو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب. و كلما بعُد عن البحر كان ماؤه قليلا، و يجـــوز من شاء في كل موضع منه "[8].

1- المغرب، ص 65؛ الترجمة Mac Guckin de Slane, p.135 .

2- المصدر السابق، ص 20؛ الترجمة الفرنسية، Charles Pellat, op.cit , p.21.

3- كتاب البلدان، ص 358.

4- المُغرب، ص 65-66؛ الترجمة الفرنسية M ac Guckin de Slane, op.cit., p.136 .

5- Al- Muqaddasi : op.cit., p.20, trad., p.21 .

6- المغرب، ص 66؛ يحتمل أن يكون بوفاريك .Mac guckin de slane : op.cit. p.136, note 2 .

7- يسميها الإدريسي جزائر لبني مزغنة و يقدر المسافة من الجزائر إلى تامدفوس بـــ 18 ميلا، و من تامدفوس إلى مرســـى الدجاج بـــ 20 ميلا، و من مرسى الدجاج إلى تادلس 24 ميلا، و من تادلس إلى بجاية برًّا 70 ميلا (المجموع 132 ميلا)، و من تادلس إلى بجاية بحرا 90 ميلا (القارة الإفريقية، ص 59-60).

8- الإدريسي: نفس المصدر، ص 161.

و قد وصف صاحب كتاب الاستبصار بجاية في نفس الفترة (ق.6هـ/12 م) بأنها مشرفة " (مطلّة) على البحر و على فحص قد أحاطت به جبال، دَوْره (مُحِيطُهُ) نحو عشرة أميال تسقيه أنهار و عيون و فيها أكثر بساتينهم، و لها نهر كبير يقرب منها بنحو الميلين أو دونهما و عليه كثير من جنانهم و قد صنعت عليه نواعير (Roues) تسقى من أنهر "[1].

و في الطريق الرابط بين بجاية و القلعة يشير الإدريسي إلى وجود وادي رَهْت بين سوق الأحد و حصن تاكلات، و إلى وقوع قرية تاورت الكبيرة على نهر ملح " و شرب أهلها من عيون محتفرة ببطن واديها من جهة المشرق و هذا الوادي لا ماء به ".[2]

و على مرحلتين من المسيلة، عبر غدير ورُّو و عيون طبنة، تقع مدينة سطيف[3]، بينها و بين ميلة مرحلة[4]، و " مدينة سطيف رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه و الثمار، غزيرة المياه و الأنهار و البساتين و الأشجار..."[5]؛ و بعد أشير بمرحلتين يذكر البكري (ق.5هـ/11م) قرية " سوق كرام، و هي على نهر شلف "[6] لكن ابن حوقل قبله (ق4هـ/10 م) يسميها سوق كِرَان و يقول إنه حصن له مزارع و سوان[7] و بعدها بمرحلة مدينة مليانة[8] في سفح جبل زكار و هي مشرفة على فحوص و مزارع واسعة يشقها نهر شلف[9] و عليه مدينة قديمة

1- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 21؛ الترجمة الفرنسية E . Fagnan؛ مع الملاحظ أن Fagnan قد ترجم عبارة " و قد صنعت عليه نواعير تسقى من أنهر " ذات التعبير الغامض بـ " ... تسقى بواسطة نواعير (Roues) تجرُّ الماء من هذا النهر: » arrosés à l'aide de roues qui tirent l'eau de cette rivière (Id).

2- القارة الإفريقية، ص 163.

3- المغرب، ص 76؛ الترجمة الفرنسية، Mac Guckin de Slane, op.cit, pp.154-155 .

4- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 54؛ الترجمة الفرنسية E .Fagnan : op.cit.p.98 .

5- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id.

6- المغرب، ص 60-61؛ الترجمة الفرنسية M ac Guckin de Slane, p.127.

7- صورة الأرض، ص 90.

8- المغرب 61.

9- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 59؛ الترجمة الفرنسية E .Fagnan : op.cit.p.106 ؛ يصف البكري مليانة بأنهار ذات أشجار و أنهار تطحن عليها الأرحاء (المغرب، ص 61)؛ قارن بابن حوقل: صورة الأرض، ص 90؛ الإدريسي القارة الإفريقية، ص 154. و كانت مدينة شلف تسمّى أيضا شلف بني واطيل و تقع عند ملتقى نهري مينة و شلف (E .Fagnan : op.cit.p.106. note 2).

أزلية فيها آثار أوليّة تسمّى شلف و إليها ينسب النهر و هي خراب (في القرن 6هـ/ 12 م) [1] و لكنها كانت موجودة على ما يبدو في عهد ابن حوقل (في القرن 4هـ/10 م) حيث حدّد موقعها بين مدينة يَلّل، و على بعد مرحلة منها، و بين مدينة غُزَّة، و يصفها بأنها مدينة " ذات سور و حصن و نهر و شجر و مزارع "[2] غير أن الإدريسي المعاصر لصاحب كتاب الاستبصار لا يشير إلى وجودها.

و من مليانة مدينة الخضراء " على نهر، و لها فواكه و سوان "[3] و إذا حمل نهرها دخل بعضها[4] " و يصف الإدريسي هذا النهر بالصغر و يقول إن عليه عمارات متصلة و كروم[5] لكن صاحب كتاب الاستبصار يعتقد أنه نهر شلف.[6]

و من الخضراء إلى قرية أو مدينة بني واريفن[7] و لها كروم و سوان كثيرة و هي على نهر شلف[8] ثم إلى مدينة قارية فإلى مدينة تنس و هي " على نهر تناتين يأتيها من جبال على مسيرة يوم... من القبلة و يستدير بها من جهة الجوف (الشمال) و الشرق و يريق (يصب) في البحر و بها حمامات "[9] و هذا الوادي حسب ابن حوقل كثير الماء و منه يشرب السكان[10]

1- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 59؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit, p.106.

2- صورة الأرض، ص 90.

3- صورة الأرض، ص 90.

4- المغرب، ص 62.

5- القارة الإفريقية، ص 154.

6- مؤلف مجهول: ص 59؛ الترجمة الفرنسية E .Fagnan : op.cit.pp.106-107 ؛ و يذكر Mac Guckin de Slane أن شاو حدّد موقع خرائبها على نهر شلف على بعد ميل من جبل دوي (Doui)، و هي تقع قرب القنطرة القديمة، عند ملتقى وَادَيْ شلف وادي عبدة (oued – Ebda) (op.cit., p.127, Note 4).

7- فهي قرية، حسب ابن حوقل، (صورة الأرض، ص 90؛ و مدينة، حسب البكري، المغرب، ص 61؛ الترجمة الفرنسية (Mac Guckin de Slane, p.127) و يحدد صاحب المصدر الأخير موقعها في مكان آخر، على الطريق الساحلي، بين تنس و أشير (المغرب، ص 69).

8- صورة الأرض، ص 90؛ المغرب؛ ص 69؛ يسميها الإدريسي بني وازلفن و يصفها بالقرية الكبيرة و يقول أن لها كروم و جنات ذات سوان يزرعون عليها البصل و الشهدانج و الحناء و الكمون، و لها كروم كثيرة و معظمها على نهر شلف (القارة الإفريقية، ص 154).

9- المغرب، ص 61؛ الترمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit., p.128 .

10- صورة الأرض، ص 77.

لكن الإدريسي يجعل هذا الشرب مقتصرا على أيام الشتاء و الربيع و يحدد موقع النهر شرق المدينة [1] و تنس المقصودة هنا هي الحديثة التي أسسها البحريون الأندلسيون سنة 262هـ/875-876م، و يشير البكري إلى طريق يربط بين مدينة الغُزَّة[2] و بين مدينة تيهرت في سفح جبل جزول[3] " و هي على نهر يأتيها من جهة القبلة (الجنوب) يسمّى مينة... و نهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمّى تاتُش... و هو في شرقيها... و هذه تاهرت الحديثة، و على خمسة أميال منها تاهرت القديمة "[4] و في نفس الموضوع يذكر اليعقوبي أن شرب أهل تيهرت " من أنهار و عيون يأتي بعضها من صحراء و بعضها من جبل قبلي (جنوبي) يقال له جَـزّول... "[5] كما يذكر المقدّسي أن تسمية تاهرت تطلق، في آن واحد، على الكورة و على القصبة و يشير إلى أن الأنهار " أحدقت بها... و الْتفّت بها الأشجار، و غابت في البساتين... و تاهرت السفلى (الحديثة) على وادٍ عظيم، ذات أعين و بساتين "[6]؛ و بالنسبة لصاحب كتاب الاستبصار فإن نهر مينة يأتيها من ناحية المغرب (الغرب) و أن لها نهراً آخر يأتيها من عيون تجتمع يُسمّى تاتس " تشرب أرضها و بساتينها، و كان لها بساتين كثيرة [7].

و يعتبر G. Marçais أن منطقة تاهرت بمناخها القاسي كانت قادرة على انتاج محاصيل زراعية جيّدة بفضل الإستعمال الحكيم للأمطار و مجاري الماء، قبل العصر الحديث بكثير، مستشهدا بما أورده البكري عن نهر تاتُش الذي " يجري من عيون تجتمع ... و من تاتُش شرب أهلها و بساتينها... ".[8]

1- القارة الإفريقية، ص 153.

2- تقع الغزة على الطريق الرابط بين القيروان و تنس (المغرب 66؛ الترجمة الفرنسية,Mac Guckin de Slane p.137) و يحتمل أنها تقع في مقاطعة (Canton) مزونة، بين مدينة هذه المقاطعة و نهر شلف .(Ibid, p.137, Note 3)

3- عن طريق تاجموت فعين الصبحي فتاغريست فتيهرت (المغرب، ص 66)؛ و تسمى أيضا تاهرت (أنظر، اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 358)؛ يطلق صاحب كتاب الاستبصار تسمية جبل قرقل. على الجبل الذي بنيت تيهرت في أسفله أي على جزول (المصدر السابق، ص 66؛ الترجمة الفرنسية E , Fagnan : op.cit, p.118) .

4- المغرب، ص 66-67؛ الترجمة الفرنسية (Mac Guckin de Slane : op.cit. p.138).

5- كتاب البلدان، ص 358.

6- Al- Maqaddasi : op.cit., pp.22-25 ;Trad, pp.23-25 .

7- مؤلف مجهول: ص 66؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan : op.cit., p.118 .

8- La Berberie musulmane et L'orien au Moyen Age, Aubier, ed Monteigne, Paris, p.119 .

" و يلاحظ نفس المؤلف إلى جانب A. Dessus- Lamare أن النهر الدّائم الذي أبقى التجمعات القديمة قائمة، في أماكنها، مثل دمشق و قرطبة، انعدم وجوده في تيهرت القديمة التي اتخذها البيزنطيون حصنا لهم، إذ لم يكن لها مجرى ماء هام حيث لم تلد عين الطّلبة سوى واد صغير مؤقت؛ و على العكس من ذلك فإن وجود أودية بالقرب من المدينة الرستمية تاقدمت أو تيهرت الحديثة هي التي لفتت نظر الجغرافي البكري فسجّل أن نهرا يأتي من الجنوب و يسمّى مينة، يمرّ جنوب المدينة، و نهر آخر يتكوّن من مياه عدّة عيون مجتمعة يسمّى تاتّش يوفّر ماء الشرب للسكان و ماء الرّي للبساتين، و يمرّ شرق المدينة، و بالإضافة إلى توفير مياه الشرب و ريّ البساتين و المزارع فإن مجاريها المهيأة كانت تُدير الأرحية مثلما توضحه شهادة ابن الصغير في القرن التاسع الميلادي(3هـ)، و ينسب نفس المؤلف إلى الإمام أفلح بن عبد الوهاب استعمال المجاري المائية؛ و قد كان وادي تاتش[1] يوفّر الرّي للأجنّة لكنه لم يكن يزوّد أهل المدينة إلاّ بموارد غير كافية، و صعبة الإستغلال، و لحسن الحظ أنه كانت بالمدينة عيون بالإمكان تهيأتها و هذا ما حصل بعناية كبيرة[2].

و على مرحلة من تاهرت قرية أغْبر " و هي قرية صغيرة على نهر صغير "[3]، و بعدها بمرحلتين مدينة ماما[4] أو ابن ماما، على الطريق من إفريقية إلى تاهرت و فاس، و هي آخر مدينة قبل تاهرت، و لها خندق و ماء في واد عذب كثير الماء يزرع عليه و على المطر أيضا.[5]

و مدينة الغُزّة، ساحل تاهرت، تقع " على نهر شلف (وهي) كثيرة البساتين "[6] و من مدينة الغُزّة، على الطريق من فاس إلى مدينة القيروان يحدد البكري موقع مدينة تافدّة إلى الشرق

1- وادي تيارت على الخرائط الفرنسية. G. Marçais et A. Dessus- Lamare: op.cit., p.28.

2- Ibid, pp.27-28 ؛ قارن الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي، الحياة الإقتصادية و الإجتماعية (3-4هـ/9-10م)، الدّار التونسية للنشر و التوزيع- الجزائر، ص 105؛ بحاز ابراهيم بكير: الدولة الرستمية (160-296هـ/ 777-909م)، دراسة الأوضاع الإقتصادية و الحياة الفكرية، 1985، ص 156.

3- الإدريسي: المصدر السابق، ص 157.

4- نفسه.

5- صورة الأرض، ص 86؛ قارن الإدريسي : القارة الإفريقية، ص 157.

6- المغرب، ص 69، 143؛ يحدد كل من ابن حوقل و الإدريسي موقعها بين مدينتي يلّل و سوق إبراهيم، و يحدّدان بعدها عن كل منهما بمرحلة، و لا يشيران إلى موقعها على نهر شلف (صورة الأرض، ص90؛ القارة الإفريقية، ص 152).

من مدينة تلمسان، على نهرين أحدهما حَمّة (أي عين معدنية)، تزوّد السكان بمـــاء الشـــرب و تُنصّب عليها أرحاؤهم[1] و بعدها في اتجاه القيروان، قصر ابن سنان الأزداجي، حوله بسـاتين كثيرة، على نهر كدّال، و بعده، في نفس الاتجاه مدينة يَلّل ثم مدينة الغُزّة و منـــها إلى مدينـــة تاهرت على مسافة ثلاث مراحل.[2]

و من تاهرت إلى حصن تامغيلت مرحلتان، و هو " على نهر له ربض "[3] و بعدها على نفس الطريق مدينة هاز " على نهر شتوي و هي خالية "[4] (في عهد البكري) و منها إلى نهـــر بورة الجاري، في كل الفصول، و " يسكن حوله بنو يرناتن "[5]، و قبل الوصول إلى المســيلة، من الناحية الغربية، مدينة قديمة كانت خالية، هي الأخرى، تسمّى بالبربرية تاورست و معناها الحمراء " على نهر عذب"[6] و بعد المسيلة بَلَدٌ ءادنة و هـــي " كثـــيرة الأنهـــار (Ruisseaux) و العيون "[7] و تَفْصلهما مسافة مرحلة.

و إلى الشرق من عين الكتان التي تبعد عن المسيلة بمرحلة " وادي مَقرّة، عليـــه ســبع قرى... و بين عين الكتان و ءادنة نهر سهر و نهر النساء و نهر أبي طويل...، و بين نهـــر ســهر و نهر النساء ثلاثة أميال "[8]، و بين ءادنة و طبنة مرحلتان، و منها إلى نهر الغابة، و بعد مضـيّ ثلاث مراحل في مساكن يطلّ عليها جبل أوراس توجد مدينة باغاية " و ليس فيما يلي الناحيـة الغربية ربض إنما يتصل بها بساتين و نهر "[9].

و من باغاية إلى مدينة مجانة، و بينهما فندق مسكيانة و وادي ملاق و هو واد صعب

1- المُغرب، ص 143؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.274 .

2- نفسهُ؛ الترجمة الفرنسية Id.

3- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id. .

4- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.275.

5- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id.

6- نفس المصدر، ص 144؛ الترجمة الفرنسية ، Id.

7- نفسه؛ الترجمة الفرنسية op.cit, p.276.

8- نفس المصدر، ص 144؛ الترجمة الفرنسية Id؛ يُوجد في الجزائر، على حدود الصحراء عدة أمـــاكن تُســمّى وادي النساء، و الكلمة الأخيرة بربرية: تعني مكان المبيت (Mac Guckin de Slane : op.cit., p.276, Note I) .

9- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.277 .

كثير الدهس وعر المخائض، يُعبَر صيفا إلى مرماجنة و لكن في فصل الشتاء يتم تفاديه و تحويل اتجاه الطريق إلى مدينة تبسا و هي على نهر كبير، كثير الفواكه و الأشجار.[1]

و بالقرب من مدينة الغُزّة قلعة ميلة دلول، و بين قلعة دلول و مدينة مستغانم مسيرة يومين و هي " ذات عيون و بساتين و طواحين ماء و يبذر في أرضها القطن... و هي قرب مصب نهر شلف في البحر... و على ثلاثة أميال منها مدينة تامزغران (مازاغران)... و على مقربة منها قلعة هوارة و يسمونها تاسفدالت[2]... و تحت هذه القلعة يجري نهر سيرات، و هو النهر الذي يُسقى به فحص سيرات، و طول هذا الفحص نحو أربعين ميلا ليس منه شيء إلاّ و يناله ماء هذا النهر، إلاّ أنه اليوم (في القرن 11م) غامر غير عامر... لأن الخوف أجلى أهله، و في ساحل هذا الفحص مدينة أرزاو (أرزو القديمة) "[3].

و على أحد الطريقين اللذين يربطان وهران بالقيروان، عبر قسطيلية توجد، بعد قصر منصور بن سنان[4]، مدينة العلويّين[5] و هي على " نهر كبير... و منها إلى نهر سي سي ابن دمّر، و هو نهر كبير على بساتين كثيرة"[6] ثم أحساء عقبة بن نافع القُرشي[7] و ساقية ابن

2-المُغرب، ص 145؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de slane : op.cit., p277 .

2- هذه القرية (bourg) تسمى الآن القلعة و هي على بعد حوالي 9 فراسخ (Lieues) جنوب شرق مستغانم (Mac Guckin de Slane ; op.cit., p.143, Note 2).

3- المغرب، ص 69-70؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, p.143، بالنسبة لصاحب كتاب الاستبصار فإن قلعة هوّارة هي التي تشرف على فحص سيرات الذي يشقه نهر سيرات، و يسقي أكثر أرضه (مؤلف مجهول، ص 67).

4- الآن عين تيموشنت، على الطريق بين وهران و تلمسان (Mac Guckin de Slane, op.cit., p.146, Note 3) .

5- تقع على مرحلة صغيرة من تلمسان (Ibid, p.146, Note 4).

6- المغرب، ص 71؛ يذهب Mac Guckin de Slane إلى القول: إنه حسب المعطيات التي يزوّدنا بها البكري، فيما بعد، فإن نهر ساي (Sei) (و ليس سي سي) ينبغي التعرف عليه مع الوادي المعروف بتنزّى (ouadi Tenezza) أو وادي ملغيغ (Melrîr) الذي يصبّ في سيرات أو واد الحمام على ست فراسخ(Lieues) جنوب غرب معسكر (op.cit., p.147, Note 1).

7- يميل Mac Guckin de Slane إلى تحديد هذا المكان مع عين فرس الموجودة على الخرائط الفرنسية، غرب ملتقى واديْ تَنزة و الحمام (op.cit., p.147, Note 2).

خزر[1] و في اتجاه الشرق، دائما، مدن بنطيوس[2] و هي ثلاث " و بغربيها نهر جار ينحدر إليها من ناحية الجوف(الشمال) و هذا النهر يسقى الثلاث المدن... و أكثر ثمارها النخيل و الزيتون... و بغربيها صحراء بنطيوس تُسقى بثلث النهر المذكور، و إذا أكمل الرجل زريعته عرف مبلغ إصابته من الطعام، لا يخطيء... و بقرب منها قرى كثيرة و يجوْ في (شمالي) بنطيوس طولقة، و هي ثلاث مدن... و حولها أنهار، و هي كثيرة البساتين "[3].

و من بنطيوس إلى بسكرة " و لها غابة كبيرة، كثيرة النخل و الزيتون و جميع الثمار... و يشق غابة بسكرة نهر كبير ، ينحدر من جبل أوراس، يسقي بساتينها و نخلها، و هو نحو ستة أميال في غابة متصلة بالمدينة يشق غابتها و قراها "[4] و يأتيها من الشمال و منه شرب أهلها.[5]

و من بسكرة إلى تهوذا [6] و هي " كثيرة الثمار و النخيل و الزرع... و حولها ربْض " (Faubourg) قَد خُندِق على جميعه واستدار (الخندق) بالمدينة، و بها... نهر ينصبّ في جوفيها (شمالها) من جبل أوراس، سكانها... إن كانت بينهم و بين من يجاورهم حرب أرسلوا ماء النهر في الخندق المحيط بمدينتهم فشربوا منه و امتنعوا من عدوّهم به "[7].

و بتلك النواحي مدينة نقاوس و هي كثيرة الأنهار و الثمار و المزارع، كثيرة شجر الجوز[8] و طُبنة، و بها " صهريج كبير يقع فيه نهرها و منه تسقى بساتينها... و يشق سكك (Rues) المدينة جداول الماء العذب... و لها بساتين يسيرة ملاصقة للربض (ضاحيه) (Faubourg)... و اسم نهرها بَيْطام و إذا حمل سقى جميع بساتينها و فحوصها، و يقول أهلها،

1- يمكن أن يكون موقع هذا المكان، على مسافة يوم غرب المسيلة(,Mac Guckin de Slane op.cit., p.147 Note 5) .

2- في الجزء الجنوبي من زاب بسكرة (Ibid, p.147, Note 7)

3- المغرب، ص 72.

4- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 61؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.109.

5- المُغرب، ص 52.

6- يكتب البكري اسمها " تهوذا " (المغرب، ص 62) و يكتبه صاحب كتاب الاستبصار تهودة (مؤلف مجهول: ص 62)

7- المغرب، ص 72؛ الترجمة الفرنسية (Mac Guckin de Slane, op.cit., pp.148-149 ؛ كتاب الاستبصار، ص 62، الترجمة الفرنسية E.Fagnan : op.cit., p.111.

8- كتاب الاستبصار، ص 60؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan : op.cit., p.108 .

يطام بيت الطعام (مخزن الطعام) لجودة زرعها "[1].

و مدينة قسنطينة، على الطريق من القيروان إلى مرسى الزيتونة، و هو جيجل، تقع، حسب البكري " على ثلاثة أنهار عظام، تجري فيها السفن (بإمكانها حمل السفن)، قد أحاطت بها، تخرج من عيون تعرف بعيون أشقار تفسيره أسود[2]، و تقع هذه الأنهار في خندق (Ravin) بعيد القعر،... قد عُقِد (بُنيّ) في أسفله قنطرة على أربع حنايا ثم بنى عليها قنطرة ثانية ثم على الثانية قنطرة ثالثة، من ثلاث حنايا ثم بنى فوقهن بيت ساوى حافتي الخندق و يُعبَر عليه إلى المدينة... و يسمى هذا البيتُ العبور، لأنه معلّق في الهواء "[3]؛ أمّا الإدريسي فيتحدث عن إحاطة الوادي بها من جميع جهاتها و يذكر أنه يأتيها " من جهة الجنوب، فيحيط بها من غربيها، و يمرّ شرقا مع دائر المدينة، و يستدير من جهة الشمال، و يمر مغربا إلى أسفل الجبل، ثم يسير شمالا إلى أن يصبّ في البحر، في غربي وادي سهر... و يتصرفون به، عند أوقات الحصار لها ممن طرقها."[4]

و في الطريق من مدينة تنس إلى المسيلة يسجّل الإدريسي في بدايته أن قرية بني وازلفن الكبيرة لها " كروم و جنات ذوات سوان... معظمها على نهر شلف، و من تنس إلى شلف مرحلتان "[5] و بعدها بمرحلتين حصن كزناية و له مزارع و أسواق " و هو على نهر

1- المغرب، ص 50-51؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, p.108Sq ؛ قارن كتاب الاستبصار، ص 60-61.

2- أشقّار Acheggar كلمة أزكّاغ البربرية (أحمر)، كتابته البربرية خاطئة، و كلمة أسود تنطق بالبربرية تبريك Teberrik (Mac Guckin de Slane, p.132, Note 1).

3- المغرب، ص 63؛ الترجمة الفرنسية، Mac Guckin de Slane, op.cit., pp.131-132 ؛ و قد لاحظ Mac Guckin de Slane, أن واد بورقرق يصب في واد الرّمل، حوالي كيلومتر واحد، في أعْلَىَ (en Amont) المدينة، و ليس للنهرين المذكورين الآن العمق الكافي لحمل السفن و لكن بالإمكان جعلهما قابلين للملاحة، إذا أعيد بناء السدّ القديم بمدخل الخندق الذي يفصل هضبة قسنطينة عن هضبة المنصورة، عندها يمكن تعويم مساحة كبيرة مثلما كان الأمر في آخر عهد الإمبراطورية الرومانية (Bas- empire) ، على سفوح الجبال: شرق و غرب الطريق المؤدي من قسنطينة إلى باتنة، و هناك يشاهد خط أفقيّ أبيض بيّن، على ما يبدو، حواف بحيرة واسعة كانت تشغل حوضي واديْ الرمل و بورقرق، قبل زوال السدّ الذي ما يزال الجزء الأسفل من بنائه موجوداً؛ أما النهر الثالث الذي يتحدث عنه البكري، فلا وجود له (Mac Guckin de Slane, op.cit., p.131, Note 3) .

4- القارة الإفريقية، ص 166-167.

5- القارة الإفريقية، ص 154؛ يسميها البكري بني واريفن، و هي قريبة من مليانة (المغرب، ص 69).

شلف[1]، و تقع مدينة سوق إبراهيم و هي على مرحلتين من مدينة تنس، على الطريق بين تنس و تلمسان، " على نهر شلف "[2] أيضا، و على نفس الطريق، بعد مرحلتين : قرية المعسكر و " لها أنهار و ثمار "[3] و بعد مرحلة أخرى من نفس الطريق، رَحْلُ الصّفصاف " على نهر أفكان من جهة الشرق... "[4] و بين الرحل و أفكان مرحلة و " أفكان هذه مدينة كانت لها أرحاء و حمامات و قصور و فواكه كثيرة و واديها يشقّها نصْفين و يمضي منها إلى تاهرت[5]".

و على بعد مرحلة من قرية المعسكر: قرية عين الصفصاف " لها أعين و أنهار و أشجار "[6] و بعد مرحلة منها مدينة يَلّل " ذات أنهار و فواكه "[7] و بعد مرحلة من رَحْل الصفصاف[8] قرية يطلق عليها ابن حوقل تسمية " عيون سي " و يقول إنها " كبيرة لها عيون و أنهار تطرد "[9] و يطلق عليها الإدريسي اسم " قرية سنى " و يجعل موقعها " على نهر مرغيت، و هو صغير... "[10].

و بعد مرحلة من سي أو سنى قرية تاتانلوت[11] و هي " جليلة، كبيرة، ذات أجنة و أرحية على واديها و فواكه " حسب ابن حوقل[12] أو هي " على نهر ليس به أرحاء، و تسقى

1- الادريسي: المصدر السابق، ص 155.

2- نفس المصدر، ص 152؛ صورة الأرض، ص 90.

3- نفسه؛ صورة الأرض، ص 89.

4- نفس المصدر، ص 151؛ يطلق ابن حوقل على وادي أفكان تسمية وادي الصفصاف، و يَصفُه بأنه الوادي النازل " من أفكان إلى أفكان " (نفس المصدر، ص 89) مما يدلّ على أن هناك خلل في التعبير و يحدد موقعها بين مدينة يلّل و مدينة غُزّه (نفس المصدر، ص 89-90).

5- القارة الإفريقية، ص 151-152، قارن ابن حوقل: صورة الأرض، ص 89؛ يستعمل ابن حوقل وادي الصفصاف بدلا عن رحل الصفصاف الذي استعمله الإدريسي.

6-صورة الأرض، ص 89؛ قارن الإدريسي: المصدر السابق، ص 152.

7- نفسه؛ قارن: الإدريسي: نفس المصدر، ص 152.

8- الإدريسي: المصدر السابق، ص 151؛ يطلق عليه ابن حوقل وادي الصفصاف (صورة الأرض، ص 89).

9- صورة الأرض، ص 89.

10- القارة الإفريقية، ص 151.

11- صورة الأرض، ص 89؛ يطلق عليها الإدريسي تسمية بابلوت (القارة الإفرقية، ص 151).

12- نفسه.

منه مزارع " حسب الإدريسي[1] و يرجع ذلك و لا شك إلى التطور الذي يكون قد حدث في مدّة قرنين من الزمن، من القرن العاشر الميلادي (وقت ابن حوقل) إلى القرن الثاني عشر (وقت الإدريسي)، حيث يكون النمو الديموغرافي أدى بطبيعة الحال إلى زيادة في استهلاك الماء و بالتالي قلته و اقتصار استعماله في الأمور الضرورية.

و بين تاتانلوت و تلمسان و على مرحلة من كلتيهما، قرية العلويّين " على نهر و لها أجنة و عيون "[2] و يأتيها هذا النهر من القبلة[3].

أمّا تلمسان، التي تبعد مرحلة لطيفة عن قرية العلويين، فهي حسب ابن حوقل، الذي يسميها تنمسان " مدينة أزلية و لها أنهار جارية و أرحية عليها و فواكه... و زرعها سقي و غلاّتها عظيمة و مزارعها [كثيرة] "[4] و يذكر البكري أن الأول (القدماء) قد جلبوا إليها الماء من عيون تسمى لوريط، بينها و بين المدينة ستة أميال... و لها... أشجار و أنهار (Ruisseaux) عليها الطواحين و هو نهر سطفسيف "[5] بمعنى أن الأنهار الصغيرة المجلوبة إليها أي القنوات تُكوّن نهر سطفسيف.[6]

و يذكر الإدريسي أن لتلمسان نهرا " يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين "[7] و عند مقارنة كلام البكري بكلام الإدريسي يتبيّن أن عيون لوريط تنبع من جبل الصخرتين لتكوّن نهر سطفسيف الذي " يمر في شرق المدينة، و عليه أرحاء كثيرة "[8] لكن ما أورده البكري في مكان آخر و مفاده أنه " في الشمال (و المقصود الجنوب)[9] من تلمسان منزل (محطة

1- القارة الإفريقية، ص 151.

2- صورة الأرض، ص 89؛ القارة الإفريقية، ص 151.

3- نفسه؛ القارة الإفريقية، ص149.

4- صورة الأرض، ص 89.

5- المغرب، ص 76؛ الترجمة الفرنسية .Mac Guckin de Slane : op.cit., p156؛ يسمي صاحب كتاب الإستبصار العيون بـ " بوريط " (مؤلف مجهول، ص 65؛ الترجمة الفرنسية .E. Fagnan :op.cit, p.115 .

6- أنظر الترجمة الفرنسية Id .

7- القارة الإفريقية، ص 149-150.

8- نفس المصدر، ص 150.

9- Mac Guckin de Slane, op.cit., p.157 .

يسمى باب القصر فوقه جبل يسمى جبل البغل ينبعث في أسفله نهر سطفسيف "[1] و بمقارنة هذا الكلام بكلام الإدريسي يتبيّن أن جبل الصخرتين هو نفسه جبل البغل، و هذا معنـــــاه أن تسمية هذا الجبل قد تغيّرت من جبل البغل وقت البكري (ق.11) إلى جبل الصخرتين، وقـــت الإدريسي (ق.12).

و قد كان هذا النهر ينصبّ " في بركة (Réservoir) عظيمة من عمل الأوّل، و يُســمع لوقوعه فيه خرير شديد على مسافة ثم ينبثق منها بحكمة مدبّرة إلى موضع يسمّى المــهماز [ثم] إلى ولج الحنا، إلى جنان الحاج حتى يصبّ في نهر إسّر (Isser) ثم ينصبّ في نهر تافنا و هو النهر الذي يصل إلى مدينة أرشقول و هناك ينصبّ في البحر "[2].

و أرشقُول، ساحل (Port) تلمسان، و على بعد 25 ميلا منها، " تقع على نهر تـــافنى، يُقبل من قبليها (جنوبها) و يستدير بشرقيها، تدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلى المدينــــة، و بينهما ميلان "[3] و إلى الشرق من أرشقول مدينة آسلن و يعني هذا الاسم بالبربرية شــــجر الدردار، تقع على ثمانية أميال شرق مصب نهر تافنا[4]، و لها " نهر يَصبّ في البحر من شـــرقيها تُسقى منه بساتينهم و ثمارهم... و على مرحلتين من آسلن مدينة فكان.

و على بعد ستة أميال من حصن فكان، حصن ابن زيتي و له " نهر كثـــير الثمـــار "[5] و بعد حصون الفروس و الوردانية و هُنَين، شرقا، مدينة ندرومة " و ساحلها وادي ماســـين، و هو نهر كثير الثمار... و مدينة ندرومة... لها نهر و بساتين فيها جميع الثمار "[6].

1- المغرب، ص 77؛ الترجمة الفرنسية. Id؛ يسمى صاحب كتاب الاستبصار باب القصر القرية الكبيرة (مؤلف مجـــهول، ص 65)؛ الترجمة الفرنسية، E. Fagnan : op.cit., p.116 و قد تكون تطوّرت من منـــزل (محطة) في القرن الحادي عشر (عهد البكري) إلى قرية كبيرة في القرن الثاني عشر (عهد صاحب كتاب الاستبصار).

2- المغرب، ص 77؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, p.157 ؛ قارن. كتـــاب الاســـتبصار، ص 65؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit, p.116 ؛ مع الملاحظة أن البكري يكتب نهر تافنـــا، في نفـــس الصفحة، مرة بالألف الطويلة (ص .15) و مرّة تافنى بالألف المقصورة (ص17) من(نفس المصدر، ص 77).

3- المغرب، ص 77؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.157 .

4- Ibid, p.159, Note 1 .

5- المغرب،ص 79؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.161 .

6- نفس المصدر، ص 80؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.161-162 .

و في تلك النواحي يفيد الإدريسي أن مازونة الواقعة " على ستة أميال من البحر، و هي مدينة بين أجبُل، و هي أسفل خندق،... لها أنهار و مزارع و بساتين "[1] و غير بعيد عنها فـإن ماء وهران " من خارجها جارٍ عليها في واد، عليه بساتين و أجنّة كثيرة، فيـها مـن جميـع الفواكه "[2]. و مدينة وجدة التي تبعد عن تلمسان بثلاث مراحل: مدينتان... " و الجامع خارج المدينتين على نهر قد أحاطت به البساتين و هي كثيرة الأشجار و الفواكه..."[3].

و على الطريق الذي يربط فاس بتلمسان[4] أو فاس بالمسيلة[5] فإن أوّل ما يلقى المسـافر بعد مغادرته فاس نهر سُبُه(سبو) " و هو نهر عظيم الماء كثيرهُ "[6] يأتي من نواحي قلعة ابن تواله " و يمر حتى يحاذي فاس من جهة شرقيها، و على ستة أميال منها، و هناك يقع نهر فاس مع مـا اجتمع معه من سائر العيون و الأنهار الصغار "[7] و يصبّان مع في البحر بنواحي سله (سـلا)، و عليه قرى متصله.[8]

و يمرّ الطريق، من سبو، إلى نمالته " على وادٍ يقال له إيناون، و لنمالته واد غير إينـاون يأتيها من القبلة و يعرف بوادي نمالته، عليه كروم و بساتين كثيرة "[9] و في اتجاه الشرق دائمـا تقع مدينة كرناطة، على وادي إيناون و لها وادٍ آخر يأتيها من القبلة عليه الفواكه و الكـروم و السّقي الكثير الغزير ثم يأخذ الطريق على باب زناتة و هو وادٍ و قرى متصلة ذوات أسـقاء، و بعضها متصلة بمياه إيناون و مخرج ذلك إلى قلعة كُرماطة، و هو سوق و حصن على إينـلون، و من كُرماطة على فج الجبل المعروف بتازا إلى مـزاوروا [10] ثـم إلى وادي مـسون،

1- القارة الإفريقية، ص 172.

2- صورة الأرض، ص 78.

3- المغرب، ص 87؛ الفرنسية Ibid, p.177 .

4- القارة الإفريقية، ص 148.

5- صورة الأرض، ص 88.

6- نفسه.

7- القارة الإفريقية، ص 148.

8- صورة الأرض، 88؛ القارة الإفريقية، ص 148.

9- نفسه؛ قارن الإدريسي: نفس المصدر، ص 148.

10- نفسه؛ يسمي الإدريسي هذا المكان مراوز (القارة الإفريقية، ص 149).

و الطريق إليه على تابزندا[1] أو تابريد[2]، و هي مدينة لطيفة أو حصن منيع على وادي ملوية الذي يقع إلى وادي صاع ليصبّا معا في البحر، ما بين جراوة أبي العيش و مليلة، و منها إلى صاع و هي " على واد عظيم يدخل جميع أرضهم و يشق الصحراء إليهم "[3] و يخترق ديارهم، و كانت أيام الإدريسي (ق6هـ/12 م) مهدمة، خرّبها المصاميد (الموحدّون) [4] و تأتي بعد صاع جراوة أبي العيش ثم إلى ترفانة[5] أو برقانة[6] و هي مدينة " لها... أنهار مطردة و فواكه واسعة عظيمة و كروم جسيمة "[7]، و منها إلى العلويين فتلمسان.[8]

و تمر الطريق بين وجدة و مليلة، بعد صاع بقرية أجرسيف، على مرحلة من وجدة، و تقع " على نهر ملوية يأتيها من جانب مطغرة و المخاضة (العبور) إليها من جهة القبلة (الجنوب)... و من مرسى مليلة إلى الشرق مرسى جراوة " و له نهر يريق في البحر "[9] و إلى الشرق منه مراسي مجرود فترنانة فأرشقول فآسلن.[10]

و بمدينة نكور الواقعة على بعد مرحلة من نهر كرط و ثلاث مراحل من وادي ملوية في اتجاه الغرب[11] " حمامات كثيرة... و هي بين نهرين: أحدهما نكور، و مخرجه في بلاد كزنّاية، من جبل بني كوين و الثاني نهر غيس، منبعثه من بلد بني ورياغل، و مسافة مجرى كل نهر منهما إلى مصبه في البحر مسيرة يوم و بعض ثاني (يوم)، و على نهريه الأرحاء، و من جبل كوين

1- الإدريسي: المصدر السابق، ص 149.

2- ابن حوقل: نفس المصدر، ص 88.

3- نفس المصدر، ص 89؛ يجعل البكري موقع صاع في بداية الطريق من وجدة إلى فاس و كذلك في بداية الطريق بين وجدة و مليلة (المغرب، ص 88).

4- القارة الإفريقية، ص 149.

5- صورة الأرض، ص 89.

6- القارة الإفريقية، ص 149.

7- صورة الأرض، ص 89؛ القارة الإفريقية، نفس المصدر، ص 149.

8- نفسه؛ نفسه.

9- المغرب، ص 88؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.178 ،

10- نفس المصدر، ص 89؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.179-180 ،

11- أنظر البكري: المغرب، ص 99.

أيضا ينبعث النهر المعروف بنهر ورغة[1] من مشهور أنهار أرض المغرب، و يجتمع نهر نكور وغيس بموضع يقال له أكدال ثم يتشعب هناك جداول، و في طرف هذا الموضوع رباط نكور... و بين مدينة نكور و بين البحر خمسة أميال... و هي كثيرة البساتين و الفواكه."[2]

و كان لمدينة سبتة " ماء مجلوب من نهر قرية أويات على ثلاثة أميال منها، يجري الماء في قناة مع ضفة البحر القبلي... بحر يَسْوَال (بسول)[3]، و كان يدخل كنيستها التي هي جامع سبتة و أمر الخليفة... أبو يعقوب (الموحدي)... سنة ثمانين و خمسمائة (13 أبريل 1184) بجلب الماء إليها من قرية بليونش على ستة أميال... في قناة تحت الأرض، حسب ما جافه (فعله) الأوائل في قرية قرطاجنة و غيرها و شرع العمل... في سنة سبع و ثمانين و خمسمائة (هجرية 1191م ".[4]

و الطريق من سبتة إلى مدينة تيقيساس تمر " عن وادي راس... ثم تدخل في أرض غمارة... ثم في بني نفقاوة... على وادي لاو و هو نهر كبير تجري فيه السفن... و من المواضع المشهورة ... بين سبتة و طنجة نهر إليان... و نهر الخليج هو شرقي طنجة و موقعه في البحر تدخله المراكب... و نهر مجاز الفروق... كبير جدا، و نهر فرميول و عنْصره من جبل عين الشمس و جبل مترارة... و من هذا الجبل إلى البحر المعروف بالزقاق (مضيق جبل طارق) وادي الرمل و هو كثير الثمرة، طيب المزارع..... و نهر أوربة و عنصره من قرية تعرف بالأقولس و حواليه أرضون كثيرة الربيع، طيبة الزرع، و هي قنبانية (Campagne) طنجة..."[5].

و طريق الساحل من طنجة إلى سبتة يمر على جبل مرسى موسى و منه " إلى وادي مدينة اليمّ و القصر الأول... و حوله غراسات كثيرة، و تدخل المراكب في هذا الوادي إلى

1- تعني هذه الكلمة الذهب بالبربرية Mac Guckin de Slane: op.cit., p.182, Note 2 .

2- المغرب، ص 90-91؛ الترجمة الفرنسية .Ibid , p.182-183 .

3- كتبه E. Fagnan مترجم كتاب الاستبصار بسوال، كما هو مكتوب عند البكري و الإدريسي (أنظر op.cit., p.47, Note 3).

4- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 23؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan : op.cit., pp.47-48 .

5- المغرب، ص 108؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit., pp.212-213 .

حائط القصر... و بعد باب اليمّ وادي زلول،و عليه ثمار و عمارة كثيرة ثم وادي باب اليـمّ... ، ثم وادي ...اليمّ، يصبّ في البحر، حوله بساتين و عليه سكنى و عمارة...، ثم حجر نـــابت في البحر... ثم مرسى موسى... و فيه نهر يريق (يصب) في البحر... و يليه مرسى جزيرة تورة... ثم مرسى بليونش... قرية و بغربيها نهر يريق في البحر عليه الارحاء".[1]

و على طريق البرّ، من سبتة إلى مصب وادي المناول في البحر جنوب هذه المدينة، يقـع وادي نجرُوا (نَجْرُو)[2] على ستة أميال من سبتة " مخرجه من جبل أبي جميل... و علـــى هــذا النهر... القصر و هو قصر للأول... فيه حمام... ثم إلى نهر أسمير و منبعه من جبل الدرقة،و جريته من الغرب إلى الشرق "[3] و بعد قب مُنت[4]، الجبل الدّاخل في البحر جنوبي سبتة، " نهر إيليـي و منبعه أيضا من جبل الدرقة "[5] ثم قرية تاورص فمدينة تطاوان[6] (Tétouan)و هي " علــى أسفل وادي راس[7] ... (أو) مَحكسه،و هذا النهر يتسع هناك، و تدخله المراكب اللّطاف مــن البحر إلى أن تصل تطاون،و مسافة ما بين البحر و بينها عشرة أميال... و بها مياه كثيرة سائحة عليها الأرحاء... و بين تطاوان و جبل الدرقة سكّة (مرحلة بريدية)... ثم إلى نهر راس (راســن) و منبعثه من... نيطّسوان، من جبل بني حاميم "[8] و تستمر الطريق إلى سوق بني مغراوت، آخر بلد مجكسة ثم فج الفَرَس فمدينة ويناقام " في صفح (سفح) جبل و لها ثمار و مياه كثيرة، و هي على نهر سَسْهور... و منبعث سَسْهور من جبل تاموراث..."[9].

1- المغرب، ص 104 فما بعدها؛ الترجمة الفرنسية، Ibid, p.205 Sq .

2- وادي نفزة على الخرائط (الفرنسية) (Mac Guckin de Slane, op.cit., p.209, Note 1) .

2-المغرب، ص 106؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.209 .

Cap Mont- 4 أو رأس مونت؛ Capo Negro على الخرائط الإسبانية (Ibid, p.209, Note 2).

5- المغرب، ص 106؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.210-211 .

6- تعني كلمة تيطاوين بالبربرية " العين " البشرية أو المائية (Ibid, p.210, Note 2) .

7- يسمى هذا الوادي في مخطوط آخر للبكري " P" راسن: جمع رأس بالبربرية؛ و يحمـــل اســـم مـــارتيل أو مـــارتين (Martin) على الخرائط (الفرنسية) (Ibid, p.210, Note 1) .

8- المغرب، ص 107؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.210-211 .

9- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.211 .

و الطريق الذي يربط سبتة بفاس يمر بـ " وادي مغار لكتامة... قرار كبير بلد للـزرع و الضرع... و يفترق الطريق من الحجر (حجر النسر) فمن تيامن يأخذ إلى أفتس... و هي مدينة... من الحجر غربا و هي على نهر واولكس (لكّوس)... و جريته من الشرق إلى الغرب و هو (المسافر) يلقاه (يجدة) عند أفتس... ثم يهبط (النهر) إلى مدينة سوق كتامى فيسمى هناك واولكس ثم إلى مدينة تشومّس (تشمَسُ)[1] و هي مدينة أوليه... كثيرة المياه و الثمار و يسمى ذلك الموضع بسفدد، و يتسع هنا و عليه رباط يعرف برباط حارة الإحشيس، و هي قرية... ثم تسير من أفتس إلى زهجوكة مدينة... لزرهونة و بعد مدينة يُجّاجين[2]... على نهر عذب بها جامع و أسواق و حمام و يعرف بالجبل الأشهب... على نهر سُوسَق، نهر كبير كنهر قرطبة، و هي من بلد جنيارة... و بعدها مدينة أصادة... ثم يأتي مجاز الخشبة، على وادي ورغة... و ذلك من مدينة سبتة إلى فاس ستة أيام، و طريق آخر إلى فاس... (يمرّ عن) تيطاوان... أول ما يلقى الخارج من سبتة وادي أويات يجري في خندق عليه أرحاء شتوية، و بينه و بين المدينة ميلان و منه جلب إليان الماء إلى سبتة... إلى وادي نكره...".[3]

و من مدينة طنجة إلى مدينة أزيلا (أزيلة) أو أصيلا[4] (أصيلة) مرحلة خفيفة جدّا، و هي أوّل مدن العدوة (الساحل الإفريقي) من جانب الغرب... بغربي طنجة "[5]، و إلى الجنوب منها على سيف البحر المحيط وادي سفدد " و هو وادٍ كبير عظيم، غزير الماء، يحمل المراكب، عذب و منه شرب أهل تَشُمُّس، و هي مدينة لطيفة قديمة... تركب وادي تشمس هذا المعروف بسفدد، و بينها و بين البحر نحو ميل، و يمدّ سفدد شعبتان، تقع فيه إحداهما من بلد دهاجه، من جبل البصرة و الثانية من بلد كتامة، و كلتاهما ماء كثير، و فيه يحمل أهل

1- Le Tussi Mussi في الخريطة الكطلانية (Mac guckin de slane : op.cit., p.223, Note 3) ٠

2- كتبها Mac Guckin de Slane: Maadinat –iou- Iddjadjin : على أساس أن الكلمة الأولى عربية و الثانية بربرية و الثالثة عربية مُبَربَرة، و معناها مدينة الحجاج (Ibid, p.224, Note 1) ٠

3- المغرب، ص 114-115؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.223-224 ٠

4- أصيلة هو الإسم المعرّب عن أزيلة البربرية أو أصيلت (كما هي عند بطليموس) و يذكرها بعض الجغرافيين اليونان باسم Zillis؛ و يسميها الوزان Arzilla (إسماعيل العربي: القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق لأبي عبد الله الشريف الإدريسي، تحقيق و تقديم و تعليق اسماعيل العربي، ص 250، هامس 14).

5- المغرب، ص 111؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit, p.218.

البصرة بجارتهم في المراكب ثم يخرجون إلى البحر المحيط "[1] و حسب البكري فإنه لا يسكن وادي سَفدد " أبيض اللون إلاّ اعتل و قلّ ما يسلم من علته و إنما يسكنه السودان و إذا رأوا رجلا أبيض اللوْن قد دخل عندهم ينادي بعضهم بعضا ميّز ميّز ..."[2] و يحدد موقعه بين حوض أصيلا و بين وادي سبو.[3]

و أوّل ما يلقى الخارج من مدينة أصيلة، في طريق طنجة، من الناحية الشرقية واديها و هو يخاض (يجتاز) ثم مسجد... ثم واد نبرش يخاض أيضا، و هي قرية ... كثيرة الثمار و العيون... بينها و بين البحر قدر نصف ميل، ثم ساحل رمل ثم نهر كبير يُعبر في المراكب ".[4]

و بين مدينة تشُمُّس و مدينة البصرة دون المرحله، على الظهر، و في جنوب مدينة البصرة تقع مدينة ماسيته " على وادٍ عذب يجري إلى وادي سبه (سبو) و هو وادي فاس ".[5]

و بالقرب من طنجة أيضا تقع مدينة سلا الحديثة، على ضفة البحر : و كانت في القديم من الزمن مدينة شاله، على ميلين من البحر، و موضعها على ضفة نهر أسمير [6] الذي يتصل الآن (في ق 6هـ/12 م) بمدينة سلا الحديثة، و هناك مصبه في البحر... و بها كروم و غلات و بساتين و حدائق و مزارع "[7].

و بين مدينة سلا الحديثة و قرية أكسيس مرحلة صغيرة " و الطريق على فحص خـوّار، و في آخر الفحص وادٍ فيه ماء جار دائما و عليه غابات و ثمار "[8] و على أربعة مراحل من أكسيس قرية أم الربيع " على وادٍ كبير خرّار يجاز بالمراكب، سريع الجري كثير الانحدار، كثير الصخور و الجنادل، و بهذه القرية ألبان و أسمان... و حنطة... و بها بقول و مزارع القطاني

1- ابن حوقل: المصدر السابق، ص 79-80؛ قارن الإدريسي: المصدر السابق، ص 250-251.

2- المغرب، ص 87؛ الترجمة الفرنسية M ac Guckin de Slane, op.cit., pp.175-176 .

3- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id.

4- نفس المصدر، ص 113؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.221 .

5- صورة الأرض، ص 81.

6- تطلق البكري تسمية شلّة على هذه المدينة القديمة و يجعل موقعها على وادي سلى الواقع شرق مرسى ماريفن، الواقع شرق جزيرة فضالة، ساحل تامسنى، بلد برغواطة (المغرب، ص 87؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, p.175).

7- الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 141-142.

8- نفس المصدر، ص 141.

والقطن و الكمون، و هي في جنوب الوادي... "[1].

و بعد مرحلة من مدينة طنجة، على الطريق المؤدي إلى فاس: قلعة ابن خروب، و بالقرب منها " قرية كبيرة... كثيرة الخير و هي على نهر زلول..."[2] و في نفس الاتجاه على نفس الطريق تقع " حاضرة سوق كتامى، و هي قاعدة إدريس بن القاسم بن إبراهيم ... على نهر واولكس (لكّوس)... "[3] ثم يأتي قصر دهاجة " على تلّ و تحته نهر عظيم... إلى مدينة البصرة "[4] و على مرحلة من هذه الأخيرة نهر درات " و هو في أصل جبل، و في أعلى الجبل مدينة تسمى كُرت "[5] و منها إلى موضع يقال له حنّاوة أو جنيارة و منها إلى " قرية صغيرة على نهر عظيم يسمّى سبُو... و منه إلى مدينة فاس مرحلة "[6].

و يبقى نهر فاس هو الذي لفت أنظار أكبر عدد من قدماء المؤلفين الذين اهتموا بوصف جغرافية بلاد المغرب: من ذلك أن اليعقوبي أخبرنا بما كان يقال، في عهده (ق.3هـ/9 م) من " أنه أعظم من جميع أنهار الأرض عليه ثلثة (ثلاثة) آلاف رحاً... و على نهر فاس عمارات جليلة و قرى و ضياع و مزارع من حافتيه، يأتي ماؤه من عيون قبلية (جنوبية) و هم يقولون إنه لا يزيد و لا ينقص و يفيض في النهر الذي يقال له سبُو... و يفرغ سبو في البحر المالح "[7] و يضيف ابن حوقل (ق 4هـ/10 م) أن نهر فاس يشق مدينة فاس إلى جانبين و هو " كبير غزير الماء عليه أرحية كثيرة (لا يَذْكُر عدَدَها)... (و) في كل يوم من أيام الصيف يرسل إلى

1- الإدريسي: المصدر السابق، ص 140.

2- المغرب، ص 109؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit., p.215 .

3- نفس المصدر، ص 110؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.215 ؛ و كلمة وَاوْ الواردة في وَاوْ لُكس بربرية و تعني " هو الذي " مثلها مثل مقطع تن (ten)الذي يوضع قبل اسم بعض الأماكن في المغرب و يعني (التي هي (Mac Guckin de Slane : op.cit., p.215, Note 1).

4- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.216 .

5- نفس المصدر، ص 111؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.217 .

6- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.217-218 .

7- كتاب البلدان، ص 357-358.

أسواقها... الماء فيغسلها فتبرد... "[1]؛ و بالنسبة للمقدّسي فإن فاس " بَلَدَان جليلان كبيران...، بينهما واد جرّار، عليه بساتين و أرحية "[2].

و يعتبر البكري (ق.5هـ/11 م) فاسا مدينتين مقترنتين (متجاورتين) " بينهما نهر يطرد* (سريع جدّاً) و أرحاء و قناطر... و على باب دار الرجل فيها رحى و بستانه بأنواع الثمر و جداول الماء تخترق داره، و بالمدينتين أزيد من ثلاث مائه رحى، و فيها نحو عشرين حماما... و كِلْتَا عُدْوَتَيْ (حيّي) فاس (عُدوة الأندلسيين و عُدوة القرويين) في صفح (سفح) جبل،و النهر الذي بينهما مخرجه من عين غزيرة، في وسط مرج ببلاد مطْغرة، على مسيرة نصف يوم من فاس "[3].

و يفيد صاحب كتاب الاستبصار أن فاساً هي قاعدة بلاد المغرب (يقصد به المغرب الأقصى) و أنها " مدينتان كبيرتان مفترقتان يشق بينهما نهر كبير يسمّى بوادي فاس... و بين المدينتين قناطر كثيرة و تطرد (تجري) فيها جداول ماء لا تُحصى، تخترق كلتيّ المدينتين، تسمّى بالسواني[4] لا بدّ لكل دار من ديار المدينتين منها... "[5] و يقدر نفس المصدر عدد أرحيتها بحوالي " ثلاث مائة و ستين رحَى، و هي في المزيد و ربما وصلت إلى أربعمائة، و النهر ينبعث من عين عظيمة... فيها نحو الستين فوّارة... بينها و بين المدينة نحو عشرة أميال في بسيط من الأرض... "[6].

و يصب وادي فاس بوادي سبّو، على نحو ثلاثة أميال من المدينة[7] و هذا الوادي

1- صورة الأرض، ص 90.

2- Al – Muqaddasi : op.cit., p.24 ; Trd.p .25 .

*- اطّرد الماء إذا تتابع جريانه، و جدول مطّرد= سريع الجرية (لسان العرب، جـ4، ص 579).

3- المغرب، ص 115؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, p.226 .

4- في مخطوط آخر للكتاب (D) كتبت هذه الكلمة الساقية (E. Fagnan : op.cit., p.121, Note 2) .

5- مؤلف مجهول، ص 68-69؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.121 .

6- نفس المصدر، ص 69؛ الترجمة الفرنسية .Id ؛ و المقصور بالفوارة هنا النبع الصغير (أنظر. الترجمة الفرنسية Id)؛ يقدّر القزويني عدد أرحية فاس بست مائه رحى، و يسمى نهرها المفروش (آثار البلاد و أخبار العباد، ص 102).

7- من سبو إلى فاس مسافة يوم أو أربعة أميال (حسب البكري) أو ستة أميال (حسب الإدريسي) (أنظر E. Fagnan : op.cit., p.129, Note 4) .

(سبو) من أعظم أنهار بلاد المغرب و منبعه من جبل بني وارتين[1].

و يذكر الإدريسي أن نهر فاس يأتي من عيون تُسمى عيون صنهاجة، و علية في داخل المدينة، أرحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر و المدينة الشمالية منها تسمّى عُدوة القرويين، و تسمى الجنوبية [عدوة] الأندلس. و الأندلس ماؤها قليل، لكنه يشقها نهر واحد يمرّ بأعلاها و ينتفع منه ببعضها، و أمّا مدينة القرويّين، فمياهها كثيرة تجري منها في كل شارع، و في كل زقاق ساقية متى شاء أهل الموضع فجرّوها فغسلوا مكانهم منها ليلا.... و في كل دار منها، صغيرة كانت أو كبيرة ساقية، نقيا كان أو غير نقيّ... "[2].

و يطلق الزهري تسمية وادي الجوهر على وادي فاس لما يوجد فيه من " الجوهر في صدفه "[3] ؛ أمّا ابن أبي زرع (ابن المدينة نفسها) فيقول: إن نهرها يخرج من عيون " أعلاها في بسيط الأرض من ستين عنصرا، كلها تنبعث من جهة القبلة، و ثلاثة عناصر، من جهة المغرب على نحو عشرة أميال من المدينة، فيجتمع ما يخرج من تلك العناصر... فيصير نهرا كبيرا فيجري في بسيط الأرض... حتى ينحدر على المدينة في مروج خضر، لا يزال كذلك صيفا و شتاء، حتى يدخل البلد فينقسم في داخلها على جداول كثرة "[4] و في مكان آخر يذكر أن نهرها يشقها " بنصفين و يتشعب في داخلها أنهرا و جداول و خلجانا، فتتخلّل الأنهار ديارها و بساتينها و شوارعها و أسواقها و حماماتها و تطحن به أرحاؤها و يخرج منها و قد حمل أثقالها و أقذارها و رحاضاتها "[5] و يخرج النهر من المدينة و يسقي " جناتها و بحائرها إلى أن يصبّ في وادي سبُو على مقدار الميلين منها ".[6]

1- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 73؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.129 تختلف تسميات هذا الجبل في نسخ مخطوط صاحب كتاب الاستبصار، فهي: وارتين في مخطوطي . B و D. و وارتين في مخطوط .A؛ ورتانتين (في تاريخ البربر (أي تاريخ ابن خلدون المترجم إلى الفرنسية، جـ III ، ص 187)؛ و حسب الإدريسي فإن منبع سبو هو قلعة ابن توالة أو قلعة مهدي (أنظر E. Fagnan : op.cit., p.129, Note)

2- ا لقارة الإفريقية، ص 145..

3- كتاب الجغرافية، ص 114.

4- كتاب الأنيس المطرد بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، ط . UPSALIAE 1943، ص 17.

5- نفس المصدر،ص 16.

6- نفس المصدر، ص 17.

و يُحصي ابن أبي زرع فضائل ماء نهر فاس منها أنه: " يُفتّت الحصى، و يُذْهِب الصنان لمن اغتسل به و داوم على شربه، و يُلين البشرة و يقطع القمل و يسرع الهضم، و يُشْرَب على الريق فلا يعدي، و من يستكثر من شربه فلا يضره، و ذلك لأجل جريانـــه علـــى الكرفـــس و السعداء... و ... و يُنبّه شهوة الجماع، إذا شرب على الريق و ... تغسل فيه الثيـــاب بغـــير صابون، يبيضها و يكسوها رونقا و بصيصا و رائحة طيبة كما يفعل الصابون ".[1]

و يعتبر G. Marçais و A. Dessus Lamare أن مدينة فاس مُصمّمـــة علـــى الطريقـــة الشرقية و أن الوادي الذي قطعها جُزِّيءَ إلى حوالي ألف قناة ثم يسجلان بعض تحفضاتهما فيما يقال في شأن عجز المسلمين عن بناء القنوات و صيانتها و يلاحظان أن الجغرافي E. F. gautier تمكن، ببصيرة، من إبراز أهمية وادي فاس الدّائم الذي حدّد الموقع الحضاري الجديـــد (فـــاس) و مثل هذا الواد الدّائم انعدم بوليلى مما كان سببا في نقل العاصمة في القرن التاسع الميلادي.[2]

و بين مدينة فاس و مدينة تلمسان مسيرة عشرة أيام "و ... آخر بلاد المغرب الأوســـط و أول بلاد المغرب (الأقصى) بلاد تازا[3]... و قد بُني ببلاد تازا في ... (ق.6هـــ/12 م) الربـــاط و هي مدينة كبيرة في سفح جبل، مشرفة على بسائطه، تشقها جداول المياه العذبة... و هـــي في فُسحة على ستة أميال ما بين جبال تنصبّ إليها من تلك الجبال مياه كثيرة و أنهار تسقي جميـــع بساتينها، في أعلاها و أسفلها، و لها نظر (Canton) كبير كثير الزرع و جميـــع الفواكـــه... و شُيّدت سنة ثمان و ستين و خمسمائه (568 هـــ/ 1172 م)، و تقع الرباط، على الطريق المار مـــن بلاد المغرب إلى بلاد المشرق و تسمى مكناسة تازا "[4].

و على الطريق، من مدينة فاس إلى مدينة القيروان، و بعد عبور فج تازا، في اتجاه الشرق "وادي " وَارُجّين، نهر ملح لمكناسة "[5] و بعده "وادي صاع "[6] و بعد مدينة تلمسان، مـــدينة

1- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 16.

2- Tihert- Fagdemt, Recherches d'archéologie et d'histoire, p.27.

3- و قد ذكر المراكشي رباط تازا كحدّ للمغرب (الأقصى) أيضا؛ و يجعل أبو الفداء بداية المغرب الأقصى في تلمســـان (أنظر E. Fagnan : op.cit., p.134, Note 1).

4- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 74-75؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.p.134-135 .

5- المغرب، ص 142؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.272. .

6- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.273 .

تافدّة " و هي مدينة كبيرة آهلة على نهرين أحدهما حَمّة (من مياه معدنية) و منه شربهم و عليه أرحاؤهم ثم إلى قصر ابن سنان الأزداجي، حوله بساتين كثيرة على نهـــر كــدّال إلى مدينـــة يلل ".[1]

و في نهاية المرحلة الأولى، على الطريق من فاس إلى سجلماسة، مدينة صُفْروي، و هـــي مدينة ذات أنهار و أشجار "[2] و كان أكثر أهلها، حسب الإدريسي (ق 6هـــ/12 م) فلاّحـــين " و زروعهم كثيرة، و لهم مواش و أنعام "[3]، و في نهاية المرحلة الرابعـــة قريـــة تاســغمرت " و هي قرية على نهر " [4]، و بعد مرحلة أخرى كبيرة موضع أمغاك و منه يتم الدخـــول " في عمل سجلماسة بين أنهار و ثمار ثلاث مراحل إلى مدينة سجلماسة "[5].

و على طريق آخر من سجلماسة إلى فاس، و في مرحلته الثالثة، انطلاقا من سجلماســة يقع بلد مطماطة أمسكور، و هو " على نهر ملوية كثير الزرع، سَقيٌّ " كله من نهر ملويـــة "[6] و في المرحلة الرابعة، يقع حصن مغيلة القاط و هو " كثير الأنهار و الثمار، و معظـــم شـــجره التين "[7]، و بعد مرحلة أخرى مدينة لواتة مدين " على نهر سَبُوا (سَبو) "[8] فإلى فاس .

و في حديث الإدريسي عن الطريق من فاس إلى سجلماسة يشير إلى " مدائن مكناســة " و يلاحظ أنها في طريق سلا ثم يسجّل أن " مدينة مكناسة و هي المسماة تاقررت... يجـــري في شرقيها نهر صغير، عليه أرحاء، و تتصل بها عمارات، و جنات و زروع... و بلاد مكنــــاس: منها التي تعرف ببني زياد، و هي مدينة عامرة... و المياه تخترق أزقتها... و كانت مدينة تـــاورة (من مدن مكناسة)... و النعم و الفواكه لا تقضي بها حاجة و الماء يأتيها من جنوبها من نهـــر

1- البكري: المصدر السابق، ص 143؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.274 .

2- نفس المصدر، ص 146-147؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.280 .

3- القارة الإفريقية، ص 45.

4- المغرب، ص 147؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.280 .

5- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id. .

6- نفسه؛ الترجمة الفرنسية، Ibid, p.281 .

7- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id .

8- نفسه؛ الترجمة Ibid, p.282 .

كبير فينقسم في أعلاها، و تمر ما انقسم هناك من المياه فيخترق جميع أزقتها و شوارعها و أكثر دورها ".[1]

و بين مدينتي تاورة و بني زياد، مدينتا القصر غربا، و بني عطوش، شرقا، و في أسفل هذه المنازل قبيلة مكناسة " على مجرى الماء الذي يأتي من بني عطوش... و بها مزارع و كروم و عمارات... و من بلاد مكناسة، من جهة الغرب إلى قصر عبد الكريم ثلاث مراحل... و هو مدينة صغيرة... على نهر أولكس (لكّوس)، و يجري منها، في جهة الجنوب؛ و بينها و بين البحر ثلاثة أميال... إلى بلاد سلا مرحلتان... و نهر أولكس من أنهار المغرب المشهورة، و تمتدّ أنهار كثيرة... و عليه عمارات و قرى و ديار ".[2]

و فيما يخص سجلماسة يذكر المقدّسي أنها " قصبة جليلة على نهر، بمعزل عنها، يفرغ في قبليها (جنوبها) و هي طولانية نحو القبلة "[3] و النهر الذي تقع عليه سجلماسة " يزيد في الصيف كزيادة النيل... فيزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة، و ربما زرعوا سنة عن بذر و حصدوا ماراع من زرعه و تواترت السنون بالمياه فكلّما أغدقت تلك الأرض سنة في عقب أخرى حصدوه إلى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة و لا الشعير بحبّ صُلب المَكسَر لذيذ الطعم و خلقه ما بين القمح و الشعير، و لها نخيل و بساتين حسنة و أجنة ".[4]

و يجعل البكري سجلماسة[5] " علي نهرين عنصرهما من موضع يقال له أجلف تمدّه عيون كثيرة، فإذا قَرُب من سجلماسة تشعّب نهرين يسلك شرقيها و غربيّها "[6] و بمعنى آخر فإنها تقع عند موضع افتراق النهر المذكور إلى فرعين و يقول البكري إن ماءها زُعاق (مُرٌّ

1- القارة الإفريقية، ص 146-147.

2- نفس المصدر، ص 147-148.

3- Al- Muqaddasi : op.cit. p.28 ; Trad, p.29 .

4- صورة الأرض، ص 91؛ حسب الإدريسي فإن السنبل الذي لا يشبه الحنطة و لا الشعير يسمى يردن تيزوا و (القارة الإفريقية، ص 129).

5- يذكر البكري أنها تأسست سنة 140هـ/ 757 م و أن عمارتها أدّت إلى إخلاء مدينة ترغة على بعد يومين منها و إلى خلوّ مدينة زيز كذلك (المغرب، ص 148؛ الترجمة الفرنسية .(Monteuil V. : Al- Bakri, p.42) .

6- المغرب، ص 148؛ الترجمة الفرنسية Monteuil V. : op.cit., p.42 .

(Saumâtre) " و شرب زَرْعهم من النهر في حياض (أحواض) كحياض البســـاتين، و هـــي كثيرة النخل و الأعناب و جميع الفواكه ".[1]

و بالنسبة للإدريسي فإن سجلماسة عبارة عن " قصور و ديار و عمارات متصلة علـــى نهر لها، كثير الماء يأتي إليها من جهة الشرق، من الصحراء "[2] و يؤكد الإدريسي ما أشار إليـــه ابن حوقل من أن مياه النهر تزيد " في الصيف كزيادة النيل سواء، و يزرع بمائة حسبما يَـــزْرع فلاحو مصر... و في أكثر الأعوام الكثيرة المياه المتواترة عن خروج هذا النهر، ينبت لهـــم مـــا حصدوه في العام السابق من غير بذر.

و في الأكثر من السنين، إذا فاض النهر عندهم ثم رجع، بذروا على تلـــك الأرضيـــة زرعهم ثم حصدوه عند تناهيه و تركوا جذورة إلى العام القادم، فينبت ذلك من غير حاجـة إلى بذر زراعة "[3].

و يذكر ابن سعيد المغربي بأن هذا النهر " يأتي من الجنوب و الشرق (الجنوب الشـرقي) و منبعه من جبل أزرو... و من عيونه، و ينقسم منها إلى قسمين، ثم يجتمع القسمان و يتصلان على غربيها و شرقيها... و ينصبّ هذا النهر في نهر زيز الذي يمشي معه و مع نهر سجلماســـة و إليها خمسة أيام في العمائر و الخيرات، ثم ينصبّ نهر زيز في نهر ملوية الذي ينصبّ في بحـــر الرومان، و يتّصل بجبل أزرو جبال صنهاجة... و يتصل من غربيها إلى البحـــر المحيـــط جبـــل درن... "[4].

و يفيد القزويني أن السجلماسيين غرسوا على النهر " بساتين و نخيلا مدّ البصـــــر "[5] و في رواية له، عن أحد الفقهاء المغاربة شاهد سجلماسة، أن " مزارعها إثنا عشر فرســـخا في كل جانب، لكن لا يزرع في كل سنة إلاّ خمسها، و من أراد الزيادة على ذلك منعوه، و ذلـك لأن الرّيع إذا كثر لا يبقى له قيمة فلا يشتري من الطّناء بشيء ".[6]

1- البكري: المصدر السابق، ص 148؛ الترجمة الفرنسيةMonteuil : op.cit, p.42 .

2- القارة الإفريقية، ص 128.

3- القارة الإفريقية، ص 128-129.

4- كتاب الجغرافيا، ص 124-125.

5- آثار البلاد و أخبار العباد، ص 42.

6- نفسه.

و يسجل Ch. de la Ronciére أنه أثناء فيضان نهر "زيز " أي نهر سجلماسة فإن شبكة من القنوات المقطوعة بجسور صغيرة كانت تؤمّن ريًّا كافيا لزراعة القمح و القطن و الحنا[1] كما يسجل الحبيب الجنحاني عن ياقوت الحموي قوله: "و هي (أي سجلماسة) في وسط رمال كرمال زرود... يمر بها نهر كبير يخاض، قد غرسوا عليه بساتين و نخيلا مدّ البصر... "[2].

و يستنتج الجنحاني من كلام ياقوت هذا أن النهر يخاض (يُجتاز) بالرّجل [3]، و على نهر سجلماسة، تقع حسب الإدريسي "مدينة درعة "، على ثلاثة مراحل من مدينة سجلماسة " و درعة ليست بمدرنة يحوطها سور و لا حفير، و إنما هي قرى متصلة، و عمارات متقاربة، و مزارع كثيرة " [4] غير أن مدينة درعة بالنسبة للبكري " يقال لها تيومتين و هي قاعدة درعة "[5] و هي على وادي درعة بينه و بين وادي سجلماسة مسيرة خمسة أيام[6] و " منبعثه من جبل درن "[7]، و مدينة تيومتين " في شرف من الأرض و النهر منها بقبليها (جنوبها) و جريته من الشرق إلى الغرب و يهبط لها من ربوة حمراء ".[8]

و يذهب ابن سعيد المغربي إلى القول: إن نهرها " المشهور في غربيها، ينزل من رُبى حمر عند جبل درن، و هو مسيرة سبعة أيام، في عمائر متصلة. و أكثر ما ينبت عليه الحنا... إلى أن يغوص ما يفضل منه، في صحراء الإقليم الثاني، و في شرقي درعة مدينة سجلماسة ".[9] و على الطريق من وادي درعة إلى الصحراء و بلاد السودان يقع وادي تارجا على بعد خمس مراحل " و هو أوّل الصحراء ثم تمشي في الصحراء فتجد الماء على اليومين و الثلاثة "[10] فأكثر و أقلّ.

1- La découverte de L'Afrique au moyen âge, Carthographes et explorateurs, T. I, l'intérieur du continent, mémoire de l'institut royale de Géographie d'Egypte, T.V, 1924, p.82.

2- المغرب الإسلامي، ص 149.

3- نفسه.

4- القارة الإفريقية، ص 129.

5- المغرب، ص 155؛ الترجمة الفرنسية Monteuil V. : op.cit, p.50.

6- نفس المصدر، ص 149؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.43 .

7- نفس المصدر، ص 155؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.50 .

8- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id. .

9-كتاب الجغرافيا، ص 124.

10- المغرب، ص 163؛ الترجمة الفرنسية Monteuil V : op.cit., p.58.

و على بعد سبع مراحل من وادي درعة تقع مدينة أغمات[1]حاضرة البلاد قبل بنيان مرّاكش[2] و هي، حسب البكري (ق.5هـ/11م) " مدينتان سهليتان... أغمات إيلان و ... أغمات وريكة... بينهما ثمانية أميال، و لها نهر لطيف جَرْيَتُه من القبلة (الجنوب) إلى الجوف (الشمال)، ماؤه زعاق (amères) يقال له تاقيروت و حولها بساتين و نخل كثير "[3]؛ أما الإدريسي الذي زار أغمات[4] في القرن السادس الهجري (12 م) فيذكر في شأن أغمات و ريكة بأنها " في فحص... كثير النبات و الأعشاب و المياه تخترقه يمينا و شمالا و تطرد بساحته... و حولها جنات... و بساتين و أشجار... و بها نهر ليس بالكبير يشق المدينة و يأتيها من جنوبها فيمرّ إلى أن يخرج من شمالها، و عليه أرحاؤهم التي يطحنون بها الحنطة، و هذا النهر يدخل المدينة يوم الخميس و يوم الجمعة والسبت و الأحد، و باقي أيام الجمعة يأخذونه لسقي جناتهم و أراضيهم و يقطعونه عن البلد..."[5] و يلاحظ نفس المصدر أن ثلوج جبل درن الذي يشرف على مدينة أغمات تتحلّل " و يسيل ذوبانها إلى نهر أغمات، و ربما جمّد في ذلك المدينة حتى يجتاز الأطفال عليه، وهو جامد، فلا يتكسّر لشدّة جموده "[6] أما أغمات إيلان فيشير إلى أنها مدينة صغيرة من أسفل جبل درن و هي شرق أرغمات و ريكة " بينهما ستة أميال، و بهذه المدينة يسكن يهود تلك البلاد ".[7]

و إلى الشمال من أغمات و على اثني عشر ميلا منها[8] أو بشمالها الغربي، و على حوالي خمسة عشر ميلا[9] تقع حاضرة المغرب (الأقصى) مدينة مرّاكش، أسسها يوسف بن

1- المغرب، ص 152-153؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.46-47؛ يحدد الإدريسي بعد مدينة أغمات عن مدينة السوس بست مراحل (القارة الإفريقية، ص 132).

2- ابن سعيد: المصدر السابق،ص 125.

3- نفس المصدر، ص 153؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.147 .

4- أنظر؛ القارة الإفريقية، ص 135 .

5- نفس المصدر، ص 134-135.

6- نفس المصدر، ص 135.

7- نفس المصدر، ص 138.

8- القارة الإفريقية، ص 136.

9- ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 125.

تاشفين سنة 480هـ/ 1087-1088م على ثلاثة أميال[1] أو أربعة [2] من نهر تانسيفت أو تانسفت و ليس بالكبير إلاّ أنه " دائم الجري. و إذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير، لا يبقي و لا يذر...و هذا الوادي يأتي إليه الماء من عيون و مياه منبعثة من جبل درن، من ناحية مدينة أغمات إيلان "[3]. و يمر بشرقي مرّاكش " و شماليها و عليه أرحى و تخرج منه جداول تسقي البساتين و تنصبّ في نهر نفيس المليح الذي على شطّيْهِ الكروم... و البساتين الكثيرة و العمائر المفضلة. و عند مصبه في البحر مرسى أغمات القديم."[4]

و يفيد .Terrasse H أن تأسيس مرّاكش كان على الضفة اليسرى لأحد روافد تانسيفت و هو وادي إسيل (Issil) الذي يمرّ عليها من ناحية الشرق دون أن يتمكّن من تزويدها بالماء.[5]

و في نهاية المرحلة الثالثة على الطريق " من مدينة أغمات إلى مدينة فاس " يذكر البكري وادي وانسيفن (تانسيفت) " واد كبير انبعاثه من... حدود بين بلد زواغة و مدغرة و يقع في البحر المحيط "[6] و بعد أربع مراحل أخرى وادي درنة، و هو " نهر كبير، يقع في نهر وانسيفن... "[7].

و على مرحلة من أغمات وريكة في الطريق نحو السوس تقع مدينة نفيس و هي " تعرف بالبلد النفيس، كثيرة الأنهار و الثمار "[8]، يحدّد البكري (ق 5هـ/ 11 م) موقع مدينة السوس و قاعدتُه، إيجلي " على نهر كبير كثير الثمر و قصب السكّر " [9] .

1- القارة الإفريقية، ص 137.

2- ابن سعيد: المصدر السابق، ص 125.

3- القارة الإفريقية، ص 138.

4- ابن سعيد: المصدر السابق، ص 125.

5- Histoire du Maroc, des Origines à L'établissement du Protectorat Français, èd., Atlantides 1949, T.1, p.222 .

6- المغرب، ص 154؛ الترجمة الفرنسية Monteuil V : op.cit., p.48 .

7- نفسه؛ الترجمة الفرنسية، ص Ibid, p .49 .

8- نفس المصدر، ص 160؛ الترجمة الفرنسية، I bid , p.54 ،

9- نفس المصدر، ص 161؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.56 ،

و يجعل ابن سعيد المغربي (ق.8هـ/ 13م) مدينة السوس، تارودانت، في طرف (رأس) كنصلي على نهر تانسفت، من ناحيته الشمالية، و نهرها و نهر ماست و نهر نول جميعا تأتي من الجنوب و الشرق من جبل لمطة المتصل بجبل كزولة[1].

و يزرع على جانبي نهر السوس قصب السكر و الحنا و غير ذلك[2] و بالنسبة للإدريسي فإن بلاد السوس عبارة عن " قرى كثيرة و عمارات متصلة ببعضها بعض، و بها من الفواكه الجليلة أجناس مختلفة "[3].

و بغربي إيجلي " نهر كبير جار من القبلة (الجنوب) إلى الجوف (الشمال) عليه بساتين كثيرة متصلة، و لم يتخذوا قط عليه رحى، فإذا سئلوا عن المانع لهم من ذلك: قالوا " كيف يُسخّر مثل هذا العذب في إدارة الأرحاء، و هي كثيرة الفواكه و الخير ".[4]

و على مسيرة يومين من إيجلي يقع وادي ماسّت (ماسة) و " عليه قرى كثيرة و هو ينصب في البحر المحيط "[5].

و مدينة نول الواقعة على ثلاثة مراحل لها نهر " يصبّ في البحر المحيط "[6] و يأتي إليها من جهة الشرق [7] أو الجنوب و الشرق (الجنوب الشرقي) من جبل لمطة المتصل بجبل كزولة[8].

و على ست مراحل جنوب إيجلي تقع مدينة تامدلت، أسسها عبد الله بن إدريس الثاني و هي "على نهر عنصره في جبل على عشرة أميال منها و ما بينهما بساتين، و على هذا النهر

1- كتاب الجغرافيا، ص 123-124.

2- أبو الفداء: المصدر السابق، ص 46.

3- القارة الإفريقية، ص 130.

4- المغرب، ص 162؛ الترجمة الفرنسية M onteuil V.op.cit., p.56.

5- نفس المصدر، ص 161؛ الترجمة الفرنسية Id.

6- نفس المصدر، ص 161-162؛ الترجمة الفرنسية Id.

7- القارة الإفريقية، ص 127.

8- ابن سعيد: المصدر السابق، ص 124.

أرحاء كثيرة و أرضها... تعطي لِلْحبّة مائة "[1] و إلى الجنوب من تامدلْت، على الأطراف الجنوبية للصحراء، تقع مدينة أودغست و في شأنها يرى الحبيب الجنحاني: أنه إذا " قورن موقعها بموقع مدينة أشار إليها اليعقوبي في حديثه عن بلد غُست قائلا: " و هو واد عامر فيه المنازل " فيكون هذا الوادي المشار إليه، قد أحدثته، دون ريب، سيول الأمطار الصيفية النازلة من الجبلين المشرفين على المدينة... و تكون المنازل على ضفتي الوادي و في سفح الجبلين ".[2]

طرق استغلال الأنهار:

و ما يمكن استخلاصه من كل ما ذكرته المصادر الجغرافية العربية في عملية المسح التي قمنا بها أن المعلومات الواردة، في شأن الأنهار، في تلك المصادر تنسجم تماما مع التصنيف الذي جعله لها الماوردي (ت .450هـ/ 1058-1059م) و الفرّاء (ت 458هـ/1056-1057م) إذ حصراها في ثلاثة أقسام:

أولا: كبَار الأنهار التي لم يحفرها الأدميون و تكون مياهها كثيرة، كافية لدرجة لا تدعو الناس إلى التنازع عنها، فيجوز حينئذ لمن شاء منهم أن يأخذ منها شربا " و يجعل من ضيعته إليها مفيضا"[3] أي حفر ساقية من النهر إلى ضيعته[4].

ثانيا: صغار الأنهار التي لم يتدخل الإنسان في حفرها أيضا و هذه تنقسم بدورها إلى قسمين هما:

أ)- ما يعلو ماؤها و إن لم يُحبَّس (في سدّ) و يكفي جميع أهله من غير تقصير، فيجوز لكل مالك أرض من أهله أن يأخذ منه شرب أرضه، وقت الحاجة، دون أن يعارض بعضهم بعضا و إن " أراد قوم أن يستخرجوا منه نهرا (قناة يُساق) إلى أرض أخرى (غير محاذاة) أو يجعلوا فيه مفيض نهر آخر (توصيل مياه نهر آخر إليه)، نُظر، فإن كان ذلك مضرًّا بأهل هذا

1-المغرب، ص 163؛ الترجمة الفرنسية Monteuil V : op.cit., p.57 .

2- المغرب الإسلامي، ص 196.

3- الماوردي (علي بن محمد حبيب البصري): الأحكام السلطانية و الولايات الدينية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص 155؛ الفراء (أبو علي محمد بن الحسين الحنبلي): الأحكام السلطانية، صححه و علق عليه محمد حامد الفقي مصر 1356هـ/1938م، ص 192.

4- أنظر Mawerdi Les Status Gouvernementaux, Traduits et annotés Par E. Fagnan Alger . 1984, p386.

النهر منع منة، و إن كان لم يضرهم لم يمنع "[1].

ب)- ما يكون ماؤه قليلا، و لا يعلو للشرب (الري) إلا بحبسه (في سد) و هنا يكون للأول من أهل النهر أن يبتدئ بحبسه " ليسقي أرضه حتى تكتفي منه و ترتوي ثم يحبسه من يليه حتى يكون آخرهم أرضا آخرهم حبسا "[2] و يكون قدر ما يحبسه المرء من الماء في أرضه إلى الكعبين، فإذا بلغ الكعبين أرسله إلى غيره، لكن هذا التقدير يعمل به على ما يبدو، عند الحاجة فقط، و يمكن تجاوزه إذا لم تقتض الضرورة.[3]

و يراعي عند التقدير خمس حالات: أولها: اختلاف الأرض، فمنها ما يرتوي بالقليل و منها ما لا يرتوي إلا بالكثير؛ ثانيها: اختلاف نباتها، فالقدر الذي يحتاجه الزرع من الماء غير القدر الذي تحتاجه الأشجار؛ ثالثها: اختلاف الفصول، فالقدر الذي يحتاج إليه في فصل الشتاء غير القدر الذي يحتاج إليه في فصل الصيف؛ رابعها: الاختلاف بين وقت الزرع و قبله، فلكل واحد منهما قدر معين؛ خامسها: اختلاف حال الماء في بقائه و انقطاعه، فالمنقطع يؤخذ منه ما يدخر و الدائم يؤخذ منه ما يستعمل. و بسبب هذا الاختلاف لم يكن تحديده بما قضاه رسول الله (صلعم) أي بالكعبين، و كان معتبرا بالعرف المعهود عند الحاجة إليه.[4]

و القسم الثالث من الأنهار هي التي احتفرها الأدميون لما أحيوه من الأرض فتكون ملكا لمن احتفروها، لا حق فيها لغيرهم، في السقي بمائها أو توصيله إلى أرضهم، و لا حق لواحد من أهلها أن ينفرد بنصب عبارة (جسر) عليها و لا برفع مائها و لا إدارة رحى فيه إلا بموافقة جميع الشركاء، و على كل هؤلاء تطبيق ما اتفق عليه فيما بينهم[5].

و لا يخرج تقسيم الماء فيما بين هؤلاء عن إحدى القواعد الثلاث هي:

أ)- التناوب عليه بالأيام، إن قل عددهم، و بالساعات إن كثروا، و إن تنازعوا في الترتيب فما عليهم سوى الاقتراع.

1-الماوردي: نفس المصدر، ص 155-156؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit, p.387؛ الفراء: نفس المصدر، ص 198.

2- خليل ابن إسحاق: المختصر في الفقه، ص 300.

3- نفسه.

4-سحنون: المصدر السابق، جـ.3، ص 393.

5-الونشريسي: المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية و الأندلس و المغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي. بيروت 1401هـ/1981م، جـ.8، ص 44.

ب)- تقسيم فَمِ النهر عرضا بخشبة ممتدّة بين ضفتيه بها " حُفُور (ثُقَبٌ) مقدّرة بحقوقهم من الماء، يدخل في كل حفرٍ منها قدرُ ما استحقه صاحبها من خمس أو عشر، و يـــأخذه إلى أرضه على الأدوار (أي عندما يأتي دوره) "[1].

ج)- أن يحفر كل واحد من الشركاء في وجه أرضه " شربا مقدّرا باتفاقهم... ليـــأخذ من ماء النهر قدر حقّه و يساوي فيه جميع شركائه ".[2]

و طريقة التقسيم هذه مازال العمل بها جاريا إلى حدّ الآن حيث لاحظ ، Capot- Rey في نهاية النصف الأول من القرن الماضي (العشرين)، أن الطريقة المنتشرة هي التقسيم بـــالوقت، دون اعتبار للحجم المتوفّر و لكن في الأودية ذات التغييرات الكبيرة في المنسوب، مثل أوديـــة الأوراس يتمّ التقسيم بالحجم أوّلا، ثم يأتي التقسيم بالوقت، و يكون وقت الرّيّ حسب مساحة الحقل أو حسب عدد المزارعين، و في بعض الحالات و خصوصا بـــالأغواط، يزيـــد الوقـــت المخصص لوحدة المساحة، مع بُعد البستان، و عندما يختفي النهر مـــن الســـطح ثم يعـــود إلى الظهور ثانية في قعر المجرى، فإن الحقوق في هذه العين تكون مختلفة؛و مياه الفيضانات مثلها مثل الأودية يمكن أن تكون ملكا لشخص أو لمجموعة أشخاص في المكان الذي أقيم فيه لها سَدٌّ.[3]

و قد يتم جلب الماء من أماكن بعيدة بمقتضى عقود توضح أصحاب الحقوق فيه، مـــن أهل البلد (المدينة) أو غيرهم، و نصيب كل واحد منهم و أغراض استعماله، و هي عادة تقتصر على " مساجدها و حماماتها و سقاياتها و سائر الناس لأجباهم " و يساق الماء في ساقية أو قنـــاة إلى قرب سور المدينة أو البلد حيث تقسّم إلى عدد من السواقي يُعطَى لكل واحدة منها اســـم خاص بها، و تتجه إلى جهة معينة من المدينة لتقسم بدورها، في بدايتها إلى سواق توزّع علـــى أزقتها، و من بنى من أصحاب هذه الأزقة ساقية أو حازها عمن تقدّمه لا يشارك فيها غيره، إلاّ برضى جميع أهل الساقية التي تفرّعت عنها، فلكل واحد منهم الحـــق في ذلـــك، و في حالـــة حدوث أي خلاف بين الشركاء في هذا، تتم تسويته بالعودة إلى عقد إحداث السّاقية.[4]

1- الونشريسي: المصدر السابق، جـــ.8، ص 400؛ و يطلق على هذه الآلة تسمية الموزّعة (partiteur)(أنظر يوسـف محمد رضا: المرجع السابق، مادة partiteur).

2- الماوردي: نفس المصدر، ص 156؛ الترجمة الفرنسية IE. Fagnan : op.cit., p.387 ؛ الفراء: نفـــس المصـــدر، ص 198؛ و الشرب هو الماء جمع أشراب (لسان العرب، جـــ.3، ص 287-288).

3- op.cit., p.349 .

4- الونشريسي المعيار، 8، ص 37-38.

و البلد أو المدينة الكبيرة التي بها حمامات و مدارس و دور يجري لها كلها ماء يدخـــل المدينة من الجهة الفوقية أي العليا و يمر بمناصب أو قواديس محكمة البناء و يشق في داخل بعض الدور و يمر بإزاء بعضها إلى أن يخرج بعد استعماله، مع ما يضاف إليه مما ينحدر على الـــدور من ماء المطر، فيما يعرف بالكنيف، من جهتها السفلية، و ينتفع به، بعد خروجـــه أصحـــاب الجنات التي بخارج البلد انتفاعا متداولا[1].

و ما تحتاج إليه تلك المناصب أو القواديس إلى صيانة و ترميمات تكون عادة على نفقـة أحباسها أو بيت مال المسلمين، و إن تعذر الأمر يندب أهل البلد و يرشدون إليه " فمن تطوع خيرا فهو خير له " لكنهم لا يجبرون، مهما كان الحال، على ذلك.[2]

و إن تعلق الأمر بقناة بين شركاء احتاجت إلى الكنس و رفض بعضهم المشاركة فيـــه و عمل الآخرون فإن ما يزيد من فضل الماء، عن قدر ما كان، لهم وحدهم، إلا أن يعطيـــهم حصته من النفقة فيكون له من فضل الماء على قدر حصته[3] و يكون طرح الكناسة وفق العرف الجاري و لكن لا يجوز طرحها على حافة النهر أو القناة إن وجدت سعة.[4]

و من حق صاحب أرض يجري بها ماء نهر أو قناة غيره أن يغرس على جانبيها[5] و مـــن حقه أيضا، إن كان له نهر أو قناة في أرضه أن يكري حافتيها لمن يبني بيتا أو يقيم رحى.[6]

و في حالة ما إذا تهدمت قنطرة ماء الأجنة تكون المساهمة في إصلاحـــها علـــى قـــدر الانتفاع بمائها[7] و إذا اقتطع الرجل عراصا من جنانه الذي تمر عليه قناة له، مع شركاء آخرين، و باعها لتبنى دورا فلا يزيد أصحاب تلك الدور من الماء عن قدر حق البائع، يتقـــاسمونه

1-الونشريسي: المصدر السابق، جـ.5، ص 234-235؛ و الكنيف هو الساتر (لسان العرب، جـ.5، ص 304).

2- نفس المصـــدر، جـــ.7، ص 11-12؛ و القواديـــس هـــي الأنـــابيب أو القنـــوات الخاصـــة بصـــرف الميـــاه . (R. Dozy, supplément aux dictionnaires arabes, leyde E.J. Brill 1881, T.1, p.683)

3-سحنون بن سعيد التنوخي: المدونة الكبرى، نشر دار الفكر- بيروت 1406هـ/1986م، جـ.4، ص 376.

4- خليل ابن اسحاق: المختصر في الفقه، النص العربي مرفوق بترجمة فرنســية (N. Seignette، قســنطينة 1878، ص 300.

5- نفسه.

6- سحنون: المصدر السابق، جـ.3، ص 393.

7- الونشريسي: المعيار، ج.8، ص 44؛ و القنطرة هي الجسر، و هو أزج يبنى بالأجر أو بالحجارة، على الماء، يعبر عليـه و قيل القنطرة ما ارتفع من البنيان (ابن منظور: لسان العرب أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خيـاط، ط. بيروت 1408هـ/1988م، المجلد 5، ص 172).

فيما بينهم، على قدر أعراصهم*، إن اشتُرِط الماء في عملية البيع، و إن لم يشترط، أخذ الــذي تمر القناة على عرصته، حصة تلك العرصة المشتراة و بقي البائع على سائر حقوقه يفعل بها مـا يشاء[1].

و قد أورد الونشريسي سؤالا طرح على أحد الفقهاء المالكية، الأستاذ أبي عبد الله الحفار مفاده أن أهل ساقية كانت ترفع من الوادي في إحدى القرى و قد جرت عادتهم، وقت السقي، أي وقت الصيف و الخريف، أن ينظروا ما في القرية من أرض مزدرعة لتقسيم الماء عليها، دون غيرها " على خلاف العادة في سائر الأرض، إذ العادة في غيرها أن قسمة الماء على جميع الأرض، بالقرية، و كل واحد بحظه، زَرَع أو ترك."[2]

و كان الجواب أن مثل هذا التصرف سليم من الناحية الشرعية، على أساس أن " الساقية المأخوذة من الوادي ليست ملكا لأحد، و إنما يُسقى بها ما يُحتاج إلى السّقي، من نبات زرع أو شجر،...، و من لم يزرع فلا يأخذ من الماء بسبب أرضه، و إنما يأخذ و يتصرف فيه بالبيع و غيره، من يملك الماء باشتراك في أصله، أو تكون عين ماء في ملكه قد نبعت فيه أو بوجه من وجوه التمليك، و أمّا ماء الوادي فلا ملك لأحدٍ فيه...".[3]

و على الذين رفعوا الساقية من الوادي سقي " أرضهم منه الأول فالأوّل... إلى آخر أرضهم، ... (و) لغيرهم... أن يسقي أرضه، إذا احتاجت للسّقي، و إن استغنى عنه تركه لمن بعده، و أمّا بيعهُ فليس له، ذلك لأنه لا يملكه و إنما يملك الانتفاع به، و هو السّقي إذا احتاج إليه ".[4]

و يتضح من هذين النصين أن الناس كثيرا ما كانوا يتصرفون في الانتفاع بمياه الأودية، حسب العادة أو العرف، و كانوا يختلفون في القيام بهذه العملية من مكان لآخر و أن تلك العادات لم تكن دائما مطابقة للحكم الشرعي الواضح في هذا الباب و يقضي: أنه لا حق لأحد في ملكية ماء الساقية المأخوذة من الوادي و بالتالي لا حق له في أخذه إذا لم يكن في حاجة إليه

*- العرصة كل بقعة بين الدّور واسعة، ليس فيها بناء، و العرصات جمع عرصة و قيل هي كل موضع واسع لا بناء فيه (ابن منظور: المصدر السابق، مج 4، ص 735)

1- الونشريسي: المصدر السابق، جـ8، ص 44.

2- المعيار ، جـ5، ص 12.

3- نفسه.

4- نفس المصدر، ص 13.

للسقي أي لا حق له في التصرف فيه خارج هذا الإطار، و يكون الحق في الانتفاع بـــه الأول فالأول أي الأعلى قبل الأسفل و هكذا إلى آخر المستفيدين و إذا فضل عنهم فبإمكان غـــيرهم الإستفادة منه مثلهم، في السّقي دون غيره؛ و يسمّى هذا النوع من ملكية الماء " ملكية الانتفاع " أي من حق أصحاب هذه الساقية الانتفاع بمائها في السقي لا غير، أي لا حق لهم في بيعـــه مثلا.

إذا كان الأعلون يسقون مع الأسفلين، منذ مدّة ثم أحدث أصحـــاب العلـــوّ خضـــرا و مَبَاقِلَ سَقَوْهَا مع ثمارهم فأضروا بالأسفلين و حبسوا عنهم الماء منعوا من ذلـــك و قصـــروه على سقي الثمار و الأصول حتى يتموا ثم يرسلوه لمن تحتهم، فلا حق للأعلين في ســـقي مـــا أحدثوه من خضر و مباقل إلاّ بما يفضل عن سقي ثمار الأسفلين.[1]

و إذا كانت لأقوام جنات تسقى بماء واحد من عيون أعلاها، فاقتسموه و عينوا ما لكلّ جنّة منه بحضرة عدول، و كان لبعضهم أرض غير مغترسة، فلم يأخذ حظه وقتئذ، و فيما بعـد غرسها، فلن يكون له من الماء سوى ما يفضل عن أرباب الجنات السابقة عليه[2].

و إذا كان لرجل نهر انحرف إلى أرضه، و جاء آخر و استغل ذلك الماء و تلـك الأرض، بغير إذن صاحبها يكون عليه دفع كراء الأرض، دون الماء، ما دام مـــاء النـــهر فضـــل عـــن صاحبه[3].

و تكون الأولوية لأصحاب الجنات لسقي جناهم من ماء الأنهار على أصحاب الأرحية، فإذا استغنوا عن السقي به صرفَهُ أهل الأرحية إلى أرحيتهم.[4]

و عند تعدّد رفع السواقي من وادٍ واحد، و ما دام ماء الأودية غير متملـــك الأصـــل، و السقي منه الأعلى فالأعلى، و بناء عليه يستأثر " أهل الساقية العليا، بما تحمله ساقيتهم مـــن ماء الوادي المباح الأصل، و يمتلكون ذلك القدر منه بمقتضى السبق، لأن الماء المباح يتملك منـه و تجرّه السواقي، و العليا منها قبل السُّفلى ".[5]

2- الونشريسي: المصدر السابق، جـ .8، ص 391-392.

2- المازوني: الدرر المكنونة، في نوازل مازونة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1335، جـ.2، ورقة 66.

3- سحنون: المصدر السابق، جـ 3، 288-289.

4- الوَنشريسي: المصدر السابق، جـ.8، ص 386.

4- الونشريسي: نفس المصدر، جـ.8، ص 381-382.

و إذا سبق و أن رفع قوم ساقية من وادٍ، لا يكون لغيرهم الحق في رفع ساقية جديدة قبلهم أو فوقهم، في نفس الوادي، لِمَا من شأنه أن يلحق بهم من ضرر، لكن ذلك الإحداث يمكن أن يتمّ برضاهم[1] و ما يقال عن السواقي في مثل هذه الحالة يقال عن السدود المقامة في الوادي الطويل: إذ، عندما يبلغ ماؤه العمران، يُصنَع في أوّله، عادة، سدّ يُلتَقَف ذلك الماء فيه، و تُجرّ منه السّاقية لتُسقَى منها أرضٌ معلومة إلى آخرها، و ينشع، من تحت السدّ، ماء في مجرى الوادي، يصنع منه بدوره سدٌّ آخر يَسْقِي به أربابُه أرضَهم و هكذا إلى آخر الوادي، و بعد إقامة تلك السدود و الغرس عليها، لا يُسمح بإقامة سدود أخرى بينها لِمَا قد يلحق ذلك من ضرر بالأولى.[2]

و عادة ما يكثر ماء الوادي في فصل الشتاء، و يقلّ في الصّيف، و تطرح زيادة عدد السكان عليه، مع الوقت، مشكل نقص الماء، و أحيانا على أبناء الجدّ الواحد: فمتى ردّه الأعلون منهم عن الأسفلين، تضرر الأسفلون، و متى أرسلوه إلى الأسفلين تضرّروا هم أنفسهم؛ و الحكم الشرعي في هذه الحالة أن الأولين أحق بالماء.[3]

و إذا كان كسرُ سدود الماء يحلّ مشكل الأسفلين، دون أن يضرّ بالأعلين، يكون الحكم، في هذه الحالة، الكَسر[4]، وقد حدث و أن احتكم رجلان من وكلاء الضياع أمام الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله، أثناء إحدى جولاته الاستطلاعية التي وصل فيها إلى منطقة تسمى طَنباس[5]. فذَكَر له أحدُهما أن الآخر سدّ بِسَدّه الكبير عن الضياع التي يتولاها ما كانت تشرب به من سيل المطر، و ذكر الآخر أن ذلك من حقّه، و مما يجب عليه أن يفعله فقال المنصور لصاحب السدّ: إذهب فأزل لسدّ واسق ما عندك، و هذا ما عنده، بحسب ما يعطيك الماء و يعطيه.[6]

1- المعيار، جـ5، ص 13؛ جـ8، ص 383.

2- نفس المصدر، جـ8، ص 41.

3- نفس المصدر، جـ8، ص 402.

4- نفس المصدر، جـ8، ص 402-403.

5- غير معروفة (أنظر. القاضي النعمان بن محمد: كتاب المجالس و المسايرات، تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح و محمد اليعلاوى، تونس 1978، ص 60، هامش 3).

6- نفس المصدر، ص 61-62.

و يلاحظ .Capot – Rey R أن السكان المقيمين على ضفاف الأنهار (في أيامنا) لم يمنعوا من استخدام مياهها في الرّي غير أن هذا الحق لم يُمارَس بنفس الطريقة في الصحراء و في التـلّ، فحسب الطريقة التي يمكن تسميتها بالتلية للتبسيط، كما يقول، و المتبعة في الأطلس الأعلـــى و في الأوراس: يمكن للمالك فيها أن يتصرّف كما يريد في مجموع المياه المحتجزة في السدّ الـذي أقامه و لا حق للمقيم الذي يأتي بعده إلاّ في الفضل الذي لم يستعمله الأول؛ و هذا عكس مـا يطبّق في الصحراء حيث لا يكون لكل واحة أو قطاع من واحة سوى جزء محدّد، مرّة واحدة، من حجم الماء الذي يوفره سدّ مُعيّن، و تبقى وضعيّةُ سكان القصور الذين يســـتغلون ميـاه الوديان، داخل الصحراء، عارضةً، و الواقع أن لهم مورد إضافيٌّ في المياه الفجائية، عند حـدوث الفيضانات، و عندئذ يعود المبدأ التلّي إلى الظهور بحيث يصبح لكل مزارع الحق في مجموع مـا يحبسه من ماء في سدّه و لا يسمح بإقامة سدّ فوق سدّ سابق.[1]

مع العلم أن استغلال مِياه الأنهار لم يقتصر على سقي النباتات بل شمل مجالات أخـرى و من أهمها انتفاع أصحاب الدور بها و يحصر الونشريسي هؤلاء المنتفعين في ستة أصناف هي:

أ)- من جرّ من النهر ماءالغسل مرحاضه أو لصهريج (خزّان) في داره و ما أشبه ذلك.

ب)- أصحاب الآبار التي تسري إليها الرّشوحات* أي التّسرُّبات.

جـ)- أصحاب القنوات و المراحيض التي تصبّ في النهر.

د)- المجاورون للنهر و الساكنون عليه.

هـ)- الذين يطرحون الزبل و التراب في أزقتـــهم و شـــوارعهم فتحملـه السـيول و الأمطار حتى تلقيه في النهر.

و)- الذين يسقون منه لشفتهم و يسقون منه دوابَهم و ما أشبه ذلك.[2]

و كان النهر يحتاج بطبيعة الحال، من حين لآخر، إلى كنس لزيادة مّائيه أو إلى إصـــلاح سدوده التي قد تنهار فيقل الماء أو ينقطع تماما عن بعضهم فتكون عندهـــا عمليّتـا الكنـــس و الإصلاح، شرعا، من واجب " من أخذ منه الماء كأصحاب الفنادق و الحمامات أو حمل منه

1- L'Afrique blanche, T.2, pp.348-349.

*- من رشح و معناه نَدى، و منها ندى العرق على الجسم (ابن منظور: المصدر السابق، مج.2، ص 1169.

2- الونشريسي: المصدر السابق، جـ.8، ص 21؛ و يقال اشتفيت به أي انتفعت بصحته و صدقـه (لســان العـرب، جـ.3، ص 338) أي أن معنى شفتهم هو انتفاعهم.

قادوسا لداره لصهريج ... أو لعرصة له، و لا شيء على أصحاب الدور فيما نصبوا على ذلك من الكنف و المراحيض... "[1] و من رفض القيام بواجبه من هؤلاء، لا يجبر على ذلك و إنما يحرم من حق الزيادة الناجمة عن عمل غيره[2] إلا إذا دفع نصيبه من تكلفة الإنجاز؛ و إذا احتاجت الساقية التي تزود ماجل المسجد و كل دار بالماء إلى الكنس يجبر المستفيدون منها على المساهمة في تحمل تكاليف ذلك.[3]

و مما هو معروف كما لاحظ عز الدين أحمد موسى أن أنهار المغرب يغلب عليها طابع عدم الصلاحية للملاحة، خاصة في المناطق الشرقية، و يستخدم عدد قليل منها في النقل لمسافات قصيرة بالمناطق الغربية و كثيرا ما تكون أنهار المغرب حواجز في طرق النقل البري حيث أنها لا تعبر إلا على الزقاق أو الزنبيل، و هو عبارة عن زورق لا يسع أكثر من ثلاثة أشخاص، و هذا ما دفع المرابطين إلى الشروع في بناء الجسور التي أكثر منها الموحدون بعدهم.[4]

و كان للأنهار دور استراتيجي في الحروب ببلاد المغرب، سواء في شكلها الصغير المعروف بالقناة التي ينجزها الإنسان أو في شكلها الطبيعي الكبير، حيث كانت الجيوش تستخدمها كسلاح ضد بعضها البعض لبلوغ أهدافها المنشودة:

من ذلك أن الخليفة الموحدي، عبد المؤمن بن علي، عندما حاصر جيشا مرابطيا بوهران " قطع عنهم الماء، و مات أكثرهم عطشا، و حمل السيف (أي أجهز) على من بقي منهم في ضحى عيد الفطر سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة "[5] (1144-1145م) و ملكها و أقام بها سبعة أشهر ثم زحف على مدينة فاس فحاصرها بدورها حوالي تسعة أشهر ثم راح يقيم سدا على الوادي الذي يشقها فأمر جنوده " أن يسووا الحطب و الخشب و يرفعوا التراب على ذلك،

1-الونشريسي: المصدر السابق، جـ.8، ص 29؛ و الكنيف هو الساتر (لسان العرب، مج.5، ص 304).

2-نفس المصدر، جـ .8، ص 21.

3- نقل H.R. Idris عن كتاب المعيار أن نصيب الدار الواحدة بلغ 2 أو 4 دراهم بفاس في القرن الخامس عشر (Contribution a L'étude de La vie économique en Occident musulman médièval, Revue de L'occident musulman et de La Méditerranée, n^{os} 15-16, 2éme trimestre, 1973, p.87).

4- النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي، ص 216-217.

5- مؤلف أندلسي: مجهول: كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار و عبد القادر زمامة، طـ الدار البيضاء، ص 134.

سدا بعد الآخر، حتى احتبس الماء، و حصر الوادي، فصار الفحص كله بحرا... تجري فيه السفن، و استعان على ذلك بكثرة الآلات و العلم و اتساع الفحص، ثم هدم السد بمرة فوقع عليهم السور... فوقف له أهل فاس على متهدم السور و قاتلوه من خارجها، و لما طال عليهم الحصار، وجه الجياني مشرفها، في خفية لعبد المؤمن فأمنه و أدخله من باب الفتوح... "[1].

فالمصادر الجغرافية العربية، كانت تشير دائما، إذا، إلى مواقع مدن و قرى البلاد المغربية، بالنسبة لموارد مياهها و بالأخص الأنهار، مع إشارتها، عموما، و باختصار شديد إلى ما كانت تلك الأنهار أو الوديان تفيد به السكان في شربهم و شرب حيواناتهم و مزروعاتهم لكنها لم تقدم أية معلومات عن طرق استغلال مياهها، و لحسن الحظ، فإن الكتب الفقهية و بالأخص منها كتب الفقه و النوازل، ملأت هذا الفراغ فزودتنا بمعلومات إضافية عن الطرق التي كان الناس يستغلون بها مياه الأنهار و الأودية.

إذ بينت كيفية تقسيم مياه الأنهار القليلة التي لا تعلو للشرب (أي السقي) إلا بحبسها، اعتمادا على مبدأ الأسبقية، و بقدر معلوم أو بالتناوب أو بتقسيم فم النهر عرضا بخشبة بها ثقب مقدرة حسب حق كل واحد منهم أو أن يحفر كل واحد على وجه الأرض شربا مقدرا، حسب اتفاقهم، و يراعي في التقسيم: مساحة الحقل و عدد مزارعيه و أحيانا بعده عن مصدر السقي.

و عندما يتم جلب الماء من بعيد يكون تقسيمه و أغراض استعماله وفق عقود مبرمة بين المستفيدين و يكون هؤلاء على علم بحقوقهم في الاستفادة و واجباتهم في الصيانة و الكنس، وفق قواعد يحددها الشرع و تأخذ بعين الاعتبار العادة و العرف، و تفضل الانسان على الحيوان و الحيوان على الزرع و تبيح للاحق الاستفادة من فضل ماء السابق، و عندما يكون ضرر يتحمله اللاحق قبل السابق و عادة ما تتكيف تلك القواعد مع الظروف المحلية.

1- مؤلف أندلسي مجهول: المصدر السابق، ص 136؛ Ibn el – Athir : Annales du Maghreb et de l'Espagne, Trad, E.Fagnan, Revue Africaine, no 238-239, Année 1900, p.374.

الباب الثاني

الفصل الثالث

العيون المذكورة في المصادر العربية و طرق استغلالها

عمليّة مسح العيون المذكورة في المصادر العربية لبلاد المغرب:

غالبا ما كانت المصادر العربية، و بالأخص منها المصادر الجغرافية، تشير إلى العيون أثناء وصفها لمختلف المدن و القرى و غيرها من الأماكن التي تطرّقت إلى الحديث عنها و لكنّها قلما تجاوزت مجرّد إشارات عابرة سنعمل على جمعها انطلاقا من النواحي الشرقية، كما فعلنا بالنسبة للأودية و سنحاول التوصل في الأخير إلى القيام باستنباط ما من شأنه أن يساهم في توضيح دورها في استغلال الماء في الفترة المدروسة، قدر الإمكان.

و العينُ هي التي يخرج منها الماء أي ينبوع الماء الذي يجري فوق الأرض[1] . ففي برقة يتحدث اليعقوبي (ق.3هـ/ 9 م) " عن عيون جارية و أشجار و ثمار..."[2] في حين يتحدّث صاحب كتاب الاستبصار (ق.6هـ/12 م) عن كثرة الخصب و الفواكه و المياه السائحة في الجبل الموجود على ستة أميال منها [3] مع العلم أن صاحب هذا الكتاب لم يذكر كلمة العين بالذات غير أن " المياه السّائحة " التي وردت في النص تعني بوضوح أنها نابعة من عيون، و يذكر نفس المصدر بمناسبة كلامه عن أجدابية أن بها عينا عذبة منقورة في صفا (صخر - Roc) " و لها بساتين و نخل يسير "[4] و في نفس السياق يشير كل من ابن حوقل و الإدريسي إلى " مياه جارية و كروم و أعناب طيبة و تين غزير "[5].

و في الناحية الجنوبية الشرقية يشير البكري (ق.5هـ/11 م) إلى كثرة العيون و الثمار بواحة سنترية و بقية أرض الواحات[6] و يلاحظ أيضا أن مدينة " هَل "[7] الواقعة بين مدينتي سبهى و ودان " عامرة كثيرة النخل و عيون الماء "[8].

1- لسان العرب، مج.4، ص 947.

2- كتاب البلدان، ص 347.

3- مؤلف مجهول: ص 29؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit, p.57 .

4- نفس المصدر، ص 30؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.58 .

5- كتاب صورة الأرض، ص 94؛ القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 179-180؛ أنظر الخريطة رقم 1.

6- المغرب، ص 14؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.35-36 ؛ و واحة سنترية معروفة باسم واحة سيوة Sioueh و هي التي تحتوي بقايا معبد Jupiter Ammon الشهير (Ibid, p.35, Note 2).

7- يتوقع Mac Guckin de Slane أن " هَل " قد يكون المسمّى هُون (Houn) في الخرائط الفرنسية التي تحدّد موقعه على خمسة فراسخ شَمال- شمال – شرق سَبهَى و على بُعد فرسخين شرق – شمال- شرق من سُكنى (Sokna) .(Ibid, p.29, Note 4)

8- المغرب، ص 11؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.29 ؛ أنظر الخريطة رقم 7.

و يخبرنا الإدريسي عن " ينابيع و عيون مياه جارية... ينبت عليها الحشيش كثيرا " حول جبل طنطنة الواقع شرق فزّان، و حول هذا الجبل يُصيّف و يربّع قوم رحالة من البربر يسمون أزقار [1] و يسمّيهم ابن سعيد المغربي (ق.8هـ/3 م) أزكان و يحدّد مجالاتهم جنوبي فزان (شرقا) و ودّان (غربا)؛ و في ناحية الجنوب الغربي، من تلك المجالات " جبل طنطنة، و ... يمتدُّ من الشرق إلى الغرب نحو ستّ مراحل، و في شماليه عيون تنحدر منه و تحتها مروج ينبت فيها حشيش كثير ترتاده البرابرة و العربان و يقع الحرب عليه ".[2]

و يذكر المالكي أن عقبة بن نافع، بعد فتحه ودّان و فزّان، أسلم أهلها على يديه و دلّوه على " جاوان "، قصبة كوّار " فسار إليهم خمس عشرة ليلة، فحاصرهم... فصالحهم ثم انصرف راجعا، فأقام بموضع اسمه " ماء فرس " و لم يكن به ماء فأصابهم عطش شديد، أشرف منه عقبة و أصحابه على الموت، فصلى عقبة ركعتين، و دعا الله تبارك و تعالى، فجعل فرسُه يبحث ... في الأرض [حتى] كشف عن صفاة، فانفجر منها الماء، و جعل الفرس يمصّ من ذلك الماء، فانصرف عقبة فنادى في الناس أن احتفروا فاحتفروا سبعين حسيًّا فشربوا و سقوا، و صار ذلك الماء عيناً فسمّي لذلك ماء فرس "[3] و يحدّد دوسلان (de Slane)، بناء على معلومات ابن عبد الحكم، موقع ماء فرس بين فزّان و طرابلس.[4]

و يَرْوي النويري نفس القصة، بطلها نفس القائد، لكن مسرحها وقع أثناء الحملة التي وصل فيها عقبة إلى المحيط الأطلسي، في المكان الذي أطلق عليه بعد ذلك ماء فرس[5] و توجد بالفعل، حسب البارون دوسلان، " عين فرس " بسيدي دَحّو، بين تلمسان و سيدي بلعباس، على الطريق الذي، من المفروض أن يكون عقبة، قد سلكه أثناء عودته من السوس إلى إفريقية.[6]

1- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 93.

2- كتاب الجغرافيا، ص 127.

3- كتاب رياض النفوس، في طبقات علماء القيروان و إفريقية و زهادهم و عبادهم، و نسّكهم و سيّر من أخبارهم و فضلائهم و أوصافهم، نشره حسين مؤنس، القاهرة 1951، جـ1، ص 63.

4- أنظر En- Noweiri : Conquête de L'Afrique septentionale Par les musulmans et L'histoire de ce Pays sous les émirs arabes, Traduit par le baron de Slane, dans Ibn Khaldoum : Histoire des Berberes et des dynastie musulmanes de L'Afrique septentionale, T.1., Appendice II , Paris 1938, p.334, Note 1.

5- Ibid, pp.333-334.

6- Ibid, P.334, Note 1.

و إلى الغرب من فزّان تقع أرض زغاوه و من مدنها سَغْوَه و شامة، و بها قوم رحالـــه يسمّون صدراتة، يقال إنهم بربر، و قد تشبهوا بالزغاويين، في جميع حالاتهم، و لهم في أعلـــى أرضهم جبل لونيا " و في أصل هذا الجبل مياه نابعة تجري غير بعيد ثم تنقطع، و عليـــه أمّـــه تسمى زغو، من قبائل زغاوة، و هم قوم ...، رحالة و الإبل عندهم كثيرة اللقاح... و البقـــول عندهم قليلة... و أكثر ما يزرعه أهل زغاوة الذرّة "[1].

و توجد بمدينة غدامس عين قديمة، أي كانت تستغل منذ عصر التاريخ القديم " يفيـــض الماء منها، و يقسمها أهل البلد قسمة معلومة "[2] عادلة، و كانوا يعتقدون أنه " إن أخذ أحـــدٌ زائدا غاض ماؤها، و أهل المدينة لا يمكنون أن أحداً يأخذ زائدا خوفا من النقصان ".[3]

و غدامس هذه المتوغلة في الصحراء، على بعد 500 كلم من البحر الأبيض المتوســـط، يعود الفضل في وجودها إلى تلك العين التي يقترح E.F. Gautier تسميتها: انبعاثية، فوكلوزية[4] و هي عبارة عن انبثاق الجريان الجوفي للمياه في صخور الهضبة الكلسيّة؛ و ذلك الجريان عميـــق لأن العين معدنية إلى حدّما، و عمل الإنسان هنا لم يضف، عمليا، أيّ شيء إلى عمل الطبيعة[5] فوادي غدامس ينتمي إلى شبكة العصر الجيولوجي الرابع[6] الجزائري لوادي إيغرغـــار الـــذي يفصله عنه سُمك العرق الشرقي.[7]

و تشخّص غدامس وغَات الحدود السياسية الجزائرية الليبية، من الجهة الليبية، و هـــي تقع عند الحافة الشرقية لعرق إيغرغار الكبير، في مجرى الوادي الذي ينـــزل من جبل نفوســـة، و الذي كان، قبل اختفائه تحت الكثبان، يتصل، بدون شك، بإيغرغار الأسفل، و ماء غدامـــس أرتوازيّ[8] مثل ماء الجريد و وادي ريغ لكنه ليس ماء بئر، بل هو ماء عين طبيعية تحت تصرف

1- القارة الافريقية و جزيرة الأندلس، ص 92-93.

2- القزويني: آثار البلاد و أخبار العباد، ص 57.

3- نفسه.

4- فوكلوزية: من فوكلوز في فرنسا، و الينابيع الانبعاثية هي ينابيع جوفية التي تنبعث على غرار ينابيع فوكلوز بفرنســـا (المنهل، ص 1069).

5- L'Afrique blanche, p.137.

6- هو أحدث العصور في تاريخ الأرض (المنهل، ص 851).

7- Gautier : op.cit., p.137.

8- متعلق بالبئر التي تقذف مياهها إلى أعلى من فوهتها (المنهل، ص 71).

الإنسان على الدوام، دون بحث و لا جُهد.[1]

و يفيدنا البكري في حديثه عن مدينة قابس أن " فيها جميع الثمار و الموز بها كثير و هي تُميرُ (تموّن) القيروان بأصناف الفواكه، و بها شجر التوت الكثير، و يقوم من الشجرة الواحدة منها من الحرير ما لا يقوم من خمس شجرات من غيرها... و اتصال بساتين ثمارها مقدار أربعة أميال و مياهها سائحة مطردة يُسقى بها جميع أشجارها و أصل هذا الماء من عين خرّارة من جبل بين القبلة و الغرب (في الجنوب الغربي) منها، يصبّ في بحرها و بها قصب السكر كثير... ".[2]

و في حديث اليعقوبي (ق 3هـ/9 م) عن مدينة قفصة يشير إلى وجود " عيون ماء... و حولها عمارة كثيرة و ثمار موصوفة "[3] لكن الإدريسي (ق.6هـ/12 م) يتحدّث عن عين واحدة بوسط مدينة قفصة و هي العين " المسمّاة بالطّرميذ " مضيفا أن المدينة " يطيف (يحيط) بها نخل كثير يشتمل على ضروب من أنواع التمر العجيب، و لها جمل جنّات، و بساتين و قصور (قرى) قائمة معمورة يزرع بها ضروب من غلات الحناء و القطن و الكمون..."[4].

و الطرميذ هذه بالنسبة لصاحب كتاب الاستبصار (ق.6هـ/ 12 م) ليست سوى إحدى العينين الكبيرتين الموجودتين، من بين عيون كثيرة، داخل المدينة المذكورة و هي تقع تحت قصر (Chateau) المدينة " عليها بناء عجيب قديم بإزائها مسجد... الحواريين و منبع هذا العين من حجر صلد (dure) من ثقب يسع الإنسان، و ينبعث منه بقوّة عظيمة و قد بُني له صهريج..."[5].

1- E.F. Gautier : Le Sahara, p.114.

2- المغرب، ص 17؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., pp.41 ؛ قارن مؤلف مجهول: المصدر السابق ص 3؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.7؛ يذكر الإدريسي أن وادي قابس " يأتيها من غدير كبير، و على هذا الغدير قصر سجّة، و هو ماء غير طيب و لكنه شروب و أهل البلد يستسيغونه (القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس ، ص 180).

3- كتاب البلدان، ص 349.

4- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 178-179.

5- يكتبها صاحب كتاب الاستبصار بالدّال (بدون نقطة)، ص 38؛ في كتبها الإدريسي بالذال بالتنقيط (نفس المصدر، ص 178) أو حسب E. Fagnan فإن هذا الاسم يذكر باسم Thermes (حمامات الحمة) و توجد بقفصة إلى اليوم حمامات ساخنة (op.cit., p.71, Note 2)..

أمّا العين الأخرى فتسمى الوادي الكبير، تقع عند باب الجامع " و هي عين عظيمة مبنية بالصخر الجليل من بنيان الأوائل، سعتها نحو أربعين ذراعا في مثلها، و فوقها عين أصغر منها تسمى رأس العين، و بينهما قنطرة من بنيان الأوائل، و لا شك أن ماءهما واحد، و ماء هذه العين... أزرق شديد الصفا، يُرى قعر العين من أعلاها، و فيها الماء نحو سبعة قيام (قامات) "[1].

و تُغذّي العينان المذكورتان، معاً، نهرا كبيرا و هناك عينٌ أخرى " عظيمة، خارج المدينة تسمّى المنستير، و هي عين كبيرة معينة عذبة يخرج منها نهر كبير، و هذه العين من أحسن ما يُرى من العيون، و هي في جانب النهر الكبير المسمى بوادي بايش ".[2]

و يتحدث البكري (ق 5هـ/ 11 م) عن عين بداخل جامعها " كبيرة مبنية بالصخر الجليل، من بنيان الأول، أربعون باعا في مثلها (40 ذرعا × 40 ذرعا)، و قفصة أكثر بلاد القيروان فستقا و منها ينتشر بإفريقية، و يحمل إلى مصر و الأندلس و سجلماسة و بها تمر مثل بيض الحمام، و هي تمير (تموّن) القيروان بأنواع الفواكه و التمر و حولها أكثر من مائتي قصر (قرية)، عامرة آهلة تطرد فيها و حواليها المياه، تعرف بقصور قفصة "[3] و بمعنى آخر فإن البكري يشير إلى وجود عيون أخرى داخل تلك القصور و خارجها و بفضلها و فضل العيون الموجود داخل مدينة قفصة نفسها صارت تلك الناحية منطقة زراعية هامة تصدر منتوجاتها الزراعية إلى مختلف المناطق و بالأخص القيروان.

و يعتبر ابن حوقل (ق.4هـ/10 م) قسطيلية مدينة كبيرة، ملاحظا أن ماءها " غير طيب و لا مريء، تجري سواقيها في خلال أجنتها، و نخلها أكثر منه بغيرها مما يجاورها "[4] و لا يتحدث عن منابع تلك السواقي؛ أمّا بالنسبة للبكري (ق.5هـ/11 م) فإن قسطيلية بلادٌ أمُّها (قاعدتها) مدينة توزر و " حولها أرباض واسعة... كثيرة النخل و البساتين و الثمار... و حولها سواد عظيم من النخل ...شربها من ثلاثة أنهار تخرج من رمال كالدرمك (Farine) رِقّة و بياضا و يسمى ذلك الموضع بلسانهم سرش، و إنما تنقسم هذه الثلاثة الأنهار بعد اجتماع مياه

1- مؤلف مجهول: ص 38؛ الترجمة الفرنسية(E. Fagnan : op.cit., p.71) .

2- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.71-72 .

3- المغرب، ص 47؛ الترجمة الفرنسية ، Mac Guckin de Slane, pp.100-101 ،

4- صورة الأرض، ص 94.

تلك الرمال بموضع يسمّى وادي الجمال... "[1].

و يفيد الإدريسي (ق.6هـ/12 م) أن مدينة قسطيلية تسمّى توزر، أي أنه يوفق بين كلام ابن حوقل و البكري و " بها نخل كثير جدًّا، و تَمْرها كثير يعمّ بلاد إفريقية، و بها من الأترج الكبير الحسن الطيب، و أكثر الفواكه التي بها في حال معتدلة، و بُقُولها كثيرة... و ماؤها غير طيب و لا مُرْوٍ... "[2] مع الملاحظ أن المصادر الثلاثة المذكورة لا تشير إلى وجود عيون بتوزر قاعدة قسطيلية، غير أن المتأمل في نص البكري يمكنه أن يستنتج أن منابع الأنهار الثلاثة الموجودة في منطقة سرش ما هي إلاّ عيون شبيهة بعيون قفصة و غدامس .

و يصف ابن حوقل مدينة الحمّة بأنها " مدينة غير طيبة الماء "[3] و يضيف الإدريسي أن ماء الحمّة التي تبعد عن توزر بمرحلة صغيرة " ليس بطيّب لكنه شروبٌ قَنَع به أهلُها، و بها نخل كثير و تمر غزير "[4] و يذكر صاحب كتاب الاستبصار أن مياه الحامة (بالألف بين الحاء و الميم) كلّها حامة حارة [5] شديدة الحرارة و ينسب هذه الحامّة إلى بني بهلول و يحدد موقعها ببلاد الجريد، آخر بلاد إفريقية، على طرف الصحراء و يقول عنها بأنها " كثيرة التمر و الزيتون و الفواكه، في المدينة عين كبيرة شديدة الحرارة، فإذا استقى منها الماء برد لحينه و منها يشربون و يسقون غابتهم و غلاتهم... "[6] و يتحدّث نفس المصدر عن " العيون الكثيرة العذبة و المياه السائحة "[7] في بلاد تقيوس، من بلاد قسطيلية، و لها بدورها غابات كثيرة النخل و الزيتون و جميع الفواكه.

1-المغرب، ص 48؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane,op.cit pp.101-102 .

2- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 178.

3- صورة الأرض، ص 94.

4- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 178.

5- مؤلف مجهول: ص 43-44؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.81 .

6- نفس المصدر، ص 37؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.68 .

7- نفس المصدر، ص 43؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.80 .

و لمدينة نفزاوة [1] أو بلاد نفزاوة [2] " عَيْنٌ تسمّى بالبربرية تاورْغي، و هي عين كبيرة لا يُدرَك لها قعرٌ... و هي على نهر كثير النخل و الثمار و حواليها عيون كثيرة، و بقبليها (جنوبها) مدينة أولية (قديمة) تُعرف بالمدينة... و حولها عيون و بساتين "[3].

و هناك عيون جارية، وسط مدينة جلولا التي تبعد عن القيروان بأربعة و عشرين ميلا، و حولها بساتين كثيرة، و قد اشتهرت برَيَاحِينها و خاصةً الياسمين[4] و بها قصب السكر كثير و منها كان يَرِدُ كل يوم إلى القيروان " من أحمال الفواكه و البقول ما لا يُحصى كثرة و حولها الجنات "[5] و بجبل زغوان، بحذاء جزيرة شريك في البرّ، نحو الجنوب [6] أو بين مدينتي تونس و القيروان[7] " قرى كثيرة آهلة كثيرة المياه و الثمار و البساتين"[8]،و يصفه الإدريسي بأنه " أكثر الجبال ماء، و فيه خصب و مزارع،... و كذلك جبل واسلات، و طوله يومان، و منه إلى تونس يومان "[9].

كما أن مدينة سبيبة الواقعة على مرحلتين من القيروان[10] " كثيرة المياه و الأجنّة... و شربهم من عين جارية كثيرة تَسقي بساتينهم و أجنتهم، و هي على مرّ الأيام كثيرة الفواكه... و يغلب على غلاّتهم الكمّون و الكروباء و البُقول و يزرع عندهم الكتان و لهم

1- هكذا يسميها البكري و يحدّد بعدها بستة أيام، غرب القيروان، و بثلاث مراحل عن قابس و بمرحلتي عن نفطة و ثلاث مراحل عن قيطون بياضة (المغرب، ص 47)؛ الترجمة الفرنسية (Mac Guckin de Slane : op.cit. p.101).

2- هكذا يسميها صاحب كتاب الاستبصار، و يعتبر من بلاد الجريد، و من مدنها طُرّة، قاعدة بلاد نفزاوة و بُشرى و إيتمليمن و تبعد عن قسطيلية بمرحلة (مؤلف مجهول، ص 44؛ الترجمة الفرنسية E.. Fagnan : op.cit, pp81-82 .

3- المغرب، ص 47؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane,op.cit. pp.101-102 .

4- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 86.

5- المغرب، ص 32؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, p.71؛ قارن كتاب الاستبصار، ص 9.

6- المغرب، ص 45؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.97 .

7- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 194.

8- المغرب، ص 46؛ حرّف de Slane هنا نوعا ما ترجمه النص العربي حيث ترجمه كما يلي: « Le Zaghouan est couvert de villages trés peuplés, d'arbres fruitiers, de jardins et de sources d 'eaux » (Ibid, p.98).

9- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 195.

10- صورة الأرض، ص 84؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 195.

ماشية كثيرة "[1] و في الطريق إلى سبيبة مرصد يُعرف " بعين التينه و عَيْن تعرف بعين أربـــان، ماء يجري من قنى للأول "[2]؛ و لقرية أو مدينة مرماجنة[3] الواقعة، على مرحلة من سبيبة أيضـا " عيون سائحة، و هي على نظرٍ واسع كثير الزرع و الخيرات ".[4]

و في وسط مدينة أُبّة الواقعة على ثلاثة أيام من القيروان و ستة أميـــال مـــن لُرْبُـس (الأُربس)[5] " عين ماء جارية و منها شربهم و هي غزيرة "[6] و أبّة كثيرة الفواكه و الثمـــار[7] لكن أكثرها صار خرابا وقت الإدريسي (ق.6هـ/12 م)(18) و كذلك الأمر بالنسبة لأهـــل تادمايت، الواقعة على مرحلتين من أُبّه[8]، إذ يشربون من" عيون بها و أكثر غلاتهـــم القمـــح و الشعير ".[9]

و في مدينة تيفاش الأولية (القديمة) الواقعة على ثلاثة مراحل من مدينة أُبّة[10]، توجـــد حسب ابن حوقل، " عين ماء جارية و لهم من الأجنة و البساتين ما يُقوّتهم "[11] لكن البكـــري الذي يجعل موقعها في صفح (سفح) جبل يقول: إن بها " عيون و مزارع كثيرة "[12].

1- صورة الأرض، ص 84؛ الإدريسي: نفسه؛ قارن البكري: المصدر الســـابق، ص 146؛ الترجمـــة الفرنســـية Mac Guckin de Slane,op.cit. p.279. ؛ مؤلف مجهول: ص 48.

2- المغرب، ص 146؛ الترجمة الفرنسية Id .

3- يعتبرها الإدريسي قرية لهوّارة (نفس المصدر، ص 195)؛ في حين يعتبرها صاحب كتاب الاستبصار " مدينـــة كبـــيرة قديمة أزلية (مؤلف مجهول: ص 49؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.89) .

4- مؤلف مجهول: نفس المصدر، ص 49؛ الترجمة الفرنسية I d .

5- المغرب، ص 53؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane,op.cit. p.114؛ يحدّد ابن حوقل موقعها على بعـد 12 ميلا، غرب الأربس (صورة الأرض، ص 87).

6- صورة الأرض، ص 87؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص 193.

7- نفسه.

8- المصدر السابق، ص 193.

9- من أبّة إلى نهر ملاق و منه إلى مدينة تادمايت (المغرب، 53؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane,op.cit. p.114 ؛ و يحدّد الإدريسي موقعها على مرحلتين من الأربُس (المصدر السابق، ص 193).

10- صورة الأرض، ص 87؛ الادريسي: المصدر السابق، ص 193.

11- من أبّة إلى نهر ملاق ثم إلى مدينة تادمايت فإلى مدينة تيفاس (المغرب، ص 53؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.114). صورة الأرض، ص 87.

12- صورة الأرض، ص 87.

و بداخل مدينة الأربس، الواقعة على ثلاثة مراحل من القـــيروان[1] توجـــد " عينـــان جاريتان إحداهما تسمّى عين رباح و الأخرى عين زيّاد، و عين زياد أطيب و عليها معوّلهـم في شربهم و ماؤها صحيح..."[2] و يعتبر الإدريسي هاتين العينين من بين " أعيُن ماء جارية لا تجف " ملاحظا أن " ليس حولها (المدينة) من خارج شجرة نابتة البتّة، و هي على مـــزارع الحنطـــة و الشعير و يُدّخر بها منها الشيء الكثير ".[3]

أمّا مدينة باجة التي تبعد عن القيروان بأربع مراحل[4] و تقع على جبل عين الشّـــمس ففيها " عيون الماء العذب، و من تلك العيون عين تعرف بعين الشمس و هي تحت سور المدينة، و الباب هناك ينسبُ إليها... و في داخل الحصن عينٌ أخرى عذبة غزيرة الماء... و فيها خمســـة حمامات ماؤها من العيون و فنادق كثيرة و بها ثلاث رحاب لبيع الأطعمة و عيون خارجـــها لا تحصى كثرة و هي دائمة الدُّجن (سحب) و الغيم (ضباب) و الأمطار و الأنداء... و حولهـــا بساتين عظيمة تطرد فيها المياه..."[5] و على مرحلة من باجة تقع باسْلي(Baseli)و هي قـــرارات (مجموعة سكنات) للبربر ببلد ورداجة " على عيون عذبة "[6].

و ممّا سجله ابن حوقل وجود " عيون و مياه جارية كثيرة و قمح و شـــعير و غـــلات صالحة " في قرية أركوا[7]، بين مدينتي قصر الافريقي و تيجس و بهذه المدينة الأخيرة " مـــاء

1- المغرب، ص 53؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane,op.cit. p.114 .

2- يكتبها البكري لُربس و هي Laribus باللاتينية؛ و يحدد موقعها بثلاثة مراحل عن القـــيروان (المغـــرب، ص 46؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.99) ؛ و يكتبها ابن حوقل الأربس و يحدد موقعها بنفس المسافة تقريبا، عن القيروان (صـــورة الأرض، ص 86-87) .

3- صورة الأرض، ص 87.

4- المصدر السابق، ص 192.

5- نفس المصدر، ص 193.

6- من القيروان إلى قرية منستير عثمان ست مراحل و من هذه الأخيرة إلى باجة ثلاث مراحل (المغـــرب، ص 55-56؛ الترجمة الفرنسية، Mac Guckin de Slane,op.cit. pp.118-119 ؛ و يلاحظ مترجم البكري أنه ينبغـــي قـــراءة مرحلة بدل ست مراحل (بين القيروان و منستير عثمان) (أنظر Ibid, p.118, Note 1) فإذا أخذنا بعين الاعتبار هـــذه الملاحظة تصبح المسافة التي تفصل باجة عن القيروان أربع مراحل و ليس تسع مراحل.

7- صورة الأرض، ص 87؛ يسمي الإدريسي هذه القرية أرْكو (المصدر الســـابق، ص 196). و قـــد تكـــون اللفظـــة الصحيحة هي " أرْكُو ".

جار من عين تُعرف بتبودا و في وسط المدينة ماء كثيره من عيْن طيّبة "[1] و على مرحلة منــــها قرية نمزدوان[2] " و لها بالبعد منها عيون و شربهم منها و لها قمح و شعير " [3].

و تحدّث نفس المصدر عن كثرة مياه قرية مسكيانة، الواقعة بين مدينتي تِيجَس و بَاغَايْ فأفاد أن ماءها من " عيون فيها من الحوت الكثير الرخيص " [4] كما أفاد الإدريســـي بوجــود " زُرُوعَ و مكاسب و عيون "[5]؛ أمّا باغاي فهي مجاورة لجبل أَوْرَاس وهو " منها على أميــال و فيه المياه الغزيرة و المراعي الكثيرة..."[6] و من الأوراس،، حسب المقدّسي، " يجري إليها الماء، و هي كثيرة البساتين "[7] و يجعلها صاحب كتاب الاستبصار، تحت جبل أوراس و لها أنهـــار (Ruisseaux) عامرة إلى جانب عيون و مزارع و مسارح[8] و على مرحلة من باغـــاي تقــع مدينة دار ملول القديمة و " ماؤها من عَيْنٍ بها "[9] و يصف الإدريسي دار ملول هذه التي يُحدّد موقعها على مرحلة إلى الشرق من مدينة طبنة بأنها " كانت فيما سلف مـــن الدّهـــر مدينـــة عامرة... و شربهم من ماء عيون بها..."[10] مما يدُلّ على أنها لم تعُد كذلك في عهده.

و عند وصف البكري لمدينة باديس، الواقعة بين مدينة تهوذا، قرب بســــكرة، و بـــين قيطون بيَّاضة، أو بلد سماطة يذكر أنها عبارة عن حصنين " لهما... مزارع جليله يزدرعون بهـــا الشعير مرّتين في العام على مياه سائحة كثيرة عندهم "[11] دون أن يشير إلى مصدر أو مصـــادر

1- صورة الأرض، ص 87.

2- نفسه؛ يسميها الإدريسي قرية البردوان و يحدّ موقعها في منتصف الطريق بين أزْكو (أركو) و قرية النهرين، على بعــد مرحلة منهما (المصدر السابق، ص 196).

3- نفسه.

4- نفس المصدر، ص 84.

5- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 196.

6- صورة الأرض، ص 84-85؛ يحدّد الإدريسي طول جبل أوراس بنحو إثني عشر يوما و يصفه مياهه بالكثيرة (نفـــس المصدر، ص 165).

7- Al – Muqaddasi: op.cit., p.20, Trad, p.21 .

8- مؤلف مجهول: ص 50؛ الترجمة الفرنسية .E Fagnan : op.cit., p.92.

9- صورة الأرض، ص 85.

10- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 164-165.

11- المغرب، ص 74؛ يتسر Mac Guckin de Slane " المياه السائحة " بـــ (Nombreux ruisseau) أي سواقي أو شعاب عديدة (op.cit., p.152).

تلك المياه، و نفس الشيء فعله عندما تعرّض لوصف مدينة نفْطة الواقعة على مرحلتين من قيطون بيّاضة حيث ذكر أن " بها... حمامات كثيرة، و هي كثيرة المياه السائحة و شرب جميع بلاد قسطيلة بوزْن إلاّ نفطة فإن شربها جُزاف... إلى مدينة توزر، آخر إقليم بلد قسطيلية... و بينها و بين بسكرة خمسة أيام ".[1]

كما لم يشر ابن حوقل أيضا إلى مصادر مياه مدينة طبنة [2] مع وصفه لها بأنها كثيرة " البساتين و الزروع و القطن و الحنطة و الشعير... و أكثر غلاتهم السّقي و يزرعون الكتان و جميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة، و كانت وافرة الماشية... "[3] لكن البكري يوضح أن بساتينها تُسقى من نهرها و لم يشر إلى وجود عيون بها.[4]

و على مرحلة من طبنة تقع مدينة اللّوز نقاوس، إلى الشرق من حصن بلّزمة[5]، " و لهذه مياه كثيرة و أجنّة عظيمة و بها جميع الفواكه كاللّوز و الجوز و الكروم، و زرعهم غزير كثير، و مدينة بلزمة حصن... له ماء جار... في وسط فحص... و زروعهم تسقى بمائهم ".[6]

و من مدن الزاب مدينة ميلة[7]، على مرحلة من قسنطينة[8] و أربع مراحل من قلعة بني حماد شرقا[9] و على بابها السفلى، بداخلها عين أبي السباع " مجلوبة تحت الأرض من جبل

1- المغرب، ص 74-75؛ Mac Guckin de Slane, pp.152-153 ؛ مع ملاحظة أن المترجم هنا لم يوفق في ترجمة " و هي كثيرة المياه السائحة، و شرب جميع بلاد قسطيليه بوزن إلاّ نقطة فإن شربها جزاف " حيث ترجمها كما يلي:

"Il ya tant de ruisseaux, que l'eau se distribue, sans étre mesurée, tandis que dans le reste de la province de Castiliya, elle se vend au poids"

2- يعتبرها الإدريسي مدينة الزاب أي عاصمتها، و يحدّد موقعها من المسيلة بمرحلتين و من بجاية بستّ مراحل و من باغاية بأربع مراحل شرقا، أي أنها تقع إلى الغرب من باغاية أو (باغاي) (القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 164).

3- صورة الأرض، ص 85؛ فإن الإدريسي: نفس المصدر، ص 164.

4- المغرب، ص 50؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.107-108

5- صورة الأرض، ص 93؛ ؛ تحدّ الخرائط (الفرنسية) موقع قصر اللّوز على بعد فرسخين، جنوب غرب مدينة باتنة (Ibid , p.108, Note 1)

6- صورة الأرض، ص 93.

7- اليعقوبي: كتاب البلدان، ص 351.

8- المغرب، ص 63؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit., p.132 .

9- الإدريسي؛ المصدر السابق، ص 165.

بَني ياروت يَشق منها سوقها ساقية، فإذا قلّ الماء في الصيف أجريت يوم السبت و الأحد من الجمعة (الأسبوع) لا غير [1] " و لها حمامات في ربضها " و بها عين تعرف بعين الحُمَّى يَسرش منها على المحموم فيبرأ لبركتها و شدّة بردها "[2] و سواحل البحر تقرب من هذه المدينة، و لها من المراسي جيجل و مرسى قلعة خطاب و مرسى اسكيكدة و مرسى دهاجة و " هذا البلد كله عامر... و هم في جبال و عيون "[3].

و على مرحلة من مدينة ميلة، في الطريق الذي يربط بينها و بين قلعة بني حماد، تقع مدينة سطيف القديمة[4]، أو حصن سطيف[5] و هو كثير المياه و الأشجار المثمرة و به " عين ماء جارية "[6]؛ أمّا قلعة أبي حماد نفسها فإن المصادر لم تتوقّف عندها في حديثها عن العيون غير أن L. Golvin أثناء محاولته كشف " لُغز " تَزوّدها بالماء، على حدّ تعبيره، يفيد أن عيونا كثيرة توجد على طول واد فرج Fredj و قرب قرية الفاضل (Al – Fadel) لكن منسوبها ضعيف لدرجة أنها تكفي بصعوبة سكان بعض الضيعات الصغيرة، في وقتنا، و لا توجد، بضواحي القلعة عين قادرة على تموين تجمّع سكاني هام [7].

و مرسى بجاية هو ساحل قلعة أبي طويل (قلعة بني حماد) ، يقع بين مرسى الدجاج و مرسى بونة (عنابة)[8] و مدينة بجاية تشرف على فحص، أحاطت به جبال، دَوْرُه (محيطه) حوالي عشرة أميال " تسقيه أنهار و عيون و فيه أكثر بساتينهم... و هذا الجبل أميسون الذي فيه بجاية... فيه مياه سائحة و عيون كثيرة و بساتين "[9].

1- المغرب، ص 64؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit., pp.133-134؛ بالنسبة لصاحب كتاب الاستبصار فإن هذه العين من بناء الأوائل لها سَرْبٌ (Grand Conduit) يُدْخل فيه فلا يوجد له آخر و لا يعلم من أين يأتي ذلك الماء، و يقال إنه مجلوب من جبل بالقرب منها يُسمّى تامرُوت... (مؤلف مجهول: ص 53-54؛ الترجمة الفرنسية E.. Fagnan : op.cit., p.97).

2- المغرب، ص 64؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit., p.134 .

3- اليعقوبي: المصدر السابق،ص 351.

4- مؤلف مجهول: ص 54؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.98 .

5- هكذا يسمّيه الادريسي و يحدّد موقعه بمرحلتين جنوب بجاية (القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 160).

6- نفس المصدر، ص 157.

7- Le Maġrib central à l'époques des Zirides, p.139.

8- المغرب، ص 82؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.p.166-167 .

9- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 21؛ الترجمة الفرنسية E . Fagnan : op.cit., pp.36-37 .

و يسجل البكري، غربي بونة الحديثة (عنابة)[1] و جود " ماء سائح يسقي بساتين و هو مُستنـــزه حسن و يطل على بونة جبل زغوغ و هو كثير الثلج و البَرَد "[2]، و في أول مرحلـــة من مدينة بونة في اتجاه القيروان تقع زانة، و هي " خصوص (أخصاص) و قرارات (مســـاكن) للبربر، بها عيون ماء ".[3]

و قد روى البكري عن أبي جعفر أحمد بن محمد بن أبي خالد المتطبِّـــــب " أن عندنـــا بالمغرب ببلاد كتامة عين الأوقات معلومة، إنما يجري ماؤها خمس مرّات في اليوم و الليلـــة، في أوقات الصلوات الخمس، و تنقطع ما بين ذلك... و قد حدّث جماعة ممّن قصد إليها و رآهـــا و وقف عليها بمثل ذلك "[4] و تقع تلك العين في جبال كتامة على مرسى سبيبة الواقـــع بـــين مرسى بجاية و مرسى جيجل.[5]

أمّا مدينة الغدير أو غدير ورّوا (ورّو). الواقعة في آخر مرحلة من الطريق الرابط، بـــين القيروان و قلعة بني حماد، و على بعد مرحلة من هذه الأخيرة، و على مرحلتين من طبنة، بـــين جبال أحدقت بها، ففيها، حسب البكري، " عَيْنٌ ثَرَّة (غزيرة) عذبة، عليها الأرحـــاء و عـــين أخرى و تحتها عين خرّارة (يسمع خريرها) يقال لها عين مخلّد تجتمع فيها (في المدينة) و مـــن هناك منبعث نهر سهر و بمدينة الغدير جامع و أسواق عامرة و فواكه كثيرة..."[6].

و نهر سهر هذا " هو نهر المسيلة و هو المعروف بالوادي الرييس "[7] و تقع مدينة المسيلة على ثلاث مراحل من حصن أشير[8] و هي أقرب بلاد الزّاب من قلعـــــة بني حمّـــاد[9]

1- تقع على بعد ثلاثة أميال من مدينة بونة (القديمة) التي كانت تسمّى في عهد البكري (ق.5هـ/11 م) مدينـــة زاوي (المغرب، ص 55؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.p.116-117) .

2- نفسه؛ قارن مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 17.

3- المغرب، ص 54؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.116 .

4- المغرب، ص 33؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.p.73-74 .

5- نفس المصدر، ص 82؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.167 .

6- المغرب، ص 59-60؛ الترجمة الفرنسية، Ibid, p.125 ؛ يسمي صاحب كتاب الاستبصار النهر الذي تجتمع فيـــه عيون الغدير سهور (مؤلف مجهول، ص 54؛ الترجمة الفرنسية E . Fagnan : op.cit, p.98 .

7- المغرب، ص 54؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.115 .

8- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 155.

9- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 60.

ولأهلها، حسب الإدريسي " ... جنات و عيون..."[1]، و في الطريق الواصل بين مدينة المسيلة و مدينة تنس يتحدث نفس المصدر عن " مياه جارية "[2] بقرية ماورغة التي تبعد عن المسيلة في اتجاه مدينة تنس بثلاث مراحل، كما يتحدّث عن " حروث ممتدّة و فواكه و بساتين... و .... مياه كثيرة و عيون مطْردة "[3] بقرية ريغة على بعد أربع مراحل في نفس الاتجاه.

و بالقرب من حصن موزية، على مرحلة، غرب مدينة المسيلة، يقع قصر العطش " حوله ماء مالح و مدينة عظيمة للأول (قديمة)... تسمى مدينة الرمانة، تنفجر تحتها عيون ثرّة (غزيرة) طيبة تسيل إلى المدينة "[4]و في شرقي المسيلة مدينة آدنة " كثيرة الأنهار و العيون العذبة، هناك عين الكتان، عين عذبة في مفازة عليها أربع نخلات، و بينها و بين المسيلة مرحلة... و بين عين الكتان و آدنة... عين الغزال "[5].

و على مرحلة من المسيلة، في الطريق الذي يربطها بمرسى الدّجاج، تقع " أوزقور و هي عين عذبة باردة، عليها شجرة عظيمة "[6] و على مرحلة منها، في نفس الاتجاه دائما، توجد مدينة سوق ماكسن، على وادي شلف و " لها عيون "[7] و على مرحلة من المسيلة، في الطريق من إفريقية إلى تاهرت، تقع جوزا، و " هو منهل ينزله الناس و ليس به سكان و " فيه ماء من عيون عذبة[8] و بعد جوزا بمرحلة نجد قرية هاز، و " فيها ماء عيون مسجونة "[9] و بعدها بمرحلة تقع قرية جرتيل و هي " كثيرة... المياه، و شربهم من عيون بها "[10]، و بينها و بين

1- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 156.

2- نفس المصدر، ص 155.

3- نفسه.

4- المغرب، ص 143؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p257 .

5- المغرب، ص 144؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.276 .

6- المغرب، ص 65؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.135 ،

7- نفسه؛ الترجمة الفرنسية I d .

8- صورة الأرض، ص 86.

9- نفسه يذكر ابن حوقل أن قرية هاز صارت في وقته (ق 4هـ/10 م) مفازة (نفسه)؛ و يحدد الإدريسي موقعها بين قرية سطيف و مدينة المسيلة، على بعد مرحلة واحدة من كل منهما (القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 157).

10- نفسه.

تاهرت مرحلتان.[1]

و بعيدا عن المسيلة، في جنوبها الغربي [2] تقع مدينة واركلان و هـــي " بـــلاد نخـــل و محمضات و مياه تنبع على وجه الأرض فيصعد الماء كالسهم إلى أمد طويـــل و يســيح في المزارع ".[3]

و بداخل مدينة أو حصن أشير الذي تحيط به جبال شامخة عينان قديمتان " مـــن بنـــاء الأول "[4] " ثرّتان (غزيرتان) لا يبلغ لهما غور و لا يدرك قعر، إحداهما تعرف بعين ســـليمان و الأخـــرى بعـــين تالانتـــيرغ "[5] أي العـــين الصفـــراء و هـــي تســـمية بربريـــة محضة.[6]

و بالقرب من أشير مدينة مليانة[7]، في سفح جبل زكّار، و منه تنبعث عـــين خـــرّارة عظيمة تطحن عليها الأرْحية لقوّتها، و بمدينة مليانة مياه سائحة و أنهار و بساتين، فيها جميـــع الفواكه، و هي أخصب بلاد إفريقية "[8]؛ و بالقرب من أشير كذلك، على بعد مرحلة، قريـــة ابن مجبر، و هي كثيرة الزرع عذبة المياه و " شربهم من العيون ".[9] و بالقرب من أشير، دائمـــا على مرحلتين منها توجد مدينة قزرونة، على نهر متيجة، " و فيها عيون سائحة و طـــواحن

1- صورة الأرض ص 86.

2- في شرقي مدينة واركلان بلاد ريغ، طولها نحو خمسة أيام، و في شرقيها مدينة بسكرة، قاعدة الزاب، في شماليها مدينـــة المسيلة (ابن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا، ص 126.)

3- نفسه.

4- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 58؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit, p.105 .

5- المغرب، ص 60؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.p.126-127 .

6- أنظر Mac Guckin de Slane : op.cit, p.127, Note 2 .

7- كتاب الاستبصار، ص 59؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.106؛ من أشير إلى سوق هوّارة، إلى قريـــة سوق كرام إلى مدينة مليانة (المغرب ص 60-61؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p. 127 ؛ و قد تمّ التعرف عليها مع مدكورة أو مطغرة (E. Fagnan : op.cit., p.106, Note 1) .

8- نفسه؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.106 .

9- الإدريسي: المصدر السابق،ص 157.

ماء... إلى مدينة آغزر... إلى جزائر بني مرعنّى "[1] على سيف البحر " و لها عيون على البحر طيبة و شربهم منها "[2] كما أن مرسى الدّجاج التي تبعد عن مدينة أشير بخمس مراحل و عن مدينة المسيلة بأربع تحتوي على " عيون طيبة ".[3]

و على ثلاثة مراحل من مليانة، تقع مدينة قارية و هي " لطيفة، ذات أعين كثيرة، و هي في صفح (سفح) جبل "[4] و على مرحلة منها تقع مدينة تنس و يذكر البكري (ق.5هـ/11 م) أنّ بعدها عن البحر " ميلان... و هي على نهر...و ...هي التي تسمى تنس الحديثة ".[5] و على البحر حصن " يذكر أهل تنس أنّه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة "[6] في حين يعتبر الإدريسي(ق.6هـ/12 م) المدينة واقعة " على مقربة من ضفة البحر الملح و على ميلين منه، و بعضها على جبل، و قد أحاط بها السور، و بعضها في سهل الأرض... مدينة قديمة أزلية... و شرب أهلها من عيّن، و لها من جهة الشرق واد كبير، كثير الماء "[7] أي أن المصدرين يتحدّثان عن نفس المدينة لكن الأول يميّز بينها و بين القديمة و الثاني يعتبرها واحدة؛ و عند الخروج من باب تنس الشرقي المعروف بباب الخوخة توجد " عين تُعرف بعين عبد السلام ثرّة عذبة ..."[8]، و في المرحلة الأولى، بين تنس و أشير عن طريق الساحل تقع مدينة بني جليد اسن " و هي بلدة طيبة بها عيون عذبة ".[9]

1- المغرب، ص 66؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.136 ؛ يسميها ابن حوقل جزائر بني مزغناي (صورة الأرض، ص 76) و يسمّيها المقدّسي، جزائر بني مزغناية (op.cit., p.20 , Trad, p.21)) و يسميها الإدريسي جزائر لبني مزغنّة (القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 159).

2- صورة الأرض، ص 76 ؛ Al- Muqaddasi ؛ يضيف الإدريسي إلى العيون العذبة آباراً (القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 159) و يقتصر البكري على ذكر عين واحدة (المغرب، ص 65).

3- المغرب، ص 65؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.135 .

4- المغرب، ص 61؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.128 .

5- أسسها البحريون الأندلسيون سنة 262 هـ/ 875-876 م (المغرب، ص 61؛ الترجمة الفرنسية I d).

6- نفسه؛ الترجمة الفرنسية، Id.

7- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 152-153.

8- المُغرب، ص 62؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.131 .

9- نفس المصدر، ص 69؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.141 .

و تفصل مدينة تنس عن مدينة تاهرت خمس مراحل[1] و تفصل هذه الأخيرة عن تلمسان خمس مراحل، و عن البحر أربع مراحل و عن أشير زيرى ست مراحل"و هي تقع بين جبال و أودية و شرب أهلها، حسب اليعقوبي (ق.3هـ/9 م) " من أنهار و عيون تأتي بعضها من صحراء و بعضها من جبل قبليّ، يقال له جزّول، لم يجذب زرع ذلك البلد قط إلاّ أن يصيبه ريح أو بَرَد "[2]و يميّز المقدسي (ق.4هـ/ 10 م) بين كورة تاهرت و بين قصبتها التي " نبعت حولها الأعين " كما يميّز بين تاهرت و تاهرت السُّفْلى " ذات أعين و بساتين "[3]؛ و يذكر ابن حوقل (ق.4 هـ/10 م) أن " ميّاها كثيرة تدخل أكثر دورهم "[4] دون أن يميّز في هذا الباب بين المدينتين القديمة و الحدثة .

و قد لاحظ G. Marcais et A. Dessus Lamare أن الوادي الدّائم الذي أبقى التجمعات السكنية القديمة في أماكنها، مثل دمشق و قرطبة، انعدم في تاهرت القديمة التي كانت قلعة بيزنطية، فعين طُلبة Tolba لم تلد سوى وادٍ صغير و مؤقت " و المدينة ينقصها الماء الشروب " كما كتب سنة 1912 صاحبُ دراسة أُحادية (Monographie)[5]، و خضرها و فواكهها تأتيها مِنْ تاقدمت أي تاهرت الحديثة.[6]

و قد استمر مشكل الماء الذي كان، على ما يبدو، العامل الحاسم في اختيار موقع المدينة، يشغل بال الرستميين؛ إذ أن وادي تاتُش، وادي تيارت في الخرائط (الفرنسية) يجري خارجها، و كان يُمكّن من سقي الأجنة و المزارع لكنّه لم يكن يزوّد المدينة إلاّ بموارد غير كافية، و صعبة الاستغلال، و كانت بداخل المدينة، لحسن الحظ، عيون كان بالإمكان تَهْيئَتها و قد هيِّئت بعناية كبيرة فعلا.[7]

1- المغرب، ص 63؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.141

2- الإدريسي: المصدر السابق، ص 156-157؛ حسب اليعقوبي فهي تبعد عن البحر بثلاث مراحل (كتاب البلدان، ص 358).

3- كتاب البلدان، ص 358.

4- صورة الأرض، ص 86.

5- صاحب هذه الدراسة هو p. Barette (Monographie de La région de Tiaret, Bulletin de) (société de géographie d'Alger, 1912 , T.17.

6- G. Marçais et A.Dessus Lamare: op.cit., p.27.

7- Ibid, p.28

و في المرحلة الثانية: في الطريق، بين الغُزّه و تاهرت تُوجد " عين الصبحي، عين خـرّارة في سفح جبل لمطماطة "[1] و الغُزّة، ساحل تاهرت يبعد عنها مسافة يومين[2] و بالقرب منـــها قلعة مَغِيلَة دلول، في أعلى جبل منيف " و بها عين ماء تسمّى عين كُردي "[3] على بعد يومـين من مدينة مستغانم " ذات عيون و بساتين و طواحين ماء و يبذر في أرضها القطن ".[4]

و في المراحل السبع التي تفصـــل مدينـــتي تنـــس و تلمســـان يلاحـــظ الإدريســـي (ق.6هـــ/ 12 م) وجود " عيون و مياه كثيرة و فواكه و زروع "[5] بمدينة يَلّل، على ثـــلاث مراحل من تنس لكن ابن حوقل، قبله (ق.4 هـــ/10 م) يذكر أن سقيها من عين الصفصـــاف، و أن لها " عينٌ و أنهار و أشجار "[6]؛ و بعد مرحلتين أُخرتين، في نفس الاتجاه، و قبل الوصول إلى تلمسان بمرحلتين تقع قرية سَنَى و بها " العيون... و المياه تطرد في كلّ جهة "[7]؛ أمّا قريـــة العلويين التي تقع في هذا الطريق، على بعد ست مراحل من مدينة تنس و مرحلة واحدة مـــن تلمسان[8] فيذكر ابن حوقل أنها على نهر " و لها أجنّة و عيون "[8] و على مرحلتين مـــن قريـــة العلويين توجد قرية " عيون سي " و هي كبيرة " لها عيون و مياه تطرد "[9].

و إلى الشرق من مدينة أرشقول، ساحل تلمسان، تقع مدينة واســـلن، حســـب ابـــن حوقل[10] أو آسلن، حسب البكري[11] " و لها عين تجري بينها و بين البحر... و على مرحلتين

1-المغرب، ص 66؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op. Cit., p.137.

2- نفس المصدر، ص 69؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.142 ؛ يعلق Mac Guckin de Slane على هذا التقديـــر بقوله إن المسافة التي كانت تفصل تاهرت عن مدينة شلف كان تقطع في ثلاثة أيام على الأقل و من مدينة شلف إلى الغـزة مسافة يوم (Ibid, p.142, Note 4).

3- المغرب، ص 69 يسمي هذه العين على الخرائط (الفرنسية) عين كردو و تقع على فرسخين شمال مازونة و على بعـــد 3 أو 4 فراسخ، جنوب- شرق مصب وادي الخميس (Ibid, p.143, Note 1).

4- البكري: نفس المصدر، ص 69؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.143.

5- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 152.

6- صورة الأرض، ص 89.

7- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص .

8- صورة الأرض، ص 89؛ المغرب، ص 71؛ المغرب، ص 71؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op. Cit., p.146.

9- نفسه.

10- نفس المصدر، ص 78.

11-المغرب، ص 81؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.159.

من آسلن مدينة فَكّان... و هي صفح (سفح) جبل أوشـــيلان و هـــو بجوفيـــها (شمالهـــا)... و بقبليها (جنوبها) نهر سيرة، و منبعه من عيون بشرقها..."[1] و من جهة مرسى آسلن الشـــرقية يقع مرسى الماء المدفون " و له عيون ماء يسيل في البحر ".[2]

و نهاية المرحلة الأولى، من الطريق الرابط بين تلمسان، شرقا و تاهرت، قرية تـــادرة " و هي في حضيض الجبل، فيها عين ماء خرّارة ".[3]

و من أرشقول أو أرجكوك، غربا تقع مدينة مليلة و " فيها عين عظيمـــــة "[4] أزليـــة (قديمة) و منها شربهم[5] و إلى الشرق من أرشقول تقع مدينة وهران التي يصفها البكري بأنّها " ذات مياه سائحة و أرحاء ماء و بساتين "[6] دون أن يذكر مصدر تلك المياه، و على مرحلة إلى الشرق منها في " الطريق... إلى القيروان " قرية تانسالمت و " بها... عين عذبة ".[7]

و بعد ثلاثة مراحل من تلمسان، غربا، تقع مدينة وجدة[8] و هي، حســـب صـــاحب كتاب الاستبصار " قديمة أزلية، كثيرة الجنّات و المزدرعات، كثيرة المياه و العيون "[9].

و على ميلين غرب مدينة سبتة يقع حسب الإدريسي، جبل موسى " و تجاوره جنـــات و بساتين و أشجار و فواكه كثيرة... و يُسمّى هذا المكان... بليونش، و بهذا الموضـــع ميـــاه جارية و عيون مطردة، و خصب زائد "[10] و يقدّر صاحب كتاب الاستبصار بُعد قرية بليونس عن مدينة سبتة بِستّة أميال و يفيد أن الخليفة الموحّدي أبا يعقوب أمر بجلب الماء منها إلى مدينة

1-المُغرب، ص 79؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.159-160 .

2- نفس المصدر، ص 81؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.163 .

3- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 157.

4- صورة الأرض، ص 78.

5- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 253.

6- المغرب، ص 70؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit, p.144 .

7- نفس المصدر، ص 71؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.146 .

8- المغرب، ص 87؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.176 .

9- مؤلف مجهول: ص 66؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.117 .

10- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 247-248.

سبتة سنة 580هـ/ 1184 م في قناة تحت الأرض، حسب ما فعله القدماء في قرطاجنة و غيرها [1].

و بالقرب من مرسى بليونش موضع يعرف بالقصر " على خندق يجري فيه ماء كثير في الشتاء و يقلّ في الصيف... ثم موضع يعرف بماء الحياة، عيون على ضفّة البحر منبعثة بين أحجار من تحت شرف (رَبْوة= Colline) رمل، طيبة، عذبة، يصل إليها الموج و ينبط (يتدفق) الماء العذب من هذا الرمل بأيسر حفر... ثم مرسى لطيف يُعرف بمرسى دنّيل، بإزائه، في البرّ، قرية تعرف بهوّارة... و بها عيون عذبة... ثم حجر نابت في البحر... ثم سبتة ".[2]

و بالقرب من سبتة أيضا، من ناحيتها الغربية، تقع مدينة تطاوان[3]، على أسفل واد راس أو وادي مجكسة، على بعد عشرة أميال من البحر " و بها مياه كثيرة سائحة، عليها الأرحاء، و يجو فيها (شمالها) جبل... بلاط الشوك... و بين مدينة تطاوان و جبل الدرقة ... سكّة (موقف الأبدال)، و هو قاعدة بني مرزوق بن عون... و سكناهم منه بموضع يقال له صدينة، قرية ذات مياه سائحة، و أطيبُ تلك البلاد مزارع..."[4].

و بالقرب من صدينة تقع مدينة و يناقام " في صفح (سفح) جبل و لها ثمار و مياه كثيرة، و هي على نهر سهور... و بين ويناقام و جبل الدرقة ميلان... و بين الدرقة و طنجة سكّتان "[5]؛ و من المنازل (مراكز) المعمورة، ما بين سبتة و طنجة، جبل مترازة " و هو جبل و عرٌ، كثير الشجر و المياه "[6]، و من هذا الجبل إلى البحر المعروف بالزقاق (مضيف جبل طارق)، جبل عين الشمس، و به " عين الشمس، عيْن ثرّة (غزيرة) في قرية نصر بن جرو... و بها جامع و بساتين كثيرة... و من سبتة إليها مرحلة "[7].

1-مؤلف مجهول: ص 23؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., pp.49-50 .

2- المغرب، ص 106؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op.cit, p.208 .

3- و تعني تيطاوين بالبربرية العين البشرية أو عين الماء (Ibid, p.210, Note 2).

4- المغرب، ص 107؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.210.

5- البكري: المصدر السابق، ص 107؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.211 .

6- نفس المصدر، ص 108؛ الترجمة الفرنسية، .Ibid, p.212 .

7- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.213 .

و ماء طنجة مجلوب إليها في قناه " من مكان بعيد، لا يُعلم أصلها، و لا يعرف من أيـن مجيئه، و إنما يظنّون جهاته، و هي خصبة "[1]، و كان ماء تلك القناة الكبيرة يصبّ في صهريج، و كان لمدينة طنجة أيضا " عين ماء طيب يُسمونه برقال، حمل شناعة الحمق، فيقال لمن تهـافت منهم شربت ماء برقال لا جناح عليك ".[2]

و إلى الغرب من طنجة مدينة أصيلة، و أوّل مـا يلقـى المسـافر منـها إلى طنجـة واديها(وادي أصيلة) ثم وادي نبرش، و هي قرية آهلة " كثيرة الثمار و العيون... بينها و بـين البحر قدر نصف ميل "[3]و قبل الوصول إلى مدينة طنجة بأربعة أميال جبل اشبرتال[4] " داخـل في البحر، متصل بالبرّ، فيه عيون عذبة ".[5]

و في الطريق، من طنجة إلى مدينة فاس، تقع مدينة البصرة و هي " مدينة أوسع تلـك النواحي مرعًى و أكثرها ضرعا... و ماء المدينة زعاق[6] (أجّاج)، و شرب أهلها من بئر عذبة، على باب المدينة تعرف ببئر ابن ذلفاء "[7]و خارجها في جنانها عيون كثيرة، عليـها بسـاتين " يسيرة من شرقيّها، و لها غلاّت كثيرة من القطن... و ...من القمح و الشعير و القطّاني ".[8]

و على ثمانية عشر ميلا من البصرة، توجد مدينة أقلام، و هي خصبـة كثـيرة الميـاه و الفواكه، و غير بعيد عنها مدينة كُرْت أو قرت، في سفح جبل، و لها ميّاه كثـيرة و أجنـة واسعة، و عمارات متصلة، و من غلاتها القمح و الشعير و أصناف الحبوب و القطن.[9]

و يختلف ابن حوقل مع الإدريسي فيما أورداه من معلومات عن مدينة جنوب البصـرة: فالأول يسميها ماسيتة، و يحدّد موقعها على وادٍ يجري إلى وادي سبُو، و هو وادي فـاس،

1- صورة الأرض، ص 79.

2- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 24؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.49 .

3- المغرب، ص 113؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.221 .

4- هو رأس اسبارتيل (Cap Spartel) (Ibid, p.222, Note 1) .

5- المغرب، ص 113؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.222 .

6- زعاف: Saumatre: أجّاج، شديد المرارة و الملوحة (المنهل، ص 973).

7- المغرب، ص 110؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.216 .

8- صورة الأرض، ص 80؛ القارة الافريقية و جزيرة الأندلس، ص 251.

9- نفسه؛ نفسه.

ويصفها بالخصوبة و يجعل من غلاّهما القطن و القمح و الشعير " و لهم مياه كثيرة و سقي يغزر عائدته عليهم "[1]؛ أمّا الثاني فيُسميها ماسنا، و يحدّد موقعها على جبل شامخ الذّرى، على نهر سبو الآتي من ناحية فاس، و يصفها بالخصوبة " ماؤها فيها، و لها بساتين و عمارات "[2].

و في الطّريق، من سبتة إلى فاس، مدينة الحجر المعروفة بحجر النسر[3] " ماؤها فيها و لها بساتين "[4] و يمرّ نفس الطريق ببلد جنيارة " و فيها عيون "[5] و توجد بفاس، حسب صاحب كتاب الاستبصار، " عيون كثيرة لا تُحصَى عددا "[6] أو تنبع منها، كما يقول الزهري، مياه غزيرة عذبة " يقال إن أعينها على عدد أيام السنة "[7] و خارجها أيضا، كما يفيد الادريسي " الماء مطرد، نابع من عيون غزيرة، و جهاتها مخضرة مؤنقة و بساتينها عامرة و حدائقها ملتفه "[8] و بمعنى آخر فإن فاسا كما أورد القزويني " قد تفجّرت كلها عيوناً تسيل، إلى نهر منبسط الأرض ينساب إلى مروج خضر ".[9]

و كان إدريس الأوّل، مؤسس الدولة الادريسية، هو الذي نقل عاصمته من مدينة و ليلي التي كان الماء يجلب إليها من بعيد، في قنوات، إلى فاس لتوفّر الماء بها[10]؛ و يرى H. Terrasse أن فاسا، كان بإمكانها أن تستغني على حكومة مستقرّة و محترمة، قادرة على حماية القنوات، الطويلة و الهشة، الضرورية في حياة مدينة كبرى، فقد تمكنت من العيش، أثناء الحروب أو الثورات، داخل أسوارها، و لا يمكن نكران أن اختيار موقعها، كان على أساس وفرة الماء، و فيما عدا فاس و دمشق فإن أغلب المدن الإسلامية، لم تستطع الاستغناء عن جلب الماء في القنوات، و قد بينت السلطات أنها قادرة على صيانتها رغم الحروب و الغزوات.[11]

1- صورة الأرض، ص 81.

2- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 251-252.

3- المغرب، ص 113-114؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., pp.222-223.

4- صورة الأرض، ص 81.

5- المغرب، ص 114؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.224.

6- مؤلف مجهول: ص 69: الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.121.

7- كتاب الجغرافية، ص 114.

8- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 145.

9- آثار البلاد و أخبار العباد، ص 102.

10- أنظر G. Marçais et A. Dessus- Lamare: op.cit., p.27.

11- Les Villes Impériales du Maroc, Grenoble 1937, p.16.

و في أوّل مرحلة في الطريق، بين فاس و القيروان، مدينة " تسّول المعروفة بعين اسحق... و كانت على ثلاثة أجبل و بها... عين عذبة بنى عليها موسى قبّه فخرّ بها ميسور قائد الشيعي (عبيد الله المهدي) "[1].

و قبل الوصول إلى مدينة تلمسان، من جهتها الغربية بمرحلتين، تقع مدينة جراوة، في سهل، و داخلها قصبة " حولها أرياض من جميع جهاتها و عيون ملحة... و حواليها بسائط عريضة للزرع و الضرع و جبل ممالوا (Memalou) في قبليها (جنوبها)، و فيه حصن بناه الحسن بن أبي العيش، حواليه بساتين و مياه تطرد، و بينه و بين المدينة أربع أميال "[2].

كما أن قلعة برقانة على نفس الطريق، بين مدينة صاع و قرية العلويين، بها " مياه كثيرة و لها جنات و كروم "[3].

و على أحد الطريقين المؤديتين من سجلماسة إلى فاس، في بداية المرحلة الثانية منه يقع " موضع يقال له الأحساء، رمل يحفر فيه فينبعث الماء على ذراع و نحوه... و منه إلى حصن يرارة عامر آهل... و له جداول ماء، و هو بلد يحسن فيه الغنم "[4] و إلى الشرق منه، في نفس الاتجاه، دائما سوق لميس " و حواليه مياه سائحة "[5] كما أن أهل مدينة صفروي الواقعة على مرحلة إلى الغرب من فاس، أكثرهم " فلاحون، و زروعهم كثيرة، و لهم جُمل مواش و أنعام، و مياههم عذبة غدقة "[6].

و يفيد الإدريسي أن مدينة مغيلة كانت، قبل وقته (ق 6هـ/12 م) " متحضرة، كثيرة التجارة، متصلة العمارات. و هي في فحص أفيح كثير الأعشاب و الخضر و النواوير و الأشجار و الثمار، و هي ... (و في وقته) فيها بقايا عمارات و خرباتها متصلة و المياه تخترق في كل جانب منها..."[7].

1-المغرب، ص 142؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.272 .

2-نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.273 .

3- الادريسي: المصدر السابق، ص 149.

4- المغرب، ص 147؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.281 .

5- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id .

6- الادريسي المصدر السابق، ص 145.

7- نفس المصدر، ص 146.

و يمتد جبل درن الأعظم، حسب نفس المصدر، من البحر المحيط إلى الطرف المســـمّى أوثان (من سواحل برقة) و فيه " كل طريفة من الثمار و غرائب الأشجار، و الماء يُطرد منـــه، و يوسطه و حوافيه يوجد النبات أبداً مخضرًّا... "[1]؛ و في أسفل هذا الجبل، من جهة الشـــمال (الغربي) مدينة أغمات و ريكة " في فحص أفْيح، طيّب التراب. كثير النبـــات و الأعشـــاب، و المياه تخترقه، يمينا و شمالا، و تطرد بساحته... و حولها جنات... و بساتين و أشجار... عذبـــة الماء.[2]

و على الطريق من مدينة أغمات إلى السوس، في مرحلته الثانية، انطلاقا من أغمـــات، مدينة إيفيفن و هي " في بطحاء كثيره المياه و الفواكه "[3]، و على اثني عشر ميلا شمال أغمات، أسس يوسف بن تاشفين سنة 470هـ /1077-1078م مدينة مُرّاكش و جلـــب إليـــها ابنـــه و خليفته عليّ الماء"من عين بينها و بين المدينة أميال، و لم يستتم ذلك، فلمّا تغلّب المصــــامدة على الملك... تمّمُوا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة و صنعوا به سقايات بقـــرب دار الحجـــر "[4].

و في المرحلة الأولى، على الطريق الذي يخرج من قرية أم الربيع إلى مدينة سلا، قريــــة إيغيسل " و بها عيون كثيرة، دفاعة بالماء بين الصخور الصلدة، و هذا الماء ينصرف في ســـقي كثير من زروعهم "[5] و بعد مرحلة أخرى، في نفس الاتجاه، قرية أنقال المعروفة بدار المرابطـين " و بها عَيْن عليها أقباء، و ماؤها معين... كثيرة الزروع و المواشي و الإبل و البقر "[6] و بعـــد مرحلتين أخرتين قرية أكسيس و الوصول إليها يتمّ عـــن طريـــق المـــرور " علـــى فحـــص خرّار "[7].

1- الادريسي: المصدر السابق، ص 132-133.

2- نفس المصدر، ص 133-134؛ ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص 125؛ و كانت حاضرة البلاد قبـــل بنيـــان مرّاكش (نفسه)؛ و لا يشير البكري إلى هذه المياه لكنه يقسم أغمات إلى مدينتين: أغمات إيـــلان و أغمـــات وريكـــه، و بينهما ثمانية أميال (المغرب،ص 153).

3- المغرب، ص 160؛ الترجمة الفرنسية V. Monteuil : op.cit., p.55 .

4- القارة الإفريقية، ص 137.

5- نفس المصدر، ص 140.

6- نفس المصدر، ص 140-141.

7- نفس المصدر، ص 141.

و يعتبر صاحب كتاب الاستبصار بلاد تازا أوّل بلاد المغرب (الأقصى من جهة الشرق) و هي جبال " عظيمة حصينة كثيرة التين و الأعناب و جميع الفواكه... و قد بُني ببلاد تـازا في هذه المدّة (ق6هـ/12 م)... في سفح جبل (مدينة الرباط) و هي مشرفة على بسائطه يشـقها جداول المياه العذبة... و هي في فسحة على ستة أميال، ما بين جبال، ينصبّ إليها من تلـك الجبال مياه كثيرة و أنهار تسقي جميع بساتينها "[1].

العوامل المتحكمة في انتشار العيون ببلاد المغرب:

يسجّل سعد زغلول عبد الحميد أن مياه جبال الأطلس الصحراوي و بعض مياه إفريقيا الوسطى الموسمية تتجمّع تحت سطح التربة، و تنفجر في شكل ميـاه جاريـة، مـن العيـون و الآبار الأرتوازية في الواحات الشمالية، و وادي ريغ و بلاد الجريد و وارجـلان (ورقلـة) و صحراء جنوب وهران و توات[2]؛ و في نفس السياق يذهب V. M. Godinho إلى القول بأن أنهارا تجري من جبال بلاد المغرب، نحو الجنوب الغربي و الجنوب و الجنوب الشرقي و يذكـر منها أودية نون و درعة و غريس وزيز و غير و زوسفانة و الصاورة، و هذه الأنهـار، كمـا يضيف، تُحدِث على العروق و الحمادات، رُقعاً مخضرة، تمكّن الناس من العيش حياة حضريـة، و في بعض الأماكن تُجهّز مجموعاتٌ إنسانية عيونا أرتوازية أو تستفيد من الماء المتدفق بضواحي الهضاب الكلسية، و فجأة، تبرز واحة، وسط القفار فتُسقى بها الأرض و تُزرعُ في ظلّ النخيـل لتُحصد منها بمشقّة حبوب قليلة.[3]

و يفيد R. Capot- Rey أن مياه أودية السهول الصحراوية و وادي ريغ المدفونة تظـهر على السطح منتشرة و راكدة أحيانا، و أحيانا أخرى تكون مركّزة على نقطة معينة و تحـت ضغط؛ و يتعلق الأمر في الحالة الأولى بفيض الطبقة الجوفية بسبب الإفراط في تغذيتها بواسـطة مصاريف بساتين النخيل، و بصعود طبقة مائية عميقة؛ أمّا في الحالة الثانية، فالأمر يتعلّق بالعيون الأرتوازية التي تكوّن بروزا للطبقات الحبيسة.[4]

و إذا كانت السّدُود تحدّد عودة ظهور المياه المتسرّبة في الطَمْي في شـكل عيون

1-مؤلف مجهول: ص 74؛ 75؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op. Cit. , pp.134-135 .

2- تاريخ المغرب العربي، جـ4، ص 61.

3- L'économie de l'empire portugais, p.110 .

4- L'Afrique blanche française, T.2, P.330 .

اصطناعية، فإن العيون الطبيعية ليست نادرة في أطراف الهضاب و جبال الصحراء لكن أغلبها ليس لها سوى منسوب ضعيف، و لا تجري إلاّ على مسافة غير كافية، و هي مفيدة جداًّ للمسافرين، و ضرورية للسكان الحضر، و الكثير منها حدّد موقع قرية، و لا تستطيع توفير ماء للرّي، غير أن بعضها، و بفضل وضعيّة طُبُوغرفية خاصة أو طاريء (Accident) جيولوجي معيّن، اقتنت منسوبا غزيرا كثير الثبات شبيها بمنسوب الأودية الصغيرة، و يمكن جرّ هذه العيون لاستخدام مياهها في الرّي؛ من ذلك أن عين الفرس في غدامس، تصب 20ل/ث و هي تسقي وحدها 40 هكتار، كما تصبّ عين مليلي (Mlili) بالزيبان، قرب بسكرة 500ل/ ث [1].

و يتمثل أحسن مجال للرّي بماء العيون في سفوح الأطلس الأعلى، و الأطلس الصحراوي، الجنوبية، و نمط هذه الطواريء (Accident) المتسبّبة في وصول الماء هو صدع (Faille) قفصة، حيث نشأ في موقعه سدٌّ حقيقي طبيعي قطع الجريان في الطبقات البْلِيُوسِينِيّة[2]، و تُشخّص الطارىء عيون، استُغلت منذ التاريخ القديم. و تعطي اليوم منسوبا إجماليا يقارب 400ل/ ث [3].

و لأسباب أخرى، جيولوجية و طبوغرافية، في آن واحد، حظيت منطقة الزيبان، شمال - شرق بسكرة بانبثاقات مائية، استغل عدد منها بعين المكان. و جُر الباقي إلى بساتين النخيل الواقعة في الأسفل، و قد جُلبت المياه، في قناه كبيرة حتى الواحة ثم وُزّعت في أحواض تُملأ ليلا و تُفرغ نهارا، و المنسوب وافر و منتظم لكن طول القناة المكشوفه يؤدي إلى خسائر معتبرة، بسبب التبخّر، و تبقى أهم العيون هي التي تظهر في مجاري الأودية، لأن الأراضي الخصبة تجاورها و لكن منسوبها أقلّ ثباتا من عيون السفوح الجبلية، كما أنها تحتاج إلى إصلاح، بعد كل فيضان.[4]

و ينتفع الجريد و نفزاوة اللذان يوجدان في ظروف جيولوجية مماثلة للزيبان تقريبا ، بنفس الثروة المائية، حيث يبلغ المنسوب الإجمالي لعشر عيون في توزر 500 ل/ث، و على الجهة الأخرى من الشط بنفزاوة، تَعدُّ العيون بالمئات، و الماء يتدفق في قُعور فسقيات (Vasques)

1- E.F. gautier : op. cit., p.318 ،

2- البليوسينية: أي المتعلقة بالعصر الجيولوجي الحديث (المنهل، ص 786).

3- Capot- Rey : op.cit., p.318 ،

4- Capot- Rey : op.cit., pp 318-319 ،

صغيرة مُرملة من حيث تنطلق الساقية، أي الوادي الحقيقي الدّائم، و قد سجّلت بعض تلـــك العيون تغييرات غير منتظمة في المنسوب، لا يبدو أن لها علاقة بالأمطار.[1]

و لا توجد العيون بنفس الكثافة، داخل الصحراء، سوى شمـــال فـــزّان، في الشـــاطي (Chàti) و بقدر ما هي عيون فهي برك يُشاهد الماء على سطحها في حالة الغليان، و لا تَسـقي صغارُها سوى بستان واحد، و البعض الذي يصُبُّ مئات اللترات في الدقيقة الواحدة يكفـــي لتزويد قرية بكاملها، و الرّيّ بماء العيون غير معروف بوسط فزّان و جنوبه لكن يظــهر مــرّة أخرى في أطراف طاسيلي الآجر (au Tassili des Ajjer)و غات و سَرْدَلاس (Serdelés) الـــذي يُسمَّى العيون بالعربيّة، و جانت (Djanet).[2]

العيون نادرة في السهول الصحراوية و لكنها أقلّ ندرة في الجبال؛ و توجد في مجـــاري الأودية الجافة نقاط ماء، ليست، في غالب الأحيان، سوى حُفر بسيطة يُحفَظ فيها الماء، الـــذي يجلبه الفيضان، عدّة أسابيع أو أشهر ما بـــين السّـــدّادات الغرينيـــة(Bouchons Alluviaux) أو تجويفات منحوتة على الصخور بفعل النحت الإعصاري: شأن ما يسمّى بالعربيـــة القَلْتـــة أو الغدير، و بالطرقية أقْلمام، و بعضُ هذه البرك تزوّدها، فوق ذلك، طبقة مائية جوفيّة تحتفـــظ بالماء طيلة السنة و بها أسماك[3].

و قد لا تكون الطبقة المائية عميقة جدًّا فيمكن للانسان أن يبلغها، بمجرّد إحداث حَفْـــر بسيط في الرمل منجزا بذلك، ما يسمّى العُقْلَة (Ogla)أو التّلماس (Tilmas)بالعربية و أبنكـــور (Abankour) بالطرقية: و هي حفرة تنضحُ منها كمية ماءٍ كافية لشرب رَجُل، و بمجرّد مـــا يتجاوز عمق الحفرة مترا واحداً ينبغي حفرُ بئرٍ أو حاسٍ حقيقي[4] و هذا هو الفرق بين العـــين و البئر: فحفرة العين لا تتجاوز مترا في حين أن حفرة البئر تتجاوز ذلك العمق.

و يلاحظ E. F Gautier ندْرة العيون التي يمكن الوصول إلى مائها بسهولة، في الصحـــراء الجزائرية مشيرا إلى وجود عيون جميلة في مجال الصاورة، قرب الأطلس الصحراوي تُزَوّد بمائها

1- Capot – Rey : op.cit., p.319.

2- Id

3- Ibid, pp.12-13

4- Capot- Rey : op.cit., p.13

بعض الواحات، كتاغيت و بني عباس، و يرى في واحات سوف، شمال العرق الكبير، و الـذي يسمّى أيضا الوادي، ما يدعو للغرابة: فالماء موجود بها، في طبقة ممتدّة على وجه الأرض تحـت الرمال، و كل جنان بها عبارة عن قِمْعٍ (entonnoir) محفور في الرمال، حتى بلوغ الطبقة المائية، و بعد عملية الغرس لا يبقى على صاحبه سوى رَمْي الرمال التي تجتاحه بسبب انهيار جوانـب ذلك القِمع، و لا حاجة للرّي إطلاقا، فالنباتات مشبّعة بالماء، و هذه حالة شاذة، ففي غـالب واحات الجنوب الجزائري، يحتاج الأمر إلى أعمال كبرى، من آبار أرتوازية و فُجّارات للبحـث عن الطبقات المائية في أعماق الأرض.[1]

و يقسّم نفس المؤلف الواحات الصحراوية عموما إلى صنفين: منهما ما يكون مـاؤه على وجه الأرض، كما هو الحال في مناطق شاسعة بفزّان و البوركو(Borkou)و حتى بـالكفرة (Koufra)؛ و منها ما يحتاج إلى عمل معتبر تحت الأرض: شأن الواحات المصرية الموجـودة في الصحراء الليبية من جهة، و الواحات الجزائرية، من جهة أخرى[2] و يقسم الصحراء الجزائريـة كذلك إلى مجموعتين واضحتين جدًّا، كما يقول؛ المجموعة الشرقية و هي مجال الآبار الأرتوازية و المجموعة الغربية و تعتمد على الفجارات: و العيون لا تنعدم تماما في الشرق، و يطلق عليـها السكان تسمية البحر[3].

انتشار الفجارات و تقنياتها:

يرى gautier و الواحات الشرقية مُجمَّعة إلى حدٍّ ما في عمق الحوض، عنـد سـطح الأطلس الصحراوي، في حين أن الواحات الغربية مصطفّة في شكل شريط يمتدّ، بين الأطلـس الصحراوي، بين فقيق (Figuig) من جهة،و واحة عين صالح من جهة أخرى، على طول 1200 كلم، مكوّنة ما يعرف عند العرب بشارع النخيل، و تُقَسّم إلى قطاعات و هي على التـوالي، مـن الشمال إلى الجنوب، واحة الصاورة، و قورارة، و أعلى توات، و أسفله و تيديكلت،

1- Le Sahara, pp.145-146 .

2- Ibid, p.146 .

3- Ibid, P.147؛ أنظر ما بعد، ص 122-123.

و كل هذه الواحات تشخص بانتظام حدّا جيولوجيا بين سهب الصخور القديمة من جهة و الهضاب الطباشيرية و الثلاثية، من جهة أخرى، و يتبع خط الواحات الحدّ الجيولوجي، في أقلّ أنحاء له، و العلاقة واضحة: فالهضاب الكبرى الطباشيرية و الثلاثية، ذات قواعد منحدرة انحدارا خفيفا و منتظما نحو الواحات، تمتصّ كمية كبيرة من الأمطار السّاقطة، و التي تُعوّض ندرتها، في نقطة معينة، شساعة الأحواض المستقبلة التي تعيد ذلك الماء بالنّضح على الأطراف، و هذا النضح لا يكفي للريّ، و هنا، لا بُدّ من مساعدة تلك الأحواض و تفريغها، و هذا ما فعله الإنسان الذي راح يَجُرّ العيون بواسطة الفُجّارة.[1]

و الفجارة أو الأروقة الباطنيّة للتقاط الماء و جرّه، كانت معروفة في شبه الجزيرة العربية قديما، و مصطلح فقير Faqir المشتق من فقر (ثقبا للتفجير) موجود " في اسم فجارة (Foggara فقارة)، و يطلق على مجموعة من الآبار محفورة في خط واحد، و متصلة بعضها ببعض بقناة تحت الأرض.[2]

و قد استعملت في الحجاز كلمة كِظامة (Kizāma) مصدر فِعل كَظِم و تعني (الإخفاء في الدّاخل) و قد وصفها أبو عبيدة (ت. حوالي 825 م) نقلا عن الأصمعي و غيره من علماء الحجاز بما يلي هي آبار " متناسقة تُحفر و يباعد ما بينها، ثم يُخرق ما بين كلّ بئرين بقناة تؤدي الماء من الأولى إلى التي تليها تحت الأرض فتجتمع مياهها جارية ثم تخرج عند منتهاها فتسيح على وجه الأرض؛ و في التهذيب حتى يجتمع الماء في آخرهن، و إنما ذلك من عَوَز الماء ليبقى في كل بئر ما يحتاج إليه أهلها للشرب و سقي الأرض، ثم يخرج فضلها إلى التي تليها

1- E. F.gautier : op.cit., pp.150-151.

2- G.S. Colin : La noria marocaine et les machine hydrauliques dans le monde arabe, Hesperis, T. XIV, Fascicule I, 1er Trimestre 1932, p.40؛ و معنى فقر الأرض حفرها، و الفَقْرةُ هي الحفرةُ، و الفقير البئر التي تغرس فيها الفسيلة و الجمعُ فُقُرٌ، و الفقير هي الآبار المجتمعة الثلاث فما زاد، و قيل هي الآبار التي تُحفر و ينفذ بعضها إلى بعض، و البئر العتيقة فقير مِنْ فقر البئر (لسان العرب، مج 4، ص 1117)؛ أنظر الصورة رقم 1.

و هذا الأسلوب معروف عند أهل الحجاز كما يعرفون أيضا الكِظامة و هي قناة للرّيّ تكـــون في حوائط الأعناب أو مجموع بئرين محفورتين: الواحدة أمام الأخرى و بينهما اتصال في باطن الأرض،وتنتشر تقنية الأروقة الباطنية للجرّ من إيران إلى مرّاكش، مرورا بأرمينيـــا و واحـــات الصحراء، بل يمتدّ مجالها إلى أبعد من ذلك[1].

و قد لاحظ Capot – Rey أن معاني المصطلحات، قد تختلط على الناس ، فكلمة آيــر (Air) أي عَيْن تطلق أيضا على بئر أرتوازي أو عادي، و كثيرا ما لا تعني نفسُ المصطلحـلت، نفس الأشياء، فمصطلح الفجارة (فقارة) في الجزائر يعادل مصطلح الخُطّارة في المغرب الأقصى، أي أن المصطلحين لهما معنى واحد هو: رواق باطني، و بهذا المعنى يطلق اسم الفجارة في توات، في حين يطلق نفس المصطلح في الأهقار (l'ahaggar) على مَصْرِف ماء، نصفه باطني و نصفـــه الآخر في الهواء الطلق، في مجرى واد، و نفس المصارف، في الهواء الطلق تسمّى في الأغواط شقّة (Chegga)و هي عيون أو خنادق[2].

و يذهب B. Rosenberger إلى القول: إنه لوحظ، في مدخل الصحراء، مؤثرات إيرانيـــة، لا شك فيها، فالفُجارات أو الخُطارات هي جرٌّ حاذق يوجد نموذجه الأول بـــإيران ، فدعـــاة الخارجية الأوائل القادمين من بلدان ظروفها الطبيعية، قريبة جدا، من تلك التي توجـــد علـــى الحافة الشمالية للصحراء المغربية، كإيران و العراق، حملوا و لا شك معهم، حســـب رأيـــه، تقنيات الرّي و البناء.[3]

و قد أطلقت كلمة خُطّارة (جمع خُطاطير) بتافلالت و منطقة مرّاكش علـــى أروقـــة باطنية للجرّ (Captage) التي تجلب الماء، من بئر لآخر حتى تنتهي إلى ســـــطح الأرض[4]، و مثل هذه الأروقة معروفة جيّدا في واحات الجنوب التونسي، و الجنوب الجزائري، في تـــوات

1- أنظر. لسان العرب، مج.5، ص 265؛ G.S. Colin : op.cit., p.40 .

2- Capot- Rey : op.cit., pp.308-309.

3- Les Vieilles exploitations miniéres et les centre métallurgiques du Maroc (2éme Partie), Revue géographique du Maroc, n 18, 1970, p.89.

4- G. S. Colin : op.cit., p.37 .

و قورارة (Gourara) و تيديكلت (Tidikelt) حيث تسمى الفجارة (جمع فجاجير)، و هو أسلوب مألوف و مطبق، في المناطق شبه الصحراوية من العالم القديم و تسمى بإيران القناة و باليمن الصهريج.[1]

و يذهب G.S. Colin إلى القول إن عبد (أو عبيد) الله بن يونس المهندس هو الذي أدخل تقنية هذه الأروقة الباطنية إلى مراكش، و قدم إلى بلاط الأمير المرابطي علي بن يوسف ابن تاشفين (1107 – 1143م) بعد تأسيس المدينة بقليل (حوالي 1077م)؛ و نص الإدريسي الذي ذكر هذه المعلومات هو: أن الماء الذي تسقى به في مراكش " البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة، استخرج ذلك عبيد الله بن يونس المهندس، و سبب ذلك أن ماءهم ليس ببعيد الغور، موجود، إذا احتفر قريبا من وجه الأرض، و ذلك أن هذا الرجل... جاء إلى مراكش في صدر بنائها و ليس بها إلا بستان واحد... فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان فاحتفر فيه بئرا مربعة كثيرة التربيع، ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض، و مر يحفر بتدريج، من أرفع إلى أخفض، متدرجا إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان، و هو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه، فهو جار، مع الأيام لا يفتر، و إذا نظر الناظر إلى سطح الأرض، لم ير فيها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها إلى وجهها، و إنما يميز ذلك عالم بالسبب الذي به استخرج الماء، و السبب هو الوزن للأرض... ثم إن الناس نظروا إلى ذلك و لم يزالوا يحفرون الأرض و يستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين و الجنات، و اتصلت بذلك عمارات مراكش..."[2].

و لم يناقش Colin كلام الإدريسي الذي تحدث عن حفر بئر في أعلى البستان و جره بميزان إليه و هذا ينطبق على إية فجارة لكنه لم يشر إلى تعدد الآبار المتصلة ببعضها عن طريق قناة باطنية بل أكد أن عبد الله بن يونس أجرى الساقيه (أو القناة)

1- G.S. Colin : op.cit., p.34.

2- الادريسي: المصدر السابق، ص 136-137؛ يذهب H. Terrasse إلى القول: إن مشكل الماء في مراكش وجد حله على الطريقة الصحراوية، فالخطاطير التي احتفرها المرابطون هي الوحيدة من نوعها على سطح الأطلس الأطلنطي؛ و بفضل هذه الخطاطير غرسوا واحة تشكل مفارقة (Paradoce) جغرافية في هذا السهل الذي يصلح لغرس أشجار الزيتون و الذي لا تنضج فيه التمور (Histoire du Maroc, T.1, pp222-223).

من البئر إلى البستان على وجه الأرض و هذا خلاف ما يطبق عادة في تقنية الفجــارة؛ و قــد تكون ظروف الأرض: من عمق الطبقة المائية و ميل الأرض و قرب موقع البستان من موقـــع البير هي التي جعلت ابن يونس يستغني عن الاكثار من الآبار و القناة التحأرضية لكن المهم أنــه برهن بما فيه الكفاية عن إتقانه لتقنية حفر الفجارات.

و الذي لفت انتباه Colin أن الإدريسي لم يذكر أصل هذا المهندس لكن اسمــه مُــوحٍ (Suggestif) : فعَبدُ الله في رأيه، هو الاسم الذي يُطلق عادة على معتنقي الاســـلام الجُــدد، و اسم والده يونس؛أي Jonas، كان آنذاك يحمله المسيحيون و اليهود أكثر من المسلمين؛ كما أن لقب المهندس كان يحمله المسيحيون و اليهود أكثر من المسلمين و هو يدلّ على مهنة، نادرا ما كان العرب يمارسونها، و كل هذا يُساهم في افتراض أن دخول تقنية الأروقة تحأرضية كــان عن طريق إنسان غريب عن مرّاكش.[1]

و يمضي Colin قائلا إنه حسب المعلومات السابقة، يمكن افتراض أن تلك التقنية جُلبت من الأندلس، و لكنها خاصة بالمناطق شبه الصحراوية، و لا يبدو أنها استعملت في شبه الجزيرة الايبيرية، و النظرية الأقل مخاطرة تدُلّ على أن عبد الله أتى بها من الواحات الصحراوية حيـــث كانت قديمة، على ما يبدو، و كان الطوارق يطلقون كلمة إفْلي (efeli)البربرية علـــى تلــك الأروقة، و هي كثيرة في قورارة (Gourara) و توات (Touat)؛ و السكان الحاليون ينســبون إنشاءها إلى السكان اليهود القدماء، من حرفيّين و مزارعين، و كانوا يسيطرون علـــى تلــك المناطق حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي " (9 هــ) [2].

و يخلص Colin إلى القول : إنه يمكن، مؤقتا، اعتبار أن تقنية الأروقة الباطنيـــة للجــرّ أُدخلت إلى تافلالت و منطقة مرّاكش ـــ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بواسطة يهود القــوارة و يهود توات، إضافة إلى أن التّنقيب (Forage) عن الآبار و حفر الأروقة الباطنيـــة في منطقة

1- G. S. Colin : op.cit.38-39 .

2- تفاديت هنا ترجمة عبارة " حتى اضطهادهم النهائي " التي نقلها - المؤلف عن E. F Gautier المعـــروف بموافقـــة التاريخية المتطرّفه -(G. S. Colin : op.cit., p.39).

مرّاكش ما يزالان إلى حدّ اليوم حكرا على عمال مناطق السفح الجنـــوبي للأطلـــس: طُدْغة Todgaو درعة.[1]

و يلاحظ E. F. Gautier أن تقنية الفجارات متطورة أكثر في الواحات المصرية حيـــث ظهرت أوّلا بالخارجة و الداخلة و البحرية و الفرفرة و هذه التقنية أكثر تواضعا في واحـــات بلاد المغرب الغربية، و لم تتمكن من المرور من واحة إلى أخرى إلاّ تدريجيا على طول الواحات البرقية حيث مرت الجُيوش في وضوح التاريخ: جيوش الفتح و الجيش الفـــاطمي و غـــزوات الأعراب[2].

و يجعل Xavier de Planhol دور العرب في نشر الفجارات في النصف الشـــمالي مـــن الصحراء، محل شك كبير، بالرغم من أن بعض الروايات، كما يقـــول، ينســـب إدخالـــه إلى المؤثرات المشرقية، و من المؤكد، كما يضيف، أن أصل الفجارات من الشـــرق الأدنى لكـــن انتشارها في الصحراء كان سابقا لنشر الإسلام، بكل تأكيد[3]. و هذا طبعا مجرّد رأي خـــاص، لا يرتكز على أيّ دليل و يظهر أن صاحبه يريد أن يجرّد المسلمين من كل ما من شأنه أن يرفـــع من سمعتهم أو يزيد من قيمتهم التاريخية أو الحضارية.

و تتسع أروقة الفجارة، عادة، لما يُمَكّن شخصا صغيرا ، عند اللزوم، من السّيْر فيـــها، من جهة إلى أخرى، و تبلغ رؤوسها أحيانا 60 أو 70 م تحت سطح الأرض، و تشخصها علـــى كامل امتدادها، من مسافة إلى أخرى آبار تهوية، و امتداد هذه الأروقة الكامل لا يُعد؛ فبالنسبة لتمنطيط (Tamentit)، على سبيل المثال، يمكنه بلوغ أربعين كيلومترا، تقريبـــا، و فجـــارات الصحراء الليبية، المماثلة لها، بناها الرومان بالحجارة بناء جيّدا، في شكل جدران منتظمة؛ أمـــاّ في توات فلا يوجد شيء مماثل و ليس للعامل هنا سوى جسمه و يديه العاريتين، و هو يعـــوّض الفقر في الأدوات بعبقرية غريزية و إصرار كبير.[4]

1- G. S. Colin : op.cit., p.39 ·

2- L'Afrique blanche, p.128 .

3- op.cit., p.187 .

4- E. F. Gautier : le Sahara, p.151 .

و تُصَرِّف الفُجارة المياه الجوفية في جزئها الأعلى و تأتي به عن طريق ميل مناسب إلى الأرض المحتاجة للرّي، و يكون هذا الميل عادة ضعيفا جدًّا، حوالي 1 مم في المتر ممّا يُعَوّص الصيانة عند حدوث الانهيارات؛ و يختلف عرضها و ارتفاعها لكنهما يكفيان دائما تقريبا لتمكين رجل منحي من المرور فيها؛ و لإقامة فجارة، تحفر مجموعة من الآبار ثم يتم توصيلها فيما بينها عن طريق رواق وحيد، حسب اتجاه عموديّ على نقاط الموازنة(affleurement) و يحتمل أن تكون الفجارات عَوَّضَت العيون الأرتوازية (الانبعاثية) في البداية بعدما يكون مستوى الطبقة المائية قد انخفض، و يكون الإنسان قد بحث، بعد ذلك على طريقة أخرى للحصول على حاجته من الماء.[1]

و يوفر هذا النظام منسوبا ثابتا، تقريبا، من ماء، لا علاقة له بالأمطار و الفيضانات، و الفجارة تَضْمَنُ الرّيّ بحفر بسيط، و بها يُستَغنَى عن جر (Tirer)الماء؛ و لما كان منسوب الفجارة ضعيفا عادة، حوالي بضعة لترات في الثانية، على أكثر تقدير، يحتاج المالك إلى حوض لتخزينه حتى يكون له الماء الكافي؛ و فوق ذلك، فإن ماء الفجارة، مثله مثل ماء الآبار و العيون، هو ماء صاف لا يُغني التربة بل يفقرها، و من ثمة ، فإن مردود الواحات التي تسقى بالفجارات يكون دائما أقلّ من مردود واحات السفوح حيث تجدّد الفيضانات دائما خصوبتها.[2]

طرق استغلال العيون:

يقسم الماوردي العيون إلى ثلاثة أقسام:

أولها " ما أنبع الله تعالى ماءها و لم يستنبطه الآدميون، فحكمها حكم ما أجراه الله تعالى من الأنهار، و لمن أحيا أرضا بمائها، أن يأخذ منه قدر كفايته، فإن تَشاحوا (اختلفوا) فيه لضيقه (قلّته)، رُوعي ما أحيا بمائها من الموات، فإن تقدّم فيه بعضهم على بعض كان لأسبقهم إحياء أن يستوفي منها شرب أرضه، ثم لمن يليه. فإن قصر الشرب عن بعضهم، كان نقصانه في حق الأخير، و إن اشتركوا في الإحياء على سواء، و لم يسبق به بعضُهم بعضاً تحاصوا (اقتسموه) فيه؛ إمّا بقسمة الماء و إمّا بالمهايأة عليه.[3]

1- Capot- Rey :op.cit., pp.324-325.

2- Ibid, pp.325-356.

3- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 159؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.395.

ثانيها أن يستنبطها الآدميون، فتكون ملكا لمن استنبطها و يملك معها حريمها[1]، و من ثمّة يمكن لصاحبها أن يمنع كلّ ما من شأنه أن يَضُرّ بها، كحفر بئر أو عين بجوارها يمكن أن يؤثر على مائها بأيّ شكل من الأشكال[2] و للمستنبط أن يسوق ماءها إلى حيث شاء، و يصير مجرى مائها و حريمها ملكا له.[3]

ثالثها: أن يستنبطها الرجل في ملكه فيكون أحق بها لشرب أرضه: فإن كان ماؤها قدر كفايته، فلاحق عليه فيه إلاّ لشارب مضطر؛ و إن زاد عن حاجته، و أراد أن يحيي به أرضا مواتا فهو أحق به لشرب ما أحياه، و إن لم يستعمله في ذلك يتحتم عليه بذله لأرباب المواشي، دون الزروع، فلا يجوز بيعه لأصحاب المواشي و لكن يجوز له أن يبيعه لأرباب الزروع.[4]

و قد اختلف الفقهاء فيمن احتفر بئرا أو استبط عينا في البادية: فمنهم من يرى أن بيعها جائز و منهم من يراه حراما و منهم من يراه جائزاً لرغبة، في الظروف العادية، و حراما إن كان البيع بسبب إخلاء المكان، و في هذه الحالة تكون من حق أقرب الناس إلى مالكها مسلفة، يأخذها بلا ثمن.[5]

و قد تكون لرجل عين " في أرضه، خلف أرض جارة، و لا يكون له إليها ممرّ إلاّ في أرض جاره، و مع ذلك يمكن لهذا الجار أن يمنع مروره، إن كان ذلك يؤثر على زرعه.[6]

و إذا كانت بمكان ماء عَيْن " مشتركة تسقي منها الناس بِقرَبهم و دوّابهم، و لا يكون فيهم من يدّعي ملكيّتها أو الاختصاص بشيء منها، و كانت لبعضهم أرض و جنّات تحتها

1- الحريم هي الأرض التابعة لها، و يختلف الفقهاء في تحديد بعد هذا الحريم: فعلى المذهب الشافعي فهو معتبر بالعرف المعهود (الماوردي : نفس المصدر، ص 159؛ الترجمة الفرنسية Id) و عند الحنابلة خمسة أذرع (الفرّاء: المصدر السابق، ص 205)؛ و عند الحنفية، 500 ذراع (الماوردي: نفس المصدر، ص 159)، و ليس للعيون عند مالك حريم إلاّ ما يَضُرّ بها(سحنون بن سعيد التنوخي: المصدر السابق، جـ4، ص 372؛ المازوني (أبو زكرياء يحي المغيلي: الدرر المكنونة ، ورقة 47-48).

2- أنظر سحنون: المصدر السابق، جـ.4، ص 377-378) .

3- الماوردي: نفس المصدر، ص 159؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.395؛ الفراء: المصدر السابق،ص 206.

4- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.395-396؛ الفراء: نفس المصدر، ص 206.

5- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.396. .

6-سحنون: المدونة الكبرى، جـ.4، ص 377.

فبإمكانهم الاستفادة من فضل مائها لسقي جنانهم و خضرهم، و لا حق لمن ليس لهـــم تحتـــها الأرض منهم و لا الجنّات في الدخول معهم في فضل ذلك الماء لبيعه أو لمنحه لغيرهم، و يستقي هؤلاء المستفيدون الأعلى فالأعلى(1).

مع العلم أن العيون كالآبار، لا تقسّم إلاّ على الشرب،أي يكون لكل واحد نصيبٌ معلوم من الشّرب؛أما قسمة أصل العيون فلا تجوز(2)؛و عندما يكون الماء مملوكا يتمّ التعامل بـه كأية بضاعة:إذ يجوز تسليفه، مِثلَ أن يأخذ إنسانٌ يومَ سقي،من صاحبه على أن يردّه له عندما يأتي دوره،بعد أيام،أو ما عسى أن يتّفقا عليه كأن يكتري له مثل يومه ممن يكري ماء،إذا جرت عادتهم بكرائه بينهم.(3)و لا يجوز السلف في زمن عدم الحاجة إلى الماء لردّه في زمن الحاجة إلى السقي،كمن يستلف في الشتاء على أن يقضيه في الصيف لأنّه سلف جرّ منفعـــة، و هـــذا لا يُسمح به شرعاً؛و من لم يجد ماءاوقت حلول موعد الردّ فعليه دفع،قيمته يوم السلف.(4)

و يجوز كذلك للرجل أن يبيع ماء العين لكن إذا كان له شـــريك، في أرض و نخـل و عين، على سبيل المثال، يكون لشريكه حق الشفعة (الأسبقية في الشراء) في نصيبه من مـــاء العين، إن هو باعه دون أن يقاسم شريكه في النخل و الأرض، و لكن لو قام البـائع بتقسـيم الأرض أو الأرض و النخل مع شريكه أوّلا ثم راح يبيع حصته من ماء العين، بعد ذلك، فـــلا يكون لشريكه الحق في الشفعة (5) و بمعنى آخر، لا شفعة في ماء العين إن لم تكـــن لـــه أرض مشتركة تسقى به، و في هذه الحالة يمكن بيع شرب يوم أو يومين، بغير أصل، أو بيـــع أصـــل شرب يوم أو يومين في الشهر من عين، على سبيل المثال(6)، و يمكن أيضا بيع فضل ماء الـــزرع من العيون و كذلك أصل العيون و بيع مائها ليسقى به الزرع.(7)

و عن البيت الذي كتبه ابن عاصم المالكي(ت:829 هـــ/ 1426 م) في موضوع بيع ماء

1-الونشريسي المعيار، جــ5، ص 152-153.

2-سحنون: المدوّنة الكبرى، جـــ4، ص 372.

3-الونشريسي: المعيار، جـــ8، ص 273.

4- البرزلي: المسائل القواطع المنتخبه من الجامع المطالبة المنتخبة من الأسولة البرزلية، مخطوط المكتبة الوطنية، رقـــم 1337، ورقة 73.

5-سحنون: المدوّنة الكبرى، جـــ .4، ص 220.

6-نفس المصدر، جـــ.4، ص 375.

7-نفس المصدر، جـــ.3، ص 289.

العيون و الذي جاء فيه: " و الماء إن كان يزيد و يقل ∴ فبيعه لجهله ليس يحلّ "[1]، و مما ورد في شروح هذا البيت أنه، لا يجوز بيع الماء مادام محلّ الزيادة و النقصان، و يتعلق الأمر هنا بماء الشرب و السقي، غير أن هذه القاعدة ليست بالصرامة التي يمكن فهمها من هذا البيت لأن بيع ماء العيون و الآبار، كان معمولا به في المغرب، و قد أباحه الفقهاء للضرورة فقط، إذ مثلوا الجهالة أو الغموض في كمية الماء، و التي تشكّل غررا، بالغرز الجائز في بيع محاصيل الأجنّة التي تكون غير معروفة أثناء البيع، بل لا يعرف حتى مَالَوْ لم تكن لها محاصيل على الإطلاق.[2]

و يمكن للرّجل أيضا رهن عين أو جزء من شربها (مائها) لكنه لا يجوز له كراءها عندئذ،و لا تكون رهنا حتى تقبض أو تُحازَ و يحال بينها و بين صاحبها،كما لا يجوز للمرتهن كراء ماء هذه العين بغير إذن ربّها، و إذا فعل ذلك بالإذن،كان الكراء لرب الأرض،و لا يكون الكراء رهنا في حقه إلاّ أن يشترط المرتهن فيكون له رهنا مع الدار،إذا اشترطه،و إن اشترط أن يأخذ كراءها في حقّه: فإن كان ديْنه ذلك من بيع فلا يجوز شرطه، و إن كان ديْنه من قرض فهو جائز،و من واجب المرتهن منع صاحب العين من استغلال مائها،و إلاّ كان الرهن غير مقبوض،و لا يؤذن كذلك للمرتهن باستغلاله لأن ذلك خروج عن الرّهن.[3]

و إذا قُطع ماء عين مشتركة بين رجُلين و أراد أحدهما أن يعمل فيها و رفض الآخر، يكون للّذي عمل و أنفق، الماء كله يسقي به حتى يأتي صاحبه بنصف النفقة، و عندها يأخذ حصته، و سبب إعطاء الرّجل الأوّل الماء كلّه يعود إلى ما صرفه من النفقة؛ أمّا لو أنه لم يحقق بعمله نتيجة تُذكر فلا نفقة على صاحبه[4] و لا يكون للذي لم يعمل قليلا أو كثيرا من الماء و لا في فضله حتى يعطي لشريكه نصف ما أنفق.[5]

1- أبو بكر محمد بن محمد بن محمد: شرح أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المالكي المتوفي سنة 1072هـ ضبطه و صححه عبد اللطيف حسن بن عبد الرحمان، المجلد 1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان 1420هـ/2000م، ص 465؛ و انظر في الهامش أيضا حاشية أبي علي الحسن بن رحال المعداني المتوفي سنة 1140هـ على الشرح و التحفة؛

Ibn Ácim al- Màlìki, al-Gharnati : Al- Ácimiyye ou tuh fat al – H'ukkam fì mukt, al- uqoud- Wàl Ahkam, Trad. et annoté par léon Bercher, Alger 1958, Texte arabe · P. 102, Trad. p.103.

2-أنظر Léon Bercher dans Ibn Acim al- Màliki : op.cit., pp.334-335, Note 539،

3- سحنون: المصدر السابق، جـ4، ص 379.

4- مالك بن أنس: متن موطأ الإمام مالك، رواية يحي بن يحي اللّيثي، نشر دار الكتب الجزائر، ص 397.

5- سحنون: المصدر السابق، جـ 4، ص 375.

و إذا أصاب العطش الثمرة بسبب انقطاع ماء العين، و تسبب في موتــها، وُضع عــن المشتري ما ذهب من الثمار، قليلا كان أو كثيرا، و ما يبقى منها فهو للمشتري، لأن البـــائع، حين باع الثمرة، إنّما باعها على الماء، و بالتالي فهو يتحمّل كل ما يُصيبها من قِبَله، و إن قَـلّ، على خلاف بقيّة الجوائح، و مسئولية البائع عن نقص ماء العيون كمسؤوليته عن نقص مـــاء السماء، إذا كانت حياة الثمرة متعلقة بسقيها.[1]

أمّا عن تقسيم ماء العيون بين الشركاء فيبدو أن لها عدة نماذج، منها، على سبيل المثال، ما شمله سؤال طرح على الفقيه المالكي ابن علاّق، في شأن أهل حصن شيروز، و يتبيّــن مــن خلاله، أنهم يشتركون في ملكية عين فقسّموها إلى خمس سواق مناسبة لما تسقيه كل واحـــدة من أرض، و راحوا يستغلون تلك المياه بطريقة غير منضبطة، و دون مراعاة حقوق الضعفـــاء و اليتامى.[2]

و بعد مدّة راجعوا أنفسهم و قرروا الالتزام بالأمر المشروع و اتفقوا أن يكون سـقيهم، في كل ساقية من سواقيهم حصة معلومة بالساعات، بدءا من أعلاهم إلى أسفلهم أي من أولهم إلى آخرهم، و يبقى على هؤلاء فقط، حسب نصّ الجواب، أن يضموا إلى صفوفـــهم، أثنـــاء عملية القسمة ممثلين عن المحاجير و المحجورات يعينهم القاضي لينوبوا عنهم في ذلك التقســـيم، الذي يجب أن يَحْضى بموافقة من كان لهنّ حظ من النساء، إن كنّ غير محجورات.[3]

و الذي يهمنا من هذا السؤال و الجواب عنه أن تقسيم ماء العيون لم يكن دائما يتـــم حسب قواعد الشرع المعروفة و المضبوطة.

و هناك سؤال آخر طرح في نفس الموضوع تقريبا على الفقيه " ســيدي الشـــريف محمد المدعو حَمُّو " ملخصه: أن رجلا لهُ بجانب عين ماء جنّة، و تحتها جنّات كثيرة و كلـــها تُسقى بماء تلك العين المشتركة بينهم على نسب مختلفة، إذ منهم من له أربعة أفراد، و منهم من له أقلّ و أكثر، و معنى الأفراد:اللّيل فرد و النهار فرد، و النهار أيضا مجزّأ: من الصبح للضحى

1- سحنون: المصدر السابق، جـــ4، ص 21.

2- الونشريسي: المصدر السابق، جـــ8، ص 40.

3- نفسه؛ و الحَجْر في اللّغة ما منَعْتَه من أن يُوصلَ إليه و يقال حجر عليه القاضي إذا منعه من التصرف في ماله، و مـــن ذلك حجر القاضي على الصغير و السفيه (أنظر لسان العرب، جـــ1، ص 572).

ربع فرد، و منه للزوال ربع فرد، و منه للعصر ربع فرد، و منه للمغرب ربع فرد، و لا يسـقون الأعلى فالأعلى، بل يسقي الأعلى مثلا بفرد، و من الغد تدور الدَّوْلة لأسفلهم كلهم، و بعدهم مباشرة يعود السقي للأعلى، لأن له دولتين مثلا، ثم يسقي بعده من في الوسط، و هكذا جرت عادتـهم، ثم اشترى أعلاهم كلهم جنة تليه بشربها المعروف لها و ضمها إلى جنته فصـارت جنة واحدة و خلط ماء الجنة المشتراة بماء الجنّة العليا.(1)

و قد ينجم عن طول مدة استغلال العين المشتركة وقوع بعض المشاكل منها: نسـيان كيفية التقسيم بين الشركاء الأوائل، و لم يعُد بالإمكان معرفة انتهاء نهار السقي و بداية ليلتـه و خاصة بعد انقراض المتعاملين الأوائل و انتقال حقوقهم إلى غيرهم عن طريق الإرث أو البيع، دون أي تمحيص في هذه القضية؛ إمّا لكون الوريث صغيرا جدًّا و المشـتري حديـث عـهد للملك، و لا يعرف سوى الشرب المخصص له أثناء استلامه له؛ و إمّا اعتمادا على العادة الـتي جرى العمل بها، دون أن يبحثوا عن حقيقة أمر ذلك، تاركين حقهم لغيرهم ينتفع بـه، و في حالة حدوث أي نزاع بينهم في هذا الموضوع، ينبغي الاطلاع على رسوم (عقود) الابتيـاع، و هي تتضمن شرب الأرض المعلوم، من العين المعلومة و الذي يعبر عنه عادة بـ " نصف يـوم كذا و جميع يوم كذا من كل يوم جمعة (أسبوع) "، و مقتضى قول: " جميع يـوم كـذا ". استغراق جميع أجزائه، من الفجر إلى المغرب، و قول " نصف يوم كذا "، يقضي أيضا التساوي بين الجزئين، بحيث يكون النصف الأخير الذي هو من الزوال مساويا للنصف الأول ضـرورة، و كذلك اللّيل يبتديء من المغرب إلى الفجر.(2)

و قد لاحظ Capot- Rey فيما يتعلق بالعيون أن القانون الفرنسي و الفقه الإسـلامي يتفقان في الاعتراف بحق صاحب الأرض في ملكية الماء الذي ينبع من أرضه، و أن مياه العيـون الصغيرة تستخدم مباشرة، في حين أن مياه العيون الكبيرة، كعيون الزيبان التي تكفـي لسـقي واحة أو حَيّ من واحة ينبغي أن تقسّم، و الطريقة الأكثر تداولا، هي التقسيم بالوقت، و هـي تقوم على إعطاء مجموع الماء المتدفق، في أوقات منتظمة لكل مستخدم، خلال مـدّة محـدّدة، و يتم قياس الوقت بوسائل تقليدية كطول إنسان معين أو عمود أو الوقت الذي يستغرقه تفريغ

1-المازوني: المصدر السابق، جـ .1، ورقة 512-513.

2- الونشريسي: المعيار، جـ.5، ص 111-112.

إناء، ممّا وُضع فيه، عبر ثقب جُعل وسط قعره (تغيرة أو خروبة)؛ و تبقى أبسط طريقة هي المطبقة في فزّان، بالأماكن التي تُسقَى بماء العيون، عندما يكون هناك ما يدعو للقسمة، حيث يكون لكل مالك الحق في الماء المتجمع خلال الليل في خزّان العين مدّة يوم أو جزء من يوم[1].

و في بني عباس فإن الساقية الرئيسية التي يسيل فيها ماء عين كبيرة يبلغ منسوبها حوالي 1500 ل/د، يقسّم على 41 حصّة أو نُوبة و هو ما يسمح لكل مستفيد بالسّقي مرّة كل واحد و عشرين يوما و نصفا،بالتناوب، ليلا و نهارا، و مادامت هذه النوبة لا تمكن المالك من سقي متقارب في المدّة الزمنية فإنه لا يستغل سوى خُمسَ حصته و يتنازل على الباقي لصالح ملاك آخرين، على شرط المعاملة بالمثل، مما يسمح له بالسّقي مرة كل أربعة أيام تقريبا، و تكون مدّة الرجل مطابقة لعدد معين من الإنغماسات المتعاقبة للتّغيرة.[2]

و هذه الطريقة هي التي يعتبرها E. F. gautier نوعا من الساعة المائية Clepsydre، و هي خاصة بقياس وقت الإستفادة بالماء؛ و الآداة الأخرى خاصةً بتقسيم الماء على مُستغلّيه:قطـرةً قطرةً و لها شكل مشط مثبت في ملتقى قنوات صغيرة للرّي، يُقسّم بين أسنانه الحجم الإجمالي للماء، حسب سِعَةٍ محسوبة بحصص كل واحد.[3]

و مع أن ملكية الفجارة تكون لمن احتفرها إلاّ أن ملكية قناتها أو رواقها يكون مشتركا و من ثمة فلا بدّ من تقسيم مياهها و بما أن منسوبها يكون ثابتا، بشكل ملموس، فهي تقسّم بالحجم، و تكون البداية بتعيير الفجارة (La jauger) بواسطة صفيحة من نحاس، ذات فتحات مختلفة الأقطار، و بعد ذلك توضع موزّعة (partiteu) في شكل مشط تمرّر في كل ساقية نصيب كلّ واحد من الماء، و تنحصر تلك النصاب، في غالب الأحيان، في خيوط رفيعة من الماء، تلحق بها أحواض لتجميعه قبل استخدامه في السقي.[4]

و بالنسبة لفجارات الآهجار (Ahaggar)، فإن الأمور تجري ببساطة أكبر، حيث لا يُوجد هناك تعيير (jaugeage)،و يكون لمُلاّك البساتين الحق في مجموع ماء الفجارة، كلٌّ حسب

1- L'Afrique blanche française, T.2, Le Sahara fr., pp.347-348.

2- Ibid, p.348.

3- Le Sahara, p.154.

4- Capot- Rey : op.cit., T 2, p.349-350.

دوره، فإذا كانت الفجارة تسقى ثمان بساتين مثلا فدور المستفيد الواحد يكون كل ثمانية أيـــام شتاء و كل أربعة أيام صيفا.[1]

و تَشُذّ تَبَلْبَلة (Tabelbala) قاعدة التقسيم المعمول بها في بقية الفجارات حيث تُقسّـــم كل فجارة إلى عدد من الأسهم، و هي إمّا أن تكون في حوزة الملاك وحدهم و إمّا في حـــوزة مجموعات تتكون من ثمانية ملاّك و عامل (Ouvrier) يساعدهم وقـــت الكنـــس الســـنوي. و يساوي كلّ سهم 1/24 من اليوم، و يكون لكلّ مستفيد الحق في ماء الحوض الذي تصبّ فيه الفجارة مدّةً متاسبة لعدد أسهُمه.[2]

مع العلم أنه لا يبدو أن طرق تقسيم و توزيع ماء العيون و وسائل ذلك تختلف كثـيرا، بين ما وصفه في الميدان كل من E. F. gautier و R. Capot- Rey و بين مـــا أشـــارت إليـــه أو تحدّثت عنه بعض المصادر العربية و بالأخص منها النوازل.

يتبيّن، من خلال عمليـــة المســـح الـــتي أنجـــزت في هـــذا الفصـــل، أن المصـــادر الجغرافية – التاريخية كانت دائما، تقريبا، تشير إلى لعيون الموجودة في المدن أو القـــرى الـــتي تتعرّض لوصفها، دون إغفال الحديث عمّا تتميّز به كلّ واحدة من تلك العيون، و عن ذكـــر أهميتها بالنسبة للمنطقة التي توجد بها.

و قد بيّنت الدراسات الحديثة كيف تتسرّب مياه الأمطار في التّربة التي لها قابليّة للنفـاذ، ثم تتجمع في أماكن معينة تحت الأرض فيما يُعرف بالمياه الجوفية التي تتنقّـــل، قـــرب ســـطح الأرض، لتنبُع منه إمّا تلقائيا أو بمساعدة الإنسان الذي قام باستنباطها بخبرة تعبّر عنها مهارته في إنجاز الفُجارات بمناطق صحراوية كثيرة و السيطرة على تقنياتها المعقّدة في الفـــترة المخصصـــة لإنجاز هذا البحث .

و قد بيّنت الأحكام الشرعية المطبقة على مستوى دار الإسلام، بما فيه الكفاية، طـــرق استغلال مياه العيون بطريقة واضحة كل الوضوح، و هي تعتمد في أساســـها علـــى القـــرآن و السنة لكنها لا تتغاضى، إطلاقا، على الأعْراف الجارية محليًّا بين سكان منطقة معيّنة، بحيـــث أن الفقهاء، كانو دائما يأخذونها في الحسبان لإصدار أحكامهم في مختلف التراعات القائمة بـين الناس في شأن ماء العيون.

1- Capot- Rey : op.cit., P. 350.

2- Ibid, p.349, Note.2

الباب الثاني

الفصل الرابع

الآبار المذكورة في المصادر العربية و طرق استغلالها في بلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين.

مسح للآبار الواردة في المصادر العربية:

سينصبّ اهتمامنا، في بداية الأمر على القيام بعملية جردٍ أو مسح لكل الآبـــار الـــتي أشارت إليها المصادر في الفترة المدروسة انطلاقا من الناحية الشرقية كما فعلنا بالنسبة للأنهـــار و العيون ثم نقوم بعد ذلك بمحاولة تحديد طرق استغلال مياهها.

و ما يُلفت الانتباه، عند بداية الخوض في هذا الموضوع، أن الآبار، كثيرا ما توجـــد إلى جانب العيون، في بلاد المغرب، و لكنها توجد كذلك في أماكن تخلو تماما من العيون؛ و ممّـــا أفادنا به اليعقوبي (ق.3هـــ/10 م) في أقصى النواحي الشرقية من بلاد المغرب وجـــود " آبـــار للروم قديمة "[1] في جبلي برقة إلى جانب عيون يستغلها السكان المنتشـــرون هنـــاك؛ و يشـــير المقدسي بعده (ق4هـــ/10 م) عند تعرضه للحديث عن قصبة برقة (مدينتـــها) إلى أن شـــرب أهلها " من آبار و ما يحوزونه من أمطار في جباب "[2].

و يتحدث البكري عن وجود " آبار عذبة " في مدينة سُرْت[3] و يصف الإدريسي هـذه الآبار بالقليلة[4] و في قصور حسان التي تبعد عن سُرت بستّة و سبعين ميلا[5] يذكر البكـري أن حسان بن النعمان الغساني[6] بنى هناك قصرين، و هما " اليوم (وقت البكري) خربان حولهمـــا زُعاق نزر (أي ماء قليل شديد المرارة و الملوحة) في بئرين، و بها جنات كثيرة "[7].

و يؤكد الإدريسي (ق.6هـــ/12 م) خراب قصور حسّان، في وقته، لكنه يقـــول: إن " بها ماء يُشرب من بئرين قريبتي القعر، و منهما يتزوّد بالماء، المارُّ بها ...، و يـــأخذ منهما ما

1- كتاب البلدان، ص 343.

2- Al – Muqaddasi: op.cit., pp.10-12 ; Trad, pp.11-13.

3- المغرب، ص 6؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.17؛ و تقع سِرت أو سُرت في عمـــق (fond) خليج سيرت الكبرى، في منتصف الطريق بين مسراتة و بنغازي (برنيق قديما)، و تسمى حاليا مدينة الســـلطان، و تطلق تسمية سيرت على ساحل سيرت الكبرى بكامله و يُسمى جزؤه الشرقي اليوم جون الكبريت (Id, note 3.) ،

4- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 199.

5- من سُرت إلى الأصنام 46 ميلا و من الأصنام إلى قصور حسان 30 ميلا (نفس المصدر، ص 198-199) أو علـــى مرحلتين غرب سُرت (المغرب، ص 7-8).

6- عين على رأس ولاية المغرب في السبعينات من القرن الأول الهجري/ التسعينيات من القرن السابع الميلادي (أنظر محمد ابن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، ط. الجزائر 1984، ص 36، هامش 5.

7- المغرب، ص 8؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.23 ،

يكفيه لشربه في مسافة سفره "[1] و بالقُرْب من قصور حسان تقع " الرّاشدة (ذات الموقع الجيّد) و هي بئر شريب (زعاق) سماها بهذا الإسم حسان ابنُ النعمان.[2]

و على ثلاثين ميلا من قصور حسان، شرقا، الأصنام " و الماء يوجد بها في خروق أحساء محفورة في الرمل على ضفّة البحر المالح "[3] و بالقرب من الأصنام قصر القرنين و هو " كبير عامر، و في وسطه بئر عميقة، و إليها تصب مياه الأمطار في زمن الإدريسي (ق 6هـ/12 م) "[4] و على بُعد واحد و ثمانين ميلا، في اتجاه الشرق دائما، يقع قصر اليهودية[5] و فيه " زراعات على مياه تستخرج بالسواني من آبار ".[6]

و على بعد أربعة و ثلاثين ميلا شرقا من قصر اليهودية يقع قصر العطش و فيه " ثلاث جباب "[7] و بعد ثلاث مراحل منه في نفس الاتجاه تقع منهوشة، على البحر، " و مياهها أحساء تحتفر في الرمل على البحر "[8]؛ و بين منهوشة و سلوق أو مسلوق[9]، شرقا أثنا عشر و مائة ميل و بين هذا الأخير و برقة أربعة و تسعون ميلا، على نفس الطريق.[10]

و على مرحلة من مسلوق أو سلوق يقع قصر قافز، وسط وطاء برنيق، و منه إلى قصر توكرة مرحلتان، " و فيه قوم من البربر، و حوله أرض عامرة و سوان يزرع عليها القطاني..."[11] و إلى الشرق من قصر توكرة يقع قصر طلميثة، على بعد مرحلة و نصف

1- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 215.

2- المغرب، ص ؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., pp.21-22 .

3- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 215؛ و سميت الأصنام لأن بالقرب منها على البريّه (الأرض اليابسة) عدّة أصنام، و هي من بناء الروم الأول (نفسه).

4- نفسه.

5- من قصر القرنين القريب من الأصنام إلى مدينة جُرت، شرقا، 13 ميلا و من هذه الأخيرة إلى قصر العبادي، على البحر 34 ميلا و منه إلى قصر اليهودية 34 ميلا و المجموع 81 ميلا (أنظر: الأدريسي: نفس المصدر، ص 215).

6- نفسه.

7- نفسه.

8- نفس المصدر، ص 216.

9- يكتبه الادريسي مرّة مسلوق و مرّة أخرى سلوق (نفسه).

10- أنظر. نفسه.

11-نفسه.

تقريبا [1].

و بداخل مدينة طرابلس " بئر يعرف ببئر أبي الكنود يعيرون به، و يحمق من شرب منه، فيقال للرجل، إذا أتى بما لا يلام، لا يُعتب عليك، لأنك شربت من بئر أبي الكنود "[2] و آبار أخرى أعذبها بئر القُبة .[3]

و لجبل نفوسة الواقع على ثلاثة أيام من طرابلس مدينة كبيرة تسمى جادو (Djadou)[4]، و من أراد الطريق من نفوسة إلى مدينة زويلة فإنه يسير من مدينة جادو " ثلاثة أيام في صحراء و رمال إلى موضع يُسمي تيري[5] و هو في سفح جبل، فيه آبار " كثيرة و نخيل ثم يصعَد في ذلك الجبل فيمشي في صحراء مستوية نحو أربعة أيام، لا يجد ماء ثم يترل في بئر تُسمّى أودرف و من هناك يلقى جبالاً شامخة تسمّى تارغين..."[6].

و بعد ثلاثة أيام من جبال تارغين يحدّد البكري موقع بلد تامرما و يقول بأن " فيه نخل كثير "[7] دون أن يزوّدنا بمعلومات عن مصدر المياه التي يُسقي بها هذا النخيل و لا عن طريقة سقيه، و نفس الملاحظة يمكن إبداؤها عما ذكره عن بلد سَبَاب، الواقع على يومين من تامرما و الذي يقول إنه " كثير النخل... و أهل سباب يزدرعون النبات الذي يكون منْه الصبغ المعروف بالنيل "[8] و عند إشارته إلى ما بزَويلة من نخيل و بسائط زرع يوضح أن ذلك الزرع يسقي بالإبل.[9]

1- من قصر توكرة إلى قصر قمانس عشرة أميال و منه إلى قصر أوطليط نصف يوم فإلى قصر العنين عشرة أميال فإلى قصر طلميثة عشرة أميال؛ و المجموع ثلاثون و نصف يوم (نفسه) و هو ما يمثل مرحلة خفيفة و نصفا.

2- المغرب، ص 8؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane, op.cit., p.24.

3- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id .

4- تقع هذه المدينة حسب خريطة محمية طرابلس للسيدين Renou وPrax ، على 91 ميلا جغرافيا جنوب – غرب طرابلس (Mac Guckin de Slane : op.cit, p.25, Note 4) .

5- تيري أو تيرى، و إذا أضيفت نقطة للحرف الثالث من هذا الإسم يُتحصّل على كلمة بربرية بحتة هي: تيزي و تعني تلّة (أو منحدر تلّة)، و بالفعل فإن البكري يذكر أن هذا المكان يقع في سفح جبل، و لا يُوجد على الخرائط (الفرنسية) أي موضع من المواضع التي حدّدها البكري، بين جادو و مدينة زويلة (Ibid, p.26, Note 3) .

6- المغرب، ص 10؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.26-27. .

7- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.27. .

8- نفسه؛ الترجمة الفرنسية . Id.

9- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.27-8 .

و قد أطلق الإدريسي على زويلة تسمية " زويلة ابن الخطاب "، و حدّد المسافة بينهـــا و بين سُرت بخمس مراحل كبار و أوضح أن " شرب أهلها من آبار عذبة، و لها نخيل كثـــير و تَمْرُها حسن ".[1] كما يذكر من بين مُدن فزّان مدينتا جرمة و تساوة. " و السودان يسمون تساوة جرمي الصغرى...و هاتان المدينتان يقْرب بعضهما من بعض، و بينهما نحـــو مرحلـــة أو دونها... و مياههما من الآبار، و عندهم نخيلات و يزرعون الذرّة و الشعير و يسقونها بالمـــاء نكلا بآلات يُسمونها أنجقة أو أنجفة[2] و تسمّى، ببلاد المغرب، هذه الآلة بالخطارة ".[3]

و ممّا أفادنا به صاحب كتاب الاستبصار أن أرض وادي يايش أو بايش[4] الذي يشـــق غابة قفصة، على بعد سبع مراحل إلى الشرق من بسكرة[5] مشبّعة (imbibée) ماء و كـــانت العرب "تورد إبلها، تحفر فيها أحساءاً (آبارا) فتُخرج ماء عذبا معيناً ".[6]

و يجعل المقدّسي شرب مدينتي صفاقس و سوسة البحريّتين " من آبار و جبـــاب "[7]؛ و يذكر البكري أن الماء الذي جلبه الخليفة الفاطمي عُبيد الله المهدي من قرية مَنَانُشَ إلى مدينـــة المهدية في أقداس (أنابيب) يصب في صهريج داخل المهدية، " و يرفع من الصهريج إلى القصـــر بالدواليب و كذلك يُستقى أيضا بقرية مَنَانُش من الآبار بالدّوليب و يُصبّ في محبس (خـــزّان) يجري منـــه في تلك القناة "[8] و بداخل مدينة المهدية توجد آبار بالإضافة إلىجباب مطر يعتمد

1- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 214.

2- في النص العربي أنجقة (بالقاف) و في الترجمة الفرنسية أنجفة (بالفاء) (أنظر Joseph M. Cuoq : dans recueil des sources arabes concernant L'Afrique Occidental du VIII e au XIV e Siécle, Paris 1975 . p.153.

3- نفس المصدر، ص 93؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.152-153 والخُطارة هو بئر المترجحة (Puits à balancier) و ينتشر هذا الري على الخصوص في حفرة مُرْزوق و في تساوة (Ibid, p.153 Note 1) .

4- كُتب اسم هذا النهر يايش في النص العربي، ط N.A de Kremer (ص 38)؛ و في الترجمة الفرنسية كتبـــها E. Fagnan بايش كما سجلها Pellissier على خريطته و أشار إلى أنها كتبت يايش في مخطوط A وB و يـــانس و يايش في مخطوط C . (E.Fagnan : op.cit., p.72, note 2).

5- يقدّر البكري المسافة بين بسكرة و توزر بخمسة أيام، و بين توزر و قفصة بيومين (المغرب، 75) و بالتـــالي تكـــون المسافة بين بسكرة و قفصة سبع مراحل.

6- مؤلف مجهول: نفس المصدر، ص 39؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.72 .

7- Al – Muqaddasi : op.cit., p.16, Trad. Fr, p.17 .

8- المغرب، ص 30؛ الترجمة الفرنسية (Mac Guckin de Slane : op.cit., pp.66-68) .

عليها السكان في شربهم[1] لكن الإدريسي يلاحظ أن مياه تلك الآبار غير عذبة.[2]

و في وصف البكري (ق.5هـ/11 م) لمدينة تونس يشير إلى وجود " بساتين كثيرة و آبار سواني (آلات للرّي) تعرف بسواني المرج "[3] بيْن بابها الشرقي المعروف بباب قرطاجنة و الخندق الذي يحيط بها كما يشير نفس المصدر إلى أن بابها الجوفي (الشمالي) يعرف بباب السّقّايين " لأن بئرا تعرف ببئر أبي القفار تقابله و هي بئر كبيرة غزيرة عذبة الماء نميرة (صافية) "[4]؛ أمّا الإدريسي فيذكّر أن شرب أهل تونس من آبار شتى، لكن أعظمها قدرا و أحلاها ماءًا بئران احتفرتهما بعض سيّدات الاسلام ابتغاء الثواب، و هما في نهاية من سعة القدر و كثرة الماء."[5]

و حسب المصدر الأخير فإن المرحلة الكبيرة التي تفصل بين تونس و الحمامات، تشكل " عرض الجزيرة المسماة باشو ...ذات شجر زيتون و عمارات متصلة... و مياه ليست بكثيرة الجري على وجه الأرض لكنها ممكنة، مياه آبار..."[6] و من تلك الآبار يشرب السكان و منها " سقي مزارعهم "، حسب المقدّسي الذي يطلق على تلك الجزيرة تسمية جزيرة أبي شريك و على مدينتها تسمية منزل باشو[7] و الأصح في نظر Ch. Pellat، مترجم المقدّسي إلى الفرنسية، هو منزل باشق.[8]

و في القيروان التي تبعد عن تونس بثلاث مراحل أو مائة ميل[9] يؤكد المالكي أن

1- Al- Muqaddasi : op.cit, p.16, Trad.fr, p.17 ،

2- القارة الافريقية و جزيرة الأندلس، ص 183.

3- المغرب، ص 40؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p86.

4- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id؛ مع الملاحظة أن المترجم أضاف إلى نص البكري: أن سبب التسمية يعود إلى كون السّقايين كانوا يتردّدون على هذه البئر.

5- القارة الإفريقية، و جزيرة الأندلس، ص 86.

6- نفس المصدر، ص 194.

7- Al- Muqaddasi : op.cit., p.20, trad.fr., p.21 .

8- Id, note 3 ،

9- المغرب، ص 37.

معاوية بن حُديج الذي غزا إفريقية ثلاث مرات اختط مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة " القَيروان "... و حفر آباراً عند باب تونس، في ناحية الجبل منه، منحرفة للشرق بالقرب من " مصلى الجنائز " تُسمى الآن (ق.6هـ/11 م) " آبار حُديج غَلب عليها اسم أبيه حُديج ".[1]

و ينقل حسين مؤنس عن حسن حسني عبد الوهاب قوله: إنه كان في وسط الموضع الذي أنشئت فيه القيروان عينُ ماء كبيرة تُسمّى بئر أم عياض، و غلب على ظنه أن هذه البئر كانت من أسباب اختيار موقع القيروان.[2]

و يرجح M.Solignac أن مركزا صغيرا آهلا يكون قد وُجد في المكان الذي أسس فيه عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة 50هـ/580 م، و لم يكن سوى مركز أماميّ صغير و متواضع، في خط الدّفاع البيزنطي، تُزَوّده بالماء بئر أُمّ عمرو[3] و في مكان آخر صحح Solignac هذه التسمية بناء على ملاحظة قدّمها له H.R.Idriss فصارت بئر أم عياض بدلا عن بئر أم عمرو، و أضاف نفس المؤلف أن الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أَخْبَرَهُ في رسالة بعث له بها في 14 ديسمبر 1953 م، أن بئر أم عياض القديمة تحمل اليوم تسمية بئر تَكْفَة (Tekfa)، و هي تقع على بعد بضعة أمتار جنوب حائط المسجد الجامع؛ و بالمناسبة لاحظ عبد الوهاب، أثناء إعادة قراءته لمخطوط قديم، وضوح أسبقية بئر أم عياض بالنسبة لبئر بَرُوتة (Barouta) التي كانت حتى ذلك الحين تعتبر أقدم نقطة مائية في القيروان.[4]

و خلاصة القول: فإن بئر أم عياض كانت موجودة قبل القرن الثامن الميلادي، في حين أن بئر بَرْوتَة يعود تاريخ حفرها إلى نهاية القرن الثامن الميلادي.[5]

1- المالكي: كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقية و زُهادهم و عُبادهم و نساكهم و سيَر من أخبارهم و فضلائهم و أوصافهم، نشره حسين مؤنس، القاهرة 1951، ص 60.

2- تاريخ المغرب و حضارته، مج 1، جـ1، ص 292.

3- Recherches sur les Installations hydrauliques de Kairuan et des Steppes tunisiennes, p.14.

4- Ibid, p.385؛ يقول Solignac المقصود هنا و الذي لا أملك في شأنه معلومات أخرى، يشير إلى أن الوالي العباسي هرثمة بن أعين ، حفر أثناء ولايته بئرا واسعة الحواف بسوق الأحد، أي في موقع بَرُوتة الحالي، و ذلك سنة 180هـ/ 796 م (Ibid, pp.385-386).

5- Ibid, p.386.

و يخبرنا البكري أنه " لما كانت خلافه هشام بن عبد الملك[1] كتب إليه عامله على القيروان يُعلمه أن الجامع يضيق بأهله و أن بجوفه (شماله) جنة كبيرة لقوم من فهر فكتب إليه هشام يأمره بشرائها و أن يدخلها المسجد الجامع ففعل... و بنى الصومعة في بير الجنان، و نصّب أساسها على الماء..." [2] و الذي يهمنا من نص البكري هنا أن عملية شراء الجنان الواقع شمال الجامع و توسيع المسجد فيه ثم بناء الصومعة على البئر هي التي جعلت البكري يتحدّث عن هذه القضية و يشير إلى وجود بئر في سياق كلامه مما يبعث على الاعتقاد أن آبارا كثيرة، تكون قد وُجدتْ خارج القيروان و غيرها من المدن و القرى لكنها لم تستطع أن تحظى باهتمام البكري و غيره من الجغرافيين و المؤرخين العرب، طالما لم يكن لها علاقة بحادث مهم مُشابهٍ لحادث جنة الفهريّين المذكورة هنا.

و في وصف البكري للطريق من وهران إلى القيروان يتحدث عن " آبار كثيرة طيبة " بقرية مجدول على مرحلتين إلى الغرب من القيروان[3] و لكنه يلاحظ أن تلك القرية " لها غدير يعرف ببحيرة مجدول، منه شربهم "[4] و هذا شيء لافت للنظر، إذ العادة تقضي أن تكون الأفضلية في الاستهلاك لماء الآبار و العيون؛ فالأمر هنا يحتاج إلى تفسير، و مع الأسف فإن البكري لم يذكر أسباب ذلك.

و في حديث نفس المصدر عن قرية جمونس الصابون الكبيرة، الواقعة على مرحلة غرب قرية مجدول يذكر أن لها " آبارا عذبة... في سند جبل، حولها رمل كثير، و شجر الزيتون... و بها غدير ماء كبير "[5] لكنه لم يبيّن، كما فعل عند وصفه لمجدول، ما إذا كان شرب السكان من الغدير أَمْ من الآبار و جمونس الصابون بالنسبة للمقدّسي هي مدينة رُستاق، أي ناحية قمودة، و هي من الرساتيق أي النواحي التي كان شرب أهلها من الآبار بالإضافة إلى مرماجنة من عمل رستاق تبسة، و رُستاق قبيشة و مدينته طَرناسة، و رُستاق رُصفة و مدينته بنُونش

1- هو الخليفة الأموي العاشر، تولّى الخلافة سنة 105هـ/724 م و استمر حكمه ما يقارب عشرين سنة (Mac Guckin de Slane : op.cit, p.53, note 2) .

2- المغرب، ص 23؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.53 .

3- المغرب، ص 75؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.154 .

4- نفسه؛ Id .

5- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.153-154 .

و طبرقة و بونة.[1]

و لهذه المدينة الأخيرة " بئر على ضفّة البحر منقورة في حجر صلد، ماؤها أعذب مـــاء و أنفعه، و منها شرب أكثر أهلها لعذوبة مائها "[2] و تسمى بئر النّشرة، و هي في بونة الحديثة التي تبعد بثلاثة أميال عن مدينة بونة الأولية (القديمة) التي صارت تعرف بمدينة زاوي في عـــهد البكري (ق 5هـــ/11 م).[3]

و على مرحلة غرب قرية، جمونس الصابون، تقع مدينة مَذكود، أُمّ أقليم بلد قمونيـــة، و بها " آبار عذبة الماء، بعيدة الرشاء، و حولها ثمار كثيرة، من جميع الأصناف، أكثرها شـــجر التين ".[4]

و على مرحلتين خفيفتين من القيروان، في الطريق المؤدي منه إلى المسيلة، تقع قرية أجَر، بين مدينتي جلولا و الأربس، " ماؤها من آبار، و لهم زروع كثيرة من القمح و الشـــعير "[5] و على نفس الطريق، و في نفس الاتجاه تقع قرية مَهْريـــين، على خمسة مراحل إلى الشرق مـــن مدينة المسيلة " في فحص، ماؤها من آبار "[6] و بعد مرحلة من جهتها الغربية، علـــى نفـــس الطريق، تقع قرية تامسنت " و لها... آبار معينة "[7] و على مرحلة أخرى في نفس الاتجاه دائمـــا قرية دَكْمة " و شربها من آبار و غلاتـــهم من القمح و الشعير وافرة "[8] و علـــى مرحلتـــين أخرايتين، إحداهما خفيقة تقع مدينة المسيلة .

و يذكر البكري نقلا عن محمد بن يوسف أن قرية المستعين[9] الواقعة بين مدينتي سبيبة

1- Al- Muqaddasi : op.cit., pp.18et 20, Trad. Fr . pp. 19-21.

2- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 17؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan :op.cit, p.80 ؛ المغرب، ص 55؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.117 .

3- المغرب، ص 54-55؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.116-117 .

4- المغرب، ص 75؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.153 .

5- صورة الأرض، ص 86.

6- نفس المصدر، ص 87.

7- نفسه.

8- نفسه.

9- حســب Mac Guckin de Slane فـإن صغـة (Porthographe) هـــذا الاســم غـير مؤكـــدة (op.cit. p.280, note 2).

و القيروان بها " بئر طيبة عمقها ثلاثون قامة "[1] و حسب المصدر نفسه فإن قصـــر الزرادبـــة، بغرب القيروان " يُعرف بالخطّارة "[2] دون أن يتعرض لتفسير هذه الكلمة و في قرية منســـــتير عثمان الكبيرة، الواقعة بين القيروان و طبرقة، على بعد ست مراحل عن القيروان و ثلاث عـــن باجة، توجد " بئر لا تنــزف ".[3]

و الطريق الذي يربط وهران بالقيروان، مروراً بقسطيلية يأخذ، بعد الخروج من وهـــران على قصر منصور بن سنان ثم على مدينة العلويين قرب تلمسان ثم على نهر سي سي بن دمـــر[4] و منه إلى " أحساء عقبة بن نافع القُرشي(5)، و هي آبار كثيرة مبنية (مبطنة) بخشب العرعـــار (Thuya articulata) و تعرف بآبار العسكر يريـــدون عســـكر عقبـــة و يُســـمّى بالبربريـــة أرْسان "[6].

و بعد قطع مسافة ثلاث مراحل أو أربع في صحراء يُعثر على ساقية ابن خزر المســـماة أزمّرين [7] على مرحلة واحدة إلى الغرب من مدينة المسيلة[8] و منها إلى مـــــدن بنطيوس[9] في

1-المغرب، ص 146؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.280.

2-نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id.

3- نفس المصدر، ص 56؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.118

4- يترجم Mac Guckin de Slane عبارة " على نهر سي سي بن دمّر " بـــ " مدينة سي بن دمّر " (La Ville de Sei fils de Demmer) مضيفا أنها مبنية على نهر يحمل نفس الإسم (Bâtie sur un fleuve du même nom) كترجمةٍ لـــ " وهو نـــهر كبير " (أنظر. المغرب، ص 71؛ الترجمة الفرنسية (op.cit., p.147)) و قد يكون لـــ De Slane الحق في ذلك لأن البكري عندما يستأنف كلامه في وصف الطريق يقول " و منها إلى أحساء عقبة " فالضمـــــير " ها " لا شك أنه يعود على المدينة فلو كان يقصد النهر لقال : " و منه إلى ...".

5- يحدد de Slane موقع هذا المكان عند عين فرس الموجودة على الخرائط (الفرنسية)، غــــرب ملتقـــى وادي تـــرّة و وادي الحمام (op.cit., p.147, note 2).

6- المغرب، ص 71-72؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.147؛ و تطلق تسمية أرسان بالبربرية على كل المواضع التي تحفـــر لغرض الحصول على الماء أو الجواهر المعدنية، فهذه الكلمة تعادل إذا كلمة حاسي العربية (ج. أحساء) و كلمة معـــــدن (de Slane : Id, note 4).

7- جمع كلمة إيزمز، و هي كلمة بربرية، تعني خروفا (Ibid, p.147 , Note 6) .

8-Ibid, p.147, Note 5.

9- المغرب، ص 72؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.147،

الجزء الجنوبي لزاب بسكرة [1] " و آبارها ملحة "[2] و بداخل مدينة بسكرة " آبار كثيرة عذبة، منها في الجامع بئر لا تنـــزف "[3] و بمدينة تهودةالواقعة على مرحلة شرق مدينة بسكرة " بئر لا تنـــزف أوّلية (قديمة) و آبار كثيرة... و حولها بساتين كثيرة، من أصناف الثمـــار و ضـــروب البذر... "[4].

و بحصن بلزمة، الواقع على مرحلتين من قسطنطينة[5]، بين مدنتي باغايـــة و طُبنـــة [6]، على بعد خمسة فراسخ شمال غرب باتنة[7] " آبار طيبة، و ماؤها ... غدق، و هـــو في وســـط فحص أَفْيحَ "[8] كما أن مدينة سوق حمزة الواقعة بالقرب من مرسى الدجاج، على الطريق بـين هذه المدينة الأخيرة و بين المسيلة " بها آبارٌ عذبة ".[9]

و في حديث الادريسي عن " جزائر لبني مزغنّة " يذكر أن " شرب أهلها من عيــــون على البحر عذبة و من آبار "[10] و يلاحظ بشرشال الواقعة على سبعين ميلا إلى الغرب منـــها، وجود " مياه جارية و آبار معينة عذبة، و بها فواكه حسنة كثيرة... و بها كروم و بعض شـــجر تين، و ما دارَ بهَا بادية لأَهلها مواشٍ و أغنام كثيرة "[11] و في وصف البكري لمرسى شرشـــال يشير إلى أن " عليه مدينة عظيمة للأول (قديمة) غير مسكونة و له أحساء ماء "[12].

1- Mac guckin de Slane : op.cit., p.147, note 7 .

2- المغرب، ص 72؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.148.

3- المغرب، ص 52؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.112.

4- نفس المصدر، ص 72- 73؛ الترجمة الفرنسيةIbid, p149.

5- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 170.

6- المغرب، ص 50؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., pp 107-108.

7- de Slane : op.cit., p.107, note 6.

8- الادريسي: المصدر السابق،ص 171.

9- المغرب، ص 65؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.135؛ يلاحظ أن عبارة " و بها آبار عذبة غير مترجمة إلى الفرنسية.

10- القارة الافريقية و جزيرة الأندلس، ص 159.

11- نفس المصدر، ص 159.

12- المغرب، ص 81؛ يلاحظ أن de Slane ترجم عبارة و " له أحساء ماء " بـ " يمكن الحصول على الماء بـالحفر في الحصى " (on peut s'y procurer de L'eau en creusant dans les graviers) (op.cit., p165).

و في مدينة برشك الواقعة على بعد عشرين ميلا، غرب شرشـال، علـى البحـر[1]، " مياه جارية و آبار معينة "[2]، و بين برشك و تنس غربا، على الساحل، ستة و ستون ميـلا، و من تنس إلى مليانة برًّا مرحلتان [3] و المدينة الأخيرة تشرف على فحص شلف، و تقع علـى نهر " و لها آبار " عذبة ".[4]

و في منتصف الطريق بين تاهرت و تلمسان، أي على مرحلتين من كل منهما، تقـع قرية نَدّاي و بها " بئران ماؤهما معين "[5]؛ و في جوفي (شمالي) مدينة أرشقول، ساحل تلمسان، " آبار عذبة لا تغور، تقوم بمواشيهم "[6] و إلى الغرب من أرشقول مرسى ترْنانة، و عليه سكنى و له آبار ماء و غرب هذا الأخير مرسى عجرود[7]، و فيه آبار و هو مسكون، و إلى الغـرب منه مدينة جراوة ثم مدينة مليلة.[8]

و قد لاحظ ابن حوقل أن مدينة مليلة كانت ذات سور منيع " و كان ماؤهـا يحيـط بأكثر سورها من بئر فيها عين عظيمة "[9] و هو نفس ما ذهب إليه الإدريسي بقوله " و لها بـئر فيها عين أزلية كثيرة الماء و منها شربهم "[10] و في تعبيري " بـئر فيـها عـين عظيمـة" أو " بئر فيها عين أزلية كثيرة الماء " ما يوحي لنا أن هذين المصدريـن كـان يقصـدان، بكـل بـساطة، بئـرا أرتـوازية، و هـذا يـعني أن هذه الكلمة لـم تـكن مـعروفة و لا

1- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 158.

2- صورة الأرض، ص 77.

3- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 158.

4- المغرب، ص 69؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit., p.142

5- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 157.

6- المغرب، ص 77؛ الترجمة الفرنسية Ibid , p.157.

7- حسب de Slane فإن البكري أخطأ في تحديد موقع مَرْسى عجرود هنا؛ فمرسى عجرود في رأيه يقع عند مصب نهر قيس (Kis) الذي يمرّ بالقرب من جراوة. و كان موقع هذه المدينة على الضفة اليمنى لنهر قيس، على بعد ستة أميال من البحر . (op.cit., p.179, note 3).

8- المغرب، ص 89؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.179-180 .

9- صورة الأرض، ص 78؛ و يقصد ابن حوقل أنها كانت كذلك قبل أن يكتسحها جوهر الصقلـي، قـائد الخليفـة الفاطمي المعز لدين الله (نفسه).

10- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 253.

مستخدمة في بلاد المغرب، على الأقل حتى نهاية القرن 6هـ/12 م، و هي الفترة التي عاش فيها الادريسي.

و إلى الغرب من مرسى مليلة بعدة أميال طرف هرك (herek) " و له أحساء "[1] و بعد عشرة أميال غربا مرسى كَرَط " و فيه آبار "[2] و إلى الغرب منه يقع مرسى تمسامان.

و على مرحلتين من تلمسان غربا، من الطريق الرابط بين فاس و القيروان، تقع جراوة " و هي في سهل من الأرض... حولها أرياض... و عيون ملحة، و داخلها آبار عذبة، و خمس حمامات ".[3]

و في وصف ابن حوقل لمدينة سبتة يذكر أن " بها بساتين و أجنة تقوم بأهلها، و ماؤها من داخلها يستخرج من آبار بها معين و من خارجها أيضا من الآبار شيء كثير عذب "[4] غير أن البكري يذكر أن حماماتها " يُجلب إليها الماء على الظهر من البحر "[5] و يشير إلى " بستان و آبار "[6] فقط أمام قنطرة الخشب الموضوعة على الخندق الذي يفصل سور المدينة الغربي عن سور آخر لطيف من جهة الداخل.

و إلى الغرب من مدينة طنجة تقع مدينة أزيلَى[7]، و هي مدينة لطيفة " ماؤها، من آبار فيها، معين لذيذ "[8] و خارجها " آبار عذبة: بئر عدل و بئر السانية (أي البئر التي تستخدم فيها آلة الري المعروفة بالسانية) و آبار كثيرة "[9] و يلاحظ البكري أن " ماء آبار المدينة

1- المغرب، ص 99؛ يترجم de Slane مرّة أخرى عبارة " و لها أحساء " بـ " يُحصل على الماء الشروب بالحفر في الحصى " (on se procure de L'eau douce en Creusant le gravier).

2- نفسه ؛ الترجمة الفرنسية Id.

3- المغرب، ص 142؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.273.

4- صورة الأرض، ص 78-79.

5- المغرب، ص 103؛ الترجمة الفرنسية de Slane : op.cit., p.202.

6- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.203.

7- صورة الأرض، ص 79؛ يسميها البكري أصيلا، و يقول إنها أول مدن العدوة، من الناحية الغربية (الشمالية الغربية (المغرب، ص 111) و يسميها الإدريسي أزيلا و يضيف أنه يقال لها أصيلا، و يحدّد موقعها بمرحلة خفيفة جدًا من طنجة، و يذكر أنه لم يبق منها في عهده (ق.6هـ/12 م) إلاّ نزر (القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 250).

8- صورة الأرض، ص 79؛ قارن الإدريسي: نفس المصدر، ص 250.

9- المغرب، ص 111؛ الترجمة الفرنسية de Slane : op.cit., p.218

شريب "[1]أي زُعاق (Saumâtre). و ماء مدينة البصرة، الواقعة على الطريق الواصل من طنجة إلى فاس، " زعاق، و شرب أهلها من بئر عذبة، على باب المدينة، تعرف ببئر ابن ذلفاء، و خارجها في جنائنها، عيون كثيرة و آبار عذبة".[2]

و في المرحلة الأولى، عند الخروج من سجلماسة باتجاه فاس يمر الطريق من أرفود و منه إلى موضع " يقال له الأحساء، رمل " يحفَر فيه فينبعث الماء على ذراع و نحوه، في بلد زناتة "[3].

و في وصفه للطريق العابر للصحراء، و الذي كانت تقطعه القوافل، بين مدينتي تامدلت و أَوْدغُست، يذكر البكري خمس عشرة نقطة أو بئرا للتزوّد بماء الشرب " يتراوح بُعدُ بعضها عن البعض الآخر، من يوم إلى خمسة أيام، و الكثير منها زعاق، لا يصلح للشرب[4] و تنتهي مسافة هذا الطريق بمدينة أودغست " و هي مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير، موت (قاحل)، لا ينبت شيئا... و لها بساتين النخيل و يزدرع فيها القمح بالفوس (فؤوس) و يُسقى بالدّلاء، يأكله ملوكهم و أهل اليسار منهم، و سائر أهلها يأكلون الذرّة، و المقاثي تجود عندهم، و بها شجيرات تين يسيرة أيضا، و بها جنان حناء... و بها آبارٌ عذبة، و الغنم و البقر أكثر شيء عندهم..."[5].

و يحصر الحبيب الجنحاني موارد منطقة أودغست المائية، نقلا عن ياقوت الحموي (جـ.1، ص 278) ، كما يقول، في موسم الأمطار الصّيفية و في الآبار، و يستنتج من نصوص الجغرافيين العرب، كما يضيف، أن الآبار العذبة بالمدينة و ضواحيها هي التي تسدّ حاجات السكان و تمدّ، في نفس الوقت زراعة البستنة بما تحتاجه من مياه و لا سيما في غير فترة موسم الأمطار[6] لكن المصادر العربية لا تشير إلى إطلاقا إلى موسم الأمطار الصيفية في فصل الصيف

1-المُغرب، ص 111؛ الترجمة الفرنسية Imac guckin de Slane : op.cit., p.218.

2- المغرب، ص 110؛ الترجمة الفرنسية de Slane : op.cit., p.216 .

3-نفس المصدر، ص 147؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.28.

4- نفس المصدر، ص 156 فما بعدها الترجمة الفرنسية V. Monteuil : Al- Bakri , p.50 Sq.

5-نفس المصدر، ص 158؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.52 ،

6- الحبيب الجنحاني؛ المرجع السابق، ص 206-207.

بأودغست و لا تشير إلى وجود خزانات للماء، من صهاريج و مواجل و جباب، كما هو الشأن في بقية مناطق المغرب التي تسقط بها أمطار موسمية.

و في وصف البكري للطريق ما بين تادمكة (السوق) بأدرار إيفوراس و بين القيروان يسجّل أن مسافة أربعين مرحلة التي تقطع من هذا الطريق، بين تادمكة و غدامس هي في صحراء و " الماء فيها على مسيرة اليومين و الثلاثة، أحساء (أي آبار قليلة العمق) "[1].

و في وصفه لطريق آخر بين المدينتين المذكورتين يفيد أن المسافر عند خروجه من تادمكة يسير ستة أيام في بلد سغمارة ثم " في مجابة أربعة أيام إلى الماء ثم مجابة ثانية أربعة أيام أيضا و في هذه... معدن لحجارة تسمى تاسي النسمت... و تسير من هذه المجابة إلى مجابة ثالثة، و في هذه المجابة معدن الشب... و إلى مجابة رابعة أحد عشر يوما في رمال جرد لا ماء فيها و لا نبت..."[2].

و يُستخلص de la roncière مما رواه الجغرافيون العرب عن طريق القوافل التي تتوغّل من تافيلالت في الصحراء، أن الماء يكون متوفرا في منطقة درعة ثم يَنْدُر وجوده في السهل الصحراوي الذي يأتي بعد قطع جبل الحديد، فكان لزاما على المسافرين اصطحاب جمال محمّلة بالماء فقط لاجتياز الصحراء الحارقة، ثم يتمّ نحرها بعد فراغ ما تحمله من قرب لغرض جمع ماء كرشها.[3]

و يرى V.M. godhino أن طريق تامدلت- أودغست تأسس عبر الصحراء الأطلنطية، منذ القرن الثامن على أبعد تقدير، و كان التجار يسلكونه من سجلماسة إلى السفوح الجنوبية لجبل درن (Anti- Atlas) حيث أنشئت مدينة تامدلت، و على مسافة يوم منها يمكن للقافلة أن تنتعش من بئر الجمالين، أوّل الآبار المنقورة بمبادرة عبد الرحمن بن حبيب الفهري، و بعد اجتياز جبل باني، تحتاج إلى ثمانية عشر يوما كَيْ تبلغ السفح الغربي لجبل أدرار الموريطاني، و ترتوي، أثناء قطع هذه المسافة، ست مرّات من آبار و عيون، دون أن تتجاوز أطول مسافة،

1- المغرب، ص 182؛ الترجمة الفرنسية V. Monteuil : op.cit., p.78 أنظر H. lhote الذي يصف البكري بالرحالة (و هذا خطأ بطبيعة الحال) (Les salines d'Amadror et le géographe el – Bekri, Bulletin de liaison saharienne , no 14, octobre 1953, pp.54 .

2- المغرب، ص 182-183؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.79؛ أنظر H. lhote : op.cit., p.55.

3- La découverte de l'Afrique au Moyen Age, Charthographes et explorateurs, T.I., mémoires de la société royale de géographie d'Egypte, T. V, 1924, pp.82-83.

قطعت بلا ماء، أربعة أيام؛ ثم تستغرق خمسة أيام لاجتياز كثبان رملية (عروق) و تتزوّد خمس مرّات بالماء، فيما بقي عليها أن تقطعه من مسافة بين أدرار و أودغست، من آبار يبعدُ بعضها عن بعض من اليومين إلى الثلاثة أيام.[1]

و أثناء قطع الطريق الواصل ما بين أوليل و نول، على وادي نون، أو ما بين أوليل و سجلماسة و الذي كانت مدة قطعه تستغرق ما بين شهر و نصف إلى ثلاثة أشهر، كان على القوافل أن تحادي السواحل حتى تقترب من أرْغين (Arguin)حيث كانت تجد في طريقها يوميا، تقريبا، آبارا في الرمل أي أحساءا يتراوح عمقها ما بين 1.50 م و 4 م، و بعد Arguin كانت تبتعد بمسافة يوم أو يومين عن الساحل، نحو الدّاخل، كي تستفيد من صفّ الآبار المحفورة في صفا (صخور) على عمق يزيد عن 20 م و يبعد بعضها عن بعض من اليومين إلى الثلاثة أيام، و تنتهي بالقُرب من وادي الذهب و منه إلى الساقية الحمراء ثم درعة.[2]

و كان طريق إيوالاتن (Oualata) الذي اتبعه ابن بطوطة سنة 1352 م، انطلاقا من سجلماسة و سَارَ فيه، على طول نهر زيز، مدّة خمسة و عشرين يوما ليصل مدينة منجم الملح، تغازا، حيث تزوّدت القافلة بالماء لاجتياز مسافة عشرة أيام، في الصحراء، و لحسن حظها أنها وجدت، في طريقها، بِرَكًا تركتها آخرُ الأمطار، فارتوى منها الرجال و الحيوانات ثم توقفوا عند تَسارحلة (Taçarahla) و هي نقطقة أخرى للتزوّد بالماء، و بعد أسبوع من السير في صحراء الجوف، بعد ذلك، دخلت منطقة الساحل حيث تلقاها أفراد من قبيلتي مسوفة و بردمة، قَدِمُوا للقاء التجار و بيعهم أحمال الماء.[3]

و قد قام بحفر بعض هذه الآبار، على الطرق الصحراوية، السلطات الحضرية و بعضها الآخر القبائل الرّحل التي كانت سيدة الموقف، فهي تسيطر على نقاط الماء و بإمكانها ردم الآبار و منع الوصول إليها و هي التي توفر للقوافل التكشيف أو الدليل و هو شخص كان يسبق القافلة مرفوقا برسائل يبعث بها رجال القافلة إلى أصدقائهم، كي يؤجروا لهم منازل و يأتوا لاستقبالهم مزوّدين بالماء، و إن حدث أن تاه الدليل أو مات، تعرّض أفراد القافلة للموت عطشا، و الماء كثيرا ما ينقص إلاّ في طريق أو اثنين، و يكون ما يعثر عليه زعاقا،

1- L'économie de l'empire portugais aux XV et XVI e S, P.103.

2- Id.

3- Id.

لا يصلح للشرب في غالب الأحيان.[1]

الفرق بين العين و الحاسي (الحسي) و البئر:

و يذهب سعد زغلول عبد الحميد، إلى القول: إنه بفضل أمطار جبال الأطلس الصحراوي و بعض أمطار إفريقيا الوسطى الموسمية تتجمع المياه تحت سطح التربة و تتفجر في شكل عيون و آبار أرتوازية في الواحات الشمالية، بوادي ريغ و وادي الجريد و وارقلان و صحراء وهران و توات؛ أما قلب الصحراء حيث لا يتجاوز متوسط المطر 125 مم في السنة إلا في حالات استثنائية، فيكون الاعتماد فيه على ماء الآبار: من أحساء سطحية أو حفائر عميقة، من عذبة حلوة أو ملحة أجاجة، و الظاهر أن آبار تلك الصحراء كلها معينة تصلح لسقايا الإبل و حيوانات الصحراء فقط، و هذا ما يفسر كيف كانت أموالهم الأنعام و معيشتهم من اللحم و اللبن و مثلها.[2]

لكن موضوع تجمع المياه في الطبقات الجوفية و انبثاقها في شكل عيون أو آبار أرتوازية أو عدم انبثاقها و أماكن تواجدها و طعمها كل هذه الأمور تخضع لظروف محلية يتطلب أمر التحدث فيها دراسة خاصة تؤخذ فيها بعين الاعتبار عدة عوامل مناخية و جيولوجية؛ و نكتفي فيما قال سعد زغلول هنا بتسجيل نقطة تبدو لنا هامة جدا و تتعلق بالفرق بين الحاسي و البئر.

فهو يقسم الآبار إلى أحساء (ج.حاسي أو حسي) سطحية و حفائر عميقة؛ و الذي يستخلص من المعلومات التي أوردها المصادر في هذا الموضوع: أنها كانت تفرق فعلا بين البئر و الحاسي أو الحسي: فكلمة البئر هي الشائعة أكثر و تطلق على الحفرة ذات العمق الكبير الذي قد يتجاوز 60م. في حين أن كلمة الحاسي أو الحسي تطلق على الحفرة ذات العمق البسيط، و يعرف ابن منظور كلمة الأحساء، و مفردها حسي،على أنها حفيرة قريبة القعر،لا تكون إلا في أرض أسفلها حجارة و فوقها رمل،فإذا أمطرت نشفه الرمل فإذا انتهى إلى الحجارة أمسكته.[3]

و يعرف Capot- Rey البئر أو الحاسي بما تتجاوز عملية الحفر فيه، بحثا عن الماء، عمق متر واحد[4] و هو هنا لا يحاول التفريق بين البئر و الحاسي؛ و في مكان آخر يذكر أن هناك

1- أنظر ;M. Lombard : les métaux dans l'ancien monde, V^{e} – XI^{e} S.pp 223-224 ; godhino : op.cit., p.103 .

2- تاريخ المغرب العربي، جـ.4، ص 61 فما بعدها.

3- لسان العرب، مج.1، ص 640.

4- op.cit., p.13 .

عُيونًا كثيرة، لا تسيل في حالتها العادية، إلاّ قليلاً، فإذا ضــعف منسوبها بعض الشيء، تَحجَّـر الماء بقعر حفرتها، و في هذا الحالة ينبغي رفعُه لاستغلاله، فتتحول العين عندهــا إلى بـئر و إذا ارتفع منسوبها من جديد و عادت إلى السيلال صارت عينا مرّة أخرى.[1]

فالعين هي التي يسيل ماؤها خارج حفرتها، إذا في حين أن كلاّ من البـئر و الحاسـي يحتاجان إلى رفع الماء من حفرتيهما لاستغلاله؛ و يلاحظ Capot- Rey أن كلمــة آيـر (Air) و تعني العين، تطلق كذلك على بئر أرتوازية، و تطلق في موريطانيا أحيانا، على بـئر عاديـة مُسندة (Coffrée) بالحجارة، في مقابل بئر غير مسندَة و هي الحاسي [2].

الآبار العادية و الآبار الأرتوازية:

و يقسم E. F. gautier الواحات الصحراوية، عموما، إلى صنفين: منها ما يكون المـاء فيها على وجه الأرض، في متناول الإنسان كما هو الشأن في منـاطق شاسـعة مـن فـزان و البوركو و في الكفرة؛ و منها ما يحتاج إلى عمل معتبر في باطن الأرض كمـا في الواحـات المصرية بالصحراء الليبية، من جهة، و الواحات الجزائرية، من جهة أخرى، و على الرغم مـن البعد بين الجهتين فإن هناك صلة بينهما يؤكدها التشابه في التقنيـات، إضافـة إلى الروابـط التاريخية، بدليل أن سكان وادي ريغ، ينسبون أصل آبـارهم الأرتوازيـة إلى ذي القرنـين، الإسكندر الأكبر، الذي يعتبر تجسيدا لأمون (Ammon)، الإله المجسد في رأس الكبش، و يشير قدماء المؤلفين، و من بينهم Corrippus، على سبيل المثال، إلى انتشار عبادة الكبـش وسـط القبائل الصحراوية، و هذا يؤيد ما نعرفه عن سيوة، واحة جوبيتر آمـون (Jupiter Ammon)، باب دخول المؤثرات المصرية إلى الصحراء[3].

و يقسم نفس المؤلف كذلك واحات الصحراء الجزائرية إلى مجموعة شرقية، و هي مجال للآبار الأرتوازية، و مجموعة غربية تسقى بالفجرات:

ففي الشرق يشكل وادي إيغرغار الأسفل طية مقعرة شاسعة و منتظمة جدا، حيـث أن الطبقات كلها لها هيأة قعر سفينة أو ملعقة، بدءا بالطبقة الطباشيرية، في القاعدة إلى طبقـات

1- Capot- Rey : op.cit., p.319 .

2- Ibid, p.309 .

3- le Sahara, p.146؛ عنها أنظر الخريطة رقم 1.

الطمْي السميكة التي تغطيه، و العيون لا تنعدم هنا تماما و يطلق عليها السكان اسم البحر، و هي تسمية تطلق عادة، على كل ماء جارٍ و عميق، و البحور عبارة عن بحيرات صغيرة، غالبا مَا تكونُ على شكل فوهة بركان (cratériforme)، و قد تكون عميقة جدًّا، بالنسبة لمساحتها الصغيرة، و ربُّما وصل عمقها إلى أربعين مترا، و تلك البحيرات ليست سوى فتحات معزولة، إلى حدّ ما، للطبقات المائية العميقة، و قد تكون فكرة الآبار الأرتوازية، ذات المياه المتفجّرة منبثقة عنها[1].

و أقدم ما يوحي بوجود آبار أرتوازية ببلاد المغرب، ما أشار إليه ابن حوقل في القرن الرابع الهجري(10م) عن وجود " بئر فيها عين عظيمة "[2] بمدينة مليلة، القريبة من سبتة و هو ما أكّده الإدريسي فيما بعد (ق 6هـ/12 م) بقوله: إن لها بئراً " فيها عينٌ أزلية كثيرة الماء و منها شربهم "[3].

و في حديث ابن خلدون عن طريقة " استنباط المياه الجارية " في " البلاد الصحراوية إلى ما وراء العرق " دليل قاطع على أن الأمر يتعلق بالآبار الأرتوازية، بحيث يوضّح أن " البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى، و تُطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فَتُنحتّ بالمعاول و الفؤوس إلى أن يرقّ جُرمها، ثم يَصعد الفَعَلة (الصناع) و يقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها عن الماء، فينبعث صاعداً فيفعم البئر، ثم يجري على وجه الأرض واديا... و هذه الغريبة موجودة في قصور توات و تيكورارين و واركلان و ريغ"[4].

و الشيء المؤكد أن كلمة " أرتوازية " التي صار هذا النمط من الآبار يوصف بها فيما بعد القرن الثامن الهجري (14م)، عصر ابن خلدون، لم تكن معروفة في المنطقة قبل ذلك و لم تكن المصادر تفرّق بين الآبار العادية التي تتطلب عملية إخراج مائها منها مساعدة الإنسان و الآبار الأرتوازية التي يندفع ماؤها تلقائيا خارجها و يسل على سطح الأرض كما يسيل ماء العيون.

1- E.F. gautier : le Sahara, p.147 Sq.

2- صورة الأرض، ص 78.

3- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 253.

4- كتاب العبر، ط. دار الكتاب اللبناني 1959، جـ7، ص 119.

و الآبار الأرتوازية هي التي يصل عمقها إلى الطبقة المائية الجوفية، و قد يمتدّ هذا العمق إلى عشرات الأمتار و تُمتّنُ بخشب الأقاقيا أو القرظ* (Acacia)، و هي منتشرة اليوم بواحات الجريد و نفزاوة بتونس و واحات وادي ريغ و واجلان في الجزائر، مع العلم أن الطّرق المحلية (القديمة) لحفرها ما تزال قائمة إلى اليوم، و هي معروفة جدًّا، على أية حال: ففي الواحات المصرية، بالصحراء الليبية، عثر الأوربيون على مجموعة من الأدوات التي كانت متطوّرة، و منها على سبيل المثال، ساق معدنية لثقب الطبقة الأخيرة الصلبة، بين أيدي حافري الأبار؛ أما في الواحات الجزائرية فلم يكن لحافر البئر، فيما عدا فأس و قفّة، سوى يديْه العاريتين، و كان الفقر في الأدوات يُعوّض بوسائل خاصة به، و كان حُفّارُو الآبار يشكلون أكثر من هيئة (corporation) بل كانوا قبيلة يرث فيها الأبناء، عن الآباء، تقاليد المهنة، إضافة إلى تدريب وراثيّ قائم على تكييف الجسم، إذ يمكنهم أن يمكثوا تحت الماء عددا مذهلا من الدقائق، و أن يتحملوا في قعر البئر ضغط عمود مائي سُمكُه خارق للعادة، و كانوا يتقبلون ببطولة هادئة التعوّد على مخاطر المهنة.[1]

و في المجموعة الغربية توجد في بعض النقاط بلّوعات (puisards) خاصة، في مجرى وادي الصاورة، حيث يحافظ انتظام الفيضانات على الطبقات المائية السطحية، و تلك هي الآبار التي تُستَغَلّ بالرجّاجة (bascule) و تسمى هنا خُطّارة، و هي بالضبط الشاذوف المصري[2].

أمّا واحة ميزاب الممتدّة على 43000 هكتار في الصحراء الجزائرية فهي تقع في قفار مُرعبة، بين الواحات الشرقية و الواحات الغربية، و لا تنتمي إلى أيّ منها، إنها في وسط قعرِ مجاري أودية العصر الجيولوجي الرابع، قريبة من الطبقة المائية الجوفية، مع أن عمق الآبار التي تحفر في أصلب كِلس بها يصل إلى حوالي 60 م مما يجعل الخُطارة غير قابلة للاستعمال؛

---

*- القرظ (Acacia arabique) هو شجر عظيم يستخرج صمغٌ مشهور (أنظر يوسف محمد رضا، مادة Acacia).

1- E.F gautier : op.cit., p.149.

2- Ibid, p.152؛ و الشاذوف: آلة لأخذ الماء من نهر أو بئر (المنهل، ص 182)؛ حسب Capot – Rey فإن الصحراء مزروعة بعدد لا يحصى من البلوعات يُغرف ماؤها باليد تصلح فقط لشرب الناس و الحيوانات (op.cit , pp.319-320)؛ أنظر الصورة رقم 2.

و يتولى سحب الدلاء الحيوانات، من أحمرة و جمال غير أن كُلفتها باهظة.[1]

و هناك آبار أرتوازية يُمكِنـــها أن تعطـــي المـــاء بوفـــرة لكنـــها ليســـت متدفقـــة (non jaillissante) بسبب نقصان الضغط العائد إلى بُنية الأرض الباطنية، فبقيت معزولة، غـــير مستعملة كما في الواحات الواقعة بين منطقتي توات و قورارة (gourara).[2]

و لكي تكون البئر صالحة للرّي، حسب Capot – Rey ينبغي ألاّ يكون عمق طبقتـــها المائية كبيرا جدًّا، و إلاّ كان مَرْدُودها، بوسائل الغرف التقليدية ضعيفا، لا يزيد عـــن بضعـــة مئات من اللترات في الساعة الواحدة، على أكثر تقدير، فالبئر العادية التي يزيد عمقـــها عـــن 60 م، لا تصلح للرّي، كما أن البئر، ذات المنســـوب الضعيـــف جـــدًّا، 1/2 أو 1/4 ل/ث، لا تكون مفيدة للزراعة، مهما كان عمقها.[3]

آلات السقي المستعملة في استغلال مياه الآبار:

و الذي يمكن تسجيله من المعلومات التي زوّدتنا بها المصادر العربية في طرق اســـتغلال مياه الآبار: ما أورده البكري (ق.4 هـــ/10 م) من أن نخيل زويلة بفزّان و بسائط زرعها يُسقى بالإبل[4]؛ و ما ذكره أيضا في سقي الماء من آبار في قرية مَنَانُش بالدواليب و صبّه في محبـــس ليجري منه في قناة تصب في صهريج بالمهدية و منه يرفع بالدواليب إلى قصر الخليفة عبيـــد الله المهدي[5]؛ و ما أشار إليه من أن قصر الزرادية، بغرب القيروان يُعرف بالخطّارة[6] و من إطـلاق اسم " بئر السانية "[7]على بئر خارج مدينة أزيلى أو أصيلة و من أن القمح الذي يـــزدرع في أودغُست بالفؤوس يُسقى بالدلاء.[8]

و قدْ أورد الإدريسي (ق.6 هـــ/12 م) من جهته أن قصر توكرة الواقع علـــى بعـــد مرحلة و نصف تقريبا إلى الغرب من طلميثة " فيه قوم من البربر، و حوله أرض عامرة و سوان

1- gautier : op.cit, pp.152-153؛ أنظر الصورة رقم 3، 4.

2- Ibid, p.152 .

3- op.cit., p.320،

4- المغرب، ص 10.

5- نفس المصدر، ص 29-30.

6- نفس المصدر، ص 146.

7-نفس المصدر، ص 111.

8- نفس المصدر، 158.

يزرع عليها القطاني "[1] كما أشار نفس المصدر إلى أن قصر اليهودية الواقع على بعد أحد عشر و مائة ميل إلى الشرق من قصور حسان، في منطقة طرابلس فيه " زراعات على مياه تستخرج بالسواني من الآبار "[2]؛ و في حديثه عن مدينتي جَرمة و تَسَاوة بفزّان ذكر أن مياههما " من آبار، و عندهم نخيلات، و يزرعون الذرّة و الشعير و يَسْقُونهما بآلات يسمونها أنجقة أو أنجفة و تسمى ببلاد المغرب هذه الآلة بالخطارة "[3].

و من كلام هذين المصدرين يمكن استنتاج أنه: لا يستبعد أن الإبل التي كان زرع فزّان يُسقى بها، و التي تحدّث عنها البكري ، هي التي كانت تدير الآلة المسماة أنجفة أو أنجقة في نفس المنطقة و تسمّى خطارة بالمغرب أي بمعنى آخر في بقية بلاد المغرب التي تحدّث عنها الإدريسي و ما تَسْمِّية قصر الزرادبة، غرب القيروان، حسب البكري، بالخطارة إلاّ دليل على أنها كانت معْروفة في عهده مثلها مثل الدولاب* الذي استخدمه الخليفة الفاطمي الأول، عبيد الله المهدي، في رفْع الماء من الآبار و الصهاريج.

كما يمكن أنْ يُستنتج مما ذكره ابن حوقل (ق.4هـ/10 م) أنّ سوق كِرَان (أو كرام) على بعد مرحلتين من مدينة أشير هو عبارة عن حصن له " مزارع و سوان "[4] و أن مدينة الخضراء القريبة من مليانة لها " فواكه و سوان "[5] و لمدينة بني واريفن الواقعة على نهر شلف، قرب مليانه " كروم و سوان كثيرة "[6] هي الأخرى، و ما ذكره أيضا البكري عن تسمية بئر خارج مدينة أصيلة، في أقصى بلاد المغرب بالسانية و ما أورده الادريسي عن سوان يزرع عليها القطاني في قصر توكرة، على حوالي مرحلة و نصف غرب طلميثة، في أوّل بلاد المغرب، من جهة الشرق و ما تحدّث عنه من " كروم و جنات ذوات سوان... معظمها على نهر شلف "[7] في بني وازلفن الواقعة في بداية الطريق، من تنس إلى المسيلة؛ كلّ هذه المعلومات

1- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 215.

2- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 215.

3- نفس المصدر، ص 93.

*- عن آلات السقي أنظر ما بعد، ص 227 فما بعدها

4- صورة الأرض، ص 90.

5- نفسه.

6- نفسه.

7- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 154.

تبيّن بوضوح أن انتشار هذه الآلة كان واسعا و مبكرا ببلاد المغرب، إلاّ أن المعلومات التي زوّدنا بها صاحب كتاب الاستبصار و مفادها أن جداول الماء الكثيرة التي كانت تخترق مدينتي فاس تُعرف بالسَّواني من شأنها أن تضفي طابع الشك على مفهوم هذا المصطلح.

و مع الأسف الشديد فإن المصادر المذكورة لم تقدم شروحا عن الآلات التي ذكرتها و لا عن كيفية تشغيلها و لا توجد عن هذا الموضوع معلومات أكثر في غيرها من المصادر و لذلك كان الأمر يتطلب الرجوع إلى مصادر أخرى تناولت الحديث عن هذه القضية في مناطق أخرى ذات تأثيرات حضارية مشتركة و متبادلة، إن وجدت.

و لحسن الحظ أن C. Cahen عثر على مخطوط في المكتبة الوطنية الفرنسية تحت رقم 2462 عنوانه " كتاب الحاوي للأعمال السلطانية و رسوم الحساب الديوانية " كتبه صاحبه، على ما يبدو، في القرن الحادي عشر الميلادي و عرض فيه " شرح ما يستقيه النواعير و الدواليب و الغرافات " فنشر نصه و ترجمه إلى الفرنسية تحت عنوان:«le service de l'irrigation en I raq au début du 11e siécle, bulletin d'études orientales, T. XIII, 1949-1951»

و مما جاء فيه أن:" النواعير المسحرات الدّائرة " أي أن النواعير هي آلات خشبية دوارة، و إذا كان الناعور كاملا، كان عدد كيزانه ثمانين كوزا، و كان كل كوز يحمل خمسة عشر رطل ماء (7.650 ل) فتكون في مجموعها ألفاً و مائتي رطل (612 ل)، و يسقى بها في كل ساعة من ساعات الليل و النهار جريبٌ (1,47 هـ)، و في اليوم أربعة و عشرون جريبا (35 هـ)، و الذي يُسقيه الناعور في الشتوي (في الشتاء) ثلاثمائة و خمسين جريبا إلى أربعمائة جريب (515 إلى 588 هـ)، و في الصيفي (الصيف) ثمانين جريبا (119 هـ).[1]

و قد توصل G.S. Colin في دراسة له، عن النواعير المغربية (marocaines) الكبيرة التي تحركها المياه بفاس و ضواحيها، إلى نتيجة مفادها أن الناعور الأول بفاس أقيم في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، في عهد السلطان المريني يعقوب بن المنصور بن عبد الحق

1- مؤلف مجهول: كتاب الحاوي للأعمال السلطانية و رسوم الحساب الديوانية، نشره و ترجمه إلى الفرنسية C. Cahen : le service de l'irrigation en Iraq au début du 11e siécle, Bulletin d'études orientales, T. XIII, 1949-1951, texte arabe, p.118, trad. Française, p.130؛ و الرطل في لسان العرب ما يوزن به و يُكال و يساوي اثنتيعشرة أوقية بأواقي العرب، و الأوقية أربعون درهما أي أن الرطل يساوي أربعمائة و ثمانين درهما (ابن منظور، مج.2، ص 1180)؛ و الجريب، من الطعام و الأرض، يعادل عشرة أقفزة؛ و العشير جزء من مائة جزء من الجريب (نفس المصدر، مج.1، ص 429)؛ أنظر الصورة رقم 4.

(1259–1286 م) بناه له محمد بن الحاج الإشبيلي[1] لكن البكري، يخبرنا بأن الماء الذي كان يأتي القصرين المعروفين بالأختين في قرطاجة من الشمال و يصب في البحر، كان عليه نواعير لقرى قرطاجنة[2] و هو نفس ما يذهب إليه صاحب كتاب الاستبصار بإضافة كلمة سواني إلى كلمة نواعير[3] و يذكر هذا الأخير في وصفه لمدينة بجاية أن " لها نهرا كبيرا يقرب منها بنحو الميلين أو دونهما وعليه كثير من جناتهم و قد صنعت عليه نواعير تسقي من أنهر "[4] مما يدل على أن مصطلح النواعير (مفرد ناعور، أو ناعورة) كان معروفا في القرن السادس الهجري (12 م) و لكن المشكل الذي يبقى مطروحا هو المقصود بالضبط بهذه التسمية، خاصة إذا عرفنا أن مدلولها كان يتغير من منطقة إلى أخرى.

أما الدولاب، الذي كان معروفا ببلاد المغرب منذ بداية القرن الرابع الهجري (10 م) فمثله، كمثل الناعور و لكنه أسرع في الدوران، و ما يديره ثور واحد يسقي في يومه عشرة أجربة (14.7 هـ) و ما يديره رأسان، و يسمى النرد، يسقى من الشتوي (شتاء) مائة و خمسين جريبا (223 هـ) و من الصيفي (في الصيف) سبعين جريبا (103 هـ)، و يزرع ما يسقيه الثور الواحد، في الشتوي (الشتاء) سبعين جريبا (103 هـ) و في الصيفي ثلاثين جريبا (44 هـ)، و يسقي الدولاب من غلات الصيفي أكثر من الشتوي، لأن البقر تدور في الشتاء نهارا و في الصيف تدور ليلا و نهارا.[5]

1- l'origine des norias de Fes, Hespéris, T. XVI, fase 1-2, 1er 3émé trimèstre1933, p.156 ; و حسب Capot- Rey فإن الناعورة الآن (في النصف الأول من القرن العشرين) توجد في أطراف الصحراء الشمالية، في تافيلالت و في وادي ريغ و في منطقة طرابلس؛ أما في جنوب هذه المناطق، في الصحراء، فلا توجد المواد الضرورية لبنائها، من خشب و جير أو إسمنت و حتى الحجر الخاص ببناء فتحة البئر أحيانا، مع العلم أن النعورة لا تستعمل إلا قليلا بسبب ثقل سلسلة الكيزان، إلا إذا كان عمق البئر أقل من ثمانية أمتار، و مع ذلك فإنه من الممكن الوصول إلى مثل هذا العمق بطريقة اقتصادية أكثر: هي المترجحة (op.cit. pp 323-324).

2- المغرب، ص 44.

3- مؤلف مجهول، ص 13.

4- مؤلف مجهول: ص 21؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit, p.36 .

5- مؤلف مجهول: كتاب الحاوي، ص 118–119؛ الترجمة الفرنسية C. Cahen : op.cit., pp.130-131 .

و تفرق المعاجم العربية، حسب G.S. Colin، بين نوعين رئيسيين من العجلات اعتمـادا على القوة المحركة التي تشغلهما و هما:

- عجلة يحركها تيار الماء.
- عجلة يحركها الحيوان أو الإنسان.

و يعرف المعجميون العرب الناعور بالعجلة الرافعة التي يديرها الماء[1] و يشمل هذا التـــعريف معنى: العجلة التي تحركها الدابة في مدار (roue à manège) أي الدولاب؛ و هي تتكون من دلو جلد لغرف الماء و جناح الرحى؛ و لا يوضحوا ما إذا كان المقصود به المحرك (turbine) نفســه أم إحدى مضار به (palette).[2]

أما النوع الثاني للعجلة الرافعة فهو النوع الذي تحركه الدواب في مدار، و يبدو أن الأمر يتعلق دائما، في بلاد المغرب بعجلة محركة لمجموعة من الـــدلاء المنتظمـــة في شـــكل ســـبحة (Chapelet)؛ و يطلق المعجميون العرب القدماء على هذه الآلة، حســـب G.S.Colin ، اســـم السانية " سقاءة "[3] (arroseuse) و هي تـــــسمية كثيرا ما يعارضها الصفائيون[4] الذين يرون

1- G. S. Colin : la noria marocaine et les machines hydrauliques dans la monde arabe, hespéris, T. XIV, fase. I, 1er Trimestre 1932, pp.40-41؛ و معنى الناعورة الحرفي: آلة تفجر الماء و هـــي تئن، و عجلة يحركها الماء، و ملفاف treuil بئر الجر، و ملفاف حافر البئر، و دائرة قاعدية (rouet) و مسداة النساج، و دولاب الخزاف و تروس الساعة، و سابقة أو لاحقة (ritourelle))، و حيلة (stratagème)، و دسيســـة (machination) (G. S. Colin : op.cit, p.48)؛و الناعور في لسان العرب: واحد النواعير التي يسقى بها، يديرهــا الماء و لها صوت (ابن منظور: مج.6، ص 670)؛ و العجلة معناها التي يجرها الثور و الجمع عجل و أعجـــال، و معـــنى العجلة أيضا المنجنون الذي يسقى عليه و الجمع عجل (نفس المصدر، مج.4، ص 694-695).

2- G.S.Colin : المرجع السابق، ص 41، هامش 1؛ أنظر ابن منظور: المصدر السابق، مـــج. 6، ص 670؛ و دولاب الشفرة (roue à palette)، الذي يشغله الوادي، حسب Capot- Rey، يوجد في أماكن متفرقة من المغرب، شمـــال الصحراء، و لا مكان له في هذه الأخيرة؛ و دولاب المدورة (roue à manége) الذي يحركه حيوان، و هي النعورة الـــتي تطلق تسميتها في كل من الأندلس و المغرب الأقصى على دولاب الشفرة (roue à palette) الذي يحركـــه النـــهر؛ و تسمى نفس الآلة بمصر السانية في حين أن هذه التسمية الأخيرة تطلق في بلاد المغرب على ساقية أي قناة للري و الكلمة العربية التي تطلق عادة على الناعورة في بلاد المغرب هي السانية (op.cit, p.323 et p.323, note 3)) .

3- la noria marocaine, p.43 ؛ أنظر الصورة رقم 3، 4، 5.

4- الصفائي: من يتكلف الحرص على صفاء اللغة (المنهل، ص 846).

وجوب اقتصارها على الدابة التي تحرك الآلة[1].

و السانية بالنسبة لابن منظور هي الناضحة أي الناقة التي يسقى عليها أو ما يسقى عليه الزرع و الحيوان من بعير أو غيره[2] و معناها الحرفي، حسب G.S.Colin: " التي ترفع المـــاء "؛ دابة ترفع ماء البئر؛ إناء كبير من الجلد يستعمل في هذا الغرض؛ ساقية الرّي؛ عجلة مائية، ذات مدار موضوعة على بئر؛ عجلة مائية يحرّكها الماء و بستان تسقيه ناعورة.[3] و الناعورة في لسان العرب هي الدولابُ، و الناعور جناح الرّحى و هي دِلْوٌ يسقى به، و هو واحد النواعير الـــتي يُسقى بها و يديرها الماء.[4]

و يطلقون على تلك العجلة أيضا اسم مَحَالة " آلة دوّارة " أو عجلة[5] و معنى العجلــة الأوّل غير واضح غير أن مصدرها يطرحُ فكرة السرعة الكبيرة (vélocité)و يمكن أن يكـــون معناها: " الشيء الذي يدور بسرعة ": ملفاف (treuil) أو بنكرة (بكرة) الجرّ الحيواني؛ إنـــاء جلد كبير خاص برفع الماء؛ عجلة مائية؛ عجلة سيارة؛ عَجّالة (chariot) .[6]

لكنهم في غالب الأحيان يطلقون عليها التسمية الفارسية دُولاَب أو دَوْلاب[7] و تعـــني حرفيا "دلو الماء ":عجلة مائية ذات مدار؛ دائرة قاعدية (rouet)؛ خزّانة دوّارة؛ ملفاف البـــئر، عجلة ذات ريشة (aube) أو تُرْبِينَة (turbine)؛طاحونة [8]؛ و احتفظوا بوصف موجز لها: فـــهي تتكوّن من شَهْرَق و هو عبارة عن ملفاف (Treuil) أو طبل (tambour) يحمل زوجـــا مـــن الحبال، مسدين، لا نهاية لهما، تُثَبَّت عليهما كيزان: عُصمور، صُعمور، عُضمور، مصنوعة مـــن وُريقات النخيل، خوص، و مطلية بالقطران، و هي تصبّ الماء الذي تحمله عند صعودهـــا في جدول من خشب، و لا يوضّحُ المعجميون سير الآلة، و كانت الدّابة المحرّكة لها هي: الجمـــل

1- G.S. Colin : op.cit , p.43, note.2 .

2- لسان العرب، جـــ3، ص 225.

3- Ibid, p.48 .

4- ابن منظور، جـــ6، ص 670.

5- G.S.Colin : op.cit., Ibid, p.43

6- Ibid, p.48؛ أنظر الصورة رقم6، 7.

7- من الفارسيّة: دُولْ و معناها دلْو و أب و معناها الماء: أي دلو الماء ((G.S.Colin : op.cit., p.43, note 3))

8- Ibid, p.47؛ و المَسَد هو اللّيف، و هو حبل من ليف أو خوص أو شعر أو وبر أو صوف أو جلود الإبل أو جلـــود أو من أي شيء كان، و المسد المحور إذا كان من حديد، و هو مردود البكرة الذي تدور عليه (لسان العرب، 5، 482).

أو الثور أو الحمار.[1]

و يخلص G. S. Colin إلى القول: إن العجلة التي تحرّكها الدواب في مدار، لها تسميتان رئيسيتان معروفتان في المغرب الإسلامي هما: الدولاب و السانية، و إن كلمة الدّوْلاَب مؤكدة في الأندلس مع مدلول " العجلة المائية، ذات الدلاء المنتظمة في شكل سبحة، تستعمل في سقي البستان " و أمّا في شمال إفريقيا (بلاد المغرب) فوجودها مؤكد في النواحي الشرقية: قسنطينة و تونس " إضافة إلى أنه ليس هناك ما ينفي فكرة دخولها عن طريق الأتراك في وقت حديث نسبيا "[2] و هذا غير صحيح بل هناك ما ينفي ذلك فعلا: فالبكري (ق.5هـ/11 م) أفادنا، كما أسلفنا الذكر، أن الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي في بداية القرن الرابع الهجري (10م) استخدم الدواليب (م. دولاب) في رفع الماء من آبار قرية منانُش و من صهريج المهدية إلى قصرها.

مع العلم أن G.S. Colin نفسه يذكر في دراسة له بمكان آخر حول استغلال منجم الفضة بزُقُونْدر[3] في القرن الثالث عشر ميلادي(7 هـ) أن العمَّال عندما كانوا يبلغون في الحفر، عمق عشرين ذراعا؛ كانوا يجدون الماء، مما جعل السلطان ينصبّ في تلك المناجم دواليب تغترفه كي يظهر الطين فيُحمل إلى السطح ليُغسل؛ و يُستنفَذُ الماء الذي يكتسح المناجم على ثلاث مراحل، بسبب عمقها: إذ يُنَصبّ دولاب بالحفرة في مستوى الماء فيَغترف السائل و يصبّه بحوض كبير ينصبّ فيه بدوره دولاب يغترف هو الآخر الماء و يصبّه في حوض ثان، و في هذا الأخير يُنصبّ أيضا دولابٌ ثالثٌ يغترف الماء و يُفرغه على سطح الأرض ليسيل نحو المزارع و الأجنة؛ فالأمر يتعلق إذا بثلاثة دواليب منصبّة على ثلاث مستويات مُنضدة[4] و المصادر لا تشير ما إذا كان هذا النموذج طبق في أماكن أخرى لاستخراج مياه الآبار العميقة، و هذا غير مستبعد، ما دامت التقنية معروفة، إلاّ إذا كانت هناك خيّارات أخرى ذات شروط أفضل.

1- G.S. Colin : op.cit , p.43.

2- Ibid, pp.44-45.

3- تقع مدينة زقوندر على ستة مراحل من مدينة مرّاكش (G. S. Colin : L'exploition de la mine d'argent de Zgounder (siroua) au XIIIe Siécle, Hespéris. T XLI , 1e et 2e trimestre 1954, p.229).

4- G.S.Colin : op.cit., p.230.

و يذهب Xavier de planhol إلى القول، دون أن يوثق كلامه، إن أغلب التقنيات الـتي لها مفردات بربرية، كانت موجودة في بلاد المغرب، قبل وصول العرب أي قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب و النّاعور أي الدولاب الذي يحركه الحيوان هو وحده الذي يعود اســتخدامه إلى العرب بكل تأكيد، غير أنه قليل الانتشار في الصحراء، و وجوده مقصور على هامشها الشمالي بتافيلالت، جنوب المغرب الأقصى، و وادي ريغ و منطقة طرابلس، و من الممكن كما يضيـف أن يكون انتشار حياة الترحال قد ساهم في نشر الآبار التي تشتغل بواسطة البنكرة (البكـــرة) و الجرّ الحيواني الذي عوّض شيئا فشيئا الآبار القديمة ذات الجرّ الإنساني، و على العموم فــإن العناصر الأساسية لحضارة السكان المستقرين في الريف و المدن بالصحراء تبدو سابقة للاســلام الذي لم يكن مسئولا إلاّ على الجزيئات[1] .

و طابع هذا الكلام افتراضي، لا يقوم، مع الأسف، على أي أساس علمي، بل يحمل في طياته نوعا من التحامل على العرب و الإسلام .

و فيما يخص السانية يعتقد Colin أن تسميتها أكثر انتشاراً من الدولاب مذكّرا بما قالـه الإدريسي في شأنها بقصر اليهودية، قرب سُرت، بمنطقة طرابلس[2] و ملاحظــا أنّــه بالنســبة للأندلس فقد خصّص لنا المهندس الزراعي ابن العوام، حسب أبي الخــير الإشــبيلي تفــاصيل واضحة عن السانية و مصطلحاتها الأندلسية و هـــــــي قريبة من تلك التي جُمعت في المغرب الأقصى: إذ يَحمل حبل (câble)السانية خمسة قوادس تقريبا موزعة على أطوال مساويّة لقامــة الإنسان، و كلما كانت أمشاط (أسنان) الفلك (العجلة) التي تدير السانية كثيرة، كلّما كـانت العجلة الرئيسية كبيرة، و كلّما كان تشغيل الآلة ميسورا و ســهلا. كمــا أن طــول المجــرّ الكبير (perche à traction) يسهّل العمل أيضاً و لا يُخشى أيّ شيء إذا بلغ طوله ثلاثين شــبرا تقريبا، و ممّا يسهل تشغيل الآلة كذلك:تنحيّة جزء السهم القائم الذي ينتصب فوق الفتحة التي يدخل فيها المجر، و لنفس الغرض يُستحسن أن تكون الدّائرة التي تحمل القوادس سميكة جــدّاً و مصنوعة من خشب ثقيل بحيث يصبح وزنها ثقيلاً جدًّا. و يقال إن إحداث ثقب صغــير في الجزء الأسفل من كل قَادوس من شأنه أن يمنع هذه القوادس من الاصطدام، داخل الماء بالرقوة؟

1- Xavier de Planhol: op.cit., p.187 .

2- la noria, marocaine, p.24 .

(منحدر؟) و من الالتواء في الماء و يجنبها التكاسر فيما بينها، و عند اصطدامها بجدران البـئر، بالإضافة إلى أنها تُفرغ، عند توقف السانية عن العمل مما يمدّد من عمر الحبل.[1]

أمّا الخطّارة التي أشار إلى وجودها في بلاد المغرب كلّ من البكري و الادريسي فمعناها الحرفي، حسب G.S. Colin، " التي تنحط و ترتفع " غُرّافة، ذات رجاحة؛ عجلة مائية و هـي من فعل خطر أي قام " بحركة الذهاب و الإياب، و فِعْلُ خَطَر يعني : تحريك الذَّنَب من أعلـى إلى أسفل (في الحديث عن الجمل) و هو ما ينطبق تماما عن اللّقلق أثناء تحركه؛ و مـن معـاني الخطارة ما هو مشتق من المقلاع (fronde)و المنجنيق؛ و كثيرا ما أطلق العـرب في العصـر الوسيط هذه التسمية على آلة خاصة برفع المياه، و آلة خاصة برفع الأثقـال، و آلـة لرمـي القذائف؛ و بالمعنى التجريدي، فهي آلية، مُدَوّرة؛ و في تطوّر غريب المعنى فإن كلمة خُطـارة (جمع خُطاطير) تطلق في تافيلالت و في منطقة مراكش على الأروقة الجوفية للجرّ التي تجلـب الماء من بئر إلى آخر إلى أن تنتهي به إلى سطح الأرض (أي الفجارة).[2]

غير أن G.S. Colin أخطأ، عندما قال بأن أقدم شهادة لاستعمال كلمة خُطارة قدمـها الإدريسي في القرن الثاني عشر ميلادي (6 هـ) في حديثه عن تساوة...[3] لأن أقـدم شـهادة لاستعمال كلمة الخطارة قدّمها البكري في القرن الحادي عشر الميلادي (5هـ) عندما أخبرنا أن قصر الزرادبة، غرب القيروان، يطلق عليه اسم الخُطارة، كما رأينا.

و لا يُعرف على أي أساس بنى Colin رأيه القائل " و ما دام الأمر يتعلق بمنطقة بربريـة (و يقصد بذلك بلاد المغرب في عهد الإدريسي) فلا يحتمل أبداً أن يكون المقصود بالخطـارة دولابَ الرافعة (roue élévatoire) و الأحْرى أن يُعتبر مقطع الإدريسي هذا كأول إشـارة إلى استعمال غرّاف بالراجحة[4] و يبدو جليا أن رأيه هذا يناقض تماما الكلام الذي عرّف به كلمـة خطّارة.

1- G. Colin : la noria marocaine, pp.45-46 .

2- أنظر G.S. la noria marocaine, pp.36-37 et 47؛ عن معاني فعل خَطَر المشتق من مصدر الخَطْر، (أنظـر لسان العرب، مج.2، ص 856).

3- Ibid, p.36 .

4- Ibid, pp.36-37 .

كلمة خطارة تلتقي في معناها الأول مع الدّالية التي وُصفت في كتاب الحاوي للأعمال السلطانية على أنها: إذا كانت كاملة تحتاج إلى أربعة أو خمسة رجال لتشغيلها؛ و كل دلوٍ منها يحمل أربعمائة رطل إلى ستمائة رطل من الماء (404 إلى 606 ل)؛ و الدوالي الكبار فارسية و كوفية، و الفارسية يكون طول زرنوقها* عشرين ذراعا (9.60 م)، و ثلاثين ذراعا (14,4 م)، إذا أضيفت إليها الوصلة (poutrelle)و يصعد على الفارسية خمسة رجال، و على الكوفية ستة: يقفون على رأس الزرنوق بكيفية تجعله ينحط و يصعد، و يقام غَرّاف (puisseur) مع الدّلو: يحطّه و يملأه و يُفرغه، و هو يسقي كل يوم، من ستة إلى ثمانية أجربة (9 إلى 12 هـ)، و يزرع على هذه الدّوالي، إذا كان لها معونة من ماء المطر في فصل الشتاء مائة و ثلاثين جريبا (191 هـ) و في الصيف ستين جريبا (88 هـ)؛ و إن لم تكن لها معونة من المطر، كان قدر ما يزدرع عليها شتاء ثمانون جريبا(138 هـ)، و صيفا ثلاث و خمسون جريبا (78 هـ). و إذا كانت هذه الزرانيق في أرض جرداء زرع عليها في الشتاء ثلاثون جريبا (44 هـ) إلى ما دون؛ و في الصيف عشرون جريبا (29 هـ) إلى ما دون.[1]

و يشير نفس المصدر إلى عدّة أنواع من الدوالي، من بينها: الدّالية المَجْدية، و يكون طولها، أي طول زرنوقها من سبعة إلى تسْعة أذرع (3.66 م إلى 4.32 م) و يصعد عليها لتشغيلها رجل أو رجلان[2]؛ و الدّالية بَاريّة و هي مخيّطة طاقان (deux cercles) و بكرة مشدودة بالقالوس (حبل خشن) إلى الزرنوق[3]؛و يُعرّف الشاذوف على أنه دِلو لطيف يُعملُ من بواري؟ مثل دلو الدّالية و يحتاج تشغيله إلى أربعة رجال، و هو يسقي أربعة أجربة (5.88 هـ) ؛ و يزرع عليه في الشتاء سبعون جريبا (103 هـ)و في الصيف ثلاثون (44 هـ)؛

---

*- تحمل كلمة الزرنوق معاني كثيرة، في لسان العرب، منها: أن الزُّرنوقين حائطان أو منارتان تُبنيان على رأس البئر، من جانبيها لتوضع عليهما النعامة، و هي خشبة تُعرّض عليهما ثم تعلّق فيها البكرة فتُسقى بها، أو هما خشبتان أو بناءان كالميلين على شفير البئر، من طين أو حجارة، أو أنهما دعامتان، إن كانا من خشب، أو أنهما، إن كانا من خشب، النعامتان، و المعترضة عليهما هي العجلة و الغرب معلّق بالعجلة، أو أن الزرانيق هي دعائم البئر (ابن منظور: مج3، ص 23).

1- مؤلف مجهول: كتاب الحاوي النص العربي، ص 118؛ الترجمة الفرنسية C. Cahen : op.cit., p.130 .

2- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id .

3- نفسه؛ Id.

و ينصب الشاذوف على آثار الجرود (الأرض الجرداء): البكرة و البكرتين و يرقي (يصب) فيها بالدلاء و البقر، و قدر ما يصب الدلو من الماء مائتا رطل (102 ل) تقريبا، إذا استخدمت البقر بالتناوب[1] أي أن الشادوف حسب هذه المعلومات يشغله الإنسان من جهة و الحيوان من جهة أخرى.

الدراسات الحديثة و آلات الري التقليدية:

و قد قسم الجغرافيون المحدثون الآبار التي تصلح للري كما وجدوها بعد السيطرة الاستعمارية الحديثة على بلاد المغرب، إلى نمطين رئيسيين هما: آبار البنكرات أو البكرات و الجر الحيواني، و تسمى أحيانا آبار الدلاء [2] و آبار المترجحات (à balancier)؛ و هناك نوع ثالث هي آبار البنكرات و الجر الإنساني الذي لا يحتل في الصحراء سوى منطقة محدودة، بين الجزائر و المغرب الأقصى .[3]

و تختص واحات ميزاب بآبار الجر الحيواني التي تسمى تيرست (Tirest)، و تظهر في هيئة تلك الآبار خاصتان هما: استعمال الحجارة و البناء لتحمل جهاز الاغتراف و طريقة جر حاذق تعوض الجر العمودي للإنسان بالجر الأفقي للحيوان، من بغل أو جمل، و تتكون هذه الطريقة من دلو مفتوح من إحدى جهتيه كالسطل، و ينتهي في الجهة الأخرى بأنبوب، و يركب مع الأنبوب المرفوع بواسطة حبل زالق على بنكرة، و عندما يصل الأنبوب إلى مستوى أسطوانة (rouleau) وضعت تحت البنكرة يرتد و يتدفق الماء في حوض، و للتقليل من جهد الحيوان، يهيأ لطريق الجر ميل. بحيث ينزل الحيوان عندما يجر، و يصعد عندما يهبط الدلو الذي يسع ما بين 20 و 30 لترا من الماء، و هو يهبط بمعدل مرتين في الدقيقة الواحدة.

و تطبق نفس الطريقة في كامل الصحراء الوسطى، مع اختلافات تعود إلى الأدوات المتوفرة و طبيعة الأرض المحتوية على الماء، و عمق طبقته: ففي شمال فزان، بشاتي و سبهى، مثلا توجد الطبقة الجوفية في مستوى الحث[4] و تكون للآبار فتحات ضيقة دائرية بانتظام،

1-كتاب الحاوي، النص العربي، ص 118-119؛ الترجمة الفرنسية C. Cahen : op.cit, pp.130-131

2- يسمى في تونس الدلو فقط، و يوجد الدلو أحيانا، بأدرار الموريطاني، بصفة خاصة في الآبار المترجحة (Capot – Rey : op.cit., p.320, note1) : à balancier.

3- Ibid, p.320.

4- الحث: حجر رملي، صلصال رملي (المنهل، ص 497).

و مسندة بحجارة جافة، و يُسند الهيكـــل (le bàtit) القليـــل الارتفـــاع القليـــل رافـــدان (poutres) فقط؛ و في باقي فزّان حيث تقع الطبقة الجوفية في الطمي فإن البئر لها أبعاد مماثلـــة لأبعاد البِرْكة (mare) و يكون الهيكل أهم بكثير و يشمل دعائم من جذوع النخيل مغروســة (structuré) في قعر قِمْعٍ، و مُسْنَدة بعدد كبير من الأعمدة (haubans)؛ولما كانت الطبقة المائيــة هناك أقل انخفاضا مِمَّا هي عليه في ميزاب، فإنّ صعود الدّلو و نزوله يكون أسرع؛ و إذا كـــان هناك ما يكفي من الدّواب المقرونة (attelage)، تجهّز آبار تَعْمَلُ بدلوين أو ثلاثة يمكنها أن تسقي هكتارا؛ و الحيوان المستعمل في فزّان هو الحمار دائما، و هو أضعف من الجمـــل ممـــا يجعـــل مساعدته مفروضة و هذا ما يقوم به البستاني المسمى الجبّاد.[1]

و في الطاسيلي و الأهقار يستخدم الثور في الجرّ، و هو يكفي وحده، و هذا النمط مـــن الآبارحديث الدخول هناك، ممّا يجعل بئر البنكرة لا ترتبط بمجال جغرافي محـــدّد أو بمجموعـــة عرقية معينة[2].

و تتكون آبار المترجحات (à balancier)أو الآبار التي تُستغَلّ بالرجّاحة، أساسا مـــن رافعـــة (levier) أو عصاً (perche)طويلة يثبت على ذراعها الأقصر ثُقلٌ مـــوازن (contre- poids) و هو عبارة عن حجر كبير، و على ذراعها الآخر يُعلق دلو ضخم من جلد مكيّـــف بطريقـــة جيّدة أو سِلّة من أوراق النخيل المظفورة، يستخدمان كمغرفة (puisette)، و بهذه الطريقة يمكن سحب دلو الماء بسهولة و لكن سقي بستان بكامله يتطلب سحب عدد هائل مـــن الـــدلاء، و يكون السقي ليلا تفاديا للتبخّر، و تُعوِّض الرافعة أو العصا البنكرةَ، في البئر التي تستغل بالجرّ الحيواني، و هي تدور حول عارضة (Traverse) مثبتة في دعامتين (montants) مـــن خشـــب و آجر و بناء، و تصنع من جذع النخيل، و أحيانا تكون عصوان مـــن الطرفـــاء (Tamaris) تتـــزلقان بطريقة تجعلهما تتبعان تغييرات مستوى الماء؛ و تُشغَّل هذه البئر يدويا بسحب الحبـــل الذي يعلّق فيه الدّلو الذي يكفي الثقل الموازن لرفعه، و في الصاورة تجهّز آبـــار بمُـــترجّحتين أو ثلاث مما يجعل مردودها أفضل.[3]

1- Capot- Rey : op.cit., p.321 .

2- Ibid, p p.321-322.

3- أنظر R. Capot- Rey : op.cit., p.322 ; E.F gautier: le Sahara , p.152 .

و ينتشر هذا النوع من الآبار في كل الصحراء، حيث تكون الطبقة المائية قليلة العمـــق و يكون منسوبها ضعيفا لدرجة لا تمكن من اغتراف الماء عدّة ساعات متتالية، و تسمية هـــذه البئر تختلف من مكان لآخر: فهي الخطارة بسوف و فزّان و أرقـــون (Argoun) بوارجـــلان و غرغاز بالقُليعة (El – goléa) و قرقاز بتيزكوك و أروديـــد بالآهقـــار و أشـــيْلاَل بـــأدرار الموريطاني و اليوبي في تيبستي.[1]

و يُفسَّر انتشارها الواسع في الصحراء بما كانت تمكنه من اســـتعمال القـــوة المحرّكـــة الوحيدة الموجودة في كل الواحات و هي اليد العاملة للرقيق، و هي تُعْتبر أيضا أنسب طريقـــة يستخدمها الفقراء في الرّي، لأنها لا تتطلب بناء مُكلفاً و لا نفقة على حيوان؛ إذ يكفي رجُـــلٌ لتشغيلها؛ و طريقة الغرف هذه ليست مقصورة على الصحراء فهي موجودة في بلاد الســـودان و في مصر (الشادوف) و في اسبانيا(اللقلق=Cigogne) و إيطاليا و هُنغارْيا و رومانيا و حتى في الصين، و لا يتفق Capot-Rey مع مؤرّخي السلالات (éthmographes) الذين يجعلون منـــها سِمَة حضرية خاصة بالإثيوبيّين و يرى أن اختراعاتها كانت منفصلة من طـــرف مجموعـــات سكنية ذات ظروف متشابهة.[2]

مع ملاحظة أن الماوردي و الفراء يقسمان شرب (سقي) الزروع و الأشجار إلى أربعـــة أقسام هي:

أ)- ما سقاه الناس " بغير آلة كالسيوح من العيون و الأنهار، تُساق إليها فتسيح عليـــها عند الحاجة، و تمنع عنها، عند الاستغناء، و هذا أوفر المياه منفعة و أقلها كلفة "[3] و تســـتعمل الساقية كأسلوب للرّي في هذا القسم، و هي أسهل من بقية الأساليب الأخرى حيث تستعمل ميل الأرض لتوصيل ماء عين أو واد بعيدا جدّاً أحيانا، إلى الحقل أو البستان[4] و معنى الســـاقية الحرفي " التي تسقى " أي جدول السّقي هو المقصود هنا دون المعنيين الآخرين و هما: ناعورٌ ذو مدار و رحويّة (Cabestan)[5].

1- Capot- Rey : op.cit, p.322 .

2- Ibid, pp .322-323 .

3- الماوردي: المصدر السابق، ص 129، الفراء : المصدر السابق، ص 151.

4- G. S. Colin : la Noria marocaine, p.22 ،

5- أنظر Ibid, p.47 .

و يدخل في هذا الباب أسلوب الأروقة الجوفية للجرّ المسماة فجاجـــير (م. فجــارة) و تستعمل الآن في كل من توات و قورارة (gourara) و تيديكلت؛ و تسمّى أيضا خطاطـــير (مفرد خطارة) في كلّ من تافلالت و منطقة مرّاكش.[1]

ب)- ما استقاهُ الناس من نواضح (دواب) و دواليب أوْ دوالي و هذا أكثر المياه مؤنَــة (تكلفة) و أشقاها عملا[2] و يلخص G. S. Colin هذه الآلات في أربعة أنـــواع هـــي: آبـــار بالملفاف (treuil) المستعْمِلَة للجرّ الحيواني في مناطق مرّاكـــش و الســـوس و دادس (Dades) و تودغة (Todgha) و تافلالت؛ و غرّاف بالرجاحة (puisoir à bascule) أو " اللقلق " بـــوادي الصاورة و موريطانيا؛ و دولاب الرافعة التي يحركها مُدوّر (à manège) أو التي يحرّكها مجـــرى مائي؛ و من هذه الأنواع الأربعة كما يقول، فإن النوعين الأولين هما الأبْسط و هما وحدهمـــا المستعملان عادة في المناطق الناطقة بالبربرية.[3]

و النوع الأول الذي ينتشر وجوده اليوم، من بلاد الهند إلى المحيط الأطلسي، عبارة عـــن آبار بِبَنْكرة (بكرة) أو أكثر، يرفع منها الإناء المملوء ماءً و يصبُّ بواسطة دابة تمشي في طريـــق مستقيم ينخفض في الأرض كلما ابتعد عن البئر لتسهيل مهمة الحيوان و هذا النوع من الآبـــار موجود في الساحل التونسي و في منطقة ميزاب.[4]

و فيما يخص النوع الثاني، أي الغرافات بأداة مترجّحة (puisoires à balancier)، فقـــد كانت آلة من هذا الصنف معروفة عند العرب القدماء، هي الدّالية و تعني حرفيا " الغرّافـــة ": أساسها لوحة طويلة قابلة للتأرجح، و تنتهي جهتها الأقصر و هي الأثقل بمغرفـــة (puisoir)، و عندما تُترك اللّوحة لذاتها تتأرجح لتغطس مغرفتها في الماء فتمتلىء، و يصعد عدّة رجـــال، عندئذ، على طرف جهتها الأخرى، فيرجحون بوزنهم اللوحة في الجهة المعاكســـة، و ترتفـــع المغرفة في السماء و تفرغ محتواها في ساقية (إزاء، محراق) معمولة في اللوحة، يجري فيها الماء نحو الأرض؛ و تستخدم البلدان المتوسطية (الأوروبية) آلة تنسب إلى هذا النوع هي " اللقلـــق "،

1- G.S. Colin : la noria marocaine, p.22.

2- الماوردي: المصدر السابق، ص 129-130؛ الفراء: المصدر السابق، ص 151.

3- La noria marocaine, p.22.

4- Ibid, p.34.

و هي ممثّلة في العالم الاسلامي بالشاذوف المصري، و خُطارة سـوف، و غرغـاز أو قرقـاز التّينركوك (قورَارة) و أمواسين (Amwasin)أو أشيلال بموريطانيا.[1]

جـ)- ما سقته السّماء بمطر أو ثلج أو طل (نداوة) و يُسمى العَذِى.[2]

د)- ما سقته الأرض بنداوتها و ما استمكن، من المـاء، قرارهـا، فيشـرب زرعـها و شجرها بعروقه و يُسمّى البَعْل.[3]

و لا تخرج ممارسة الرّي في بلاد المغرب اليوم مثل الأمس، عن إحدى هذه الأقسـام، على الأقل، و قد يُمارس فيها أكثر من قسم في آن واحد. و ظاهرة الري تمـارس في نواحـي المغرب بدءاً بالنواحي التلية المتوسطية التي تقتصر بها على بعض أنواع الزراعات، كالأشـجار المثمرة و الخضر و المروج الإصطناعية و تفرض نفسها في المناطق السّهبية، الواقعة بـين التـل و الصحراء لكنها شرط أساسيّ، في هذه الأخيرة، لكلّ حياة زراعية، و النباتات الأقل احتياجـا للماء و هي الحبوب، و منها الشعير على سبيل المثال يكتفي بمائتي مليمتر من الماء إذَا وُزّعـت بطريقة جيّدة، و لا توجد في الصحراء نقطة معينة يمكنها توفيرها له، و الحقل يتوقـف عنـد المكان الذي لا يصله الماء[4].

و من الغريب وجود عدد من المناطق تستغني عن ريّ النباتات في عزّ الصحراء، و هـي تقع في محيط العروق الكبيرة، بنقاط تكون فيها طبقة المياه الجوفية قريبة من سطح الأرض حيث تكون إزالة الطبقات السطحية الجافة سهلة، و من بينها منطقة سوف[5] و اسـم هـذا البلـد مأخوذ من طبقة مائية جوفية أصلها من العرق الشرقي، تسيل من الجنوب إلى الشـمال، مـع اقترابها من السطح؛ و هي حاليا (في الخمسينات من القرن العشرين) علـى عمـق 17 م مـن السطح بالوادي و على 5 أو 6 م بقمار (Guemar) و بالحَفْر يمكن جعل الماء في متناول عـروق الأشجار و بذلك يمكن تجنّب ضياعه بواسطة التبخّر.[6]

1- G.Colin : la noria marocaine, pp.34-35.

2- العَذى أو العِذى: ما لا يسقيه من الزرع إلاّ المطر (الفراء: المصدر السابق، ص 151؛ هامش 1).

3- الماوردي: المصدر السابق، ص 130، الفراء: نفس المصدر، ص 151.

4- Capot- Rey : op.cit., p.14.

5- ينسـب اسـم هـذا المكـان إلى اللغـة البربريـة: سُـوف أو سـيف: مجـرى مـائي أو واد (Capot- Rey op.cit., p.306, note 2).

6- Ibid, p.306.

و تمارس الزراعة في التجاويف أيضا على الحافة الجنوبيــــة للعــــرق بمنطقـــة تـــاغوزي (Taghouzi)، حيث يحيط بكل بستان حائط من الرمل محمي بأغصان الجريد، و الطبقة المائيـة هنا لا تبعد سوى ثلاثة أو أربعة أمتار عن سطح الأرض و بالتالي فإنه من الممكن زراعة النخيل و الحبوب و الخضر بدون ري؛ أما سكان القصور الفقراء فيفضلون تهيئة حفر تسمى الـــــبردة (beurda) في مجرى الوادي و تغرس فيها مباشرة أغصان النخيل و أحيانا الكرنب أو البصــــل و بفضل ذلك يتمكن الناس من إحياء الأرض و امتلاكها، غير أن الأعمال كلها تعـــــاد مـــن جديد بعد كل فيضان.[1]

و يوجد هذا النوع من الزراعة بفزان، على الأقل بالنســـبة للنخيـــل، إلا في الشـــاطي (Châti)حيث تسمح غزارة مياه العيون من ري الحبوب و الخضر، دون النخيل الذي تشـــرب عروقه مباشرة من الطبقة الجوفية و يسمى هذا النوع من النخيل الذي لا يسقى، في واحـــات كثيرة، بور أجالي غير أن هذه الطليعة من البور التي تحتل بوارقلان ثلاثة أضعاف مساحة الواحة الحقيقية، لا تعتبر جزء منها لأن أشجارها قليلة الفواكه، و قد لا تكون فيها فواكه بـــالمرة، إذا كانت الطبقة المائية عميقة جدا؛ أما واحة فزان فكلها بور و لنخيلها محصول دائم.[2]

و في غير هذه النقاط من الصحراء فالأمر يحتاج إلى ري و يتطلب الهكتـــــار الواحــــد المزروع بالنخيل، ما بين نصف لتر و لترا واحدا في الثانية من الماء و ما بـــين 6000 إلى 8000 م^3 في السنة، و لتعويض ما يتبخر و ما يتسرب من المياه يحتاج الأمر إلى توزيع كمية أكبر، و قليلة هي الآبار التي يبلغ منسوبها هذا المقدار، و بصرف النظر عن الأودية التي تجري بضعة أيـــام في السنة فقط تبقى العيون الكبيرة و أروقة جر الطبقة المائيةالجوفية و الآبار الأرتوازيـــة و أخـــيرا بعض الآبار التي تبلغ طبقة مائية غزيرة، بوجه خاص، هي وحدها القادرة على تأديـــة هـــذه الوظيفة.[3]

و بمعنى آخر لكي تقوم واحة بنفسها فهي تحتاج إلى ماء ينبع في مستوى أعلـــى مـــن مستوى البستان، يسيل وحده، حسب الميل، دون جهد إنساني ليسقي جذع كل نخلة و هذه

1- Capot-Rey : la noria marocaine, pp.307- 308.

2- Ibid, p.308.

3- Ibid, pp.14-15.

الشروط تتوفر في الآبار الأرتوازية و الفجارات فقط.[1]

الأحكام الشرعية في ملكية ماء الآبار و الاستفادة بها:

تنقسم الآبار، من الناحية الشرعية، حسب مواقع حفرها و أغراضها، إلى ثلاثة أنواع هي: ما تُحفَرُ للسابلة أي المصلحة العامة و يكون ماؤها مشتركا و حافرها كغيره من الناس في الاستفادة بمائها؛ و إذا كان مَاؤُها كثيرا اشترك فيه شَرابُ الحيوان و سقي الزرع، زيادة عن الإنسان بطبيعة الحال، فإن قلّ الماء، كان شرب الحيوان أولى به من الزرع، و إن زاد نقصانه و لم يعد يكفي الإنسان و الحيوان معا، كان الإنسان أحق به من الحيوان.

ما تُحفَر لارتفاقة بمائها أي للانتفاع به كما هو الحال في البادية أو الصحراء، عندما ينتجع الناس أرضا يستغلونها في الرّعي و يحفرون فيها بئرا لشربهم و شرب مواشيهم فيكونون أحق بمائها من غيرهم، طول مدّة إقامتهم هناك، و يكون من واجبهم بَذل أو إعطاء مائها للشاربين، دون غيرهم، فإن ارتحلوا عنها صارت البئر سابلة، و بذلك تكون خاصة الابتداء، عامة الانتهاء، فإن عاد إليها محتفروها، مرّة أخرى، صاروا مثل غيرهم، و يكون أسبق الناس إليها أحق بمائها.[3]

و بالنسبة للمالكية، فإن أصحاب بئر الماشية أحق بمائهم حتى يقع الفضل أي الزيادة عن حاجتهم، و من هذا الفضل يستقي الناس سواء لمواشيهم، على ما أحبّ أهل البئر أم كرهوا[4] و تعتبر بئر المواشي و الشفة من آبار الصدقة، فلاحق لأهلها، بعد أن يُروُوا، منع غيرهم من الاستقاء و إن فعلوا جاز قتالهم، و إن لم يكن للمسافرين قوّة على مدافعتهم، و ماتوا

1- Gautier : le Sahara, p.153 ·

2- الماوردي: الأحكان السلطانية، ص 157؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : les statuts gouvernementaux, p.391 الفراء: المصدر السابق، ص 200.

3- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id؛ الفراء: نفسه، و في مكان آخر يذكر الماوردي أن من احتفر في البادية بئرا فملكها يحلّ له أن يبيعها، و لا يحرم عليه ثمنها، مشيرا إلى خلاف وقع بين الفقهاء في هذا الشأن حيث منع بعضهم بيعها و حرموا قبض ثمنهات و أجاز البعض الآخر بيعها، إذا رغب الناس في شرائها، في الظروف المعتادة، و حرّموه لخلاء أو لجلاء، و يكون أقرب الناس مسافة إلى مالكها أحق بها، بغير ثمن، فإن رجع الخالي إلى مكانه تعود إليه ملكيتها (الماوردي: نفس المصدر، ص 159؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.396).

4- سحنون: المصدر السابق، جـ.3، ص 289.

عـــطشا بسبب منعهم من الشرب " كان على عاقلة* أهل الماء دياتهم و الكفارة علــــى كـــل نفس منهم، على كل رجل من أهل الماء، و الأدب الموجع من الإمام في ذلك لهم."(1)

و تكون الأسبقية في الشرب منه للمسافر الذي ينبغي تزويده بآلة السّقي و بعده ساكن البلد ثم الدواب، و عند الضرورة يُسقى المتعرض للخطر.(2)

ما يحتفرها الإنسان لنفسه يصير مُلكا خاصا على شرط أن يبلغ حفره إلى استنباط المـــاء و في هذه الحالة يستقرّ ملكه بإكمال إحياء الأرض و إذا احتاجت البئر إلى طيّ أي بناء فــــإن هذا الطيّ يكون من كمال الإحياء بمعنى أن ملكية البئر لا تتمّ إلاّ بعد إتمام القيام بهذه العمليـــة، بعدئذ يصبح هذا الإنسان مالكا لها و (حماها).(3)

و قد اختلف الفقهاء في تحديد قدر حريم البئر حيث يجعله الشافعي معتــــبرا بـــالعرف المعمول به في مثل حالتها؛ و يجعلهُ أبو حنيفة خمسين ذراعا بالنسبة للبئر الناضح أي البئر الـــتي يستخدم الحيوان لإخراج مائها؛ و يجعلهُ أبو يوسف ستين ذراعا إلاّ أن يكـــون رشـــاؤها، أي حبلها، أبعد فيكون لها منتهى رشائها مضيفا أن حريم بئر العَطْنِ، أي التي تستريح بالقرب منـــها الحيوانات، أربعون ذراعا و أن هذه التقديرات لا تثبت إلاّ بنص و إلاّ فهي غير معلولة أي غـــير مبرّرة.(4)

---

*- العاقلة هم العَصَبَةُ، و هم القرابَة من قِبلَ الأب الذين يعطون ديّة قتل الخطأ، و هي صفة جماعة عاقلة (لسان العــــرب، جـ.4، ص 846).

1- سحنون: المصدر السابق، جـــ.4، ص 374؛ و قد تساءل المازري عن اختلاف الناس فيمن حفروا بئرا للماشـــية في الفيافي أو البادية، هل له منع فضله؟ ثم راح يوضح موقف أصحاب مذهبه (المالكي) بقوله: " فعندنا ليس له منع ذلك بـــل يبذله بغير عوض، و من الناس من قال: لا يمنعه و لكن ليس عليه بذله بغير عوض، بل بقيمته، قياسا على المضطر لطعــــام غيره لإحياء نفسه، فإنه لا يحل له منعه و لكن لا يلزمه بذله بغير عوض " (المازري: المعلم بفوائد مسلم، تقديم و تحقيـــــق محمد الشاذلي النيفر، طـــ. الثانية، دار الغرب الاسلامي بيروت 1992، جـــ.2، ص 189-190).

2- خليل بن اسحاق: المختصر في الفقه، ص 387.

3- الماوردي: نفس المصدر، ص 157؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit, pp.391-392؛ الفراء: نفس المصـــدر، ص 201.

4- نفس المصدر، ص 158؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.392؛ الفراء: نفس المصدر، ص 201، هامش 1.

و بالنسبة لسحنون فإن حريم البئر، مهما كانت، بئر ماشية أو بئر زرع أو غير ذلك من الآبار، فليس لها حريم محدود إلاّ أن يضرّ بها، سواء كانت في أرض رخوة أو صلبة أو في صفـا، و من حق أهل البئر حمايتها و منع ما يضرّ بمائها أو بمناخها كحفر بئر أو إقامة بناء في عـطن الإبل و مرابض الأغنام و الأبقار عند ورودها[1].

و من حق الرّجل أن يردم بئرا أضرّت ببئره و لو كانت بعيدة عنه[2] و من حقه أيضـا أن يمنع جاره من حفر بئر داره و من إحداث كنيف، إن كان ذلك يضرّ ببئره.[3]

و من حَفَرَ بئرا، في غير أرضه، بطريق عموميّ، أو بأرض رجل، بغير إذنه، أو بجوار بئر ماشية بغير إذن ربّها فعليه مسئولية ما ينجم عن ذلك من ضرر للإنسان أو الحيوان.[4]

و إذا استقر ملك الإنسان على البئر التي احتفرها لنفسه و حريمها فهو أحق بمائها[5] و له سقي مواشيه و زرعه و نخله و أشجاره، و إن لم يفضل عن كفايته فَضْل "لا لزوم عليه بـذل شيء منه إلاّ لمضطر على نفْس، و إذا فضل منه بعد كفايته فضل لزمه على مذهب الشافعي أن يبذل فضل مائه للحيوان دون الزرع و الأشجار.[6]

و بذل هذا الفضل من الماء مرهون بأربعة شروط هي:

1-سحنون: المدوّنة الكبرى، جـ.4، 372-373؛ المازوني: الدرر المكنونة، جـ .2، ورقة 48. و يختلف الحنابلة في منع أو عدم منع حفر البئر خارج حريمها الذي يقدرونه بخمسة و عشرين ذراعا، و على قدر حاجتها و هـو ممـرّ النـاضح (الفراء: نفس المصدر، ص 204).

2- سحنون: نفس المصدر، جـ.4، ص 377.

3- نفسهُ.

4- نفس المصدر، ص 377-378.

5- يذكر الماوردي أن أصحاب الشافعي اختلفوا فيما إذا كان هذا الإنسان مالكا لماء البئرقبل اسـتقائه (أي إخراجـه) و حيترته: فذهب بعضهم إلى أنه يجري على ملكه في قراره قبل حيازته على غرار ملكية المعادن التي تكون لأصحابها قبـل أخذها و إخراجها، و من ثمة يجوز بيعه قبل استقائه و من استقاه بغير إذنه استرجع منهُ؛ و ذهب البعض الآخر إلى القـول: إنه لا يملكه إلاّ بعد الحيازة، لأن أصله مَوضوع على الإباحة، و له أن يمنع من التصرف في البئر باستقاء الماء فـإن غلبـه شخص و استقى شيئا فلا يستطيع أن يسترجع منه شيئا (الماوردي: المصدر السابق، ص 158؛ الترجمـة الفرنسـية E. Fagnan : op.cit., p.3922) ؛ الفراء: المصدر السابق، ص 202.)

6- الماوردي: نفس المصدر، ص 158؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : Ibid, p.393؛ و قال بعض أصحاب الشـافعي لا يلزمه بذل الفضل منه لحيوان و لا زرع (نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id).

1- أن يكون هذا الماء في قرار البئر أي بداخله، فإن استقاه أيْ رفعه الرجل، لا يلزمه بذله بل يجوز له في هذه الحالة بيعه.

2- أن يكون متصلا بكلأ يُرعى، فإن لم يكن قريبا من المرعى لا يُلزَمُ بذله.

3- ألاّ تجد المواشي غيره، فإن وجدت مباحا غيره، لا يلزمه بذله، و وُجهت المواشي إلى الماء المباح، و إن كان غيره من الموجود مملوكا، لزم كلّ واحد من مالكي الماءين أن يبذل فضل مائه لمن ورد إليه، و إذا اكتفت المواشي بفضل ماء أحدهما سقط الفرض عن الآخر.

4- ألاّ يكون عليه في ورود المواشي إليه ضرر يُلحق بزرع و لا ماشية، فإن لحقه بورودها ضرر منعت و جاز للرعاة استقاء فضل الماء لها.[1]

و يمتلك ماء البئر من احتفرها أو ورثته، و عندما لا تكون وسائل أخرى للرّي، تكون لكلّ بستان بئره الخاصة، مما يلغي مشكل التقسيم و لكن في واحات كثيفة السكان، كما هو الشأن بالنسبة لواحة ميزاب اليوم، يندر أن تكون بئر ملكا لشخص واحد، إذ تكون عادة ملكا لمجموعة من الأشخاص الذين يقتسمون أشجار و ألواح البستان، و ما دام الماء في الشيوع، أصبح من الضروري إجراء قسمته، و نظراً للانخفاض المستمر الذي تتعرّض له هذه الآبار فإن القسمة فيها تكون بالوقت.[2]

و إذا حفر الرجل بئرا في داره أو أرضه و خَصَّص ماءها للبيع، و هذا يحلّ له، و ورد على مائه قوم مسافرون، فمن حقه أن يمنعهم من الشرب إلاّ بثمن، لكن إن لم يكن معهم ثمن، و تعرضت حياتهم للخطر لعدم وجود ماء آخر يمكنهم من إنقاذ حياتهم به، ففي هذه الحالة لا يمنعون من الشرب، و إن مُنعوا، جاهدوا صاحب البئر.[3]

و إذا كان الرجل يملك بئرا لسقي أرضه، و كان لماء بئره فضل، فليس من واجبه بذل ذلك الفضل لتُسقى به أرضُ جاره، بل من حقه أن يبيعه له. أمّا إن كان له جار قد زرع أو غرس أرضا على بئر له فانهارت بئره و خاف على زرعه الهلاك، قبل إصلاحها، فيصبح من

1- الماوردي: المصدر السابق، ص 158؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p .394؛ الفراء: المصدر السابق، ص 204.

2- Capot- Rey : L'Afrique blanche, T.2, p.349.

3- سحنون: المصدر السابق، جـ4، ص 374.

واجبه أن يغيثه بفضل مائة، إن كان في مائة فضل، و إلاّ فهو أحق بمائه، و يرى مالك بن أنس أن ذلك يكون بغير ثمن في حين يرى بعض أصحابه أن يكون بثمن.(1)

و لا بأس ببيع فضل ماء الزرع و كذلك بيع رقاب آبار ماء الزرع؛ أمّا بئر الماشية فيكره في المذهب المالكي بيع مائها و أصلها، و أهلها أحق بمائها، فإذا فضل عنهم كان الناس فيه سواء ، و لا يباع ماء بئر الماشية، و لو حُفرت قرب المنازل، إذا كان صاحبها إنما احتفرها للصدقة و إمّا إن احتفرها لغير الصدقة، بل احْتفَرها للمنفعة في أرضه، لبيع مائها و سقي ماشية نفسه فيمكنه بيع مائها؛ و التي لا يجوز بيع مائها من آبار الماشية هي التي تحفر في البراري و الفَيافي،و الذين حفروها أحق بمائها حتى يُروُوا، كما يكره بيع آبار الشفة، و لا بأس أن يبيع الرجل البئر في داره أو أرضه و يبيع ماءها.(2)

و يمكن للرجل أن يبيع شرب يوم أو يومين بغير أصل و أن يبيع أصل شرب يوم أو يومين من كل شهر من بئر له(3)، و إذا كانت له أرض مشتركة مع غيره، تسقى من هذه البئر، يجب عليه تقسيم الأرض مع الشركاء أوّلا، ثم التصرف بعد ذلك، بحريّة، في حظه من ماء البئر بالكراء أو البيع أو غير ذلك، فإن لم يُقسّم الأرض مع شركائه يكون لهم حق الشفعة في الماء.(4)

و نفس الشيء ينطبق على البئر المشتركة التي تسقي نخلا مشتركا، فإذا قُسمت النخل و تركت البئرفلا شفعة فيها، مثلها في ذلك مثل العيون،(5) و يرى أحد شراح المدونة أن الشفعة تكون في الماء، إذا لم تقسّم الأراضي المشتركة و كان سقيها من بئر واحدة فقط؛ و أمّا إن كان سقيها من أكثر من بئر فلا شفعة في مائها و إن لم تقسم الأرض(6)؛ و تكون الشفعة في حصتي الأرض و البئر إن بيعتا دون تقسيم أو في حصة البئر وحدها.(7)

1- سحنون المصدر السابق، جـ4، ص 374.

2- سحنون: المصدر السابق، 3، 289.

3- نفس المصدر، جـ4، ص 375.

4- نفسه؛ القاضي النعمان: دعائم الإسلام، جـ2، ص 88.

5- نفس المصدر، 4، 244.

6- أنظر N. Seignette في خليل بن اسحاق: المختصر في الفقه، النص العربي مرفوق بالترجمة الفرنسية، لـ N. Seignette، قسنطينة 1878، ص 283.

7- سحنون: المصدر السابق، 4، 220.

و هذا الحكم ينطبق على بئر الزرع؛ أمّا بئر الماشيّة فلا تباع و بالتالي فلا شفعة فيها[1]، مع العلم أن أصول الآبار لا تُقسّم، و لا يكون تقسيمها إلاّ على الشرب، حيث يكون لكل قوم نصيب معيّن منه.[2]

و إن انهارت البئر المشتركة بين الرجلين فعَمِلَها أحدهما و رفض الآخر مشاركته في العمل فلا يكون للذي لم يعمل، من مائها قليل و لا كثير، و إن كان فيه فضل، إلاّ أن يعطي شريكه نصف ما أنفق[3]، و إذا قل ماء بئر الماشية و اختلف أصحابها في كنسها يكون الحكم فيها كما في بئر الزرع، أي أنّ الذين كنسوا أولى بفضل ما زاد بعد الكنس في الماء حتى يرووا وكان شركاؤهم الذين لم يكنسوا و الأجانب فيما تبقى سواء، لكن إذا دفع هؤلاء نصيبهم، من نفقة الكنس، كانوا شركاء في جميع الماء.[4]

و يمكن رهن جزء من شرب البئر، و يكون ذلك رهنا إذا قُبض، أي بحيازته و الحيلولة بينه و بين صاحبه، و لا يجوز للمرتهن أن يكري ماء هذا البئر من غير أن يأمره ربُّها بذلك، و إن أمره فعل، و كان الكراء لرب الأرض، و لا يكون الكراء رهنا إلاّ أن يشترطه المرتهن، و إن اشترط أن يكريها و يأخذ كراءها في حقّه، فإن كان دَيْنه ذلك من بيع، فلا يجوز شرطه هذا، و إن كان دينه من قرض، فهو جائز؛ و من حق المرتهن أن يمنع صاحب البئر من سقي أرضه المجاورة للبئر بمائها، كما لا يحقّ للمرتهن أن يسقي بمائها زرعه هو الآخر، و إلاّ كان ذلك خروجا عن الرهن.[5]

أهمية الآبار التجارية و العسكرية:

يلاحظ أن مياه الآبار أي الآبار نفسها هي التي كانت تحدّد معالم الطرق في الصحراء المغربية، فهي التي كانت تمثل محطات القوافل التجارية التي تتزوّد بمائها و تنقذ بفضل ذلك حياة أفرادها و حيواناتهم، و في حالة ما إذا لم تهتد لطريقها أو حدوث مشكل لمائها فإن القوافل، بأفرادها و حيواناتها، كانت عرضة لهلاك مؤكد.

1- سحنون: المصدر السابق، 4، ص 376.

2- نفس المصدر، 4، 269.

3- نفس المصدر، 4، 375.

4- نفس المصدر، 4، 376.

5- نفس المصدر، 4، 379.

و لم تكن الجيوش بدورها في منآى عن هذا النوع من الخطر، خاصة عندما تُغامر و تتوغل بعض الشيء في الصحراء، مثلما حدث للقائد العربي عقبة بن نافع الفهري عندماغزا بلاد كوار، جنوب منطقة فزان، فلما كان عائدا مع أصحابه من تلك الغزوة " أصابهم عطش شديد أشرف منه عقبة و أصحابه على الموت "[1] و لم تُنقذ حياتهم إلاّ من باب الصدفة حيث " جعل فرسه يبحث ...في الأرض [حتى] كشف عن صفاة، فانفجر منها الماء، و جعل الفرس يمصّ من ذلك الماء، فانصرف عقبة فنادى في الناس أن احتفروا... فاحتفروا سبعين حسيّا فشربوا و سقوا، و صار ذلك الماء عيْنا، فسميّ لذلك ماء فرس "[2] و يقع ما بين فزّان و طرابلس.[3]

و من أمثلة ذلك أيضا ما حدث للخليفة الفاطمي الثالث، اسماعيل المنصور، عندما راح يطارد الثائر النكاري أبا يزيد المعروف بصاحب الحمار، في نواحي جبل سالات[4] الواقع على ثلاثة مراحل شمال غرب بوسعادة[5] " فمشى أحد عشر يوما في تلك القفار و الأوعار ثم نزل بسفح الجبل المذكور... و كرّ راجعا يريد بلد صنهاجة، فبات ليلته تلك، هو و أصحابه و دوابّهم... و ليسوا على ماء، و لا معهم ماء و بلغت الجرّة تلك الليلة ثلاثة دراهم، و شربة الماء كذلك، و مات كثير من أصحابه جوعا و عطشا ".[6]

و لتفادي حدوث مثل هذه الكوارث، كان إعداد الحملات العسكرية، يشمل، عندما تتوفر الشروط، حفر آبار على الطريق التي ينوي الجيش سلوكها، مثلما فعل الفاطميون سنة

1-المالكي: رياض النفوس، جـ1، ص 63.

2- نفسه.

3- En- Noweiri : op.cit., p.334, Note 1 ؛ يحدد النويري مكان وقوع هذه الحادثة و وجود ماء فرس، في جهة أخرى، عند عودة عقبة من الحملة التي وصل فيها إلى المحيط الأطلسي و هذا المكان، حسب البارون دوسلان هو سيدي دَحُّو، بين تلمسان و سيدي بلعباس (op.cit, p.334, note 1).

4- ابن حماد: اخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم، تحقيق و تعليق جلول أحمد البدوي، الجزائر 1984، ص 39.

5- Ibn el Athir: Annales du Maghreb et L'Espagne, trad. E. Fagnan, Revue africaine, n° 232, 1899, p.86, note.2.

6- ابن حماد: المصدر السابق، ص 39؛ حسب ابن الأثير فإن ثمن جرّة الماء بلغ دينارا (op.cit. p.86).

966م، عندما عزموا على غزو مصر، حيث حفروا آباراً، ما بين طرابلس و برقة، على طــــول الطريق المؤدي إلى مصر.[1]

و لنفس الغرض أمر الخليفة الموحدي عبد المؤمن قادته في المغرب أي عماله بحفر آبـــار على طول الطريق العابر للمناطق التي كانت تحت سيطرته، من مرّاكش إلى تونس، قبل أن يقوم بحملته المشهورة على إفريقية انطلاقا من مرّاكش في شهر صفـــر ســـنة 555هـــــ/21 فـــبراير 1159 م.[2]

يتبيّن من خلال عملية الجرد التي قمنا بها أن الآبار كثيرا ما ذُكرت في المصادر العربيـــة، إلى جانب العيون، و كثيراً ما ذكرت أيضا بمعزل عنها، و عادة ما كانت تُذكر نوعيةُ ميّاهها و مدى صلاحيتها للشرب، و ما كانت توفره للزراعة من ريّ، خاصة في المناطق شبه الجافة و في الصحراء.

و تتميّز البئر عن الحاسي أو الحسي و العين بعمقها الكبير، و هي تحتاج إلى رفع مائـــها مثل الحاسي، عكس العين التي يسيل ماؤها على الأرض؛ أمّا الآبار الأرتوازية التي يصل عمقـــها إلى الطبقة المائية الجوفية، فإن مياهها تصعد بفعل الضغط لتسيل على ســـــطح الأرض كميـــاه العيون .

و الآبار العادية هي التي لا تنبعث مياهها، بفعل الضغط، إلى سطح الأرض و من ثمـــــة كان على الإنسان أن يخترع آلات تساعده على استخراجها بهدف استغلالها، و هذا ما فعله، و من الآلات التي كانت معروفة ببلاد المغرب خلال الفترة التي يشملها البحث و الـــتي ذكرتهـــا المصادر العربية: الدولب أو الدولاب و الخُطّارة أو الأنجقة أو الأنجفة و السانية.

و قد عثر C. Cahen على مخطوط عنوانه " كتاب الحاوي للأعمال السلطانية و رســـوم الحسابات الديوانية، حاول فيه صاحبه المجهول شرح " مــــا يســـتقيه النواعـــير و الدواليـــب و الغرافات بالعراق، في القرن 11 م و هو وصف لا بد و أنه غير بعيد عن صفات الآلات التي

1- أنظر Guichard P: les Etats musulmans du Maghreb, dans Maghreb médieval, ed. Française, Aix- en- Provences 1991, p.162.

2- Ibn el – Athir: op.cit., pp.122-123.

كانت معروفة ببلاد المغرب بنفس التسميات، ما دامت الاتصالات لم تنقطع بين مشرق العالم الإسلامي و مغربه.

و قد اهتمت دراسات حديثة بموضوع آلات الرّي التقليدية الخاصة باستخراج مياه الآبار و التي استمر العمل بها إلى يومنا هذا في مناطق كثيرة من البلاد المغربية، و من خلال الاطلاع عليها يمكن تكوين فكرة تقريبية عن الآلات التي كانت مستخدمة في العصر الوسيط.

مع ملاحظة أن الأحكام الشرعيّة بيّنت بوضوح شروط ملكية الآبار و كيفية الانتفاع بمائها، مُرجّحة، بصراحة تامة، المصلحة العامة عن المصلحة الخاصة و الإنسان على الحيوان و الحيوان على الزرع.

و في النهاية لا بدّ من الإشارة إلى ما كانت الآبار تلعبه من دور معتبر في كل من الحياة التجارية و العسكرية ببلاد المغرب في الفترة المخصصة لهذا البحث.

الباب الثاني

الفصل الخامس

توصيل المياه و تخزينها ببلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين

وسائل توصيل المياه و تخزينها، من برقة إلى تونس:

إنّ المعلومات التي تزودنا بها المصادر المتوفرة في موضوع تخزين المياه ببلاد المغرب، منذ الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين لا تتجاوز في كثير من الأحيان إشارات عابرة يلوّح فيها الجغرافيون أو الرحالة أو المؤرخون إلى وجود الصهاريج و المواجل و الجباب أثناء وصفهم لتجمعات سكنية معينة و خاصة المدن و القرى التي لا تتوفّر فيها مجاري المياه الدّائمة و لا على طبقات مائية جوفية. و يحتاج توضيح هذه المسألة إلى القيام بعملية مسح للمعلومات الواردة في شأنها، انطلاقا من الناحية الشرقية، ثم استخلاص ما يمكن استخلاصه بناءاً على ذلك.

و من الأخبار التي وصلتنا في هذا المجال ما ذكره اليعقوبي (ق 3هـ/9 م) أثناء وصفه لمدينة برقة أن " شرب أهلها من ماء الأمطار، يأتي من الجبل في أودية إلى برك عظام، قد عملتها الخلفاء و الأمراء لشرب أهل مدينة برقة... و لبرقة جبلان أحدهما يقال له الشرقي... و الآخر يقال له الغربي... و في هذين الجبلين عيون جارية... و آبار للروم "[1] و يشير صاحب كتاب الاستبصار (ق6هـ/12 م) إلى جبل واحد على بعد ستة أميال من المدينة واصفا إيّاه بأنه كثير الخصب و الفواكه و المياه السائحة "[2] أمّا ابن حوقل (ق.4هـ/10 م) فيجعل برقة في بُقعةٍ محاطة بجبل من سائر جهاتها، و يشير إلى أن " شرب أهلها من ماء المطر بمواجن يُدَّخر بها،... و ليس بها ...ماء جار "[3] و يقصد ابن حوقل هنا بدون شك، الجري الدائم للماء لا الجري المؤقت الذي يحدث وقت سقوط الأمطار و هو الذي يصب و يحفظ في تلك البرك العظام التي تعرف بالمواجل أو المواجن بل إن المقدسي (ق.4هـ/10 م) يشير إلى أن شرب أهل برقة " من آبار و مايحجزونه من أمطار في جباب (citernes)"[4] و يكرر الإدريسي (ق6هـ/12م)

1- كتاب البلدان، ص 343.

2- مؤلف مجهول، ص 29؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.57 .

3- صورة الأرض، ص 67؛ يذكر عز الدين أحمد موسى أن الناس في المغرب كانوا يعتملون على ماء المطر في كل البلاد، و لجأوا إلى سفوح الجبال فأقاموا عليها الحواجز أو الصوارم، و هي كلمة بربرية تعني الحواجز، كي يحتفظوا بمياه الأمطار لموسم الجفاف في صهاريج ثم يشرح كلمة صهريج على أنها بركة، و يضيف أنها تعني بالدارجة المغربية مواجل و يعنون المآجل، و مفردها ماجل و هو مجتمع الماء (النشاط الاقتصادي، ص 64، هامش 4، هامش 5).

4- Al – Muqaddasi : op.cit, p.10 et 12 ; Trad.fr. p.11 et 13 .

ما قاله ابن حوقل من عدم وجود ماء جار ببرقة مضيفا أن مياه سكانها " من المواجل و السواني التي يزرعون عليها قليلا من الحنطة و الأكثر الشعير و ضروب القطاني و الحبوب "[1].

و في وادي مسوس على الطريق " من برقة إلى إفريقية " يتحدّث البكري عن " قباب خربة و جباب (citernes) يقال إن عددها ثلاث مائة و ستون و بها بساتين "[2]، و يشبه ابن حوقل اجدابية ببرقة في عدم وجود ماء جار بها[3] و يربط الإدريسي بين أجدابية و برقة في نفس الموضوع مضيفا أن " مياههم من المواجل و السّواني التي يزرعون عليها قليلا من الحنطة، و الأكثر الشعير و ضروب القطاني و الحبوب "[4] كما يربط المقدّسي أجدابية بسُرت حيث يذكر أن شرب أهل أجدبية " من الأمطار؛ و سّرت كذلك "[5] و يدقق ابن حوقل أكثر بقوله " و شرب أهلها من ماء المطر المختزن في المواجل "[6] في حين يذكر البكري أن بها " نخل و بساتين و آبار عذبة و حباب كثيرة "[7] و يفيد الإدريسي أن ما كانت بِسُرت من أعناب و فواكه قبل وقته (ق.6هـ/12 م) قد تَلفتْ، و لم يبق منها، في عهده " شيء إلاّ ما كان في بطون الأودية و رؤوس الجبال، و مياهها من المطر في المواجل و آبارها قليلة ".[8]

و قد كان شرب أهل مدينة طرابلس، وقت المقدسي (ق.4 هـ/10 م) " من آبار و ماء مطر "[9] و كانت آنذاك كثيرة الفواكه لكن أعراب بني هلال، وقت الإدريسي (ق6هـ/12 م) كانت قد أضرت بها " و بما حولها... و أبادت أشجارها و أوغرت مياهها "[10].

1- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 213.

2- المغرب، ص 5؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.15 .

3- صورة الأرض، ص 67.

4- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 213.

5- Al – Muqaddasi: op.cit., p.12, Trad., p.13 .

6- صورة الأرض، ص 68.

7- المغرب، ص 6؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit, p.6 .

8- القارة الإفريقية، و جزيرة الأندلس، ص 198.

9- Al – Muqaddasi : op.cit, p.12 ; trad.fr., p13.

10- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 198.

و هناك " مواجل قليلة... و فنادق و حمامات طيبة " بمدينة سوسة، حسب ابن حوقل[1] لكن الإدريسي فيما بعد يذكر أن " مياههم (أهل سوسة) من المواجل "[2] أي أنــه لا يصــف تلك المواجل بالقلة و يفيد المقدّسي أن شرب أهلها و شرب أهــل سـفاقس " مــن آبــار و جباب "[3].

كما يشير البكري إلى وجود " مواجل الماء "في حصن المنستير، أحد محارس سوســة[4] و يصف ابن حوقل مواجل سفاقس (صفاقس) بأنها " صالحة الطعوم، حافظة لما استودعت "[5] و إذا كان تعبير ابن حوقل هنا دقيقا، يكون معنى ذلك ببساطة أن طعم الماء في غيرهــا مــن المواجل كان عرضة للتغيير و حجمه كان عرضة للنقص، أي أن الماء كان يتأثر بتربة المكــان الذي يخزّن فيه.

و في جزيرة قرقنة التي تقابل صفاقس يذكر البكري مرّة أن بها مواجل (Citernes) و أن أهل صفاقس يدخلون إليها "دوابهم و مواشيهم لأنها خصبة "[6] و في مكان آخــر يشــير إلى احتوائها على"سبعة أجباب (Citernes) يدخــل فيــها أهــل الســاحل مواشــيهم و يُبــذر أكثرها... "[7].

و في مدينة المهدية " من المواجل العظام (Grandes Citernes) حسب تعبير البكـــري، ثلاث مائة و ستون، غير ما يجري إليها من القناة التي فيها. و الماء الجاري بالمهدية جلبه عبيــد الله(المهدي) من قرية منانش و هي على مقربة من المهدية، في أقداس (أنــابيب) و يصــبّ في صهاريج (Citernes) ... عند جامعــها و يُرفــع مــن الصــهريج إلى القصــر بــالدّواليب (roues à chapelets) و كذلك يُسقى أيضا بقرب منانش من الآبار بالدواليب، و يُصــبّ في محبس(خزان) يجري منه في تلك القناة "[8] و يحدّد A. Lezine مكان الصهريج الذي يشير إليــه

1- صورة الأرض، ص 72.

2- القارة الإفريقية، ص 203.

3- Al- Muqaddasi : op.cit, p.16 ; trad, fr., p.17

4- المغرب، ص 36؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.78

5- صورة الأرض، ص 71؛ قارن الإدريسي: المصدر السابق، ص 181.

6- المغرب،ص 20؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit., p.47

7- نفس المصدر، ص 85؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.171- 172

8- نفس المصدر، ص 29-30؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.66-67

البكري هنا، عند جامع المهديّة، في جهته الشرقية، و يقول بأنه يتكوّن من ثلاث حُـــجُرات لاصقة بسور المسجد، و يلاحظ أنه لم يبق من القناة التي كانت تزوده بالماء من قرية منانش أي أثر، و يردّ lezine سبب استخدام الدواليب (un système de Chaines à godets) لرفع المـاء إلى قصر الخليفة كون القصر كان أعلى من المسجد بإحدى عشرة مترا[1] و يضيف نفس المؤلـف قائلا إنه بالإمكان التعرّف اليـوم في خرائـب صـبرة علـى آثـار صـهريجين كبـيرين (deux grandes bassines) لا يقلّ بُعْدًا أحدهما عن 130 × 150 م[2]. و تخصص مواجل المهديـة لشرب أهل المدينة[3] و يربط القزويني بين عدد صهاريج المهدية الثلاثمائة و الستين و بين عـدد أيام السنة " يكفيهم كل يوم صهريج إلى تمام السنة و مجيء مطر العـام المقبـل "[4]، و هـذه الصهاريج غيرُ ما يُلاحَظ من الحُفَر (excavation)المربّعة و المستطيلة و الدائرية و هي عبارة عن أقعار لمواجل أو هُرى، نُقرت على الصخور، يمتلكها خواصّ في كامل مســاحة الشّـنّاخ [5] (promontoire) في القرن الحادي عشر الميلادي لكن النوع الأوّل أوسع بكثـير مـن هـذه و يختلف عنها كلّية و ما يزال أحدها محفوظا بشكل جيّد إلى اليوم و يمكن مشاهدته على حافة الطريق المؤدي إلى الفنار و هو عميق، ضيق و طويل جدًّا، و تغطية قُبّة.[6]

و قد أورد لنا ابن سعيد المغربي أن الخليفة الفاطمي الرابع، المعزّ لدين الله، عندما عـزم على فتح مصر،أعطى أوامره لصنع صهاريج يجمع فيها ماء المطر[7] ليتزوّد به جيْشه أثناء زحفه.

و في حديثه عن مدينة تونس يشير ابن حوقل إلى أن مياهها " جارية قليلة و الانتفـاع بها كثير "[8] و في جنوب قصر السلسلة " صهريجان (deux Citernes) كان ملوك بني الأغلب

1- Mahdia, Sociètè Tunisienne de diffusion, 1968, p.34 ·

2- Ibid, p.13 ·

3- Al- Muqaddasi : op.cit. p.16 ; trad.fr.p.17؛ يذكر الإدريسي أن شرب أهلها من المواجل و أن آبارهـا غير عذبة (القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 183).

4- آثار البلاد و أخبار العباد، ص 276.

5- الشناخ أنف الجبل الخارج منه و الدّاخل في البحر(المنهل، ص 835).

6- A. lezine : Mahdiya, 50-51.

7- كتاب الجغرافيا، ص 128.

8- صورة الأرض، ص 73.

يرسلون فيهما ماء البحر و يملونهما بالسمك "[1] كما تـــوجد في جبل الصيادة، من ضواحي المدينة " سبعة مواجل (réservoires) للماء أقباء على غرار واحد"[2].

و مما سجله العبدري عن مدينة تونس أثناء رحلته التي قام بها سنة 688 هـ/ أن ماءهـا " قليل و في ديارهم مصانع لماء المطر، و هو المستعمل عندهم؛ أما الساقية المجلوبة من ناحيـة زغوان فقد استأثر بها قصر السلطان و جنانه إلا رشحا يسيرا سرب إلى ساقية جامع الزيتونـة يتسرب منها في أنابيب من رصاص و يستقي منها الغرباء و من ليس له في داره ماء..."[3].

و في مدينة قرطاجة يشير البكري إلى ووجود " قبو (قبة) عظيم لا يدرك الطرف آخـره فيه سبعة مواجل (réservoires)، للماء، كبار تعرف بمواجل الشياطين، فيها ماء قديم لا يـدرى متى دخلها "[4] و يطلق الادريسي تسمية دواميس على تلك المواجل و يعتبرها من عجائب البناء بقرطاجنة... (و) يبلغ عددها أربعة و عشرين داموسا في سطر واحد، طول كل داموس مائـة و ثلاثون خطوة في عرض ستة و عشرين خطوة، و لكل داموس منها أقباء من أعلاه، و بـين كل داموس منها و صاحبه ثقاب و زراقات تصل منها المياه من بعض إلى بعض، كـل ذلـك بهندسة و حكمة ".[5]

و قد زار صاحب كتاب الاستبصار قرطاجة و سجل عنها بعض ملاحظاته بالإضافـة إلى ما نقله عن البكري فذكر أن بها " مواجل كثيرة للماء و بعضها تسمى مواجل (Citernes) الشياطين بسبب أن من يقرب منها يسمع فيها دويا..."[6] و يبدي استغرابه مما رآه فيها من مـاء " باق (منذ القديم) إلى الآن و ليس يدخلها ماء المطر... لإحكام سطوحها، و هي ثمانية عشـر صهريجا منفوذة بعضها إلى بعض، في ارتفاعها نحو المائتي ذراع في عرض كثير، و فيها من المـاء نحو الستة قيام (قامات)و لا يعلم من أين يدخل ذلك الماء..."[7] و مما يلفت الانتبـاه هنـا أن صاحب كتاب الاستبصار يجعل كلمة صهاريج مرادفة لكلمة مواجل و يصرح بأنه نقل بعض

1- المغرب، ص 39؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane, op.cit., p.85

2-نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.86

3- الرحلة المغربية، ص 36.

4- المغرب، ص 44؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.94

5- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 188.

6- مؤلف مجهول، ص 13؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan : op.cit, p.23

7- نفس المصدر، ص 14؛ الترجمة الفرنسية Id

معلوماته في هذا الموضوع عن البكري[1] مع أن هذا الأخير يميّز بين الكلمتين: فالمواجل بالنسبة إليه هي تلك التي يوجد بها ماء محبوس منذ القديم، و هي غيرُ ما " في وسط المدينة [من] صهريج (bassin) كبير حوله... (في وقته) ألف و سبعمائة حنية (قائمة سوى ما الهدم منها "[2] و يستقبل هذا الصهريج الماء المجلوب من عين جُقار[3]، جنوب غرب جبل زغوان في " قناة عظيمة كان يأتي عليها ماء كثير يقوم بخمسة أرحاء أو أكثر، عرض القناة نحو ثمانية أشبار، و ارتفاع مائها نحو القامة و نصف "[4] و يسيل الماء فيها بوزنة معتدلة [5] و هو يغيب تحت الأرض عندما تواجهه المرتفعات و يكون على قناطر مبنية بالصخر عندما يعبر المنخفضات.[6]

و قد أنجز هذه القناة الإمبراطور الروماني Hadrien غير أن عملها تعطل أيام الفتح الإسلامي لبلاد المغرب و لم يحاول أمراء إفريقية إصلاحها قبل عهد المستنصر بالله الحفصي[7] الذي أقام "في عملها مجتهدا بأقصى ما يمكنه أعواما عديدة،و لم يمكنه ردّ ذلك على ما كان عليه و لا يقرب منه بل اقتنع بتسديده كيف ما أمكن،مع قلته و تفاهته بالإضافة إلى غيره".[8]

1-مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 14؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan : op.cit., p.23 .

2- المغرب، ص 44؛ الترجمة الفرنسية Mac – guckin de Slane, p.cit, p.94 قارن مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار الذي جاء في نصه العربي " صهريجٌ كبير حوله في وقتنا هذا ألف و سبعمائة ساقية (ص 14) و ترجم E. Fagnan هذه العبارة بألف و سبعمائة حنية (Dix- sept cents arcades) : (op.cit., p.2) .

3- كتبت هذه التسمية في مخطوطات M. A و P حَفَار و في مخطوط E حفان و هي الكلمة التي يطلق عليها الإدريسي تسمية شوقار، و موقع هذه العين معروفة جيّدا فهي تبعد ثلاثة فراسخ عن جنوب غرب جبل زغوان و على اثني عشر فرسخا من مدينة تونس (Mac guckin de Slane: op.cit., p.94, note 2)؛ و قد كتب صاحب كتاب الاستبصار هذا الاسم" عين حفان " (مؤلف مجهول، ص 14) لكن مترجمه E. Fagnan كتبها مثل البكري " عين جُقار " (op.cit., p.24 et note 2) ؛ و يحدد صاحب كتاب الاستبصار بُعد العين عن الصهريج بمسيرة خمسة أيام (مؤلف مجهول، ص 14؛ الترجمة Ibid, p. 2).

4- مؤلف مجهول: نفس المصدر، ص 14؛ الترجمة الفرنسية. Id.

5- الإدريسي: المصدر السابق، ص 188؛ مع الملاحظة أن الادريسي يختلف مع البكري و صاحب كتاب الاستبصار حيث أنه يعتبر أن الماء يجري إلى ما أسماه بالدواميس أي المواجل، من عين شاقور، قرب القيروان، على بعد ثلاث مراحل من تلك الدواميس (القارة الافريقية، ص 188).

6- المغرب، ص 44؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit, pp.94-95؛ مؤلف مجهول: نفس المصدر، ص 14؛ الترجمة الفرنسية، E . Fagnan : op.cit., p.24؛ العبدري: الرحلة المغربية، ص 36.

7- و إن كانت الفكرة قد شغلت أفكار بعضهم أنظر. الحبيب الفقي و آخرون: القاضي النعمان بن محمد: كتاب المجالس و المسايرات، ص 332، هامش 5.

8- الرحلة المغربية، ص 37.

و يظهر أن ماء القناة لم يكن يصب مباشرة في الدواميس أو المواجل كما ورد في نـــص الإدريسي[1] بل كان يصب في الصهريج الكبير الواقع وسط المدينة مثل ما ذكر كل من البكري و صاحب كتاب الاستبصار ثم " يخرج من هذا الصهريج إلى بعض تلك المواجل ".[2]

و يخبرنا البكري بوجود قصرين من رخام يُعرفان بالأختين، بهما ماء مجلوب يأتي مـــن قبل الجوف (الشمال)، لا يعرف منبعثه و يصب في البحر و عليه نواعـــير (Roues à godets) لقرى قرطاجة[3] و نفس المعلومات أوردها صاحب كتاب الاستبصار لكن باســـتعمال صغـــة الماضي: " و " كان" فيها قصران...و " كانت" عليه نواعير "[4] و بإضافة جملـــة " و ســـواقي تسقي بساتينهم " إلى كلمة نواعير.[5]

توصيل المياه و تخزينها في القيروان و ضواحيها:

و فيما يخص القيروان، فقد حاول م. سولينياك (M. Solignac) تسليط الضـــوء علـــى وضعيته المائية قبل الفتح الإسلامي فانتهى إلى القول بأنه لم يعثر عمليا على أي شيء له صلـــة بالتنظيم المائي قبل " الغزوة " العربية الأولى سنة 645 م لمنطقة مزاق (Byzacène) التي ســـبنى فيها القيروان بمركز قمونية أو قونية الذي يكون قد سبق العاصمة العربية الكبرى.[6]

و يضيف نفس المؤلف أن بعض المصادر المعاصرة للعهد الأغلبي كابن عبـــد الحكـــم (+275 هـــ/ 870 م) و البلاذري (279 هــــ/897 م) و آخرين، بعدهما، مثل صاحب كتـــاب الاستبصار (587 هـــ/ 1191 م) و ابن عذاري (نهاية القرن 7 هـــ/13 م) أفادوا بأن الموقـــع الذي اختاره عقبة بن نافع لبناء القيروان، كان قطعا قاحلا، ليس فيه سوى نباتات شوكية يلجأ إليها عدد لا يحصى من الوحوش، في حين يؤكد مؤلفون آخرون أن مركزا صغيرا عامرا كان

1- القارة الإفريقية، ص 188.

2- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 14؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit. p.24.

3- المغرب، ص 44؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit., p.95.

4- مؤلف مجهول: ص 13؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.22.

5- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id.

6- Recherches Sur les installations hydrauliques de Cairouan et des steppes tunisiennes du VIII^e au XI^e siécle (J. C) Alger 1953, p.10. يبدو أن لفظ Byzacène انتقل إلى العربية في شكل مزاق و كان يدل على ناحية القيروان (محمد الطالبي، المرجع الســـابق، ص 137، هـــامش 253)؛ عـــن معـــنى مـــزاق أنظـــر H.H. Abdul- Wahab, Du nom arabe de la Byzacéne, Revue tunisienne, no 38-39-40, 2éme- 3éme- 4éme- trimestres 1930, p.199 sq؛ عن مزاق، أنظر الخريطة رقم 9.

موجودا في الموقع الذي بنيت فيه القيروان و يسمونه قمونية أو قونية؛ و في هذا السياق، فإن ابن عبد الحكم الذي جمع معلوماته قبل سنة 871م بقليل و خصصها لتاريخ الحملة (raid) الأولى التي قادها معاوية ابن حديج سنة 664 م على المغرب، يذكر أن معاوية سار في هذه الحملة حتى وصل قونية، و هو المكان الذي أسست فيه القيروان فيما بعد، و من هناك راح يقيم معسكره في سفح جبل يسمى القرن.[1]

و في نفس العصر ذكر ابن خرداذبة (885/272 م)، صاحب البريد، أي مصلحة الاستخبارات العباسية، في كتابه المسالك و الممالك أن القيروان الحالي تأسس في الموقع الذي كانت تحتله قديما مدينة قمونية؛ و يؤكد المالكي (450هـ/1058 م) بوضوح وجود قلعة بيزنطية صغيرة (fortin) تسمى قمونية، في موقع القيروان، و كانت بتلك القلعة كنيسة بها العمودان المحمران الموجودان في المسجد الجامع؛ و أشار ابن الأثير (ق.12-13 م) كذلك إلى اسم قمونية " التي توجد في منطقة القيروان و جلولا."[2]

و يستخلص Solignac أنه يحتمل جدا، أن يكون مركز صغير مأهول، قد وجد في الموضع الذي أسست فيه القيروان فيما بعد سنة 50هـ/570 م، على خط الدفاع البيزنطي، تزوده بالماء بئر أم عياض[3] التي ما تزال إلى اليوم موجودة، على بضعة أمتار من الجدار الجنوبي للجامع الكبير، و كان ذلك المركز، محطة للقوافل، مبنيا، أساسا بالطوب القابل للتلف[4].

و أوضح Solignac أن الحملتين العربيتين: الأولى و الثانية كانتا سريعتين جدا مما لم يعط لقائديهما فرصة الإنعكاف على المشاكل التي تمس المنشآت المائية و التزود بالماء، و لم يكن حل هذا المشكل ممكنا إلا عن طريق بناء مواجل (Citernes) تجمع فيها مياه الأمطار.[5]

فلا توجد أية معلومات عن الطريقة التي كانت تزود بها تيكروان بالماء الشروب[6] قبل

1- M.Solignac : op.cit, pp.11-12 •

2- Ibid, p.13 •

3- أطلق Silignac على هذه البئر تسمية بئر أم عمر في كتابة (op.cit., p.14) لكنه استدرك الخطأ في جدول التصحيحات بناء على ملاحظات قدمها له أساتذة متخصصون في المادة من أمثال حسن حسني عبد الوهاب (أنظر: M. Solignac : op.cit., p.385).

4- Ibid, p.14 •

5- Ibid, p.15

6- تيكروان Tikarawan هي بدون شك القيروان بالبربرية (Ibid, p.22).

خلافة هشام ابن عبد الملك التي بدأت في سنة 108هـ/ ينـاير 724 م و استمرت إلى 125 هـ/فبراير 743 م فالسنوات الخمسون الأولى من الحكم العربي لإفريقية هي إذا بالنسبة لمسألة الماء غامضة.[1]

و يعتبر Solignac قيام خلافة هشام بن عبد الملك بمثابة نقطة انطلاق سياسة مائية نشطة و فعالة في إفريقية، بسبب ظهور منشآت مائية منذ ذلك الوقت، و لعدم وجود أي دليل على ممارسة سياسة مماثلة قبل ذلك، و هو يؤسس رأيه هذا بناءا على ما ذكره البكري (ق.5هـ/ 11 م) من أنه " لما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان يعلمه أن الجامع يضيق بأهله و أن بجَوْفيه (شماله) جنة لقوم من فهر، فكتب إليه هشام يأمر بشريها (شرائها) و أن يدخلها المسجد الجامع، ففعل و بنى في صحنه (Cour) ماجلا و هو المعروف بالماجل القديم بالقرب من البلاطات..."[2].

و تسمية " الماجل القديم " ترجح الكفة لصالح رأي Solignac أي أن هذا الماجل أقدم من بقية المواجل الموجودة بالقيروان و ضواحيه و هذا عكس ما ذهب إليه حسين مؤنس في قوله " إن عبيد الله بن الحبحاب أنشأ خارج القيروان خمسة عشر ماجلا، أي صهريجا للميـاه... و الماجل صهريج ماء مكشوف يشبه الفسقية... و قد اشتهرت القيروان بمواجلها... و قد أنشأ حنظلة بن صفوان و المهالبة و هرثمة بن أعين مواجل كثيرة و تابع أمراء الأغالبة هذا التقليد..."[3] و لا يعرف من أين استقى مؤنس هذا الكلام الذي يعرف فيه الماجل بالصهريج الذي يشبه الفسقية، و هذا غير وارد بالمرة فيما ذكر في المصادر من معلومات .

و توجد " خارج مدينة القيروان، حسب البكري، خمسة عشر ماجلا للماء، سقايات لأهلها منها، من بنيان هشام بن عبد الملك و غيره و أعظمها شأنا و أفخمها منصبا ماجل أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بباب تونس "[4] و قد ذكر صاحب كتاب الاستبصار نفس هذه المعلومات و لكن بتعبير آخر هو أقرب إلى الدقة. في نظرنا حيث قال:" و بخارج مدينة

1- M.Solignac : op.cit., pp.22-23 .

2- المغرب، ص 23؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit, p.5؛ و تستعمل كلمة بلاط في الحديث عن المساجد لتعني المساحة المحصورة بين صفين من الأعمدة (Ibid, p.53, note 4).

3- تاريخ المغرب المغرب و حضارته، مج.1، جـ.1، ص 292.

4- المغرب، ص 26؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane, op.cit, p.59 ؛ أنظر الصورة رقم 8، 9.

القيروان خمسة عشر ماجلا للماء... منها ما بُني في أيام هشام بن عبد الملك ابن مروان و في أيام غيره من الخلفاء..."[1] أي أن عملية بناء المواجل بدأت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك و استمرت في عهد غيره من الخلفاء؛ و لم يشارك هو نفسه أي الخليفة في عملية الإنجاز كما فهم Solignac من تعبير " من بنيان هشام بن عبد الملك " في نص البكري فراح يسند عملية البناء إلى " الخليفة هشام و أمراء آخرين "[2] و التعبير الأصوب، بدون شك هو تعبير صاحب كتاب الاستبصار الذي يجعل تلك العملية تمت " في أيام هشام بن عبد الملك... و في أيام غيره من الخلفاء " لا الأمراء.

و قد استنتج Solignac، مما ذكره البكري، عن الخمسة عشر ماجلا خارج القيروان التي بناها، على التوالي، الخليفة هشام و أُمراء آخرون، أن الدور الذي لعبه الخليفة هشام شخصيا في تجهيز القيروان بالماء (و معها إفريقية بدون شك) مطابق للصورة التي تركها المسعودي (345 هـ/956 م) عن هذا الأمير (الخليفة) " مع أن الخليفة هشام كان خشنا و غليظا إلاّ أنه كان مُولعا بالأعمال التي تخدم المصلحة العامة ..."[3].

فإذا عُوّض تعبير البكري " من بنيان هشام بن عبد الملك و غيره " بتعبير صاحب كتاب الاستبصار " منها ما بني في أيام هشام بن عبد الملك... و غيره من الخلفاء... " فلا يصبح لهذا الاستنتاج أي معنى، خاصة و أن البكري نفسه عندما تحدث عن كتابة هشام لعامله على القيروان يأمره بشراء قطعة الأرض الملاصقة للجامع من أصحابها لإدخالها المسجد الجامع، لم يشر تماما إلى قضية الماجل بل يقول " ففعل (العامل أي أنه اشترى القطعة و ضمها إلى المسجد) و بنى في صحنه ماجلا، و هو المعروف بالماجل القديم "[4] مما يستنتج منه أن بناء الماجل مجرد مبادرة شخصية من العامل؛ و استئذان العامل من خليفته كان مقصورا على الأرض التي يمتلكها "قوم من بني فهر" القرشيين الذين ينتمي إليهم عقبة بن نافع، أشهر فاتحي المغرب و مؤسس مدينة القيروان، و الذين كانوا و لا شك أصحاب نفوذ في المنطقة يصعب

1-مؤلف مجهول، ص 5؛ الترجمة الفرنسية E . Fagnan : op.cit, p 10 .

2- M. Solignac : op.cit., p.24 .

3- أنظر op.cit., p.24 .

4- المغرب، ص 23؛ الترجمة الفرنسية ، ص 53.

على أيّ كان أن يُمسّ مصالحهم أو يُغضب بعضهم و هذا يبرّر، بما فيـــه الكفايـــة، عمليـــة الاستئذان، أمّا عملية بناء ماجل فتدخل في صلاحيات العامل العادية.

و مهما يكن فإن مبرّر خطأ .Solignac M في هذه النقطة واضح يتقاسم معه البكـــري مسؤولية ذلك لكن بماذا يُبرّر نفس المؤلف خطأه أو أخطاءه الأخرى و مفادها أنّه: قبل بنـــاء تلك الأحواض العظيمة الحجم، المعروفة جيّداً بالقيروان (ويقصد بها المواجـــل الـــتي أنجزهـــا الأغالبة)، كان هناك، إذا، بضواحي القيروان، كما تبيّنه النصوص السابقة الذكر، حوالي خمسة عشر خزّانا (ماجلا) مختلفا تمّ بناءها في عهد الخليفة " هشـــام و بـــأمر منـــه، أي مـــا بـــين 105 هـــ/ 724، و 125 هـــ/743 م[1]....

و هنا يمكن تسجيل خطأين على كلام Solignac أوّلها اعتباره، انطلاقـــا مـــن نـــص البكري، أن المواجل الكبرى التي أنجزها الأغالبة غير المواجل الخمسة عشر، فتلك تُضـــاف إلى هذه، مع أن نص البكري واضح تمام الوضوح حيث يقول بصريح العبارة و هو يتحدث عـــن الخمسة عشر ماجلا الموجودة خارج القيروان " منها من بنيان هشام بن عبد الملك و غيره (مـــن الخلفاء و ليس من الأمراء كما قال Solignac) و أعظمها شأنا... ماجل أبي إبراهيم أحمد بـــن محمد بن الأغلب بباب تونس "[2].

أي أن مجموع المواجل المبنية، خارج مدينة القيروان، بما فيها تلك التي بناها بنو الأغلب خمسة عشر ماجلا؛ أمّا الخطأ الثاني فيتعلق بالأوامر التي يقول بأن الخليفة هشام قد أصدرهـــا لبناء هذه المواجل و اشترك في تنفيذها سِتّ ولاة خلال مدّة خلافته[3] دون أن يقدم أي دليل لا على الأوامر و لا عن نصيب كل واحد من الولاة المشار إليهم في الإنجاز الذي يتحدّث عنه.

و كان أعظم هذه المواجل المذكورة، شأنا، " ماجل أبي إبراهيم أحمد بن محمـــد بـــن الأغلب بباب تونس، من القيروان و هو مستدير متناهي في الكبر، في وسطه صومعة مثمنـة "[4] و يختلف صاحب كتاب الاستبصار مع البكري في وصف الجزء الباقي من الماجل فبينما يقتصر

1- أنظر Solignac : op :cit , p.p. 24-25 .

2- المغرب، ص 26؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit., p.59؛ عنه أنظر صورة رقم 8، 10.

3- أنظر Solignac : op.cit., p.25 .

4- المغرب، ص 26؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane, p.59؛ مؤلف مجهول: المصـــدر الســـابق، ص 5؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.11؛ مع العلم أن de Slane ترجم الصومعة بكلمة Tour(بُرج) في حين ترجمها E. Fagnan بـ minaret(الصومعة).

الأول عن ذكر ما في أعلى الصومعة المثمنة من " قبة مفتحة على أبـــواب "[1] فـــإن البكـــري يتحدث في نفس النقطة عن " قصبة لرقبة مفتحة على أربعة أبواب، على أحد عشر رَجُـــلًا لا خلل بينهم كيلا يصل محط، فإذا امتلأ الماجل كان ذلك و سطح هذه القصبة نحو ذراعين، كان ابن الأغلب يدخل إلى هذه القبة في مركب يسمى الزلاج "[2] و قد اختصـــر Mac guckin de Slane مترجم كتاب البكري إلى الفرنسية معظم هذا المقطع الذي رأى فيه تحريفـــا ظـــاهرا، واقتصر على ذكر ما في أعلى الصومعة " من قصبة لرقبة مفتحة على أربعة أبواب " و ترجمـــها بـــ " و في أعلاها جناح (pavillon) ذو أربعة أبواب "[3].

و إذا وقف الرامي على ضفة هذا الماجل " و رمى بأشد ما يكون من القسي لا يـــدرك "إلى الصومعة التي في وسطه "[4] و يتصل به من ناحيته الجنوبية " أقباء (أقـــواس) معقـــودة (cintrées) أزاجا على أزاج (بعضها فوق بعض) "[5] و بمعنى آخر تتصل به من الجنوب قنـــاة ذات طابقين.[6]

و كان زيادة الله " قد بنى على غربي هذا الماجل قصرا "[7] يصفـــه صـــاحب كتـــاب الاستبصار بالعظيم و يقول: " إن فيه من البناء العجيب و الغرف المشرفة على ذلك الماجل كل شيء غريب "[8].

1- مؤلف: مجهول، ص 5؛ في الترجمة الفرنسية " على أربعة أبواب " و يشير المترجم إلى أنه نقل ذلـــك عـــن البكـــري (E. Fagnan, op.cit., p.11 et note 2) .

2- المغرب، ص 26 .

3- Mac guckin de Slane: op: cit, p.59؛ و قد ترجم de Slane بقية النص في الهامش بعد المقارنة بين مختلـــف نسخ مخطوط الادريسي فكانت كما يلي : " Servant de lieu de guet et gardé continuellement par ... onze hommes, afin que personne n'y arrive par mégarde. Quand ce bassin est rempli , il ya une distante d'environ deux coudées entre l'eau etle toit du pavillon : pour s'y rendre, Ibn – El- Aghleb montait dans un bateau nommé ez- zelladj « le glisseur» (Id, note 2) .

4- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 5؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.11 .

5- المغرب، ص 26؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit :, pp.59-68؛ مفرد الآزاج: أزج و هـــي العقود التي تحمل الأقباء (الحبيب الفقي و آخرون القاضي النعمان، كتاب المجالس و المسايرات، ص 332، هامش 3) .

6- Ibid, p.60, note 1 .

7- المغرب، ص 26؛ الترجمة الفرنسية Mac . guckin de Slane : op.cit., p.60؛ مفرد الآزاج أزج و هي العقـــود التي تحمل الأقباء (الحبيب الفقي و آخرون في القاضي النعمان: كتاب المجالس و المسايرات، ص 332، هامش 3.

8- مؤلف مجهول: ص 5؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.11 .

و بشمال هذا الماجل بني ماجل آخر "لطيف (صغير) متصل به يسمى الفسقية (خــزان) يقع فيه ماء الوادي، إذا جرى، فتنكسر فيه شدة جريان الماء، ثم يدخل منه إلى الماجل الكبير إذا ارتفع الماء في الفسقية قدر قامتين على باب بين الماجلين يسمى السرح (التفريغ) و هذا المــاجل عجيب الشأن غريب البنيان، و كان عبيد الله (المهدي) يقول رأيت بإفريقية شيئين لم أر مثلهما في الشرق:الحفير (الحفرة) الذي بباب تونس، يعني الماجل، و القصر الذي بمدينـــة رقــادة "[1] المعروف بقصر البحر.[2]

و كانت المياه التي تصب في الفسقية من " واد شتوي، يجري في أيام الشتاء، فإذا امتــلأ هذا الماجل و غيره من المواجل، شرب منه أهل القيروان و مواشيهم و يرفع (يحفظ) ماء هـــذا الماجل إلى أيام الصيف فيكون ماؤه باردا عذبا صافيا لكثرة الماء فيه ".[3]

و يشير الادريسي بدوره إلى أن شرب أهل القيروان كان " من ماء الماجل الكبير الــذي بها و هذا الماجل... مبني على تربيع و في وسطه بناء قائم كالصومعة، و ذراع كل جهة منـــه مائتا ذراع..."[4] و هنا يبدو أن الادريسي لا يتحدث عن نفس الصـــهريج (الكبـــير) الــذي يتحدث عنه كل من البكري و صاحب كتاب الاستبصار و هذا يتجلى من خلال الملاحظــات التي أبداها الأثري L. golvin حيث لاحظ أن شكل أكبر مواجل (réservoirs) القيروان و مــا يدور في فلكها " مضلع، متعدد الزوايا (polygonal) محصن بدعائم، و له في وســـطه ظلـــة (Kiosque) معلقة على عمود (pilier) كان بإمكان الأمير الوصول إليها في قارب "[5] و هـــذا ينطبق تماما على وصف كل من البكري و صاحب كتاب الاستبصار.

1- المغرب، ص 26؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit., p.60؛ كتاب الاستبصار، ص 5؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan :op.cit., p.11؛ حسب صاحب كتاب الاستبصار فإن الذي قال ذلك هو أبو عبد الله الشـــيعي (مؤلف مجهول: ص 6؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.11)؛ أنظر الصورة رقم 10.

2- مؤلف مجهول: نفس المصدر ، ص 5؛ الترجمة الفرنسية Id.

3- مؤلف مجهول: نفس المصدر، ص 5-6؛ الترجمة الفرنسية Id.

4- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 185.

5- Les Modes d'expression artistiques au Maghreb, dans le Mghreb médiéval, éd. Fr., Aix – en- provence 1991, p.238.

أمّا ما يلاحظه نفس الأثري من وجود ماجل آخر (un autre bassin) مستطيل، كـــان مُبطّنًا بمقصورة مُبلّطة بالفسيفساء في موقع رقادة الواسع[1] فينطبق، حسب ما يظـــهر علـــى وصف الادريسي. مع أن مدينة رقادة هذه التي تبعد عن مدينة القيروان بأربعة أميـــال و الـــتي شرع في تأسيسها إبراهيم بن أحمد الأغلبي سنة 263 هـــ/ 876-877 م، لم يطلُ العـــهدُ بهـــا، حيث دخلها الوهن بمجرّد ما انتقل عنها عبيد الله المهدي إلى المهدية سنة 308هـــ/920-921 م و خُرّبت نهائيا في عهد مَعدّ ابن اسماعيل (المعز لدين الله)[2].

و كانت دار أمراء بني الأغلب، قبل تأسيس رقادة مدينة القصر القديم، و هي جنـــوب مدينة القيروان و على ثلاثة أميال منها أسسها إبراهيـــم ابـــن الأغلـــب بـــن ســـالم ســـنة 184 هــ/800 م، و بها " مواجل للماء، و إذا قحطت القيروان و فُقد الماء في مواجلها نقلوا الماء من مدينة القصر "[3] و من اللافت للانتباه أن البكري لا يشير إلى وجود مواجـــل في رقـــادة و بالتالي فقد يكون الماجل المستطيل الذي نسبه إليها golvin هو نفسه الذي يتحـــدّث عنـــه البكري في مدينة القصر القديم و هو من المنجزات التي نسبها النّويري إلى أبي إبراهيم أحمد بـــن محمد الأغلبي، بالإضافة إلى الماجل الكبير بباب تونس، ماجل القصر القديم هذا، و يعتبره آخـــر منجزاته حيث توفي بعد إتمام الأشغال به يـــوم الثلاثـــاء 10 ذي القعـــدة ســـنة 249 هـــ/ ديسمبر 863م.[4]

و في تعليق G. Marçais عن ماجلَيْ باب تونس بالقيروان أي الماجل الكبير و الفســـقية يذهب إلى القول إنه " لا يزال الإعجاب قائما بالماجلين (deux bassins) الذين يُصَفّى و يُخزّن فيهما ماءُ سَهْلِ القيروان و ماءٌ تحمله قناة لشرب سكان العاصمة، و يُنسبُ هذا العمل الرائـــع قطعا إلى أبي إبراهيم أحمد... و نفس هذا الأمير زوّد قصر الضيافة (résidence) بالعباسية بماجل لم يبق له أثر الآن، غير أن ماجل رقادة ما يزال قائما، و يحتمل أن تكون صحفة المياه الواسعة

1- L. golvin : op.cit., p.238؛ أنظر الصورة رقم 11، 12.

2- المغرب، ص 24؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit., pp.62-63 .

3- المغرب، ص 28؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.64 .

4- En – Noweiri : lonquéte de L'Afrique septentrionale par les masulmans et L'histoire de ce pays sous les émirs arabes, traduit par le baron de Slane dans Ibn Khaldoun : Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentionale, T.I, appendice II , paris 1968, pp.420-421.

(ce vaste miroire) هذه، ذات الشكل المستطيل من أعمال إبراهيم الثاني، و هناك مواجل أخرى كثيرة الشبه بها، لكنها أصغر على العموم، عثر عليها القائمون ببحث حول المنشآت المائية الرومانية بالبلاد التونسية و نسبوا شرف إنجازها بطبيعة الحال إلى الرومان، و هي نسبة تبدو غير مبررة بالنسبة للكثير منها و خصوصا فيما يتعلق بماجلي القيروان و رقادة الضخمين، غير أن هذا الخطأ نفسه، كما يضيف Marçais، يؤكد استمرار التقاليد التي تركها حكام إفريقية القدماء في أعمال تنظيم المدن الاسلامية.(1)

و الرومان، حسب M. Solignac، اجتهدوا بصفة خاصة، في التقاط مياه العيون و حفر الآبار و استغلال الطبقات الجوفية و لم يبذلوا، على ما يبدو، جهدا كبيرا للاستفادة من مياه الفيضانات إلا لمنعها من التسرب في الأرض النفيذة بواسطة إقامة سدود حجز و تبليل (imbition) صغيرة لإحداث تغذية زائدة في بعض الطبقات الجوفية، و المسلمون،مع استفادتهم من الأعمال المائية لسابقيهم، يظهر أنهم ركزوا جهودهم التقنية، بصفة خاصة، على مشاكل جمع و حفظ مياه السيول التي تلعب في مزاق (Byzacéne) دورا معتبرا، و لم تستعمل قط، بعد القرن العاشر الميلادي: فهم لم يبنوا سدودا كبيرة على المجاري الكبرى في المنطقة منذ ذلك الوقت.(2)

سياسة الأغالبة المائية:

يؤكد حسن حسني عبد الوهاب أن الأغالبة كانت لهم " سياسة مائية " بحيث أن هذه المسألة كانت تشغل، على ما يبدو، بال أفراد هذه الأسرة إلى حد كبير بدليل أنهم أنشأوا منصبا إداريا دائما يتولاه موظف رسمي خاص بهذه المهمة هو " صاحب الماء " و لا تعرف مهام أصحاب المياه و لكن يبدو أنهم كانوا مكلفين بتسيير كلّ ماله علاقة بالماء، من تموين وريّ في مقاطعة مّا أو في عدة مقاطعات من البلاد.(3)

و قد سهروا على حفظ و صيانة الانجازات المائية القديمة الجبارة من قرطاجنية و رومانية و بيزنطية، زيادة على الإنجازات العديدة التي حققوها بأنفسهم، و كان جهدهم الأساسي

1- la Berbeie musulmane et L'orient aux moyen âge, p.86. ،

2- Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan, pp.382 ،

3- H. H. Abdul- Wahab : les Steppes tunisiennes (Région de gamouda) pendant le Moyen Age, lesCahiersde Tunisie, 1ier Trimestre, n° 5, 1954, p.14 ،

في هذا المعنى يتجه نحو المناطق الأقل حظًا من الأمطار، حيث لا يكفي ماء السماء للحفاظ على النباتات، و هي على الخصوص مناطق القيروان و الساحل و السواسي (Souassi) و صفاقس و قمودة، و هي مناطق استرعت انتباههم حيث يتمّ في أيامنا اكتشاف أعمال أغلبية خاصة بالتقاط الماء و جرّه.[1]

و يحصُر Solignac مدّة استمرار تطبيق السياسة المائية في إفريقية، ما بين تاريخ فتحها النهائي الذي كرّسه تأسيس مدينة القيروان سنة 50هـ/670 م و تاريخ بدء الغزوات الهلالية سنة 440هـ/1050م[2] و لاحظ نفس المؤلف أن المنشآت المائية، التي عَكَفَ على دراستها، موجودة في منطقة القيروان و سهوب تونس الوسطى و الجنوبية التي تشكل الجزء الشرقي من إفريقية و التي تَدَاول على حكمها الأمويّون و العباسيون (665-800 م) ثم بعدهم الأمراء الأغالبة الموالون للعباسيين (800-909 م) و بعدهم الفاطميون (909-979 م) و في النهاية أمراء بني زيري الصنهاجيين (979-1050) مؤكدًا عدم وجود نماذج أخرى، على الأقل بنفس الكثافة و التوزيع،خارج حدود المنطقة السهلية (plate) التي تُكوّن أغلب منطقة مُزاق [3] (Byzacène).

و باستثناء حوضين واقعين في أودية جبل وسلات (Ousselat) فإن بقية المنشآت كلّها تقع داخل مساحة محصورة بالحواف الجنوبية و الجنوبية الشرقية من منطقة الظهرة الجبلية من جهة، و من جهة أخرى، بخط يربط قفصة بَمَحْرَس (Mehrès)؛و يمكن ملاحظة أن حدّ هذه المنطقة من الناحية الشمالية يلتقي مع خط متساوي الأمطار 400 مم وحدّه من الناحية الجنوبية، خط قفصة محرس (Mehrès)، مع خط متساوي المطر 200مم؛ و لا توجد أيّة منشأة مائية من النوع المدروس هنا جنوبي منحنى 200مم، فهذا الأسلوب غير قابل للتطبيق في المنطقة شبه الصحراوية و الصحراوية[4]؛ و قد تم العثور على أكثر من 250 خزّانا خاص بتخزين مياه الفيضانات، و في بعض الحالات مياه بعض العيون أو بعض الطبقات الجوفية في المناطق المشار إليها(مُزاق).[5]

1- H.H. Abdul-Wahahb : op.cit., p.14.

2- Sur les installations hydrauliques de Kairouan, p.7

3- Ibid, p.5

4- Ibid, p.6

5- Ibid, p.7 ؛ أنظر الخريطة رقم 10.

و كان مؤسسو السياسة المائية في هذا البلد يعرفون أهمية الدور الكبير الذي ينبغـــي أن تلعبه مياه الفيضانات، بسبب عدم انتظام التساقط و نقصان المطر الذي يشكل القاعدة العامـــة، كما كانوا يعرفون القابلية الكبيرة لنفاد التربة ، " فاقتنعوا بضرورة امتلاك منشآت موضوعـــة بطريقة تجعلها قادرة على تخزين مياه السيول قبل اختفائها في الأرض النفيذة؛ و ما دام التبخـــر معتبرا في هذه البلاد كذلك فقد فهموا أنه يجب عليهم إعطاء أبعاد لتلك الخزانات بحيث يصبح نصيب الاسترجاع الجوي أقل ما يكون بالنسبة للارتفاع الإجمالي لكمية الماء المجموعـــة، و في بعض الحالات (كما في القيروان و قمودة) كان يجب إكمال مصارف (déversoir)مياه السيول بإضافات مياه العيون أو مياه الطبقات الجوفية للتخفيف من كثافة التبخر و اجتناب التجفيـــف المبكر.[1]

و كانت بعض تلك الأحواض مخصصة لتزويد المراكز الحضرية الكبرى أو القرى الهامـــة بمياه الشرب، و خصص بعضها للتسلية و الترفيه لكنها تكون قادرة، عند الضرورة، على إتاحة الفرصة لسقي ثانوي قليل (كما في حدائق رقادة و المنصورية و غيرها)؛ أما غالبية الأحـــواض فغايتها بالدرجة الأولى، ريفية، لا للري و لكنها لتأمين حاجيات تربية حيوانية مكثفة، و بعبارة أخرى فهي مساعدة لصناعة رعوية كثيفة و التي تشكل القاعدة الأساسية لاقتصاد هذه المنـــاطق السهبية.[2]

و النتيجة التي تمخضت عن ممارسة سياسة تربية الحيوانات، في بداية العصر الوســـيط، تمثلت في رفاهية كبرى عرفتها المناطق المعنية حتى أن المؤرخين يتحدثون عن قيام حـــوالي 200 قرية في سهوب الحلفاء التي هي اليوم عبارة عن صحراء هائلة، بين قفصة و فريانة[3] و ما تـــزال آثار عديدة لإنشآت مائية أنجزها الولاة الأغالبة و الفاطميون، قائمة إلى اليـــوم، في حـــين أن المدن نفسها و القرى اندثرت، مما يبين أنهم اتبعوا سياسة مائية بجدية كبيرة و إدراك واضح جدا للخلود: فالقصور و المدن المبنية بالطوب و التراب زالت، أما الأحـــواض المبنيـــة بالحجـــارة و اللياط[4] (mortier) فما زالت تتحدى الزمن.[5]

1- Solignac : op.cit., p.8 ·

2- Ibid, p.8 et 383 ·

3- Id.

4- خليط من الرمل و الكلس (المنهل، ص 682).

5- Solignac : op.cit., p.384 .

تقنيات تخزين المياه في إفريقية:

يعتقد Solignac أن المسلمين في إفريقية استوحوا فكرة تخزين المياه من مثال برك النيـل، ذلك أنه من المحتمل أن يكون فاتحو إفريقية، من العرب، بعدما عرفوا الدرس المصري و أعجبـوا به أرادوا استعمال إمكانيات المجاري المائية في منطقة القيروان، و من المتوقع أنهـم أعَـدّوا في البداية نوعا من البرك لكنّهم تنبهوا بسرعة إلى عدم استقرار هذا النوع من المنشآت بسبب عدم ثبات المجاري المائية الذي يظهر في تنقلاتها المستمرة الراجعة لشدّة الفيضانات الاستثنائية، عكس فيضانات النيل التي يمكن توقعها و توقع توزيعها[1].

و من هنا تكون قد برزت فكرة تثبيت البرك، سواء ما حَفَرته منـها الطبيعـة أو يـد الإنسان بتحويلها إلى أحواض (bassins) واسعة مبنية يُتوقّع مقاومتها للفيضانات العنيفـة[2]، فهم على الأقل جمعوا المياه التي حملتها بعض الأودية و خزّنوها بتوجيهها بواسطة سدود تحويلية صغيرة نحو الأحواض الكبيرة المبنية التي تشكل بركا صناعية حقيقية[3] و بسرعة تحسنت هـذه الأحواض بأسلوب الحوضين المجاورين، مع اختصاص كل واحد منهما بدور معيّن.[4]

و الخزانات الأولى التي بنيت هكذا ربما كانت أحواضا (bassins)بسيطة بجوار مجـاري المياه أو بعد (à l'aval) منشآت لحجز مياه السيول، و هناك أمثلة متعدّدة بتونس، تخصّ نظـام تجميع مياه السيول، أشهرها بئر شاوش عليّ* الذي يُذَكّر بمنشآت سورية مماثلة تعود إلى القـرن السابع الميلادي، و بسُرعة حُسّنت الأحواض البسيطة بإضافة أحواض أصغر إليها تقوم بتصفيـة المياه المجموعة و لا شك أن حَوْضَي سيدي الدّهماني اللذين يعود تاريخهما، على ما يبـدو، إلى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (724-743 م) يشكلان أقدم مثال على هذا النمط الجديـد من البناء المائي، و فيما بعد تبيّن أن نظام الحوضين التوأمَيْن اكتمل بعُضوٍ ثالث هو صـهريج أو ماجل الغَرف الخارجي، و منها أحواض القيروان الأغلبية.[5]

و هكذا تمت تغطية مُزاق (Byzacène) بمنشآت مائية من هذا النوع، دون إهمـال

1- Solignac : op.cit., pp.29-30 et 383 ،

2- Ibid, p.30؛ أنظر الصورة رقم 13.

3- Ibid, p.383 ،

4- Ibid, p.30 ،

*- عنه أنظر الخريطة رقم 9.

5- Id. ،

المنشآت المائية القديمة حيث كانوا يضيفون أحيانا، كما في القيروان وصبرة، إلى مـــدّ تلـــك المنشآت بمياه الفيضانات، مدا إضافيا بواسطة جـــر ميـــاه العيـــون، كمـــا في بـــئر العديـــن (Bir- el- Adine) أو مياه الطبقات الجوفية كما في بئر شاوش علي و المهدية ويكون جر الميـاه في بعض الأحيان من مسافات معتبرة.[1]

و النتيجة التي يمكن استخلاصها توافق تماما ما لاحظه حسن حسني عبد الوهاب من أن التقنية التي استعملها العرب، في بناء المنشآت المائية، لم تقتبس، كما يمكـــن أن يعتقـــد، مـــن الحضارات السابقة، رومانية أو بيزنطية، بل طُبقت، بكل وضوح، أنماطا جديـــــدة و أصليـــة لمبادرات مهندسين و معماريين شرقيين.[2]

و قد انتهى Solignac في بحثه إلى القول: إن مواقع هذه المواجل القديمة تبقى تخمينيـــة، غير أنه، و بفضل الملاحظات و الصور الجوية، تم اكتشاف واحد منها أُطلقت عليـــه تســـمية ماجلي (bassins)سيدي يوسف الدهماني، نسبة إلى اسم المقبرة التي يوجد بجانبها، قرب المـــاجل الأغلبي الكبير[3] و يعود تاريخهما، على ما يبـــدو، إلى عـــهد الخليفـــة هشـــام بـــن الملـــك (724-743).[4]

و لما درسهما وجد أنهما مستديران، قطراهما مختلفان، أحدهما كبير و الآخـــر صغـــير، ملتصقان و متصلان ببعضهما، و يلعب الصغير منهما دور عضو تصفية المياه الموجهة للتخزيـــن في الماجل الكبير.[5]

و يحتل هذان السدان، في جملتهما، منخفضا واقعا في محيـــط فيضـــان أحـــد روافـــد (branches) وادي مرقليل (Merguellil)، و ربما كان هناك سد يتيح تجميع نسبة معينة مـــن مياه الفيضان هذه، و بالإمكان تصور أنها كانت ترسل شيئا فشيئا، حسب الاحتياجات، خلال

1- Solignac : op.cit., p.383 ؛ أنظر الخريطة رقم 11؛ و الصورة رقم 14، 15.

2- H.H. Abdul Wahab: op.cit., p.15 ،

3- Solignac : op.cit., p.25.

4- Ibid, p.30 .

5- Ibid., pp.26-27 .

مدّة معينة مرتبطة بسرعة التبخّر، إلى الماجلين (bassins) اللّذين كانت تُصفّى و تُخزّن بهمــــا، لتَكُون تحت تصرف المستهلكين، و قد وُجد، فيما بعدُ،جهازٌ مشابه له، على نفـــس الرافـــد، لتزويد المواجل الأغلبية الكبرى المجاورة، في ظروف مماثلة؛ فنظريّة سدّ متحكم في النظام المـــائي لِمَاجِلَيْ سيدي الدهماني، ليست غير منطقية، خاصة و أنه تمّ العثور على آثار قناة بين الرّافــــد و الماجل الصغير، و كان هذا النمط من المواجل منتشرا بكثرة في منطقة مُـزاق (Byzacène)، فمن المحتمل، إذا، أن يكون الأمر متعلقا بأسلوب أصيل و جديد.[1]

و قد لاحظ K.A.C Creswell، الذي درس، بصفـــة خاصـــة، المواجـــل الأغلبيـــة في القيروان، حسب ما يفيد Solignac: أنها من نفس الوريد الهندسي لماجلي ســـيدي الدّهمـــاني الأمويّة و هناك خلاصة تفرض نفسها، إذاً،فالأمر يتعلق بتقنية إسلامية و هي خاصة بإفريقية.[2]

و إذا كانت هذه التقنية و هذا الأسلوب إفريقيين، في الأساس، يمكن التسليم أن الفكرة الأولى التي انبثقا عنها، أي وقفُ مياه الفيضانات لحجزها، يمكن أن تكون من وحْـــيٍ أقـــدم، و من الاحتمالات الممكنة في هذا الموضوع: أنه من المعقول التفكـــير في أن أغلـــب جنـــود الحملات الأولى على إفريقية، من العرب و قادتهم، قَدِمُوا من مصر، حيث أقاموا مُدّة طويلـــة تعوّدوا فيها على مشاهدة تلك المنخفضات المتعدّدة المسماة برك (م. بركة) و التي تكثر علـــى طول وادي النيل، في القاهرة، و فيها كان يُخَزّن جزء من مياه فيضانات النيل، لإستخدامها في فصل الجفاف. فمن المحتمل أن يكونوا قد اقتبسوا الفكرة من هناك و شرعوا في تطبيقها علـــى المجاري المائية في منطقة القيروان و تطوّرت مع الوقت.[3]

و لم يهمل المهندسون المائيون العرب مسألة توحيل المنشآت الجامعة للمـــاء بواســـطة الطّمي الذي تحمله مياه الفيضانات بكثرة فراحوا يعتمدون، لتفادي ذلك، في أغلب الحـــالات، على نظام للتصفية، يقُوم على بناء حوض مجاور لحوض التخزين و قبله، مُخصـــص لتصفيـــة تمهيدية. و يظهر، في نهاية الأمر أن عدداً كبيرا من خزّانات (مواجل) مياه الســـيول، ظـــهرت مبنية، حسب تصميم واحد، تشمل كلٌّ مجموعة طاقماً من حوضين: حوض للتصفية و حـــوض للتخزين، و كثيرا ما يصطحبها جهاز ثالث هو: حوض الغَرْف (puisage) و دوام هـــــذه

1- Solignac : op.cit., pp 27-28 .

2- Ibid, p.28 .

3- Ibid, p.28 Sq .

التركيبة بالضبط هو الذي يكون أصالة نظام تجميع مياه السيول المعمول به في مزاق.[1]

توصيل المياه و تخزينها من قفصة إلى طنجة:

و مما أورده صاحب كتاب الاستبصار أن إحدى عيني قفصة المسماة بالطرميد[2] التي يخرج ماؤها " من ثقب يسع الإنسان و ينبعث منه بقوة عظيمة قد بني له صهريج عليه دكاكين (boutiques)مبنية بالحجارة و عليه أقباء . و قد بني فوقه مسجد عظيم "[3].

و في فج الحمار الواقع بين قفصة و الهروية، من بلاد قسطيلية، يشير البكري إلى وجود ماجل (Citerne) للماء[4] كما يشير إلى وجود غدير ماء في قرية جمونس الصابون الواقعة بين مدينة مذكور، عاصمة إقليم قمونية، و بين قرية مجدول التي يوجد بها أيضا غدير يسمى " بحيرة مجدول منه شربهم "[5] إلى جانب آبار كثيرة؛ و يذكر البكري كذلك غدير ورو (Ouarrou) بين مدينتي المسيلة و سطيف[6] دون أن يتحدث عما إذا كانت مأهولة أم لا، ثم يذكر ماجلين إلى جانب بئر بقرية المستعين، بين مدينتي القيروان و سبيبة[7] و ثلاث مائة و ستين جبا (Citernes) في مدينة مجانة بين مدينتي باغاية و مرماجنة.[8]

و يفيد صاحب كتاب الاستبصار بوجود صهريج عظيم " بقلعة بني حماد في وسط القصر المسمى بدار البحر " تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير، مجلوب عن بعد، و هذا القصر مشرف على نهر "[9] و يطلق L. golvin على صهريج صاحب كتاب الاستبصار تسمية " بحيرة قصر الأمراء " و يشير إلى العثور على مواجل (bassins) و حمامات أثناء القيام بعمليات البحث الكثيرة عن المنشآت المائية.[10]

1- Solignac : op.cit., pp.8-9

2- يذكر هذا الاسم بالاسم المعدن Thermes؛ و توجد في الواقع حمامات ساخنة ما تزال إلى يومنا هذا (E. Fagnan : L'Afrique septentrionale au XII^e Siecle, p.71, note 2).

3- مؤلف مجهول، ص 38؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.71.

4- المغرب، ص 75؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane : op.cit., p.153 .

5- نفسه؛ الترجمة الفرنسية Id .

6- نفس المصدر، ص 76؛ الترجمة الفرنسية Ibid, pp.154-155 .

7- نفس المصدر، ص 146؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.280.

8- نفس المصدر، ص 145؛ الترجمة الفرنسية Ibid.278.

9- مؤلف مجهول: ص 56؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p101.

10- L. golvin : le Magrib central à l'époque des Zirides, p.139 .

و كان لمدينة طبنة قصر به صهريج كبير يصب فيه نهر يطام، بعدمــا يشــق غابتــها و تتفرع جداول كثيرة، من الصهريج تسقى بها بساتين أهلها[1] كما كان لمدينة قسنطينة مــاء مجلوب يأتيها من بعيد " على قناطر تقرب من قناطر قرطاجنة و فيها مواجل عظام مثل الــذي بقرطاجنة "[2].

و إلى الشمال من مدينة تلمسان ينبعث نهر سطفسيف من أسفل جبل البغل و يصب في " بركة (réservoir) عظيمة من أعمال الأول و يسمع لوقوعه فيه خرير شديد على مســافة ثم ينبثق منها بحكمة مدبرة إلى موضع يسمى المهماز إلى ولج الحنا إلى جنان الحاج حــتى يصــب في نهر إسر Isser ثم يصب في نهر تافنا... الذي يصل إلى مدينة أرشقول و هنــاك ينصــب في البحر "[3].

و أرشقول هذه عبارة عن مدينة لطيفة، حسب ابن حوقل " مرساها في جزيرة لها فيــها مياه مواجن (مواجل) كثيرة" [4] يستغلها أصحاب المراكب و المواشي و بها جامع " في صحنــه جب (Citerne) كبير "[5] و هناك جبان (deux bassins) في صحن جامع مدينة سبتة الواقعــة على البحر الجنوبي، بحر بسول[6] (ضفاف البحر الأبيض الجنوبية).

و كان (في صغة الماضي) بطنجة، حسب صاحب كتاب الاستبصار (ق.6هــــ/12 م) " ماء مجلوب في قناة كبيرة و صهاريج "[7] أي أنه كان يصب من تلك القناة في صــــهاريج[8] (réservoires) كما كانت صهاريج (réservoirs) الماء أمام جامع مدينة سلا التي تسمى شـــلا بالأعجمي، و قد جلب إليها من نحو عشرين ميلا.[9]

1- المغرب، ص 50؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit., p.108؛ قـارن: كتـاب الاسـتبصار، ص 60-61؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.108.

2- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 52؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.95.

3- المغرب، ص 77؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit, p.157.

4- صورة الأرض، ص 78؛ الادريسي: المصدر السابق، ص 255؛ يسميها ابن حوقل أرحكوك (نفسه).

5- المغرب، ص 77؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit, p.157.

6- نفس المصدر، ص 103؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.202.

7- مؤلف مجهول: ص 24.

8- هذا المعنى ترجم E. Fagnan هذا النص إلى الفرنسية (op.cit., p.49).

9- مؤلف مجهول: نفس المصدر، ص 26-27؛ الترجمة الفرنسية I bid, p.53.

سياسة الموحدين المائية:

يذكر H. Basset بقول صاحب كتاب روض القرطاس بأن الخليفة عبد المؤمن الموحدي بنى قناة لتوصيل الماء من العين المسماة غبولة(ghaboula)إلى الرباط سنة 545 هـ/ 1150 م، و بما كتبه قبله، صاحب كتاب الاستبصار من أن الخليفة أبا يعقوب [يوسف بن عبد المؤمن، والد يعقوب المنصور] أمر ببناء مدينة كبيرة متصلة (Touchant) بالقصبة التي أحدثها الإمام أمير المؤمنين [عبد المؤمن] ، و في هذه القصبة (fort) جامع و قصور و صهاريج (réservoir) الماء أمام الجامع مجلوب من نحو عشرين ميلا ".[1]

و يستنتج Basset أن القناة التي تعنينا هنا هي، بدون شك، تلك التي كان يصل عن طريقها ماء عين غبولة إلى المواجل التي تحدث عنها صاحب كتاب الاستبصار، و هو خاص بتزويد مسجد عبد المؤمن و القصر و كذلك الجيوش المعسكرة في الضواحي؛ و يتساءل Basset عما إذا لم يكن عبد المؤمن، بجلبه ماء عين غبولة لسقاية جيشه، قد جدد أعمالا قديمة لاستعمالها من جديد؟.[2]

و يجيب بأن ذلك احتمال ضعيف جدا، و مما يؤكد ذلك، في رأيه، أن المكان الذي درس فيه تلك القناة، لا يمكن أن يكون مخططه (son tracé) سابقا لبناءات عبد المؤمن، و من هنا فهو يشكل نموذجا كثير الأهمية من عمل كبير للصالح العام، أنجز في وسط القرن الثاني عشر الميلادي.[3]

و بالقرب من مدينة أغمات، حاضرة المصامدة، الواقعة بأقصى الصقع الثاني (المغرب

1- أنظر H. Basset : un acqueduc almohade à Rabat, Revue africaine, Soixante quatorziéme année, No 316-317, 3éme et 4éme trimestre 1923, p.526
فيما يخص نص صاحب كتاب الاستبصار. أنظر مؤلف مجهول: ص 26-27؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit : , p.53 .
2- Ibid, pp.526-527 .
3- Ibid, pp.527-528؛ و قد اكتشف H. Basset هذه القناة التي درسها سنة 1922، داخل جدار مدينة الرباط، أثناء قيام عمال البلدية بحفر في أسفل شارع باب شالة الحالي، و أبعاد هذه القناة كبيرة، و هي من خرسانة (béton) ذات نوع رائع مكونة من طين أحمر ناعم و كلس بنسبة معتبرة، شديد المقاومة للفأس و لا يستطيع خدشه سوى الوتد (le coin)، و يبلغ ارتفاعها 1.30 م و عرضها 0.59 م و ارتفاع قبتها 0.30م، و ارتفاع أرضية أساسها من 0.25 إلى 0.30 م و ارتفاع الخرسان فوق القبة 0.90م و عرض الجدران الجانبية 0.40م (Ibid, pp.523-524).

الأقصى) توجد حسب الزهري (ق.6هـ/12م) " البركة العظيمة التي تجتمع فيها مياه أغمات كلها، و هي كثيرة الفواكه و الزرع و الضرع ".[1]

و قد اكتشف Ch . Alain في شهر ماي 1947 سدا و مواجل قديمة في ممر (col) سيدي بوعثمان[2] على بعد 40كلم من مراكش، عند حدود السهل، و في تعليقه على هذا الاكتشاف، ذهب إلى القول: إنها تذكر، بشكلها و بنائها بمواجل (citernes) القرن الثاني عشر (ميلادي) و خاصة مواجل المساجد آنذاك، و تساءل نفس الباحث ما إذا لم يكن الأمر متعلقا بأحد الأعمال المائية الكثيرة التي أنجزها أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي، و هذه فرضية يؤكد صحتها، في نظره، الجسر الذي أقامه الموحدون بتانسيفت (Tensift) و المكتشفات الحديثة بالبحيرة (le Bahira) (مواجل أخرى، و الساقية اليعقوبية) و هي تقع في نفس الطريق الذي يربط إمارات المغرب الأقصى بفاس، ثم إن الفخار المكتشف هنلك، في رأي السيدين G Marçais و H. terrasse ، ينتسب إلى فن L'art نهاية القرن الثاني عشر الميلادي.[3]

و يرد Alain ظروف هذا الإنشاء إلى كون الأمطار النادرة و الغزيرة جدا، عندما تسقط، بناحية سيدي بوعثمان، أحدثت في النهاية حفرا متصلة بتلعات[4] (thalwegs)، غالبا ما تكون واسعة جدا و هي تزود منخفض السد أو المسجون (Sedd ou Mesdjoun)، و الوادي المسمى بوعثمان هو أحد هذه التلعات الهامة، و قد سُدَّ بمبنى طوله 105 م لتزويد تسع مواجل تقدر سعتها الإجمالية بـ 3254 م3 .[5]

و لتفادي دخول الطمي الذي تحمله مياه الفيضانات إلى المواجل أنشأ البناءون ماجلا (bassin) للتصفية، بين القناة و الخزانلت (réservoirs) : طوله 12.50 م و عرضه 6 م، و عمقه 1.50 م، و هو محفور في الشيست و مجهز من الداخل بكيفية تجعله مسيكا (étanche) بطلاء من الكلس[6] (enduit de chaux).

1- الزهري: المصدر السابق، ص 117.

2- Ch. Alain : les citernes et les margelles de Sid- Bou- Othmane, Hespéris, T.38, année 1951, 3e et 4e trimestre, p.423.

3- Ibid, pp.427-428.

4- جمع تلعة، و هي انخفاض تجتمع به المياه في الوادي (المنهل، ص 999).

5- Ch. Alain : op.cit., p.424.

6- Ibid, p.425.

و يتم جريان الماء في المواجل المركزية الثلاثة على ارتفاع 70سم من قعر ماجل التصفية، و المواجل التّسعة عبارة عن بيوت متوازية، لها قباب نصف أسطوانية، و مجموع طولها 49 م على 45 م عرضا و هي موجهة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. و الأبعاد الدّاخلية لكل ماجل تساوي 22 م طولا على 3.6 م عرضا و 4.40 م ارتفاعاً، و يساوي شعاع القُبّة 1.80م، و تتصّل كل المواجل ببعضها عن طريق مَمرّين و سعتها الإجمالية تقدّر بـ 3254 م3 على العموم، غير أنها عمليا لا تزيد عن 2130م3 لأن الماء الخارج من ماجل التصفية يسيل فوق قاعدة الجهات المقبّبة بقليل.[1]

فمواجل سيدي بوعثمان التي تبعد 40 كلم عن مرّاكش، عند حدود السهل يمكن أن تكون في بداية تنظيم مراحل طريق في مكانٍ آبارُه رديئة، و في غياب الأودية الدّائمة، فإن هذا الإنشاء الهام يمكنه تزويد قافلة كبيرة بما تحتاجه من الماء في كل الفصول و بسرعة، و يحتمل أن يكون سيدي بوعثمان نقطة انطلاق طريقين تُركا اليوم نسبيا: كان أحدهما يتجه إلى دُكّالة، نحو المحيط الأطلسي، و تشخّصه (jalonnée) مواجل (Citernes) و صهاريج (bassins) عارية مثل الصَهْريج (Sahrij) الواقع بالمنِيّة (Menabia) في بوميرة بسيدي بَنّور؛ أمّا الطريق الآخر فيتصل بفاس عن طريق البَحِيرة (la Bahira) باتجاه الشمال الشرقي، و تُحدّد مراحلَه مواجلُ أولاد رمّوح، و بئر سيدي سعيد، و سيدي بويَحي.[2]

و قد ذهب عزّ الدين أحمد موسى إلى القول بأن الموحدين شرعوا بمجرّد ما استقرّ لهم الأمر، في إكمال الجهود التي بدأها المرابطون قبلهم، و راحوا يستفيدون من تجارب العهد الروماني بالكشف عن آثار الرّي القديمة و تجديدها و الاقتداء بها في أماكن أخرى، كما استفادوا من خبرات المهندسين الأندلسيين، من أمثال الحاج يعيش و ابن ملجان في إجراء المياه إلى بحائر مُرّاكش، و قد برز في عهدهم بعض المغاربة من أمثال علي بن عمر بن عبد المؤمن في هندسة الرّيّ فتوفرت لهم من الخبرة ما مكّنهم من استنباط المياه من باطن الأرض و توصيلها من أماكن توفرها إلى مناطق الزراعة، و في هذا الإطار يُسجّل موسى ما نقله عبد المؤمن من

1- Ch. Alain : op.cit., p.426

2- Ibid ,p.428

مياه إلى مراكش و سلا و الرباط و يوسف إلى فاس و سبتة و المنصور إلى مراكش و فاس و الناصر إلى هذه الأخيرة.[1]

و كانت المياه المجلوبة تحفظ في آبار (يقصد بها الجباب) أو صهاريج (برك)، و كانت الصهاريج أكثر شيوعا[2] و قد بني عبد المؤمن عددا منها في مراكش، كما بنى يوسف عددا منها في كل من مراكش و الرباط، و المنصور عددا آخر في كل من مراكش و مكناسة و فاس، و كان أحد الصهريجين الكبيرين بمراكش يستعمل في تدريب حفاظ الموحدين على العوم و الأعمال البحرية، فلا يكاد القوي منهم يقطعه عوما إلا بمشقة، و كان طول أحد صهريجي المنصور، في مراكش 380 باعا (ذراعا)، و طول أحد صهريجيه في فاس، من كل جانب مائتان و ستة و عشرون ذراعا بالمرفق،و يضيف ابن منقد، كما يقول موسى، أن عندهم ما هو أطول من ذلك. و كان الموحدون يحرصون على غرس أشجار كثيرة حول هذه الصهاريج للتقليل من نسبة تبخر المياه، و كانت المياه المجموعة تفرع جداول للسقي، و يسقي الجدول الواحد عشرة فراسخ، في بعض المناطق، و كانوا يحرصون على صيانة تلك الجداول و تجديدها.[3]

استغلال الصهاريج الطبيعية:

بالإضافة إلى الصهاريج و المواجل و الجباب التي حرص الإنسان على بنائها و تجهيزها في بلاد المغرب تنبغي الإشارة إلى ما يكن تسميته بالصهاريج الطبيعية:ذلك أن جريان المياه السطحية، يتوقف،كما يلاحظ Capot- Rey، في المنخفضات المنغلقة التي يتغير موقعها و محيطها في كل فيضان،حسب استمرار تدفق الماء أو انقطاعه، و يتشكل، على إثر ذلك، نوعان من الأحواض: تجر في الحالة الأولى الأملاح الذائبة في الماء، بعيدا، في حين يبقى الطمي الذي يأتي به الفيضان ليعطي أرضا زراعية جيدة، و هو ما يسمى بالداية،جنوب الجزائر، و القرعة،جنوب تونس، و القرارة بموريطانيا؛ أما مصطلح المعدر (maader) فيطلق، في الحالة الثانية، على قطاعات موسعة لمجرى واد، تقل سرعة مياه الفيضان فيه و تنتشر،دون أن تتوقف نهائيا.[4]

1- النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي، ص 181-182.

2- يلاحظ هنا أن موسى ليست لديه فكرة واضحة عن المنشآت المائية في بلاد المغرب: فهو يعتبر الآبار جبابا (يخزن فيها الماء) و يعتبر الصهاريج بركا (لاغير) و لا يشير إلى المواجل.

3- نفس المرجع، ص 182-183.

R. Capot- Rey : L'Afrique blanche, T.2, p.13-4

و يكون المعدر حيث توجد طبقة أرضية غير منفذة للماء أو حيث غيـــاب الميـــولات (pentes) و بالتالي لا يكون تصريف المياه فتصعد الأملاح إلى سطحها و تجعلها غير صالحـــة للزراعة، مشكلة ما يعرف بالسبخة أو الشط، و المصطلح الأخير يطلق مبدئيا علـــى اســتبس النباتات اليجوجية[1] التي تحيط بالسبخة.[2]

و قد يمتلئ مجرى واد فجأة بسبب مرور إعصار، حتى في أكثر المناطق جفافا، و بعد الفيضـــان تبقى كمية من الماء في القلت(م. قلتة) أو الغدران (م. غدير)، و يمكن تجهيز هذه و تلك لحجـز الماء مدة أطول و بتغطيتها تصبح ماجلا يفيد قطعان المواشي و لكن مياهه غير كافية للزراعـة، و على العكس من ذلك إذا كان بالإمكان سد مجرى الوادي فعندئذ تحجز كميات معتبرة مـن ماء يمكن استخدامه في الري.[3]

و قد زودني أستاذي دكتور موسى لقبال بمعلومة لا أرى بأسا أن أخصص لها حـيزا في هذا الباب هي: أنه لاحظ وجود نوع من الصهاريج العميقة نسبيا، عند جوانب بعض الأنهـار، في الأرياف الجزائرية، تسمى خنقة، جمعها خنق يستحم فيها الأطفال أحيانا.

مع الإشارة إلى أن غياب المعلومات الخاصة بهذه الأنواع من " الصهاريج " في المصـــادر العربية لا يسمح للباحث أن يتأكد من أنها كانت تستغل في الفترة المخصصة لهذا البحث.

التمييز بين الصهريج و الماجل و الجب:

و يلاحظ أن معظم المؤلفين، قدمائهم و محدثيهم، لا يميزون، كما أسلفنا القول، بـــين مصطلحي صهريج و ماجل فكثيرا ما يستخدمون هذا المصطلح بـــدل ذاك، و الصـــهريج، في لسان العرب، كلمة فارسية تعني الحوض الذي يجتمع فيه الماء على أرض صلبة، أي من حجـــر، و الماجل هو الذي يجتمع فيه الماء، فإذا بزغ خرج منه، و لهذا سمي مستنقع الماء مـــلجلا (ماجلا)[4]، أي أن الماجل هو الماء الكثير المجتمع، و كثيرا ما يرادف اسمه اسم الصهريج، و مما يـــساعد على

1- اليجوج نعت يطلق على النباتات التي تنمو في المناطق المالحة (المنهل، ص 507) .

2- Capot- Rey : op.cit., p.13 .

3- Capot- Rey : op.cit., p.317 .

4- أنظر ابن منظور: المصدر السابق، مج.3، ص 487؛ مج.4، ص 443. .

توضيح الفرق بينهما، ماورد في الرسالة التي وجهها صاحب الأحباس بمدينة سوسة إلى الخليفة الفاطمي الرابع، المعز لدين الله، و التي احتفظ لنا بمضمونها القاضي النعمان، حيث يذكر له فيها أنه عثر بدار الصناعة بها " على سبعة مواجل أولية، متقنة العمل، ينفذ بعضها إلى بعض، كانت مدفونة تحت الأرض إلا أنها تحتاج إلى بعض إصلاح و إلى صهريج يجري عنه الماء إليها، و أنها متى امتلأت ماء استغنى به أهل المدينة عما هو خارج عنها، و كانت ذخيرة للمراكب و لغير ذلك مما يحتاج إليه... فسر (الإمام المعز بهذا الخبر)... و أمره بإصلاحها و إصلاح هذا الصهريج، و أن يبني مسجدا ".[1]

فهذه الرسالة تعتبر بمثابة وثيقة لما تكتسيه من طابع رسمي و من ثمة يمكن الاعتماد عليها في الفصل بين المصطلحين حيث يتضح من خلالها أن المواجل السبعة عبارة عن خزانات تصلح لتخزين الماء في حين أن الصهريج عبارة عن حوض لتجميع المياه قبل إرسالها للتخزين، و مع أننا توصلنا إلى هذه القناعة إلا أننا لم نحاول إجراء أي تغيير على التسميات التي أطلقتها المصادر التي لم توضح، في أغلب الأحيان، الفرق بينهما و نفس الطريق سلكته المراجع بما فيها الترجمات الفرنسية لبعض نصوص تلك المصادر حيث أنها استخدمت كلمات (bassin و citerne و réservoire)بنفس المعنى تقريبا تطلق أية واحدة منها تقريبا على كل من الصهريج و الماجل و الجب.

و في شأن الجب، جاء في قوله تعالى " و قال قائل منهم، لا تقتلوا يوسف و ألقوه في غيابة الجب، يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين "[2] و قد وردت في شرح هذه الآية معاني كثيرة للجب، منها أنه: البئر المطوية التي تحفر لكي يتجمع فيها الماء من باطن الأرض، و أن غيابة الجب هي أسفله أو أن الجب هو بئر بيت المقدس[3] أو أنه البئر التي لم تبن بالحجارة أو البئر غير البعيدة أو البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر.[4]

1- كتاب المجالس و المسايرات، ص 530.

2- سورة يوسف. آية 10.

3- أنظر الشعراوي محمد متولي: قصص الأنبياء، جمع المادة العلمية و كتب الحواشي و راجعها منشاوي غانم جابر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، جـ.2، ص 905.

4- الشعراوي محمد متولي: تفسيرا الشعراوي، طـ. أخبار اليوم، المجلد 11، ص 6852، هامش 3.

غير أن هذه التعاريف، لا تنسجم، على ما يبدو، مع المعاني الواردة في المصادر العربية عن الجباب في بلاد المغرب، و الأرجح أن يكون تعريف حسين لها أقرب إلى الصواب، فالجب، حسب رأيه عبارة عن خزان ماء في باطن الأرض يتكون من حفرة واسعة قد يصل قعرها إلى نحو المترين و عمقها نحو العشرين مترا، و في أسفل الجب أي في الموضع الذي تصل فيه الحفرة إلى الماء، تبنى حجرة واسعة فوق الماء، و يترل الناس لتنظيفها أو استخراج ما يقع في الجب، معلقين بالحبال، و يرتكزون في نزولهم على أحجار ناتئة، و قد تبطن هذه الحجارة بالرخام و يرتفع سقفها على أعمدة و عقود أو بوائك، فإذا اكتمل إنشاء الجب أنشئت له سلالم و مدخل و ممرات ينفذ منها ماء المطر ثم جعل له سقف يهيل فوقه التراب، دون المدخل، و تصل مياه المطر إلى الجب عن طريق قنوات و تستخرج عن طريق فتحات في السقف تشبه فتحات الآبار[1].

فالجب إذا يختلف في هندسته عن الصهريج و عن الماجل و من ثمة فإننا نرى أن تسميتي: (citerne)التي تعني خزان و مرادفتها(réservoir)اللتين تطلقان عليه في الترجمات الفرنسية كما تطلقان في نفس الوقت على الماجل و الصهريج، ليستا دقيقتين، و يحتاج الأمر إلى إعادة النظر فيهما.

التصرف في مياه الصهاريج و المواجل و الجباب و الأحكام الشرعية:

يعتمد حكم التصرف في مياه الصهاريج و المواجل و الجباب على اعتبار كل ما احتفره الرجل في أرضه أو داره منها، يريده لنفسه فهو أحق به يتصرف فيه بحرية، و يمكنه بيعه؛ و أما ما عمل منها في الصحاري... كمواجل طريق المغرب فإن مالكا بن أنس " كان يكره بيعها من غير أن يراه حراما "[2] إذ هي مثل الآبار التي تحفر للماشية فأهلها أولى بمائها حتى يرووا و يكون للناس ما فضل عنهم " إلا من مر بها لشفتهم و دوابهم، فإن أولئك لا يمنعون من

1-مؤنس حسين: المصدر السابق، مج.1، جـ.1، ص 298؛ و الجب بالنسبة لابن منظور هو بئر اختلف كثيرا في تعريفهما (لسان العرب، مج 1، ص 393).

2- سحنون: المدونة الكبرى، جـ3، ص 289.

شربهم منها كما لا يمنعون من بئر الماشية ".[1]

و إذا سبق و أن بني ماجل " في مكان ما فلا يجوز لمن أحدث ساقية على المجرى الـــذي يزوده بالماء أن يحجز ذلك الماء و يردّه إلى ساقيته إلا بعد ما يمتلئ الماجل[2] وفقا لمبدأ " الأسبقية للأقدم ".

و كان أصحاب المواجل الخاصة يجمعون مياه الأمطار بمختلف الأساليب منها تحويــــل مياه السيول عن طريق السواقي و منها إحداث مجاري مائية في سطوح منـــازلهم[3] و كذلـــك جلب الماء في قواديس أو قنوات أو سواقي من أنهر و عيون لبلد ما أو مدينة ما " تـــزود بـــه مساجدها و حماماتها و سقاياتها و سائر الناس لأجبابهم ".[4]

و كان استغلال ماء مواجل المساجد، وفق ما جرت به عـــادة النـــاس يرتـــوي منـــه العطشان: الغني و الفقير سواء، و لا يختص منه الإمام و لا المؤذن بشيء، و غالبا ما كانت تلك المواجل تفتح للناس، وقت احتياجهم إليها، مع اشتداد الحر.[5]

مدى ملاءمة نظام استغلال المياه للظروف المحلية:

تعود الناس، عموما، حسب ما يلاحظ R. Capot- Rey على تفضيل اســـتعمال مـــاء الأودية و السيول للري، و الاحتفاظ بمياه العيون و الآبار للشرب إلا أنه يوجد دائما، في منطقة ما، نظام للري ملائم أكثر مع الظروف المحلية التي تميل إلى ترجيحه: ذلك أن ثروة المياه الجوفية، لناحية معينة، غالبا ما تكون عكس مواردها في المياه السطحية، فمنطقـــة مطماطـــة الجبليـــة، المحظوظة من جهة الأمطار و السيول؛ ليس بها سوى عدد قليل من الطبقات المائية الجوفيـــة، في حين أن هذه الطبقات تكثر في منطقة الجريد المجاورة لها و الأكثر منها جفافا بكثير و بالتـــالي فالمواجل تكثر في المنطقة الأولى و تغيب عن الثانية.[6]

1- سحنون: المصدر السابق، جـــ3، ص 289.

2- أنظر الونشريسي: المعيار، جـــ8، ص 426.

3- نفس المصدر، جـــ8، ص 428.

4- نفس المصدر، جـــ8، ص 38.

5- الونشريسي: المصدر السابق، جـــ7، ص 340.

6- Capot- Rey : op.cit, T.2, pp.309-310.

و يلاحظ نفس المؤلف كذلك أن مبدأ أساسيا يهيمن على الفقه الإسلامي في مجال الملكية بالصحراء و بشمال إفريقيا، و يقصد بهما بلاد المغرب بطبيعة الحال، و هو أن الأرض التي تم إحياؤها بالماء قابلة لتكون ملكية خاصة، و تكون ملكية الماء للذي ساهم في جريانه بعمله أو بماله، و من الماء تتعدى الملكية إلى الأرض، و لما كان الأمر يتطلب لزوم توجيه الماء نحو حي أو آخر، كانت ملكية الماء مميزة عن ملكية الأرض، على الأقل في بعض الحالات، و عندئذ يقال إن الماء و الأرض "أعزبان " يعني أنهما ليسا مرتبطين ببعضهما، و هذه هي القاعدة المطبقة جنوب المغرب الأقصى على الخطارة (الفجارة) لكنها لا تعني ماء الأودية الذي لا يمكن أن يحال بدون الأرض التي يسقيها. و نفس الشيء بالنسبة للأغواط، جنوب الجزائر، حيث كانت ملكية الماء حتى السنوات الأخيرة (بداية الخمسينات من القرن العشرين) تتبع الأرض و هذه حالة شاذة بالصحراء، تدل على ثروة مائية غير معتادة.[1]

و عندما يكون الماء و الأرض " أ عزبين " يحدث كثيرا أن يبيع مالك، في حاجة إلى المال، جزءا من مائه أو مجموعه، مع احتفاظه بالأرض، و الأرض، بدون ماء، لا قيمة لها في أية واحة، و ما على المالك الذي سلب نفسه بهذه الطريقة سوى أن يكتري حصة ماء أو يحفر بئرا في بستانه و إلا فهو لن يتردد في تسليم أرضه لشخص له ماء زائد عن حاجته و يعطيه حق الانتفاع ليسقي له الأشجار، فهو يضحي بالمحصول للحفاظ على رأس المال.[2]

إن الأرض المزروعة في الواحات كلها ملكية خاصة، و كذلك الماء، في غالب الأحيان، فهو ينتقل بالوراثة و يمكن أن يحبس أي يخصص لمؤسسة خيرية، و قد يكون ملكية جماعية، ففي الزيبان مثلا: يوجد ماء مملوك في الزاب الظهراوي و الزاب القبلي و يوجد ماء العرش في الزاب الشرقي، إلا في ليانه (liana) حيث تستمر ميزة الملكية الخاصة كشاهد على وفرته التي زالت اليوم.[3]

و الإنسان الذي يملك الماء يتصرف فيه كما شاء: إذ يجوز له مثلا أن يبيع منه شرب أو سقي يوم في الشهر أو في الأسبوع مع أصله أو بدونه[4] سوراء كان ذلك من عين أو بئر

1- Capot- Rey : op. Cit., p.345 ·

2- Id.

3- Ibid, p.347 ·

4- سحنون: المصدر السابق، جـ3، ص 289.

أو قناة، طالما لم تكن له أرض مشتركة مع الغير، تُسقَى بهذا الماء، لأنه في مثل هذه الحالة تكون فيه الشفعة، و إذا قُسّمت الأرض المشتركة مع الغير ثم بيع الماء وحده أو مع الأرض فذلك جائز.[1]

مع أن الرسول (صلعم) نهي عن بيع الماء و الكلاءِ و النار، و هو ما فسّره الفقهاء ببيع المباح للمسلمين، مثل كلاَء البريّة، و الماء الجاري في الغيول[2] و العيون و السيول و الآبار المباحة؛ فأمّا ما كان مملوكا فلا بأس من بيعه.[3]

و يجوز للرجل أن يسوق ماءه إلى أرض رجل آخر و يكون الزرع بينهما أي تكون الشركة بالماء مقابل الأرض.[4]

و إذا ارتهن الرجل عينا أو قناة أو جُزْءًا من شرب بئر و جزأ من شرب عَيْن أو جزأ من شرب نهر، فلا يجوز له أن يكريها و لا تكون هذه الأشياء رهنا حتى تُقبض أي تُحاز و يحال بينها و بين صاحبها، و لا يجوز للمرتهن أن يكري ماءها من غير أمر ربّها، وإذا أكراها بأمر ربّها، كان الكراء لربّ الأرض، و لا يكون الكراء رهنا إلاّ أن يشترطه المرتهن، فيكون له رهنا، و إن اشترط المرتهن أن يكريها و يأخذ كراءها في حقه فلا يجوز له إن كان دَيْنه ذلك من بيع، و يجوز له إن كان دينه من قرض، و من حق المرتهن منع صاحب الماء من سقي زرعه منه.[5]

و يجوز وقف المكان الذي فيه الماء الدّائم و لكن لا يجوز وقف الماء في حدّ ذاته لأنه لا ينتفع به إلاّ بإتلافه[6] و من الممكن أيضا وَقْف حانوت في السوق، على سبيل المثال، يشترط على ساكنها أن يكفي مؤنة خابية خاصة بشرب الناس أو يدفع كراء تُموَّن به هذه العملية.[7]

تجارة الماء:

تجدر الإشارة إلى انتشار تجارة الماء، في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، أثناء الفترة الزمنية التي يغطيها هذا البحث، و كان يتولاها السقاءون و يراقبهم المحتسبون الذين كانوا

1- سحنون: المدونة، جـ4، ص 375.

2- الغَيل: الماء الجاري على سطح الأرض من العيون (القاضي النعمان: دعائم الإسلام، جـ2، ص 18، هامش 7)

3- القاضي النعمان: نفس المصدر، 2، ص 18-19.

4- الفراء: المصدر السابق، ص 203.

5- سحنون: المصدر السابق، جـ4، ص 379.

6- الفرّاء: المصدر السابق، ص 203.

7- الونشريسي: المصدر السابق، جـ7، ص 184-185.

يشترطون عليهم نظافة أزيارهم و تغطيتها بخوص مصلبة بجريد و يلزمونهم بنظافة حوانيتهم و أبدانهم و ثيابهم، و يتفقد المحتسبون حوانيتهم، على غفلة، ليلا و نهارا، فمن وجدوا عنده زيرا مكشوفا أدبوه و بددوا ما عنده من ماء و غلقوا حانوته، و كذلك الأمر إذا وجدوا كيزانا وسخة، إذ يطالب بغسلها هي الأخرى و جليها بشقفها و بالأشنان في كل يوم و بتبخيرها، لأنها تتغير من أفواه الناس و نكهتهم، و بأن لا يملأ الكوز إلا فوق شباكه و أن يكون الكوز متوسطا، بين الكبير و الصغير، و شباكه متوسطا بين الضيق و الاتساع، و تكون الكيزان معلقة ليضربها الهواء فتبرد، و أن يسقى كل واحد من الناس بكيزان تليق بمقامه: فإن وقف عنده رجل رئيس أو كبير، ناوله كوزا جديدا، لم يشرب فيه أحد قبله و يتعرض السقاء لنفس العقوبة إذا هو أقدم على خلط ماء النهر مع غيره من المياه المالحة أو مع ماء البئر.[1]

و كان المحتسب يعرّف على أرباب الرّوايا و القِرب و الدلاء رجلا أمينا، و من مهامه: منعهم من استعمال آلات حافظة للمياه من غير الجلود المدبوغة بالقرط اليماني و التي قد استحكم دباغها و طال مكثها، و لا تعمل من جلد بغل و لا مُسوّس و لا درن*، و لا تعمل من نطع و لا سلفة و لا بطانة من جلود الرّوايا المستعملة؛ و يشترط المحتسب، على أصحاب الروايا و القرب، الدخول في النهر حتى يبتعدوا عن مواضع الأوساخ، فلا يحق لهم ملؤها بالقرب من ساقية أو مجرى حمام، بل عليهم بالصعود فوقه؛ و يلزم صاحب الروايا الجديدة أو القرب الجديدة أن ينقل بها الماء إلى أحواض الطواحين و المعاصر و معاجن الطين أياما، طالما كان متغير الطعم و اللون و الرائحة من أثر الدباغ و القطران، فإن زال التغير سمح له المحتسب ببيعه للناس للشرب و الاستعمال و يجبرهم أخيرا على أن يشددوا في أعناق دوابهم، عند عبورها للأسواق، الأجراس و صفاقات الحديد و النحاس، عند عبورها السوق، لغرض تنبيه الضرير و الغافل و الصبيان.[2]

أصحاب الماء أمام مسئولياتهم:

يتحمل صاحب الماء أو مالكه مسئوليات، منها: أنه إذا أرسل ماءا في أرضه فخرج

1- ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، عنى بنقله و تصحيحه روبن ليوى، طـ. كيمبرج 1937، ص 239.

*- الدرن: الوسخ أو تلطخ الوسخ (لسان العرب، جـ2، ص 974).

2- نفس المصدر، ص 240.

إلى أرض جاره فأفسد له زرعه فمسئوليته كمسئولية النار التي يرسلها الرجل في أرضه، و كانت أرض جاره مأمونة من هذه النار، بعيدة عنها، و حملتها الريح فأسقطتها فيها فأحرقت فلا شيء على الذي أرسل النار، و إن كان إذا أرسل النار علم أن أرض جاره لم تسلم من هذه النار لقربها فهو ضامن.[1]

و إن سال ماء من أرض رجل إلى أرض رجل آخر فاستغله في سقي أرضه مدة طويلة ثم احتاج إليه صاحب الأرض التي أصله فيها يمكنه استعادته إلا أن يكون من قد حازه وادعاه لنفسه، طوال تلك المدة، بحضرة من هو في أرضه، و علم بدعواه دون أن ينكر، فهو عندئذ لمن حازه.[2]

و إذا أضر الماء بطريق فيها سقي الجنات، ينبغي قطع جريه[3] و إذا كان لرجل ماء وراء أرض رجل آخر، و أراد أن يجريه في أرضه فمن حقه منعه من ذلك، بل لو كان لرجل مجرى ماء في أرض غيره فأراد تحويله إلى موضع أقرب منه، فمن حق صاحب الأرض منعه[4] و لا يجوز أيضا لصاحب الأرض نقل الساقية القديمة من مكانها إلا بإذن ذوي الحقوق، و إن لم يترتب عن ذلك ضرر، و هذا في حالة الساقية التي أحدثها الإنسان، أما الساقية الطبيعية فمن الفقهاء من أجاز تحويلها و منهم من لم يجزه.[5]

و إذا انقطع الماء بمختلف أنواعه عن الثمرة فماتت " وضع عن المشتري ما ذهب من الثمرة، من قبل الماء قليلا كان أم كثيرا، و ما بقي فهو للمشتري بما يصيبه من الثمرة، لأن البائع حين باع الثمرة و إنما باعها على المالك، فكل ما أصيبت به من قبل الماء فإنما سببه من قبل البائع، فلا يشبه الماء سواه من الجوائح "[6] كما يشكل انقطاع الماء عن الرحى عذرا مقبولا شرعا، تنفسخ فيه الإجارة.[7]

1-سحنون: المصدر السابق، جـ4، ص 376.

2- المازري: فتاوى المازري، تقديم و جمع و تحقيق الطاهر العموري، تونس 1994، ص 295.

3- الونشريسي: المصدر السابق، جـ8، ص 387.

4- سحنون: المصدر السابق، جـ4، ص 375.

5- البرزلي: المسائل القواطع، ورقة 73.

6- سحنون: المصدر السابق، جـ4، ص 21؛ Ibn Açim al- Màliki : op.cit., p.339, note 582 .

7- نفس المصدر، جـ3، ص 393.

و إن استغنى زرعُ السّقي أو النخل بالمطر عن السّقي كانت زكاته العُشر و إن لـــــم يَستغن عن السّقي كانت زكاته نصف العشر.[1]

و يتبيّن من خلال المعلومات التي زوّدتنا بها المصادر العربية أن وسائل توصيــــل الميـــاه و تخزينها كانت بسيطة و قليلة، في المنطقة المحصورة ما بين برقة و تونس، باستثناء المنشآت التي كانت موجودة في قرطاجة، منذ العهد الروماني.

أمّا القيروان و منطقة مُزاق (Byzacéne) فقد عرفت فيــها تلـــك المنشـــآت تطــوّراً ملحوظاً، منذ خلافة هشام بن عبد الملك (105–125هـــ/ 724– 743م) بتقنيات محلية متطــوّرة و خاصة في عهد الأغالبة الذين طبقوا سياسة مائية ناجعة تمكنوا، بفضلها، من ترقية وضعيـــة دولتهم الاقتصادية.

غير أن المنطقة الوسطى و الغربية من بلاد المغرب، على ما يبدو، لم تعرف تطوّراً مما ثلا إلاّ العهد الموَحّدِي الذي ترك لنا مخلّفات أثرية تدلّ على ما بذلوه من جُهد كبـــــير في مجـــال الإنجازات الخاصة بوسائل نقل الماء و تخزينه.

مع ملاحظة أن المصادر و المراجع، العربية منها و الأجنبية، على السواء، تخلـــط بـــين مصطلحات وسائل تجميع المياه و تخزينها، إذ قلّما نجدُ منها من يميّز بين مصطلحات الصــــهريج و الماجل و الجبّ التي يترجم كلّ منها بـــ(citerne و réservoir و bassin)في آن واحد.

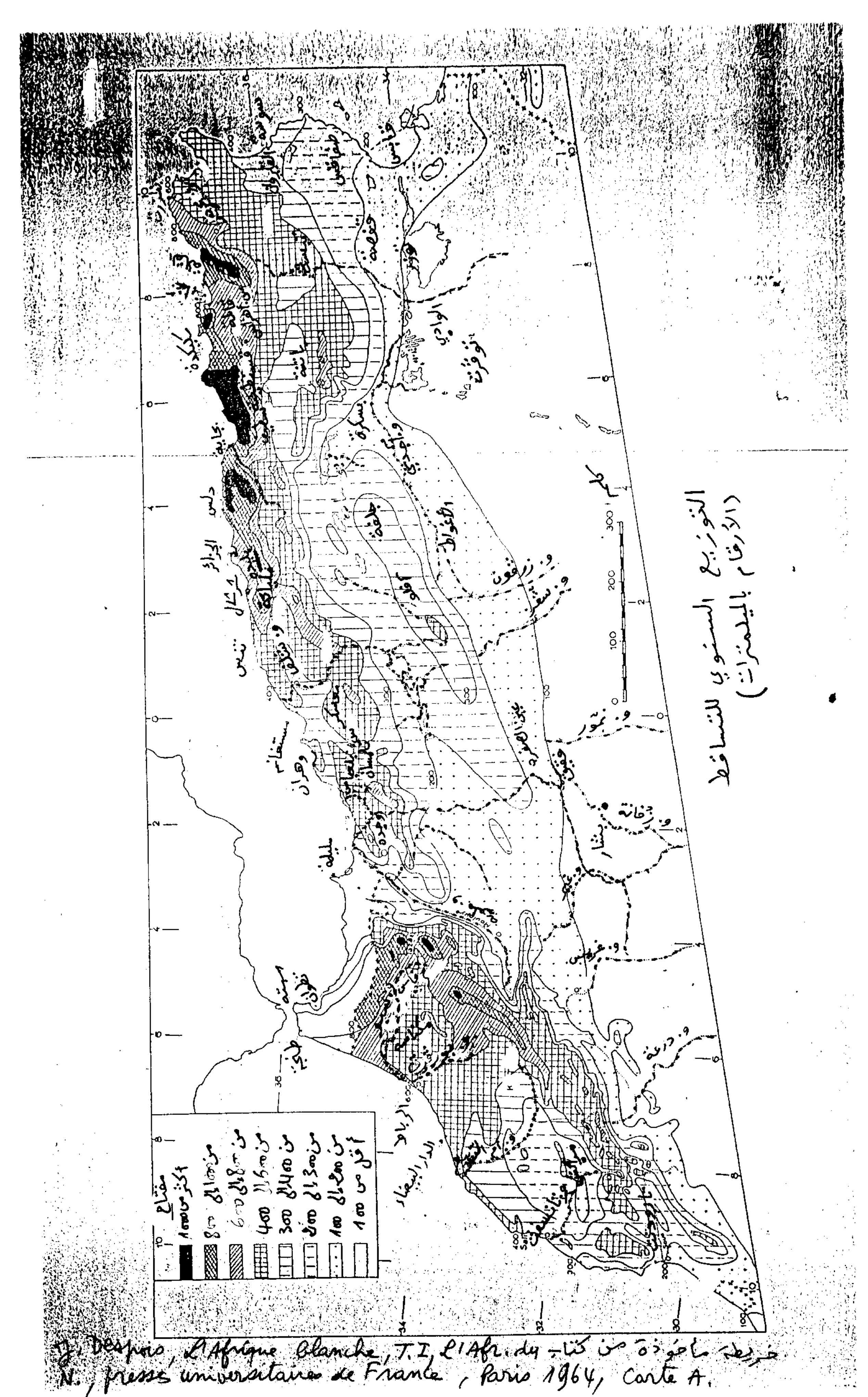
و قد كان التصرّف في مياه هذه التجهيزات خاضعاً للأحكام الشـــــرعية و الظـــروف المحلية، مثلها في ذلك مثل مياه الأنهار و العيون و الآبار التي كثيرا ما كان الناس يتعاملون بهـــــا كبضاعة من البضائع التجارية: تباع و تُشترى و ترهن و تحبّس و تقترض، و من أنماط التعـامل المعروف فيها " تجارة الماء " التي كانت لها قواعد خاصة لضبطها.

و تنبغي الإشارة، أخيرا، إلى أن مالك الماء كان يتحمل على عاتقه مسئولية ما عسى أن ينجم عنه من أضرار للغير.

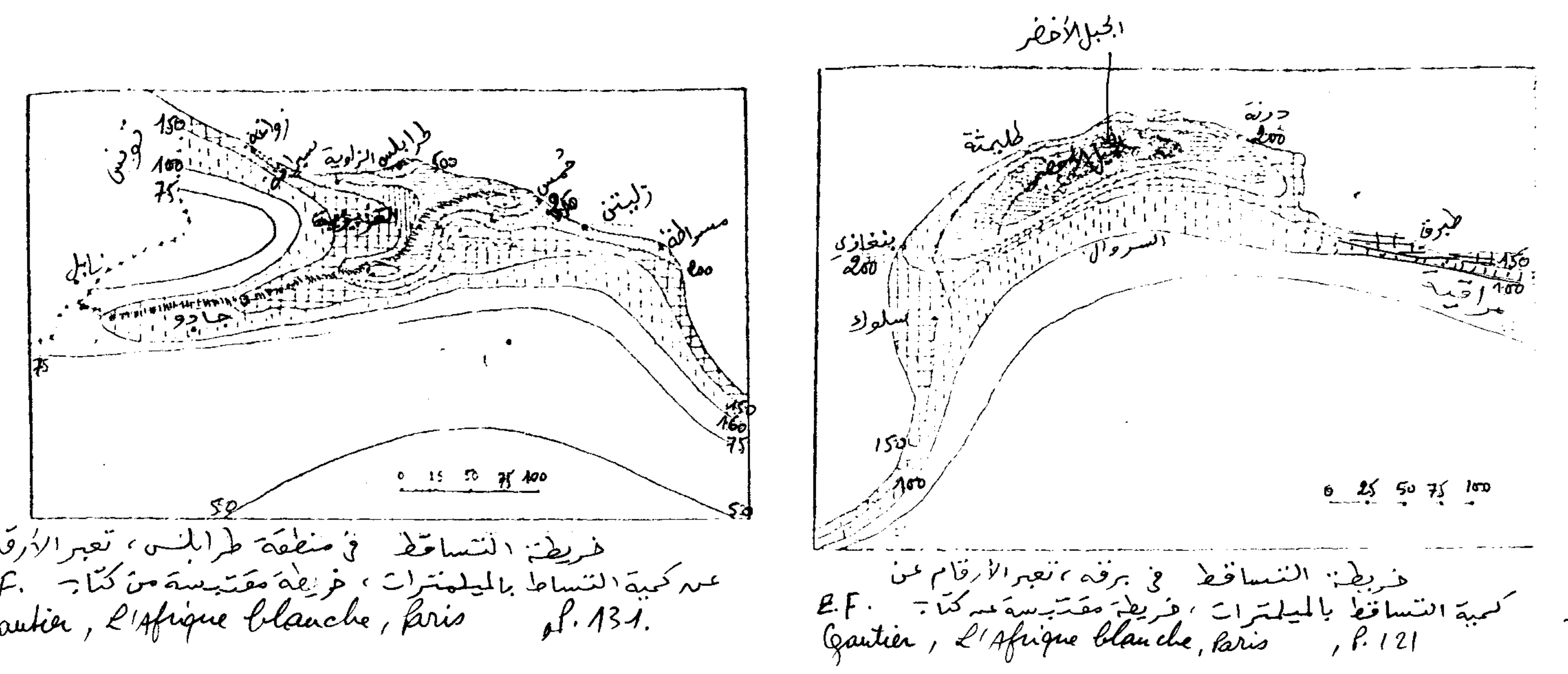
1– الونشريسي: المصدر السابق، جــ .5، ص 11–12.

صور و خرائط الباب الثانـــي

الخريطة رقم 3



خريطة مأخوذة من كتاب J. Despois, L'Afrique Blanche, T.I, L'Afr. du N., presses universitaires de France, Paris 1964, Carte A.

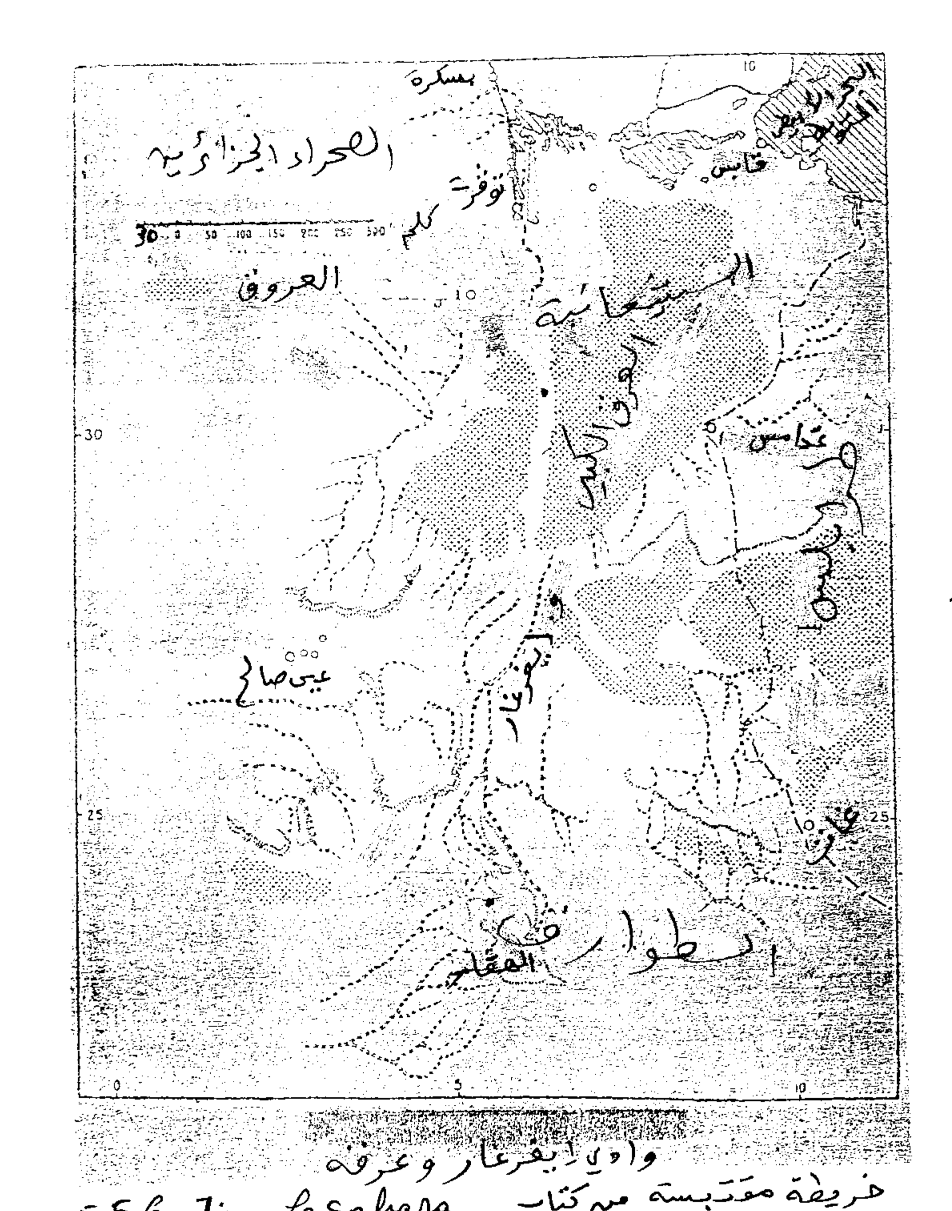


خريطة: التساقط في منطقة طرابلس، تعبر الأرقام عن كمية التساقط بالميلمترات، خريطة مقتبسة من كتاب: E.F. Gautier, L'Afrique blanche, Paris p. 131.

خريطة: التساقط في برقه، تعبر الأرقام عن كمية التساقط بالميلمترات، خريطة مقتبسة عن كتاب: E.F. Gautier, L'Afrique blanche, Paris, p. 121

وادي الساورة وعرقه

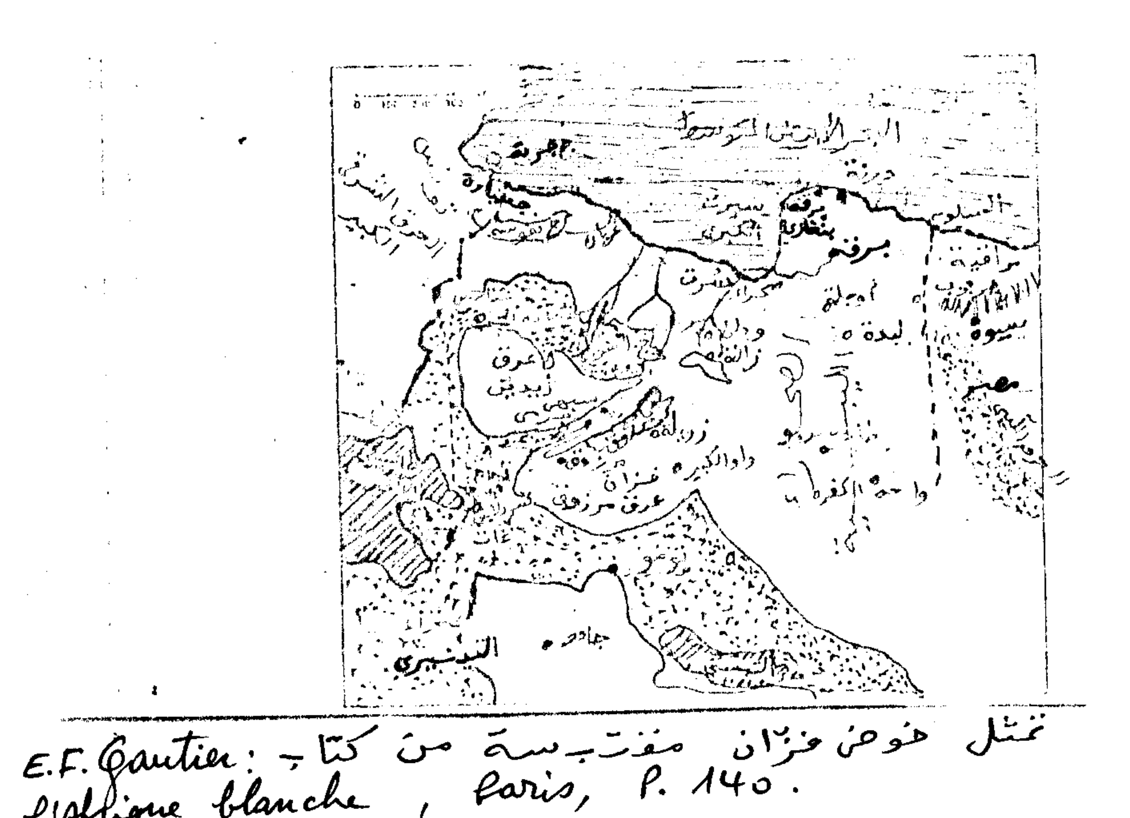
E.F. Gautier, Le Sahara, خريطة مقتبسة من كتاب Paris 1923, P. 148



وادي إيغرغار وعرقه

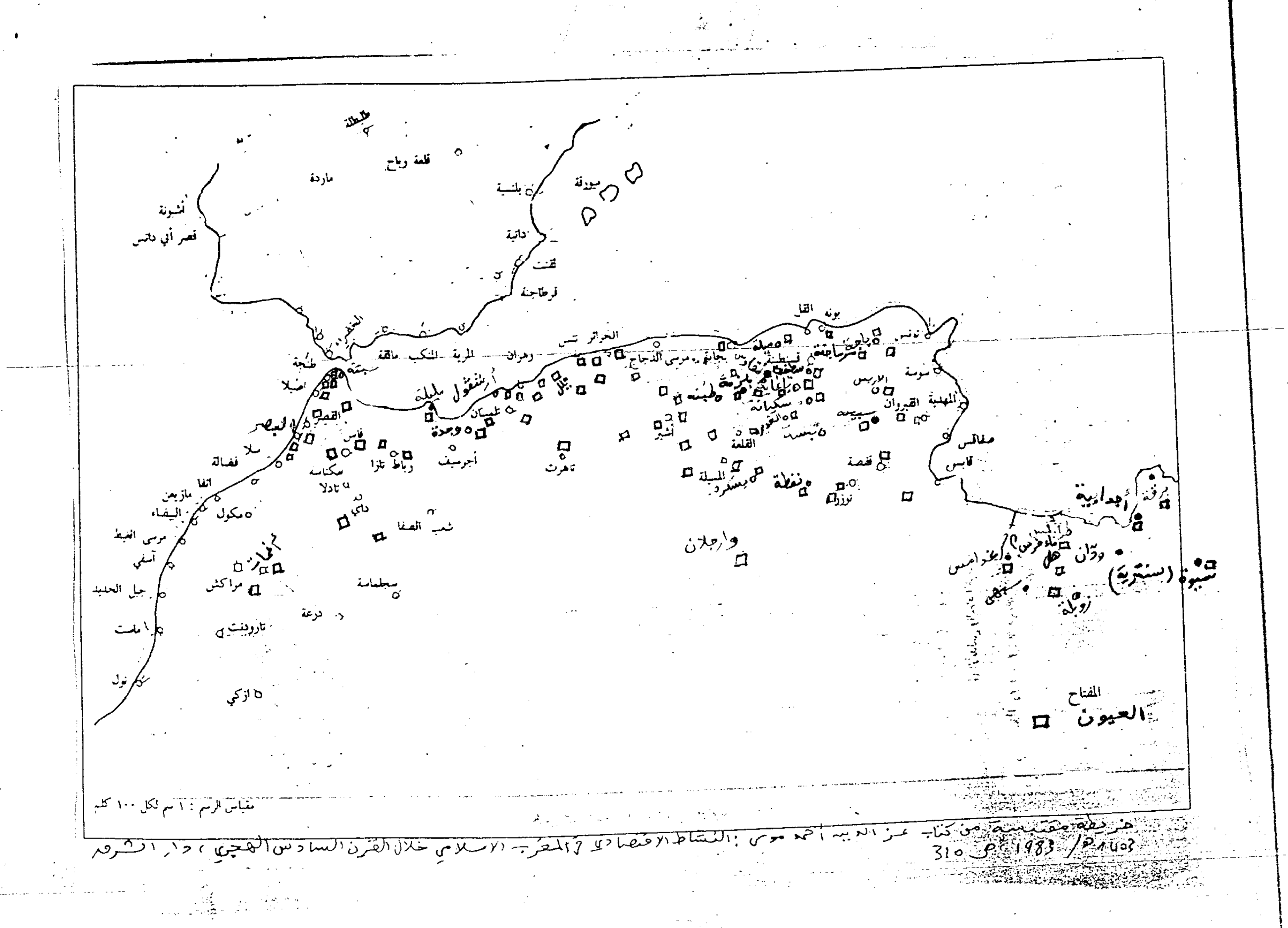
E.F. Gautier, Le Sahara خريطة مقتبسة من كتاب Paris 1923, P. 142

خريطة رقم 6



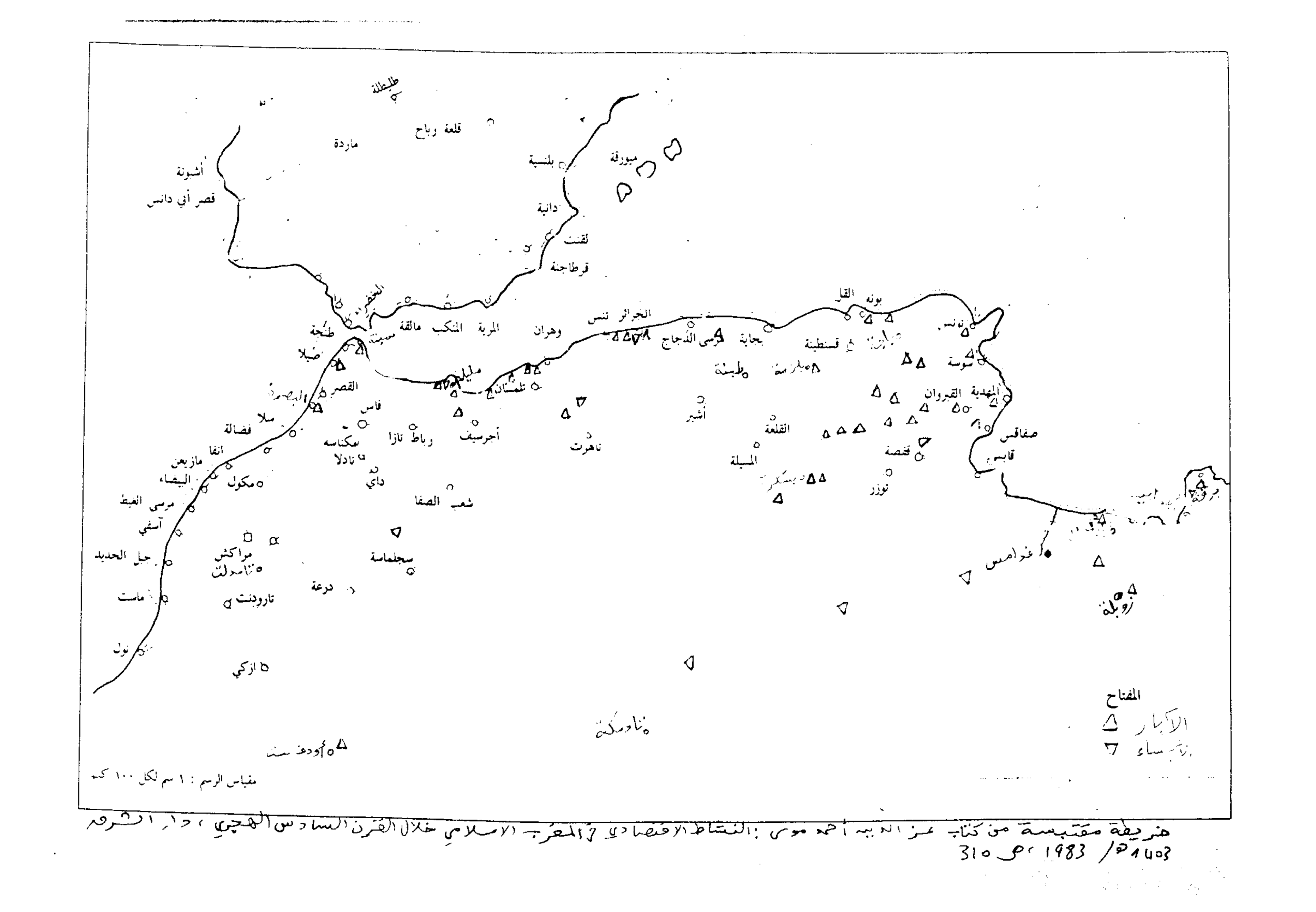
تمثل حوض فزان مقتبسة من كتاب E.F. Gautier: L'Afrique blanche, Paris, P. 140.

الخريطة رقم 7



خريطة مقتبسة من كتاب عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، 1403هـ/1983م، ص 310

خريطة رقم 8



خريطة مقتبسة من كتاب عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق 1403هـ/ 1983م، ص 310

الخريطة رقم 9

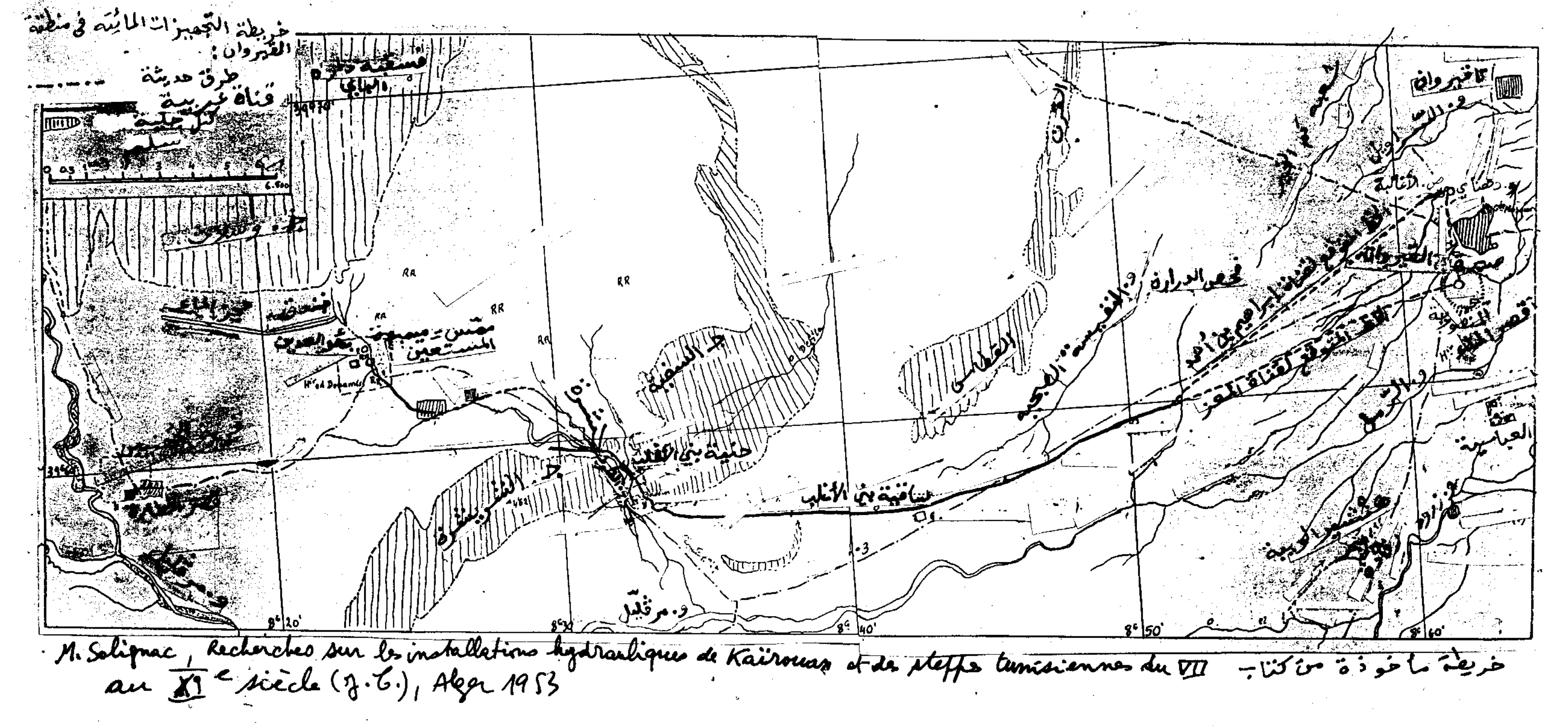
المنشآت المائية العربية
من القرن الثامن الى نهاية القرن
العاشر الميلادي في منطقة

+ صهاريج دائرية أو رباعية الأضلاع
(وسواجل حضرية لم يتم وصفها)
نظام الخزانات المتعددة الزوايا (أكثر
من أربعة أضلاع)
× خزانات من النوع المغطى
طرق
كتل جبلية
سلم
0 10 20 30 40 50 60 70 كلم

الحمامات
هرقلة
سوسة
المنستير
المهدية
الجم
صفاقس
جزر قرقنة
القيروان
القصر القديم
رقادة
صبرة
جلولة
سبيطلة
قفصة
36°
35°

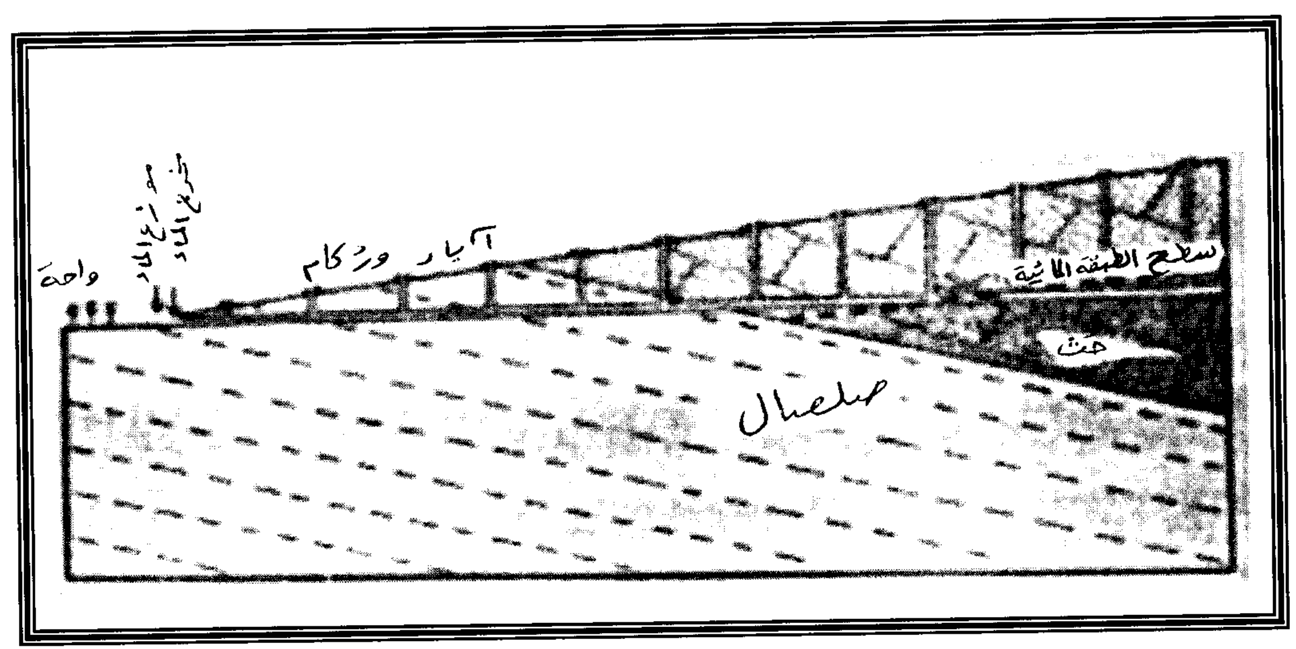
خريطة مأخوذة من كتاب M. Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII^e au XI^e siècle (J.C.), Alger 1953, pp 7-8

الخريطة رقم 15



خريطة مأخوذة من كتاب M. Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII au XI e siècle (J.C.), Alger 1953

صورة رقم ٨

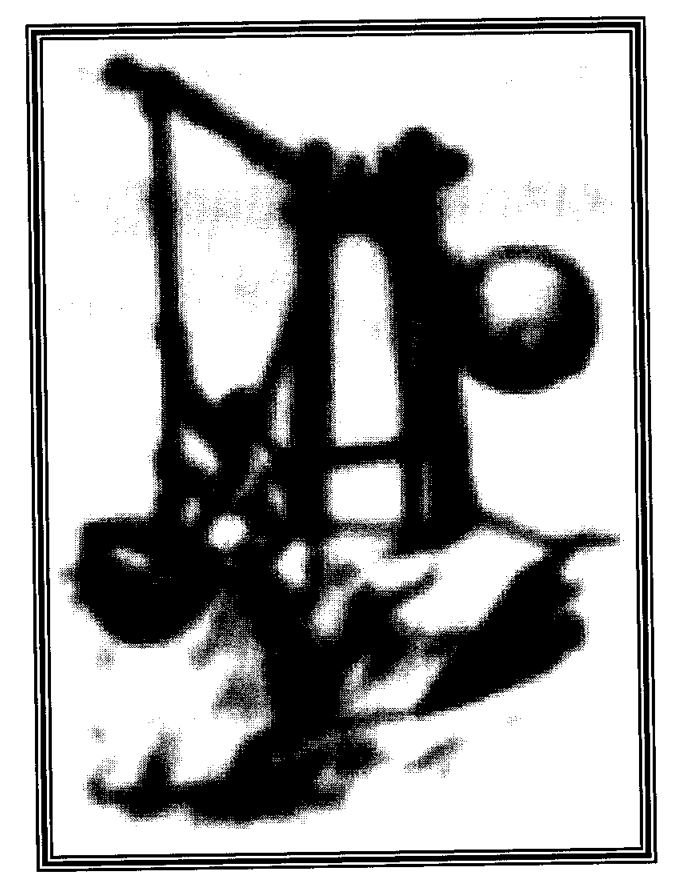


مقطع إحدى مجارات الفقارة مأخوذة من كتاب: " L'Afrique blanche française, T. 2, Le sahara francais, Presses universitaire de France, R. Capot-Rey J. Paris 1953, P 325

صورة رقم ٢

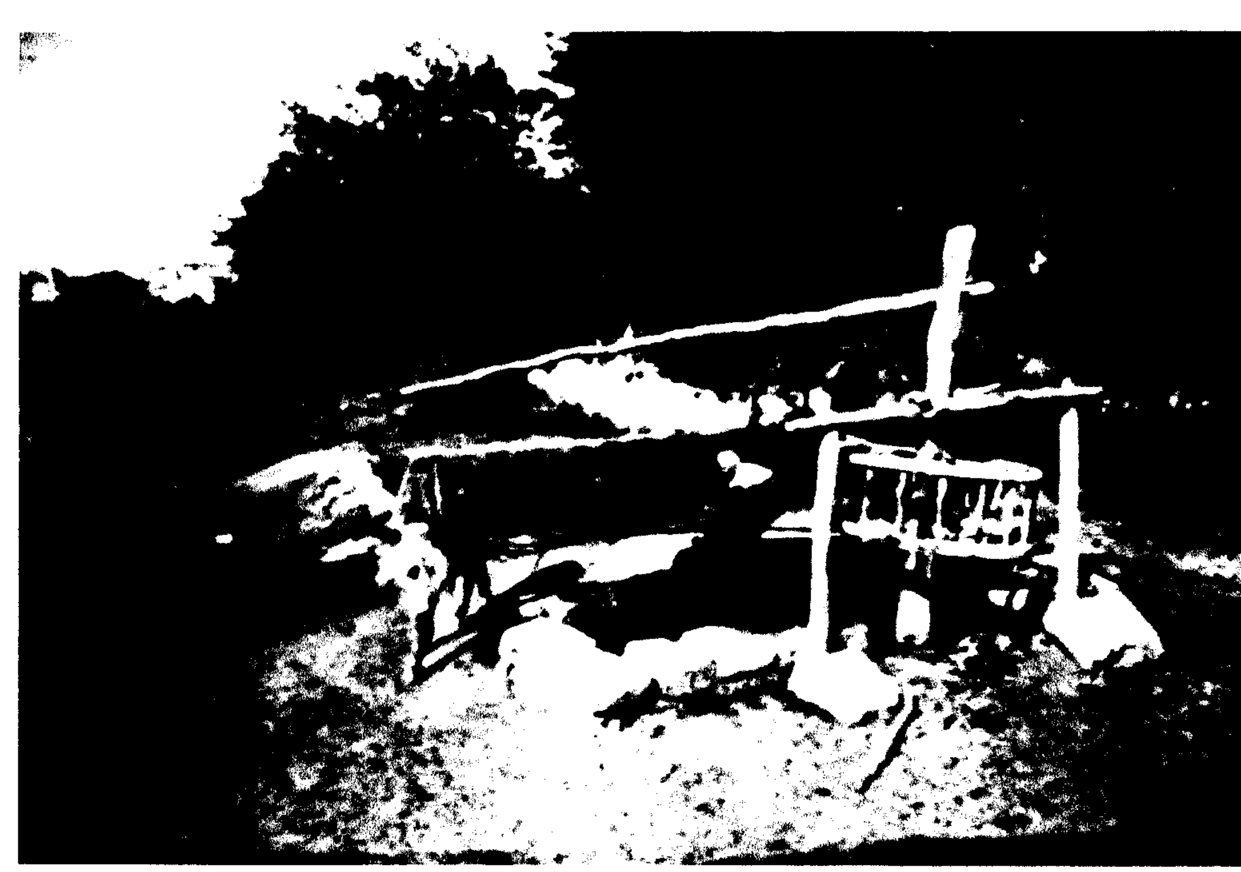


استعمال الشادوف بجندرة (مصر): صورة مأخوذة من
Dictionnaire encyclopédique de la langue française
imprimé en Italie 1995, P. 219



شادوف (آلة أخذ الماء من نهر أو بئر)
صورة مأخوذة من قاموس المنهل، ص 184

صورة رقم 3



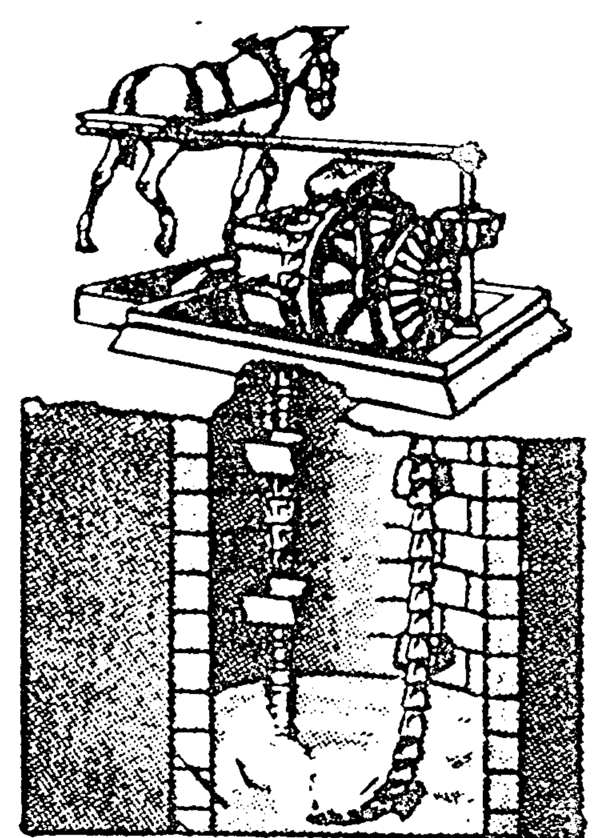
الناعورة (الناعور - الدولاب) الذي تحركه الدابة في مدار (Noria à manège) (منطقة سلا)
صورة مأخوذة من كتاب G. S. Colin, La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, Hespéris, T. XIV, fasc. I, 1er trimestre 1932, p. 51

صورة رقم 4.



الناعور (الناعورة - الدولاب) الذي تحركه الدابة في مدار (منطقة سلا)، صورة مأخوذة من كتاب G.S. Colin, La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, Hespéris, T. XIV, fasc. I, 1ier trimestre 1932, p. 53

الصورة رقم 5



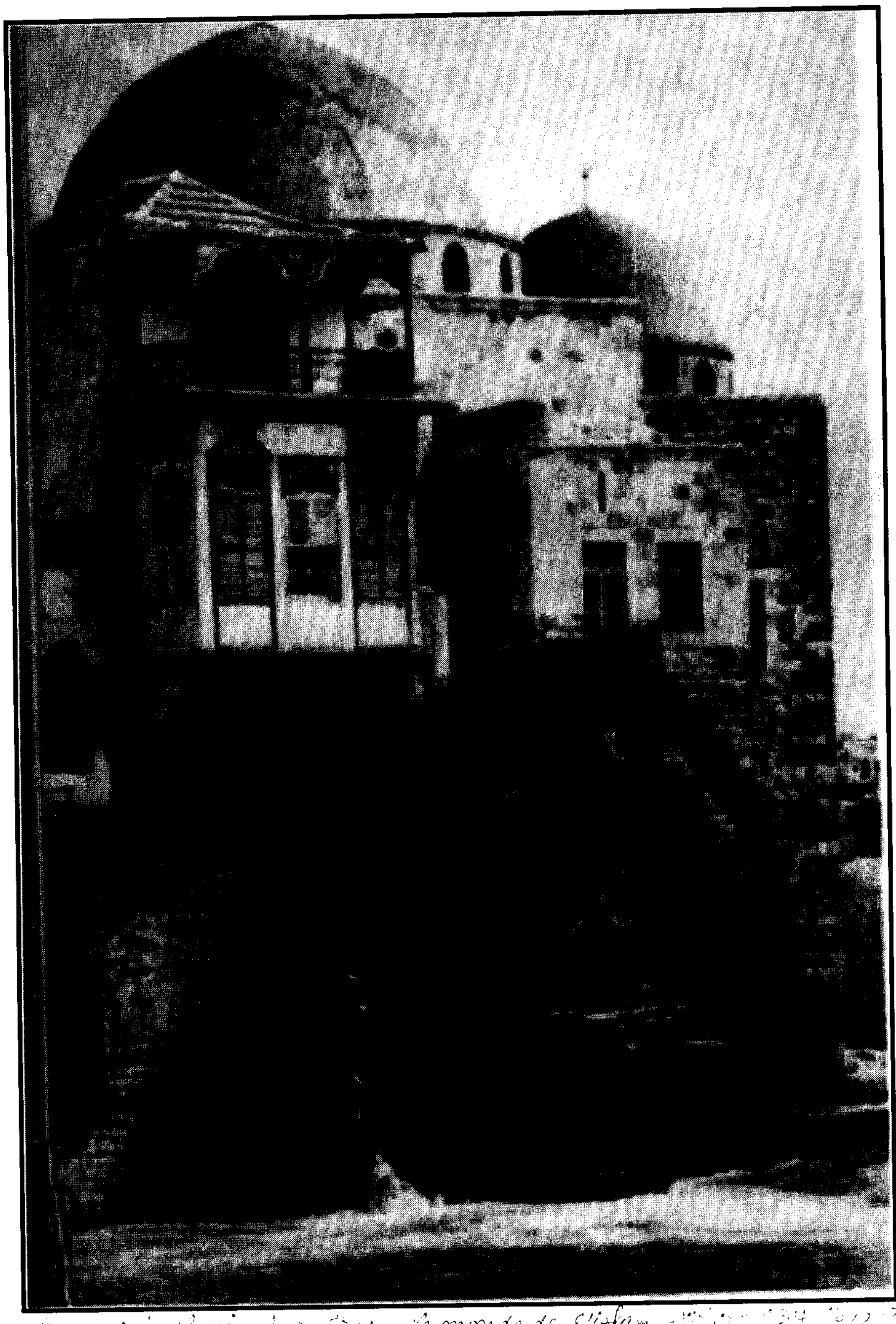
صورة للناعورة مأخوذة من كتاب ابن منظور: لسان العرب، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة. يوسف خياط، دار الجيل-بيروت 1408هـ/1988م، ج2، ج6، ص670

الصورة رقم 6



الناعورة (الناعور) أي العجلة الرافعة التي يديرها الماء (فاس)
صورة مأخوذة من كتاب G.S. Colin, La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, Hesperis, T. XIV, fasc. I, 1ier trimestre 1939, P. 55

الصورة رقم 7



Bernard Lewis et autres, Le monde de l'islam ... 1984 ... Paris, Flammarion

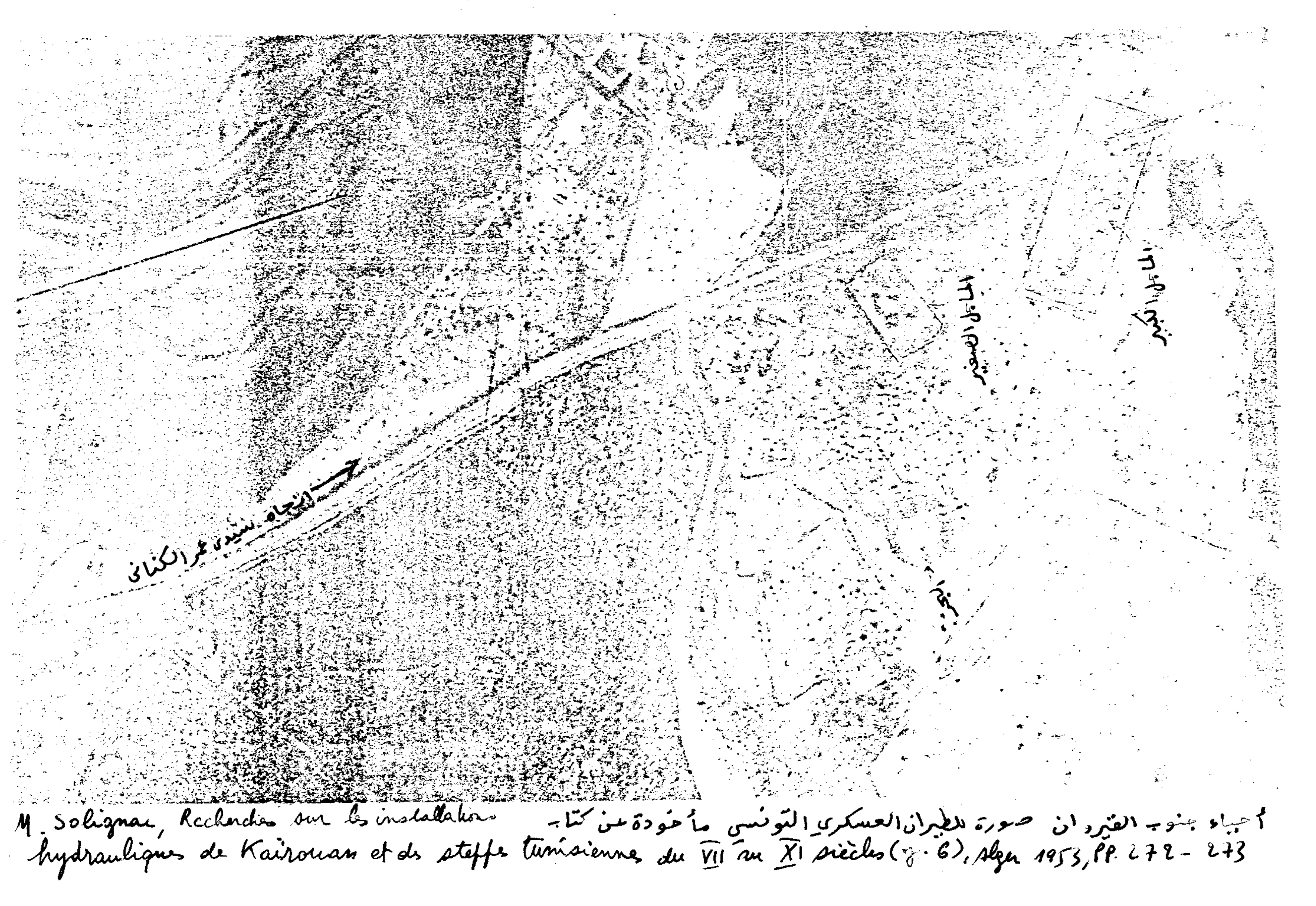
وتمثل ناعورة أو عجلة مائية على نهر العاصي بحماة في سوريا، وهي ترفع الماء من النهر الذي يحركها بواسطة أقداسيها، وتصب تلك الأقداس عند ذروة دورة العجلة في قنوات مهيأة لسقي الأراضي

الصورة رقم 8



صورة جوية للقيروان مقياس 1/1000 مأخوذة من كتاب
M. Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes, du VII au XI e s (J.-C.), Alger 1953

الصورة رقم 9



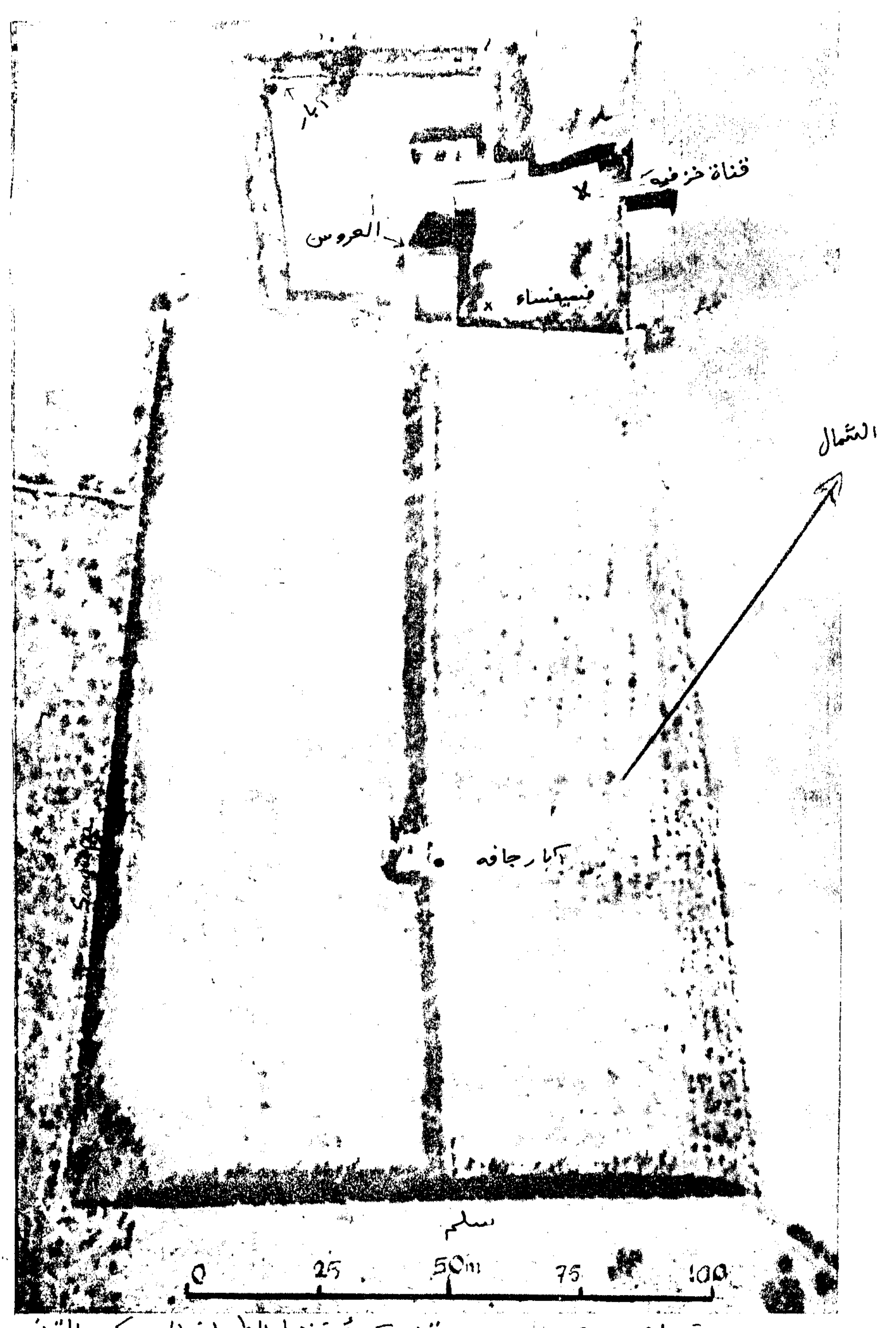
أحياء جنوب القيروان صورة للطيران العسكري التونسي مأخوذة من كتاب
M. Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII au XI siècles (ج. 6), Alger 1953, PP. 272 - 273

الصورة رقم ٨٥



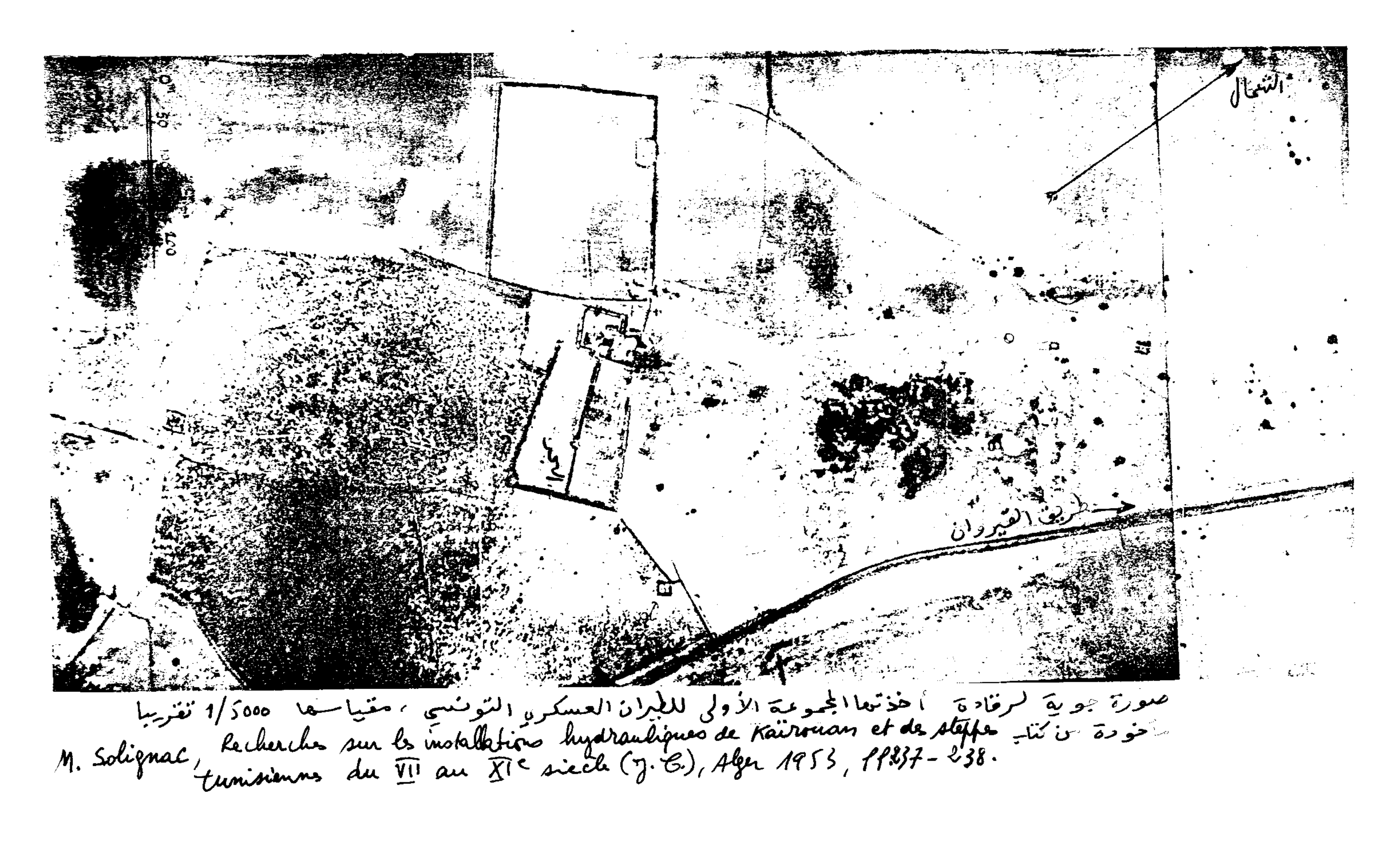
مجموع المواجل الأغلبية التي بناها ابراهيم بن أحمد صورة جوية مائلة أخذتها المجموعة الرابعة للطيران التونسي، صورة مأخوذة من كتاب:
M. Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VIIe au XIe siècle (J.C.), Alger 1953, P. 195

الصورة رقم ١١



صورة جوية لصهريج البحر برقادة أخذها الطيران العسكري التونسي
صورة مأخوذة من كتاب: M. Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII au XI^e siècle (J.C.), Alger 1953, pp. 250-251

الصورة رقم 12



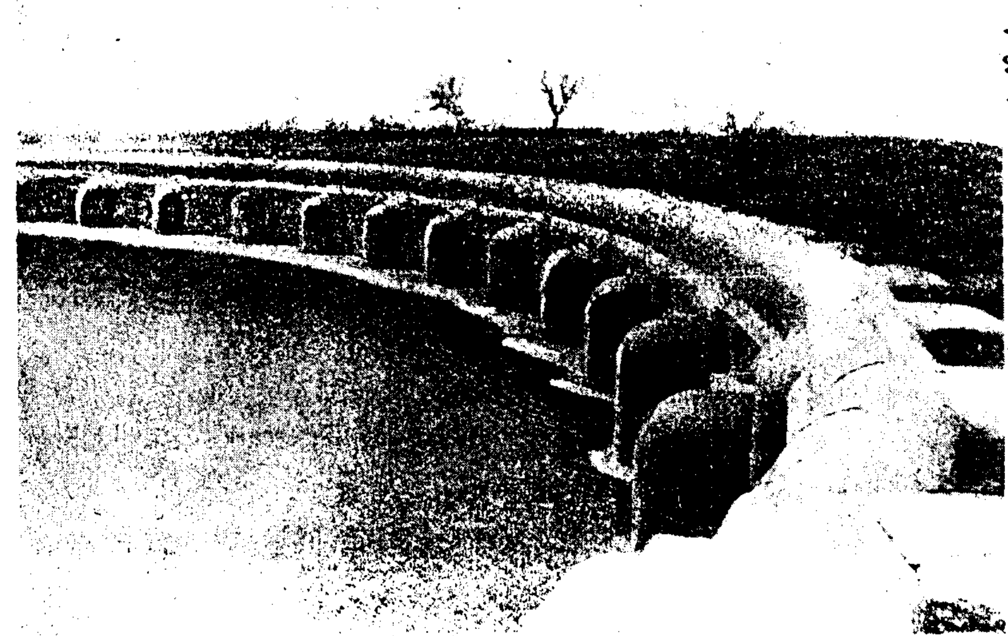
صورة جوية لرقادة أخذتها المجموعة الأولى للطيران العسكري التونسي، مقياسها 1/5000 تقريبا مأخوذة من كتاب

M. Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII au XIe siècle (J.C.), Alger 1953, pp 237-238.

الصورة رقم 13



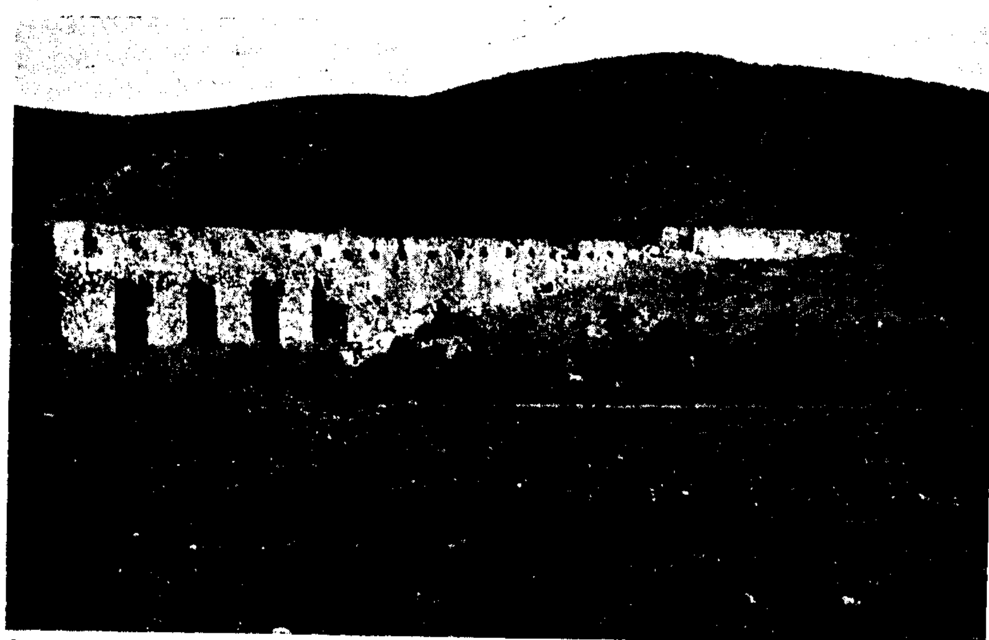
الدعامات الخارجية للماجل الكبير الذي بناه إبراهيم بن أحمد الأغلبي



الدعامات الداخلية للماجل الكبير الذي بناه إبراهيم بن أحمد الأغلبي

صورتان مأخوذتان من كتاب — M. Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII au XI e siècle (ج.2) Alger 1953, pp. 98-99

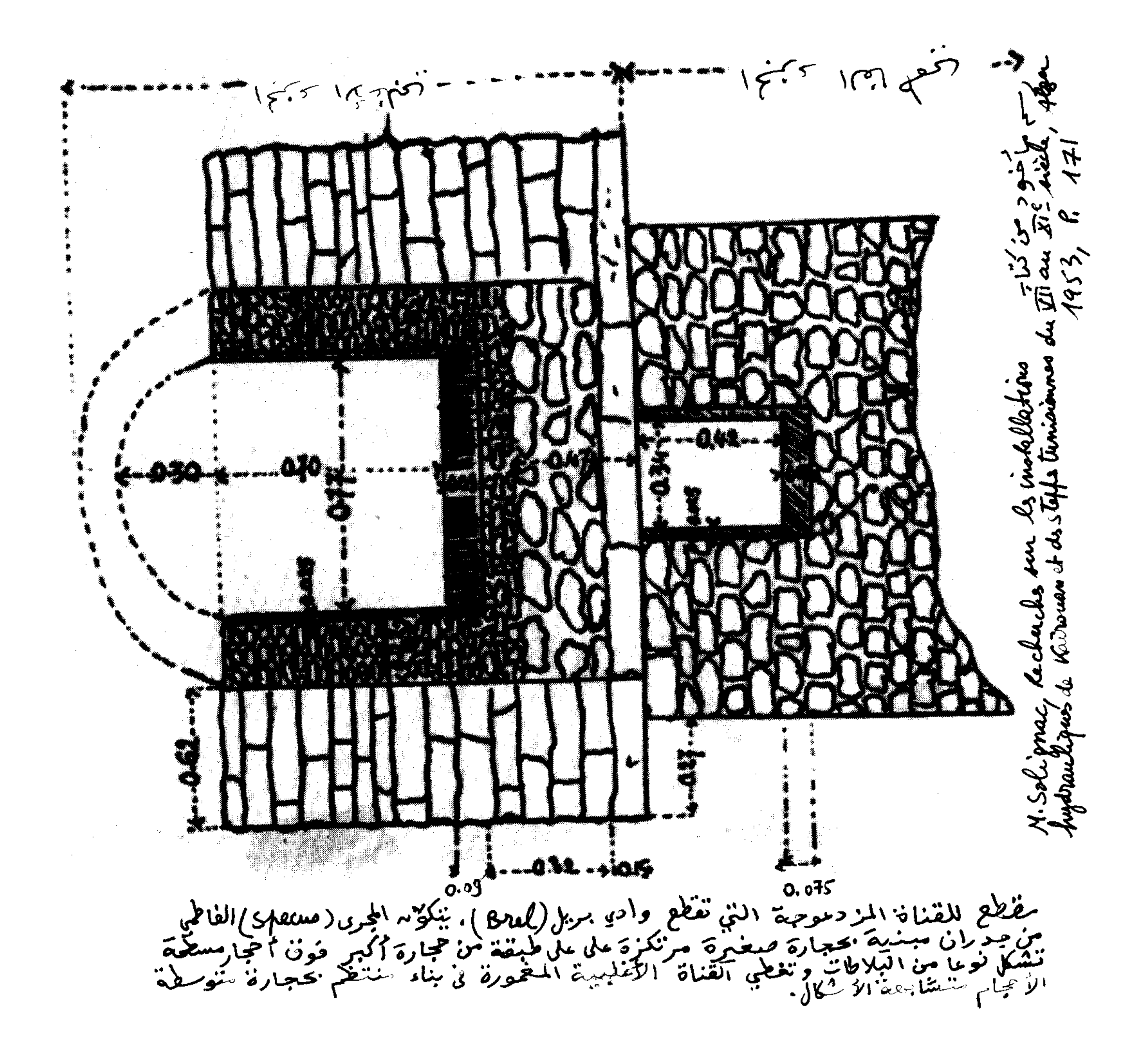
الصورة رقم 14



القناة الأغلبية - الفاطمية وهي تعبر وادي موتة، من جهة سافلة النهر. نشاهد القناة الأغلبية منتصبة على قمة الأساس الموضوع على عقود الجسر التي تتسع يمينا في شكل جدار، وفي أعلى اليمين تظهر القناة الفاطمية حيث تطابق منها مقاطع عريضة القناة الأغلبية.

صورة مأخوذة من كتاب M. Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII^{e} au XI^{e} siècle (J.C.), Alger 1953, pp. 140-141

الصورة رقم ١٧



مقطع للقناة المزدوجة التي تقطع وادي بريل (Brel)، يتكوّن المجرى (specus) الفاطمي من جدران مبنية بحجارة صغيرة مرتكزة على على طبقة من حجارة أكبر فوق أحجار مسطحة تشكل نوعا من البلاطات وتغطي القناة الأغلبية المطمورة في بناء منتظم بحجارة متوسطة الأحجام متشابهة الأشكال.

الباب الثالث

الأسماك و طرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح الاسلامي إلى سقوط دولة الموحدين

الفصل الأول: الأسماك و أنواعها ببلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين.

الفصل الثاني: طرق استغلال الأسماك ببلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين.

البـــاب الثالث

الفصل الأول

الأسماك و أنواعها ببلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين

الظروف الطبيعية و الأسماك ببلاد المغرب

يعتبر ابن خلدون المعاش " عبارة عن ابتغاء الرّزق و السعي في تحصيله ... ثم إن تحصيله إمّا أن يكون بأخذه من يد الغير... و يسمّى مغرمًا، و إمّا أن يكون من الحيوان الوحشي بافتراسه و أخذه برميه من البرّ أو البحر و يسمّى اصطياداً و إمّا أن يكون من الحيوان الدّاجن... أو يكون من النبات في الزرع... و يسمّى هذا كلّه فلحا، و إمّا أن يكون من الكسب من الأعمال الإنسانية... و يسمّى صنائع... و إمّا أن يكون الكسب من البضائع و إعدادها للأعواض... و يسمّى هذا تجارة..."[1] و الذي يهمنا من كلام ابن خلدون هذا اعتبار الصيد البحري من المعاش الإنساني، منذ أقدم العصور.

و قد كان الصيد البحري يمارس بطرق شتّى، حسب الأمكنة و الأزمنة، و عادة ماتنظمه أعراف و قوانين متكيّفة مع ظروف المناطق التي يمارس فيها و مع عقائد سكانها، و من المعروف أن ظروف الملاحة في المنطقة الغربية من حوض البحر الأبيض المتوسط لا تلائم النشاط الانساني في كامل جهاتها، بما فيها الشمالية، فالمواقع المرفئية الجيّدة نادرة، لأن مصبات الأنهار الكبرى التي يمكن أن توجد لا تُسلك إلاّ بصعوبة، بسبب التغرّن النهري و لكون قطاعات (secteurs) واسعة تشكل شواطيء بحيرية (côtes lagunaires) متغيّرة جدًّا، في حين أن الشواطيء الصخرية صعبة للتهيئة، من جرّاء الأعماق الهائلة المحيطة بها،و من جهة أخرى، فإن ظروف الأحوال الجوية غير مستقرّة عادة، و الأعاصير التي تصيب الحوض الغربي المتوسطي يمكن أن تبلغ درجات من العنف تجعل الخروج إلى البحر محظوراً لعدّة أسابيع.[2]

و الظروف الطبيعية، في الحوض الغربي المتوسطي، لم تتأثر إلاّ قليلا بدخول المياه الأطلنطية عبر مضيق جبل طارق أو المؤثرات القادمة من حوضه الشرقي، عن طريق مضيق صقلية، و تظهر هذه الناحية، قبل كل شيء، على أنها منطقة ضعيفة التأثّر بالمدّ و الجزر، و هذا هو الفرق الأساسي بينها و بين مناطق البحر الأدرياتيكي و خليج سيرت التي تشكل مناطق عبور إلى القطاع الشرقي.[3]

1- مقدّمة، ص 382-383.

2- M. F. Doumènge : probléme de la pêche en méditerrannée occidentale, bulletin de l'association de géographes français, n° 276-277, juin- juillet 1958, p.7.

3- Id.

و تأتي المياه السطحية الأطلنطية بتيار بطيء، و هي أبرد قليل،ا و أقلّ ملوحة، لكنـــها أغنى بالبلانكتون (plankton) من بقية مياه المتوسط. و الأسماك السطحية التي تتغذّى بها قليلة التنوّع و لكنها كثيرة الأعداد.[1]

و في الحوض الغربي للمتوسط، ينبغي التمييز، قبل كل شيء، بين نمطين كبـيرين مـن القطاعات ظروفهما متضاربة إلى حدّ بعيد: فمن جهة، توجد مناطق الرصيف شبه القارّي ذات مساحة واسعة، من أعماق يزيد ارتفاعها عن 250 م، و هي مناطق يمتد فيها الشاطيء بأعماق تحبحرية (fonds sous- marines) ذات ميل خفيف، و لها عادة ساحل رملي تُغذيـه دلْتـوات الأنهار الكبرى أو مجاري المياه الساحلية التي أحدث نموّها قطاعـات هامـة مـن البحـيرات (secteurs lagunaires) ، و لهذه المناطق مياه غنية بالأملاح المعدنية الذائبة أو المواد العضويـة، و هي تصلح لبعض الأشكال الخاصة بتكاثر أو نموّ أصناف مهاجرة من الأسماك.[2]

و في مقابل هذه المناطق تقوم سواحل صخرية ذات انحدار سريع أو أعمـاق كبـيرة، مجاورة للساحال تقريبا، و عادة ما تكون مياهها أقل غنَى بكثير و أقلّ ملائمة لعيش الأسمـاك و تكاثر أصنافها.[3]

و في بلاد المغرب فإن الرصيف القاري لا يتوسّع إلاّ شرق عنّابة، و خاصة في سـواحل تونس الشرقية حيث تَعرِف الأعماق المرتفعة لخليج قابس و كذلك خليج البندقية المدّ و الجـزر الوحيدين من نوعهما في الحساسية بالمتوسط. و من جهة أخرى فإن البلاد التونسـية تمتلـك بحيرات (lagunes) متصلة بالبحر و بحيرات (lacs)غنية بالأسماك؛ و الرصيف القـاري علـى السواحل الجزائرية ضيق، بين عنابة و تنس، ثم تتحسّن الظروف قليـلا في منطقـتي وهـران و شرق المغرب الأقصى لتصبح السلسلة الريفية عموديّة جدًّا[4].

و تشكل تونس الجنوبية بلدا واحدا مع منطقة طرابلس، إذ ليس بينهما حدود طبيعيـة: فالشواطئ الصخرية التونسية لجبل مطماطة تمدّد الشواطئ الصخرية الطرابلسية لجبل نفوسـة، و الشواطئ الصخرية عبارة عن قطعة من الهضبة الكلسية الصحراوية التي حتّ البحر نصفـها

1- J. Despois : op.cit, pp.458-459 ·

2- M. F. Doumenge : op.cit., p.8 ·

3- Id ·

4- J. Despois : op.cit., p.458 .

الشمالي، خلال الأزمنة الماضية، و أساس (soubassement) هذا النّصف المنحوت هـــو أرض سيرت الصغرى، تحت سُمك قليل من الماء، لا يتجاوزه 50 م و حتى 10 م، و سيرت الصُّغـرى هي ما يسميه الجغرافيون، إذًا، الرصيف القاري، و تحتكر سِيرْت الصغرى المدّ و الجزر، فيصل اتساعهما مترا واحد، و هي تغذّي حيوانات مائية (aquatiques) كثيرة تجتذب الصيادين مـن بعيد كالإغريق، على سبيل المثال، و قد حافظت، منذ عهد قرطاجة علـى أسـطول صغـير للصيادين المحلّيين.[1]

و يُقيّم G. Souville الظروف الطبيعية في بلاد المغرب، على أنها لائقة، بما فيه الكفايـة، للحياة البحرية، موضحا أنه: إذا كان الرصيف القاري ضيّقا، على السواحل الجزائريـة، بـين عنابة و تنس، و الأعماق المفيدة و المُسمِكة (poissonneux) محصورة جدًّا، فإن خليج قـابس، على العكس من ذلك، غَنيٌّ بالحيوانات البحرية، كما أن سواحل وهران و السواحل الشـرقية للمغرب الأقصى لائقة على العموم، فالأسماك كثيرة و متنوّعة[2] و إذا كانت سـواحل شمـال إفريقيا ليست رائعة للملاحة، فهي تسمح بحياة بحرية عادية؛ حقيقة فإن الخلجـان المفتوحـة، شمال الجزائر و تونس، غير مضمونة تماما، و تبقى تونس الشرقية هي الأكثر حظًّا، و إذا وصعنا جانبا نشاطا ثانويا و مؤقتا على السواحل الريفية، فلا نجد ملاحة حقيقية سوى في جزر قرقنـة (Kerkana)[3] أي أن تونس الشرقية وحدها هي التي تقدّم أحسن المخابئ للسفن، غير أن احتمال الجنوح (échouage) يبقى كبيرا في أعماق خليج قابس المرتفعة[4]، مع انتشار شـواطئ صغـيرة يمكن أن تسحب إليها المراكب الخفيفة على طول السواحل المتوسطية المغربية.[5]

و يلاحظ M. Lombard أن الرصيف القاري لمضيقيْ صقلية و جبل طارق تغطيه ميـاه مُسمِكة، و أن مناطق الصيد توجد، على العموم، في طرفي بلاد المغرب، أي الساحل الإفريقي و السواحل الأطلنطية التي لها نشاط مميّز، عكس الساحل الشـمالي الذي يبلغ فيه البحر أعماقا

1- E. F. gautier : L'Afrique blanche, pp.131-132.

2- G. Souville : la péche et la vie maritime au néolitique en Afrique du Nord, Bulletin d'archéologie marocaine, T. III, 1958-1959, p.15.

3- G. Souville : op.cit., p.17.

4- J. Despois : op.cit, p.3.

5- Ibid, p.459.

كبيرة بسرعة.[1]

و فعلا فإن الرصيف القاري يتوسّع على طول السواحل الأطلنطية، بدرجة كبيرة، بين جبل طارق و رأس كنتين (Cantin)، ثم في عرض السوس، و يبلغ المدّ و الجزر من 1 إلى 3 م كما أن حرارة مياه الأطلنطي و ملوحتها متغيّرة: فتيار جزر الكناري السطحي، الذي تبلغ سرعته من عقدة إلى عقدتين، يأتي في نفس الوقت بعودة صعود مياه الطبقات العميقة الباردة و بمياه أكثر ملوحة قدمت من البحر المتوسط عن طريق مضيف جبل طارق، فالحيوانات بها، إذًا، كثيرة و متنوعة[2] أي أن وجود تيار بارد و عودة صعود مياه الأعماق، على سواحل الصحراء الأطلنطية، مُجدِّدًا درجة الملوحة المغذّية للماء ثم بنبات بلانكتون(Phytoplancton) بعدها، كل ذلك جعل الساحل الأطلنطي من أغنى مناطق العالم بالأسماك[3] بما في ذلك مياه سواحل الصحراء.[4]

أنواع الأسماك بسواحل بلاد المغرب:

تتخذ الأسماك أشكالا، حسب ظروف الوسط الذي تعيش فيه: فمنها ما تعيش في الأعماق، و منها ما تعيش على السطح، و منها ما تعيش في اتصال بينهما.

و تتميّز حياة أصناف الأعماق، من الأسماك، بنموّ أكثر بُطئاً للجهاز العضوي (Organisme)، و بقدرة تكاثرية ضعيفة نسبيا، و تقوم بهجرات موسمية، ذات مدى قصير، تصل فيها دائما إلى مناطق صيدها، و أعماق البحر المتوسط تقدّم مجموعة مكوّنة من أصناف كثيرة جدًّا،لكن أعدادها تبقى دائما ضعيفة،لا تُصَادُ منها سوى كميات قليلة و متنوّعة جدًّا.[5]

و على العكس من ذلك، فإن البيئة المتوسطيّة توفر ظروفا جيّدة جدًّا للأصناف التي تعيش على السطح، فالمياه السطحية بها منتعشة بحياة كثيفة، تقدم عددًا قليلا من الأصناف لكن عدد أفراد الصنف الواحد منها كثير، و قُدرة تكاثر هذه الأصناف كبيرة جدًّا، و الاستغلال

1- op.cit., pp.66-67.

2- J. Despois : op.cit., p 458-459.

3- R. Capot- Rey : op.cit., T.2, p.209.

4- R. Mauny : les navigations médiévales sur les cotes sahariennes, antérieure à la découverte portugaise (1434), lisboa 1960, p.53.

5- M. F. Doumenge : op.cit., p.9.

الإنساني لها لا يكون إلاّ بالصدفة، و عادة ما تُعرف تحت اسم الأسماك الزرقاء، و تقوم بهجرات مهمة: بعضها يتنقل على المستوى العمودي (مثل السردين) و البعض الآخر علـــى المســـتوى الأفقي (مثل التن)، و مهما يكن فإن أساس ثروة المياه السطحية المتوسطية تكوّنه هذه الأصناف المهاجرة.[1]

أمّا أصناف، ما بـــين الســـطح و الأعمـــاق، فـــهي توجـــد في الهُـــدَب البحريـــة (franges lagunaires)، حيث تأتي الأسمـــاك، و بـــالأخص الســـلور(anguille) و البـــوري (muge) للنموّ في المياه الأجاجة (saumâtre) ثم التوجه، بعد ذلك إلى المياه البحريـــة للتكـــاثر، و هنا أيضا يتيح نظام الهجرة ظروفا مواتية جدًّا للاستغلال الإنساني.[2]

و يصنّف A. Borrel الأسماك إلى مســـــتقرة و مـــهاجرة و قُشـــيريات (crustacés) و مرجان متشعب (madrépores)[3] و الصفات الأساسية للأسماك المستقرّة هي العيـــش طـــول العام، تقريبا، في نفس المناطق، و بالتّالي، الاحتفاظ بنمط معيشي مستقر إلى حدّ ما، و هـــذا لا يعني فرض سكون تام عليها و لكن تنقلاتها المنتظمة تكون على نطاق ضيّق، و لا تُبعدها علـــى الشواطئ،و هي تحركات مشتركة، بين كل الأصناف، يتطلبها، على الخصوص نموّ البلاعيـــط* و التسرئة، و هما السببان الدّائمان لتحركات جميع الأنواع.[4]

و الأسماك المهاجرة تقوم بأسفار طويلة في البحر، و لا تظهر بجـــوار الســـواحل إلاّ في بعض الفترات، و من ثَمّةَ يَكون صيدها، متناوبا أو موسميا، و هي بذلك تختلف عن ســـابقتها، و يكون ظهورها قرب الساحل، بعد غياب طويل، يدوم أغلب أوقات السنة، في فترة خاصـــة بكلّ نوع و محدّدة جدًّا، و هي عادة في الربيع، حيث تصل بأعداد كبيرة مكوّنة أسرابا معتبرة، تتسارع، قرب سطح الماء، في أغلب الأحيان قرب الشاطئ، و تتبع كلّها مَعْـــبراً متشـــابها، في عرض ســـواحل تونس الشمالية، قادمة من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط و متجهة نحو

1- M. F. Doumènge: op.cit., p.9.

2- Id.

3- Les pêches sur la cote septentrionale de la Tunisie, Presse universitaires de France, paris, 1956, p.22.

*- مفرد بلعُوط: و هو فرخ سمكة يستعمل في تربية الأسماك (المنهل، ص 34) .

4- A. Borrel : op.cit., p.22 .

قناة صقلية، و عندها يمكن للصيادين أن يباشروا إحاشات [1] هامة، دون هوادة، و أن يصطادوا بالجملة تلك الأسماك، و عليهم انتهاز الفرصة لأن الأسراب تقلّ بسرعة، قبل أن تزول نهائيـــا. و تواصل الأسماك هجرتها الجماعية (exode). و قد تُفَاجأ، أثناء عودتها، من رحلتها، إلى نقطـة انطلاقها لكنها تكون، عندئذ أقلّ اكتضاض.[2]

و تصطاد القشريات موسميا هي الأخرى، و منـــها الكركنـــد أي الجـــراد البحـــري (Langouste) و سرطان البحر (homards) و الجمبري (crevettes)، و يعيش هذا الصنف من الأسماك في أعماق مولّدة للمرجان (coralligéne) في مناطق صخرية، بها مَعْشبات.[3]

و الصنف الرابع من الأسماك، حسب تصنيف A. Borrel هو سمك المرجـــان (Pageot) الذي ينتمي إلى عائلة المجوّفات.[4]

الأسماك بسواحل البحر الأبيض المتوسّط في مصادر العصر الوسيط:

و من الواضح أن هذه المعلومات المتعلقة بظروف الصيد و أصناف الأسماك تمّ الاعتمـــاد فيها على مصادر حديثة، لأن مضمونها لم يتغيّر، بدون شك، بشكل ملحوظ، منذ الفترة الـــتي يغطيها هذا البحث، مع العلم أن مصادر ذلك الوقت لم تهتم بهذا الموضوع، و ممـــا لاحظـــه Vonderheyden، في هذا الباب، أن الكُتّاب العرب القدماء لهم نظرة خاصة في تناولـــه حيـــث كتب عدد منهم ما يسمّى " كتب العجائب " أكّدوا فيها خصوصا، على أشياء اســـتثنائية إلى حدٍّ ما و أهملوا وصف سير الحياة اليومية.[5]

و من المعلومات التي زوّدنا بها هؤلاء الكتاب ما ذَكَرَهُ صـــاحب كتـــاب الاســـتبصار (ق 6هـ/12 م) من أن كلاماً كان يُتداول بين الناس، مفاده: أنّه ما اجتمع في مـــائدة رجـــل ثلاثة أشياء متضادّة المواضع إلاّ في مائدة من يسكن قابس، و من بينها الحوت الطري[6]، و قـــد شُيّد في عـــــهد الوزان حصن المحرس بمدخل خليج قابس لحماية المدينة من هجمات السفن

1- الإحاشة أو الحوش هي الالتفاف حول الصيد لدفعه إلى مكان صيده (المنهل، ص 107).

2- A. Borrel : op.cit., p.25

3- Ibid, p.26 ،

4- أنظر ما بعد، ص 14 .

5- la pêche sur les côtes barbaresques au moyen Age, p.6 ،

6- مؤلف مجهول:المصدر السابق،ص 3؛ أمّا الشيآن الآخران فهما: لحم الغزال الطريّ و الرّطب الجنيّ؛ أنظـــر الخريطـــة رقم 11.

المعادية، و هو على بعد خمسين ميلا، تقريبا من جزيرة جربة التي يعمل الكثير من سكانها في السفن و الصيد البحري[1] و هذا ما ينفي، دون أيّ شك، تلك الملاحظة التي سجّلها Vonderheyden و مفادها أنّه " لم يجد أيّة إشارة خاصة ببحر بوقرارة (Bou- grara)، قرب جزيرة جربة و هي كثيفة بالأسماك و مستغلّة بكثرة في وقتنا".[2]

و قد كان أهل صفاقس يصطادون، حسب ابن حوقل (ق.4 هـ/10 م)، الأسماك بكثرة[3]، و يفيد الادريسي (ق.6هـ/12م) أنه كان يصاد من قصر قبوذية الذي كان يبعد عن المهدية بخمس و عشرين ميلا كل أنواع السمك النادر (كل طريفة)، و هو كثير و رخيص هناك[4]. كما أن رباط المنستير الواقع على نحر (ضفّة) البحر كان يأوي أُمّة (مجموعة) تعيش على صيد السمك، و كذلك الأمر بالنسبة لمجموعة كانت تعيش بقصر رباط شقانص، الواقع بين المنستير و المهدية.[5]

و تُشكّل المواقع المذكورة و المحصورة بين قابس و المهدية، سواحل تونس الشرقية، و هي منطقة غنيّة جدًّا بالأسماك، غَذّت دائما مجموعة هامة من الصيادين. و هناك، على الخصوص، بين الشاطئ و جزر قرقنة، أعماق كثيرة الارتفاع، مع مروج تحبحرية (sous- marines) ملائمة جدًّا للصيد.[6]

و قد أورد ابن حوقل، في حديثه عن تونس و سطفورة، أن بهما من الحيتان ما يزيد عن الكثرة، و هو حسب رأيه، أرخص و أوفر مِمّا في طرابلس[7]. مع العلم أنه عندما تحدّث عن طرابلس لم يشر إلى وجود أسماك بها.و كان بجبل أدار، الواقع جنوب تونس و الذي يظهر منه جبل صقلية، حسب البكري (ق.5هـ/ 11 م) قوم متعبدون، انعزلوا عن الدنيا، يعيشون من نبات الأرض و صيد الأسماك[8]، كما يتفق البكري مع القزويني على القول: إن بتونس أنواعاً

1- Description de L'Afrique, T.2, pp.399-400 .

2- op. Cit., p.18؛ أنظر الخريطة 11.

3- صورة الأرض، ص 71؛ الترجمة الفرنسية J.. Kramer et G. Wiet, p.70 ؛ أنظر الخريطة رقم 11.

4- المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق حققه و نقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق، النص العربي، ص 169-170؛ الترجمة الفرنسية، ص 154.

5- صورة الأرض، ص 73.

6- Vonderheyden : op.cit., p.18؛ أنظر الخريطة 11.

7- صورة الأرض، ص 84؛ الترجمة الفرنسية J. H. Kramer et G. Wiet, p.70 .

8- المغرب، ص 84؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de slane, p.170.

من الأسماك لا توجد بغيرها، و هي كثيرة، يظهر في كل شهر من الأشهر الميلادية نوع جديد منها ثمّ يختفي ليظهر في نفس الشهر من السنة الموالية.[1]

و يلحق ابن حوقل إقليم سطفورة المتكوّن، حسب رأيه، من ثلاث مدن هي: أنبلونة، الأقرب من تونس و متيجة ثم بترزت، بتونس، في مجال الأسماك، حيث أورد أن بهما (تونس و سطفورة) من الحيتان ما يزيد على الكثرة[2] مضيفا أن "واد عجيب يخرج فيه في كل شهر نوع من السمك، و إذا أهلّ الهلال لا تجد من ذلك النوع واحدة و يظهر غيره ".[3]

و تُجمع المصادر أيضا على وجود هذه الظاهرة في البحيرة المنسوبة إلى بترزت[4] و الواقعة إلى الشرق منها، و طولها ستة عشر ميلا و عرضها ثمانية أميال، فَمُها متصل بالبحر، و كلما أخذت في البرّ اتّسعت[5] و تصب في تلك البحيرة مياه البحر الكبير (الأبيض المتوسط) و يعيش فيها " في كل شهر من الشهور الأعجمية نوع من الحوت "[6] ثم يختفي ليظهر في السنة الموالية من نفس الشهر، فتُعَدّ أصناف هذا الحوت بعدد أشهر السّنة، أي اثنى عشر، لا يختلط بعضها بالبعض الآخر.[7]

فظاهرة اثني عشر نوعا، بمعدّل نوع واحد في كل شهر من أشهر السنة الميلادية تخصّ، إذاً، كلاًّ من تونس و بحيرة بترزت و وادي بترزت، و يَعتَبر Vonderheyden أن السمك كثير جدًّا و رخيص في المرسى (مكان قرطاجة) و تونس و بترزت أي بمنطقة البحيرات الأجاجة.[8]

1–البكري: المصدر السابق، ص 41؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.89 ؛ آثار البلاد، طـ. بيروت، ص 173–174؛ أنظر الخريطة 12.

2– صورة الأرض، ص 84؛ الترجمة الفرنسية op.cit., p.70؛ و يلاحظ أنه لا يبدو من مدن صطفورة التي ذكرها ابن حوقل سوى بترزت (أنظر الخريطة رقم 12) كما أن غير ابن حوقل لا يشير إلى المدينتين الأخريتين أنبونة و متيجة.

3– نفس المصدر، ص 74.

4–يكتبها المراكشي " بني زرت " (المعجب، ص 352؛ الترجمة الفرنسية op.cit., p.229)؛ أنظر الخريطة رقم 12.

5–الإدريسي المغرب العربي، ص 151؛ الترجمة الفرنسية محمد حاج صادق، ص 139؛ مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 15؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan, p.26 .

6–كتاب الاستبصار، ص 15؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.26.

7–قارن . البكري: المُغرب، ص 58؛ الترجمة الفرنسية op.cit, p.122؛ الإدريسي المصدر السابق، 151؛ الترجمة الفرنسية op.cit., p.139؛ الزهري: كتاب الجغرافيا، ص 108؛ كتاب الاستبصار، ص 15؛ الترجمة الفرنسية op. Cit., p.26.

8– op. Cit., p.18 .

و من الأسماك التي يظهر منها نوع معيّن في كلّ شهر: ما يسمَّى البقونس الذي يقال فيه مَثَلٌ: لولا البقونس لم يخالف أهل تونس[1] أو لولا البقونس ما تخالف أهل تونس[2]، مع العلـــم أن هذه التسمية لم تَعُد معروفة بتونس في أيامنا[3]؛ و من الأنواع التي كانت معروفة آنـــــذاك، و لم تعد كذلك اليوم، العبانق و الأكتيري الذي يحتمل أن يكون الشلبة، أي السمك الـــــذي يظهر في شهر أكتوبر بخليج تونس في وقتنا، و نوع الأشـــبارس (Sparus) و المنكـــوس[4] (ombrine).

و قد اكتفى البكري، كما يُلاحَظ، بذكر خمسة أصناف فقط من الإثني عشر المشـــار إليها، في حين أن ابن حوقل الذي تحدّث عن وادٍ عجيب في إقليم سطفورة، اقتصر على القـــول إنه: " يخرج فيه كلّ شهر نوع " من السمك، و إذَا أهلّ الهلال لا تجد من ذلك النوع واحـــدة و يظهر غيره "[5] و المقصود بهذا النهر " العجيب " هو، بدون شك، وادي تينجة الذي يربـــط بين بحيرتي بنزرت و إشكُل*.

و نلاحظ أغلب المصادر العربيّة أن الأصناف الاثني عشر التي يظهر منها كل صنـــف في شـــهر معـــين ببحـــيرة بنـــزرت لا يـــختلط بعضُـــها بـــالبعض الآخر.[6]

و قد انـــفرد الإدريسي بـــذكر هـــذه الأنـــواع كـــلّها: و هي: البوري

1- البكري: المصدر السابق، ص 41.

2- القزويني: المصدر السابق، ص 173-174.

3- أنظر Mac guckin de Slane: op.cit., p.89, note 2 .

4- البكري: المَغرب، ص 41؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.89 .

5- نفس المصدر، ص 74.

*- أنظر الخريطة رقم 2.

6- قارن .البكري: المُغرب، ص 58؛ الادريسي: المغرب العربي، ص 151؛ الزهري: كتاب الجغرافيا، ص 108؛ كتـــاب الاستبصار، ص 15.

(mulet capiton)[1]، و القاجوج* (grand sar ou sargue)و المَجلّ و هو نوع مـــن الروجـــي (rouget)[2] و يرجّح A. gateau أن يكون هو المجلّ المذكور بالمهدية[3]و على الرغم من أن هذه التسمية اقتصرت على منطقة المهدية فإن الملاحظ أن أغلب الصيادين، مع تمسكهم بالتسميات المحلية، يعرفون و يستعملون كذلك الأسماء المستعارة في الأماكن التي يتواجدون فيها مؤقتـــا[4]؛ و الطّلنط أي البونيت (bonite)[5] و الأشبلنيات و هي أبو شوكة (épinoche)، حسب مترجم الإدريسي محمد حاج صادق، غير أن A. gateau ينفي وجود هذا النـــوع في منـــاطق البحـــر الأبيض المتوسط، و يميل إلى تقريب هذه التسمية من " الشابل" (alose)، و يمكن أن تكـون، في نظره، تصغيرا للتسمية التي اقترحها هو غير أنه كُتِبَ بطريقة خاطئة، و من جهة أخرى فـــإن الشابل لا يُعرف حاليا في بترزت إلاّ تحت اسم الشبوقة šbûqa و الشبـــــــــوخة šbûha[6]؛

1- المغرب العربي، ص 151؛ الترجمة الفرنسية. نفس المرجع، ص 139؛ و تتضمن عائلة البوري؛ حســـب A. gateauأصنافا متعدّدة، تختلف تسمية كل واحد منها من منطقة إلى أخرى، و البوري هي تسمية منطقة الشمال، تونس – بنزرت، و من أنواعه: احميري hmiri و قيري (quiri) في المناطق الشمالية و مويله muela (في الجنوب) و مجـلّ في المهدية و يسمّى مولوس (mulus) عادة في البحر الأبيض المتوسط " الروجي " (le rouget) و يعرف لدى عـــرب تونس باسمه الإيطالي تريغلية (triglia) في حين أن هذا النوع يسمى في الشمال (مهدية- تونــــس- بـــنزرت) الميلـــو (mélu) جمع مالو màlu و تصغيره أمْليلو mlélu (أنظر A. gateau : les poissons du lac de Bizerte au VI^e XII^e siécle de l'époque actuelle ; Bulletin des études arabes, 2éme année, n 9, 1942, pp.99-100,) و المياج أو البوري (muge ou mulet) ينمو كثيرا و يعيش بكثرة في بحيرات بـــنزرت و إيشـــكُل Ichekeul أو بورتوفرينة (Porto- farina)، و منه البوري الشتوي: البيتوم و قميري (Bitoums et Kmiris) و البوري الخريفي (Argigiane) و البوري الصيفي، و الفصول المذكورة هنا هي فترات صيده، و هـــي تتفـــق مـــع الأوقات التي يدخل فيها كل نوع وادي تينجة للوصول إلى البحيرة أو البحر، لأن البوري يتسرأ (يبيــض) بـــالضرورة في البحر، و هذه عملية إجبارية لدرجة أن M. H. Held الذي درس سنة 1931 " المرض الغريب الذي كان يُهلك بوري بحيرة a Ichkeul اكتشف أنه ناتج عن استحالة ذهابه إلى البحر لكي يبيض، لأن مجرى وادي تينجة المتوحّل، لم يكـــن يضمن بـــما فيه الكفاية دخول المياه المالحة إلى البحيرة كي يهتدي بها إلى الطريق (A. Borrel : op.cit : p .24)؛ أنظر الصورة رقم 17.

*- أنظر، الصورة رقم 18.

2-المغرب العربي، ص 151؛ الترجمة الفرنسية . نفس المرجع، ص 139؛ أنظر الصورة رقم 16.

3- op.cit., p.100 .

4- Vonderheyden : op.cit., p.11 .

5- Id؛ أنظر الصورة رقم 19.

6- A. gateau : op.cit., p.100؛ أنظر الصورة رقم 20-21.

و الشّلبة[1] (Saupe)؛ و القَارُوص [2] (loup) و الـــلاّج (Alache)[3] أو (Sardinelle)[4]، و يحتمل أن يكون الأمر متعلقا بما يُسمّى اليوم بالعربيّة اللاّج، كما هو عند الإدريسي بـالضبط و المعروف بالفرنسية تحت اسم " maigre" ، و يبلغ طوله مترين و يدخل بحيرة بترزت ربيعـا، و لحمه مفضّل[5]؛ و الجُوجَة، و هي السمك الطائر (poisson volant)، بالنسبة لمحمـد حـاج صادق، مترجم الإدريسي[6] أو هي ما يسمى (raie) بالفرنسية[7]، و يقترح A. gateau تعويض الواو بالألف في هذه التسمية لتصبح ما يُعرف اليوم بالجاجـــة أو خُطايفـة أو ســردوك[8]؛ و الكحلا (Oblade)[9]، و هي تعرف بالكحلاية حاليا في شمال تونس[10]، و الطّنْفلُو الـــذي يقترح Vonderheyden تقريبه من سمك البَكَلُو (Bakàlou) أي النازلي (merluche)[11] و القِلاَ.[12]

1- و هي saupe بالفرنسية و Salpe بالإيطالية (A. gateau : op.cit., p.101)؛ و يبدو أن تسمية الشلبة مـن أصل قبطيّ (Vonderheyden : op.cit., p.11, note 4)؛ أنظرالصورة رقم 22.

2- في نص الإدريسي: القاروض (بالنقطة فوق الصاد)؛ و قد صححها A. gateau إلى قاروص، بناء على ما اطلـع عليه في مُعجم (glossaire) De goeje الذي أحـال هـذه التسـمية إلى قـاروص كمـا اسـتعملها القزويـني (A. gateau : op.cit., p.99)

3-الادريسي: المصدر السابق، ص 151؛ الترجمة الفرنسية op. Cit., p.139؛ أنظرالصورة 21.

4- Vonderheyden : op.cit., p.11؛ و يسمّى حاليا Allache بالفرنسـية، و allacia بالإيطاليـة و لاَتْشَـة (làca) بالعربية؛ و قد أطلق الإدريسي تسمية لاش laš على سمك بالنيل، مختلف جدًا، على ما يبـدو، عـن اللاّج (A. gateau : op.cit., p.101) ؛ و يبدو أن العَلاَش (Allache) و السردين و الأنشوفة (Anchois) من صنف واحد ينتمي إلى الأسماك المهاجرة، مثل التنّ، و لكن تحركاتها تكون على نطاق أقل بكثير من هذا الأخير، و هي تقتصـر على مجال البحر الأبيض المتوسط، و على تنقلات أفقية و عمودية، نحو الساحل و نحو السطح، وقت التكاثر، و يكـون صيدها موسمي، يمارسُ صيفا، و لا يبعد الصيادون عن الساحل (A. Borrel : op.cit, p.26)؛ أنظر صورة 21.

5- A. gateau : op.cit, p.101

6- الإدريسي: المصدر السابق، الترجمة الفرنسية، ص 139.

7- Vonderheyden : op.cit., p.11؛ أنظرالصورة رقم 24.

8- op. Cit., p.101

9- هي oblade، حسب محمد حاج صادق مترجم الإدريسي، ص 130؛ و يلاحظ Vonderheyden أن الكحـلاء تعني بالعربية (مكتوبة بطريقة أخرى) السوداء بمعنى نوع من Sar التي لها نقطة سوداء فوق الذيل (op.cit., p.11)

10- A. Gateau : op.cit., p.101

11- op. Cit., p.11

12- الادريسي: نفس المصدر، ص 151؛ الترجمة الفرنسية، نفس المرجع، ص 139.

و يعلّق A. gateau متسائلا فيما لو كان صحيحا من أن كل صنفٍ من أصناف الأسماك المذكورة يخلف آخر، في كل الجهات؟ مضيفا أن تأكيد الإدريسي على هذا الأمر، بالدّقة الرياضية التي تميّزه، تجعلنا نبتسم[1]، و قد سُجّلت تسميات مختلفة في نص أبي حميد الأندلسي[2]، و منها: الغَرُوض (Serre)؛ و العسلة أو بالأحرى الغَسْلة (pélamide)، و الملكة (raie)؛ و الاستنار و الطليطة التي يمكن تقريبها من الطلنط المذكور في كتاب الإدريسي.[3]

و يعتقد Vonderheyden أن أسماء كثيرة، في القوائم المذكورة، قد تعني نفس الأصناف، و الأمر يتعلق، بدون شك، حسب رأيه، بمصطلحات دارجة، و التي ترجمها منها، كما قال، مازالت متداولة، في الجزائر و تونس و أنّه من الممكن أن يكون أحد هذه الأسماء، على الأقل، أُطلق على ما يسمّى اليوم السّلبة (anguille) المعروفة جدًّا في بحيرة بنزرت *، و يُلاحظ أنه لم ير في هذه القوائم L'alose(الشابل)، و مما جاء في أحد نصوص الوزان (Léon L'Africaine) أنه " يصطاد، بعد شهر أكتوبر، من بحيرة بنزرت عددٌ فائق من سمك يسميه الأفارقة جيارافة (giarrafa)و يسميه الرومان laccia و يسمي عندنا (عند الايطاليّين) alouse، و بسبب الأمطار، يحلُو الماء الذي يُصعِد السمك في البحيرة القليلة العمق، و تمدّد عملية الصيد إلى بداية مايو، و عندها يبدأ هذا السمك في الهزال "، غير أن La giarrafa هي L'orate أي نوع من سمك المرجان (pageot).[4]

1- op. Cit., p.99

2- أنظر Abou. Hamid andalousi, àdja ib el- Makhloukat, dans extraits relatifs au Maghreb, traduits de L'arabe et annotés par E. Fagnan, Alger 1924, p.33 .

3- أنظر Vonderheyden : op.cit, p.p .11-12 .

* و السّلبة (anguille) من الأسماك التي تقوم بهجرات موسمية، من مياه البحيرات إلى مياه المحيط الأطلسي، وقت التسرئة، و هي تدخل، عند خروجها من بحيرة إشْكُلْ في مصائد وادي تينجة (A. Borrel op.cit., p.26) ؛ أنظر الصورة رقم 22.

4- op. Cit., p.12؛ و يتخذ A. Borrel من سمك المرجان، إلى جانب البوري نموذجين لأسماك السواحل المغربية المستقرّة، إذ يقوم كلاهما بهجرة مؤقتة لكنها منتظمة، تأخذهما، على التوالي، إلى البحيرات المالحة و البحر، و المرجان هو سمك ضخم، ذو جسم مكوّر (arrondi)، و رأس كبير، جانباه مذهبان و هو يعيش، تارة في البحر، و طورا في خلجان بنزرت، و بوتوفرينة (سيدي علي المكي) و تونس، و بعد ولادته في البحر، بالأعماق الكبيرة، حيث توجد مسارئة، ينمو هناك، و يكبر في الصيف أكثر من الشتاء، و لا يوفر له البحر، على العموم، غذاء كافيا، فيبقى نموّه بطيئا، فإذا عثر على مدخل بحيرة دخلها ثم استقرّ بها، واجدا فيها غذاءه المفضل من طحالب (Crabe) و مَعَدِّيات الأرجل و غيرها و لا تخرج الذكور منها في السنة الثانيةوالإناث في الثالثة إلاّ للتّسرئة التي تتمّ في البحر (A. Borrel : op.cit., pp.23-24)؛أنظر الصورة رقم 18.

و مما انتهى إليه Vonderheyden أنه: إذا كان لا بدّ من ذكر صنف غالب، من الأسماك، في كل شهر من أشهر السنة، في بحيرة بنـــزرت، فذلك يكون، حسب الملاحظات الحديثـــة، تقريبا، كالتالي: القاروص في يناير، و الشفس (ombrine) في فبراير، و الجوجـــة (raie) في مارس، و الغُبَر* (merlan) في إبريل، و اللاّج (allache) في مايو، و سمك موسى (Saule)** في يونيو، و الطلنط (bonite)في يوليو،و البوري (mulet d'été) في أغسطس،وأحميري (mulet doré) في سبتمبر، و سمك المرجان (daurade- pageot)في أكتوبر- نوفمبر، و السّـــلبة (anguille) في ديسمبر، غير أن أوقات مرور كل نوع على البحيرة يمتدّ كثيرا إلى الشهور المـــجاورة.[1]

و قد كانت مصيدة، بنـــزرت تشتغل في عهد الاستعمار الفرنســـي، طيلـــة الســـنة، و تصادفيها، على التوالي، مختلف أنواع الأسماك، وقت هجرتها: ففي شهري أكتوبر - نوفمـــبر يكون صيد سمك المرجان الذي يتراوح وزن السمكة الواحدة منه ما بين كيلوغرامين و خمســـة كيلوغرام؛ و في ديسمبر - يناير ينتظر الصيادون مرور القـــاروص (des loups) ثم البـــوري الشتوي (mulet d'hiver) ؛ و من فبراير إلى إبريل يصطادون البيتوم و قمـــيري(Bitoumes et Kmiris)،و تنخفظ كمية الأسماك المصطادة في فصل الربيع ليسترجع الصيد أهميتـــه في فصـــل الصيف مع بوري الصيف أو البوري و الصار Sars، ثم تُستأنف العملية من جديد.[2]

و مع أن المصادر العربية، كانت قد ركّزت، في ذكرها، لأنواع السمك، على بحـــيرة بترزت، لكنها لم تُقصّر، من حين لآخر، في ذكر بعض الأنواع التي اشتهرت بها مناطق أخرى، و من ذلك ما أشار إليه كل من البكري و صاحب كتاب الاستبصار عن بوري بحيرة باجـــة الذي لا يوجد مثله في مكان آخر، حيث يمكن إخراج عشرة أرطالِ شحمٍ و أكثر من حـــوت واحد منه، إذا كان كبيرا (من جلتها)[3]و يذكر ابن أبي زرع الفاسي البـــوري، إلى جـــانب الشابل من الأنواع التي كان أهل فاس يصطادون منها أحمالا كثيرة، من نهر سبو المار شـــرق مدينتـــــهم، فتـــــصلها طريـّـة لم تتغير[4] كما أن سمك بحيرة درنة، الواقعة قرب مدينة

*- جنْس من الأسماك المفترسة، من فصيلة الغادسيات (المنهل، ص 661)؛ أنظر خريطة رقم 25.

**- أنظرالصورة رقم 26.

1- Vonderheyden : op.cit., p.12 ·

2- A. Borrel : op.cit., p.35 .

3- المُغرب، ص 55؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane op.cit., p.121؛ مؤلف مجهول: ص 17.

4- المصدر السابق، ص 17-18.

طبرقة[1] كان يعتبر من بين أربعة أشياء، طالما جعلت ولاة باجة يبذلون كل المساعي للبقـــاء في مناصبهم[2]، من أجلها.

و مما أفادنا به ابن حوقل أنه لم ير ببلد ما مثل صيود أسماك مرسى الخرز سمنا مضيفا أنه " ربما منع جانبه من أكل ما يصاد بها و سيما وقت الغلات "[3] و هي عبارة غـــير مفهومـــة ترجمها كل من J. H. Kremer و G. Wiet بـ«Ils sont tellement corias qu'on peut à peine les manger» أي أنها صلبة الجلد لدرجة أن أكلها يكون صعبا.[4]

و ينفرد الإصطخري بالقول: إن بمدينة طبرقة، في البحر، معدنا للمرجان، لا يعـــرف غيره في الأرض[5] غير أن بقية المصادر تتفق على أن أهم مكان لاستخراج المرجان ببلاد المغرب هو مدينة مرسى الخرز (القالة) و يطلق ابن حوقل هذه التسمية على ميناء (مرسى) و على قرية يعتبرها نبيلة لما بها من المرجان، و توافد التجار عليها من أجله، و يحدد موقعها بنحو مرحلة من قرية طبرقة، غربا، على ساحل البحر، بطبيعة الحال، و يؤكد أنه لا يعرف لمرجان مرسى الخرز نظير في الجودة ببحار الأرض[6] و هو يلتقي في حكمه هذا مع صاحب كتـــاب الاســـتبصار، الذي يعتبره " أنفس مرجان الدنيا "[7] و هذا القول ينطبق، و لا شك، على المرجـــان الأحمـــر الذي يُتفاعل به، و يصدر إلى بلدان المحيط الهندي التي لا يـــوجد بها ســـوى المرجـــان

1- كتبت طرفة في كتاب الاستبصار، ص 16، غير أن E. Fagnan صححها أ اعتمادا على المخطوط " A" الـــذي اعتمد عليه، إلى جانب طـ Kremer، في ترجمة الكتاب إلى الفرنسية (أنظـــر L'Afrique septentionale, p.29) ؛ و محيط هذه البحيرة نحو أربعين ميلا، تصب في البحر، و يصب البحر فيها، و ماؤها ما بين الملوحة و الحـــلاوة و تعيش فيها أنواع كثيرة من الحوت (كتاب الاستبصار، ص 17؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.29).

2- بقية هذه الأشياء هي: قمح عنده، و سفرجل زانة و عنب بلطة (المغرب، ص 55؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op. Cit., p.121؛ كتاب الاستبصار، ص 17؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.29) .

3- صورة الأرض، ص 75.

4- Ibn Hawkal: configuration de la Terre, Beyrouth- paris 1964, p.71 .

5- كتاب المسالك و الممالك، ص 38.

6- صورة الأرض، ص 75؛ الترجمة الفرنسية op.cit., p.71؛ مع العلم أن مترجمي ابن حوقل أخطأ في ترجمة عبـــارة " و مرسى الخرز أيضا قرية " إلى Marsa L'Kharez est sans doute un village مرسى الخرز هي " بدون شـك " قرية.

7- مؤلف مجهول، ص 17؛ الترجمة الفرنسية E. . Fagnan : op.cit., p.29 .

الأبيض[1]، و المرجان الأحمر خاص بالبحر الأبيض المتوسط، يصطاد في مرسى الخرز، و يصدر بكميات كبيرة إلى الخليج العربي (golfe persique) و الهند، حيث تصنع منه الحلي المطلوبة بكثرة، و هو من أهم المواد التي كان اليهود يصدرونها، من الفسطاط إلى الهند.[2]

و يعتبر المقدسي مرسى الخرز مدينة في جزيرة على البحر، يدخل إليها من موضع واحد، من طريق ضيق، كما يدخل إلى المهدية[3]، مضيفا أن قرنا (banc)، هو المرجان، يرتفع في بحرها، و هي عبارة عن جبال في البحر، لا يوجد المرجان إلا بها[4] غير أن مصادر كثيرة تخالفه في هذا الأمر؛ و من ذلك أن أبا الفداء يشير إلى وجود " مغاص من المرجان " بمدينة بونة (عنابة) يختلف عن مرجان مرسى الخرز[5] غير أنه لم يوضح نوع هذا الاختلاف؛ و يتحدث ابن حوقل عن وجود المرجان بمدينة تنس [6] و بمدينة سبتة، حيث يصفه بقلة الجوهر و حقارة المقدار، بالمقارنة مع ما يُستخرج من مرسى الخرز[7]، و هو يختلف في هذا الموضوع مع صاحب كتاب الاستبصار، في حديثه عما في بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) بساحل قرية بليونش، من قرى سبتة، حيث شبهه في الطيب (الجودة) بما في مرسى الخرز و أجل (أكثر)[8] و يتجاوز الادريسي هذه المقارنة فيذهب إلى القول: إن ما يصاد بمدينة سبتة من المرجان، لا يعد له غيره من الأصناف المستخرجة من جميع البحار[9].

و يتحدث صاحب كتاب الاستبصار، عن وجود المرجان في بعض جزر البحر الأخضر (المحيط الأطلسي) دون أي تحديد كما ينقل Vondeheyden نفس الخبر عن أبي حميد الأندلسي،

1- M. Lombard : l'islàm dans sa premiére grandeur, p.70 ·

2- Ibid, p.189·

3- Al- Muqaddasî : op. Cit. p.18 et 48 ; trad., p.19et 50 ·

4- Ibid, p.18 et 48 ; trad. P.19 et 50 ·

5- المصدر السابق، ص 141.

6- صورة الأرض، ص 75؛ الترجمة الفرنسية J. H. Kramet et G. Wiet : op.cit., p.71. ·

7- نفسه؛ الترجمة الفرنسية، Id. ·

8- مؤلف مجهول، ص 17؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.29 ·

9- المغرب العربي، ص 183؛ الترجمة الفرنسية، ص 165.

10- op. Cit., p.32.

و ينقل عن Féraud (Histoire de Bougie, p.4) وجود بعض القرون (bancs) من المرجـــان في خليج بجاية و خاصة على مستوى زيامة، و كان صيدها، ذات يوم، امتيازا للكطلانيين.[1]

و يتفق المقدسي مع ابن حوقل في اعتبار المرجان معدنا[2]، و هو حسب ابن حوقـــل، ينبت في الماء كالشجر ثم يستحجر فيه بين جبلين عظيمين[3] و " لا إشراق لـــه قبـل جليـه (polissage) و لا لون "[4]، و يورد صاحب كتاب الاستبصار ما يقال من أنه: " إذا كـــان في قعر البحر إنما هو رطب لين، فإذا مسه الهواء اشتد (se durcit)"[5]، و بالنسبة لابن سـعيدالمغربي فإن المرجان الذي يكون شجرا مستحجرا في البحر، يخرج لينا، أبيض اللون، فـــإذا تعـرض للهواء احمر و صلب[6]، و قد سجل القزويني ما حكاه له شاهد عن كون المرجان يخرج جسما أغبر اللون فيحك قشره حتى يصير أحمر حسنا.[7]

و للدمشقي (من علماء القرن الرابع عشرالميلادي(8 هـــ) تفسير آخر للمرجان، فـــهو بالنسبة إليه يتكون بتسرب ماء المطر في تجاويف الشاطيء و غوصه تحت الماء المر الذي يغطـــي الشاطيء، و بعد بقائه مدة طويلة يتمكن من تذويب التربة فتكون الجزء المعدني من المرجـــــان و تعطيه قوة خفية (Vertu) من صلابة قادرة على التغلب على طبيعة الماء بالإضافة إلى أن المـــاء ماثل s'est assimilé هذه القوة، و دخلت جزيئاته، دافعة بعضها البعض، في الأرض ثم ارتفعت من عمق البحر ممتدة و متفرعة، و هكذا تصير نباتية، إن كانت شجرة و معدنية، إن كـــانت حجرا.[8]

و المرجان (Corallium rubrum) ينتمي، حسب A. Borrel إلى عائلة حيوانات المجوفات

1- Vonderheyden : op.cit., p.32.

2- Al- Muqaddasi : op.cit, p.18 ; trad. Fr., p.19.

3- صورة الأرض، ص 75؛ الترجمة الفرنسية J. H. Kramer et G. Wiet : op.cit., p.71.

4- Al- Muqaddasi : op.cit. p.49, trad. Fr., p.50.

5- مؤلف مجهول، ص 17؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.29.

6- كتاب الجغرافيا، ص 143.

7- آثار البلاد، ص 261.

8- ذكرهذا النص Vonderheyden نقلا عن Carra de Veaux في كتابه Les penseurs de L'islam, II, p.327 (أنظر Vonderheyden : op.cit., p.29).

*- مفردها مديخ و هو جنس حيوانات بحرية من المجوفات (المنهل، ص 795).

9- op. Cit., pp.26-27.

لكن شكله المتشجر يدفع إلى التفكير في النبات أكثر منه في الحيوان، و يحيط بهيكله الكلسي المتفرع جلدٌ أحمر لحميّ (charnue) تخرج منه مديخات * (polypes) من قرن (banc) جميل له أزهار كوكبية الشكل، و هو متوفر بكثرة في السواحل الجزائرية التونسية، على أرصفة السواحل الصخرية.(1)

و يعرف البكري مدينة بونة (عنابة)، على أنها مدينة " برية- بحرية، كثيرة... الحوت "(2) متفقا مع صاحب كتاب الاستبصار على أن البحيرة الواقعة على مسافة يوم، إلى الغرب منها، غنية بالأسماك الجليلة(3) (الكبيرة) و يقدر الأول طول تلك البحيرة و عرضها بثلاثة أميال في مثلها(4) في حين يقدر الثاني محيطها بعشرة أميال.(5)

و يلاحظ أن المصادر المعتمدة في دراسة موضوع الأسماك لا تشير أبدا، في الفترة المخصصة لهذه الدراسة، إلى ما ذكره Vonderheyden من أن " العرب أطلقوا على الرأسين (Caps) اللذين يحدان مدينة سكيكدة إسمي رأس بسكاد (La pointe de la pescade) و رأس الأسماك، مما يدل، حسب رأيه، على توفر الصيد هناك "(6) مع العلم أنه لم يوثق كلامه هذا.

و يتحدث الإدريسي عن توفر حوت كثير العدد، كبير الحجم لذيذ الطعم بجيجل(7) كما يفيد الوزان بأن الأسماك كانت متوفرة أيضا بوادي الصومام (الوادي الكبير) النابع من الجبال المحادية لمقاطعة الزاب و الذي يصب على ثلاثة أميال (5 كلم)، تقريبا من مدينة بجاية، غير أن الصيادين لم يكونوا يصطادونها لقرب البحر منهم(8)، مما يدل و لا شك، على توفر الأسماك بسواحل بجاية، و على ممارسة مهنة الصيد بها و لكن بطريقة لا تلفت النظر، و هذا ما يفسر سكوت المصادر السابقة للوزان عن الكلام في هذا الموضوع. و يخبرنا المصدر الأخير أن سكان مدينة تادلس (دلس) كانوا كلهم يصطادون بالشباك حوتا كثيرا، لا يباع

*- مفردها مديخ، و هو جنس من الحيوانات البحرية، من المجوفات (المنهل، ص 795).

1- A.Borrel : op.cit., pp.26-27.

2- المغرب، ص 55.

3- نفس المصدر، ص 58؛ مؤلف كمجهول، ص 18.

4- نفسه.

5- مؤلف مجهول: ص 18.

6- op.cit., p.18

7- المغرب العربي، ص 125؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 117.

8- Description de l'Afrique, T.2, p.548.

و لا يشترى، بل كان يعطى لمن يرغب فيه [1]، و يعتبر Vonderheyden ساحل جيجل و القل و بجاية مسمكا جدا[2]، لكن ما قاله الرحالة العبدري، في القرن الثالث عشر ميلادي (7هـ) و هو يصف مدينة الجزائر على أنها " تستوقف بحسنها ناظر الناظر و يقف على جمالها خاطر الخاطر، قد حازت مزيتي البر و البحر. و فضيلتي السهل و الوعر. و لها منظر معجب أنيق و سور معجز وثيق. و أبواب محكمة العمل يسرح الطرف فيها حتى يمل و لكنها قد أقفرت من المعنى المطلوب كما أقفر من أهله ملحوب..."[3] لا تبدو له أية صلة بما فسره به Vonderheyden من أن مدينة الجزائر لها ميزات عديدة و خصوصا موارد خليجها، بثروتها السميكة.[4]

و توجد في جون (خليج) هور الذي يبتديء، ثمانية عشر ميلا، غرب مدينة جزائر بني مزغنة و ينتهي باثني عشر ميلا شرق شرشال، قرية صغيرة، وسطه، تبعد قليلا عن البحر، سكانها، حسب الادريسي، صيادون للحوت، غير أن مياهه مليئة بأقصار (صخور) لا يمكن لمن يسقط فيها أن يتخلص.[5]

أما الساحل الممتد ما بين شرشال و منطقة الريف، غربا، فهو كما يلاحظ Vonderheyden قليل الذكر في المصادر المستخدمة في هذا البحث، إما لقلة الملاجيء أو الأسماك، و إما لأن السكان، الأقل استقرارا، كانوا ينفرون من هذه المهنة، غير أن صيد الأسماك، في التعرجات الريفية يبدو أن ممارسته كانت في كل زمان.[6]

و في عهد الوزان، كان سكان مدينة باديس يعتمدون، في عيشهم، بالدرجة الأولى، على السردين و أسماك أخرى، لأن الصيادين كانوا يصطادونها بكثرة.

و كانت مدينة يلش الصغيرة، الواقعة غرب باديس، بحوالي أربعة أميال، خالية من سكانها، أيام المؤلف الأخير، بسبب هجمات القراصنة الإسبان عليها، و لم يبق بها آنذاك سوى

1- Description de l'Afrique, T.2, p.352.

2- op.cit., p.18.

3- الرحلة المغربية، ص 23.

4- Vonderheyden : op.cit., p.18.

5- المغرب العربي، ص 130؛ الترجمة الفرنسيةن لمحمد حاج صادق، ص 122.

6- Op.cit., p.19.

7- Description de l'Afrique, T.1. p.275.

عدد من أكواخ الصيادين الذين كانوا في حالة نفور دائم، و كانوا بمجرد ما يشاهدون سفينة حربية يلجأون إلى الجبال للاستعانة بسكانها في الدفاع عن أنفسهم.[1]

أما مدينة ترغة الواقعة على بعد خمسين ميلا (80 كلم) شرق مضيق جبل طارق، فقد كان سكانها، في نفس الفترة، صيادين تعودوا على تمليح السمك المصطاد و بيعه، ثم بدأ حالها يتدهور، بعد أن احتلها البرتغاليون سنة 1502 م[2].

و مما أورده البكري أن فتى موسى (عم) نسي الحوت بموضع ماء الحياة القريب من مرسى بليونش، و يوجد في ذلك المكان خاصة دون غيره حوت ينسب إلى موسى، عرضه مقدار ثلثي شبر، و طوله أكثر من شبر، لحمه في أحد جانبيه و الجانب الآخر لا لحم فيه، إنما جلدته على الشوك و لحمه طيب نافع من الحصاة، مقو للباه[3] أي الجماع، و يتبرك به الناس و يهدونه للمحتشمين[4]، و لا يعرف حسب Vonderheyden لماذا أعطي موسى إسمه إلى la sole، كما سجل هذا الأخير ما ذهب إليه M. Brunot من أن تسمية حوت موسى تطلق عادة على كل المفلطحات (pleuronectidés)[5].

و في حديث الإدريسي عن مصائد مدينة سبتة، ذهب إلى القول إنه: " لا يعد لها بلد في إصابة الحوت و جلبه، و يصاد بها من السمك، نحو مائة نوع، و يصاد بها السمك المسمى التن، و بها كثير منه "[6] مع العلم أن المصادر المستخدمة في هذا البحث لم تشر إلى ما ذكره Vonderheyden من أن النصوص القديمة أعلنت عن وجود التن بمنطقة بجاية إضافة إلى سبتة، غير أن استنتاجه ألقاضي أنه ما دام اصطياد التن كان مزدهرا في التاريخ القديم، و لا يزال يمارس في التاريخ الحديث، بوسائل قديمة جدا، ينبغي الاستنباط أنه لم ينقطع أبدا من سواحل تونس الشمالية رغم سكوت المصادر عن ذلك[7]، و ما ينطبق على سواحل تونس ينطبق،

1- Léon l'Africain : op.cit., T.1, 276 .

2- Ibid, p.274 et notes 534 Sqq .

3- المغرب، ص 106؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit., pp.208-209؛ قارن. القزويني: المصدر السابق، ص 201؛ أنظر الصورة رقم 26.

4- القزويني: آثار البلاد، ص 201.

5- Vonderheyden : op.cit., p.14 et 15, note 1 ؛ أنظر الصورة رقم 26.

6- المغرب العربي، ص 182؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 165.

7- Vonderheyden : op.cit., p.13 .

بدون شك، على سواحل الجزائر و من بينها ساحل بجاية.

و يكون مصدر هذا التن، حسب ابن سعيد المغربي جون (خليج) التن الواقع في الجــزء الأول من الاقليم الثاني، على ثلاث درجات من حدود الاقليم الثاني، و عرضـــه أكـــثر مـــن درجتين، و يسمى أيضا الخليج الأخضر لقلة عمقه (لأن فيه أقاصير hauts fonds) و ما فيه مــن الحشيش الأخضر[1]، و تمتد حدود هذا الجزء، في رأي J.M. Cuoq، من المحيط الأطلســـي إلى حدود تانزروفت (Tanezrouft) الغربية طولا و مدينة أزوكـــي Azuki (Azoggi)، قـــرب أطرار، بشمال الساقية الحمراء (نول لمطة) عرضا.[2]

و يشير Ch. De la ronciére إلى مارواه ابن سعيد المغربي عن ابن فاطمة الذي ركـــب البحر المحيط، ذات يوم في نول لمطة، جنوب المغرب الأقصى، " فوقع إلى ضبـــاب و أقاصـــير (hauts fonds= bas fonds) و ضل البحريون و لم يعلموا حيث هم، حتى تركوا المركب الكبـير و أخذوا زادا في القارب الصغير و صاروا يجرّونه على الحشيش طـــورًاو طـــورا ينـــهضون بالمجاذيف إلى أن انتهوا، بعد مدة، إلى قاع هذا الجون (الخليج)، و عاينوا من التن فيه، و مـــن كثرته، ما تعجبوا منه، و كذلك من الطيور البيض... فلما انتهوا إلى تحت الجبل اللماع، أشـــار عليهم برابرة كدالة، ألا يقربوا الجبل، فأخذوا عنه شمالا حتى خرجوا عن حده... و سألهم أهـــل المركب عن تحذيرهم أياهم، عن الجبل اللماع، فقالوا كله حيّات مُهلِكة قتّالة... و ساروا معهم إلى مدينة تغيرا، قاعدة كداله "[3] و لا يعرف لماذا أطلق de la Ronciére تسمية Tidjikdja على ما أسماه ابن سعيد تغيرا و يعتبر نفس المؤلف الجبل اللماع هو الرأس الأبيـــض الـــذي يحمـــي (abrite) خليج السلوقي (baie du lévrier)، و هو الجون (الخليج) الذي كان فيه سرب الـــتن، و الطيور البيض ما هي إلا البلشونات (hérons)[4]، و جون (خليج) التن، حسب ابن ســـعيد، هو الذي يقال له الجون الأخضر، لأن فيه أقاصير (bas fond ? = hauts fonds) و حشيشـــا أخضر كثيرا،و فيه سرب التن ، و يدخل مرة واحدة في بحر الرومان (الأبيض المتـــــــوسط)،

1- كتاب الجغرافيا، ص 111؛ الترجمة الفرنسية J.M . Cuoq dans receuil des sources arabes, p.212 .

2- Ibid, pp.211-212, note 3 .

3- أنظر ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 111-112؛ و يحدد ابن سعيد موقع تغير حيث الطول 011 و العـــرض 020 .

4- op.cit., pp.48-49 .

و يعتقد الناس أنه يحج إلى حجر معين في جزائر البحر ثم يعود من حيث أتى [1] .

و يرى R. Mauny أن التن الذي ذكره ابن فاطمة، أثناء رحلته في القرن الثالث عشـــر الميلادي (7 هـــ)، يكون محل صيد خاص، في مكانين فقط، من الساحل الصحــراوي، همــا: مصب الساقية الحمراء، و في ناحية رأس بوجادرو (Cap Bojador)الواقع إلى الجنوب منه، علــى الخصوص.[2]

و بالنسبة للزهري فإن حوت التن يتكون في بلاد النوبة التي تكون في الصقــع (zone) الأول من الجزء (Section)السابع* حيث ينقطع البحر و يصير خلجانا كثيرة، بسبب ارتفـــاع الأرض، في حين تَحدُث ظاهرة تفرع المحيط إلى خلجان، حسب ابن زنبل، في بلاد الســـودان و بها يتكون سمك التن، و يتفق المصدران الأخيران، على أنه يتجه من مكـــان تكونـــه نحـــو الأندلس و جزيرة إقريطش (كريت)، قاطعا البحر من الجنوب إلى الشمال حتى يصل إلى الخليج المسمى بالزقاق (مضيق جبل طارق) ثم يقطع البحر الأبيض المتوسط، طولا حـــتى ينتـــهي إلى جزيرة كريت، حيث يتوقف، و هو سريع جدا، إذ يقطع أربع مائة و ألف (1400) فرســـخا (parasanges)، من نقطة انطلاقه إلى نقطة وصوله، في يوم و ليلة (أربع و عشرون ســـاعة)؛ و لا يخرج للهجرة إلا في أول يوم من شهر مايو، و قد يصل جزيرة كريت في اليوم الثاني منه، و تدوم هجرته شهرا، ثم يعود من حيث أتى، في أول يونيو.[3]

و يتميز التن، حسب الملاحظات الحديثة، بجسم ضخم، أزرق صلب، يبلغ بضواحـــي الشواطيء التونسية حجما هائلا، حيث يبلغ طوله ما بين متر واحد و ثلاثة أمتار، و وزنه مـــا بين 70 و 300 كيلوغراما و أكثر، و هو يقترب من الساحل ليدخل في منطقة الصيد، في نهايـــة مايو، و عندها يُشرع في صيده، غير أن مشكل أجناسه و أصله و مكـــان قدومـــه، مـــا زال مطروحا بكامله، و هو يعيش عادة في الأعماق الكبيرة، بعيدا عن السواحل فلا يقترب منها إلا في هذا الموسم.

1- كتاب الجغرافيا، ص 111؛ عن سمك التن، أنظر الصورة رقم 19.

2- les navigations médiévales, p.89 ؛

*- يشمل هذا الجزء بلاد السودان و أرض الحبشة و الزنج و النوبة (كتاب الجغرافيا)، ص 119؛ الترجمة الفرنســية في J.M . Cuoq : op.cit, pp.115-116.

3- Ibn Zenbel: Tohfat el Molouk, extraits relatifs au Maghreb, traduits de L'arabe et annotés par E. Fagnan, Alger 1924, pp.187-188.

الأسماك بسواحل المحيط الأطلسي، حسب المصادر العربية:

يشير صاحب كتاب الاستبصار إلى بحيرة كبيرة تسمى أمسنا، قرب مدينة تشـــومّس، يصب البحر فيها سبعة أعوام، و تصبّ هي فيه سبعة أعوام، و ينقطع عنها فتظهر بها جزائـــر، بينها غدران يصطاد فيها نوع من الأسماك[1] .

و فيما يخصّ سواحل المحيط الأطلسي يُسجّل Vonderheyden ما جاء في قول الجغـــرافي ابن خُرداذبة، في القرن التاسع الميلادي، من أن البحارة لم يستغلوا المحيط الغــــربي[2]، دون أي تعليق، و قصده من هذا التسجيل، و لا شك، هو محاولة إثبات أن شواطيء المحيط الأطلســي لم تكن مستغلة آنذاك من قبل الصيادين، و هذا غير صحيـــح لأن الادريســـي يتحـــدث عـــن " صيود... بحر " في مدينة قصر عبد الكريم، الواقعة على نهر ألكس (لكّوس) (Luccus) غـــرب مدينة مكناسة بثلاث مراحل[3] كما أن الحسن الوزان يذكر بالقرب من مدينة العرائش، الواقعة على المحيط الأطلسي، عند مصب نهر (Loukkos)لُكّوس أو لُكُس، وجود برَك تصطاد بها أعـداد كبيرة من سمك السّلّور أو الانقليس أو الشلبة (anguilles)[4]، و يشير نفس المؤلف إلى وجـــــود نفس النوع من السمك إضافة إلى البُرعان الأحمر (rotengles)و الزنجور (brochet)و غيرها، ممـا لم ير مثلها بإيطاليا، و هي لذيذة جداً و مع ذلك فلا يصطادها أحدفي بحيرة دائمة جميلة تســـمى وارار، بالقرب من الجبل الأخضر، الممتدّ غرب وادي أم الربيع إلى تلال هسارة (Hasara).

و عندما خرج سلطان فاس، أبو عبد الله محمد البُردُ قالي (el- Bordougali) إلى دُكاله في يونيو 1515، أقام بالقرب من تلك البحيرة، ثمانية أيام، و كلّف البعض بالاصطياد فيها[5] كمـــا كانت السّلبة تصطاد، إلى جانب البيوضة (loche) و الشابل (Alose) في المستنقعـــــــات

1- مؤلف مجهول: ص 26؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.52 .

2- op.cit., p.19 .

3- المغرب العربي، ص 98؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 90.

4- Description de l'Afrique, T. 1., pp.251-252؛ أنظر الصورة رقم 22.

5- Ibid., p.128 ؛ و قد اختفت تلك البحيرة، فيما بعد، بسبب تعرّض ناحيتها للتعرية الكاملة، و ما زال اســم وارار يطلق على عين تقع غرب الجبل الأخضر بحوالي 30 كلم (A. Epaulard : Description de l'Afrique, T.1, p.128 note 317) .

و البحيرات التي احدثها وادي بهت Beht بسهل أزقار (Azgar)، و هي مدهشة عموما، مـــن حيث كبرها و كثرة شحمها.[1]

و كان يظهر بسواحل المحيط الأطلسي، أحيانا، سمك العنبرة، و هو سمك يصفه الـوزان بأنه مرعب في شكله و ضخامته، و لا يرى إلا ميتا، عندما يقذف به البحر إلى الشاطيء، رأسه يابس جدا، و كأنه صخرة، طول بعضه خمسة و عشرون ذراعا (16.75 م)، و البعض الآخـــر أكثر من ذلك، و يقول سكان تلك النواحي بأنه هو الذي يفرز العنبر لكنهم يختلفون فيمـــا إذا كان ذلك برازه أم سائله المنوي.[2]

و قد ثبت فيما بعد، أن العنبر عبارة عن إفرازات معوية لسمك العنبرة، و يوجد منــــه نوع جيد على ساحل المحيط الأطلسي[3]، كان يباع بأسعار بخسة، في عهد الوزان، إلى التجـــار البرتغاليين، و تجارفاس، الأوقية الواحدة بدوكا (ducat) واحد.[4]

و يلاحظ Vonderheyden أن أوصاف الوزان للعنبرة (Cachalot)التي يسند لها، بغــــير وضوح، أصل العنبر، تنطبق على الحوت (baleine)[5] ثم يضيف (دون أي توثيـــق) أن مُعْتَقَـــدا عربيا آخر يقضي بأن العنبر يخرج من عيون في أعماق البحر[6]، و يحدث كثيرا أن يلقي المحيط، عندما يكون مضطربا، عددا من الحوت الميت على شاطيء مدينة ماسة، الواقعة عند الحد الذي تبدأ فيه جبال الأطلس، قرب وادي ماسة.[7]

و يوجد على ذلك الشاطيء، خارج مدينة ماسة مسجد يحظى بتقدير و إجلال الناس، يسمى مسجد بهلول، أشار إليه اليعقوبي، في نهاية القرن التاسع الميلادي(3هـــ)، كانت أعمدته

1- Description de l'Afrique, T.2., p.544؛ أنظر صورة رقم 21.

2- Ibid, pp.564-565 ·

3- Id, note 117 ·

4- Ibid, p.89 ·

5- Vonderheyden : op.cit, p.16 ·

6- Id ·

7- كانت مدينة ماسة تتكون من ثلاث تجمعـــــات ســـكانية، يبعـــد بعضـــها مـــن بعـــض بحـــوالي ميـــل واحـــد (Description de l'Afrique, T.1, p.87)؛ و يذكر الوزان أن وادي سوس الكبير يمر بين مدن ماســـة الثـــلاث (Ibid, p.88) غير أن A. Epaulard يصحــــح الخطـــأ و يحـــدد موضـــع مدينـــة تاســـة قـــرب وادي ماســـة .(Ibid, p.88, note 81)

(solives) كلّها من أضلع الحوت[1] و عندما دَعَى رجلٌ الوزانَ، لتناول غذاء بحديقة خـــارج المدينة، وجدا في طريقهما ضلعة حوت، وُضِعَت في شكل قوس، فمرّا منه راكبين، على ظهري بعيرهما، كما يُمرُّ في الباب، دون لمس قمتها، من شدة علوّها، و قد قيل له: إنّها وُضعت بذلك المكان، منذ مائة سنة، على سبيل الفضول.[2]

و لم يصدّق الوزّان ما كان يقوله الناس بتلك الناحية من أن كل الحوت الذي يمرّ قـرب مسجد بهلول يموت بفضل الكرامات التي وهبها الله لهذا المسجد، بل مال إلى تصديق معلومات زوّده بها شيخ يهوديّ، من أبناء المنطقة، أفادهُ فيها بوجود صخور كبيرة و حــادة، في البحــر المحيط، على بعد حوالي ميلين من الشاطيء، يصطدم بها بعض الحوت، حينما يكـــون البحــر هائجا، و يصاب إلى حدّ الموت، ثم يخرجه البحر إلى الشاطيء، و هو ضخم الجثـــة، مُشـــوّه الخلقة، لدرجة أن تخيف كل من يراه[3]. و لا شك أن اضطراب مياه المحيط الأطلسي إلى هـــذا الحدّ، مع وجود صخور كبيرة و حادة يفسّر عدم إقبال الناس بشكل كبير، على الاصطيـــاد في سواحله، رغم كثرة الأسماك فيها.

و قد يحدث أن يُخرج البحر أيضا الحوت في السواحل المغربية الشمالية، مثل ما حـدث في القرن السابع عشر، حيث روى الرحالة الانجليزي شاو (Shaw) أن البحر ألْقى حوتا تحـت أسوار مدينة الجزائر، عرضه ستون قَدما[4]؛ مع العلم أن الحديث عن سمك العنبرة يذكّرنا بمـــا أورده المقدّسي، في حديثه عن عجائب المغرب، عن أبي قلمون، و هو ، فيما قال: " دابة تحتـك بحجارة على شاطيء البحر فيقع منها و برها، و هو في لين الخزّ، لونه لون الذهب، لا يغــــادر منه شيء، و هو عزيز الوجود، فيُجمع و ينسج منه ثياب تتكوّن في اليوم ألوانا، و يمنع السلطان من حمل ذلك إلى البلدان، إلا ما يخفى عنه، و ربما بلغ الثوب عشرة دنانير "[5].

و في أقصى السواحل الجنوبية الغربية، لبلاد المغرب، يتفق كل من البكري و صاحب

1- Description de l'Afrique T.2, p 289 ·

2- Id ·

3- Ibid, pp.88-89 ·

4-أنظر Vonderheyden: op.cit., p.16 ·

5- Al – Muqaddasi : op.cit, texte arabe, p.52 ; trad. Fr., p.53 ·

كتاب الاستبصار على أن أكثر معاش سكان جزيرة أيوني[1] من لحوم السلاحف، توجد بكثرة في البحر المحيط (الأطلسي) و هي ضخمة لدرجة أن الشخص يتمكن من الدخول في محار (carapace) ظهورها، و التصيد بها، كما يتصيد بالقارب[2]، و هناك، حسب Vonderheyden أسطورة تفيد أن السلحفاة كانت، فيما مضى عاملا في الخياطة، سرق من صاحب عمله قطعا من القماش (étoffe) فتعرضت إلى المسخ، و بذلك تفسر برقشة (bigarrure) محارها.[3]

و قد روى ابن أبي زرع الفاسي قصة عبد الله بن ياسين، مؤسس دولة المرابطين، و مفادها أنه لما رأى إعراض قبيلة لمتونة " عنه... أراد الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في الإسلام... فلم يتركه يحي بن إبراهيم الجدالي، و قال له... إن هاهنا في بلدنا جزيرة في البحر، إذا حسر البحر دخلنا إليها على أقدامنا، و إذا ملا دخلنا في الزوارق، و فيها الحلال المحض الذي لا شك فيه، من الشجر البرية، و صيد البر و البحر، و أصناف الطير و الوحش و الحوت فنعيش فيها في الحلال... فدخلاها و دخل معهما سبعة نفر من جدالة. و أقام بها... مدة ثلاثة أشهر... فكثر الوارد عليهم و التوابون... فلم يمر عليه أيام حتى اجتمع عليه... نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة فسماهم المرابطين ".[4]

و ما يمكن استنتاجه، من هذا النص أن الجزيرة التي تحدث عنها يحي بن إبراهيم ينطبق عليها وصف جزيرة أيوني، و أنها كانت آنذاك تابعة لجدالة و أن إمكانية الصيد بها كانت كبيرة، استطاعت أن توفر الغذاء لألف شخص، مع العلم أن النص اقتصر على ذكر الحوت، دون السلاحف.

1- تقع قرب موضع أو ليل، من بلاد جدالة (المغرب، ص 171؛ الترجمة الفرنسية V. Monteuil : op.cit, p. 66 ؛ مؤلف مجهول: ص 190؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.191 ؛ و قد تكون هي جزيرة إيويلي Iwili الحالية، الواقعة بين Tidra و الساحل، إذ يمكن، دائما، الوصول إليها، مشيا على الأقدام، كما أن السلاحف تتواجد فيها بكثرة، و يطلق صيادوا إمراقن (Imraguen) تسمية إيوينة Iwinaعلى الشاطيء الرملي المحيط، مما جعل V.Monteuil لا يتأكد من تحديد موقع أيوني بالضبط (V. Monteuil : op.cit., p.106, note 8).

2- المغرب، ص 171؛ الترجمة الفرنسية V. Monteuil : op.cit, p.66 ؛ كتاب الاستبصار، ص 66، ص 190؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit, p.111.

3- op.cit., p.16.

4- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 78-79.

و لا توجد أيّة إشارة، في المصادر المستخدمة، في هذا البحث، و في الفترة المخصصة له، إلى ما يدُلّ على أنه " كـــانت تصـــاد ميديـــات (les moules) بكـــثرة " كمـــا يؤكـــد Vonderheyden[1] إلاّ إذا كان تأكيده خاصا بفـــترة أحـــدث، و لا عـــن صيـــد المحـــارات (les huitres) و لا عن القُشريات (Crustacés) التي ينشط اصطيادها، في آيامنا ببعض الأماكن، و نفس الشيء بالنسبة للاسفنج المتوفر في خليج قابس و الذي يصطاده الأهالي هناك.[2]

و من أنواع الأسماك التي نقلها Vonderheyden عن الترجمة الألمانية لكتاب القزويـــني: الحُبّار (la seiche) و قد شاهده، حسب هذا المصدر، رحالة أندلسيّ، في بحر المغرب، و هـــو على هيئة قلنسوة تركية، دون فم ولاعيْن و لا رأس، و يوجد في أنابيبه نوع من المِـــرّة (fiel) شبيهة بمرّة البقر، و إذا ما اصطيد، فهو يُسَوِّدُ مثل الحبر، الماءَ المحيط به، و يبقى المـــاء المحيـــط بالشبكة أسود، و يُستعمل هذا الماء في الكتابة؛ و هذا الحبر أحْسَن من غيره، فهو لا يُمْحَـــى، و له لون أسْود لامع جدًّا[3]، و ينطبق هذا الوصف، بدون شك، علـــى مـــا يعـــرف اليـــوم بـــ Sépia.

و يصنف Vonderheyden، اعتمادا على نفس المصدر، الشيخ اليهودي (عجل البحـــر) من بين أضخم الحيوانات، مترجما ما وصفه به القزويني على أنه " حيوان، وجهه شبيه بوجـــه الانسان، له لحية بيضاء، و هو شَحُوم مثل العجل، و هو يشبه في مظهره الخارجي الضفدع، له وبر مثل البقرة، و قد سُمي الشيخ اليهودي، في كل مكان لأنّه يخرج، في ليلة السبت، من المـــاء إلى اليابسة و يبقى هناك إلى مطلع الشمس، ليلة الأحد، دون أن يَدخُل الماءَ أو يأكل أو يتحـــرك، و بعد انتهاء ليلة الأحد، يرتمي في الماء مثل الضّفدع ".[4]

و يعلّق Vonderheyden على القزويني قائلا: " من الطبيعي أن عادة عجل البحـــــر، في الخروج من الأمواج تلك الساعات للنوم، فوق الصخور، قد فاجأت السكان المجاورين، خاصة و أنه من الصعب الاقتراب منه، مستشهداً بقول القس بواري (poiret)، عالم الطبيعيات الـــذي

1- op. Cit., p.13 .
2- ibid, pp.12-14 .
3- Ibid, p.15 .
4- Id.

درس حيوانات الجزائر في القرن الثامن عشر، من أنه من النادر أن تصيبه رصاصة تمنعـه مـن الفرار ".[1]

هذه الخاصية وحدها كفيلة بتفسير سكوت المصادر الأخرى عن ذكر وجـود عجـل البحر الذي يؤكده القس poiret، في بلاد المغرب، على الأقل في كلّ من مستغانم و تطـوان، حيث نسج سكانهما أسطورتين تثبتان ذلك.[2]

و على العموم، فإن الحيوانات السمكية (la faune ichtyologique)، حسب A. Borrel أقلّ انتشارا في البحر الأبيض المتوسط من المحيط الأطلسي، زيادة علـى بـطء نمـوّ الأفـراد (individu) في الأول بسبب قلة نباتات البلانكتون به و درجة ملوحتة الكبيرة[3].

أسمـاك الأنـهار:

من اللاّفت للنظر أن صيد الأسماك لم يقتصر على سواحل البحر و البحيرات الشـاطئية (lagunes) في الفترة الزمنية التي يُغطيها هذا البحث، بين الفتح الإسـلامي و سـقوط دولـة الموحدين، بل كان يمارس أيضا في الوديان، سواء عند مصباتها أو بعيداً عنها؛ و مـن الأنهـار أو الأودية التي مورس صيد الأسماك بها: نهر بنـزرت الذي يصفه البكري بالكبـير، و يقـول عنه: إنّه يشق المدينة ليصبّ في البحر، و به أسماك كثيرة[4]، غير أن الملاحظ أنّه لا يشق مدينـة بنـزرت الحالية أيّ وادٍ يتصف بهذه الصفات؛ و قد تحدّث ابن حوقل، من جهتـه، عـن وادٍ عجيب في إقليم سطفورة " يخرج منه كل شهر نوع من الأسماك و إذا أهلّ الهلال، لا تجد مـن ذلك النوع واحدة، و يظهر غيره "[5]، و الواد الوحيد الذي ينطبق عليه وصـف المصدريـن السابقين هو وادي تينجة الذي يصل بحيرة بنـزرت ببحيرة إشكل (Ichkel) فهل معنى ذلـك أن موقع مدينة بنـزرت القـديمة يختلف عن موقع بنـزرت الحديثة؟ و هل أن البكري أطلق

1- Vonderheyden :op.cit., pp.15-16 ·

2- أولى هاتين الأسطورتين أن سكان مستغانم يعتقدون أن عجل البحر كان، فيما مضى نِسّاجًا، و بعد شـجاره مـع صاحب عمله، ألقى بنفسه في البحر، في حين يعتبره سكان تطوان أيضا نسّاجا ممسوخا لانتهاكه حرمة ابنته، و إذا غـرق إنسان في البحر فهو يحمي جسده من الأسماك مدّة أربعين يوما (أنظر Vonderheyden : op. Cit., p.16).

3- op.cit., p.21·

4- المُغرب، ص 58؛ الترجمة الفرنسية لـ Mac guckin de Slane : op.cit, p.122 ·

5- صورة الأرض، ص 74.

تسميـــــة بنـــزرت على ما يعرف اليوم بتينجة التي يشقها النهر المسمّى بها؟*

و يشير ابن حوقل إلى وجود الحوت الكثير الرخيص في الميـــاه الجاريـــة مـــن عيـــون مسكيانة[1]، كما يتحدث الادريسي عن النهر الذي أقيمت عليه مدينة المسيلة، و الذي كان به سمك صغير، فيه طرق حمراء حسنة (خطوط حمراء جميلة)، فريد من نوعه، مقدار السمكة منـــه شبر أو أقلّ، و قد يصطاد منه الكثير فيحمل إلى قلعة بني حمّاد الواقعة على اثني عشر ميلا مـــن هناك[2]؛ و يفيد الوزان أن الأسماك كانت متوفرة بالوادي الكبير (وادي الصومام) النابع مـــن الجبال المحادية لمنطقة الزاب و الذي يصبّ على ثلاثة أميال (5 كلم)، تقريبا، من مدينة بجايـــة، و يُلاحظ أن الصّيادين لم يكونوا يصطادونها لقرب البحر منهم[3].

و كان يظهر بنهر شلف، زمان الورود، من كل سنة، حسب القزويني، سمك يســـمّى الشّهبوق، طوله ذراع، و لحمه طيّب لكنه كثير الشوك، يبقى شهرين، يكثر صيـــده فيـــهما و يرخص ثمنه ثم ينقطع إلى أن يظهر في نفس الوقت من السنة الموالية[4]؛ أمّا الوزان فيذهب إلى القول: إن أسماكاً كثيرة صغيرة و كبيرة، كانت تصطاد عند مصب نهـــر شـــلف[5]، دون أن يوضح وقت الصيد و لا نوعية الأسماك.

و في نهر صاع أو زاع الذي ينبع من جبال الأطلس، و يجري في سهل صحراء أنجـــاد، على حدود مملكتي فاس و تلمسان، توجد أسماك كثيرة، غير أن سكان تلك النواحـــي الذيـــن يصفهم الوزّان بالجهلة، لا يستطيعون اصطيادها، لسببين: أولهما: أن ليس لهم آلات الصيـــد، و ثانيهما أن النّهر صَفيٌّ جدًّا مما لا يدعو، أبداً، للصيد[6] في نظرهم.

و يشير البكري إلى توفّر حوت اللّبيس في وادي فاس الذي يصبّ في وادي سْـــبُو[7]، و اللّبيس، حـــسب Mac guckin de Slane من فصيلةالشّبّوطيات، و مما أفاده به شخص، من

---

*- أنظر الخريطة رقم 12.

1- صورة الأرض، ص 84.

2- المغرب العربي، ص 108؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 100.

3- Description de l'Afrique, T.2., p.548.

4- آثار البلاد، ص 148.

5- Description de l'Afrique, T.2, p.547.

6- Ibid, p.546.

7- المُغرب، ص 116-117؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit.pp.228-229.

مواليد فاس، أن اللبيس ما يزال موجودا بكثرة في وقتنا، بوادي سبو، و له رأس أحمر، و يحتوي على حسكات(أشواك) كثيرة، و هو كثير الشحم، يزن من رطل إلى رطلين[1]؛ و نقل صاحب كتاب الاستبصار معلومات عن شهود يثق بهم أن وزن بعض ما يصطاد من اللبيس بنهر سبو قد بلغ خمسة و ستين رطلا[2].

و من الأسماك التي تصاد بنهر فاس، حسب صاحب المصدر الأخير، الشابل الكبير (alose) الذي يصعد إلى منبع الوادي أو يقترب منه[3]، و يسمي ابن سعيد هذا النوع من السمك بالسائل، و هو لا شك خطأ مطبعي أو نسخي، و يذكر أنه يتواجد عند اختلاط الماء المالح بالحلو[4]، و يؤكد، فيما بعد، الحسن الوزان استمرار تواجد الشابل بوادي فاس و وادي سبو، و هو يصاد، إلى جانب أسماك أخرى، و يباع الحوت بثمن بخس، و يستمر موسم الاصطياد من فاتح أكتوبر إلى غاية إبريل.[5]

و قد كانت عملية صيد السمك الشابل (alose) تمارس، في نهر أم الربيع، النابع من جبال الأطلس، على حدود تادلة و منطقة فاس، من بداية فصل الأمطار في شهر أكتوبر إلى بداية شهر مايو من كل سنة[6] و يكثر هذا النوع من السمك بمدينة أزمور (Azemmour) ، الواقعة عند مصبه، بمنطقة دكالة، على ضفاف المحيط الأطلسي، و بها من الشحم أكثر من لحم الماشية، فلا يحتاج قليها سوى لقليل من الزيت، لأنها بمجرد ما تشعر بدفء النار يذوب منها ما يزيد عن رطل و نصف من شحم يشبه الزيت، و يحرق في مصابيح لعدم وجود الزيت في المنطقة.[7]

1- Description de l'Afrique par Abou Obeid el – Bekir, p.229, note 1.

2-يلاحظ أن نص صاحب كتاب الاستبصار، طـ Kremer غامض في هذه النقطة، إذ جاء فيه ما يلي: " و أخبرني الثقاة أنه عين سبوا يتصيد به سمك، زنتة خمسة و ستون رطلا، و نازعني في القرب و الشولي بعليته " (مؤلف مجهول، ص 73)؛ غير أن E. Fagnan الذي اعتمد على مخطوط " D" في ترجمته إلى الفرنسية قام بتوضيح ذلك الغموض (op.cit., pp.130-131 et p.131, note 1).

3- مؤلف مجهول؛ ص 73؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.130؛ أنظر الصورة رقم 21.

4- كتاب الجغرافيا، ص 138.

5- Description de l'Afrique, p.196 et note 174؛ قارن ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق،ص 17-18.

6- Description de l'Afrique, T.1, p.89 et T.2, p.543.

7- Ibid, T.1, p.26.

و كان التجار البرتغاليون يأتون مرة في السنة لشراء كمية كبيرة من هـــذا الســمك، و حمله في العديد من مراكب الكرافيل (Caravelle*) ، و كانوا يدفعون سنويا، مـــن ســتة إلى سبعة آلاف دوكا (Duccats) لخزينة الدولة، في مقابل حقّ صيده، و في نهاية الأمر تمكنوا مـــن إقناع ملكهم باحتلال أزمور.[1]

و من الأسماك التي كانت تصطاد بنهر فاس الشولي الذي كان يوجد أيضا بمكناســـة، و يصفه صاحب كتاب الاستبصار بألذ الأنواع، تحضر وجباته بطرق مختلفة، مع أصناف البقل (légumes) فيؤكل، دون أن تشم فيه رائحة السمك.[2]

و يعد ابن أبي زرع الفاسي، من بين فضائل نهر مدينة فاس أنه يخرج الصدف الحســـن الذي يقوم مقام الجوهر النفيس، تباع الحبة منه بمثقال ذهب، و أقل و أكثر، و ذلك لحســـنه وصفائه و عظم جرمه (حجمه) "[3] كما يعد السراطين و السنياج و البوقة من بين أصنـــاف الأسماك المتواجدة فيه.[4]

و يتحدث الإدريسي عن " أنواع من السمك و ضروب الحيتان " بوادي أسمير الـــذي يصب في البحر، عند مدينة سلا الحديثة، لدرجة أن الحوت بتلك الناحية لا يكاد يبـــاع و لا يشترى لكثرته.[5] أما وادي بهت (Beht) النابع من جبال الأطلس، و الذي يجري شمالا، بـــين الجبال و الغابات، ليتفرع في أحد سهول مقاطعة أزغار (Azgar) و يكون عدة مســـتنقعات و بحيرات، يصاد منها، حسب الوزان، ما لا يحصى من الأسماك كنـــوع البيوضـــة (Loches) و الأنقليس (anguilles) و الشابل (aloses)، و هي مدهشة عموما، من حيث كبرها و كـثرة الشحم بها؛ و كان يقيم حول تلك المستقعات و البحيرات رعاة عرب، يعيشون على مواشـيهم و على صيد الأسماك، و هم يأكلونها بكثرة إضافة إلى اللبن و الزبد حتى أن العديد منهم كـــانوا يصابون بمرض يسمى la morphée [6] و هو مصطلح يطلق على عـــدة أمراض، تظهر في شكل

*- مركب سريع، ذو ثلاث صوار (المنهل، ص 166).

1- Description de l'Afrique , T.1, pp.125-126, T.2, p.543.

2- مؤلف مجهول، ص 73؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.131.

3- المصدر السابق، ص 17.

4- نفسه.

5- المغرب العربي، ص 90-91؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 81-82.

6- Description de l'Afrique, T.2, p.544.

بقع جلدية، و منها الجُذام، و قد ثبت أن المجموعات التي تكثر من استهلاك الأسماك هي أكـــثر عرضة لهذا المرض.[1]

الأسماك في المناطق الصحراوية:

الجدير بالذكر أن المصادر العربية التي زوّدتنا بمعلومات ضافية عن تواجد أنواع كثـــيرة من الحيوانات البحرية في مختلف شواطيء بلاد المغرب، و بحيراقما و أنهارها لم تشر إطلاقـــا إلى أي تواجد لمثل تلك الحيوانات، في المناطق الصحراوية، مع أن مصادر حديثـــة تثبـــت ذلـــك التواجد بالفعل، و بما أن تلك المناطق أصبحت معزولة، مائيا، عن المنطقـــة الشـــمالية التليـــة الممطرة، المتصلة عن طريق أنهارها بالبحر الأبيض المتوسط، و كذلك الأمربالنّســـبة للمنطقـــة الأطلسية الغربية المتصلة بالمحيط الأطلسي، بحيث توجد مسافات شاسعة،جافـــة تمامـــا، بـــين المنطقتين المذكورتين و بين الصحراء، لا تصلح إطلاقا، لعيش الحيوانـــــات المائيـــة بهـــا، و لا لتنقّلهاعبرها، و من ثمة يكون من حق أي دارس أن يتساءل عن أصل و عـــن مصـــدر تلـــك الحيوانات في الصحراء؟

و لا شك بأن أقرب جواب إلى الواقع يكمن فيما يراه بعض الباحثين، أمثال Cauvet ، من أن وجود تلك الحيوانات المائية بها يعود إلى العصر الذي كان فيه النظام المائي لهذه المنـــاطق ثابتا، منذُ بداية الألفية الثالثة، قبل الميلاد، لدرجة تسمح لها بالانتشار، في الجـــهات المختلفـــة المعزولة حاليا، مع العلم أن أغلب أصناف الأسماك الحالية تعود إلى العصر الجيولوجي الثالث.[2]

و إذا سلمنا بصحة هذا الطرح يكون من المنطقي القول: إنّ ما ثبت تواجُـــدُه قديمـــا و حديثا، في مكان ما، لا بدّ و أنّ توَاجدَه هذا لم ينقطع، بين الفـــترتين المذكورتـــين، أي في العصر الوسيط، و منه الفترة المخصّصة لهذا البحث، بالرغم من أن المصادر العربية لا تشـــير إلى ذلك، ربّما، لعدم وصول أصحابها إلى مناطق تواجده، و من هنا يصبـــح الحـــقُّ للبـــاحث في الاطلاع عليه اعتماداً على المصادر الحديثة، ثم القيام بعملية اسقاط لتكوين فكرة تقريبية عـــن الموضوع و هو ما يسمح له بتتبع هذه الظاهرة عن طريق الاستعانة ببعض أعمـــال أصحابهـــا و منها:

1- A. Epaulard : Description de l'Afrique, T.2, p.544, note 17.

2- C nt Cauvet :les poissons du sahara algérien, Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, 4 éme trimestre, dix – huitiéme année 1913, p.712.

ما يلاحظه E. F. gautier من أن حوض فزان محاط من الجنوب و الغرب بأقوى الكتـل الجبلية في الصحراء: التيبستي و الطاسيلي، و خزانها المائي هو الطاسيلي الأجر(le Tassili des Ajjers)، أي النصف الشمالي من الهقار بقممه البركانية التي يبلغ ارتفاعها 2300م، و طبقاتهـا الحثية المتموجة (ondulées) و المترجحة (basculées) التي تشقها شـعاب (Canyons)، في قعرها حفر ماء جار، أحيانا، بها حيوانات جرية (Silures)**، و بقايـا (reliques) تماسـيح صغيرة.(1)

و يتجه ميل الأرض، عموما، من الطاسيلي إلى فزان، و تلك الأرض محفورة بمنخفضات متوازية بغلاظة (grossiérement) يسميها السكان أوديـة(2) و منـها وادي شـياطي Chiati و وادي الشرقي (ach- chargui)، و فزان، بالمعنى الدقيق، توجد عند مصرف هـذه الأوديـة الهابطة من الغرب، و كما هو مألوف، في أودية الزمن الجيولوجي الرابع المنخفضة، فإن الكثبان الرملية، أخذت نموا هائلا مكونة عرق إيدين (Edeyen)، نظير عرقـي إيغرغـار و الصـاورة الجزائريين، تماما، فهو عرق رطب، إنساني، صالح للسكن، يظهر به الماء في شـكل بحـيرات ليست بحيرات مؤقتة أو شطوطا، و إنما هي بحيرات ماء جار (vive)، عميق أحيانا، و عادة ما يكون أجاجا*** أو مالحا، و في بعض الأحيان عذب، أشهرها بحر الدود، شمال واحة مـرزوق، و يغذي حيوانات من يرقات (larves) تفقس حشرات ذات جناحين هي أرتيميـة أودنيـي (Artémia oudneyi): تكون في شكلها اليرقي، مصدرا لغذاء السكان؛ و لعرق إيغرغار بحـيرة من نفس النوع. على شكل فوهة بركان (cractériforme) عميقة و هي، بلا شك، فتحة لطبقة مائية أرتوازية، و يحتمل جدا أن يكون لبحيرات فزان أصل مماثل.(3)

و توجد، شرق وادي إيغرغار الأسفل، طية مقعرة (synclinal) شاسعة منتظمة، حيـث تكون فيها كل الطبقات على هيئة قعر سفينة أو ملعقة بدءا بالطبقة الطبـاشيرية (crétacé)،

1- le passé de l'Afrique du Nord, p150؛ أنظر الخريطة رقم 6.

2- Ibid, p.136

*- من طبيعة الحث، أي محتو على حث، و الحث حجر رملي، أو صلصال رملي (المنهل، ص 497).

**- أي نهرية، بدون حراشيف (نفس المرجع، ص 957).

***- شديد الملوحة و المرارة (المنهل، ص 973).

3- E. F. gautier : le Sahara, p.136 ; le passé de L'Afr. Du N. p 150.

و هي القاعدة، إلى طبقة الطّميّ السميكة التي تغطيها، و العيون هنا لا تنعدم، مـــرّة واحـــدة، و يطلق عليها السكان تسمية " بحر" و يقصدون بذلك عادة، كـــل الميـــاه الجاريـــة (vive) و العميقة، و البحار أو البحور، عبارة عن بحيرات صغيرة، على شكل فوهة بُرْكَان، في غـــالب الأحيان، و قد يكون عمقها خارقا للعادة بالنسبة لمساحتها الصغيرة جدًّا، إذ يبلغ ثلاثا أو أربـــع عشرات من الأمتار، فهي فتحات للطبقة المائية العميقة، مسدودة تقريبا، تُســـتغلّ كملاجـــيء لبقايا أسماك مدارية[1]، و يلاحظ R. Capot- Rey أن هذه البرك (mares) و يعني بهـــا البحـــار أو البحور هي ما يسمّيه العرب القلتة (guelta) و الغديـــر، و يســـميه الطـــوارق أقلمـــام (Aguelmam)، و هي تحتفظ بالماء و الأسماك طيلة السنة[2]؛ و اسم البحر، حسب Cnt Cauvet، جمعه بحور، و يطلق في، وادي ريغ، على بحيرات واسعة، في بعض الأحيان، عادة ما تقـــع في أسفل نقطة من مجرى وادي ريغ القديم، و هي فوهات ماءٍ عذبٍ حقيقيةٍ، ناتجة عـــن الثـــورة (soulèvement) و الانخساف (èffondrement) المتعاقبين لطبقات الأرض الهشة التي تعلو الطبقـة المائية المتدفقة (jaillissante).[3]

و عندما حُفرت آبار أرتوازية، في جنوب الشرق الجزائري، أثنـــاء فـــترة الاحتـــلال الفرنسي، شوهدت مرّات عديدة، أسماك تخرج منها، جرفتها المياه المندفعة، بعضها صغير جـــدًّا لكن البعض الآخر، له أحجام الأسماك الحمراء المعروفة، و تطلق على كل تلك الأنواع تســـمية الكروميس (Chromys أو Chromis)، و هي معروفة جدًّا في واحات الـــزاب و وادي ريـــغ، و تشاهد أسرابها تجري في القنوات العديدة، في ظل النخيل، وسط الطحالب، في المياه الصافيـة، و يستهلكها السكان مقلية و مسلوقة.[4]

و قد قَدِمَت تلك الأسماك من طبقة المياه الجوفية، مع العلم أن الحيوانـــات الكهفيـــة (Cavernicoles) التي تقضي كلّ حياتها في الظلام، لها بنية خاصة، فهي على ســـبيل المثـــال، ضريرة، غير أن كروميس الآبار الأتوازية لها أعين عادية، و هي شبيهة بشقيقاتها التي تعيـــش في الواحات، و لا يُعرف جيّداً كيف يجري الماء في باطن الأرض كما لا تُتـــصوّر بالضبط الطبقة

1- E. F. gautier : le Sahara, pp.147 Sqq .

2- L'Afrique blanche, T.2, le Sahara francais, p.13.

3- les poiss ons du Sahara algeriens, pp.703-704, note 1 .

4- E. F. gautier : le passé de l'Afrique du Nord, p.150 .

المائية الجوفية، و ينبغي التسليم، دون محاولة التوضيح، أن الكروميس تعرف كيف تدخل إليـــها و كيف تخرج منها، و هي توزع حياتها، بين المياه السطحية و بين المياه العميقة، و هذا مــــا جعلها تلفت الانتباه أولا، ثم استرعته ثانيا بغرابة أخرى، و هي العثور، في مجاري (ruisseaux) شمال إفريقيا، على أسماك الأنقليس (anguille) و البـــوري (barbeau) و في النـــادر التروتـــة (truite)، و هي أسماك متوسطية، لم تشاهد قط، شمال الحضنة، و تكون بأرضها في وادي النيل، و توجد في التشاد و النيجر، و هي سودانية و ليست في بلادها بوادي ريغ.[1]

و ينتسب الكروميس إلى عائلة الكروميدي (les chromidés)، و يمثلـــها في الصحـــراء الجزائرية أربعة أصناف[2] وجدت حتى بداية القرن العشرين بواحات الزيبـــان و وادي ريـــغ، و يذهب الرائد Cauvet إلى القول بأن الأصناف المميزة بوضوح ثلاثة فقط هي: الكروميـــس زيليـــي(le chromis Zillii)، و الكروميـــس ديسفونتينســـي (le chromis desfontainesi) و الإيميكروميس رولاندي (l'hémi chromis Rollandis) [3].

و تنتمي الكروميدي les chromidés في رأيه، صراحـــــة، إلى الحيوانـــات الإفريقيـــة الاستوائية، مع وجودها كذلك بآسيا الصغرى، و في المنطقة المدارية الأمريكية، و تعيـــش في المياه العذبة أو الأجاجة، و هي تحب المياه الهادئة[4] و إذا تركت خارجا (dehors)، أثناء ليـــالي الصحراء الباردة، فهي تهلك سريعا، غير أن مياه الآبار الأرتوازية و البحور أو Chriats الـــتي تتراوح درجة حرارتها بوادي ريغ ما بين 23° و 26° مئوية، تحافظ، في أرض المنطقـــة، علـــى درجة مئوية ثابتة تقريبا و هي 23° حتى في الليالي الباردة جدا، و عندما يتجمد ســـطح المـــاء قليلا، و هذا أمر استثنائي، و لا يحدث إلا في قنوات الصـــرف الكـــبرى المســـماة خنـــدق (Khandegs)،تلجأ الأسماك إلى الأعماق الغرينية حيث توجد حرارة كافية، بالإضـــافة إلى أنه

1- E. F. gaurier : le passé de l'Afrique du Nord, p.p 150-151 .

2- هذه الأصناف هي: le chromis des fontainesi (lacepéde) و le chromis Zillii (gervais)، و glyphisodon (Valentienns) ؛ و Hémichromis saharoe (sauvage) و Hemichromis Rollandi، (Cnt Cauvet : les poissons du Sahara algériens pp .669-670).

3- حسب الرائد Cauvet فإن عائلة الكروميدي chromidés تسمى في وقته (بداية القرن العشـــرين) سيشـــليدي cichlidés و يطلق على الكرومي ديسفونتينيزي le chromi desfontainesi منـــهما اســـم Astalotilapia desfontenisé و على le chromis Zillii اسم Tilapia Zillii، و على l'hémichromi Rollandi إســـم l'hémichromis binaenlatus (op.cit., p.700, note 1).

4- Cnt Cauvet: op.cit, pp.699-700 .

ينبغي لها أن تصعد، في ذلك الوقت، أكثر ما تستطيع، إلى جوار نقطة بروز الآبار و العيـــون الأرتوازية لإيجاد درجة حرارة مرتفعة بما فيه الكفاية؛ و في فصل الصيف يبقى استقرار درجـــة الحرارة في الحالة نفسها، و تمنع الرياح المتواترة (fréquents) في الصحراء، رغم أنها ساكنة تقريبا، ماء خنادق الصرف، من بلوغ درجة حرارية مرتفعة[1].

و نقطة ضعف سمك الكروميس الوحيدة هي قابليته للبرد، و هو يعيش دائما، في ميـــاه أجاجة، إلى حد ما، و أحيانا مالحة جدا، و غالبا ما تكون في غاية الفساد و النتانة. و تغـــذي الفضلات العضوية المختلفة، و التمر الذي يسقط و يتخمر بتلك المياه، عددا لا يحصى مـــن القشريات (crustacés) و اليرقات، و خاصة يرقات الباعوض التي يلاحقها الكروميس بجشع كبير يجعل منه عنصر تطهير نفيس، في مكافحة حُمّى المستنقعات (paludisme)، و هو يقدّم بذلـــك خدمة صحية جليلة للإنسان، و يكفي صيانة قنوات الصرف لجعله ينتشر في كل مكان[2] غـــير أن الأفاعي الكثيرة و السرطانات التي تعيش بوادي ريغ تلاحقه و تلتهمه بدوره.[3]

و قد أتيحت الفرصة للرائد Cauvet كي يشاهد صنفين من الكروميس (le chromis) بتوقُرت (Touggourt)، و بدَا له أيضا أن سكان وادي ريغ لا يعرفون سوى صنفين منه و همـــا الحضري (Haderi) و الأحميري (Ahmiri) و هما يماثلان في نظره، الكروميس زيليي (Chromis Zillii) و هيميكروميس رولاندي (L'Hemichromis Rollandi)؛ و يطلق السكان أسماء أخـــرى على الأسماك، دون أن يكون لهم إجماع عليها، و يبدو أنها تعبّر عـــن فـــترات حيـــاة هـــذه الحيوانات[4]، بحيث تعني تسمية " البيساو " (El- Bissaou) على ما يبدو، أُنثـــى الكروميـــس زيليي (Chromi Zillii) وقت التسرية* (frai)، و قد تكون " الكدّة " (El- Kedda)، حســـب السكان، سمكا أبيض، و هي بدون شك، أيضا، أُنثى الكروميس زيليي؛ و الغلام، عكس ذلك، هو سمك أسود و قوي، شَرِه، يأكل الأسماك الصغيرة، و يسمى ذكر هذا النـــوع " الغيّـــاط " و أنثاه " الطّبل "، و غالبا ما يطلق الســـكان على كل الأسماك، دون تمييز، تسمية جماعية هي

1- Cnt Cauvet : op.cit, pp.703-704.

2- Ibid, p.704.

3- Ibid., p.705.

4- Cnt Cauvet: op.cit., p.701

*- سرء السمك، بيضه، و التسرئة زمن البيض (المنهل، ص 461).

" لحم الحوت ".[1]

أما اسم " حضري " الذي يعني " ساكن المدن " فيميّز جيّدا تقاليد هذا النـــوع مــن السمك و عاداته في تشكيل قرى لأسماك من نفس الجنس، وقت التسرئة، و هي تختار آنـــذاك أماكن مستوية قليلة العمق، معرضة جيدا للشمس، حيث يكون راكدا، تقريبا، و توجـــد في أطراف قصور وادي ريغ، و على الخصوص، قرب توقرت (Touggourt)، مستنقعات صغـيرة، تشكلت، على إثر الرفع السطحي (soulèvement superficiel) للتربة الطينية التي تصلح لبنـــاء مساكن أهل البلد، و قد صارت تلك المستنقعات مساريء (frayères) مفضلة للحضري.[2]

أما سمك الهيميكروميس، أي نصف الكروميس، فهو كما يوحي به اسمه أصغر بكثـــير من الكروميس[3] و لا يتجاوز طوله أكثر من سبع إلى عشر سنتمترات.[4] مع العلم أن أصنـــاف الكروميس المختلفة لا تخشى النـــزول إلى عمق هوات وادي ريغ الجوفية، و بهذا يمكن فـــهم كيفية نجاحها في البقاء بالصحراء إلى يومنا هذا، رغم كل ما اجتاحها من كـــوارث أرضيـــة (cata clysme)؛ و يبدو، للوهلة الأولى، أن الكروميـــس موجـــود أســـفل وادي إيغرغـــار، و المفروض أنه موجود أيضا بأعلاه حيث يُتأكّد وجود أسماك لا يُعـــرَف بعـــد إلى أي نـــوع تنتسب، باستثناء نوع من الجريات (un Siluridé) هو الكلاريا لازيرا (le clariat lazéra) .[5]

و تعيش الجريات ببلاد الطوارق أزقْنـــر Touareg Azgneur، و تـــسمى أزُلمـــي

1- نقل Cauvet هذه التسمية إلى الفرنسية خطأ " leham bel hout" بدل " lahm el – hout " لكنه ترجمـــها ترجمة صحيحة " viande de poisson" (op.cit., p.701) .

2- يحتل كل زوج موقعا، و ينظف سطح أرضه، و يتكون موقعه عادة، من جمعر (marne) و هو تراب أصفر اللـــون تكثر فيه نسبة العناصر الصلصالية، في مساحة مستديرة، على شكل صحن عاد، تقريبا، و يحفران وسطها، حوالي ست إلى عشر جحور، يودعان فيها بيضهما، و يبقى الأبوان فوق هذه الجحور لمراقبة انفقاس الصغار، على ما يبدو، و طرد كـــل الأسماك التي تقترب منها (أنظر Cnt Cauvet: op.cit, pp.702-703).

3- Cauvet : op.cit., p.700 .

4- Ibid, p.707 .

5- Cnt Cauvet: op.cit., p.709.

(Ozoulmet) بالتّماشيق (Tamachek) أو أسْلْمِي (Assoulmi) (جمع إيســـولِمّين)[1]، و أوّل مــن أشار إلى وجودها سنة 1861 هو Duveyrier، أثناء إقامته بتيخَمّـــالت (Tikhammalt) حيـــث حـــملت مياه الفيضانات القادمة من الطاسيلي الأقنر (Tassili des Agneurs)، مرورا ببحيرات وادي ميهرو (Mihero) إلى السّهل، بعضَ الأسماك، لم يَتحصّل منها إلاّ علـــى واحـــدة مـــن الكلاريا لازيرا (clarias lazera)، أخذها إلى متحف (Muséum) التاريخ الطبيعـــي ببـــاريس، و نشر عنها سنة 1864 رسماً (dessin)واضحا جدًّا.[2]

و عندما وصلت بعثة استكشافية فرنسية بلاد الطوارق[3]، في شـــهر أغســـطس 1880 و هي بعثة Flatters التي نزلت معسكر منكوغ (Menkough) عند مصب وادي تيجوجلـــت (Tijoudjelt)، بقيت بضعة أيام، قرب غدير يبلغ طولها 1 كلم، و عرضـــها 500 م، و يصـــل عمقها 8 م، فاصطاد منها أعضاء تلك البعثة عددا من الكلاريا لازيرا (claria lazéra) يصـــل طولها إلى 55 سم.[4]

و يلاحظ Cauvet أن الأسماك التي تحملها الفيضانات إلى هذه البحـــيرة، تمـــوت و لا شك، عندما يعيد الجفاف غدير منكوغ (Menkough)إلى مظهرها القاحل المعتاد، و بالرغم مـــن أن الجِريّات لها حياة صعبة جدًّا و بإمكانها العيش، وقتا معيّناً، بدون ماء، إلاّ أنه لا يُعقـــل أن تمتد فترات وقف حياتها المائية إلى عشرات السنين؛ و من جهة أخرى فمـــا دام وادي ميـــهرو (Mihero) و وادي عرفة كثيري السّمك فإن تجاويف شعاب تراجعها تسمح دائما لعدد مـــن الأسماك بتحدّي قساوة الطبيعة و استمرار بقائها لتأبيد أصنافها؛ و يوجد الكلاريا لازيرا بكثرة في النيل حيث يسميه العرب هرموثة (Harmouta)، كما توجد جحور مـــاء عديـــدة، قبـــل (en amont) مضائق (gorges) وادي تيجوجل (Tidjoudjel) بها أسماك.[5]

1- قارن Cauvet : op.cit, p.711 et 714؛ E.F.gautier : le passé de l'Afr. Du Nord, p.152؛ و يفيد Cauvetأن هذه التسمية تطلق، حسب Motylinski على الأسماك لكن المعلومات التي جمعها هذا الأخير غرب الكدية Koudia، في منطقة لا تحتوي على أسماك، لا يظهر أنها تنفي، حسب رأيه، رواية Duweyrier أي أنها تطلـــق على النوع المشار إليه فقط (أنظر Cauvet : op.cit.,note 3, p.711).

2- Cnt Cauvet: op.cit., p.714 ; E F. gautier: le passé de L'Afrique du Nord, p.152 ·

3- Cnel Bernard : deux missions française chez les Touaregs, p.136. ·

4- Cnt Cauvet: op.cit., p.714.

5- Ibid, pp.714-715 ,

و بالنسبة للطوارق فإن سمك أسولمي أو أزلمي ما هو إلاّ أحد الأصناف الثلاثة المعروفة عندهم، و يتمثل الصنفان الآخران في: أ) إساتافن أو إزاتافن (Isattafen)،و يعني " السود " بلغة التماشق (Tamachek) و قد يبلغ حجم (grosseur) السمكة الواحدة منه فخذ الإنسان، و يبلغ طولها ذراعين أو ثلاث "؛ و من المحتمل أن يكون هذا الصنف من الجِريّات (Silures).

ب)- الإمَانَنْ (les Imanen) و يمكن أن تكون من الكروميس (Chromis) التي ينطبق عليها ماورواه عنها Duveryrier و مفاده أن: " أسماك بحيرات الميهرو (Mihro) تتيح الفرصة لصيد يسهم في تغذية الرقيق المجاورين لها، و هم يحفرون على ضفاف البحيرات قنوات صغيرة ضيقة متّصلة بخزانات تأتيها أسماك، بحثا عن غذاء لا تجده في أعماق البحيرات، و بعد دخولها يعاد غلق القنوات، و تؤخذ الأسماك..."، و هذا المقطع، يبدو، حسب Cauvet، أنه ينطبق على الكروميس، أمثال الحضري التي لهاعادات جريئة و ليس على الجريّات التي تعيش في الأعماق، و إذا تأكد وجود الكروميس في أعلى وادي إيغرغار، فهو يُفسّر، بطبيعة الحال، و جوده في أسفله.[1]

و قد شاهد هذه الجريّات كلّ مكتشفي بلاد الطوارق، بين الأهقار و واحة غات (R'at)، و هي كثيرة، على ما يقال، و قد تكون لها عدّة أصناف، و ملجأها الرئيسي، في بلاد الطوارق هو وادي مِيهْرُو (Mehero)[2] و قد وصف E.F. gautier جرّية عثر عليها Cauvet في 15 يوليو 1915 بأنها حيوان معتبر، اسمها الكامل كلاريا لازيرا يمكن أن يصل طولها خمسين سنتمترات، و حول فمها يوجد اقشعرار(hérissement) من عَذبات فائقة الحدّ*، أقل قليل من طول الحيوان بكامله، بحيث تجعل منها وحشا لا يُنسَى، و هي تعيش قرب واحة طُولقَة (Tolga) ، غرب بسكرة، مختفية بطبيعة الحال، ففي منطقة وادي ريغ و الزاب هذه، توجد برك صغيرة، على شكل فوهات بركانية تنتمي إلى صنف لا اسم له، كان يمكن أن تكون آباراً أرتوازية لَوْ أن يد الانسان هي التي صنعتها و تسمى برك (مفرد بركة) و تسمى البركة التي تمّ فيها اصطياد الكلاريا لا زيرا الأولى العين الزرقاء (Ain Zerga)،و يبلغ قطرها ستين مترا و عمقها ستا

1- op.cit., pp.711-712 et p.711, note 3 .

2- E. F. gautier : le passé de L'Afrique du Nord, p.152 .

*- عَذَبة السمكة: عبارة عن زائدة خطية في فكها (المنهل، ص 100).

و ثلاثين مترا، في حين أن الطبقة المتدفقة (Jaillissante) بتلك المنطقة، يصل إليها حفّارو الآبـــار، بانتظام على عمق أربعين مترا، تقريبا؛ و البرك عبارة عن فتحات طبيعيـــة، نصـــف مفتوحـــة (à demi obstruées) من الطبقة المائية المتدفقة، أي هوّات (gouffrés) أرتوازية يسميها السكان " البحر "، و بداخل تلك الهُوات وُحُولٌ منتشرة كثيرا (trés dévoppées) و بـــالضبط، فـــإن الكلاريا لازيرا سَمَكٌ حفّار له جسم الأنقليس (l'anguille)، و هو مُزوّد بعُضـــو خَيْشـــومي مساعد يستطيع بفضله، حسب ما يُعتقد، التنفّس خارج الماء، و العيش مدفونـــا في الوحـــل، عندما تجف المستنقعات التي يسكُنها.[1]

و يعيش، إلى جانب الجِرِيّات،بوادي مِيهْرُو (Méhero)، تماسيح النيل، و أوّل من أشـــار إلى وجودها هناك Duveyrier الذي لم يرها، و إنما جمع حولها معلومات واضحـــة و أكيـــدة: فالرُّعب الذي يوحي به الرقيق المجاورين، و الإتاوة التي يقتطعها من القطعان التي تشرب مـــن البحيرات، و الجروح التي يحمل آثارَها بعضُ الطوارق، كل ذلك لا يترك أي شـــك، في هـــذا الصدد، و حسب الطوارق فإن هذا الزاحف (reptile) يبقى مختفيا في مغارات(grottes) جوفيـة خلال الشتاء، و يأتي منذ الربيع إلى الشاطيء، و في فصل السِّفَاد (la saison des amours)تُطلق الإناث صرخات شبيهة بصرخات الجمال، أثناء الاستحرام (rut)، و قد أخذ النقيـــب Nieger تمساحاً من وادي مِيهْرُو حوالي 1910 إلى مخبر M. Flamand بجامعة الجزائـــر ثم إلى مخـــبر M. Trouessard الباريسي؛ و وجود التماسيح بتلك البحيرات جعل عملية الصيد صعبـــة. و قـــد عثرت بعثة Tilho في إينِدي (Ennedi)على خزّان (réservoir)يحتوي على تماسيح صغيرة.[2]

و يبدو أن تواجد التماسيح لا يقتصر على الصحراء الوسطى بل إنها كانت متواجـــدة، على الأقل، في الصحراء الشرقية بمنطقة الواحات في عهد الادريسي (ق6هـــ/12 م)، إذ ينطبـــق عليها وصفه للثّعبان الذي " لا يكون البتة في غيرها من الأرضين، و الثعبان، على ما يحكيه أهل تلك النواحي، يُرى كالتلّ الكبير، يلتقم العجل و الكبش و الإنسان، و هو حيوان في صـــورة الحية، ينساب على بطنه، و له أُذنان بارزتان و أنياب و حركته بطيئة، و يأوي إلى الكـــهوف و الدّهامس، فمَن قصده أو اعترضه بمساعَة التَقَمه و أمـــضى عليه، و لا يخرج عن هذه الأرض

1- أنظر E. F. gautier : le passé de L'Afrique du Nord, pp.151-152 .

2- قارن E. F. gautier : le passé de L'Afrique du Nord, pp.151-152 ; Cnt Cauvet: op.cit., p.711؛ أنظر الصورة رقم 27.

إلاّ و يموت ".[1]

و نصّ الإدريسي هذا، لم يُستغل، في علمنا، من قبل الباحثين، و لم يتوقف عنـــده أي باحث لمحاولة التعرّف على هُويّة هذا الحيوان الغريب الذي يشبه الثّعبان، و مـــن الواضـــح أن صيته ذاع بسبب الرعب الذي كان يزرعه بين سكان تلك المناطق حـــتى وصلـــت أخبـــارُه الإدريسي فسجلها لنا، تماما كما فعل Duveyrier في القرن 19، و يبقى السؤال الجدير بالطرح فعلا هو: لماذا لم يُشر الإدريسي و لا غَيرُه من أصحاب المصـــادر العربيـــة إلى وجـــود بقيـــة الحيوانات المائية، أي الأسماك، في الصحراء، كما فعل Duveyrier و من معه مـــن البـــاحثين الفرنسيين في العصر الحديث؟

و الجواب يرجع، على ما يبدو، إلى كون اهتمامات الأوائل كانت بعيدة كل البعد عن هذا المجال، في حين انصبّت اهتمامات الأواخر عليها، في إطار أبحاث خاصة و بوسائل أحـــدث و إمكانيات أوفر.

و من أنواع الأسماك التي تعيش في الصحراء البطريخيّات (Cyprinodontides)[2] و بطريخ كاغلياري (Cyprinodon de Cagliari) أو أحد أصنافه كثير جدًّا في كل المناطق الصحراوية الـــتي يوجد بها سمك الكروميس، بل هو أكثر من هذا الأخير انتشارا، لأنه يستطيع، لِصغر حجمـــه، التقدّم في خيوط ماء رفيعة جدًّا، و هو يعيش في أسراب بمياه أجاجة (saumâtre) أو عذبـــة، طوله لا يتجاوز سبعة أو ثمانية سنتمترات، و كان البطريخ موجوداً في العصر الجيولوجي الثالث بأعداد كبيرة في مياه جنوب أوربا الأجاجة.[3]

و قد مكّنه حجمه الصغير و كثرة أعداده، زيادة على استعداده للعيش في مياه كثـــيرة الملوحة و الحرارة، من الانتشار في كل ناحية من حوض إيغرغار و مقاومـــة كـــل أســـباب التدمير[4]. و في تُوقُوت تُرَى منه أعدادٌ كبـــيرة في ســـواقي الآبـــار الأرتوازيـــة و الخنـــادق (Khandegs) حيث يتغذى بيَرقات الباعوض، و بالباعوض نفسه، الذي يتناوله على وجه المـاء (à fleur d'eau) عندما يحطّ ليبيض مع كل أنواع الدُّويبات المجهريـــة (animaculs) و البقـــايا

1- القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس،ص 104.

2- هي فصيلة من سمك صغير، من العظيمات، تشبه الشبوط (المنهل، ص 228).

3- Cauvet : op.cit., p.731.

4- Id.؛ أنظر الخريطة رقم 5.

العضوية، فهو منظف لا يكل، و لا يخشى المياه الأكثر كراهة، و هو يشبه في مظهره الفيرون.*

و يحتمل جدا أن يكون له على العموم، صنف واحد متغير جدا. و يطلق عليه سكان وادي ريغ تسمية " الحلبوز "(El- halbouz)أو الأوريور (El- Ouriour)، و النطق الأخير لا ينطبق حسبما يبدو، على صنف معين، بقدر ما ينطبق على كل الأسماك الصغيرة الحجم، عموما، و هو يوافق أكثر تسمية السمك المهمل (Fretin)عند الفرنسيين، و بطبيعة الحال فإن صغر حجمه لا يجعل السكان ينشغلون بصيده، و مع ذلك، فإن البطريخ يصنع أطباقا مقلية كالفيرون تماما.[1]

و من الأسماك المتواجدة في الصحراء أيضا: الشبوطيات (Cyprinidés)،و يمثل عائلتها البوري (le barbeau)و الزينابة (L'ablette d'orient)**، و توجد هذه الأخيرة، شرق الصحراء الجزائرية، في عيون و بحر واحة الدوسن (Doucen)، على بعد خمس و ستين كيلومترا، جنوب غرب بسكرة، تقريبا، و لا توجد سوى بهذه النقطة من الجزائر، و هي سمك الجزء الأعلى، من المياه الجارية (vives)، و يحتمل أنها لم تستطع التأقلم مع النظام السيلي الإعصاري و المتقلب لمجاري مياه التل، و من المدهش جدا أنها لم تجد الشروط الضرورية لبقائها إلا في نقطة مجاورة للصحراء، محصورة تقريبا، في المنطقة المأهولة بأسماك إفريقيا.[2]

أما النوع الآخر، من الشبوطيات و هو البوري (barbus fluviatilis :le barbeau) أو بعض أنواعه، فهو الأكثر وجودا في كل أنهار التل و الهضاب العليا، حيث يكون، مع الانقليس (L'anguille)، كل الحيوانات السمكية الجزائرية، و قد عثر عليه، حتى بداية القرن العشرين، في الصحراء، بالعيون و الأودية القادمة من جبال الأطلس فقط، بوادي الصاورة، في الغدران التي تخلفها فيضانات هذا النهر، و قد يكون أتي به من جبال المغرب الأقصى. و يوجد كذلك في قنوات فجاجير (feggaguir)توات التي لا تتصل بأي مجرى مائي دائم أو مؤقت، منذ سنوات طويلة[3].

---

*- الفيرون سمكة صغيرة، من الشبوطيات، تعيش في المجاري (المنهل، ص 1065).

1- Cnt Cauvet: op.cit .p.p.713-714 .

**- هي سمكة بيضاء، فضية (المنهل،ص 4).

2- Cnt Cauvet: op.cit, p.691 sq. .

3- Cnt Cauvet: op.cit., pp.696-697 .

و هذا ما جعل Cauvet يستنتج أن الأسماك التي قدمت من الشمال لم تستطع الرجوع (remonter) سوى في العصر الذي كان فيه وادي الصاورة يجري و يتصل بالقنوات التي تعيش فيها حاليا، و أن وادي الصاورة ما زال يجري اليوم، و لو نادرا جدا، لكنه لم يعد يتصل بقنوات الواحات، و أن هذه القنوات التي حفرتها أيادي الإنسان يحتمل أنها عوضت العيون الأصلية التي كانت تغذي مجار تشكل روافد الصاورة التي يعيش فيها هذا البوري، و أن هذه العيون تكون قد برزت، بعد تغيير أرض الصحراء.[1]

و يوجد البوري أيضا شرق الصحراء الجزائرية، في عيون و بحر الدوسن(Doucen)،على بعد خمس و ستين كيلومترا، تقريبا، جنوب غرب بسكرة، و تفسير و جوده بهذه النقطة المائية، المعزولة حاليا، هو أن وادي الدوسن الذي كان تابعا لوادي جدي Djedi، ربما كان، و قد لا يزال على اتصال، أثناء الفيضانات، بوادي جدي الذي يغذي حاليا (بداية القرن العشرين) أسماك البوري، في كل الأجزاء العليا من مجراه إلى قصر الحيران (el- Hirane).[2]

و يسجل Cauvet وجود أنواع كثيرة من الأسماك شمال وادي إيغرغار لكنه يعترف أنه لم يستطع، حتى ذلك الوقت (بداية القرن العشرين)، تحديد أصنافها، و يفيد أن كتائب جنود الصحراء الفرنسيين أتيحت لها فرصة رؤيتها و صيدها، و عندما يُسأل الضباط عن هذا الموضوع، يقولون: إن تلك الأسماك هي البوري إلا أن Cauvet يرى أنه لا يمكن الاعتماد على أخبار قدمها أشخاص لهم معلومات قليلة عن الفوارق الموجودة بين مختلف أنواع الأسماك، و يعتقد أنه سيكون أمر شاذ أن يعيش بوري أوربا إلى جانب الجريات و تماسيح النيل بجبال الهقار.[3]

و يلاحظ Cauvet أخيرا أن الأسماك الإفريقية التي عرفت كيف تقاوم الجفاف التدريجي هي التي تكيفت لاتباع الماء، في ذهابه و أيابه، لمقاومة جفاف مؤقت: بعضها باتباع الماء، بجريها السريع، و بقفزها، فوق الحواجز للوصول إلى الهوات (abimes) العميقة التي لا تخشى

1- op.cit., p.697 .

2- Ibid, pp.698-699 .

3- Ibid, pp.710-711 .

اللجوء إليها، و البعض الآخر هو الذي يزحف للوصول إلى براح (laissées) الماء و الاندفـــان به، ربما، مؤقتا؛ هذان النوعان هما اللذان استطاعا المقاومة في المكان الذي انقرضت فيه الأنواع الأخرى.[1]

الإشكال الذي يبقى مطروحا بالنسبة للأسماك التي تعيش في المناطق الصحراوية، منـــذ العصر الجيولوجي الرابع، هو أن المصادر العربية المختلفة و المعروفة حتى الآن، لم تشـــر إلى أي شيء من شأنه أن يفيدنا بمعلومات في موضوعها، في فترة العصر الوسيط التي يغطيـــها هـــذا البحث، باستثناء ما أفادنا به الإدريسي عن التمساح، فهل سيتم العثور يوما على مصادر مـــن شأنها أن تملأ هذا الفراغ؟

و ما يمكن استخلاصه، في نهاية الأمر، أن أصلح المناطق لعيش الأسماك، كـــانت و مـــا تزال هي المناطق الواقعة شرق مدينة عنابة من السواحل المتوسطية، في السواحل الشمالية مـــن بلاد المغرب و كذلك سواحل المحيط الأطلسي و هذا لا يعني أنها كانت معدومة في الســـواحل الأخرى بل كانت متوفرة فيها هنا و هناك و لكن بدرجة أقل، كما كانت تعيـــش في بعـــض الأنهار و البحيرات الداخلية بل و حتى في المناطق الصحراوية الجافة.

1- op.cit., p.715 .

البـــاب الثـــالث

الفصـــل الأول

طرق استغلال الأسماك ببلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين

ظروف الصيد البحري في السواحل المغربية:

يرى Vonderheyden أن محاولة كتابةمقال حول الصيد البحري، في بلاد المغـــرب، في العصر الوسيط، تبدو مجازفة، لأن الكتاب العرب القدماء لم يزودونا سوى بمعلومات شـــحيحة عن الموضوع، و لأنه يحتمل ألا يكون، في الواقع، كلام كثير يمكن أن يقال فيه لاعتقـــاد أن الصيد البحري و الصناعات البحرية، على العموم، لم تزدهر في العصر الوســـيط، ســـوى في أماكن محدودة حيث كانت الأساليب les procédés أجنبية و ربما كان المســـتخدمون أيضـــا أجانب من أصول بونيقية أو أندلسية.[1]

و الإنسان البربري، حسب رأيه، لا يميل من تلقاء نفسه، لأشياء البحر، مستشهدا بقول S. Gsell فيما كتبه في " " تاريخ إفريقيا الشمالية القديم ": من أن البربر (Les Indigènes) لم يتعاطوا الصيد البحري بكثرة، عندما كانت بلادهم مستقلة، و قد إنجرّ عن وصول الفنيقيين، ثم الرومان بعدهم، تطوير كبير، إن لم نقل إنشاء مصائد على السواحل المتوسطية لإفريقيا الشمالية (شمال بلاد المغرب)، ثم يشك أن يكون قد نتج عن الفتح العربي (conquête arabe) توســـيع تلك الإنشاءات أو الاحتفاظ بها، على الأقل، فالقرى الفلاحية لم تخل بطبيعة الحـــال، لكـــن الصيادين، على ما يظهر، وجدوا صعوبات في بيع محصول صيدهم[2] غير أن ما يبدو للمتـــأمل في مثل هذا الكلام، هو أن صاحبه يريد أن يقول بأن البربر، دائما، في حاجة إلى أجانب، مـــن غير العرب، للقيام بالأمور الصعبة، و تطوير أنفسهم، فكأنه بهـــذا يحـــاول تـــبرير التواجـــد الاستعماري الفرنسي في بلادهم.

و يبرر نفس المؤلف ذلك بعدة أسباب، أولها: السبب الغذائي القاضي بـــأن الـــبربر لا يتذوقون كثيرا لحم الأسماك، و حجته على ذلك، ما يمكن ملاحظاته، في أيامه، من أن الســـكان القبائل القريبين جدا من موانيء الصيد أو مراكز تجمعات الأوربيين (المستعمرين) الممونة جيـــدا بالأسماك الطرية، يجهلون طريقة طهيها و يحاول تفسير هذه الظاهرة بعدة افتراضات، منـــها، كما يقول، التوجه الإسلامي (le souci musulman) المتمثل في عدم أكل لحم الحيوانات غـــير المذبوحة، مع العلم أنه لم يكلف نفسه هنا بالإطلاع على مصادر الفقه الإسلامي التي تجمع

1- op.cit., p.3 ·

2- Id ·

على أن الأسماك، بمختلف أنواعها، تؤكل بدون ذكاة أو ذبح[1]؛ و لكنه يشير إلى العثور، أحيانا، على شخصيات كثيرة التقوى و النسك، تقتات بالأسماك، على الخصوص[2]، مع العلم أنه أطلق حكمه الخاص بذبح الأسماك، على عامة المسلمين، و هذا خطأ فادح بطبيعة الحال، لكنه لو اقتصر، في حكمه على البرغواطيين، سكان تامسنى لكان على صواب، لأن الديانة التي شرعها لهم صالح بن طريف تقضي ألا يؤكل السمك " إلا أن يذكى " أي يذبح، و كان صالح هذا قد تولى ملكهم، خلفا لأبيه طريف بن شمعون الذي لجأ إلى المنطقة، بعد مقتل ميسرة المطغري و تفرق أصحابه، و هو من بينهم[3] ، غير أن نحلتهم هذه لا علاقة لها بالإسلام.

و يرد ثاني تلك الأسباب إلى وجود ممنوعات طوطمية، قديمة جدا، دون أن يبحث عن آثار تلك الممنوعات المحتملة أيضا، و السبب الثالث يكمن، حسب رأيه، في كره البربر الغريزي و عدم تعودهم على أكل لحم الأسماك، و يستمد Vonderheyden دليله " الكافي " من أن عرف استهلاك الأسماك لم يكن جاريا في المجتمع البربري القديم، اعتمادا على كون السكان (indigénes) في وقته (فترة الاستعمار الفرنسي بالجزائر) لا يقتاتون بالأسماك إلا في بعض القرى (bourgs) التونسية المعروفة (façonnées)بتقاليد بحرية؛ أما العرب، في نظره، و بالخصوص أولئك الذين قدموا للسكن بإفريقية، فهم أقل تذوقا للسمك، إضافة إلى كونهم استقروا بداخل البلاد(4)؛و لعل أقل ما يمكن قوله في مثل هذه الآراء و الأحكام أنها تتميز ببساطة ملحوظة، خاصة ما يتعلق منها بالحكم التعسفي على أذواق الغير، فالموضوع يتطلب بحثا معمقا يأخذ بعين الاعتبار عوامل علمية كثيرة.

و حسب نفس المؤلف دائما، فالسوق الداخلية، بما فيها القريبة من السواحل، يبدو أنها كانت دائما مغلقة في وجه منتجات الصيد مستشهدا مرة أخرى بقول S. Gsell من أن ورشات التمليح الفنيقية لم يكن في استطاعتها بيع منتجاتها لمختلف القبائل، مضيفا أن بعض الورشات التي استمر وجودها في العصر الوسيط، لم تتمكن من توسيع سوقها بدليل قول

1- أنظر ما بعد ص381.

2- op.cit.,p.4, note 1 .

3- أنظر البكري: المغرب، ص 135 فما بعدها من عدة صفحات.

4- Vonderheyden : op.cit., pp.3-4 .

الرحالة Marmol، في القرن السادس عشر " تصطاد أسماك كثيرة بدلس لكن الصيادين كثيرا ما يلقونها في البحر، لأنه لم يقبل أحد على شرائها "[1]. مع ملاحظة أن Vonderheyden لم يـأخذ بعين الاعتبار القصد من قول Marmol هذا و ممن سبقه من المؤلفين، و هو وفرة صيد الأسمـاك بحيث رُجّح العرض على الطلب، و في مثل هذه الحالات، مازال، في أيامنا، و على مسـتوى كل موانئ الصيد حدوث مثل هذه الظاهرة و هي أن يلقي الصيادون بالفائض من أسماكهم في البحر حتى تكون غذاءً لأسماك يصطادونها فيما بعد و لكي لا تبقى في المرافيء و تتحـول إلى قاذورات ملوّثة للبيئة، و لا نتفق هنا معه في اتخاذه هذا الأمر الذي كـان يحـدث في دلـس، آنذاك، بصفة خاصة، دليلا على غلق السوق الداخلية، بما فيها القريبة من الساحل، في وجـه منتجات الصيد البحري.

و يقول Vonderheyden ، من جهة أخرى: إن البربر لا يحبون كثيرا البحـر كذلـك، مبررا رأيه هذا بما ذكر A. Bernard في مقال عن عواصم في بـلاد البربر في (Recueil des mèmoirs) و هو أن " البربر كانوا دائما ملاحين رديئين (piètres)، و الماء ليس بيئة لهم، فـهم يخشونه و لا تعرف غالبيتهم صناعة و لا توجيه مركب تجـاري " و يعـزز Vonderheyden فكرته بما نقله و ترجمه M. Brunot من مثل بربري في كتابه " البحر في تقـاليد و صناعـات الأهالي، ط. الرباط – سلى ، ص 241 و معناه أن " من دخل البحر (أي سافر فيه) ينبغـي أن يعتبر نفسه ضائعا، و من خرج منه (وصل الميناء) يولد للمرة الثانية " ثم إن الفـاتحين العـرب الذين عدلوا شيئا فشيئا، خلال العصر الوسيط، مظهر المغرب، كانوا شيئا آخر إلا بحـارة [2] و الواقع أن المنطق السليم لا يقبل كلاما كهذا، لا يقوم على أي أساس علمي بالإضافة إلى مـا تشتم فيه من رائحة ازدراء الغير، و الغرور بالنفس.

و الجدير بالملاحظة أن Vonderheyden يناقض نفسه في تعليق كتبـه في هـامش 2 ، صفحة 5، من مقاله، جاء فيه: إن الأفارقة، و يلاحظ هنا أنه تفادى التسميات التي سـبق لـه و أن استعملها، و هي البربر أو العرب أو الأهالي (indigènes)، و كأنه يتحدث عـن أنـاس آخرين، المهم أن هؤلاء في نظره، يظهرون في أوقات استثنائية نشيطين جدا على البحر، خلال

1- Vonderheyden : op.cit.,.p.4 ·

2- Ibid, pp.4-5 ·

العصر الوسيط، و من المعروف أن البربر المخاطين بالعرب، على حدّ تعبيره، فتحوا (Conquirent)، في القرنين الثامن و التاسع إسبانيا و جزر البليار و صقلية و سردينية و وصلوا شواطيء البروفانس provence ، و أن الأمراء الأغالبة الذين كانوا يحكمون البلاد التونسية (Tunisie)، في القرن التاسع ، كانوا يسيطرون على البحر، في منطقة مضائق صقلية و لكن تبقى علينا معرفة ما إذا كانت شمال إفريقيا تقدّم شيئا آخر غير المسافرين، و ما إذا لم يكن البحارة من الروم المعتنقين للإسلام، و قد كانت دُورٌ لصناعة السفن في تونس و بجاية، و منذ القرن الحادي عشر الميلادي، أخذت بلاد البربر تتخلّى شيئا فشيئا عن نشاطها البحري، و دخل المسرحَ البحارةُ النُّرمان ثم الجنويون و غيرهم، غير أن أسرة الحماديّين الصغيرة احتفظت بأسطول للتجارة أو القرصنة، كما اشتهرت، فيما بعد، أساطيل مدينة الجزائر التركية و لكن قراصنة مدينة الجزائر و ربما قراصنة تونس و بجاية الخ... كانوا أناساً جاءوا من الخارج و مهما يكن، فما هي سوى بحرية نقل تجاري أو قرصنة، و الأمر لا يعني أسطول صيد بأعالي البحار (hauturiére).

و يلاحظ هنا أن Vonderheyden ، على الرغم من تقديمه بعض المعلومات الدّالة على وجود نشاط بحريّ في سواحل بلاد المغرب المتوسطية إلاّ أنه يَبْقَى مصرًّا على تجريد البربر، و معهم العرب، من كل قابلية لممارسة الملاحة البحرية، دون أيّ تبرير؛ (معزة و لو طارت).

و يرى J. Despois أن ظروف الصيد كانت، في جملتها جيّدة، بما فيه الكفاية، و خاصة في طرفي شمال إفريقيا (بلاد المغرب) و لكن السّكان البربر، حسب رأيه صرفوا النظر (ignoré) عن البحر مدّة طويلة و لا يظهر أن الأمر كان دائما هكذا: فعندما كان لبعض أمراء المغرب أسطول، خلال القرون الماضية، لم يكن اعتمادهم، على البحارة المشارقة و الأجانب وحدهم[1] و كلام Despois كما يلاحظ لا يختلف في مضمونه عن كلام Vonderheyden .

و في رأي B. Rosenberger فإن الإمارة الزيرية، على سبيل المثال عرفت عدّة موانى منتعشة، كان الصيد البحري بها نشيطا، و هي عنابة و تونس و المهدية و المنستير و سوسة و صفاقس و قابس[2] و هذا يتناقض مع ما ذهب إليه G. Souville من أن البحر لم يستمل أبداً

1- op.cit, p.459 .

2- op.cit, pp.210-211 .

سكان شمال إفريقيا و أن ممارستهم للصيد البحري أو الملاحة لم تكن سوى ممارسة ثانوية، و ما زال، في نظره، أغلبيّة البربر يعرضون عن البحر حتى في أيامنا، و يلاحظ أن ممارسة العدد القليل منهم للصيد البحري هو أقرب إلى الإلتقاط (Cuillette) منه إلى الصناعة[1] و يُفسّر ذلك بقلة ميلهم إلى هذه الحرفة و ليس لقلة استعدادهم لها[2]، بدليل أنهم يشكّلون اليوم (في منتصف القرن العشرين) الأكثرية في فرق الصيد.[3]

و ينسب Vonderheyden ذهنية النفور من البحر إلى الجزائريين، بصفة خاصة، ذاكرا أن M. A. Bernard يردّها إلى رداءة الظروف الجغرافية حيث أنها قليلة الملاءمة لبروز حضارة بحرية و الوضع في تونس يختلف إلاّ أن الأمزجة العربية - البربرية هي نفسها. مع الإشارة إلى وجود مجموعات عائلية، في عدّة نقاط ساحلية مرتبطة جدًّا بأشياء البحر، تعيش من الصيد البحري، منذ زمن طويل، ربما، منذ العهد الفنيقي، و هم غير مستعدين للتخلّي عنه.[4]

و السؤال الذي يتبادر إلى الذهن، عند الاطلاع على ما كتبه Vonderheyden و غيره حول الجانب الإنساني من ظروف الملاحة في شواطيء المغرب، في العصر الوسيط هو: لماذا لم يُدخِل هؤلاء هذا الموضوع، في إطار ظروف الملاحة في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط بضفّتيه، الشمالية و الجنوبية، و هذا من شأنه أن يوفر عنهم، بدون شك، جهدا كبيرا يبذلونه في القيام بافتراضات، كثيرا ما أبْعدهم عن الموضوعية؟

و المعروف أن ظروف الملاحة في المنطقة الغربية من حوض البحر الأبيض المتوسّط، لا تلائم النشاط الإنساني في كلّ جهاتها، بما فيها الضفتين الشمالية الأوربية و الجنوبية المغربية، لأن المواقع المرفئية الجيّدة نادرة بها: فمصبّات الأنهار الكبرى، التي يمكن أن توجد، لا تُسلك إلاّ بصعوبة، بسبب التغرّن النهري، و القطاعات الرملية الواسعة تُشكّل شواطيء بُحيرية (lagunaires) متغيّرة جدًّا، في حين أن الشواطيء الصخرية كثيرة الصعوبة للتهيئة، من جرّاء الأعماق الهائلة المحيطة بها؛ و من جهة أخرى فإن ظروف الأحوال الجوية غير مستقرّة عادة، و الأعاصير التي تصيب الحوض الغربي المتوسطي يمكن أن تبلغ درجات من العنف تجعل الخروج

1- La pêche et la vie maritime au néolitique en Afrique du Nord, p.15 .

2- Ibid, p.17 .

3- Id, note 5 .

4- la pêche sur les côtes barbaresques que au moyen Age, p.5 .

في البحر ممنوعا لعدة أسابيع.[1]

فتنمية موارد البحر تفرض، في البداية، التزامات قاسية جدا على الانشغال الإنساني، فليس غريبا إذا أن يُرى، خلال التاريخ، فرق واضح جدا، يحدث بين السكان المهتمين بتنمية الموارد البحرية و سكان الريف، و هكذا تم احتلال الحوض الغربي من البحر المتوسط بواسطة جماعات صغيرة انتشرت عبر آلاف كيلومترات الساحل، ليس لها سوى علاقات ضعيفة مع الداخل، لكنها حافظت فيما بينها، على علاقات وثيقة جدا، إضافة إلى أن السكان الريفيين نزحوا عن الساحل، في غالب الأحيان، و لم ينشغلوا بتنمية موارد البحر إلا نادرا، في بحيرات شاطئية معزولة، و بقي الصيادون إذا في عزلة تامة، و في صراع مع صعوبات معتبرة للحفاظ على تماسك و وجود مجموعاتهم السكانية التي تفصلها عن بعضها، أحيانا، مسافات هامة جدا، و من ثمة، فإن نشاط الصيد البحري لم يكن سوى امتداد للمستعمرات القديمة التي استمرت إلى يومنا (منتصف القرن العشرين)[2].

تلك هي وضعية الصيد و الصيادين في كامل الحوض الغربي للمتوسط، و لا يمكن القيام بدراستها دون أخذ هذه المعطيات بعين الاعتبار، و من ثمة فإن معظم الآراء و الافتراضات التي أدلى بها بعض دارسي هذه المسألة في سواحل بلاد المغرب الشمالية، في العصر الوسيط يحتاج الأمر فيها إلى إعادة النظر، مع اعتبارها، أولا و قبل كل شيء، جزء من كل، بمعنى أنه لا يمكن دراسة الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط بمعزل عن بقية أنحائه، و هذا ينسجم تماما مع رأي M. F. Doumenge القاضي بأن " فهم حياة الصيادين في حوض البحر الأبيض المتوسط يحتاج ، قطعا، إلى تصور مشاكل الحوض بكامله، على مستوى الموارد التي توفرها المياه، و في نفس الوقت، على مستوى التقنيات التي تمكن الإنسان من تنظيمها للاستغلال"[3].

1- M. F. Doumènge : op.cit., p.7 ·

2- Ibid, pp.7-8 ·

3- Ibid, p.8 .

طرق الصيد البحري:

لقد زودتنا المصادر العربية بمعلومات كثيرة في موضوع الصيد البحري و الصيادين، من ذلك أن الحسن الوزان ذكر في حديثه عن حصن المحرس الذي شيد في عهده (ق 16 م)، على بعد خمسين ميلا من جزيرة جربة " أن الكثير من سكان هذه الأخيرة كانوا يعملون، آنذاك، في السفن و الصيد البحري "[1] أي أنهم كانوا يمارسون الصيد في السفن و مما لا شك فيه أن تلك الحرفة لم تكن وليدة تلك الأيام و إنما كانت قديمة الوجود و يبقى التعرف عن تاريخ نشأتها مرهونا بما قد تطلعنا عليه الوثائق في المستقبل.

و من جهته أورد ابن حوقل (ق 4هـ/10 م) أن أهل صفاقس كانوا يصطادون الأسماك بكثرة بواسطة حظائر يزربونها[2] و هي، حسب Vonderheyden ، عبارة عن آلات (engins) تناسب الصيد في المياه الراكدة، من مصبات الأنهار، في الجهات المحمية القليلة العمق، و الحظيرة (gords)، حسب هذا الأخير عبارة عن نطاق من العصي الطويلة (enceinte de perche) ، يصعب على الأسماك التي تدخلها الخروج منها[3] مع العلم أن ابن حوقل لم يشر بهذه المناسبة إلى تسمية زروب المعروفة في أماكن متعددة، كما يقول Vonderheyden [4] بل استعمل عبارة " حظائر يزربونها "، و قد أطلق الحسن الوزان تسمية الأشبرس (Spares) على أهم سمك كان يصطاد هناك موضحا بأن هذه التسمية ليست لاتينية و لا بربرية و لا عربية[5] و مما ذكره الإدريسي (ق 6هـ/12 م) في نفس الموضوع، أي الصيد في صفاقس أنه كان يمارس " بضروب حيل "[6] أي بتقنيات خاصة.

و لم تزودنا المصادر العربية، مع الأسف الشديد، بمعلومات من شأنها أن تبين لنا طرق الصيد و لا أنواع الأسماك التي كانت تشكل الغذاء الرئيسي لسكان رباطات جبل أدار، جنوب

1- J. Léon L'Africaine: Description de l'Afrique, T.2, pp.399-400 ؛ أنظر الخريطة رقم11.

2- صورة الأرض، ص 71؛ الترجمة الفرنسية J. H Kremer, G. Wiet : op.cit., p.67 .

3- Vonderheyden : op.cit., p.22 .

4- op.cit., p.22 .

5- Description de l'Afrique, T.2, p.394 .

6- المغرب العربي، ص 142؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 130.

تونس[1]، و المنستير، بين سوسة و المهدية؛ و شقانص، بين المنستير و المهدية[2] باستثناء سمك يسمى " حوت قلفط " اشتهر على ما يبدو في المنستير[3].

و ينفرد صاحب كتاب الاستبصار (ق6هـ/ 12 م) بالقول: إن الحوت يتوالد في البحر ثم يغادره صغيرا، لا يتعدى قدر اللوزة إلى بحيرة بنزرت ليكبر فيها، و عندما يأتي وقت سفاده و ولادته (تكاثره) يعود من حيث أتى، و هناك يترصده الصيادون، عند خرج البحيرة و يصطادونه[4]، و هذا يدل على أن الصيادين آنذاك كانوا منتبهين إلى أن فترات السفاد و الولادة أي التسرئة (frai) مهمة جدا للصيد.

و كانت هذه الظاهرة تتسبب إما في اختفاء مؤقت لأسماك الشواطيء التي تبتعد عنها و إما بتوافد أنواع مختلفة، في أوقات معينة من السنة، فينتهز الصياد تلك الفرصة و يتربص بها للحصول على غنائم مثمرة منها، فمشاهدة تلك العادات هي التي جعلت الصيادين يُعِدّون لها مَصْيدات ثابتة، في البحيرات، و معرفتها تعطي الصياد المجرب إرشادات عن مرورها و عن ندرة بعض أنواعها، و عن الوقت الملائم لصيد أفضل العينات، قبل التسرئة.[5]

و يبين E. Fagnan، مترجم كتاب الاستبصار إلى الفرنسية أن هناك خلافا، بين نصين معتمدين في ترجمته و هما النص الذي اعتنى بطبعه Kremer و مخطوط .A الذي اعتمد عليه هو، إلى جانب نص ط. Kremer: ففي حين ورد في الأول، فيما يخص الصيد ببحيرة بنزرت: " فيصاد بالنقارة كما يصاد الحمام"، ورد في مخطوط " A" " فيصاد في المجد (au seuil) الذي بينهما، أي بين البحر و البحيرة، و منه ما يصاد بالنقارة "[6]، و يرجح Fagnan ما ورد في مخطوط .A، و على أساسه كانت ترجمته، و لم يأخذ بنص Kremer الذي يربط عملية الصيد بالنقارة، في كل الحالات، حتى عند " المجد ".

1- أنظر البكري: المغرب، ص 84.

2- أنظر. ابن حوقل: المصدر السابق، ص 73؛ الوزان op.cit., T.2, p.391 .

3- أنظر: المالكي: رياض النفوس، جـ1، ص 422 فما بعدها.

4- مؤلف مجهول: ص 16؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan : op.cit., p.27 .

5- أنظر A. Borrel : la pêche sur les côtes septentrionales de la Tunisie, p .24 .

6- أنظر E. Fagnan : op.cit., p.27, note 1 .

مع العلم أن نص Kremer يتفق عموما مع مضمون مـــا أورده كـــل مـــن البكـــري و الزهري، حيث يذكر الأول أن الصياد يأتي " بحوت يقال إنه أنثى الصنف المعروف بـــالبوري ثم يتبعها بشبكته " ليخرج ما شاء من السمك؛ [1] و يعلق Vonderheyden عما جاء في قـــول البكري من أنه عندما يأتي التجار إلى الصياد لشراء السمك يطلب منهم أن يحددوا نوع و عدد الأسماك التي يريدونها ليصطادها لهم بأن ذلك يبدو متناقضا مع المعلومات التي تفيـــد بوجـــود صنف واحد في البحيرة، في الشهر الواحد، لا غير[2].

و يذكر الثاني، أي الزهري، أن الحوت في هذه البحيرة يصاد بالنقارة، و هي تســـمية تطلق على أنثى أيّ نوع من الأنواع التي تظهر بها منه فيوثق منها عدد في السنانير و الأخياط ثم يلقى بها في البحر ليجتمع عليها الحوت، و عندها يرمي الصيادون عليها صراريـــح (شـــباكا) و يأخذوا منها كميات كبيرة.[3]

و الملاحظ هنا أن نص kremer يوفّق بين ما أورده المصدران الســـابقان، و يضيـــف معلومات جديدة، منها: أن الحوت يصطاد، عند خروجه من بحيرة بترزت إلى البحر الأبيـــض المتوسط و أنه يصطاد بالنقارة أو النقازة* كما يصاد الحمام، و النقارة، حسب رأيه هي أنثـــى حوت البوري، و هو هنا يتفق مع البكري و يختلف مع الزهري ثم يشرح أخيرا كيفية الصيـــد بها: إذ يكون ذلك بربط خيط في خرص** وثيق في شفتها و يلقى بها في البحر لتسير و يتبعـــها الصياد بزورقه و شبكته، وعندما تدور عليها الذكور يرمي عليها الشبكة، و يخرج ما تيســـر ثم يعيد الكرة إلى أن يكتفي.[4]

1- البكري: المغرب، الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane: op.cit., p.123 .

2- op.cit., p.24 ,

3 - كتاب الجغرافيا، ص 108.

*- كتبت النقازة في ط . Kremer و النقارة في مخطوط " A" (E. Fagnan : op.cit, p.27, note 1)؛ و كتبت النقارة في نص الزهري (Id) مما يرجح الكفة لصالح استعمال كلمة النقارة.

**- كتبت هذه الكلمة في نص Kremer خرش، و كتبت جرش في مخطوط " A" غير أن Fagnan يـــرى أنـــه بالإمكان التفكير في كلمة خرص و تعني عصا (bâton) أو ساقا (tige) (op.cit., p.27, note2).

4- مؤلف مجهول، ص 16؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.27 .

و قصة الصيد بطريقة النقارة، حسب Vonderheyden ، ليست خرافية لدرجة كبيرة، إذ ما يزال صيد الحبار يتم حتى الآن بنفس الطريقة المسماة " الصيد بالأنثى ".[1]

و يختلف ابن زنبل عن كل هؤلاء بقوله: يحكى أن إناث الحوت تظهر كل شهر، و لما يجتمع حولها الذكور يلقي الصيادون عليها شباكهم فيصطادون كميات كبيرة[2]، و يتضح وجه الخلاف هنا في كون التفاف ذكور الحوت حول إناثه يحدث، حسب هذه الرواية تلقائيا لا دخل للصيادين فيه، على عكس رواية المؤلف المجهول، و يختار Vonderheyden من كلام هذا الأخير " فيصاد في المجد (seuil) الذي بينهما (أي بين البحر و البحيرة) و منه ما يصاد بالنقارة " فيترجمه كما يلي: "on prend surtout le poisson au seuil qui sépare la mer du lac de Bigerte" أي " فيصاد السمك، على الخصوص، في المجد الذي بينهما " بمعنى أنه أضاف في ترجمته كلمة "على الخصوص " (surtout) مما يؤدي، و لا شك إلى تغيير المعنى الذي يقصده صاحب النص الأصلي.

المهم أن المقصود من هذا الكلام، حسب Vonderheyden ، هي المصيدة (la bordique) أي ما أسماه ابن حوقل بالحظائر المزربة، و ما أطلق عليه هو الزروب و يرى أن مصائد الأهلي الحالية، كما وصفها gruvel ، تبدو أكثر تطورا بالنسبة لمثيلتها في العصر الوسيط، و أن تسمياتها تتغير، من منطقة إلى أخرى: فهي إما زروب مفردها زربة و إما شرفية و تنتشر زروب الأهالي (indigénes) بصفة خاصة في مناطق جربة و صفاقس و قرقنة و بحيرات: بنزرت و إشكل و تونس[3].

و يطلق تسمية الزروب، في الطرف الآخر من السواحل المغربية، صيادو تطوان، على آلة شبيهة بزروب ابن حوقل و الوزان، أكثر مما هي شبيهة بالزروب التونسية، إذ يفيد M. joly ، حسب Vonderheyden أن سكان تطوان يصطادون الشابل و البوري، في النهر، بزروب مثبتة، عند مخرج حفرة في مجرى الوادي؛ و يدخل رجل قبلها (à l 'amont) و يحدث ضجيجا فيطرد الأسماك نحو الخلف (L'Aval)[4].

1- op.cit., p.24.

2- Tohfat l- Moulouk, texte arabe, p.55.

3- J. H. Kremer, G. Wiet : op.cit., p.22

4- Ibid, pp.22-23.

و يمكن التقريب، في نظر نفس المؤلف، بين الصيد بالزروب و الصيد بالبشكيرة الـذي يمارس، حسب M. Brunot في الصويرة (Mogador) " حيث يبنى جدار على قعـــر (fond) منبسط، من حجر جاف (séches) يغطيه مدّ البحر (Marais haute) كلية... و عند حـــدوث المدّ تتقدم الأسماك نحو الأرض، خلف الجدار، و عندما يتراجع البحر أي عند الجزر يتسرب الماء بين الأحجار، و تبقى الأسماك مأسورة، دون ماء، في أغلب الأحيان، بين الجدار و الشاطيء"[1] و يتساءل Vonderheyden عما إذا كانت هذه الطريقة معروفة في نهاية au fond خليج قابس و في نواحي طرابلس، على الرغم من أن المد و الجزر هناك أقل حساسية منه في المحيط الأطلسي بدرجة كبيرة.[1]

مع ملاحظته بأن السكان المجاورين لساحل طرابلس الذين كانوا قديما عند نهاية ســيرت الصغرى، في عهد سترابون (Strabon) يحتقرون الشباك و الرمح، و يفتخرون بأنهم ينتظـــرون وقت انخفاظ ماء البحر، بعد مدّه؛ للانطلاق خلف الجزر، و القبض بسرعة فائقة، على الأسماك مباغتة، فوق الرمل المكشوف، و هي تحاول الوصول إلى الماء، و يتساءل Vonderheyden أخيرا عما إذا كانت الأجيال اللاحقة قد تخلّت عن ممارسة صيد مُريح لهذا الحد، أم أن نظـــام المـــدّ و الجزر قد تغير، بدرجة كبيرة، منذ عهد سترابون؟[2]

و يتم صيد المرجان (le corail)، عادة صيفا، من شهر مايو إلى شهر أكتوبـــر، و قـــد يستمر طول السنة و لكن في هذه الحالة، ينبغي أن يأخذ الصيادون في الحسبان الوقت و حالـــة البحر الذي قد يعيق حركة الصليب المستخدم في الصيد[3]، و يقدر ابن حوقل (ق.4هـــ/ 10م) عدد القوارب التي كانت تستخدم، غالب الأوقات، في إثارة (إخراج) المرجان بخمسين قاربـــا و أكثر، و يصعد على متن كل قارب حوالي عشرين رجلا.[4]

و قد حاول المقدسي وصف طريقة استخراجه من البحر فذكر أن العــــاملين في هـــذا الحقل يلفون على صلبان من خشب شيئا من الكتان المحلول و يربطون في كل صليب حبلين،

1- Vonderheyden : op.cit., p.24 ·

2- Ibid , pp.24-25 ·

3- A. Borrel : op.cit, p.27 .

4- صورة الأرض، ص 75؛ الترجمة الفرنسية op. Cit., p.7 .

يأخذهما رجلان، يرميان الصليب في البحر في حين يشرع النّواتي (les rameurs) في الـــدّوران بالقارب، و لّما يتعلق الصليب بقرن المرجان (banc de Corail) يجذبونه فيخرجون ما تـتراوح قيمته ما بين عشرة آلاف و عشرة دراهم.[1]

و يذكر صاحب كتاب الاستبصار أن البحارة يلقون على الصلبان جـرّات (bourses) الكتان أو القنّب (Chanvre) و يثقلونها بمراس (ancres) ليلقوا بها في البحر و يمشون بـالزوارق فيُسحب ذلك الكتان على قعر البحر و يُكسر ما اعترض طريقه من مرجان و يتعلق بعضـه في ذلك الكتان فيأخذونه، و يَضيع بعضه الآخر في البحر، و هناك من ليس له، من الناس، حرفـة سوى استخراجه.[2]

و هناك طريقة تقوم، حسب الإدريسي، على اصطياد المرجان بـآلات (outils) ذات ذوائب (mèches) كثيرة من القنب، و تُدار تلك في أعلى المركب فتلتفّ الذوائب (الخيـوط) على نبات المرجان القريب منها، و عند ذلك يجذبه رُكّاب القارب إلى أنفسهم مسـتخرجين الشيء الكثير منه مما يباع بالأموال الطائلة[3].

و قد أضاف القزويني بعض التفاصيل، فيما سجله عما حكاه له شاهد عـن كيفيـة استخراج المرجان، منها أن طول كل خشبة من الخشبتين، اللّتين يُتخَذ منهما الصليـب، ذراع واحد، و بعد صنع الصليب يُشدّ فيه حجر ثقيل ثم يوصل بحبل، و يلقى فوق منبت المرجـان بالبحر حتى ينتهي إلى قعره (قراره) و يوجّه القارب يمينا و شمالا و مستديرا ليتعلق المرجـان في ذوائب الصليب، و عندها يُقتلع بقوّة[4].

و كان العاملون في حقله يَجْنون، حسب ابن حوقل، أرباحا طائلة جعلتهم يكـثرون الأكل و الشرب و الخلاعة، و قد كانوا يتعاطون نبيذ العسل فيسكرهم كثيرا و يسبب لهـم

1- Description de l'occident musulman au IV^{e} X^{e} s., p.48 et 50, Trad. Fr., p.49et 51؛ و النوتي الملاّح الذي يدبرا السفينة في البحر جمع نواتي (لسان العرب، جـ6، ص 738).

2- مؤلف مجهول: ص 16-17؛ اللترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., pp.28-29 ؛ يلاحظ هنا خطأ في الترجمة إلى الفرنسية حيث ترجمت عبارة " فينكسر المرجان و يتعلق بالكتان فيقتلعونه و يأخذون ما تعلق منه " بـ " et brise les coraux, qui s'y attachent et ou ensuite on les recherche......".

3- المغرب العربي، ص 153؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 141.

4- آثار البلاد، ص 261.

صداعا أشد من صداع نبيذ الذرة و غيره من الأشربة.[1]

و قد منح حكام تلك النواحي حق صيد المرجان إلى شركات أوربية منذ فترة مبكرة، رغم أن سكانها لم ينظروا إلى هذا الأمر بعين الرضى، و منذ القرن الثاني عشر الميلادي (1167 م) و الثالث عشر أخذ البنادقة يصطادونه ثم تلاهم الجنويون؛و في سنة 1286م تعرضت مرسى الخرز لغارة قام بها عليها Roger Loria و بعدها انقطعت المعاملات بين الطرفين.[2]

و ينقل Vonderheyden عن Féraud ، من كتّاب تاريخ بجاية أسطورة مفادها أن السلطان الحمادي الناصر، مؤسس بجاية، تنازل عن العرش لصالح ولده المنصور ثم اختفى ليلا، و ذلك لأن الولي، سيدي تواتي، أظهر له ذات يوم، من خلال ثقب برنوسه، أثناء جولة في قارب، مدينة بجاية، و هي ممزقة مخربة، (تجسيد مسبق لسقوطها القادم)؛ و استمر البحث عنه مدة أربع سنوات، و في النهاية عثر قارب صيد، صدفة، ذات يوم بجزيرة جربيبه (جزيرة البنادقة) على زاهد عار تقريبا، نحيل الجسم، هو السلطان نفسه، و كان قد عاش تلك المدة كلها في تلك الجزيرة على السمك، إذ كان كلما غطس يده في البحر تعلقت سمكة بكل أصبع من أصابعه، و استمرت إقامته هناك إلى أن توفي.[3]

و قد يتساءل المرء عن الأسباب التي جعلت Vonderheyden يكلف نفسه رواية هذه الأسطورة في بحث من المفروض أن يكون علميا؟

و الإجابة عن مثل هذا التساؤل بسيطة للغاية، فالغرض من ذلك هو استنتاج فكرة تهكّمية مفادها أن " بعض الشخصيات، من أصحاب الحظوة السماوية، لم يكونوا في حاجة إلى آلات صيد... و بالنسبة لأغلبية البشر فلا يكفي غطس اليد في الماء لأخذ السمك و إنما يتطلب الأمر آلات لذلك "[4].

و جاء بكل هذا لغرض تدعيم فكرته التي لخص بها مبحثه و هي أن " بساطة (rudicité) الآلات حالت دون القيام بعمليات صيد واسعة النطاق و أن الاصطياد لم يكن يتم في عرض البحر بل كان يتم، غالبا، على الشاطيء، و خاصة في زوايا المياه الراكدة و الأعماق البسيطة

1-صورة الأرض، ص 75؛ الترجمة الفرنسية J. H. Kremer et G. Wiet : op.cit., p.71 .

2- Vonderheyden : op.cit., p.31 .

3- op.cit., p25 .

4- Id. .

و البحيرات الشاطئية (باستثناء صيد التن بالمضربة (madrague) و الرماح (harpon)؛ و أن الآلات الرئيسية المستعملة هي خيط ذو سنارة (ligne)، بالقصبة أو بدونها، و شبكات بسيطة (rudimentaire)، و قد خصصت مكانة معتبرة لصيد الزروب، سواء في الأودية أو في البحيرات الشاطئية (lagunes) أو في الخلجان الصغيرة المحمية ".[1]

غير أن Vonderheyden كما يلاحظ اكتفى بالتوقف، في هذه الأسطورة، عند الجانب الذي يخدم فكرته و قد خفي عليه أو أهمل جانبا آخر لا يخدمها، و يتعلق الأمر بقارب الصيد الذي عثر على السلطان بجزيرة البنادقة و الذي يمكن أن يقوم كدليل على ممارسة الصيد في عرض البحر و ليس فقط في الأماكن التي عددها Vonderheyden و الموضوع ما زال في حاجة إلى بحث، و لعل مبرر قلة المادة فيه يعود إلى كونه كان يتم بعيدا عن أعين الناس، و من بينهم المؤرخون و الجغرافيون، و قد يقتحم الأثريون هذا المجال في المستقبل و يساهمون في توضيح هذا الجانب التاريخي الحضاري المهم.

و يفيد الوزان أن سكان مدينة باديس يعتمدون في عيشهم على السردين بالدرجة الأولى و أسماك أخرى معها، و كان الصيادون يصطادونها بكثرة لدرجة أنهم كانوا يحتاجون إلى مساعدات بعض الأشخاص لإخراج شباكهم من البحر، و لهذا كان فقراء الناس يتوجهون، عادة، كل صباح إلى الشاطيء لمساعدتهم في مقابل أن يحصلوا على نصيب وافر من السمك يأخذونه و يوزعونه على كل الذين يوجدون بعين المكان.[2]

و يتفق كل من الزهري و ابن زنبل على أن سمك التن يصطاد، عند أول خروجه ببلاد الأندلس، و في جزيرة كريت التي تصل إليها رحلته، و في أول يوينيو يعود إلى مكانه، مرورا بمضيق جبل طارق، فيصاد عند طرف الفخ، و هو طرف جبل طارق أو جبل الفتح، و يصاد ما دخل منه في حوز (خليج) مربلة و مليلة بالشباك، و ما خرج منه على طرف الفخ إلى

1- Vonderheyden : op.cit., p.26 ·

2- op.cit., T.1, p.275 .

ساحل المغرب يصاد في المكان المسمى تامسان أو منتاز، من عمل سبتة؛ و أمّا ما شق منه على وسط المضيق، شرق جزيرة طريف، فلا يُتمكّن منه، بل يعود من حيث أتى، و لا يغادر مكانه إلاّ في نفس الشهر من السنة الموالية.[1]

أمّا طريقة صيده فزيادة عن استخدام الشباك التي يتحدّث عنها المصدران السّابقان فإن الإدريسي يشير إلى استخدام رماح لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب (ترشق) في الحوت و لا تخرج، و في أطراف عصيّها شرائط (حبال) طوال من القنّب، و مهارة صيادي سبتة بالرمح لا مثيل لها[2]؛ و يعتقد Vonderheyden أن هناك طريقة صيد تتطلب نزهة صغيرة في عرض البحر، لا بدّ و أن تكون قد عُرفت، على الرغم من أن المصادر لا تتحدّث عنها بصراحة: إنها المضربة (la madrague)، و هي عبارة عن شبكة معقدة إلى حدّ ما، و مفصلية، تنصبُّ عموديا على الشاطيء (rivage) لتوقيف مرور التنّ، و قد تكون طريقة قديمة جدًّا، لأن التنّ كان يصطاد في فترة التاريخ القديم و خاصة في منطقة صقلية، أثناء رحلته نحو الشرق للتسرئة، حيث يقترب كثيرا من الشواطيء (من 700 إلى 1500 م)، و قد قُدّر عدد أسماك التّن المصطادة في مضربة مدينة بترت سنة 1846 بأربعة إلى خمسة آلاف سمكة سنويا، و الآلات التي ما زال الصيادون يعملون بها، و عادات الحيل المرتبطة بها، لا يبدو أنها تغيّرت منذ قرون.[3]

و يلاحظ نفس المؤلف أن كلمة madrague الفرنسية مأخوذة من almadraba الإسبانية المنبثقة عن المضربة العربية، و تعني مكان الضرب، إذ أن الأسماك، عندما تُستدرج إلى ما تطوله يدُ الإنسان من الشاطيء تتعرّض للضرب بكل قوّة الذراع (à tour de bras) بالفؤوس (haches) " و سرعان ما تغطي الشاطيء جثث دموية مثلما يحدث في معركة شنيعة[4] كما يُضرب أيضا عن بعد، مثلما ذكر الادريسي.

و يرى M. lombard أن الصيد كان يمارس إما بالرّمح (harpon)، كما يحدث في أيامنا بمضيق صقلية و إمّا بالمضربة أي مجموعة من الشّباك الثابتة، تُوجّه إليها أسراب التّن و تسمّى هذه الشباك (Tonnaria) حاليا في صقلية، و المضربة عبارة عن قُفّة، على شكل قارورات

1- قارن. الزهري: المصدر السابق، ص 120. Ibn Zenbel: op. Cit., pp.188-189.

2- المغرب العربي، ص 183، الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 165.

3- Vonderheyden : op.cit., pp .20-21.

4- Ibid, p.21.

(bouteilles) ذوات أعناق (goulots) ضيّقة.[1]

و يتفق الزهري و ابن زنبل أيضا على القول من أنه: ليس في البحر حوت أسْمن و لا أطيب من التنّ، و لا يعرف لماذا يذهب الأول إلى القول إنه " لا يؤكل في معمور الأرض طريًّا إلاّ في الأندلس "[2] و يضيف الثاني إلى الأندلس المغرب " قرب سبتة "[3] مع أن المصدرين يتفقان على أنّه كان يُصطاد بكثرة في جزيرة إقريطش (كريت)[4]، على سبيل المثال، و هل يعقل أن يصطاد بكثرة في مكانٍ مَا و لا يؤكل منه طريا؟

و في الجانب الآخر من بلاد المغرب في سواحله الغربية الأطلسية يلاحظ R. Mauny أن سكان الأرض اليابسة، ما بين وادي نون و السنغال، هم اليوم أخلاط من العرب و البربر و لكنهم كانوا، خلال الجزء الأول من العصر الذي يهتم بدراسته، أي الوسيط، كلهم بربرا، و لم تصل الغزوات الهلالية، (التي استقر العرب على إثرها في المنطقة) إلاّ حوالي سنة 1220 م، و إحدى تلك المجموعات البربرية التي يبدو أنّها حافظت على ذاتيتها، في لغتها و طريقة معيشتها تتمثل في صيادي السمك.[5]

و يمضي Mauny قائلا: " إن R. Montagne يُسمّي شواطي المغرب الجنوبية، المحصورة بين رأس كانتين (Cantin) و بين وادي درعة " الساحل البربري " كما ميّز أحد المؤلفين الأوائل: Valentin Fernandes السكان الموجودين جنوب الرأس الأبيض، في موريطانيا الحالية، إلى عرب (Alarves) و زناقة الصيادين (Azenégues shirmeyr os) المنتشرين بين أرغين Arguin و السنغال و كان زناقة Zenaga هؤلاء (أي صنهاجة) تابعين (tributaire) للعرب... ".[6]

و مما توصل إليه Mauny أيضا في بحثه عن الملاحة (navigations) في السواحل الصحراوية أنّه " باستثناء صيادي السمك المنتشرين فيها و خاصة صيادي المغرب الأقصى

1- L'islam dans sa premiére grandeur (VII- XI e S.), p.189 .

2- كتاب الجغرافيا، ص 120.

3- Ibn Zenbel : op.cit, p.189 .

4- الزهري: نفس المصدر، ص 120؛ Ibn Zenbel : op.cit., p.188 .

5- R. Mauny : les navigations médiévales, pp.22-23 .

6- Ibid, p.23 .

و الأندلس الأطلنطية، لم يكن يوجد سوى أسطول واحد (une seulemarine) جدير بهذا الاسم هو الأسطول البيزنطي.[1]

و يتوقف Mauny عند ما ذكره اليعقوبي في كتاب البلدان الذي انتهى من كتابته سنة (276 هـ/ 889 م) من أن سفنا ترسو قرب مسجد بهلول الواقع بقرية ماسة من بلاد السوس هي سفن خيطية مصنوعة بالأُبلَة* و يُركبُ فيها إلى الصين، متخذا من هذه المعلومة دليلا على أن سُفناً مغايرة لسفن الصيد المحلية، كانت تصل جنوب المغرب الأقصى، منذ القرون الإسلامية الأولى.[2]

و يلاحظ نفس المؤلف أن الإدريسي يذكر نقطة واحدة لصنع السفن بالمغرب الأقصى، هي طنجة، و من الطبيعي، حسب رأيه، أن تكون مراكب الصيد كثيرة، على طول الساحل، من سبتة إلى نون، و قد ذكر الإدريسي أن الصيد كان مهما بسبتة و بسلا (salé) آنذاك، مثل ما هو عليه في أيامنا، و مما لا شك فيه أن صيادي زناقه (Azénègues) كانوا يصنعون مراكب بسيطة على سواحل موريطانيا، كما أشار إلى ذلك المؤلفون البرتغاليون الأوائل.[3]

و يتضح من الإشارة الموجزة الموجودة في الخريطة النصف أرضية (planisphére) لأنجليتو دُولسرت (Angelino Dulcert 1339 م) أن سكان السواحل الواقعة جنوب وادي نون كانوا يمارسون الصيد البحري انطلاقا من الأرض، دون استعمال المراكب[4] و مع أن R. Mauny أغفل الحديث عن كيفية تعامل هؤلاء الصيادين مع البحر و إعطاء تفاصيل عن نشاطهم، مما يعود، بكلّ تأكيد، إلى عدم توفّر المادة التاريخية، فقد لفت انتباهنا ما جاء في الدراسة التي قام بها R. Capot- Rey عن وضعية صيادي الأسماك على السواحل الأطلسية، في النصف الأوّل من القرن العشرين، تاريخ صدور مؤلّفه، و قدّرنا أن الوضعية التي تناولتها دراسته لا تكون بعيدة، كل البعد، عن وضعية الصيادين الذين تحدّث عنهم Mauny فخطرت ببالنا فكرة توضيحها حتى نتمكن من إعطاء فكرة تقريبية عن ممارسة سكان تلك المنطقة لعملية الصيد البحري انطلاقا من البرّ في العصر الوسيط.

1- Mauny : op.cit, p.26.

*- الأُبلة: الأخضر من حمل الأراك (لسان العرب، جـ1، ص 9).

2- Ibid , p.27.

3- Ibid, p32.

4- Ibid, p.54.

و مما يفيدنا به R. Capot- Rey أن مجموعات صغيرة تسمى إمراقـــن (Imraguen) في موريطانيا و الشناقلة (Chnagla) في وادي الذهب Rio de oro تستغل الصيد بطريقة تذكـــر بنمط حياة الترحال الداخلية أكثر مما تذكر بحياة الصيادين، و تتحكم في هجراتهم كـــل مـــن تنقلات الأسماك و ندرة نقاط الماء على الساحل: إذ تقترب أسراب (bancs) البوري (mulet) من الساحل في أوت و تختفي في إبريل، و تُعوّض خلال الصيف بأسماك أخرى أصغر و أقـــل استحسانا، كما يعتبر هذا الساحل من أقفر مناطق الصحراء "، لا نجد بـــه ســـوى العقـــلات (Oglats) المؤقتة، و لا توجد الآبار الدائمة إلا على بعد عشرين كيلومترا تقريبا، علـــى أقـــل تقدير، و ليس تحت تصرف أولئك الرجال سوى أحمرة لاستخدامها في نقل الماء مما يجعل مـــن هذه العملية وظيفة شاقة، و من ثمة فإن تنظيم حياتهم كان حسب ازدواجية هذين المعطيـــين، السمك و الماء: ففي الخريف ينصب إمراقن خيمهم عند نقطة الساحل الأقرب مـــن أســـراب الأسماك، و يصطادون بالشباك، سواء على الأقدام أو على مراكب تشبه الـــزوارق (lanches) الكنارية، و يبقون مشتتين طيلة فصل الشتاء و العقلات (Oglats) التي تملأها أمطار الخريـــف تكفي عندئذ للاستهلاك العائلي، و مع بداية ارتفاع درجة الحرارة تقترب المخيمات من الآبار، و تصبح مواقع الصيد البحري قاحلة في الصيف، و يتوغل إمراقن في الداخل لبيـــع الســـمك المجفف أو للانضمام إلى مخيمات أسيادهم (leurs maitres). و مجموعاتهم صغيرة جدا بحيـــث لا يوجد أكثر من 500 صيادا موزعين على مسافة مائتي كيلومترا، ما بين الرأس الأبيـــض و رأس تميريس (Tmiris) و كان الإمراجن خاضعين لإتاوة مناسبة لكمية السمك المجفف.[1]

فسكان المناطق الصحراوية الأطلنطية في العصر الوسيط كانوا، و لا شك، يمارســـون نشاطا بحريا لا يختلف كثيرا عن أحفادهم في العصر الحديث و مما يؤكد وجود ذلك النشاط ما رواه ابن أبي زرع الفاسي كما أسلفنا القول من أن عبد الله بن ياسين، مؤسس دولة المرابطـين، لما رأى إعراض لمتونة " عنه... أراد الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في الإســـلام... فلم يتركه يحي ابن إبراهيم الجدالي، و قال له... إن ها هنا في بلدنا جزيرة البحر ـــ إذا حســـر البحر دخلنا إليها على أقدامنا ـــ و إذا ملا دخلنا في الزوارق، و فيها صيـــد البـــر و البحر،

1- Capot- Rey : op.cit, T.2, pp.209-210 .

...فنعيش فيها في الحلال... فدخلاها ...، و أقام بها... مدّة ثلاثة أشهر... فلم يمر عليه أيام حتى اجتمع عليه... نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة فسمّاهم المرابطين ".[1]

و ما يمكن استنتاجه من هذا النص ، هو أن هذه القبيلة (جُدّالة) كانت تستخدم الزوارق، و تمارس صيد البرّ و البحر في جزيرة أيّونى و نواحيها.

و يطلق ابن سعيد المغربي تسمية " جزيرة الملح " على جزيرة أيونى، و يحدد موقعها " أمام مصب النيل (نهر السنغال) في البحر المحيط... و طولها من الشمال إلى الجنوب درجتان و قليل، و وسعها نصف درجة، و في طرفها الجنوبي، على البحر مدينة أوليل... و عيش أهلها من السمك و السلاحف و تجارتهم بالملح... و إلى جانب هذه الجزيرة، جزيرة العنبر و بينها مجاز مقداره نصف درجة. و بينها و بين البرّ أقلّ من ذلك و طولها درجتان و وسعها في الأعلى ثلاث درجات، و يقال لها أيضا جزيرة السلاحف، إذ فيها من ذلك الكثير، و أهل تلك الجهات يقدّدون لحمها و يسافرون به."[2]

و يتفق كلّ من البكري و صاحب كتاب الاستبصار على أن محار ظهور تلك السلاحف ضخمة لدرجة تمكن الشخص الواحد من الدخول فيها و التصيّد بها كما يُتصيّد بالقارب[3]، و حتى و إن كانت هنا مبالغة واضحة فالذي يهمنا أن مصطلح القارب مثله مثل الزورق كان معروفا و يستخدم كلاهما في صيد الأسماك في الشواطيء الجنوبية الغربية من بلاد المغرب.

و بسواحل المحيط الأطلسي أيضا، يظهر أحيانا سمك العنبرة، ميتا، عندما يقذف به البحر إلى الشاطيء، و يقول السكان هناك، حسب الوزان، بأنه هو الذي يفرز (secrète)

1-ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 78-79؛ أنظر ما قبل، ص 335.

2- كتاب الجغرافيا، ص 90؛ أنظر Ch. De la Ronciére : La découverte de l'Afrique, p.49 ·

3- المغرب، ص 171؛ الترجمة الفرنسية V. Monteuil : op.cit., p.16 ؛ مؤلف مجهول، الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.190.

العنـــــبر[1].

و لا ندري على أيّ شيء اعتمد Vonderheyden فيما ذهب إليه في قوله بـــأن عـــدد صيادي السمك الأفارقة، في العصــــر الوســيط، يبــدو للوهلــة الأولى قليــلا، و أن آلات صيدهم كانت بدائية، و معرفتهم بأشياء البحر رديئــــة ، و أن جــزء كبــيرا مـــن التقنيــة الحالية و كذا بعض أسماء الأسمـــاك مشـــتقة مـــن اللاّتينيـــة (romane) و ســنرى، كمـــا يضيـــف، أن رداءة الآلات، إضافـــة إلى نقـــص الخـــبرة الملاحيـــة، تفسّـــران أن الصيـــد في عرض البحر كــــان معدومـــا، إذ كـــان الاكتفـــاء بـــالعمل في البحـــيرات الأُجاجـــة بمصبات الأودية و الخلجان الصغيرة المحمية و في المناطق التونسية حيث الرصيف القاري مغطـى ببضعة أمتارمن الماء، مع اعترافه في آن واحد، بأن مـــا وصلتنـــا مـــن المعلومـــات الخاصـــة بما كان يجري في عالم صيادي البحــــر الأفارقـــة (المغاربـــة)، مـــا بـــين القرنـــين الســـابع و السادس عشر الميلاديين (2هــــ – 10 م) قليلـــة جـــدًّا[4] ممـــا لا يســـمح لـــه، بطبيعـــة الحال، من إصدار مثل هذه الأحكـــام المُجحفـــة، خاصـــة و أن المعلومـــات القليلـــة الـــتي يشير إليها تفيدنـــا بازْدهـــار الصيـــد في عـــرض البحـــر، بـــالفعل، في أمـــاكن كثـــيرة من السواحل المغربيـــة: و منـــها: ســـواحل جزيـــرة جربـــة و القالـــة و بجايـــة و ســـبتة و السواحل الأطلنطية، حتى الحدود السنغالية.

و إذا كان لـــ Vonderheyden الحق فيما قاله من أنه لا يعرف أي شيء عن تنظيـــم نقابات الصيد، إن وجدت، و أنه لا نعرف جيدا تلك المجموعــــات الشـــاطئية(riverains) المتخصصة في صناعة يستحيل تسميتها بالوطنية، فإننا لا نرى أي مبرر لما ذهب إليه في قولـــه: إن الصيادين المغاربة، على ما يبدو، لم تكن لهم علاقات كبيرة مع الجنس المحلي (البربر) و هـــو يميل إلى ربط صيادي السواحل التونسية بسلالات قديمة جدا،من المغـــامرين الفنيقيـــين؛ أمـــا السواحل الجزائرية التي أهملها البونيون، في نظره،فهي لم تنشط قليلا إلا بعد وصول المغـــامرين

1- أنظر ما قبل، ص 333.

2- op.cit., p.6 •

الأندلسيين الذين تحدثت عنهم المصادر العربية، مستشهدا بما ذكره البكري من أن بحارة أندلسيين تعودوا على قضاء فصل الشتاء في ميناء تنس التي عمرت في نهاية الأمر سنة 875م بجاليتين أندلسيتين:إحداهما من ألبيرة (Elvira) و الأخرى من مرسية (Murcie)، كما ترددت جماعة أخرى من البحارة الأندلسيين على وهران و أسست مدينتها سنة 903م؛و كان يسكن مدينة مرسى الدجاج، القريبة من دلس أندلسيون كذلك، و باختصار،يضيف Vonderheyden، يبدو أن عائلات الصيادين و البحارة كانت أجنبية (exogènes)و أن طرق الصيد و ذوقه جلبت قديما إلى إفريقية البونيين،و حديثا الأندلسيين[1] و يحاول نفس المؤلف تدعيم رأيه هذا بما نقله عن S. Gselle من أن إسبانيي قادس (Gadès)استغلوا السواحل الإفريقية المغربية.[2]

و السؤال أو الأسئلة التي يمكن طرحها على Vonderheyden هي: هل أن قدوم الأجانب الذين تحدث عنهم و استقرارهم بمناطق من بلاد المغرب يعني أن تلك المناطق كانت خالية من السكان؟ و هل أن هناك ما يثبت أن أولئك السكان، إن وجدوا، لم يكن لهم نشاط بحري؟ و هل هناك ما يثبت عدم التعايش و الاندماج بين أهل البلاد المغاربة و المهاجرين إلى بلادهم؟ و هل؟ و هل؟ و هل؟

مع العلم أن Vonderheyden، لم يعمد إلى توثيق كلامه، فهو مجرد رأي شخصي يقضي بان البربر ليس لهم ذوق للصيد البحري و لم يعرفوا طرق ممارسته، و حتى إن كان الحق إلى جانبه، في استقرار الفنقيين قديما و الأندلسيين حديثا في بعض نقاط سواحل المغرب، و النصوص تدعم هذا الأمر، فإننا نتساءل عن مصدر فكرته التي تجرد البربر أو الأهالي، كما يسميهم، من تذوق الصيد و جهلهم لطرقه و وسائله، فهل يحتاج هذا المؤلف إلى من يقول له: إن كتابة التاريخ تقوم على التوثيق أو إظهار الحجج، و لا تقوم على الأفكار المسبقة؟

طرق الصيد في الأنهار و البحيرات الداخلية:

كان المغاربة يمارسون، إلى جانب الصيد في الشواطيء المتوسطية و الأطلسية صيد الأسماك في الأنهار و البحيرات الداخلية بطرق مختلفة أهمها: أنهم كانوا يصطادون سمك اللبيس المتوفر بوادي فاس و سبو باستخدامهم جوزة القيء في تسميم الماء[3] و لا شك أن هذه

1- op.cit., pp.19-20،

2- Ibid, p.20 note 1،

3- أنظر V. Monteuil : description de L'Afrique septentrionale, par Abou- obeid el- Bekri p.229, note 1 .

الطريقة هي نفسها ما نقل Vonderheyden وصفها عن Joly و التي تمارس، حسب رأيـــه، في الأنهار فقط بحيث تُلْقى في أعماق جحورها أغصان مهروسة من نبات متوفـــر بكـــثرة علـــى ضفافها، فيطفو السمك، المخمور مؤقتا، على السطح، و بطنه إلى أعلـــى (en l'air) فيؤخـــذ بسهولة، و قد شاهد M. Brunot هذه الطريقة تمـــارس في نهـــر بورقـــراق، و لا يســـتبعد Vonderheyden أنها كانت معروفة في العصر الوسيط.[1]

و هناك أسلوب آخر للصيد طبّقه رجال سلطان فاس أبي عبـــد الله محمـــد البردُقـــالي (el- Bourdougali) عندما خرجوا معه سنة 1515م و أقاموا بالقرب من بحيرة واقعة بجوار الجبـــل الأخضر الممتد غرب وادي أم الربيع إلى تلال هاسارة (Hasara) ، مدة ثمانيـــة أيـــام، فـــأمر السلطان بعضهم بالاصطياد منها، و كان الحسن الوزان حاضرا معهم، و سجل الطريقة الـــتي اتبعوها في صيدهم و هي أنهم خيطوا رقاب الجباب و أكمامها ثم شدوها من الأسفل بعصيات و أدخلوها في عمق البحيرة و اصطادوا بهذه الكيفية أسماكا كثيرة.[2]

و تصطاد في بعض المناطق الصحراوية كميات كبيرة من سمك الكروميـــس(chromis) الذي يتكاثر في نهاية فصل الربيع و أثناء فصل الصف، من مارس إلى نوفمبر، و له قدرة كبـــيرة على القفز خارج الماء و تخطّي الحواجز، و هي الخاصية التي استغلها السكان لاصطياده أثنـــاء فترة تكاثره[3] بكميات كبيرة باتباعهم طريقة متمثلة في عزل رقعة صغيرة من المستنقع أو قطعـــة من قناة صرف المياه، حيث يلاحظ وجود أسماك عديدة، عن طريق إحداث مرتفعات صغـــيرة من التراب (levées de terre) تكوّن سَدا، ثم يَدخُل عددٌ معين من الناس الماءَ و يفرغون محتوى الحوض المحدث من الماء، و عندما يقل الماء إلى أدنى حد يستولون بكل سهولة على ما توجد بـــه من أسماك ثم يعيدون الكرة في مكان آخر.[4]

و هناك طريقة أخرى لصيد سمك الكروميـــــــس المعروف جدا بتسمية " الحضري "

1- op.cit., p.24 .

2- Description de l'Afrique, T.2, p.128.

3- يحتمل أن يكون نظام التفريغ assèchement و الجفاف déssèchement ، المتعاقبين لقنوات الصرف التي تـــأتي منذ وقت سحيق من المستنقعات التي تتردد الأسماك عليها و التي غالبا ما يكون عمقها صغيرا جدا، هـــو الـــذي علمـــها اكتساب هذه العادة، كي تستطيع اتباع المياه أثناء تراجعها (Cnt Cauvet : op.cit, p.703) .

4- Cnt Cauvet : op.cit., p.705 .

و الذي يتميز بالقفز خارج الماء: و تتمثل في الصيد بالملحفة ، أي فستان المرأة المحلية، و هـــي بوادي ريغ، عبارة عن قطعة قمــــاش مســتطيلة، زرقـــاء، طولهـــا 12 م و عرضــها 1,6م، و تحتاج عملية الصيد بها إلى خمسة رجال، يختارون خندقا عريضا، لا يتجاوز اثنتي عشر مــترا، لا يكون الماء به عميقا جدا، ثم يدخُلُ ثلاثةُ منهم الماءَ و ينبطحون بطريقة تبقـــي رؤوســـهم و أكتافهم بارزة، دون غيرها، و يكون مكان أحدهم وسط الخندق، و يحادي الآخران ضفتيـه ثم يتقدمون زحفا و هم يعكرون الماء، دافعين أمامهم، تحت الماء، ما يشبه سدا معمـــولا مـــن أغصان النخل المربوطة مع بعضها، و تمدد على ظهورهم الملحفة المنشورة، و هم يشدون أحد جانبيها الطويلين، إما مربوطا في أعناقهم و إما مشدودا بين أسنانهم، كي تكون لهـــم حريـة تحريك أيديهم، و يتبعهم الرجلان الآخران، مشيا على ضفتي القناة و هما يمســـكان بزاويـــتي الجهة الأخرى من القماش حيث يرفعانه و يمددانه، و عندما ترى أسماك الكروميس اقتراب هذه الآلة التي تصعد المجرى ثانية، تخشى أن يُقطع عنها خط الرجعة فتسرع نحو السد بلهفة لتســقط في الجيب الذي كونته الملحفة، و عند الانتهاء من عملية مسح الخندق بكامله تجمــــع كـــل الأسماك التي قفزت على ظهر الصيادين، و غالبا ما يصل طول الكروميـــس زيليـــي عشـــرين سنتمترات أو يتجاوزها.[1]

و في المستنقع الكبير المسمى بحر تتاهوين (Tatahouine) على بعد كيلومترين تقريبـــا، جنـــوب تُوقرت، يتيح صيد الكروميس فرصة سنوية لإقامة احتفال خاص يجتمع فيه كل رجال و أطفال تلك الناحية، من وادي ريغ[2]. ثم يشرعون في خفض مستوى ماء المستنقع بإحداث منـــافذ إلى كل الخنادق المجاورة، ثم يدخل كل الرجال المستنقع و يشرعون في التخبط بطريقة تنافسية كـي يربك الماء كله فتصعد أسماك الكروميس مذعورة إلى السطح حيث يســـهل أحدهـــا في أواني مختلفة، و يستهلك لحمها مقليا و خاصة في حساء، مع أنه ليس لذيذا جدا، و به أشواك.[3]

1- Cnt Cauvet : op.cit., pp.705-706 .

2- تستدعي شيخ زاوية الناحية أهل البلد فيحضر كل الأطفال و الرجال فيجتمعون و بعد دفعهم ثمن الزيارة لهذا الشـيخ المرابط، يلقون جثة حمار ميت في " البحر "، و هذا احتياط ضروري لتجنب وقوع حوادث مميتة، لأن هذا البحر القليـــل العمق يخفي عادة تصدعات أو هوات خفية، قد يغرق فيها بعض الصيادين إذا لم يتخذ احتياط إلقاء جثة الحمار من طرف المرابط الذي يحتكر هذا القربان الطقسي (Cauvet, op.cit., p.706) .

3- Id .

و قد لاحظ Cauvet أن الطوارق يكرهون و يحتقرن الأسماك و لا يريدون لمسها، و لا يتغذى بها سوى عبيدهم القادمين عادة من ضفاف نهر النيجر[1] لكنـــه لم يتعـــرض للطريقـــة أو الطرق التي كان العبيد يستخدمونها هناك في صيدهم.

و مما تجدر الإشارة إليه أن مصادر المعلومات المتوفرة لدينا في موضوع الأسماك المتواجدة في الصحراء و طرق صيدها حديثة، يعود تاريخ استقاء معلوماتها إلى عهد الاستعمار الفرنسـي؛ أما المصادر العربية التي عاصرت الفترة المخصصة للبحث أو تناولت الحديث عنها فهي لم تشـر إلى هذا الموضوع، و قد استنتجنا فيما سبق أن الأسماك كانت متواجدة آنذاك، لأن هذا التواجد ما يزال قائما إلى اليوم، و ما دام كذلك فلا بد و أنه استمرار لما كان في العصر الجيولوجـــي الرابع، عندما كانت الظروف المناخية ملائمة لذلك، و هذا شيء منطقي و لكن هـــل يمكـــن التوصل إلى نفس الاستنتاج بالنسبة لطرق صيده؟ أي القول إنه ما دام هذا الســـمك يصطـــاد حديثا في بعض المناطق الصحراوية لا بد و أنه كان كذلك، منذ العصر الجيولوجي الرابع؟.

إن مثل هذا الأمر لا يمكن تأكيده في ظل المعطيات الراهنة، و في نفس الوقت لا يمكـــن نفيه، و يبقى الأمر مرهونا بتوفير الدليل القاطع المتمثل في الوثائق التاريخية - الأثرية و في انتظار ذلك ليس هناك ما يمنع من سد الفراغ المتروك، بما ورد من معلومات في المصادر الحديثة، عـــن طريق القيام بعملية اسقاط، خاصة و أن الطرق الواردة بها تقليدية محضـــة يمكـــن أن تكـــون ممارستها راجعة إلى فترة عميقة جدا في التاريخ.

دور الفقه الإسلامي في تنظيم عملية الصيد البحري:

كان للفقه الإسلامي دور هام في تنظيم عملية الصيـــد البحـــري في بـــلاد المغـــرب و غيرها، من ذلك أن المذهب المالكي يبيح لشخصين أن يشتركا في صيد السمك، شـــريطة أن يكونا مجتمعين في كل ما يعملان، بمكان واحد، و لا يفترقان، فإن كان لا بد من افتراقهما، لا تجوز شراكتهما. مهما كانت طريقة الصيد، بالشباك أو غيره؛ و يجوز لهما الشراكـــــــــــة

1- op.cit., p.711.

كذلك في استخراج اللؤلؤ من البحر، و طلب العنبر على ضفة البحر و جميع ما يقـــذف بـــه البحر، و الغوص في البحر، إذا كانا يعملان جميعا بمنزلة ما يكونان في المركب: يركبان معـــا، و يقذفان معا و يتعاونان معا فيما يحتاجان إليه.[1]

و من ثمة، لا تجوز الشركة بين أناس يتقاسمون أسهم الصيد، حسب عدد الشباك الـــتي يقدمها كل واحد منهم، كالذي له، على سبيل المثال، ثلاثة شباك و يأخذ سهمين و الذي لـــه إثنان يأخذ سهما و نصفا و الذي له شبكة واحدة يأخذ سهما واحدا؛ و لا يجـــوز أيضـــا أن تعطى الشباك لمن يصطاد بها، بنسبة معينة.[2]

و قد طرح مشكل الحيتان التي يصيدها المجوسي فأباح مالك بـــن أنـــس أكلـــها، لأن الرسول (صلعم) قال في البحر " هو الطهور ماؤه الحل ميتته "[3] لكن المذهب الشيعي، حســـب رواية القاضي النعمان عن جعفر بن محمد " أنه (أي جعفر) نهى عن أكل ما اصطاد المجوس مـــن الحوت... لأنه لا يؤكل منه إلا ما أخذ حيا "[4].

و اختلف فقهاء المسلمين " في ميتة البحر على ثلاثة أقوال: فقال قوم: هـــي حـــلال بإطلاق، و قال قوم هي حرام بإطلاق، و قال قوم ماطفا من السمك حرام، و ما جـــزر عنـــه البحر فهو حلال، و بإجازته مطلقا قال مالك و الشافعي، و بالمنع مطلقا قال أبو حنيفـــة..."[5] كما اختلفوا في دم الحوت: " فمنهم من رآه نجسا و منهم من لم يره نجسا، و الاختـــلاف في هذا كله موجود في مذهب مالك و خارجا عنه ".[6]

و مما أجمع عليه الفقهاء " تحليل ما لم يكن منه موافقا بالاسم لحيوانٍ من البر محـــرم "[7]، و قال مالك" لا بأس بأكل جميع حيوان البحر إلا أنه كره خنـــزير الماء و قال: أنتم تسمونـــه

1-سحنون بن سعيد التنوخي: المصدر السابق، جـــ.4، ص 28.

2- الونشريسي: المعيار، جـــ.8، ص 189.

3- مالك بن أنس: متن موطأ الإمام مالك، ص 263-264.

4- القاضي النعمان: دعائم الإسلام، و ذكر الحلال و الحرام و القضايا و الأحكام عن أهل بيت رسول الله، عليه و عليهم أفضل السلام، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف بمصر 1370هـــ/ 1960، جـــ2، ص 171.

5- ابن رشد: بداية المجتهد و نهاية المقتصد، نشر دار شريفة 1409هـــ/1989م، جـــ .1، ص 450-451.

6- نفس المصدر، ص 452.

7- ابن الأخوة: المصدر السابق، ص 104-105.

خنزيرا "[1] أي أنه وقف فيه حيث " نظر إلى عموم قوله تعالى "حُرِّمت عليكم الميتة و الدم و لحم الخنزير "[2] فخاف أن يدخل في عمومه فيحرم، و نظر إلى عموم قوله تعالى " أُحلّ لكم صيدُ البحر و طعامُه "[3] و أمكن عنده أن يدخل في عموم هذه الآية، فيحل، و لم تظهر له طرق الترجيح الواضحة في أن يقدم آيةَ على آيةٍ، وقف فيه..."[4].

و قال الليث بن سعد: " أما إنسان الماء و خنزير الماء فلا يؤكلان على شيء من الحالات "[5]؛ و سبب اختلافهم هو " هل يُتناول لغةً أو شرعا اسم الخنزير و الإنسان، خنزير الماء و إنسانه، و على هذا الأساس يجب أن يتطرق الكلام إلى كل حيوان في البحر مشارك بالاسم في اللغة أو في العرف لحيوان محرم في البر مثل الكلب عند من يرى تحريمه، و النظر في هذه المسألة يرجع إلى أمرين: أحدهما: هل هذه الأسماء لغوية، و الثاني: هل للاسم المشترك عموم أم ليس له، فإن إنسان الماء و خنزيره يقالان مع خنزير البر و إنسانه باشتراك الإسم، فمن سلّم أن هذه الأسماء لغوية و رأى أن للاسم المشترك عموما لزمه أن يقول بتحريمها..."[6].

و لا يبيح الشافعي أكل الضفدع[7] " لأن النبي (صلعم) نهى عن قتله، و لو حل أكله لما نهى عن قتله (في نظره) لأنه لا يتوصل لأكله إلا به "[8] غير أن الخرسانيين يحللون أكل الضفدع و السرطان و ما سواهما لقوله تعالى: " أحل لكم صيد البحر و طعامه متاعا لكم "[9] و يضيف ابن الأخوة إلى الضفدع الحية التي تكون في الماء كالنسناس الذي يشبه الآدمي و كذلك السرطان[10]، و قال أبو حنيفة ما سوى السمك، لا يؤكل.[11]

1- ابن الأخوة: المصدر السابق، ص 105..

2- المائدة (3).

3- المائدة(96).

4- المازري: المعلم بفوائد مسلم، جـ.2، ص 203.

5- ابن رشد: المصدر السابق، جـ.1، ص 456.

6- ابن رشد: المصدر السابق، جـ.1، ص 456.

7- المازري: المصدر السابق، ص 456.

8- ابن الأخوة: المصدر السابق، ص 104-105.

9- نفس المصدر، ص 105.

10- نفسه.

11- المازري: المصدر السابق، جـ.3، ص 71.

و القاعدة العامة تقول: " ما أُكل شبهه في البر أُكل،... و ما لا يؤكل شبهه... لا يؤكل اعتبارا به، فإن قلنا يحلّ ففي اشتراط ذبحه قولان أحدهما، أنه : هل يُسمّى سمكا أم لا "[1]؛ و قد اتّبع رأي مالك علماءٌ كثيرون و أجمعوا على أن الحيوان البحري لا يحتاج إلى ذكاة لكنهم اختلفوا في الحيوان المدمي الذي يكون تارة في البحر و تارة في البرّ، أي الحيوانات البرمائية، مثل السلحفاة و غيره[2] و يبرّر ابن الأخوّة الشافعي عدم ذكاة السمك و الجراد بقوله (صلعم): " أُحلّ لكم ميتتان و دمان: أمّا الميتتان فالسمك و الجراد، و أمّا الدّمان فالكبد و الطحال "[3].

و يشذ عن القاعدة العامة لعدم ذكاة الأسماك هذه، البرغواطيون الذين كانت لهم إمارة بتامسنى، من المغرب الأقصى و هم " يقرون بنبوة صالح بن طريف و أن الكلام الذي ألف لهم وحي " من الله تعالى..."[4] و مما ورد فيه " ألا يؤكل الحوت عندهم إلا أن يذكى "[5].

و لا يجوز، عند مالك، بيع صيد حيتان، محظرا عليها في الآجام أو برك الحيتان، و يعتبر تلميذه عبد الرحمان بن القاسم ذلك من باب بيع الحيتان في الماء، و لا يعطي لأصحابها الحق في منع أحد من صيدها مؤكدا أنه سمع " مالكا يقول في البركة تكون للرجل و الغدير تكون فيه الحيتان و البحيرات فيكون في ذلك كله السمك فيريد أهله أن يبيعوه (قال) لا يعجبني بيعه و لا ينبغي لأهله أن يمنعوا منه أحدا يصيد فيها "[6]، لأنها " تقل مرة و تكثر مرة، و لا يدرى كيف تكون..."[7].

و مع أن خليلا بن إسحاق يسير في خط عدم جواز منع الرجل الناس من " صيد سمك، و إن في ملكه "[8] إلا أنه يطرح تساؤلا لا حول تطبيق مبدأ هذا المنع، كما يلي: و هل في أرض

1- ابن الأخوة: المصدر السابق، ص 105.

2- ابن رشد: نفس المصدر، جـ.1، ص 425؛ الثميني (الشيخ ضياء الدين بن عبد العزيز): كتاب النيل و شفاء العليل، صححه و علق عليه بكلي عبد الرحمان بن عمر، طـ. الثانية 1387هـ/1968، جـ.1، ص 239.

3- ابن الأخوة: المصدر السابق، ص 97.

4- ابن عذاري: البيان، جـ.1، ص 125.

5- نفس المصدر، جـ.1، ص 127.

6- سحنون: نفس المصدر، جـ.3، ص 218-219.

7- نفس المصدر، جـ.4، ص 377.

8- المختصر في الفقه، ص 388.

العنوة فقط أو بعد: أن يصيد المالك تأويلان "[1] و معناه أن خليلا يتساءل عما إذا كان تطبيق هذا المبدأ يسري على الأراضي المفتوحة عنوة فقط، أم أنه يطبق في كامل دار الاسلام و لكن بعد أن يصيد أصحاب تلك البرك أو الغدران؟ ثم يجيب خليل باختصار عن سؤاله موضحا أن هناك انقساما بين الفقهاء حول هذه المسألة.[2]

و ينضم الشافعي إلى مالك و أصحابه، في حكمهم على بيع السمك، في الغدير أو البركة، في حين أن أبا حنيفة يجيز منعه[3]؛ و يعتبر الأباضية النهر إذا انفجر بأرض قوم و دخلته أسماك لا يجوز أن تصاد إلا بإذنهم، إن لم يكن الماء جاريا[4]؛و ينقل الشيعة عن علي بن أبي طالب (رضه) قوله: إن بيع السمك في الآجام " لا يجوز لأنه مجهول، غير معروف، يقل و يكثر، و هو غرر "[5] و عن جعفر بن محمد قوله " إذا كان في الأجمة أو الحضيرة* سمك مجتمع يوصل إليه بغير صيد... فالبيع جائز، فإن كان لا يوصل إلى السمك إلا بالصيد فالبيع باطل "[6].

و من المتوقع أن يكون عدم السماح ببيع السمك الموجود في الآجام و الأحواض و البرك هو السبب الرئيسي في عدم انتشار تربية الأسماك، مع أنها كانت معروفة في بلاد المغرب، على الأقل، منذ سنة 170هـ/786-787 م. ذلك أن الفضل بن روح بن حاتم الذي ولاه الخليفة العباسي هارون الرشيد، على إفريقية آنذاك رأى بمسجد أبي فهر بالقيروان " زير زجاج معلق و فيه ماء، و في الماء حيتان تعوم، فقال: " من فعل هذا؟ " قالوا قسطاس (النصراني)، فقال " أحسن و الله "."[7]

كما يتحدث البكري عن صهريجين، جنوب ما كان يعرف بقصر السلسلة الواقع

---

1 – خليل بن اسحاق: المصدر السابق، ص 388.

2– نفسه.

3– ابن رشد: المصدر السابق، ص 156.

4– التميمي: المصدر السابق، جـ1، ص 239.

5– القاضي النعمان: دعائم الاسلام، جـ2، ص 21.

*– استعملت هذه الكلمة في كل النسخ التي اعتمد عليها محقق كتاب دعائم الاسلام، و معناها في المختار الصحاح، حسب هذا الأخير، موضع البقر و الغنم، و تعمل كذلك للإبل من شجر لتقيها البرد (نفسه، هامش 3).

6– نفسه.

7– ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس، ص 12.

جنوب ميناء تونس" كان ملوك بني الأغلب يرسلون فيها ماء البحر و يملونها بالسمك "[1] غير أنه، مع الأسف الشديد، لم يفدنا فيما إذا كانت تلك الأسماك تستغل أم لا، كما لم يحدثنا هو، و لا غيره عن مشاهدة مثل هذه العملية في مكان آخر.

و من المعلومات التي وصلتنا في موضوع بيع الأسماك ما أصدره الشيخ أبو الحسن القابسي من فتوى تقضي أنه على من يصيد في البحر من سكان المنستير أن يرد بما صاده سوقها، و هناك يبيع لمن يريد الشراء، و لاحق لهذا الأخير أن يبخس البائع الثمن، و لا يسعر له ثمنا، بل له أن يبيع، حسب الأسعار الجارية آنذاك، من غلاء أو رخص، و ما فضل بعد شراء من بالمنستير لأكلهم، يجوز لصائده أن يصرفه حيث شاء و بيعه لمن شاء[2] و هو ما يتفق تماما مع رأي الأباضية القائل إنه " لا يحل لصياد حمل سمك من بلد صاده فيه لآخر، إن احتاجه أهله حتى يبيع لهم ما احتاجوه بمعتاد من ثمن و يجبر على ذلك، و إن شرط في الثمن فعلى الوسط، و قيل لا يسعر إمام على الناس أموالهم، و لا يجبرهم على بيعها إن لم تطب أنفسهم بذلك و لكن إن اضطروا بحاجة إلى طعام، و عزم أهله على منعه، مع استغنائهم عنه، جاز لهم إجبارهم على بيعه بثمن يكون عدلا في قيمته ".[3]

و إذا كان الصائد يحمل ما اصطاده من بحر معين، فلا يجوز لأحد أن يشتريه منه، لا عند البحر و لا عند توجهه إلى السوق، لأن ذلك يعتبر من التلقي؛ و من ورد على هذا المكان من التجار، يريد الصيد فيه ليذهب به إلى أماكن أخرى فليس له أن يضر بمن يصيد فيه ليذهب به إلى أماكن أخرى، فليس له أن يضر بمن يصيد في هذا المكان، و إذا أخذ أهله حاجتهم، لم يكن على أولئك بأس فيما صادوه، إن لم يلحقوا ضررا بأهل المكان و لم يضيقوا عليهم.[4]

و يصنف مالك بن أنس اللحوم إلى ثلاثة أصناف: " لحم ذوات الأربع صنف، و لحم ذوات الماء صنف و لحم الطير كله صنف واحد أيضا، و هذه الثلاثة أصناف مختلفة، حسب رأيه، يجوز فيها التفاضل، أي صنف أكثر من الآخر من حيث الكم، و قال أبو حنيفة : كل

1- المغرب، ص 39.

2- الونشريسي: المعيار، جـ.2، ص 5-6.

3- التميمي: المصدر السابق، جـ.1، ص 239-240.

4- الونشريسي: المعيار، جـ.2، ص 6.

واحد من هذه هو أنواع كثيرة، و التفاضل فيه جائز إلا في النوع الواحد؛ و للشافعي قــولان: أحدهما مثل قول أبي حنيفة، و الآخر أن جميعا صنف واحد..."[1] و بناء على هذا التصنيف يجيز مالك شراء بعض ذلك ببعض متفاضلا، أي اثنان بواحد، على سبيل المثال، يدا بيد[2]، أي دون تأجيل للدفع.

و ما دامت الحيتان كلها صنفا واحدا، عند مالك فالتبادل بينها يكــون مثــلا بمثــل، صغارها بكبارها، أي نفس الكمية بمثلها، دون اعتبار الحجم و النوع[3] و يبــاح في المذهــب الشيعي أن تباع الأسماك بأسماك غيرها، على وجه التحري (التقدير) بغير وزن و لا كيــــل[4]، و يجوز عند مالك، تبديل لحوم الحيتان بالطير أحياء؛ أما ما كان من الطير و الأنعــام الأليفــة و من الوحش، مما لا يحيا، و شأنه الذبح فلا يجوز إلا يــــدا بيــد، أي بــالقبض الفــوري، و كذلك تبادل السمك باللحم؛ و ما كان من الأنعام و الطير و الوحش مما يستحيا فيجــــوز بدله بلحم الحيتان إلى أجل، أي بتأجيل الدفع، كما لا يجوز أيضا عند مالك تبديل الســـمك الطري بالسمك المالح مثلا بمثل أو متفاضلا.[5]

و يجوز أيضا بيع الحوت ببضائع أخرى كالشعير أو العصير[6]، و لا بأس، عند مــالك، من التسليف في الحوت الطري، إذا سُمّي جنس معين منه و اشترط ضرب معلوم، صفتها كـذا و كذا، و طولها كذا و كذا، إذ سلف في ذلك قدر معروف أو وزن معروف، و إن سلف مـن صنف معين من الأسماك فلما حل أجل التسديد بإمكانه أن يأخذ نوعا آخــر مــن الحــوت و بإمكانه أن يقبض الدنانير في سلفه[7].

و كان يشترط على من يحمل السمك إلى البلاد البعيدة أو يكسده في المخــازن عــدم تقشير " فلوسه عنه حتى يوثق بالملح و لا سيما رؤوسه و خياشيمه، فإن الدود أول ما يتــولد

1-ابن رشد: المصدر السابق، جـ .2، ص 135.

2- مالك بن أنس: المصدر السابق، ص 364.

3- سحنون: المصدر السابق، جـ.3، ص 174.

4- القاضي النعمان: دعائم الاسلام، جـ.2، ص 41.

5- سحنون: المصدر السابق، جـ.3، ص 178.

6- الونشريسي: المصدر السابق، جـ.5، ص 36.

7- سحنون: المصدر السابق، 3، ص 125-126.

فيها؛ و متى فسد السمك المجلوب أو المكسود رمي به في المزابل خارج البلد (أي المدينة) "[1]. و كان الناس يمنعون من حمل الحوت في أيديهم و يطلب منهم أن يجعلوه في أوعية كي لا يمس أثواب غيرهم، و من وجدت أسماك في أيديهم نزعت منهم و جعلت في أطرافهم تنكيلا بهم[2]؛ و يحمل الحوت المالح و يباع، عادة، في أزيار.[3]

و المحتسب هو الذي يختار لبياعي الحوت مكانا يكون فيه سوقهم، بمعزل عن الطريق " لما تعودوه من الرائحة، و لما هم عليه من الهبة و الحال، و يلزمون بتنظيف الساحة، و يمنعون عن طرح حوت البحر في الماء العذب (فإنه يفسده)، و عن خلط البائت بالطري، و عن بيعه بائتا، فإن عثر عليهم، طرح لهم و لا يكثرون الرش، فإنهم يؤذون الحاضرين، و لا بأس أن يغمس في الماء ثم يخرج منه سريعا...، و يمنعون من تمليح البائت، من اليومين و الثلاثة، لأنه تولد فيه عفونة، و الأحسن تمليحه طريا، و بذلك يؤمرون..."[4]

و يتشدد المحتسب على بائعي السمك ألا يبيت عندهم الحوت إلا أن يكون مملوحا، و يبيعون البائت على حدة و الطري على حده[5] و لا يسمح لهم أن يربحوا ربحا كثيرا، لأن الحوت ليس كسائر السلع[6] و لا يسمح لهم كذلك ببيع الخبز و لا بمجاورة الخباز لقذارة حرفتهم[7] كما لا يسمح لهم أن يبيعوا معه اللبن لنفس السبب[8]، و لا يغسل الحوت المالح

1- ابن الأخوة: المصدر السابق، ص 111.

2- أحمد بن سعيد المجيلدي: كتاب التسيير في أحكام التسعير، تحقيق و تقديم موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ص 73.

3- العقباني: المصدر السابق، ص 111.

4- ابن عبد الرؤوف: رسالة أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف في آداب الحسبة و المحتسب، في ثلاث رسائل أندلسية، في آداب الحسبة و المحتسب، تحقيق إ. ليفي بروفانسال، القاهرة 1955، ص 97.

5- As- Sakati de Malaga : un manuel hispanique de la hisba, texte arabe et traduction française par G. S. Colin et E. lévi- provençal, Hespéris, T.XXI, paris 1931, p.35

6- ابن عبدون: رسالة ابن عبدون في القضاء و الحسبة، في ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة و المحتسب تحقيق إ. ليفي بروفانسال، القاهرة 1955، ص 53.

7- ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق، ص 90.

8- نفس المصدر، ص 92.

و لا الطري في الماء لأنه يفسده و لا ينقع فيه الحوت المالح أيضا للسبب نفسه[1]، و يشترط أن تكون أرطال الحوت من حديد فقط، بطابع ظاهر عليها[2].

و يأمر المحتسب قلائي السمك أن يغسلوا " كل يوم... قفافهم و أطباقهم التي يحملون فيها السمك و ينثرون فيها الملح المسحوق في كل ليلة، بعد الغسل و كذلك يفعلون بموازينهم الخوص، لأنهم إذا غفلوا عن غسلها فاح نتنها و كثر وسخها، فإذا وضع فيها السمك الطري تغير ريحه و فسد طعمه[3]. و يأمرهم كذلك بالمبالغة في غسل السمك، بعد شقه و إخراج ما فيه من جوفه و حلقه و تنقيته من جلده و فلوسه ثم ينثرون عليه الملح المسحوق، و يقوى شرسه، في زمن الحر حتى يشده و تنقطع رائحته، ثم ينثر عليه الدقيق ثم يقلونه، بعد أن يجف، و لا يخلطون في الدقيق شيئا من أبي مليح، و هو العصفر المصحون حتى يعطى زهرة من القلي، و ينهون عن كثرة الدقيق الذي يلث فيه الحوت، عند القلي، و لا يخلطوا البائت بالطري، و علامة الطري أن خياشيمه حمر، و البائت ليس كذلك، و ينبغي على المحتسب أن يتفقد المقلي كل ساعة لئلا يقلوه بدهن الشحم المستخرج من بطون السمك، و يخلطون هذا الدهن بالزيت، عند قليه، و لا يمكنهم أن يقلوه بالزيت المستعمل عادة في هذا الغرض، و لا يخرجوا السمك المقلي حتى ينتهي نضجه، من غير سلق و لا إحراق، و ينهون عن غمسه، عند خروجه من المقلى، سخنا، في الماء و الملح، و يعرف ذلك بالشرمولة، ليحسن للنظر و يثقل في الميزان، و إن لم يمتثلوا لهذه التعليمات يتعرضون للتأديب أي المعاقبة.[4]

و يلزم المحتسب شوائي السمك " أن يعملوا حوائجه بحضور من يثق إليه، على ما جرت به العادة، بعد غسله و تنظيفه، و يشترط عليهم ألا يخرجوه من الفرن حتى يكتمل نضجه[5] و يبدو أن تحضيره يستغرق وقتا طويلا و خبرة كبيرة و يوضع في طاجن ليدخل في الفرن مع الخبز[6].

1- ابن عبدون: المصدر السابق، ص 44.

2- نفسه ؛

3- ابن الأخوة: المصدر السابق، ص 115.

4- قارن ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق، ص 97؛ ابن الأخوة، نفس المصدر، ص 111.

5- ابن الأخوة: نفس المصدر، ص 111.

6- المالكي: كتاب رياض النفوس، جـ1، ص 424.

و المشكل الذي يبقى مطروحا هو معرفة إلى أي حد كانت هذه التشريعات أو القوانين مطبقة، في بلاد المغرب عموما،أو في أية ناحية من نواحيها، لأن ذلك مرهون بعـدة عوامـل، و من أهمها التزامات السلطات القائمة بها،و الامكانيات المتوفرة لديها من أجل تطبيقها ميدانيا، لأن مجرد وجود قانون لا يعني أبدا أنه محترم و مطبق، تماما مثلما نرى في أيامنا، مع الأخذ بعين الاعتبار بأننا في وضعية أحسن بكثير، من حيث توفر الوسائل المادية و البشرية، على السواء.

صناعة تمليح الأسماك و تصبيرها:

كانت ببلاد المغـرب، في فـترة التـاريخ القـديم ورشـات (fabriques)التمليـح (Tarikhefai)، إذ أن رحلة سيلاكس (périple de Scylax) أشارت إلى ذلك، عند مدخل بحيرة البيبان، جنوب تونس، حيث كان على الساحل الغربي من سرت الكبرى مكان يسمى مدينـة الملاحات (Maqom Malehat)*، كما كانت هنـاك ملاحـات في المنسـتير (Monastir) و في رأس قبودية (Capoudia) بقابس ولبدة، و كانت قرطاجة تستقبل أسماكا مملوحة، قادمـة من قادس (Cadix) في أوعية (vases).[1]

و قد استمرت هذه الصناعة قائمة في جهات مغربية كثيرة: إذ يتحـدث أبـو عبيـد البكري عن تصبير أو تمليح كل أنواع الأسماك التي كانت تصطاد من بحيرة تونـس، و هـي ، حسب رأيه، اثنا عشر نوعا، يظهر كل نوع منها في شهر معين من الأشهر الأعجمية (ميلادية) ثم يختفي ليظهر في السنة الموالية، و يلاحظ البكري أن السمك المصنع يبقى سنوات صحيـح الجرم، أي لا يتغير لونه و لا طعمه[2] مما يدل بدون شك على إتقان تلك العملية و هو يقـوم دليلا، بطبيعة الحال، على نضج التجربة .

و في حديث صاحب كتاب الاستبصار عن الأنواع الإثني عشر التي تصـاد في بحـيرة بنـزرت، بعدد الأشهر الأعجمية كذلك[3]، و هذا لا يعني أن بحيرة بنـزرت تستقبل نفـس الأنواع التي تستقبلها بحيرة تونس، المهم أن لحومها تصبر، حسب المصدر الأخير، فـلا يتغـير شكلها، هي الأخرى، لسنـوات و تبقى لـذيذة الطعم، و تصـدر إلى جميـع منـاطق

*- حسب Vonderheyden فإن هذه التسمية يمكن أن تكون عربية، فالعرب الساميون مثل الفنيقيين، وجدوا بإفريقية آثار لغة قريبة جدا من لغتهم (op.cit., p.27, Note).

1- أنظر Vonderheyden : op .cit., p.27 ،

2- المغرب، ص 41؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane ; op.cit., p.89 ،

3- مؤلف مجهول: ص 15؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., p.26 ،

إفريقيـــة و خاصة إلى مدينة تونس، مع ملاحظة أن غلتها كانت عظيمة[1] أي أن مردودهــــا كان كبيرا " و كل نوع منها، إذا خرج في شهره يكون طيبا سمينا "[2] و قد بلغ نصيب بيــت المال، أي الضريبة التي تفرضها الدولة على الصيادين بتلـــك البحــيرة، في عـــهد القزويــني (ق7هــ/13 م) اثني عشر ألف دينار سنويا[3]، كما كانت في عهد ابن زنبل (ق.10هـــ/15م) حراسة خاصة تابعة لأمير تونس، تقيم قرب البحيرة، و مهمتها جمع نصيب بيت المـــال مــن عائدات صيد الأسماك.[4]

و كان البوري الذي يصطاد من بحيرة درنه التابعة لولاية باجة، حسب كل من البكري و صاحب كتاب الاستبصار، لا يوجد مثله في مكان آخر، حيث يمكن إخراج عشرة أرطـــال شحم و أكثر من حوت واحد منه، إذا كان كبيرا[5]، و كان أهل تلك النواحــي يســتعملون ذلك الشحم في مصابحهم[6] كما كان هذا البوري أيضا يحفظ في العسل، و يرسل إلى الخليفــة الفاطمي عبيد الله المهدي في كل من القيروان و المهدية فيصله طريا، حسب البكري[7] الــذي لم يتحدث، كما لم يتحدث غيره من أصحاب المصادر العربية، عن حالات أخـــرى لحفـظ الحوت في العسل، عكس ما ذهب إليه عز الدين أحمد موسى من أن السمك كان " يحمـــل... إلى المناطق الداخلية طريا، محفوظا في العسل أو مجففا "[8] مع العلم أن تكلفة الحفظ في العســل، لا شك، و أنها كبيرة جدا لدرجة يصعب على المستهلكين تحملها.

و لا تتحدث المصادر أيضا عن تمليح الأسماك أو تصبيرها ببجاية، في هذه الفترة، و لكن

1- نفس المصدر، ص 16؛ الترجمة الفرنسية Ibid, p.27؛ أنظر Vonderheyden : op.cit., p.27 .

2- الزهري: المصدر السابق، ص 108.

3- أنظر. آثار البلاد ، ص 148.

4- Tohfat el Molouk, p.155

5- الغرب، ص 55؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit. p.121؛ مؤلف مجهول: المصدر الســابق، ص 17؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan : op.cit.p.29.

6- مؤلف مجهول: نفس المصدر، ص 17؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op. Cit., p.29؛ و قد صحـح Fagnan كلمة و مصائبـــهم الــواردة في طـــ. كريمــر Kremer بـــ " و مصابحـــهم " الــواردة في مخطــوط " A" (op.cit .,.p.29, note 3).

7- المغرب، ص 55؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op.cit., p.21 .

8-أنظر: النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي، ص 203.

ما نقله Vonderheyden عن Mas- latrie[1] من أن الأسماك المملوحة كانت، حوالي 1350م ترسل، من سواحل بلاد البربر (بجاية)، إلى أوربا، يوحي بأن هذه الصناعة كانت موجودة قبل ذلك هناك؛ و قد كان منتوج سرة البربرية (la Sorra de Barbarie) يحظى بتقدير خاص، و هو عبارة عن بيض التن المملوح و أمعائه؛ و هناك احتمال كبير أن يكون كافيار بيض البوري (Caviar d'oeufs de mulet) معروفا ببجاية آنذاك، فهذه المادة (Substance) تسمى Boutargue و هي كلمة مأخوذة من كلمة بطارخ العربية، و يسمى أيضا poutargue[2] و تطلق كذلك على مبيض (Ovaire) التن.[3]

و مع أن عملية الصيد كانت مزدهرة في كثير من الأماكن الواقعة غرب بجاية إلا أنه ليس هناك ما يشير إلى وجود صناعة التصبير أو التمليح بها، رغم أن سكان مدينة تادلس (دلس)، بصفة خاصة، كانوا كلهم ، كما رأينا، يصطادون حوتا كثيرا بالشباك، عادة، حتى أنه لا يباع و لا يشترى، لكثرته، فيعطى مجانا لمن يرغب فيه[4] و على العكس من ذلك فإن مدينة باديس (Bédis) التي يعيش سكانها، حسب نفس المصدر، على السردين، إضافة إلى أسماك أخرى، كانوا يملحون السردين و يبعثون بها إلى الجبال.[5]

و كان يسكن مدينة ترغة، الواقعة على خمسين ميلا، شرق مضيق جبل طارق، صيادون تعودوا على تمليح السمك المصطاد و بيعه لتجار الجبال ليحمل برا إلى مسافة عشرين و مائة ميل(200 كلم) تقريبا إلا أن حال تلك المدينة أخذ يتدهور منذ أن احتلها البرتغاليون سنة 1502 م.[6]

و مما أفادنا به القزويني أن يهود سبتة، كانوا يقددون سمك موسى (la Sole) و يحملونه إلى الأماكن البعيدة للهدايا[7]، كما كان سمك التن ييبس (يجفف) ليدخر، و يصدر إلى سائر

1- Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes, p.373.

2- أنظر Vonderheyden : op.cit., p.27

3- Id, note 6؛ عنه أنظر R.Dozy , op.cit., T.1, p.94

4- Description de l'Afrique, T.2, p.352

5- Ibid, T.1, p.275

6- Ibid, T.1, p.274, note 534 Sqq

7- آثار البلاد، ص 201.

بلاد المغرب، و من كريت إلى روما و القسطنطينية[1] و إلى سائر البلاد بأوفر ثمن في زمن العنب و التين[2] .

و يصطاد بوادي سبو، حسب صاحب كتاب الاستبصار سمك الشابل (L'alose) الذي يصعد إلى منبعه بجبل وارتين أو يقترب منه[3]، و هذا الوادي هو نفسه وادي المعمورة، حسب ابن سعيد المغربي الذي يقول إنه يتواجد، عند اختلاط الماء المالح بالحلو، أي عند مصبه، مضيفا بأنه يصدر إلى جميع الأقطار.[4]

و في نهر أم الربيع النابع من جبال الأطلس، بين جبال مرتفعة، على حدود تادلة و منطقة فاس[5] كان صيد سمك الشابل يمارس من بداية فصل الأمطار، في أكتوبر، إلى بداية شهر مايو[6] و يكثر هذا النوع من السمك بمدينة أزمور، و به من الشحم أكثر من لحم الماشية[7] .

تصنيع المرجان ببلاد المغرب:

و قد كان صيد المرجان مصدرا معتبرا للثروة، في بعض نقاط السواحل الجنوبية من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، إذ كان يستعمل كحلي للسيدات، منذ العهد الروماني، أيام بليبيوس، كما استخدمه صياغو العصر الوسيط استخداما واسعا، و كانت ترسل منه كميات كبيرة لبلاد المشرق كي تصنع به السبحات، على سبيل المثال.[8]

و يفيد ابن خرداذبه (نهاية القرن التاسع ميلادي) أنه كان يصدر " من عمق بحر الروم، المجاور لبلد الإفرنج، السبد (le sebed)، و هو الجوهر المعروف عادة باسم المرجان"[9] و يذكر المقدسي أن المرجان كان يجلى، بعد استخراجه، في أسواق في ورشات خاصة ثم يباع جزافا

1- Ibn. Zenbel : op.cit., p.189.

2- ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص 111.

3- مؤلف مجهول: ص 73؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., pp.129-130.

4- كتاب الجغرافيا، ص 138.

5- Description de L'Afrique, T.2, p.542.

6- Ibid, T.1, p.89 ; T.2, p.543.

7- Ibid, T.1, p.126.

8- أنظر Vonderheyden : op.cit., p.29.

9- نقل النص من Journal asiatique, 1865, T.1, p.464؛ (أنظر Vonderheyden : op.cit., p.30).

(جملة) و برخص [1] و كانت لبعض التجار، من مختلف الأقطـــار، أمـــوال عنـــد سماســـرة متخصصين في شراء المرجان، و بيعه[2] كما كان البعض الآخر يستأجرون أهل نواحي القالـــة على استخراج المرجان أي صيده.[3]

و كان يصدر إلى جميع بقاع العالم، المعروفة آنذاك، و هو أنفق (أغلى) شيء في الهنـــد و الصين[4] و المرجان الذي كان مطلوبا أكثر هو الأحمر لكن الأسود و الأبيض كانا يصنعـــان أيضا[5]. و يشير الإدريسي إلى وجود سوق(ورشات) بسبتة لتفصيل المرجان و حكه و صنعـــه خرزا (Joyaux) و ثقبه و تنظيمه، ثم يسافر به إلى مختلف الجهات، و بالأخص غانة و جمـــيع بلاد السودان، حيث كان يستعمل بكثرة.[6]

و كان لسلطان المغرب، حسب ابن حوقل، " أمناء " يراقبون حصيلة ما يستخرج مـــن المرجان، و ناظر كان من بين مهامه " ما يلزم مما يخرج من هذا المعدن "[7]؛ و يقدر البكـــري جباية مرسى الخرز بعشرة آلاف دينار[8] غير أن القزويني، فيما بعد، ذكر أن ليس للسلطان فيـه حصة.[9]

فصيد الأسماك إذا كان ممارسا في أماكن كثيرة من سواحل بلاد المغـــرب المتوســـطية و الأطلنطية و كذلك في الأنهار و البحيرات الداخلية و حتى في بعض المناطق الصحراوية بطرق مختلفة، و كان هناك تشريع خاص بهذه العملية لا يعرف إلى أي حد كان مطبقـــا، و كـــانت صناعة التمليح و التجفيف قائمة في جهات كثيرة من هذه المنطقة منذ العهد الفنيقي مما ســـاعد على تصدير عدة أنواع من الأسماك إلى المناطق الداخلية و حتى إلى خارج حدودها، و بالأخص المرجان، بعد تصنيعه.

1- Al- Muqaddasi : op.cit, texte le arabe, p. 48 et 51, trad. P. 49 et 51.

2- صورة الأرض، ص 75.

3- القزويني: آثار البلاد، ص 261.

4- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 16-17؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op.cit., pp 28-29

5- Vonderhayden : op.cit.,p.32

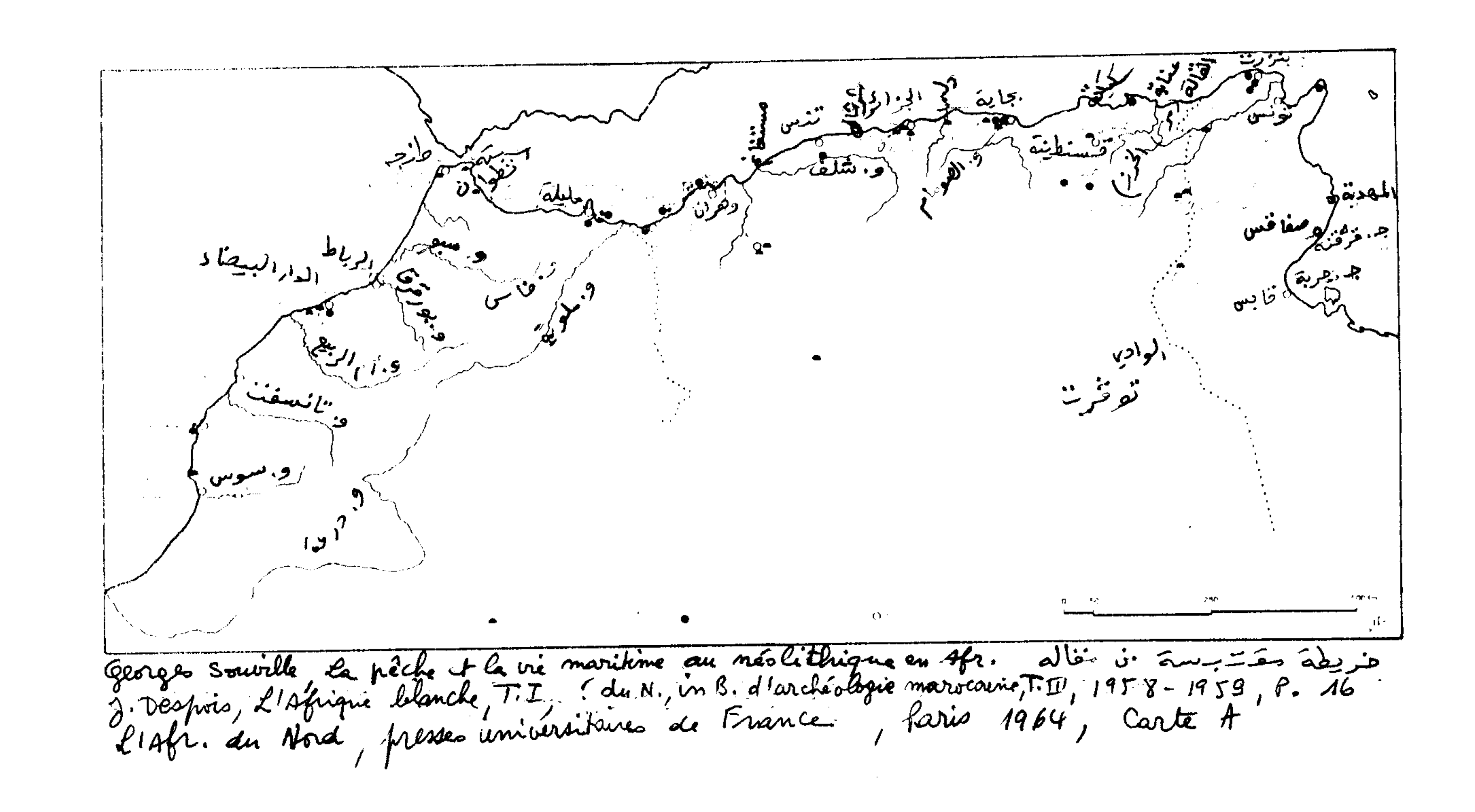
6- المغرب العربي، ص 183؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 165؛ أنظر Vonderheyden : op.cit, p.31 حسب Mauny، فقد كان يصدر خاما إلى بلاد السودان أيضا (Tableau géographique, p.371)

7- صورة الأرض، ص 75.

8- المغرب، ص 55.

9- آثار البلاد، ص 261.

صور و خرائط الباب الثالث



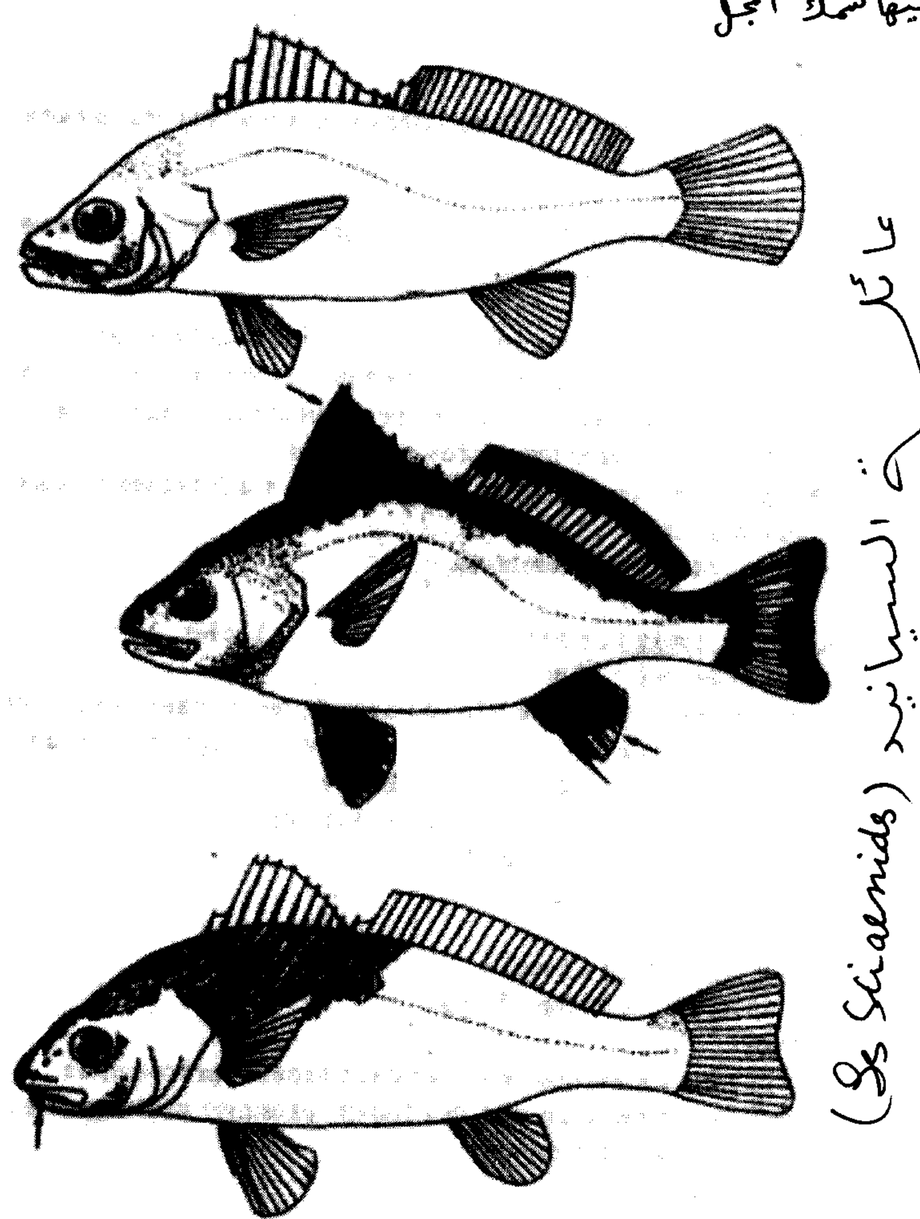
خريطة مقتبسة من مقالة Georges Souville, La pêche et la vie maritime au néolithique en Afr. du N., in B. d'archéologie marocaine, T. II, 1958-1959, P. 16
J. Despois, L'Afrique blanche, T. I, L'Afr. du Nord, presses universitaires de France, Paris 1964, Carte A

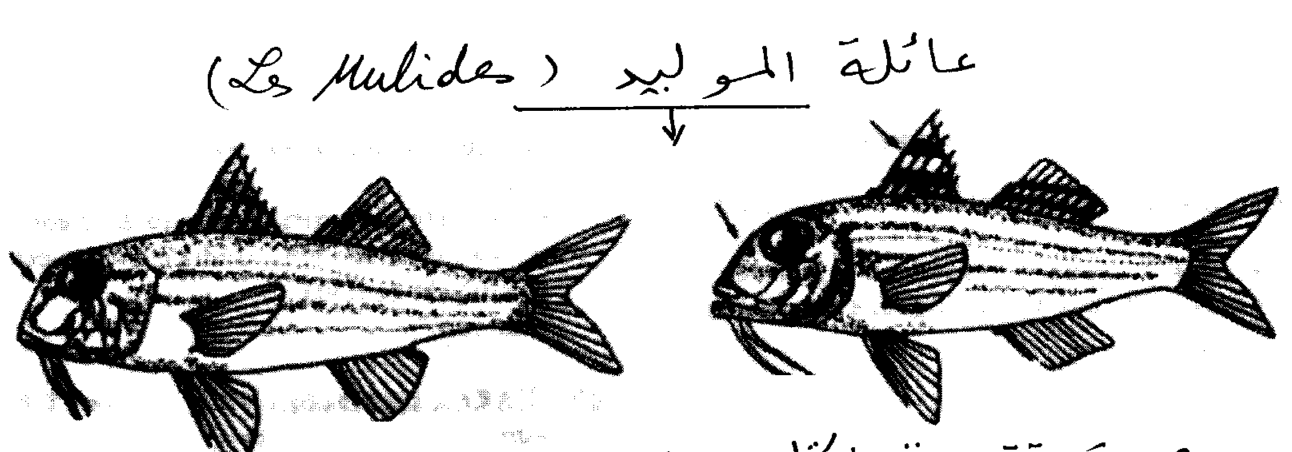
الخريطة رقم 12

خريطة تمثل شمال تونس مأخوذة من كتاب A. Borrel, La pêche sur la côte septentrionale de la Tunisie, Presses universitaires de France, Paris 1956.

صورة رقم 16

وتمثل فئة البرسيفورم (Les perciformes): عائلة السيانيد (Les Sciaenides) التي ينتمي إليها سمك اللاج والشفس أو المنكوس، وعائلة الموليد (Les Mulides) التي ينتمي إليها سمك الجل

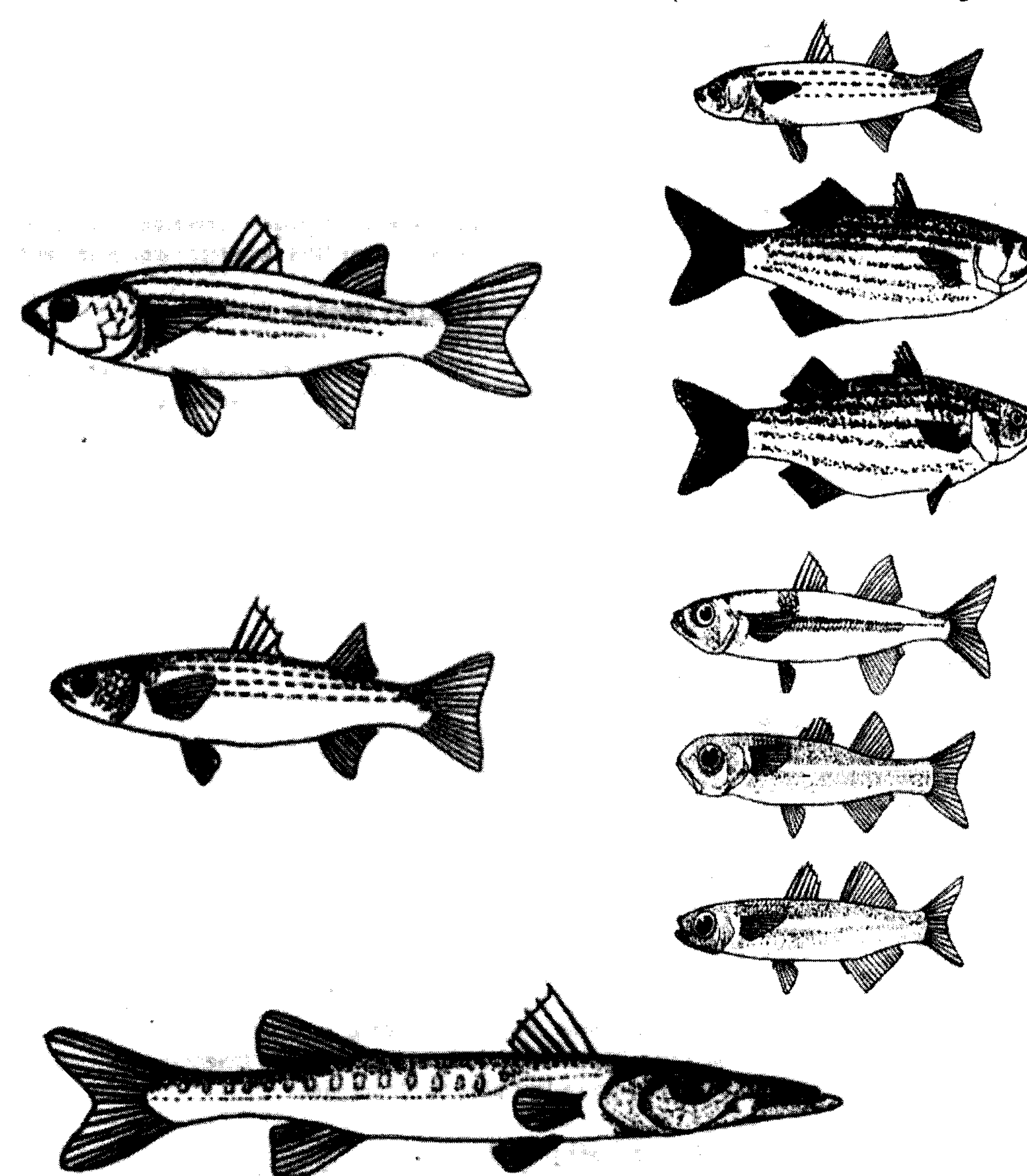




صورة مقتبسة من كتاب B. Darley : Les poissons des côtes algeriennes, I.N.E.S. agronomie, Tizi-Ouzou, réimpression O.P.U., Alger 1992, P.37 et 39

صورة رقم 17

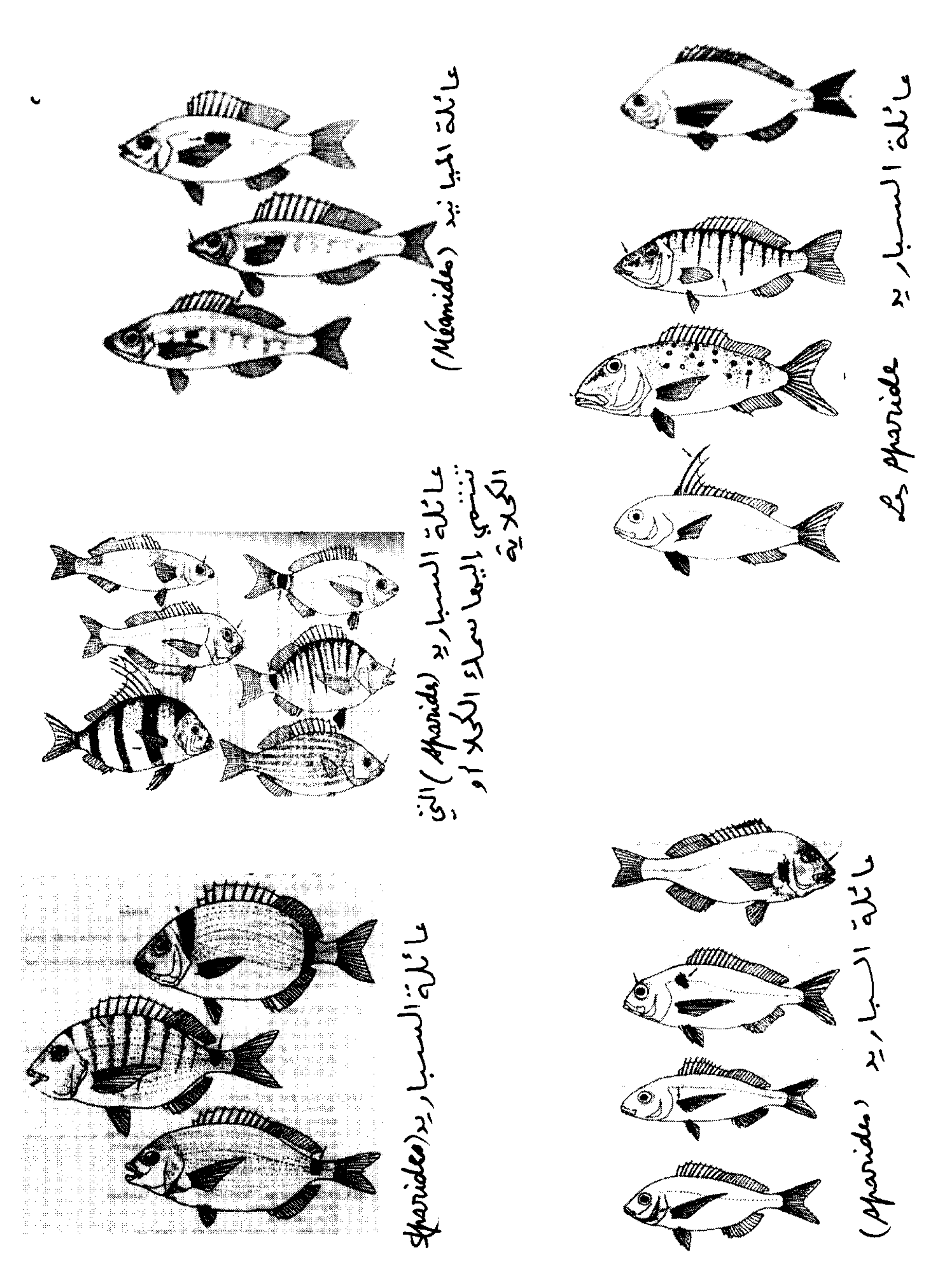
وتمثل فئة الموجليفوفوم (Les mugiliformes) التي ينتمي اليها سمك البوري
(barbeau - mulet - muge)



صورة مقتبسة من كتاب B. Darley : op. cit., p. 37 et 39

صورة رقم 18

وتمثل فئة البيرسيفورم (Les perciforme) التي تنتمي إليها عائلات مختلفة لسمك القاجوج



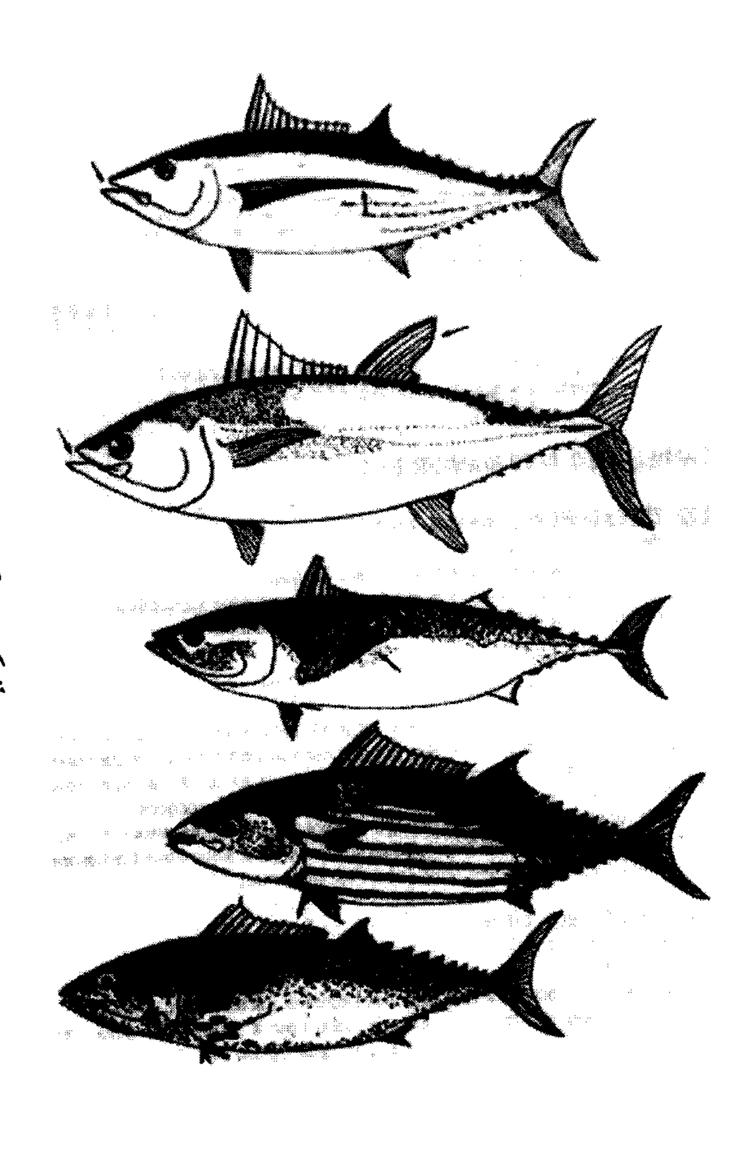
صورة مقتبسة من كتا B.Darley : op.cit., P. 59 Sqq.

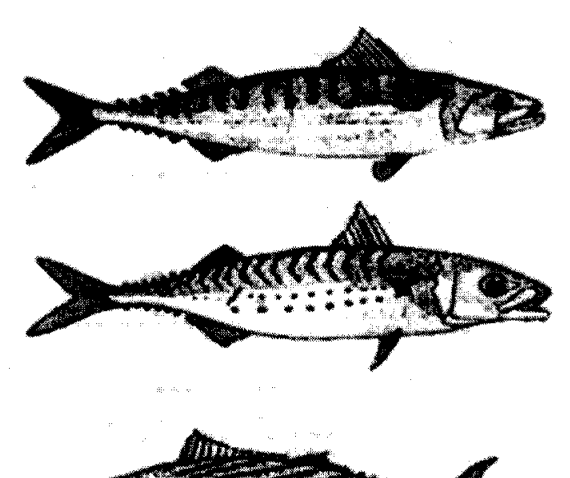
صورة رقم 19

فئة البرسيفورم (Perciforme) التي ينتمي إليها سمك التن والطنط أو الاستنار أو الطليطة.

عائلة سكمبريد (Scombrides)

عائلة التونيد Thunidés



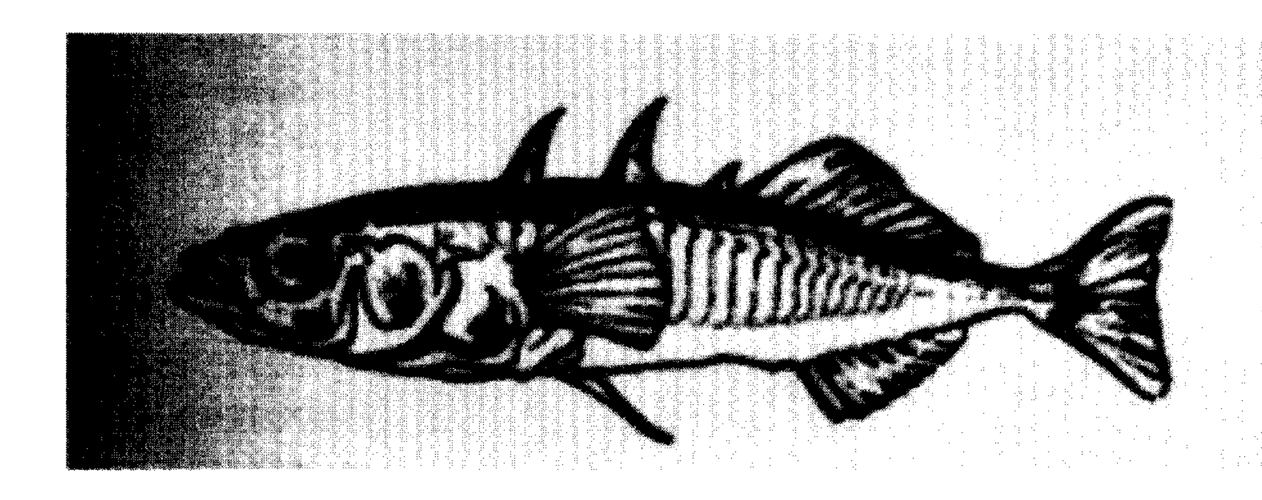


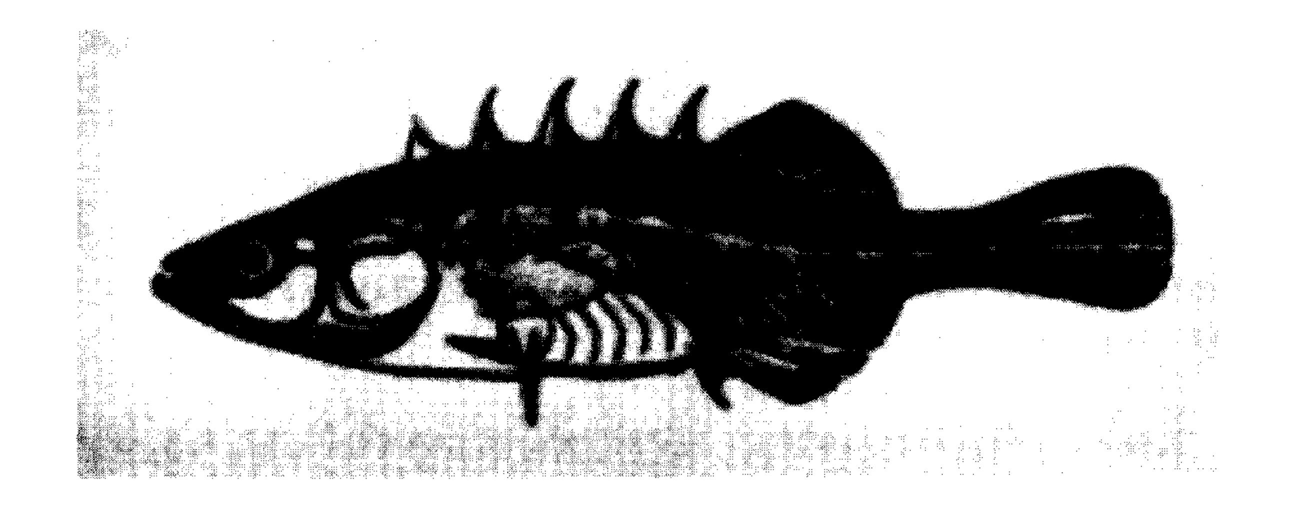


صورة مقتبسة من كتاب B.Darley : op. cit., P.85 et 87

صورة رقم ٥٥

وتمثل فئة الجاسترو ستيفورم (Gastérosteiforme) (Epinoche) التي تنتمي إليها الأشبلنيات (بوشوكة).

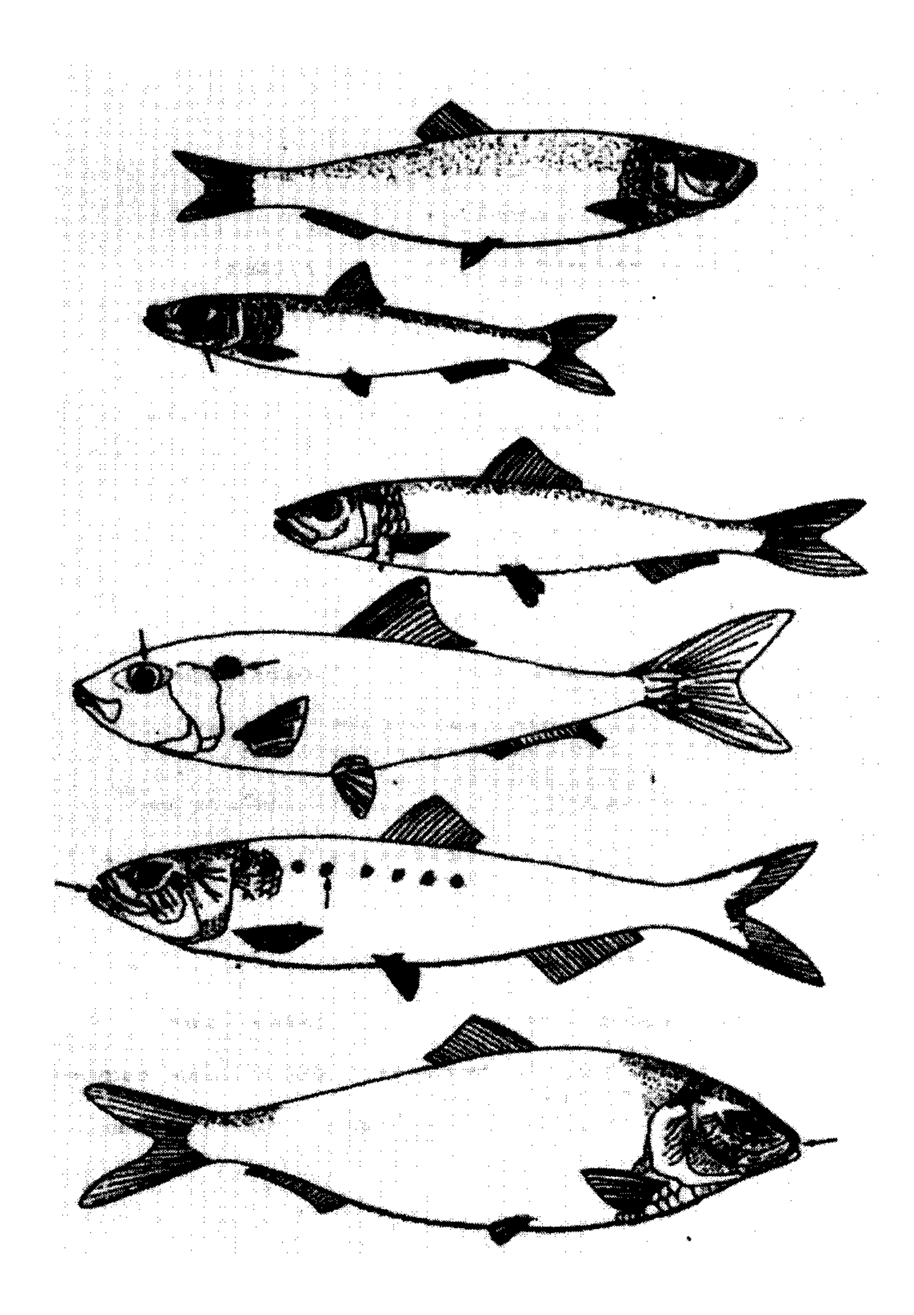




صورة مقتبسة من كتاب: Claude Melançon:
Les poissons de nos eaux, 4e éd., Montréal 1973, P. 295 et 301

صورة رقم 21

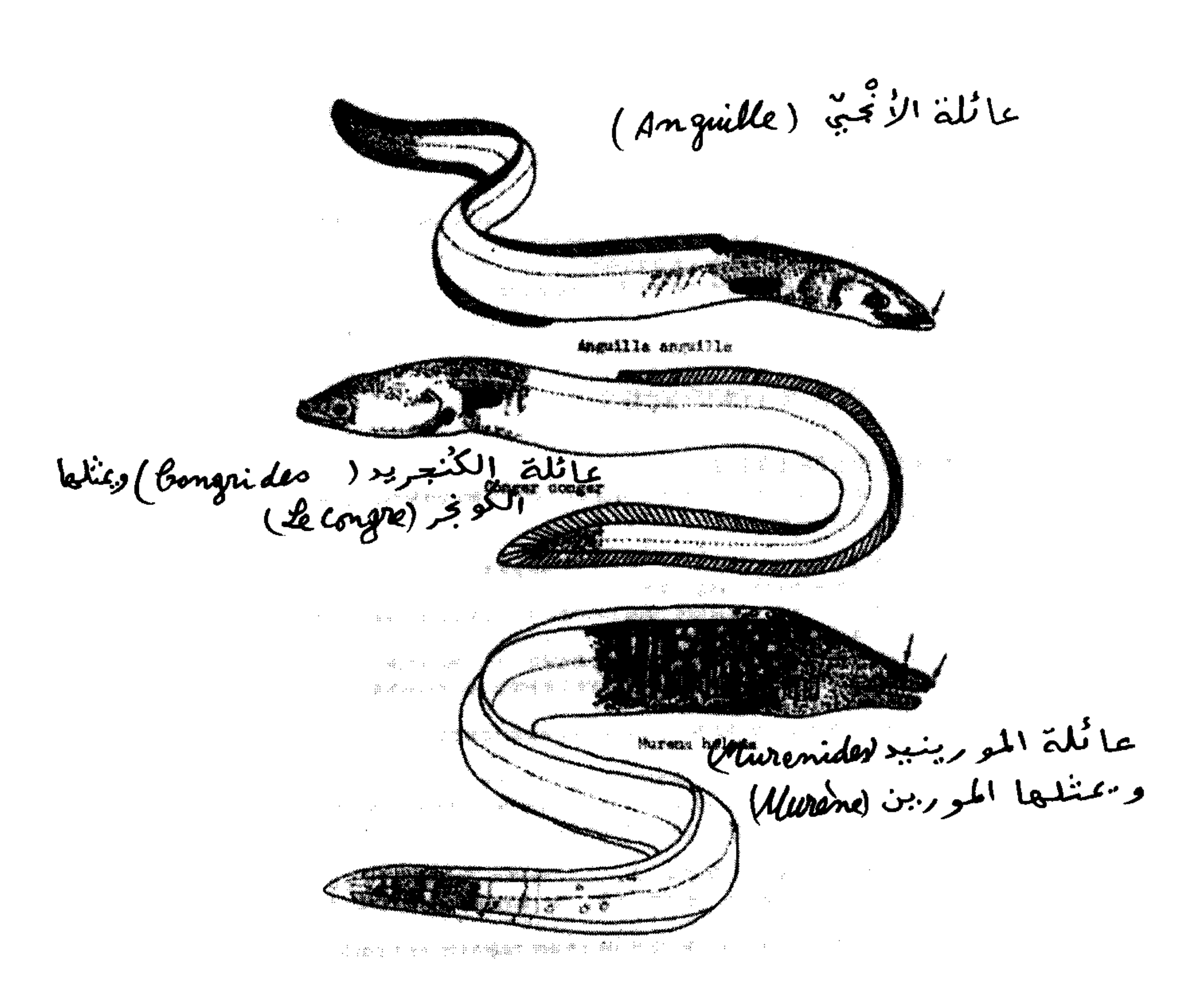
وتمثل عائلة الكلوبيديد (Clupeidides) التي ينتمي إليها السردين واللاج (Alache أو sardinelle) والشابل (Alose).

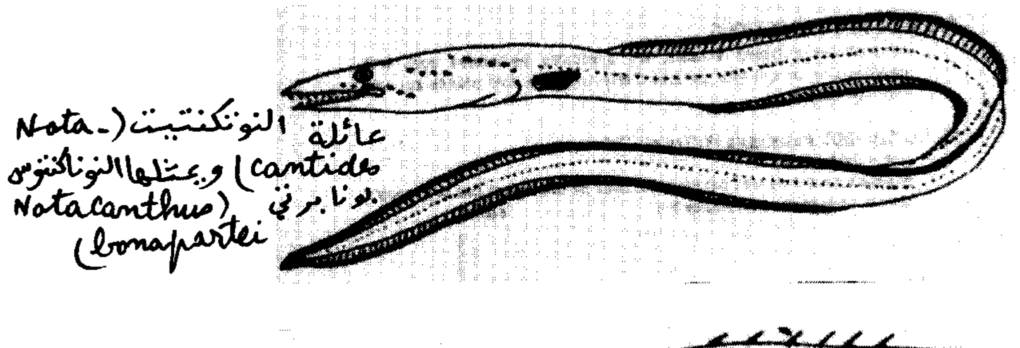


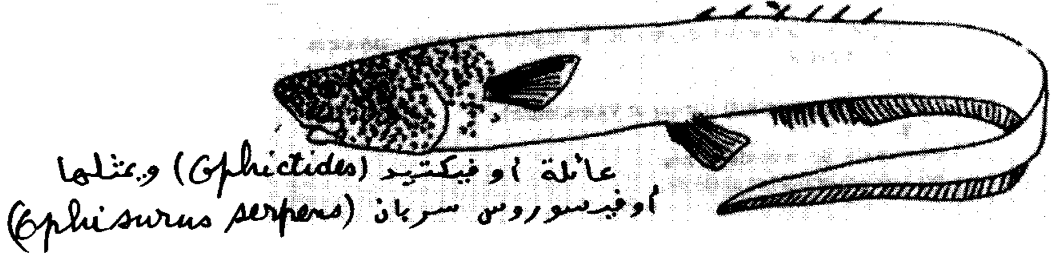
صورة مقتبسة من كتاب: B. Darley : op.cit., P. 25.

صورة رقم 22

وتمثل فئة الأنجيليفورم (Angiliforme) التي ينتمي إليها سمك السلور أو
السّلبة أو الشّلبة أو الانقليس (Anguille)،





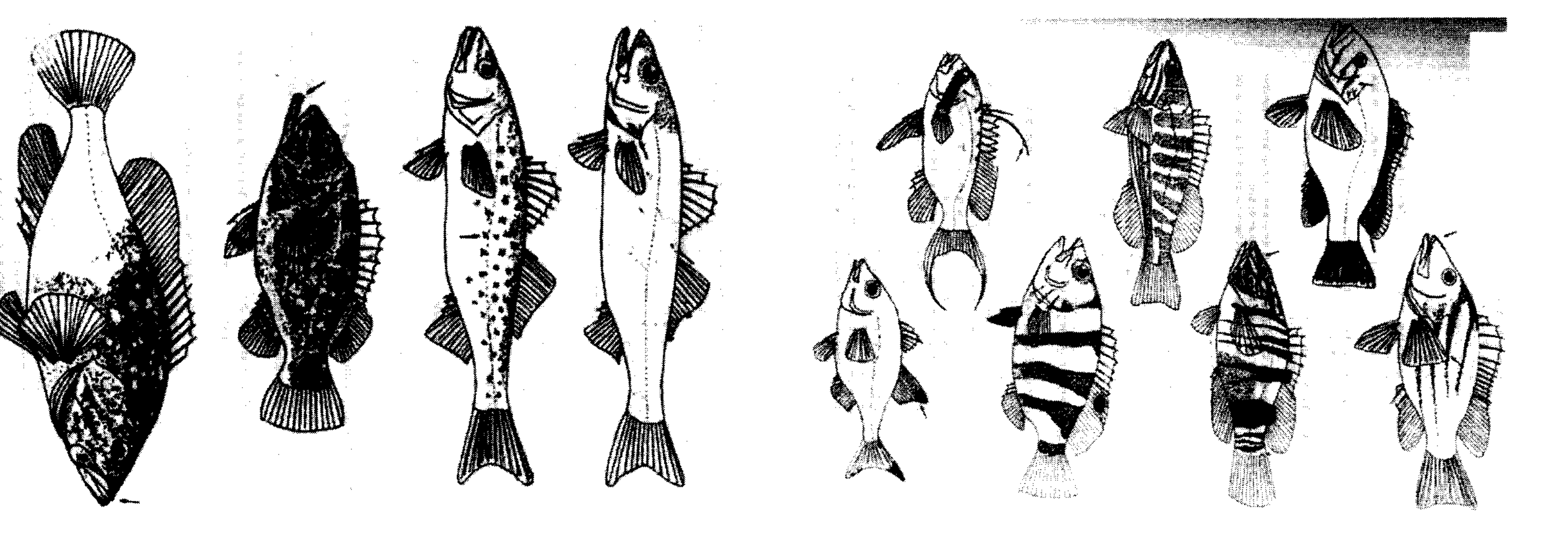


صورة مقتبسة من كتاب: B. Darley : op. cit., P. 29 et 31

صورة رقم 23

فئة البيرسيفورم (perciformes) التي ينتمي إليها القاروص (Loup)

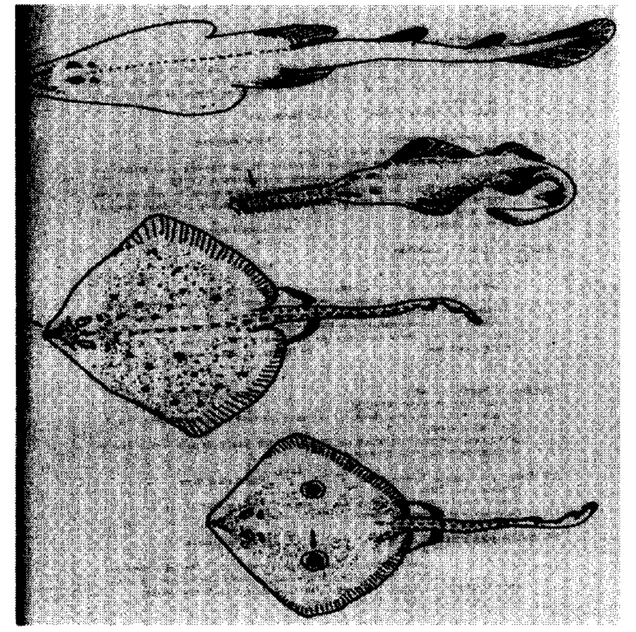
عائلة السيرانيد (Les serranids)

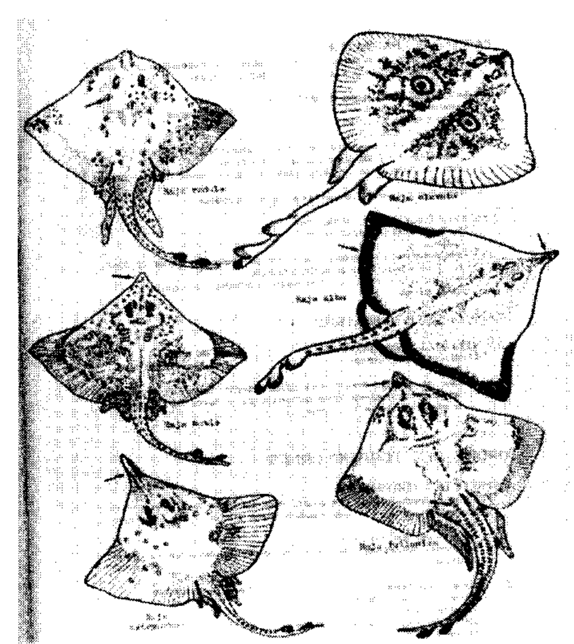


صورة مقتبسة من كتاب B. Darley : Les poissons des côtes algériennes, P. 49 et 51

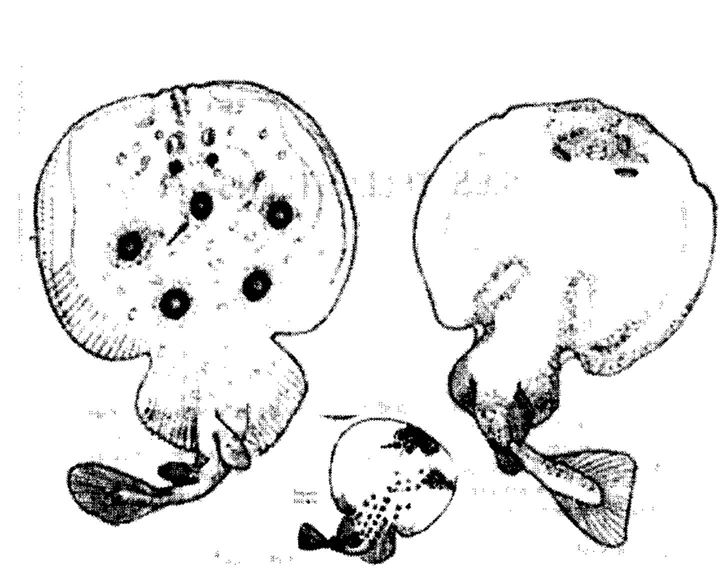
صورة رقم 24

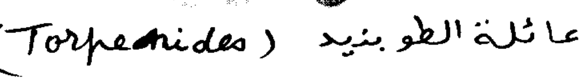
وتمثل سمك الجوجة أو الملكة Raies المعروفة بالجاجة أو الخطايفة او السرود (في أيامنا)



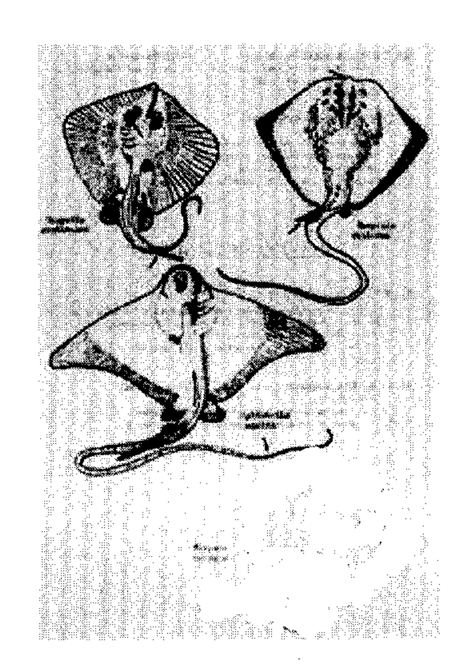


عائلة الرّبنو باتيد (Rhinobatides)





عائلة الطوبنيد (Torpenides)

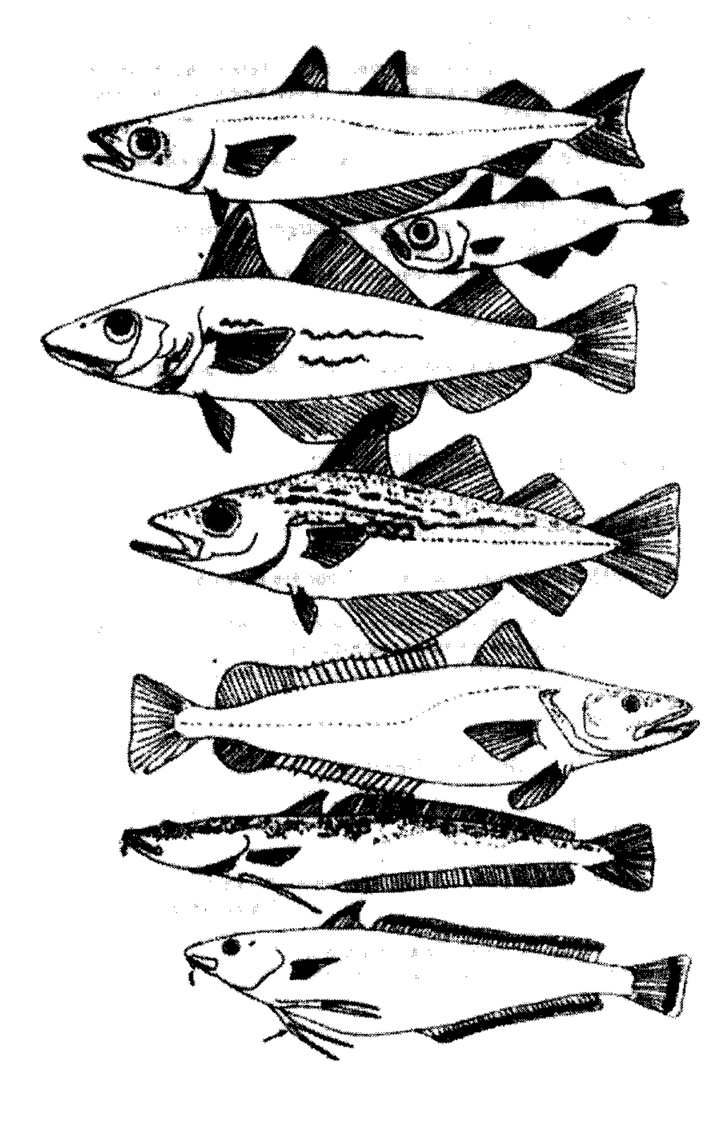


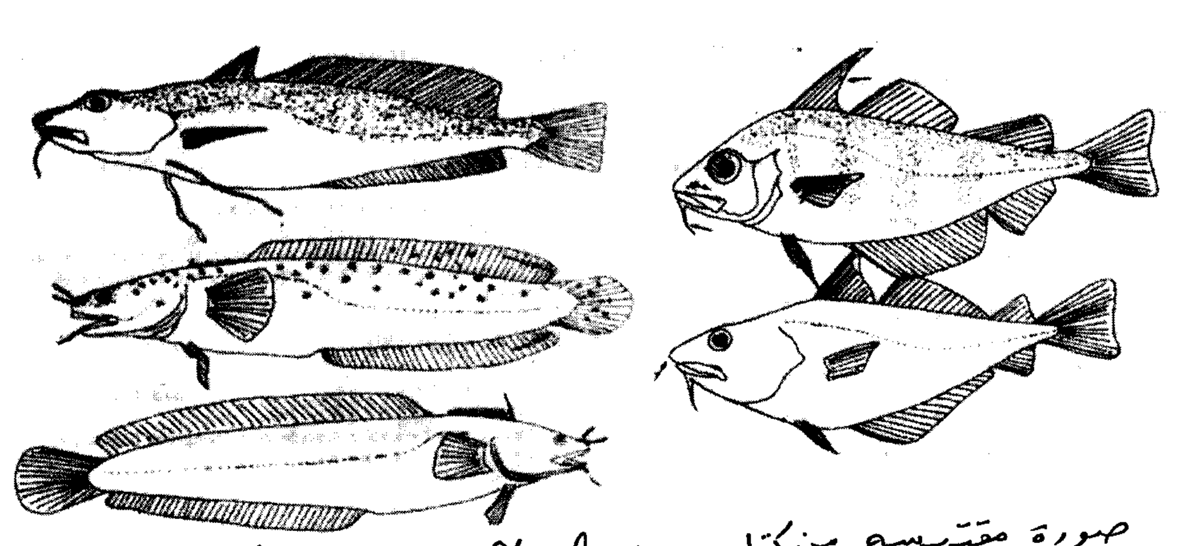
عائلة داسيادبد (Dasyadides)

صورة مقتبسة من كتاب: B. Darley : op. cit., P. 17-19 et 21

صورة رقم ٢٤

تمثل فئة الجاديفورم (Gadiforms)، عائلة الجاديد (Gadides) التي ينتمي إليها سمك الغبر

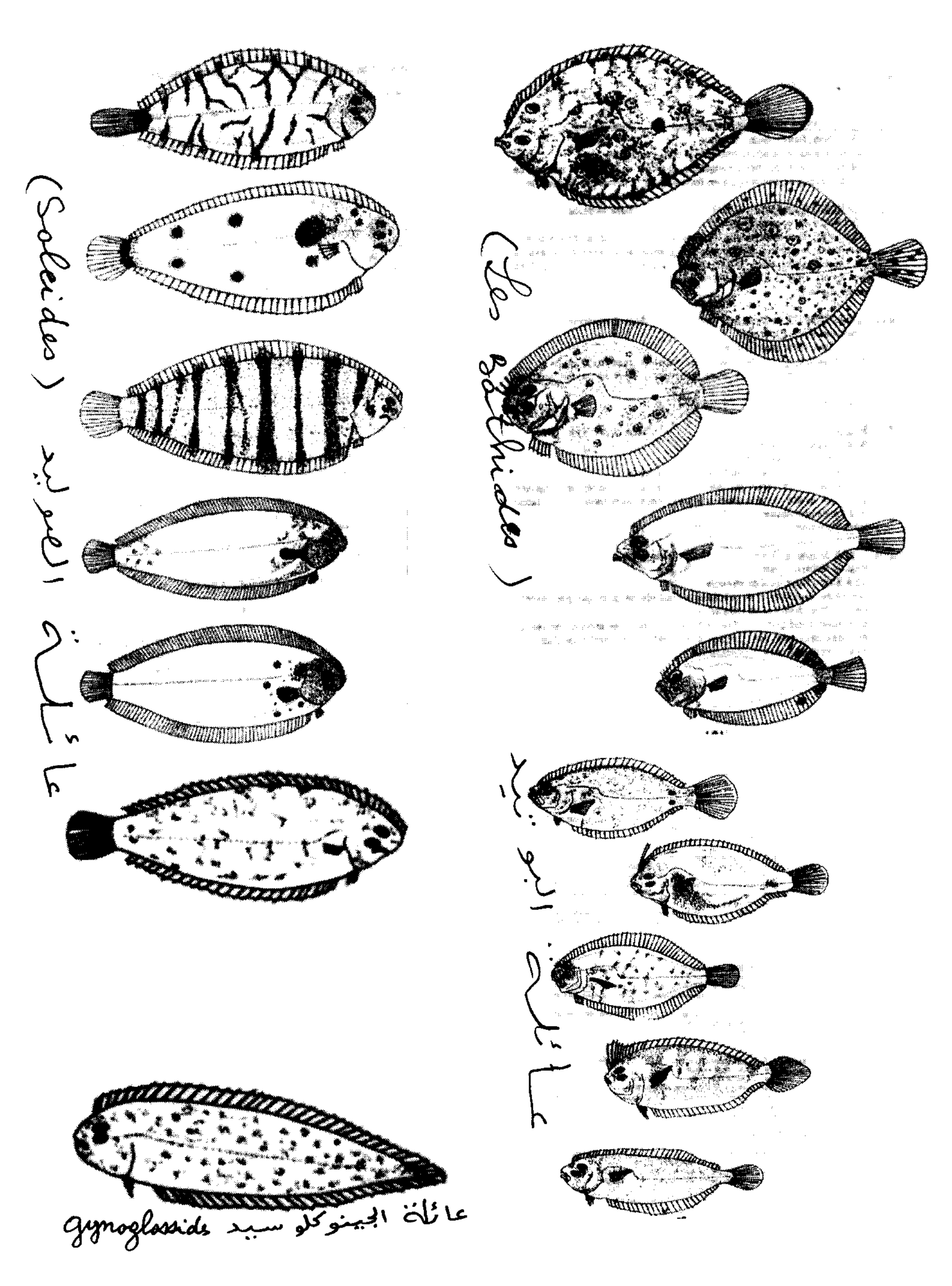




صورة مقتبسة من كتاب B. Darley : Les poissons des Côtes algeriennes, P. 41 - 43 - 45

الصورة رقم 26

تمثل فئة المسطحات Les pleuronectiforme المعروفة بسمك موسى



صورة مقتبسة من B. Darley : op. cit, P.99 Sq

الصورة رقم 27



صورة مأخوذة من مقالة H. Lhote : Le crocodile du Sahara, B. de liaison saharienne, T. XII, n° 43, sept. 1961, P. 263.

تمثل الصورة ضابطا فرنسيا يمسك تمساحا مقتولا بإيرير (Ihérir) سنة 1921 اصطاده رجل طوارقي ببندقية صيد وقد احتفظ به بعد ذلك في مكتبة الجزائر.

الباب الرابع:
الملح وطرق استغلاله في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين

الفصل الأول:

الملح: تكوينه- طرق استخراجه

الفصل الثاني:

أهمية الملح الاقتصادية والتجارية

الباب الرابع

الفصل الأول:

الملح : تكوينه وطرق استخراجه

تكـــوين الملـــــح:

عندما توجد طبقة أرضية غير منْفذة للماء، مع غياب الميل، فالمياه لا تُصرف ويصعد الملح إلى السطح الذي يصير غير قابل للزراعة، وتتكون فيه، عند ذلك ، سبخةٌ أو شطٌ.*

ويعلّقR.Capot- Rey على ما قاله E.F.gautier عن الجزائر بأنها" أرض الملح" بقوله:إن ذلك ينطبق أكثر على الصحراء لدرجة أن الرحالة الأوربيين الأوائل كانوا يتصورون أنها كانت قعر بحر قديم تَرك، بعد جزره، الرمل الذي يشكل الكثبان، والملح الذي يغطي قعر السباخ؛والصحراء بكاملها، تَكُون عندها مسمومة بالأملاح، ولا توجد بها صخور من الملح الذي يوجد في قاع الأحواض،(cuvettes) سواء تعلّق الأمر بكلورور الصديوم Chlorure de) sodium)أو كلورور الماغنيسيوم أو كربونات الصوديوم(نترون)، ويكون مختلطا بغرين (alluvion)الزمن الجيولوجي الرابع، وهو يأتي من غسيل (lessivage) أنواع الصخور المختلفة التي ليست بالضرورة صخورا ملحية، ومن الأملاح الذائبة في أحواض مغلقة تَعمَل،بعد كلّ فيضان ، كمستنقع منتج للملح،ّ(marais salant) الذي يدل تكوّنه على أن مياه الفيضانات لا تصبّ في البحر، وإنما تختفي بفعل التبخّر،وبعبارة أخرى وجود نقص في التساقط[1]

ويعتبر (M.Lombard) " الملح عنصرًا أساسيًا للتغذية وأيضا للصناعة الغذائية (تمليح) وغيرها(كالأقمشة والجلود) ويُجمع من الملاحات على الشواطئ كما يستخرج، في شكل الجوهر (sous forme de gemme)في الأراضي الداخلية"[2]

ويردّ (R.Mauny) الملح المستهلك"في مناطقنا" كما يقول، إلى عدة مصادر ، منها الملح البحري الذي يستعمله عمليا كل سكان السواحل، إمّا مباشرة عن طريق استخدام مياه البحر في طبخهم، وإمّا بجمعه من سطح الملاحات الطبيعية، وإما بتبخير مجموعات (Collections) اصطناعية من ماء البحر بفعل الشمس أو بالتصفية(Filtrage)والتبخر بالغليان(par ébullition) ويلاحظ نفس المؤلف أن مصادر العصر الوسيط لا تتحدث إلاّ قليلا عن الملح البحـــــري

---

*) يطلق مصطلح الشّط عادة، حسب R.Capot-Reyعلى سَهْب (steppe)النباتات اليحوجية أي التي تنمو في المناطق المالحة(المنهل، ص 507) المحيطة بالسبخة l'Afrique blanche française, T.2, le Sahara P.13

(1) نفس المرجع، ص 36-37

L'islam dans sa première grandeur, P,187(2)

مع ما كان له من مكانة معتبرة، بدون أي شك، ثم ينتهي إلى القول: إنه لم يكن للملح البحري إذًا،في إفريقيا الغربية(غرب الصحراء المغربية) سوى أهمية ثانوية إلا في السواحل والمناطق المجاورة لها، عكس الملح الجوهر(Gemme)[1].

ويوجد الملح الجوهر، أساسا، في الصحراء حيث تَكوَّن عبر العصور في أعماق الأحواض أو السبخات، في طبقات متتالية يفصلها الطين الذي حملته مياه الأمطار، أي في معادن ملح الجوهر المتماسك الذي يمكن قطعه ألواحًا (en barres)كي يُنقل إلى مسافات بعيدة وقد استغل في العصر الوسيط عددٌ قليل من تلك المعادن ومن بينها أوليل[2]

وهناك ملح غير بحري يُتحصل عليه عن طريق حَلْحَلَة (lixiviation) الطين (la terre) المالح والتبخير، وهي طريقة الاستغلال المطبقة اليوم في النيجر وتيقيدة أنتيسمت (Teguida Ntesemt)،غرب الآير، وفي كوّار والتشاد،و لم تكتشف ملاحة تيقيدة أنتيسمت،على ما يبدو، إلاّ منذ حوالي 250 عاما[3] وهي تُستغل بسقي الطين المالح في حوض كبير ثم خلطه وصبّ الماء المشبع بالملح، بعد ذلك، في أحواض أصغر، حيث يُترك مدة يومين تقريبًا يتبخر فيهما، وعندئذ يُضغط الملح في شكل صفائح (Plaques) سمكها من 5 إلى 6 سنتيمترات وطولها 60 سنتمترًا وعرضها 30 سنتمترا و وزنها من 20 إلى 25 كيلوغرامًا[4].

وملح ذو أصل نباتي، تستعمله شعوب كثيرة، لا تستطيع الحصول على ملح الشمال، في المنطقة الغابية السودانية وليس لهذا الملح خصائص الملح المعدني،، ومع أن نصوص العصر الوسيط لا تشير إليه إطلاقا، غير أنه كان، ولا شك يستعمل على نطاق واسع؛وقد كان الناس،

• Tableau géographique de l'ouest africaine, 323,59Sq(1)

• Ibid, P, 325(2)

(3) حدّد R.Maunyهذه المدة بحوالي 200 عام في (Mémoire de l'institut fr.de l'afr., N⁰6, Dakar 1961وقد مرّت منذ ذلك التاريخ إلى اليوم2004 ما يقرب من 50 سنة، وهو ما جعلنا نعوّض 200 عام بـــ 250 عاما تقريبا؛ مع ملاحظة أن R.Maunyيشير هنا إلى اعتقاد H.Lhote في (Contribution à l'étude des Touareg soudanais) من أن منجم النحاس الذي تحدث عنه ابن بطوطة بتكدا، قد يكون في الواقع ملاحة de Tableau géographique) l'ouest africain), p 333, note1 ؛ أنظر الخريطة رقم 13 •

• Mauny, op .cit.pp332-333(4)

بخليج غينيا، يكتفون، في نهاية القرن السابع عشر بحشيشه معيّنة مالحة قليلا عِوض الملح، لأن إمكانياتهم لا تسمح لهم باقتناء هذا الأخير، وما من شك أن هذا الاستخدام كان معروفا قبل تلك الفترة[1]

ومن الأملاح المعروفة أيضا: النّترون أي كربونات الصوديوم[2]: ويوجد في حالة بقايا قليلة أو في نِسبٍ مختلفة من الأملاح المكَلْوَرة[3] الصودية(sodique) في القطاع الشرقي من الصحراء، وكان يستخدم بمصر القديمة في تحضير الموميات، وما وجود هذه الأخيرة في واحة طَايسَربو (Taiserbo) (الكفرة) بليبيا إلاّ دليل، ولاشك، على وفرة هذا المعدن الذي يَدخُل في تغذية الحيوانات وخصوصا الجمال التي تُساق إلى عيْن المكان لعلاج دوري(cures périodiques)كما يستخدم في دبغ الجلود وفي الأدوية(pharmacopée) كمطهرّ (purgatif) ويجمع بصفة خاصة، من فزّان بإيديّن (Edeyan)، شمال وادي الأجال(el- Adjal) وبيلمة وديركو وأقادم وتيقيدة أنتيسمت ومانقة(Mangua)وغيرها، ومع أن نصوص العصر الوسيط لا تشير إليه بالمرة، إلاّ أنه كان،ولا شك، موضوع تبادل، بالنسبة لبعض الاستعمالات المذكورة[4]

والشّب (Alun) أو بالأحرى الشبوب، وهي عبارة عن مجموعة من الكبريتات[5] المزدوجة (Sulfate double)كانت، فيما مضى، مطلوبة بكثرة[6]، مع ملاحظة أن خاصية ملح بيلْمة(Bilma)يبدو أن لها علاقة بوفرة سُلفات الصودا (sulfate de soude)الذي هو شب بالمعنى الواسع، مما لم يمنع إذا، عندما كانت للشب قيمة تجارية كبيرة، من جمع الملح الذي يحتوي على نسبة كبيرة من السلفات، على حدة، وبيعه على أساس أنه شب؛ وقد كانت تلك النسبة تصل 79 % في بيلمة و 97.5% إلى الجنوب منها، في ملاحات مانقة(Mangua)[7]

وكان الشبّ يستعمل في تنقية المعادن وترسيخ صباغات الأقمشة[8]

---

(1) R.Mauny,op.cit.P.334 ؛ أنظر الخريطة رقم 13.

(2) المنهل، ص 693.

(3) التي تحتوي على كلورور (المنهل، ص 119) .

(4) Mauny op .cit.pp334 ؛ أنظر الخريطة رقم 13.

(5) اسم يطلق على أملاح الحامض الكبريتي(المنهل، ص 985)

(6) Mauny op .cit.pp334-335 ؛أنظر الخريطة رقم 13 .

(7) Ibid.p.336.

(8) Ibid.P 246.

واسم ملح النشادر(le sel Amoniac)، مأخوذ من واحة أمّون(سيوة أو سنتارية)، وكان يستعمل في الصقل(décapage) والتّبييض وتلحيـــم المعادن،ويُستخرج من مصـــر وبرقة[1]

حكـــم الشـــرعي و الملـــح:

يُدخِل كلٌ من الماوردي والفراء الملح في إطار" المعادن: وهي البقاع التي أودعها الله تعالى الجواهر في الأرض" وهي نوعان: ظاهرة وباطنة، والظاهرة ما كان جوهرها المستودع فيها بارزا كالكحل والنفط والملح، وحكمها حكم الماء، فلا يجوز إقطاعها والناس فيها شرع(أي سواسية) يأخذها من ورد إليها، فإن أُقطعت، لم يكن لإقطاعها حكم، وكان المقطع وغيره سواء، وجميع من ورد أسوة يشتركون فيها، فإن منعهم المقطع منها كان بالمنع متعديا، وكان لما أخذ مالكا، لأنه متعدّ بالمنع لا بالأخذ، وكُفَّ عن المنع، وصُرف عن مداومة العمل(أي الاستمرار فيه) لئلا يثبته إقطاعا بالصحة، ويصير معه في حكـــــم الأملاك المستقرة"[2]

أما المعادن الباطنة فهي ما كان جوهرها مستكنًا فيها، لا يوصل إليه إلا بالعمل كمعادن الذهب والفضة والصفر(النحاس) والحديد ومن هذه المعادن ما يحتاج إلى سبك وتخليص (fusion et affinage)ومنها ما لا يحتاج[3] وهذا ما ينطبق تماما، على معـــدن تاتنتال أو تغازا حيث" تحفر عنه الأرض، كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر، ويوجد تحت قامتـــين أو دونهما من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة"[4] وهذا يعني أن مثل هذا الملح يُعتَبر من المعادن الباطنة.

---

(1) Mauny,op.cit.p247؛أنظر الخريطة رقم 1.

(2) الماوردي: المصدر السابق،ص 170؛الترجمة الفرنسية، E.Eagnan les statuts gouvernementaux، P425 ؛الفراء: المصدر السابق،ص 219-220.

(3) الماوردي نفسه؛ الترجمة الفرنسية Ibid,p426؛الفراء: نفس المصدر، ص 20 2.

(4) البكري:المغرب، ص 171.

وبالنسبة للفراء فلا يجوز إقطاع هذا الملح مثله في ذلك مثل المعادن الظاهرة، وكلّ الناس فيه شرع،في حين أن الماوردي يقول:إن هناك رأيا آخر يجيز إقطاعه، ويكون المقْطَعُ، في هذه الحالة، أحق به وله منع الناس منه، وينقسم هذا الحكم، بدوره، إلى حكمين: أحدهما أنه إقطاع تمليك، يصير به المقطع مالكا لرقبة المعدن ويحق له بيعه في حياته، كما ينتقل إلى ورثته، بعد موته؛ أما الحكم الثاني فهو إقطاع إرفاق(استغلال)، لا يملك به رقبة المعدن، ويملك فيه الارتفاق بالعمل فيه مدّة مُقامه عليه، وليس لأحد أن ينازعه فيه، ما أقام على العمل، فإذا تركه زال حكم الإقطاع عنه، وعاد إلى حال الإباحة[1]

وفي حالة ما إذا أحيا الإنسان أرضا مواتا، سواء بإقطاع أو بغير إقطاع، وظهر له فيها معدن، ظاهر أو باطن، يستطيع المحيي أن يملك ذلك المعدن على التأبيد تماما، كما يملك ما اسْتنبطهُ من العيون واحتفره من الآبار[2]

وقد أورد الونشريسي جواب أحد الفقهاء المالكية" سيدي عبد الرحمن بن مقلاش" عن سؤال متعلق بجواز اكتراء ملاّحة لمدة معينة أم عدم جواز ذلك، ومضمونه:أن"الملاّحة ليس الكراء فيها بيعا لملحها، كما تَوَهّمْتَ، بل الكراء فيها لأجل رفع الحَجْر عنه(أي الملح)مدّة من الزمن، لأنها مُحَجَّرة،لمصلحة اقتضت ذلك، فإذا أقطعها الإمام أو من قام مقامه لأحد، مدّة من الزمن، فإنما أباح له التصرف فيها، كما فعل في المعادن، فلا غرر."[3]

ويتبّين ، من هذا الجواب، أن الإمام ،أو الحاكم أو من يمثله يجوز له إقطاع ملاحة ما لشخص معيّن لاستغلالها، مدّة معيّنة، كما هو الشأن بالنسبة للمعادن الأخرى، وهو ما يخالف تماما، ما أورده كلٌّ من الماوردي والفراء، في هذا الموضوع، فهل معنى ذلك أن هذا الجواب يدخل في إعادة تفسير الفقه المالكي التي بدأت، منذ القرن الرابع عشر الميلادي، نتيجة الصراع الذي نشب بين القوى السياسية الحاكمة بالمغرب الأقصى وحكام السنغيْ الذين استولوا على معادن الملح، بعدما كان استغلالها مباحا لجميع المسلمين من بيض

---

(1) الماوردي: المصدر السابق، ص 170-171؛الترجمة الفرنسية E.Eagnan,op.cit, pp 426-427 .

(2) نفس المصدر، ص 171؛الفراء:نفس المصدر، ص 220 .

(3) الونشريسي: المصدر السابق،جـــ 6 ص 135.

وسودان[1] أي أن الفقه المالكي، في هذه النقطة بالذات، نقطة إقطاع المناجم، ومنها الملح قد تطور ليتكيف مع الأوضاع السياسية الجديدة، القائمة على الصراع بين المسلمين، البيض منهم والسود، من أجل السيطرة عليها، بعد أن بادر السود بذلك وأصبح الفقهاء المالكية، منذ ذلك الوقت، لا يرون مانعًا من أن يقطع السلطان أو من يمثله منجم ملح لمن يستغله مدّة معينة.

وقد قسمJ.Devisse استغلال الملح وتسويقه إلى ثلاث حالات: فمن القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر(وهي الفترة التي تدخل في إطار البحث) يحتمل أنه كان ملكا "للمسلمين" بمعنى: المغاربة والبربر الصحراويين(لنلاحظ كيف يفرق في التسمية بين"البربر الصحراويين" وبين المغاربة" القادرين على ضمان استغلاله واحتكار تجارته، وربما يكون ذلك حدث بطرد التجار السود الذين يكونون قد حاولوا المجيء لأخذ الملح مباشرة ، وهذه الحالة تشبه، على الصعيد التجاري، حسب نفس المؤلف تلك التي ذكرها بالنسبة للذهب[2]أي أن السود منعوا البيض من التوغّل داخل بلادهم حفاظا على السرّية الخاصة باستغلاله، مع العلم أن الحديث عن هذا الطرد المتبادل يدخل ضمن الافتراضات التي وضعها بعض الباحثين، ولا تستند علىأي دليل علميّ.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي، صارت العلاقات بين المغرب الأقصى (Maroc)وبلاد المغرب عموما من جهة، وبين مالي، من جهة أخرى ، هي علاقات بين المسلمين،أي بين أبناء الدين الواحد، وبالتالي فإن معادن الملـــح كانت مفتوحة نظريا لجميعهـــم، مهما كان نظام استغلالهم[3]

ومنذ القرن الرابع عشر بدأ بين المغاربة والسَنْغَى صراع قائم، أساسا، على الجانب التجاري، بحيث صار كِلاَ الجانبين يطالب دولته بامتلاك معادن الملح[4]

ومما يلاحظ أن الفرّاء (الحنبلي) لا يستثني الملح من المعادن التي تَجِبُ فيها الزكاة: ما يطبع منها كالذهب والفضة والحديد والرصاص وغيرها وما لا يُطبع، من مائع كالقير والنفط

---

(1) أنظرJ.Devisse :les mines en Afrique de l'ouest du VIII^{e} au XVI^{e} siècle Mis cellanea , GENT,1975, PP 212-213

(2) Ibid, P .213

(3) Id

(4) Id

أو حجر: كالجوهر والكحل، لكنه في نفس الوقت، لا يذكره صراحة؛ أما الموارديي (الشافعي) فيشير إلى رأي أبي حنيفة الذي أوجبها في كل ما ينطبع، من فضة وذهب وعصفر ونحاس، وأسقطها عما لا ينطبع، من مائع وحجر؛ وأوجبها أبو يوسف فيما يستعمل منها حليًا كالجوهر؛ وعلى مذهب الشافعي تجب الزكاة في معدني الفضة والذهب[1] والملح هنا أيضا غير منْصوص عليه صراحة إلا أنه يدخل تلقائيا في قائمة المعادن التي لا تطبع ولا تستخدم كحُلي .

توزيع الملح واستخراجه من مناطق المغرب التلية

من أهم ما جاءت به المصادر العربية عن وجود الملح ما ذكره البكري عن سبخة كبيرة تتصل بمدينة طرابلس، يرفع منها ملح كثير[2] كما توجد، حسب نفس المصدر " قُرب المنستير ملاحة عظيمة تُشحن فيها السفن بالملح إلى البلاد"[3]، وهناك ملاحة ، جنوب ربض المرضى ، خارج مدينة تونس، وهي كبيرة تمون سكان مدينة تونس وجيرانهم [4]، وغير بعيدٍ عنها، تحوّل في عهد البكري، ميناء ، كانت المراكب ترسو به، إلى ملاحة، عليها قصرٌ ورباط يُعرف ببُرج أبي سليمان[5]

وتوجد أيضا، شرقي القيروان، سبخة ملح،" عظيم طيّب نظيف"[6]، وقد كانت المياه التي تنبع من أعالي جبل أوراس، تُشكل ،حسب الوزان، نوعا من السّباخ، في السهول المجاورة، ثم تتحوّل تلك السّباخ، بفعل ارتفاع درجة الحرارة، إلى ملّاحات[7]كما كان ببسكرة قرب تلك النواحي، حسب البكري" جبل ملح يقطع فيه الملح كالصّخر الجليل، ومنه كان عبيد الله

---

(1) الماوردي: المصدر السابق ، ص 105؛ يلاحظ أن معظم المصادر عندما تذكر الملح تصفه بالمعدن غير أن عزّ الدين أحمد موسى يضعه ضمن المواد غير المعدنية، مثله مثل المرجان والعنبر(النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي، خلال القرن السادس الهجري، ص 249) ولا ندري على أي أساس فعل ذلك •

(2) المغرب، ص 8 •

(3) نفس المصدر، 24 •

(4) نفس المصدر ، ص 40 •

(5) نفس المصدر، ص 44•

(6) نفس المصدر، ص24 •

(7) Description de l'Afrique, T2, p.407 .

الشيعي و بنوه يستعملون في أطعمتهم"[1] وما زال هذا الملح يستغل إلى اليوم حيث أقيم عليه مصنع كبير في بلدية لوطاية على عدة أميال من مدينة بسكرة*

ويتحدث ابن أبي زرع الفاسي" عن معدن ملح" يعتبره مما تتفوّق به فاس عن غيرها من البلاد، وليس، في نظره،" في معمور الأرض معدن ملح مثله، وهو على نحو ستة أميال منها، وطول هذه الملاحة نحو ثمانية عشر ميلا، أوّلها محشر الشطبي، وآخرها بوادي مكس، عند دمنة القبول، وفي هذه الملاحة أصناف من الملح، لا يشبه بعضها بعضا، في الألوان والصفات، فالملح بالمدينة كثير جدًا، يباع عشرة أصواع** بدرهم، وأقلّ وأكثر، بحسب ما يجلب، ومن بَرَكه هذه الملاحة حسب اعتقاده، أنّها كلها تُحرث بالزرع، فتجد فدادين الزرع، في وسط الملح، بخضرة ناعمة تتماثل خاماتها..وكان الملح قبل هذا يباع بالمدينة، حمل بدرهم، لا يجد بائعه من يشتريه منه لكثرته"[2]

وقد أشار البكري كذلك إلى وجود ملاحة في قرية تاهدارت، القريبة من مدينة أصيلا، غرب طنجة[3]،كما أفاد ابن سعيد المغربي أن الملح كان يوسق (يصدر) شمال وجنوب السواحل الأطلنطية، انطلاقا من مصب نهر بيطيكي أو فيطيكي، الواقع شمال طرف جبل درن، وعلى بعد ستين ميلا منه، وجنوب نهر أمكدول الذي يبعد عنه بأربعين ميلا، وثمانية عشر ميلا عن مصب نهر تانسفت الذي يمرّ شمال مرّاكش[4].

توزيع الملح واستخراجه من مناطق المغرب الصحراوية

ومما أفادنا به الونشريسي في موضوع الملح أن سؤالا ورد على أحد الفقهاء، يسمّى أبا عبد الله عبد الكريم الأغصاوي، من الصحراء، في قوم بها لهم معدن ملح يستخرجونه من تحت

---

(1) البكري:المغرب،ص 52 .

*زودني بهذه المعلومات الأستاذ المشرف على عملي د.موسى لقبال .

(2)ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 17 .

**الصاع مكيال لأهل المدينة=أربعة أمداد،يذكر ويؤنث، فمن أنثه قال ثلاث أصوع ومن ذكره قال ثلاث أصواع (لسان العرب، جـــ.3، ص 493)

(3)المغرب، ص 113 .

(4)كتاب الجغرافيا، ص 123 .

الأرض، ويقطعونها ألواحًا كألواح الرخام، ويُحمل الحمل منها لوحين، أحدهما على الجانب الأيمن والآخر على الجانب الأيْسر، ويسمّون حمل الملح، وهي (أي الملح) مختلفة الأنواع ومختلفة في الكبر والصغر، وتختلف أثمانها باختلاف أنواعها وكبرها وصغرها، والمحمودة عندهم السالمة من الكسر، والكسر الكثير يعيبها، وهي معظم تجارتهم، يحملونها من بلد إلى بلدٍ، في جميع بلادهم، لا غنى لجميع بلادهم عنها، فجرت العادة عندهم أن أحدهم، إذا أراد أن يسلم في حملٍ منها أو أكثر، يَذْكُر في عقده عدد الأحمال وأنواعها....ويقول كذا من هذه وكذا من هذه، ويجوز قدرها بالشبر، فيقولون خمسة أشبار في طول اللّوح منها وثلاثة أشبار في عرضه، وفي الغلظ على الوسط، لا رقيقة جدًا ولا غليظة جدًّا، على المتعارف بينهم في الغلظ والرقة، وعلى السّلم بهذه الصفة جرت عوائدهم.....إلى هذه السنين، فوقع الخلاف بين فقهائهم، على فرقتين: هل يجوز السّلم فيها بالشبر أم لا يجوز إلا بالوزن؟"(1)

والذي يتضح من هذا السؤال أن ملكية الملح كانت مشاعة" قوم بها لهم معدن ملح" وأن أسعار ملح المعدن الواحد تكون مختلفة ، حسب نوعها وحجمها،وفي النوع الواحد يُفضّل اللوح السالم من الكسر على غيره؛ والكسر الكثير يعيبه، وكانت تجارة الملح رائجة، داخليا، وحاجة الناس إليها كبيرة، وتقدر أبعاد لوح الملح، من طول وعرض، بالأشبار، ويقدر الغلظ(السمك) باستخدام مصطلحات متعارف عليها، فيما بينهم مثل" الغلظ والرقة" وعلى هذا الأساس كانت تحرر عقود بيعهم، مما أدى إلى قيام خلاف بين فقهائهم، بحيث أجاز بعضهم هذا النوع من التعامل وأبطله البعض الآخر واشترط ضرورة التعامل بالوزن.

وكان جواب الفقيه على السؤال المطروح: ضرورة اتباع الشيء المتعارف عليه في بلدهم بحيث أنه إذا كان المتعارف عليه عندهم الكيل بالشبر لم يجز السلم فيها على الوزن....وما اعتبر فيه الوزن فلا يجوز بيعه كيلا..."(2)

وهذا بطبيعة الحال حكمٌ وِفْق المذهب المالكي لأن الفقيه صرح بأنه رجع فيه إلى مدّونة سحنون(3)

---

(1)الونشريسي: المصدر السابق، ج، 5، ص 136-137 .

(2) نفس المصدر، ج5، ص 138 .

(3) الونشريسي: المصدر السابق، ج،5، ص 138.

معـــدن ملـــــح تاتنـــتال أوتغــــازا

لعل أهم معدن ملح لفت انتباه البكري في الصحراء لدرجة أنه اعتبره من "غرائبها" ذلك المعدن الواقع على يومين من المجابة(الصحراء)الكبرى، على بعد عشرين يومًا من سجلماسة[1] ويسمى "تاتنتال" وهذا المعدن حسب نفس المصدر عليه حصن مبنيٌ بحجارة الملح، وكذلك بيوته ومشارفه وغُرفه[2] وتشبه عملية الحفر عن الملح فيه، الحفر عن سائر المعادن والجواهر، وهو يوجد، كما يقول، تحت قامتين أو دونهما من وجه الأرض، ويقطع، كما تقطع الحجارة، والعمل فيه متصل، وله غلّة عظيمة، ويقصده التجار بكثرة فيحملونه إلى سجلماسة وغانة وسائر بلاد السودان[3]

وعندما وصف ابن سعيد المغربي(ت.673هـ/1274م) الجزء الأول من الإقليم الثاني، جعل آخره" في الصحراء، حصن الملح، وهو مبني على ملح معدني[4] ومنه يأخذ المسافرون الملح إلى بلاد السودان، وبينه وبين قاعدة لمتونة"أَزُقي" سبعة أيام، وبينه وبين خط الإقليم الثاني ثلاث درجات ونصف"[5] ومما لاشك فيه أن إسماعيل العربي على صواب في قوله" والأرجح، بل الواضح، أن المؤلف يشير إلى قرية تغازى(تغازا) التي تقع جنوب سجلماسة"[6]

---

(1) تقدر هذه المسافة بحوالي 1000 كلم،على أساس عشر ساعات سير يوميا، بمعدّل 5 كلم في الساعة Epaulard et autres, J.léon l'africain Description de l'Afrique, T.2 P.455,note 175 ؛ ويحدد R.Mauny موقعها بـــ 160 كلم تقريبًاشمال غرب تاودني(Tableau géographique, p 328)؛ عنه أنظر الخريطة رقم 13-14 .

(2) يذكر Mauny أن G.Beauchêne لاحظ في تقرير كتبه سنة 1950 أن البنايات من الطوب، وأن أعلى الجدران والأجزاء التي يفترض أن تتحمل ثقلا هي وحدها المبنية بألواح الملح (Tableau géographique, pp. 229-230, note1).

(3) المُغرب، ص 171؛ قارن مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 190.

(4) حسب إسماعيل العربي فإن هذه الجملة كتبت في الأصل" وهو مبني على ملح مغربي" وقد غيّر رينو هذا النص الذي اقتبسه أبو الفداء وهو مبنى على ملح معدنيّ(أنظر إسماعيل العربي: ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص 234، هامش 93).

(5) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 113.

(6) نفس المصدر ، ص 234، هامش 93.

ولما قام ابن بطوطة برحلة إلى بلاد السودان، انطلاقا من سجلماسة في بداية شهر المحرّم سنة ثلاثة وخمسين وسبع مائة هجرية/ مارس 1352م مع قافلة تجارية وَوَصل، قرية تغازا بعد خمسة وعشرين يوما من السير، تعجبّ لكون بيوت هذه القرية" ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الجمال، ولا شجر بها، وإنما هي رمل فيه معدن الملح، يحفر عليه في الأرض، فتوجد منه ألواح ضخام متراكمة، كأنها قد نُحتت و وضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوْحين ولا يسكنها إلاّ عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح، ويعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة، ومن لحوم الجمال. ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح، وبالملح يتَصَارفُ السودان، كما يُتَصَارفُ بالذهب والفضة، يقطعونه قطعا ويتبايعون به.....ويتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر....ومنها يرفع الملح لدخول الصحراء التي بعدها، وهي مسيرة عشر، لا ماء فيها إلا في النّادر.."[1]

وقد زار الحسن الوزان تغازا، حوالي 1512أو1550م ومكث فيها ثلاثة أيام وأفاد أنها موضع عامر توجد به عدّة ملاحات و يشبّه معدنها بمحاجر الرّخام، مضيفا أن الملح كان يستخرج آنذاك من غيران تحيط بها مساكن عديدة يقطنها الذين يمتهنون حرفة استخراج الملح، وهم ليسوا من أهالي المنطقة، بل هم غرباء، يأتون في قوافل ويستقرون لاستخراج الملح والاحتفاظ به إلى أن تأتي قافلة أخرى تشتريه منهم وتحمله إلى تُمْبكتُ(Tombutto) حيث يقل وجوده، ويعتمد أولئك المنجميون، في عيشهم، على ما يُحمل لهم من تُمْبكتُ أو درعة ، وكلاهما تبعد عنهم بمسيرة عشرين يوما، ويحدث أحيانا أن يموت بعضهم جوعًا، في منازلهم، بسبب تأخر وصول القوافل إليهم[2]

وقد يكون المعدن استنُفذ شيئا فشيئا، ويحتمل أن يكون استنفاذ الملاّحة من العوامل الرئيسية التي أدّت إلى التخلي عنها وتعويضها بتاودني[3]غير أن انتاجها استمر إلى سنة 1585 م،

---

(1) رحلة ابن بطوطة:، ص 441 •

(2)أنظر R.Mauny op.cit., p.330; Description de l'Afrique, T.II, PP.455-456 •

(3)Mauny :op.cit., p.395 •

وتم تدمير قريتها سنة 1591، أثناء الحملة التي وجهها المغاربة السعديون ضد تُمكت[1]

ويعتقد R.Mauny أن وصف البكري لتانتال ينطق على تغازا وأن المنطقة المستغلة بها تقدر تقريبا، بثلاث كيلومترات، في اتجاه الشرق- شرق غرب، وكيلومترين، في اتجاه شمال – غرب، جنوب شرق، وأنّ قطَعَ الأرض المستغلة غير معروفة، كما هو الشأن بالنسبة لبقية الملاحات، وأنه يحتمل جدّا ألاّ يكون استغلالها قد بدأ قبل أن ينظّم العرب تجارة الصحراء، أي قبل القرن الثامن الميلادي، لأنها كانت، على عكس نتيررت(Nterert)وإيجيل (Idjil)، مردومة تحت الأرض، على عمق كبير نسبيا، تحت قامتين، أي حوالي 3.80م، ويتطلب الاستغلال في مثل هذه الظروف وسائل لم تكن متوفرة لدى بربر ما قبل الإسلام الصحراويين، ولا يستبعد أن يكون ابن حوقل(ق.4هـ/10م) قد لمحّ إلى تغازا، عندما أفادنا أن أرض غانة وكوغة (Kougha)تستقبل ملحها من أودغست وأن هذا الملح يأتي " من ناحية الإسلام"، لأن وصف البكري (ق.5هـ/11م)يبين تنظيما في عزّ نشاطه، وهو ما يعني،بدون شك، أنه قديم نسبيا[2] فبداية استغلال تغازا كانت قبل بداية استغلال ملح ايجيل، أي قبل القرن الحادي عشر الذي أشاد فيه البكري بملاّحة تاتنتال[3]

وفي حديث J.Devisse عن تجارة بلاد المغرب الجنوبية، يذكر أن فائدتها مشروطة بامتلاك المقابل الذي يُدفع للحصول على الذهب المستورد من بلاد السودان، ولا تستطيع الصناعة المحلية ، في نظره، ولا المنتوجات الفلاحية لكلّ من تاهرت وسجلماسة توفيرها، مقارنة بإفريقية،وتبقى مراقبة الملح وحدها هي التي يمكنها أن تملأ هذا الفراغ، وهذا ما دفع R.mauny

---

(1) Ch.de la Roncière :la découverte de l'Afrique pp 88-89.

ولا ندري من أين جاء Delafosse بالمعلومات التي نقلها عنه H.Lhoteومفادها أن قبيلة مسوفة قدمت حوالي القرن الثامن ميلادي من منطقة تندوف إلى تغارا واستولت على ملاحاتها إلى القرن التاسع حيث انتزعها منهم البربيش (les berabich)،ومن أحفاد هؤلاء مشتوف(les mechtouf)وعلوش، وهي قبائل مستقرة اليوم، بين الحوض وفقّيبين (Faguibine) Contribution à l'étude des Touareg soudanais), p.352مع العلم أن المصادر المستخدمة في هذا البحث لا تشير بتاتا إلى هذه الأحداث.

(2) Tableau géographique, p. 328 أنظر V.Monteuil,AL.Bakri, p.106, note 7

(3) Ibid, p.359.

في رأيه، إلى التفكير بمنطق قوي والقول بأن استغلال ملح تغازا كان قد بدأ يلعب دورا في هذه التجارة منذ القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، لكنDevisse لا يتفق معه في هذا الطرح لأن نصوص اليعقوبي وابن حوقل والبكري،كما يبدو له،تمنع هذا الاستنباط(1)

معـــــدن ملـــح إيجيـــل

وقد سجل Mauny عن V.Ferdinand الذي يَعرف ملاحة تغازا أن شخصا ينتمي، بدون شك، إلى القبيلة التي كانت تستغل معدن إيجيل(المنافس لها)قد أنقص ، من جودة ملح تغازا بقوله:" لا يمكن حمل هذا الملح إلى تُمبكتُ مثل الآخر، لأنه يصعب قطعه ألواحا مثله، مما يحول، دون حمله، على الجمال، إذ لا توجد في الواقع سوى صفائح، بدون سُمك، هذا إذا لم تتفتت كُلية" وبناء عليه استنتج Mauny أن ملح تغازا لم يكن ممتازا،وأن تنافسا تجاريا كان قائما بين منتجي ايجيل وبين منتجي تغازا، وكلا الطرفين كان يمون تمبكت.(2)

ويتوقع R.Capot-Rey أن تكون أقدم ملاحة تمت فيها عملية تبادل الملح مع بلاد السودان هي" إيجيل" التي ورد اسمها في مؤلف Ravenne المجهول في القرن السادس الميلادي، وقد حجبتها قليلا ملاّحات الصحراء الوسطى:تغازا ثم تاودني(3) لكن Mauny يرى أنه لا يمكن معرفة وقت بداية استغلال إيجيل، ويقول:إنه متأكد أن قدماء المؤلفين لم يعرفوا هذه النقطة،وأن استغلالها لم يكن سابقا لسنة 1068م، ما دام أحد مسالك البكري يمرّ على المنطقة بالضبط: فأَدْرَار إنْ وَزّال (أي جبل الحديد) المذكور في هذا المسلك قد يكون موقعًا لكُدية إيجيل(Kedia d'Idjil)ولا يمكن للبكري أن يقصّر في الإعلان عن حدث في مستوى أهمية وجود ملاحة بهذا المكان(4)

مع العلم أن البكري، في وصفه لهذا الطريق، الذي ينطلق " من وادي درعة إلى الصحراء إلى بلاد السودان(5) يشير إلى أنه يمرّ على "وادي تارجا(الساقية الحمراء)، وهو أوّل

---

(1) La question d'Audağuste, p.146.

(2) Tableau géographie , p. 330.

(3) L'Afrique blanche, T.2, le sahara , p. 215.

(4) Tableau géographie , p. 330؛عن ملاحة إيجيل. أنظر الخريطة رقم 13.

(5) أنظر .المُغرب، ص 163

الصحراء...حتى يصل إلى رأس المجابة إلى البيئر المسماة تزامت.....وفي الشرق منها بير الجمّالين، وعلى مقربة منها أيضا بئر تسمى نااللي..ومنها (الآبار الثلاث) إلى جبل يسمى بالبربرية أدرار إن وزّال: تفسيره جبل الحديد.....ومن هذا الجبل مجابة ......وهي المجابة الكبرى.....إلى مدينة غانة"[1]

ويصف البكري طريقا آخر يمرّ من الآبار الثلاث المذكورة، عند بئر نااللي، إلى مجابة ماؤها على أربعة أيام إلى إيزل، وهو جبل في الصحراء إلى..."[2] وما يلفت الانتباه هنا هو أن نطق كلمة إيزل قريب جدًا من نطق كلمة إيجيل مكان المعدن الذي تحدث عنه كل من Capot-Reyو Mauny هنا وقد يكون،المقصود بهما شيئاً واحدًا ،أي نفس المعدن وفي هذه الحالة يكون جبل إيزل،مكان المعدن المشار إليه هو جبل آخر لا علاقة له بأدرار إن وزال الذي حدّد Mauny فيه مكان كدية إيجيل، لكن البكري مع ذلك لم يشر إلى وجود ملاحة بجبل إيزل أو بنواحيه.

المهم أن ملح إيجيل، حسبMauny ، دائما، كان يُستغل، قبل القرن الخامس عشر الميلادي، وكان يسوّق في شكل لوحات، طولها ثمانية أشبار وعرضها أربعة، في جهة، وثلاثة، في الجهة الأخرى، وسمكها نصف شبر، ويخالف Mauny ما ذكره V.Ferdinand من أن أربعة ألواح من هذا الملح تكوّن حمولة جمل، مما يكون قد نجم، في نظره، عن تفسير خاطئ للقياسات: فالشبر يساوي0,20م، وهذا يعني أن طول اللوحات 1,60م وعرضها 0,70 م في المتوسط، وسمكها أكثر من 0,10م. وهو ما يُسَاوي حجمه 0,1 م، تقريبا، فإذا قُدّرت كثافته بـــ 02 فقط فإن وزن اللّوح الواحد منه يبلغ 200 كلغ، وهذا وزن يتجاوز حمولة الجمل [3]

ويقدر Mauny طول سبخة إيجيل في أيامه (قبل حوالي نصف قرن من الآن(2004) بثمانين كيلومترا وعرضها بعشرة كيلومترات، وهي تستغل من وسطها، و مِنضَدة (Table) ملحها غير متصلة ببعضها، ويحتاج الوصول إليها إلى سبر ، من السطح، وتتعاقب فيها طبقات الملح والطين، ولا تُستغَل منها سوى طبقتان من 0,90م إلى 1,04م وسمكها 07 سم و 06 سم،

(1) البكري:المصدر السابق، ص 163-164.

(2)نفس المصدر، ص 164 .

. Mauny,op.cit, p. 358(3)

وتوجد تحتها خمس طبقات أخرى ، منها اثنتان نوعيتهما ممتازة إلا أن صعوبة استخراج الألواح جعلت المنجميين يقتصرون على استغلال الطبقتين الأولى والثانية، غير أن الأمر كان يختلف، في الماضي، واحتياطها، عمليا، لا تنظب ، إذ تستطيع مجموعة من ستة رجال إخراج 120 لوحا يوميا، وكان بالامكان، حسب بعض المصادر استخراج 60.000 لوح طول الواحد منها يتراوح بين 1 م و 1,50م وعرضه من 0,30م إلى 0,40 م في سمك يتراوح من 0,06 و 0,15م، و وزنها من 25 إلى 45 كلغ؛ لكن مصادر أخرى ترى في هذا العدد مبالغة وترفضه [1]

يلاحظ نفس المؤلف أن طول ألواح ملح إيجيل في نفس الفترة يبلغ ما بين 1 م و 1.10م وعرضها من 30 إلى 40 سم، وسمكها 05 سم، وهي تزن من 25 إلى 40 كلغ ويمكن للجمل أن يحمل منها من 4 إلى 8 وحتى 10و 12 كلغ،حسب وزن الألواح وقوة الجمل[2]

وكان المركز الكبير لتسويق ملح إيجيل هو ودّان، ويُدفع لوحُ في مقابل نقل ست أو سبع ألواح، بسعر متناقص (15لوحا لنقل 100 لوح) ومن هناك ينقل الملح إلى تيشيت (Tichitt) حيث يتضاعف سعره بالنسبة لسعر ودّان ثم إلى إيوالاتن (Oualata) وأخيرا إلى تُمبُكتُ، على بعد ثلاثين يوما من ودّان[3]

معـــدن ملـــــح أَوْليـــل

إلى جانب ملاحتي تاتـــنـــتال وإيجيل توجد ب (صحراء صنهاجة) ملاّحة أخرى، هي "أَوْليلْ التي يحدد ابن حوقل موقعها على سَمتِ (عرض) أودغست، من ناحيتها الغربية، على نحو (شاطئ) البحر المحيط"آخر العمارة" ويعرّفها على أنها" معدن الملح ببلاد المغرب" تبعد عن أودغست مسافة شهر وعن سجلماسة شهرا ونصف شهر[4]

وينسب كلّ من البكري وصاحب كتاب الاستبصار الملح الموجود بالموضع المسمى أوليل، على شاطئ البحر(المحيط) إلى قبيلة بني جدالة البربرية[5] من بلاد المغرب في حين يعتبره

Mauny:op.cit. p. 327 (1)

Ibid, p. 358(2)

Id, (3)

(4) صورة الأرض، ص 192؛عن أوليل أنظر الخريطة رقم 13

(5) المُغرب، ص 171، مؤلف مجهول، الترجمة الفرنسية لـــ E.Fagnan,op.cit p. 190

الإدريسي من بلاد السودان،ويفيد أنّ أوليل جزيرة وأن المراكب تحمل منها الملح إلى مصب النيل (نهر السنغال) الذي يبعد عنها بمقدار مجرى (يوم) ثم تواصل السير عبره إلى مدن" سلى وتكرور وبريسَى وغانة وسائر بلاد ونقارة وكوغة وجميع بلاد السودان"[1]

ويستنتج H.gaden من كلام الإدريسي هذا أن الملح، يصدر حسب مقْصده، إما في القوافل، ويُعلق على هذه النقطة بالذات قائلا " إن البكري يقول في الواقع: إن القوافل تذهب من هناك بالملح إلى جميع الجهات المجاورة"[2]؛ وإمّا عن طريق الوسائل البحرية والنهرية، وهذه الأخيرة تستعمل، بطبيعة الحال، لتزويد، السوقين الكبيرين للسنغال الأوسط، تكرور* وسلى (Silla) .[3]

ويرى J.Devisse أن الوصف غير الدقيق لمسالك الصحراء يسمح بالتفكير في أن أوليل لم تكن، في القرن العاشر، خارج الاتصالات العادية، بين الشمال والجنوب، وأن الأخبار لم تفدنا أبدًا ،في موضوع تنظيم تجارة القوافل، متسائلا عما إذا كان تجار أَوْدغُسْت هم الذين يقومون باستخراج الملح وينقلونه؟ وعما إذا كانوا يشترون ملح أوليل من قوافل أخرى؟ وعما إذا كانوا يقومون بذلك لحساب الملك فقط؟[4]

وقد لاحظ Mauny عدم وجود أية معلومة خاصة بالطريقة التي كان يُسوَّق بها ملح أوليل في العصر الوسيط، غير أن الطرق، في رأيه، لا تكون قد اختلفت كثيرا عن اليوم، واليوم فإن الملح يظهر في شكل ألواح مختلفة الأبعاد والأوزان، حسب الطبقات التي يُستخرج منها: ويشكل لوحان يزن الواحد منهما 85إلى 90 كلغ حملَ جملٍ، وثلاثة يزن الواحد منها من 42 إلى 45 كلغ حملَ ثورٍ حمّال (porteur) واثنان يزن الواحد منهما من 30 إلى 35 كلغ حمل حمارٍ

---

(1) القارة الإفريقية، وجزيرة الأندلس، ص 31-32،

(2) أنظر، les Salines d'Aoulil, p. 437, note 4؛راجع نص البكري (المُغرب، ص 171) ،

* يطلق سكان موريطانيا (les maures) تسمية تكروري جمع تكاريرTekarirعلى السكان المستقرين في فوتة (Fouta)السنغالية ويطلق عليْهم الـوُّلوفles Ouolofs السنغاليون توكولورToukoulor التي أخذت منها تسمية Toukoulor الفرنسية، ويطلقون على أنفسهم تسمية فُوتَنكُوبي Foutan-kobé أو هلبوتارن Halpoutarén .

(أنظرH.gaden, op.cit, p. 437) ،

(3)Ibid, p.437 ،

(4)La question d'Audaguste, Tegdaouste I , p114 ،

وتُحمَل ألواح الملح مع الملح المسحوق المكدس في قرب، من الملاحة إلى نهر السنغال، وفي بعض السنوات، عندما يكون الفيضان قويًا، تستطيع الزوارق أن تقترب كثيرا من الملاحات، مستعملة شبكة الخلجان (marigots) أو الشعاب الناجمة عن فيضان النهر، مما دفع الإدريسي إلى التفكير في أنه كان بالإمكان القدوم إلى أوليل لشحن الملح، وكان الملح عندها يشحن في مراكب كبيرة تصعد نهر السنغال إلى مدينة كايس (kays-Médine)حيث المحطة النهائية للملاحة ، وكان يُنقْل من كل نقطة من نقاط التوقف، على الجمال، والثيران الحمّالة والحمير نحو الأسواق المحلية الصغيرة ، حيث كان يُسوّق (1)

ويستبعد R.mauny ، تماما تمكّن الجذعيات أي المراكب (pirogue)** المحملة بالملح من النــزول على طول الساحل الأطلنطي واجتياز الموج العالي، عند مصب نهر السنغال ويقترح أن يفسر نص الادريسي على أنه يشير إلى المسافة التي تقطعها المراكب في بعض السنوات الممطرة جدًا في شبكة جلجان أو شعاب نهر السنغال المتجهة نحو أَفْتُوت(Aftout)بحيث أنها تصل أحيانا إلى أقل من مسافة نصف يوم من نتيرَرْتت (Nterert)وفي هذا ربح معتبر، في الوقت، بالنسبة للنقل البرّي(2).

ويفيد البكري أن أوْليل التي يحمل منها الملح إلى ما جاورها، ليست جزيرة ، وإنما هي تقع قرب جزيرة تُسمى أيّوني، ويمكن الوصول إليها عن طريق الأقدام، عند الجزر، ولا يمكن ذلك عند المدّ، وأكثر معاش أهلها من لحوم سلاحف البحر، وهي مرسى من المراسى، بينها وبين نول سيرة شهرين على ساحل البحر(3)

وبالنسبة لابن سعيد المغربي فإن مصب نهر النيل(السنغال)" يكون حيث الطول عشر درجات وعشرون دقيقة والعرض أربع عشرة درجة(في الواقع ست عشرة درجة) وأمام مصب

---

(1) Tableau géographique, pp.357-358 .

**) زوارق تصنع من جذوع الأشجار(المنهل ، ص 777) .

(2) R.mauny :op.cit.p327 .

(3)المُغرب، ص 171-172 .

النيل في البحر المحيط جزيرة الملح* وطولها من الشمال إلى الجنوب درجتان وقليل ووسعها (عرضها) نصف درجة، وفي طرفها الجنوبي على البحر مدينة أوليل.....وتجارتهم بالملح، ويصعدون به في المراكب إلى البلاد التي على شاطئ النيل(نهر السنغال)[1]" ثم ينقل ابن سعيد رواية مفادها أنه" ليس في بلاد السودان ملاحة غيرها"[2] ويُلاَحَظ أن معلومات ابن سعيد مطابقة لمعلومات الادريسي، مما يدل على أنه نقلها عنه أو ربما نقلها عن نفس المصدر التي نقلها منه الإدريسي.

ويرى Joseph Cuoq مثل R.mauny أن البحث عن أوليل يكون بين ملاحات ترارْزة Trarza على الساحل، وأن هذه الملاحات لا تقع في جزيرة ولكن بعض فيضانات نهر السنغال القوية تتجاوز كثيرا تلك الملاحات ونواكشوط(Nouakchott)أيضا [3]

ويعتقد mauny أنه يستحيل معرفتها، غير أنّ موقعها لابد وأنّه موجود هناك، بين تويدرمي (Twidermi) ،شمالا، وسُكمات (Sokmat) ،جنوبا، على وجه التقدير، وليس بعيدا أن يكون الأمر متعلقا بصفة خاصة بنتيررت(NTERERT)وهي أهم ملاحات ترارزة(Trarza) اليوم[4]

وهناك من اعتبر أن جزيرة أيوني قد تكون هي جزيرة إيويلي(Iwîli)الصغيرة، الواقعة بين تيدرة[5] وبين الساحل، لأنه بالإمكان الوصول إليها دائما عن طريق معبر (gué) تتردد عليه السلاحف ويرىH.gaden أن شبه جزيرة أيوني، أي جزيرة المدّ، بالنسبة للبكري، صـــــارت

---

*)حسب اسماعيل العربي فإن الكاتب الإنجليزيCooley قد حدد في كتابه The Négroland (ط لندن 1841،ص 23) موقع مدينة أوليل في خليج أنجوين Anguin حيث يوجد معدن الملح، وأثبت هذا التعرّف على الخريطة المرفقة بالكتاب ولكن رينو لا يوافقه على ذلك ويحدد موقع أوليل في مكان أبعد نحو الجنوب حيث يوجد معدن جانديول للملح، عند مصب نهر السنغال على طرف مقاطعة والو oualo(أنظر إسماعيل العربي في ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص 226-227، هامش 40)•

(1)كتاب الجغرافيا، ص .Ch.de la Roncière ..:la découverte de l'Afrique, t.1,P 49 ،

(2)نفسه •

(3).Recueil des sources arabes consternant l'Afrique occidentale, p.127, note 2 •

(4)R.Mauny, op, cit, p.443•

(5) Monteuil : Al-Bakri, p.106, note 8 ،

جزيرة أوليل في جغرافية الادريسي، ويُحتمل أن يكون استعمال هذا المصطلح الذي كرّره جغرافيون آخرون، قد ساهم كثيرا في مطابقة هذه الجزيرة بجزيرة أرقين (Arguin)، وقد تأكد اليوم، بعد الإكتشافات العلمية للساحل، أن هذا خطأ لعدم وجود معدن واحد للملح في جزيرة Arguin،كما لا يوجد الملح في السباخ المجاورة، حتى على السطح، ولا وجود حتى للملاّحات المذكورة في رأس القديسة آن (St Anne) على الخرائط القديمة وشبه جزيرة أيوني لا تكون جزيرة، حسب المصادر العربية، إلاّ أثناء المدّ، وقد اختفت ولكن، بدون شك وسط رمال هذا الساحل الذي لم يتوقف عن التقدم في البحر[1]

وقد كان سكان موريطانيا Les maures يطلقون تسمية أَوْليل على المنطقة الساحلية الممتدة من أمدرور(Amadrour)* جنوبا نحو الشمال، على امتداد حوالي سبعين كيلومترا منتاهراكات (Taharakat)،وفيها تقع ملاحات ترارزة (Trarza)، ولم تعد تسمية أوليل مستعمله، منذ حوالي 1810، وهذا الواقع مكّن، تقريبا من التعرف على ملاحات أوليل في مكان ملاحات ترارزة، غير أنه لم يبق أي مبرّر للشك في هذا الأمر، منذ أن قامت بعثة gruvel ،سنة 1908،بالإستكشاف العلمي لموريطانيا الغربية، من القديس لويس إلى الرأس الأبيض[2]

ويلاحظ V.M.godinho أن البحر في هذه المنطقة ، وبالضبط، منذ بياش (Biach) على 16^0 40 جنوبًا إلى مَرْسى (Marsa) على 18^0 20 منها، في ضواحي ميريك Mirik، قد أودع قديما وما زال يودع، بمساعدة السنوات الممطرة،طبقات ملحية في أحواض،رسمتها الكثبان المفروشة بنبات الفربيون والطرفاء،بل إن بعض السبخات تُقدّم الملح في شكل لوحات يســهل

---

(1)أنظر Les salines d'Aoulil p. 438،

*وهي أمنديرAmendir على خريطة المصلحة الجغرافية لوزارة المستعمرات(الفرنسية) وتقع حوالي 100كلم شمال شرق القديس لويسSt Louis (H.Gaden: Les salines d'Aoulil , p. 436, note 3).

(2)Les salines d'Aoulil p 436 كتب نتائج هذا الاستكشاف التي يعتبرها Garden واضحة جدا وكاملة كل من A.gruvel et R.Chudeau : A travers la mauritanie occidentale, Vol,I,Chap.V؛ أنظر ـــــــــــــــــر H.gaden:op.cit, p. 437, note 1؛ وقد ساند R.Mauny موقف Gaden على حساب V.Monteuil مترجم كتاب البكري الذي جعلها، خطأً، تتطابق مع أَرْقين Arguin.أنظر(Tableau géographique, p.326) .

حملها على ظهر الجمل[1]

وبناءا على وصف البكري لطرق استغلال معدن تاتنتال التي ما زالت تمارس اليوم في استخراج ألواح الملح، وقوله" ومعدن للملح آخر، عند بني جُدالة بموضع يسمّى أوليل على شاطئ البحر"يستنتج gaden أنه يقصد" استخراج ألواح الملح من معدن أوليل" بنفس الكيفية، ويبرر استنتاجه بأن الرُّحَل الّذين كانوا،وحدهم،و ما زالوا إلى حد الآن، المموّنين لإفريقيا الغربية، في الملح، لم ينقلوا، أبدًا،غير ألواحه إلى السوق، لأنها الشكلُ الوحيد الذي يتحمل النقل لمسافات بعيدة في القوافل والتي يستطيع التجار السودانيون إيصالها إلى أسواق المنطقة الممطرة، جنوبًا، دون نقص معتبر[2].

و لم تتحدث المصادر العربية ،كما لاحظ gaden عن وجود قصر أو قرية بمنطقة أوليل؛ وذلك راجع إلى أن استغلال السباخ لا يكون إلاّ في فصل الجفاف، بعد تبخرّ الماء المتجمع في وسطها بفعل أعاصير فصل الأمطار أو فيضانات النهر؛ وفي فصل الجفاف ينـــزل الرّحل إلى الجنوب، بحثا عن مراعي أفضل،ومياه أوفر، حيث كان الاقْدالة (les Igdala) يأتون الملاحات ويكلفون عبيدهم بالعمل فيها، ثم يأتي التجار من المغرب ومن مراكز النهر،(السنغال) التجارية، وتُنصّب الخيّم والأخصاص قرب السّباخ، وعلى شبه جزيرة أيوني، وتبدأ المبادلات[2]

ويقيس R.Mauny ما كان يحدث بالأمس على ما يحدث اليوم: حيث تُستغل ألواح الملح في تويدرمي Turidermi ونتيررت (Nterert] ومُجران (Moudjeran) بطرق لم تتغير كثيرا، منذ قرون، ولا شك،وتقع الملاّحة الأولى والثانية في منطقة الدرعة (la draa) ، أي في منطقة الكثبان، وتقع الملاّحة الثالثة في منطقة أَفْتُوت (Aftout) المنخفضة التي تغمرها مياه فيضانات نهر السنغال، ومن الصعب أن تتكوّن فيها ألواح الملح، لأنّ كثرة الماء تــَحُول دون التشبع التام والنهائي[3]

ويُستغل ، من سبخة تويدمي التي يبلغ طولها 700م، وعرضها 500م، جزءُها المركزي

---

(1) L' économie de l' empire portugais, p.102 .

(2) H.gaden : op.cit, p. 443 .

(3) R.Mauny:op.cit, p. 325 .

فقط، في استخراج الملح، من دائرة قطرها 200م، غير أن نوعية ملح الملاّحتين الأخيرتين رديء بسبب هشاشة ألْواحهِ، ويمكن العثور عليه ابتداء من عمق 50 سم، ويبلغ سمك المقطع المستغل 08 سم، وبعد استخراج الألواح تُعرَّض للشمس بضع ساعات كي تصير صلبة ثم تُنقل بعد ذلك[1].

وأهم ملاحة، في هذه المجموعة، على الإطلاق، والوحيدة التي تقدم عمليا ألواحا جيّدة، في العدد، هي ملاحة نتيررت، على بعد حوالي 5 كلم جنوب غرب ملاحة تويدرني، ويقدّر قطر المساحة القابلة للاستغلال فيها بـــ 600م، ويوجد الملح الجوهر (sel gemme) في عدّة طبقات مختلة السمك:0,10م و0,25 م ومفصولة بطبقات طينية[2].

وتُوَظب اللّوحات للنقل، حسب طبيعة الملح المستخرج، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن الجمل الواحد يستطيع حمل لوحتين أو عدة ألواح يبلغ وزن مجموعها من 170 إلى 180 كلغ، ويحمل الثور الحمال (porteur) ثلاث لوحات يزيد وزن مجموعها عن 125 ويصـــــــــل إلى 140 كلغ،والحمار يحمل نصفين يزنان من 60 إلى 70 كلغ[3].

وبناء على ما كتبه ابن حوقل، من وصول الملح إلى غانة عن طريق أودغست "من ناحية الإسلام" ومن أن أوليل هي " معدن الملح الرئيسي للمغرب"[4] وما عرضه، في مكان آخر، من أن أوليل تعتبر حدًّا لبلاد الإسلام، يستنتج J.Devisse أنه ليس هناك ما يمنع من التفكير في أن أغلب الملح المبيع لملوك السودان يكون قد وصل من الملاّحة التي تبعد بمسافة شهر، أي أوليل، ممّا لا يُقصي إمكانية وجود ملاّحات أخرى أقل أهمية والتي لم تكن تُلفت انتباه التجار القادمين من الشمال آنذاك[5]،وإذا حصل و أن استخرجت ألواح ملح من سباخ الجنوب الصحراوي

---

(1) R.Mauny:op.cit.,P.325 ،

(2) Id ،

(3) Ibid, P.326 ،

(4) أنظر J.Devisse :la question d'Awdağust, Tegdaouste I, recherches sur Aoughost, P.114
وتُلاحظ هنا ترجمة خاطئة لنص ابن حوقل الذي يعتبر أوليل" معدن الملح ببلاد المغرب" (صورة الأرض، ص 92)وليست المعدن الرئيسي للمغرب كما هي هنا.

(5) Id.

فإنها لم تترك أي أثر يدُل على حدوث ذلك[1]

أثر قيام الدولة المرابطية على استغلال ملح صحراء صنهاجة الجنوب (الصحراء الغربية)

ومما ذهب إليه V.Lagardère : فإن استيلاء المرابطين على مدينة أودغست، لم يكن يكفيهم لاحتكار المبادلات التجارية، بين بلاد السودان وبلاد المغرب، لأن المدينة لم تكن تُنتج أيّة بضاعة من البضاعتين اللّتين تكوّنان ثروات تجار أودغست: الملح والذهب بل كان عليهم أن يضموا قدر الإمكان، وفي آن واحد، احتكار الملح، والحفاظ، مهما كانت الظروف السياسية ، على علاقة ممتازة مع غانة[2].

وقد أحدث تمرّد جُدّالة تهديدا خطيرا على تجارة الملح، لدرجة أن تسبّب في تغيير طريقها، وفي تدخّل أبي بكر بن عمر الذي لم يستطع البقاء غير مبالٍ ، أمام ضعف التبادل التجاري مع بلاد السودان، ويتفق Lagardère مع Devisse فيما ذهب إليه، اعتمادًا على دراسة نص البكري، من أن الأمور قد تغيّرت في القرن الحادي عشر الميلادي[3]

وحجة Devisse ،فيما أبداه من رأي في هذا الموضوع، أن البكري عندما تحدث عن معدن أَوْليل لم يشر، ولو مرّة واحدة، إلى أنها كانت تموّن أودغست بالملح بل يقول:" ومن هناك تتحمّله الرفاق....إلى ما جاوره"[4] مما يدل، في نظرDevisse ، على أن تجارة أوليل صارت إقليمية وليست "دولية" مثلما كانت قبل قرن من الزمن، وقد نقل هذه المعلومات البكري في إشارته(notice) الثانية المؤرخة سنة 460هـ/1067-1068م؛ أمّا في إشارته الأولى فقد قدّم معلومات أخرى ، مفادها أن أهم معدن هو الذي يوجد بتانتال ومن "هناك يصدر الملح إلى سجلماسة وغانة وسائر بلاد السودان"[5]

مع العلم أن البكري أظهر استغرابه من هذا المعدن ، دون أن يذكر أنّه الأهم كما يقول

---

(1) R.Mauny:op.cit., P.332 ،

(2) LES Almoravides jusqu'au règne de Y.b.Tasfin P.P85-86 ,

(3) Ibid, p.86 ,

(4)أنظر.المُغرب، ص 171،

(5) أنظر La question d'Audağust, PP.114-115،

Devisse الذي يلاحظ أن البكري لم يقدم آنذاك معلومات في شأن أودغست التي سبق له وأن أرْتَى تخريبها من قبل المرابطين[1].

وبناء على هذه المعطيات يستنبط Devisse أن أودغست، سواء خُرّبت أم لم تخرَّب ، لم يعُد لها، حوالي 1067-1068م، احتكار تجارة الملح، وكذلك الأمر بالنسبة لأوليل، المصْدر الرئيسي للملح الذي تشتريه غانة، إذ تَمّت أقلمه بتجارة الملح، ويحتمل أن تكون أوليل قد صارت تُصدّر ملحها للسنغال في حين أصبحت تانتال تصدر ملحها نحو غانة والنيجر[2] ويستأنف Devisse كلامه قائلا: إنه لا يملك ،من المعلومات، ما يسمح له بالتفكير من أن معدن تغازا أو تانتال عَرف نشاطا قديما، ونص البكري، في نظره، يقودنا إلى نظرية عكسية : فاستغلال تانتال كان حديثا جدًّا، عندما تحدث عنه البكري سنة 1067-1068م، ويرجّح أن يكون فتح ذلك المعدن راجعا إلى سببين، يتمثلان: في الصعوبات التي وجدت في تسويق ملح أوليل أوّلا، ثم في نمو العلاقات التجارية الصحراوية ، ثانيا[3]

والصعوبات التي وجدها تسويق ملح أوليل، حوالي 1055-1065م واضحة، في نظر Devisse ،"فأوليل واقعة في بلد جُدالة "وهم يجاورون البحر، ليس بينهم وبينه أحد، وقد لعب هؤلاء دورا أساسيا، ، خلال المراحل الأولى، من تنظيم المجتمع المرابطي لكنهم انشقوا عنه قبل 1058م وانسحبوا في اتجاه البحر، وبعد صدام عنيف مع لمتونة، وقعت القطيعة بين الطرفين، و لم يُوجه المرابطون بعد ذلك، سلاحهم ضد جدالة ولاشك أن هذه الاضطرابات قد أربكت المنطقة الغربية لموريطانيا، منذ 1050م على الأقل، وجعلت سير القوافل، انطلاقا من أوليل عملية صعبة جدًا[4]

والمتأمل في كلام Devisse يبدو له أنه يفتقد إلى نوع من الانسجام بيْن حديثه عن أقلمة تجارة الملح واختصاص أوليل في الاتجار مع السنغال وتانتال مع غانة والنيجر،وبيْن الارتباك

---

(1) op.cit,P.115.

(2) Id.

(3) Id.

(4) Id.

الذي يتحدث عنه هنا، بعد 1050م والذي يقول عنه بأنه جعل عملية سير القوافل صعبة جدًّا، اللهم إلاّ إذا تصوّرنا أن جدالة استقلت نهائيا عن المرابطين في الجهة الغربية من موريطانيا الحالية، واحتكرت التصرف في ملح أوليل وصارت تُوجّهه نحو نهر السنغال، واحتكر المرابطون ملح تانتال، وصاروا يسوّقونه في كلّ من غانة والنيجر،وأصبح كلّ طرف يمنع، أو على الأقل، يخلق صعوبات لقوافل الطرف الآخر، عند مرورها بالمناطق الواقعة تحت سيطرته؛ وهذا ما لم تشر إليه المصادر على الإطلاق.

ويعتقد Lagardère أنه لم يكن في استطاعة أمراء لمتونة ترك المبادلات التجارية التي كانوا يعوّلون عليها لتموين إدارتهم،تَنْهَار مما كان السبب في تدخل أبي بكر بن عمر، إضافة إلى أن سبب قضائه على تمرّد جدّالة سنة 463هـ/1071م، هو إعادة أحد أقطاب هذه التجارة أي أوليل، إلى منطقة النفوذ المرابطي،وفي رأي نفس المؤلف فإن المصادر المدروسة كلها تؤكد أن النشاط الاقتصادي على المحاور الصحراوية الكبرى ،لم يكن أبدًا أكثر رواجا من فترة (الغزو) المرابطي الذي أعطى تلك المحاور وحدة استغلال كبرى ،و الغزو المرابطي، عكس ما تَردّد في أسطورة راسخة بقوة، لم يخرّب التجارة، ويؤيّد Lagardère أخيرا Devisse فيما يعتقده من أن الخلافات الداخلية للمجتمع المرابطي الأول تكون قد ساهمت في تحويل الطرقات التجارية نحو الشرق[1]

وفي شأن الخلافات الداخلية للمجتمع المرابطي المشار إليها هنا فإن Devisse يتصور[2] حدوث ما أسماه" ثورة حقيقية"انتهت، في رأيه بوقوع مدينة أودغست، في تاريخ يصعب تحديده، من القرن العاشر الميلادي، بين أيدي"تجار البربر الشرقيين" (ويقصد بهم الزناتيين الأباضيين) والذين كانت لهم علاقة سيئة جدًا مع البربر الغربيين، (ويقصد بهم الصنهاجيين المالكيين)، لأسباب عرقية ومذهبية، ومن ثمّة فإن Devisse لا يستبعد أن تكون جدالة المنشقة عن المرابطين، قد أَكْرَهتْ مَلكَ البربر الغربيين وكان قد اختفى من أودغست، على تزويد المدينة الأخيرة بالملح، وعلى كلٍّ، كما يضيف نفس المؤلف فعندما بدأت حركة

(1) Les Almoravides jusqu'au règne de Yūsuf b.Fašfin, P.86.

(2)استعملت هذه الكلمة لأن الكاتب المعني لم يستند فيما يقوله في شأن تلك الخلافات على أية وثائق أو حجج مقنعة.

الإصلاح الديني، حوالي 1045م، لدى البربر الغربيين الذين انْضَوُوا تحت القيادة المرابطية فإن مثل هذا الموقف أصبح مقبولا بكل سهولة تجاه الرجال الذين سيحاربونهم، وأصبح من صالح هؤلاء البربر الغربيين الذين تعوّدوا على تجارة الشمال، أن يكتشفوا ، قرب مسالك قوافلهم المعتادة، مقابلاً من ملح متوفر، يكون أكثر ملاءمة للاستغلال من أوليل[1]

ويخلص Devisse إلى القول:إن كل الشروط كانت متوفرة لزوال التجارة من أوليل إلى أودغست وغانة في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، لصالح تانتال وخاصة، منذ تاريخ تخريب أودغست سنة 1067م تقريبا: فالطرق الصحراوية، في نظره، لم تُحوَّل ، قبل تلك السنة شرق الطرق الأقدم باتجاه تانتال، وبعدها لم تَرِد أية إشارة في شأن وجود تجارة هامة،بين أوليل وأودغست وغانة، باستثناء التكرار المحض لكلام ابن حوقل[2]

معـــدن ملـــح توتـــك

وفي وصفه لمدينة كوكو السودانية، الواقعة،على نهر النيل(النيجر) المقابل لمدينة تادمكة[3] وعلى بعد تسع مراحل منها ، يفيد البكري أن النقد المتداول بين أهلها هو الملح، ويأتيهم من معدن تحت الأرض، يقال له توتك، يبعُد عن تادمكة بستة أيام[4]

والملاّحة المشار إليها، حسب R.Mauny لم تُعرف أبدا، إلا أن الطوارق إيفوارس(les Touaregs des Iforas)يعرفون تزهر* ملاحات إرْبَبْ Erebeb عند خط عرض $21^0 10'$ وخط طول 0^0 أي على خط غرينويتش، وهم يخصصون ملحها لعلاج الجمال بالملح، مع ملاحظة أن هذه النقطة تبعد 300 كلم عن تادمكة أي أكثر من ستة أيام بكثير[5]

---

(1)أنظر Devisse:op.cit, 116 et 119sqq.

(2)Ibid,p116.

(3)البكري:المُغرب، ص 181، الترجمة الفرنسية V.Monteuil:op.cit,p.77كتاب الاستبصار ترجمه E.Eagnan:op.cit P.205.

(4)نفس المصدر، ص 183 الترجمة الفرنسيةV.Monteuil:op.cit,PP:79-80 ؛ أنظر الخريطة رقم 13.

(*)تكوين مسحوق بلوري على سطح الأرض(المنهل، ص 366)؛والزهرة البياض (لسان العرب،جـــ.3،ص55).

(5)op.cit, p.332 ؛ لا ندري كيف خفي علي Mauny هنا أن مسافة 300 كلم يمكن أن تضاهي ست مراحل أي سير ست أيام على اعتبار خمسين كيلومترا للمرحلة الواحدة ، فالمراحل الكبيرة يمكن أن تبلغ مسافتها خمسين كيلومترا فعلا، وبالتالي فإن 300 كلم لا تكون أكثر "بكثير " من ستة أيام.

ويرى M..godinho أنه يحتمل أن يكون معدن ملح توتك قد لَعِبَ دورا هامًا في إقامة الطريق الرابط بين كوكو وتادمكة والأهُجار (Ahoggar) ، وقد كان مجاورا لهذا الجبل الأخير، واستُغِلّ منذ القرن الحادي عشر الميلادي على أقل تقدير[1]، ويتساءل V.Monteuil ،مترجم كتاب البكري فيما لو قرئت تُوتَكُ تُوتَدُ ، على اعتبار أنها تحريف لتاودني[2]، في حين يرجّح T.lewiki أن توتك هي تايتوك(Taïtok) الواقعة على بُعد خمسة وعشرين يوما من مدينة كوكو (Gao) [3]

والغريب في الأمر أن بحاز إبراهيم بكير، في حديثه عن أهمية الملح في التجارة مع بلاد السودان يذكر أنه" لم يكن.....بضاعة مغربية بحتة، وإنما كان التجار التيهرتيون وغيرهم يستبدلون بعض بضائعهم بالملح في أوليل أوتوتك ويأخذونه إلى غانة أو كوكو، حيث يكثر طلبه.خاصة وأن أهل السودان، كما يقول الادريسي، يملحون ضروبًا من السمك والحيتان التي يصطادونها من النيل(النيجر) وهي قوام معيشتهم في السنة كلها.."[4] وهذا معناه أن بحاز سار في الخط الذي رسمه من يحلو لهم فصل الصحراء عن بلاد المغرب، وهي خطأ جيوسياسي كبير وشائع، في آن واحد، يحتاج إلى تصحيح.

معـــادن ملـــــح المناطـــق الواقعـــة شرق تادمكـــة

وتجدر الإشارة هنا إلى أمر يصفه R.Mauny بالغرابة وهو أن نصوص المَلاّحات لم تتعرّض إطلاقا إلى الحديث عن استخراج ملح الجوهر في شكل ألواح أو غير ذلك، ولا عن تحضير الملح بطرق أخرى، شرق الخط الذي صار يعرف فيما بعد بخط غرينويتش، وما نعرفه اليوم، من مَلاّحات كوّار وأَمَدْرُور ومانقة(Manga)،كما يقول، لا يبدو أنها كانت معروفة بهذه الصفة، وهذا لا يعني أنها لم تكن مستغلة آنذاك، غير أن صمت نصوص العصر الوسيط، عكس ما فعلته عن ملاحات الصحراء الغربية، هو حقيقة لافتة للنظر[5]

---

(1) L'économie de l'empire portugais, P.535

(2) op.cit, P.116, NOTE 17

(3) L'état nord africain de Tabert , P.535

(4) الدولة الرستمية، ص 225

(5) op. cit, P.332

وقد نقل مُوني عن هيرودوت (ق.5 ق.م) قوله أنه:بعْد اللّيـــبيّـــين الرُّحّل، على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، عند التوغل في الصحراء، توجد ليبيا الحيوانات المتوحشة(bêtes sauvages) وتليها ليبيا الحيوانات المفترسة(féroces) في شكل مخدة أسطوانية مُرْملة(en un bourrelet sablonneux)مشخصة بواحات: أمون(سيوة) وأوجلة وبلاد القرامونت ثم بلاد الأترانت ، وبالقرب من كل واحة من هذه الواحات، يوجد منجم ملح، والمنازل مبنية بصخور ملحية (sel (en blok[1]

ومن هذا النص يتبيّن أن الملح كان متوفرا شرق ما صار يعرف حديثا حظ غرينويتش، قبل العصر الوسيط، ومناجمه معروفة في الصحراء الليبية، بالذات، والشيء الذي يدعو إلى الحيرة ما قاله هيرودوت عن المنازل المبنية بصخور الملح، والتي كان وجودها، في الفترة التي ندرسها، مقتصرا على قرية تغازا ، فهل معنى ذلك أن هيرودوت كان يعنيها هي بالذات وأن وجودها يمتد إلى عهده؛ في القرن الخامس قبل الميلاد؟ أم أنه كان يقصد فعلاً أن ديّار كلّ واحدة من الواحات المذكورة كانت مبنية بصخور الملح ثم اندثرت عن آخرها دون أن يبقى لها أي أثر، و لم تستمر عادة البناء بصخور الملح إلا بتغازا؟

والنصوص لم تتحدث عن هذه النقطة إلى حدّ الآن، وكل ما زودتنا به من معلومات خاصة بالمنطقة الواقعة شرق تُمْبكتُ (Tambouctou)، كما لاحظ R.Mauny أن كوكو (gao)كانت ممّونة بالملح عن طريق تُوتّك، عبر تادمكة، إلاّ أن هناك ما يدعو للافتراض بأن ملاّحات مانقة(Manga)وكوار وبورنو وغيرها، كانت آنذاك تموّن المناطق الواقعة إلى الجنوب منها، بالأخص بلد الهَاوْسَة وبورنو،على الرغم من منافسة الملح البحري القادم من خليج بنين[2]

وفي وصف البكري لإحدى الطرقات التي تربط تادمكة بغدامس، يذكر أن المسافر، بعد خروجه من تادمكة يسير ستّة أيام في بلاد سغمارة ثم أربعة أيام في مجابة بعدها ويدخل" في مجابة ثانية أربعة أيام أيضا...(وفيها) معدن لحجارة تسمى تاسي النّسَمْت، وهي حجارة تشبه

---

(1) R.Mauny :les contactes terrestres, entre Méditerranée et l'Afrique tropicale occidentale pendant l'antiquité, Afrique du Nord et monde méditerranéen, dans l'antiquité, Colloque de Dakkar :19-24 janvier 1976, Dakkar-Abidjan, 1978,P.123.

(2) Tableau géographique, P.360.

العقيق (l'agathe) ، وربما في الحجر الواحد ألوان من الحمرة والصُّفْرَةَ والبياض وربما وجد فيه في النادر ،الحجر الجليل الكبير، فإذا وُصل به إلى أهل غانة، غالوا فيه وبذلوا فيه الرّغائب، وهو أجلّ عندهم من كل علق يُفتنَى، وهو حجرٌ يُحلى ويثقب بحجر آخر يُسمى تنتواس...ويثقب بالسنبادج...ولا يوصل إليه، و لا يُعلم موضعه حتى تُنحر الإبل على معدنه وينضح دَمُه، فحينئذ يظهر ويلقط...وتسير في مجابة ثالثة...(وفيها) معدن الشب،ومنها يحمل إلى البلاد.."[1]

ويلاحظ H.Lhote أن المرحلة الأولى المسجّلة ، وهي ستة أيام، تأخذنا تقريبا إلى تين-زواتَنْ (Tin-n-Zaoutem)أو أُويلام(Aouilalem) وتقودنا المرحلة الثانية، أربعة أيام، إلى إِينْ أَزَاوَة (In Azaoua)أو نِيْمِيسَاوْ (Ti-m-Missaou) سيلات بطاسيلي الصغير؛ أما المرحلة الثالثة، من أربعة أيام، فهي تتطابق مع طريق تيميساو Ti-m-Missaou سيلات(Silet) ؛ وأما وجود العقيق الأحمر، أي معدن تاسي النسمت "فيرى Lhote أنه خطأ وقع فيه البكري بسبب خلطه بين اسمه وبين إسم تيسمت tisemt وهو الملح[2]

ويضيف Lhote قائلا: إن بقية الطريق تنقسم إلى مرحلتين حيث المسافة الثانية منهما هي اثنا عشر يوما، تنتهي عند غدامس، وإن هذا النص يصف الطريق وصفا جيدا لكنه يسجّل اعتراضًا عمّا تحدث عنه البكري في المجابة الثالثة من معدن للشب، معترفًا أن هناك، قَطْعًا، رسوبات للشّب(أُكسَم=ouksem) عند أطراف أمَدرور(Amadror) كما هو الشأن في أماكن كثيرة من الهقار،لكنها غير مستغلة بانتظام، و لا تشكل مادة تجارية لدرجة تجعل الإعلان عنها شيئا هاما ، ويرى أن الأمر هنا متعلق بغموض حاول توضيحه انطلاقا من أن اسم تيسمت أي الملح معلنٌ عنه، في نظره، بطريقة جيدة، في النص ولكن في مكان لا يوجد فيه الملح، أي أن البكري ارتكب، بما أورده من معلومات هنا ، خطأً شبيها بتلك الأخطاء التي يتم العثور عليها كثيرا في كتب الرحالة العرب، مع العلم أنه يعتبر البكري، خطأً، رحالة، وهي أي الأخطاء ناجمة عادة عن النقل؛ والحلّ الذي يقترحه هذا المؤلف للمشكل الذي يتصوّره يَكْمن في كون المجابة التي يتحدث عنها البكري في نظره تنطبق تماما على الأمادرور(l'Amadror) وملاحتها

(1) المُغرب، ص 182-183 .

(2) La saline d'Amadror et le géographe El-Bekri, P.55.

ويترتب عن هذا التصحيح إمكانية القول بأن استغلال ملاحة الأمادرور يعود إلى أكثر من ألف سنة، ويحتمل أن يكون أبعد من ذلك[1]

ويتسائل Lhoteعما إذا كانت هناك آبار أخرى،(ويقصد بها مناجم للملح) هي اليوم مردومة،والأمر، كما يقول، يتطلب تحقيقا ويحتاج أيضا إلى البحث عما إذا بقي أي أثر لاستغلال معدن العقيق اليوم في منطقة سيلات (silet) ويكون الأفضل هو العثور على المنجم نفسه(2)

ويستبعدR.Maunyفي تعليقه على رأيLhote، أن يكون البكري قد أخطأ، وخلط بين تاسي النّسمت (العقيق) وبين تيسمت(الملح) بالترقية ، لأنه كما يقول" تحدث عدة مرات عن الملح: في تانتال وفي قصبة واحة الدّاخلة وفي بسكرة؛ وعن الشب في الفرفرون، على سبيل المثال، فهو إذًا يفرّق جيّدا بين المادتين وبالتالي فهو يريد أن يتحدث عن الشبّ هنا، وهو متوفر على نطاق طاسيلي- الهقار ، وكلمة أصاريف(Asarif)أي الشب معروفة جدًّا بالترقية ، ولا يُستبعد أن تكون ندرته قد دفعت الناس إلى البحث عنه وتصديره إلى مناطق البحر الأبيض المتوسط، ومكان استغلاله بالضبط غير معروف[3]

ويُرجح أن يكون رأيMauny أقرب إلى الصواب من رأي Lhoteلأن المعروف عن هذا الأخير أنّه يُظهر حذرا كبيرًا جدًّ من النصوص العربية لدرجة أنR.Bucaille تعجب من ذلك ويرى أنه لا ينبغي الطعن في أمور واضحة جدًّ ، اللهمّ إلاّ إذا كان القصد هو تجريد كل المصادر العربية من فائدها كمصادر تاريخية[4]

وهناك مثال آخر يتبع فيهLhote نفس المنهج، ويتعلق الأمر بما ذكره ابن بطوطة عن مدينة تكدا التي يجري ماؤها" على معدن النحاس فيتغيّر لونه وطعمه بذلك....ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عنه الأرض، ويأتون به إلى البلد، فيسبكونه في دورهم، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم،

---

(1) Lhote:op.cit., PP.55-56 ·

(2) Ibid, P. 56 •

(3) R.Mauny :Tableau géographique, P.335 •

(4) R.Bucaille: Takaddâ, pays du cuivre, Bulletin de L'I.F.A.N., T. 37, série B,n:4,1979 .pp.758-759

فإذا سبكوه نحاسا أحمر، صنعوا منه قضبانا في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاق بحساب ستمائة بمثقال. وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح.ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر..وإلى زغاي وإلى بلاد بُرنُو، وهي على مسافة أربعين يوما من تكدا.."[1]

وكانت زيارة ابن بطوطة لمدينة تكدا سنة 754 هـ/1352م، عندما كانت في أوج ازدهارها وقد ارتبطت شهرتها بمعدن نحاسها الذي تحدث عنه والذي يظهر أن استغلاله بدأ في القرن الثالث عشر الميلادي واستمر إلى السادس عشر[2]

ويلاحظ Bucaille أن اسم تكدا قد تغير إلى حدّ ما، خلال القرنين الأخيرين لفترة الإمبراطوريات الإفريقية الكبرى[3]، أي أن الموقع الذي تحدث عنه ابن بطوطة لم يعد معروفًا، وأن التشابه في النطق بين "تكدا" التي يمكن يكـــون نطقها قد تغيـــّر إلى "تاقدًّا(Tagadda) أو"تيقِيدة (Teguidda) "إضافة إلى قابلية الوضعية الجغرافية التي تحدث عنها ابن بطوطة إلى الاستنتاج، قد أديّا إلى اقتناع الباحثين بتحديد موقع"تكدا" جنوب غرب كتلة الآير الجبلية، وهي المنطقة التي توجد بها، على الأقل، خمس تسميات، تحمل كل واحدة منها كلمة"تيقِيدّا (Teguidda) "[4]

وقد اختارH. Lhote"تيقدا-ن-تيسمت" موقعا لتكدا وحاول أن يبرهن على أنها كانت معدنا للملح وليس للنحاس، مستغلا تفسير المعلومات التي قدمها ابن بطوطة بالطريقة التي تخدم له هدفه المنشود، باستثناء استغنائه على كلمة النحاس التي أصرّ على تعويضها بكلمة الملح على

---

(1)رحلة ابن بطوطة، ص 453-454 .

(2)Mauny :Tableau géo, P.379.

(3) op.cit.P.719 .

(4) وتعني هذه الكلمة العين (R.Mauny:Tableau géographique P.309) ؛ومن الأسماء التي اقتُرحت لتكون موقعا لتكدّا" تيقدا-ن- تيسمت Tiguidā-n-tesemt (H.Barth H.Lhote و أزليك (Azlik)(J.Brown، J.Lombard ،R.Mauny) (أنظر. R.Bucaille.op.cit.,P.719) .

الرغم من أنها وردت في نص ابن بطوطة أربع مرات[1] دون أن تُذكر كلمة الملح ولو مرّة واحدة.

ويؤكدLhote أن نص ابن بطوطة ينطبق تماما على تقيدا-ن- تيسمت إذا قُبِلَت فكرة تعويض تسمية النحاس بتسمية الملح[2]، أي إذا سلمنا بوجود أخطاء في نص ابن بطوطة مع العلم أن المصادر السابقة لابن بطوطة لم تشر أبدًا إلى تكدا ولا إلى تيقيدا-ن- تيسمت، كما لم تُشر إلى وجود الملح أو النحاس بتلك المنطقة.

ويعتمدMauny على المعلومات التي زوده بها الجيولوجي J.Lombardوهي خاصة بعثورة على منجم قديم في منطقة أزليك Azelik التي يعتبرها الأول تيقيدا، أي العين الوحيدة التي يوجد بالقرب منها منجم نحاس، وبقايا لصهر المعادن، ومن ثمة فإن هناك احتمالات قوية أن يكون موقع تكدا هو نفسه موقع أزْليك[3]، وMauny هنا لم يجعل معلومات نص ابن بطوطة محل شك، وهو الفرق الأساسي بينه وبين Lhote

وقد انطبقت ما توصل إليه Bucailleمن نتائج مع رأيMaunyوهو يعتقد أن اختلافه مع Lhote، انطلاقا من نفس المعطيات، يرجع إلى كون هذا الأخير، عندما يقارن بين تيقيدا -ن- تيسمت الحالية(في القرن العشرين) وتكدا سنة 753هـ/1354م أي تكدا القرن الرابع عشر الميلادي،يقطع دائما في الاتجاهين ستة قرون من التاريخ مما يعني، ضمنيا، أن ملاحات تيقيدا-ن- تيسمت وهندستها المعمارية وتقنياتها وصفائح ملحها، وبالأخص رجالها كل هذه الأمور بقيت جامدة، جمودًا قطعيا، محفوظة كعلم الآثار الحية غير أن الواقع ، كما يرى Bucaille ، عكس ذلك، فالوقت مرّ بتيقيدا-ن-تيسمت كما بغيرها وتلاحقت فيها أجيال من الناس ، عرفت نزاعات قاسية جدًا أملتها الظروف القارية لغرب إفريقيا ، وبالتـــالي

---

(1)وليس خمس مرات كما ورد في بحث R.Bucaille (قارنP724. R.Bucaille op . cit. ؛ رحلة ابن بطوطة ص 453-454.

(2)أنظرR.Bucaille. op. cit., P.724.

(3)R.Mauny:Tableau géographique, pp.308-309.

فالأسعار تغيرت مرّات عديدة[1]، بدون أي شك، ومن ثمة لا يمكن اغفال التغييرات التي لا بد وأنها حدثت عبر تلك القرون كلها.

ويتحدث الادريسي، في وصفه لأرض كوّار، عن مدينة تلملة الواقعة على بُعد أربع عشرة مرحلة إلى الشرق من مدينة كُوكو" وبها معدن شب ليس بالكثير الجودة، ويبيعونه في كوّار ويخلطه التجار بالشب الطيب ويسافرون به إلى جميع الجهات"[2] وكوّار أرض مشهورة وبلادها مقصودة ومنها يَخرُج " الشب المعروف بالشب الكوّاري"[3]

وتحتوي بلاد كوّار على بطن وادٍ، يشقها من الجنوب الى الشمال، وليس به ماء، وعليه، " من البلاد مدينة صغيرة تُسمى القصبة..وأهلها مياسير، وتجوّلهم وسفرهم إلى سائر البلاد كثير....ومن هذه المدينة إلى مدينة.... في جهة الجنوب، يومان، وأكبر بضاعتهم الشب وهو رأس أموالهم"[4]

ومن قصر أم عيسى إلى مدينة أنكلاس أربعون ميلا، في بطن الوادي، و" عندهم الشب الخالص المتناهي في الطيب ويوجد في أجبلها كثيرا، لكنه يتفاضل في الجودة والطيب، وأهل هذه المدينة يتجولون حتى ينتهوا في جهة الشرق[إلى] بلاد مصر، ويتصرّفون في جهة المغرب، فيصلون بلاد وَرْقلان وسائر أرض المغرب الأقصى"[5]

ومن مدينة أنكلاس إلى مدينة أبزر مسافة يومين، وهي على تلّ تراب" وبالقرب من هذه المدينة معدن شبّ فائق الجودة لكنه لا يتجرّف، كثير الرخاوة.....وهم يتجرون بالشبّ، ومن أبزر إلى مدينة تلملة..."[6] والشبّ الكوّاري" كثير الجودة، ويُتجهز منه في كل سنة إلى سائر البلاد بما لا يحصى كثرة، ولا يقاوم وزنا، ومعادنه لا تنقص كبيرَ نقصٍ، وأهل تلك الناحية يذكرون أنه ينبت نباتا ويزيد في كل حين بمقدار ما يؤخذ منه مع الساعـــات، ولـــولا

• R.Bucaille:op.cit, P758(1)

(2)القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس،ص 45 •

(3)نفس المصدر،ص 98 •

(4) نفس المصدر،ص 98-99 •

(5) نفس المصدر،ص 99•

(6)نفسه.

ذلك لأفنوا الأرض كلها لكثرة ما يخرج منه، ويتجهز منه إلى جميع الأرض[1]"

وكوّار الذي يتحدث عنه الادريسي هنا هو، حسب R.Mauny مجموعة من الواحات ومن ضمنها بيلمة (Bilma) ويتسائل نفس المؤلف عن الأماكن التي تتطابق معها تلك المناجم المشهورة بكوّار التي لا توجد بها اليوم سوى ملاحّات؟ مجيبًا أنه من بين المناجم الثلاثة المذكورة،فإن أنكلاس، على ما يبدو، هي نفسها كلالة (Kalala)الواقعة قرب بيلمة؛ وأما أبزر وتلملة أو تملمة فيصعبُ التعرف عليها بصفة قاطعة[2]، والشبّ معروف محليًا ما دامت هناك تسميات تطلق عليه في بيلمة ومنها كَلْفُوا(Kelfu) وشب الكنّوري و أَسَرامو (asaramo) بالتُّرقيّة، والمؤلفون المحدثون لا يتكلمون عنه، لأنه لم تَعُدْ له قيمة تجارية، فهو مادة ثانوية ناتجة عن استغلال المناجم[3]

أمّا ملاحات كوّار الحالية فهي ، في اعتقادMauny قديمة، بدون شك، لكن المعلومات عنها قليلة من الناحية التاريخية؛ فالادريسي والذين نقلوا عنه تحدثوا وحدهم عن مناجم الشبّ في كوّار لكنهم لم يذكروا الملح، والغموض غير وارد في هذه المسألة ، لأن التصدير الذي يشير إليه يتوجه إلى الشمال، في حين أن صرف الملح يتوجه إلى الصحراء جنوبا، خاصة عندما يتعلق الأمر بمنطقة كهذه، تبعد 500 كلم فقط عن التشاد و 1500 كلم عن البحر الأبيض المتوسط[4]

ويتسائل نفس المؤلف عمّا إذا كان الشب وحده هو الذي ينتج بكوّار؟ ثم يجيب بأنه على الرّغم من سكوت النصوص فهو يقدّر أن الجواب يكون: لا، و أن الملح والنترون كانا يُجمعان آنذاك للتصّدير ،نحو الجنوب ،غير أن الإدريسي لم يتحدّث إلاّ عن إنتاج مادة نادرة ومطلوبة، وحدها، وأهمل غيرها، وعندما يتحدث عن أنكلاس لا بدّ لنا وأن نفكّر في ملاحة كلالة Kalala * قرب بيلمة حيث توجد بالضبط عين كوّار الوحيدة ولكن، هل كان الملح آنذاك، مثل اليوم، يُجْمَعْ من حُفر تتراوح مساحتها بين 10 و 30 م^2، يحفرُ الملاحون في قعرها تجويفات لبلوغ الطبقة المائية المالحة التي يُعطي تبخرها ملحا؟ وهل كان يُقدّم، مثل اليوم

---

(1)الادريسي:المصدر السابق، ص 99-100 .

(2)Tableau géographique, P.335.

(3)Id.

(4)Ibid, P333.

*)تعني كلمة كلالة الملاحة عموما (Ibid,P.333,note3).

من 8 إلى 10 كلغ بالنسبة للنوعية الجيدة ومن 2 إلى 15 كلغ بالنسبة للنوعية من الدرجة الثانية؟ وهذا غير معروف[1]

ويُروى أن أصل صناعة ملح كوّار توجد في مُرْزُوق (Mourzouk)ومن هناك انتشرت في جادو وكوار، وهذا ممكن لكنه غير مؤكد: ومن الممكن أن يكون الأمر متعلقا بمجرّد طريقة للاستغلال، وليس بإخراج الملح نفسه[2]

وبعيدًا عن كوّار، من الناحية الشرقية يذكر البكري، في حديثه عن الطريق الرابط بين أوجلة والواحات، أن آخر ألواح الداخل الذي يبعد خمسا وثلاثين مرحلة عن أوجلة[3] وعن بلاد النوبة بست مراحل، قرية كبيرة تسمى القصبة لها ثلاث أعين ملحة، يجتمع ماؤها في سباخ فيكون ملحا: ملح العين الواحدة أبيض، وملح الثانية أحمر، وملح الثالثة أصفر، وهذا الأصفر هو المستعمل في مصر وبرقة[4]

وهنا يتبادر سؤال إلى الذهن هو:لماذا يكون تموين برقة من سباخ ألواح الداخل البعيد عنها ولا يكون من السبخة المتصلة بمدينة طرابلس والتي" يرفع منها ملح كثير" كما يذكر نفس المصدر؟ ألأن ملحها أجود، مثلا؟ سؤال يبقى مطروحا إلى أن يجد الجواب المناسب، ولعل أهم ما يمكن استنتاجه من كلام البكري، أن منطقة برقة كانت خالية من الملاحات آنذاك.

فالملح المتكوّن، عادة، في الأحواض المغلقة، له أصناف متعددة واستعمالات كثيرة وحكمه الشرعي كحكم المعادن، وهو موجود ومستغل محليا في كل المناطق الواقعة شمال الصحراء ولكن مَعَادِنه المعروفة في الصحراء، في فترة ما بين الفتح الاسلامي لبلاد المغرب وبين سقوط دولة الموحدين، لا تتجاوز بضعة ملاّحات يتركز وجودها غرب ما صار يُعرف بخط غرينويتش وهي ملاحات أوليل وتاتنتال(تغازا) وإيجيل وتوتك ؛أما في شرق الخط المذكور فلا

• R.Mauny:op.cit,p.333(1)

• Id. (2)

(3) قدرت هذه المسافة على الأساس التالي:من أوجلة إلى سنتارية 10 مراحل ومن سنتارية إلى هنسى الواحات عشر مراحل، ومن * هنسى الواحات إلى آريش 8 مراحل، ومن آريش إلى الفرفرون إلى ألواح الداخل 4 مراحل، فيكون المجموع خمسًا وثلاثين مرحلة(أنظر البكري: المُغرب، ص 14-15).

(4) المُغرب، ص 15.

تتحدث المصادر عن وجوده مما لا يعني أنه غير موجود في مناطق كثيرة ولا غير مستغل بدرجة تقترب من درجة استغلاله في النواحي الغربية.

البـــاب الرابـــع

الفصـــل الثـــاني:
أهمية الملح الاقتصادية
و التجارية

الأوضاع الاقتصادية لبلاد المغرب قبل نهاية القرن التاسع الميلادي

لم تكن السيطرة البيزنطية على بلاد المغرب،حسب B.Rosenberger تعني، في الأماكن التي وُجدت بها، العودة إلى أوضاع الإمبراطورية الرومانية المزدهرة، بل ساد فيها انعدام الأمن، واقتصر دور المدن فيها على الأدوار الدفاعية، وتميّز الاقتصاد الحكومي بالصبغة الريفية منذ القرن الرابع الميلادي، وقد أدّى دخول الجمل، وحيد السنّام، وانتشاره في المنطقة آنذاك، إلى اضطرابات نشّطها البدو الرحل، مما أدّى إلى انخفاض سكان الأرياف في مناطق واسعة من البلاد(1)

وقد أظهرت السيطرة الإسلامية، كما يرى نفس المؤلف، عناصر قابلة لتحويل الاقتصاد: منها تأسيس مدن كالقيروان وتونس(2) وهي عبارة عن ثكنات ومراكز تجارية ودينية وأسواق نشيطة، ويدُل تداول العُملات الإسلامية وضربُها فيها على استرجاع دور المبادلات التجارية وعودة الحياة للمدن الرومانية البيزنطية وقد أُدخلت العلاقاتُ مع إسبانيا(الأندلس) ومع المشرق، بلادَ المغرب، من جديد، في مجموعة واسعة تتنافس مع بيزنطة حول السيطرة على البحر الأبيض المتوسط(3)

---

(1) L'histoire économique du Maghreb, Hanabuch der oriotalistih, Erste;Abeilang,VI,Band6, Abehnitt, teil,leiden/Köln,E.J.Brill 1977, pp. 206-207

قد وصل الجمل وحيد السنام بلاد المغرب منذ القرن الأول الميلادي وأصبح منتشرا في القرنين الثالث والرابع،وبفضل انتشاره كانت الصحراء الوسطى والغربية مسرحا لمجموعة من الأحداث تصعب معرفة تفاصيلها(عن هذا الموضوع، أنظر،محمد بن عميرة:دور رزناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر1984، ص 224 فما بعدها من عدة صفحات) .

(2) Ibid, P307؛ استغرق بناء المدينة الأولى أربع سنوات من 51 إلى 55 هـ/671 إلى 674م ثم نمت بعد ذلك وتوسعت(أنظرلقبال موسى:المغرب الإسلامي،منذ معسكر القرن حتى انتهاء ثورات ،ط،الأولى، نشر مطبعة البعث قسنطينة 1969،ص 40 فما قبلها من عدة صفحات؛ P.L.Cambuzat:L'évolution des cités du tell en Ifrikija du VII au XI ;siècle, O.B.U Alger, T.1,P.182sq ؛وأسست الثانية بعد تخريب مدينة قرطاجة وتعويضها لها في عهد ولاية حسان ابن النعمان، ما بين سنتي 74-85هـ/693-704م(أنظر.لقبال موسى:المرجع السابق، ص 100 فما قبلها من عدة صفحات.P.L.Cambuzat؛op.cit, P.191sq .

(3) Id .

ولكي تُلمسَ نتائج هذا التغيير، كان ينبغي انتهاء نزاعات القرن الثامن الميلادي الذي كان المغرب فيه مسرحا لثورات الخوارج[1]، و لم يتمكن العباسيون فيه من الاحتفاظ بإفريقية إلاّ بجهود كبيرة، وفي سنة 800م تركوا مواردها لعاملهم إبراهيم بن الأغلب كي يجعل منها حصنا مضادًا للمخالفين لهم، وقد عكس هذا الانشقاق السياسي مجالات اقتصادية مختلفة، من ذلك أن دولة إباضية أحاطت بإفريقية وعزلتها عن داخل القارة[2]، وتجزّأ المغرب الأقصى إلى إمارة أسسها أحد العَلَويين[3] وكتلة برغواطة البربرية الريفية المنشقة في السهول الأطلسية[4]ومدينة صفرية في الجنوب الشرقي[5]وعندما كان المغرب ينظم نفسه بمعزل عن المشرق، ظهرت علامات دائمة لاقتصاده تمثلت في بعض البـــوارق

(1) B.Rosenberger:op.cit,P.19؛ اندلعت هذه الثورات بطنجة سنة 128 هــ/739 م بزعامة ميسرة السقاء المعروف بميسرة المطغري، وغطت أحداثها معظم بلاد المغرب، ونتج عنها خروج هذه البلاد عن التبعية المباشرة للخلافة العباسية،وقيام دويلات مستقلة في المنطقة المذكورة(أنظر محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص 53 فما بعدها من عدة صفحات) .

(2)Id ؛كانت عاصمة الدولة الاباضية المعروفة مدينةتيهرت أو تاهرت، وكان مذهبها الإباضي ينتشر في نواحي واسعة ومتقطعة من مشارف تلمسان إلى مشارف برقة، وهو مذهب أقل هيجانا مما كانت عليه الخارجية قبل قيام الدولة الاباضية (الرستمية) (الطالبي محمد: الدولة الأغلبية، ترجمة المنجي الصيادي، ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 384) و لم تكن للأئمة الرستميين على القبائل الاباضية البعيدة عن تيهرت سوى سلطة روحية معنوية، و لم تربطهم بها علاقات عسكرية إدارية (أنظر محمد بن عميرة :المرجع السابق، ص 137؛ بحاز إبراهيم بكير: الدولة الرستمية، ص 109 فما قبلها بعدة صفحات)؛أنظر الخريطة رقم 15 .

(3) المقصود بها إمارة الأدارسة المنْسوبة إلى إدريس بن عبد الله الذي أسسها بمدينة وليلي، من منطقة طنجة، بأقصى بلاد المغرب، سنة 172هــ/789م(عن هذا الموضوع أنظر محمد بن عميرة:المرجع السابق، ص 138 فما بعدها من عدة صفحات؛ محمد الطالبي: المرجع السابق، ص 395 فما بعدها بعدة صفحات؛جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984؛ ص 181 فما بعدها).

(4)B.Rosenberger:op.cit, P.207 ؛وقد نتج عن هزيمة ميسرة، قائد الثورة الصفرية الخارجية وقتله بطنجة أن افترق أصحابه، ومن بينهم مغرور بن طالوت وطريف أبي صالح الذي نزل بتامسنا وأسس إمارة برغواطة وانتحل لها ديانة خاصة، استمر قيامها مدّة طويلة(أنظر ،محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص 70 وهنا وهناك) .

(5)B.Rosenberger:op.cit, P207 المدينة المقصودة هنا هي مدينة سجلماسة عاصمة إمارة بني مدرار التي أسستها قبيلة مكناسة سنة 140 هــ/757-758م، مكان مدينة زير، واستمر قيام تلك الإمارة إلى أن قضي عليها الفاطيون سنة 297هــ/909-910م(أنظر محمد بن عميرة:المرجع السابق، ص 86-87، ص 170-171؛ جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص 210).

فقط خلال القرن التاسع، وكان لا بد من انتظار القرن العاشر حتى يتضح الأمر أكثر[1]

ويعتقد الحبيب الجنحاني أن الاستقرار السياسي الذي عرفه المغرب خلال القرن الثالث الهجري/9 م له دور فعّال في النشاط التجاري وبالتالي في الازدهار العمراني[2] أي أن قيام النشاط التجاري، في نظره، أدى إلى الازدهار العمراني في البلاد؛ ويخالف الجنحاني بصريح العبارة" الاتجاه الذي يقتصر، حسب رأيه، على هذا الجانب من القضيّة لتعليل ذلك الازدهار"[3] ويرى أن العامل الأساسي" هو التحول الذي طرأ على المسلك القديم لتجارة الذهب والرقيق، بين بلاد السودان(وبين) المشرق؛ فقد تُرك الطريق التجاري الرابط بين غانة (وبين) مصر، عبر بلاد النوبة، لما كان يمثله من خطر على القوافل، ولكثرة العواصف الرملية به، وأصبح هذا الطريق يمرّ ببلاد المغرب، جاعلاً من القيروان وبلاد الجريد، ووارجلان وتاهرت وتلمسان وفاس وسجلماسة مراكز تجارية نشطة، تتفرّع منها شبكة متعددة، من الطرقات، وقد تجمعت على طريق التجارة الصحراوية ثروات كبرى من الذهب في المدن المغربية"[4]

ويلاحظ نفس المؤلف أن العملة التي كانت متداولة في إفريقية(بلاد المغرب)،قبل تأسيس الإمارة الأغلبية هي العملة نفسها التي كانت منتشرة في بلاد المشرق؛، أي الدينار البيزنطي والدرهم الساساني،ثم العملة الإسلامية التي ضربها عبد الملك بن مروان سنة 79هـ/698-699م،وضُرب في المغرب والأندلس في نهاية القرن الثاني الهجري/8م نصف الدينار وثلثه، وكانت الدنانير والدراهم تُسك بدار الضرب في القيروان[5]

ويقسم C.Cahen بلاد المغرب نقْديًا إلى ثلاثة أجزاء: وسطها وأقصاها وإفريقـــية،

---

(1) B.Rosenberger:op.cit.,P.207.

(2) المغرب الإسلامي (ق. 3-4 هـ/9-10م)، ص 23-24.

(3) نفس المرجع، ص 24 .

(4)نفس المرجع، ص 24-25 .

(5) نفس المرجع، ص 75 .

وقد بقي الجزآن الأوّلان حتى القرن العاشر الميلادي بلاد فضّة[1]،إذ تطرح المناطق الواقعة غرب إفريقية، في نظره، مشكلا دقيقا، حيث لم تكن توجد بها نقود ذهبية، قبل منتصف القرن العاشر، على ما يبدو، إذ لم يتم العثور على أية قطعة ، و لم تُشِر النصوص إلى أي شيء، في هذا الموضوع، فهل معنى ذلك، كما يتساءلCahen أنها لم تكن تتلقى أيّ ذهب؟ ثم يجيب قائلا: بأنه لم يكن يصلها بكل تأكيد، بواسطة الطُّرق الغربية التي فُتحت فيما بعد، غير أنه يَصعُب تصديق عدم تمكّنه من الوصول إلى تاهرت وسجلماسة بواسطة أباضيّي وارجلان وغيرهم، من مجتمع التبعية السياسية والدينية، ثم يتساءل مرّة أخرى عمّا إذا لم يكن الأمر متعلقا باحترام مبدأ احتكار الخلافة للذهب، بالرغم من عدم الاعتراف بها، بسبب عجز المسؤولين المحليين عن إقناع الرأي العام بعكس ذلك؟ ويحتمل أيضا أن تكون أوزان معينة قد ضربت دون نقش ، مما لا يسمح بالتعرف على أصحابها في حالة ما إذا تم العثور عليها من جهة ، ومن جهة أخرى فهي تكون قد أذيبت فيما بعد[2]

ومن الواضح هنا أنه قد خفي علىCahen ما رواه ابن عذارى المراكشي من أن الخليفة الأندلسي الناصر ، عندما شرع في بناء مدينة الزهراء سنة 352 هـ/963 م كان يدفع" على كل رخامة ثلاثة دنانير وعلى كل سارية ثمانية دنانير سجلماسية" للتجّار الذين يأتونه بها من قرطاجة أوتونس[3] وهو ما دفع، ولا شك، الحبيب الجنحاني إلى القول بأن الدينار السجلماسي "أصبح...عملة قوية تَجَاوز التعامل به حدود الدولة المدرارية، وبلغ الأندلس في عهد الخليفة الناصر"[4] والخبر الذي ساقه لنا ابن عذارى هنا، يُمكن إذا سلمنا بصحته، أن يقوم دليلا على وفرة الدينار السجلماسي ورواجه، قبل سقوط سجلماسة سنة 297 هـ/909-910م.

و يلحق Cahen نقديا الجزء الثالث من المغرب، وهو إفريقية بالجزئين الآخرين، فهي كانت مثلهما، بلاد فضة، في العهد الأموي أو على الأقل، كما يقول، كان ينقصها الذهب،

---

(1) L'or du soudan avant les Almoravides, mythe ou réalité mélange en hommage à R.Mauny, histoire d'outre- mer, 1961,P.541 .

(2) C.Cahen:op.cit, P.542 .

(3)البيان المغرب، جـ 2، ص 231 .

(4)المغرب الإسلامي، ص 24 .

بدليل أنها كانت تتلقى بانتظام، مدّة تبعيتها المباشرة للخلافة، مساعدة مالية هامة، مخصّصة لصيانة جندها، غير أن أوضاعها تكون قد اختلفت مدّة معينة، قبل نهاية القرن الثامن الميلادي، ما دام أن إبراهيم بن الأغلب اقترح على الخلافة، آنذاك، تخلّيه عن مطالبتها بالمساعدة المالية التي كانت تقدّم له، سنويًّا، إذا ما وافقت على إقطاعه ولاية إفريقية ويتعهد كذلك بدفع خراج للخليفة هارون الرشيد، ويبلغ وزن ما تعهّد به حوالي 170 كلغ من الذهب في كل عام، وهذا معناه، أن هناك ذهباً أصبح يصل إلى إفريقية ولا يكون مثل هذا الوصول إلا من السودان الغربي[1].

وضعية الاتصالات بين بلدي المغرب والسودان عشية الفتح الإسلامي

وقد كانت الاتصالات، عبر الصحراء، حسبMauny،موجودة، قبل وصول العرب إلى بلاد المغرب، في القرنين السابع والثامن الميلاديّين بكثير، فالعربات القرمانتية وغيرها كانت، في الألفية الأولى، قبل الميلاد، تربط بين ضفّتي الصحراء: بين المغرب الأقصى وفزّان، من جهة، وبين منعطف نهر النيجر، من جهة أخرى، ومن المنطقي التفكير بأن التجارة كانت أحد الأهداف الرئيسية لتلك الاتصالات، غير أن هذه الأخيرة، في حدود معارفنا الحالية، كما يقول، لا يظهر أنها عرفت أهمية حقيقية إلاّ بعد وصول العرب إلى المنطقة[2]

ويعتقد نفس الكاتب أن الإجابة التي تلقاها عقبة بن نافع، عندما غزا(فتح) كوّار سنة 666م، وسأل رئيس بل دليل آخرِ قرية وصل إليها عمّا يوجد بعدها، من البلدان، وكان ردّه: أنه لا يعرف أي شيء عن هذا الموضوع، وهذه الإجابة، في نظرMauny دائما، تعبّر تقريبا عن الحقيقة، وتفرض، على الأقل، بأن العلاقات كانت آنذاك قليلة الوقوع بين كوّاروبين التشاد[3]

ويبدو واضحا أن استنتاج Maunyهنا متناقض مع مضمون الفقرة السابقة، إذ من الصعب أن

---

(1) C.Cahen:op.cit., PP.541-542 ،

(2) Tableau géographique, P.398 ،

(3) Mauny:op.cit, PP.398-399 ؛ حسب ابن عبد الحكم فإن عقبة بن نافع، بعدما فتح قصور كوّار التي تبعد خمس عشرة ليلة عن قصور فزّان من ناحية الجنوب سألهم (ولم يقل سأل رئيسهم، كما يقول Mauny هل من ورائكم أحد، فقال الدليل (وليس الرئيس) ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة فانصرف عقبة (فتوح إفريقية والأندلس، ص 62).

يتصور الإنسان وجود علاقات، منذ الألفية الأولى، بين فزّان وبين منعطف نهر النيجر ولا يكون الدليل، وهو الخبير بالطُّرق، على علم بالمسالك التي تربط المنطقتين ببعضهما وبمواقع بعض المجموعات السكانية التي تعبرها.

وفي النواحي الغربية من بلاد المغرب فإن العلاقات عبر الصحراء كانت، حسب نفس المؤلف، مختلفة، على ما يبدو، وأن نوعا من تجارة الذهب تكون تواصلت، على نطاق ضيّق، بين بلاد السودان وبين السوس، بواسطة القبائل البربرية الكبيرة المنتشرة في الصحراء الغربية من الأطلس إلى أدرار موريطانيا، ثم يتسائل عما إذا لم يكن من الطبيعي أن يتبادل البربر الليبيون المسيطرون على الصحراء، وبالتالي على الملاّحات، مع السودان المسيطرين على بلاد الذهب .. منتجاتهم منذ وقت قديم جدًّا، وهذا ما يُفسر، في نظره، أن العرب بمجرد وصولهم إلى بلاد السوس أرسلوا حملة عسكرية إلى بلاد السودان سنة **734**م، واستولى قائدها حبيب بن أبي عبيدة على كمية معتبرة من الذهب، وسيصنع العرب من الطريق اللمتوني القديم محورًا للاتصالات التي تربط بين قُطبيْ عالم لمتونة، السوس، وأدرار طَاقَنْت (**Tagant**)[1]

ويرى B.Rosenberger أنه على الرغم من أن الجمل وحيد السّنام قد سهّل الاتصالات، عبر الصحراء، إلا أن الاقتصاد المتوسطي لم ينشطها بحيث لم يكن هناك ما يجعل الذهب يصل المدن والمرافئ[2]

تنشيط العرب المسلمين للتجارة والاقتصاد بين بلدي المغرب والسودان

يعتبرLombard أن استقرار السيادة الإسلامية ، على القبائل البربرية ، بعد حملات عقبة ابن نافع في منطقة طرابلس سنة 664م(46هـ) ،(ويقصد بها تلك الحملة التي وصل فيها عقبة إلى كوّار)[3]وفي المغرب الأقصى سنة 681م(63هـ)، (ويقصد بها الحملة التي وصل فيها نفس القائد، في ولايته الثانية، إلى السوس الأقصى)[4]، مكنت من السيطرة على المحطات النهائية في طرق القوافل الصحراوية وأن اعتناق الإسلام وانتشار التجارة الإسلامية، نحو الجنوب، كان عليهما ربط شبكة العلاقات الصحراوية، منذ القرن التاسع الميلادي بالمجال الاقتصــــــــادي

---

(1) Mauny:op.cit,P300 et 399 ·

(2) Histoire économique du Maghreb, P.207 ·

(3)عنها أنظر ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس، ص 60-62 ·

(4)عنها أنظر نفس المصدر، ص 70 ·

المتوسطي والتمكين من وصول ذهب السودان عن طريق الصحراء نحو بلاد المغرب ومن هناك نحو الغرب والشرق الإسلاميين وأبعد من ذلك[1]

والملاحظ أن المحطات النهائية في طرق القوافل الصحراوية التي يتحدث عنها هنا وهي: سجلماسة، و وارجلان(ورقلة) وغدامس[2] لم يَثبتُ حتى ذلك الوقت أنها كانت تقوم بتلك الوظيفة بل أن بعضها لم يكن موجودًا، آنذاك ، بالمرّة ومن ثمة يكون من الصعب موافقة Lombardعلى ما ذهب إليه من تمكن السيادة الإسلامية من السيطرة على المحطات النهائية التي لم تكن موجودة أساسا أو أنها لم تكن تلعبُ ذلك الدور بعدُ.

وقد أورد ابن عبد الحكم أن عامل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك على إفريقية، عبيد الله بن الحبحاب، الذي تولى مهامه سنة 116 هـ/734م، استعمل ابنه اسماعيل على السوس وأخرج حبيبا بن أبي عبيدة الفهري إلى" السوس وأرض السودان فظفر بهم ظفرًا لم يُر مثله وأصاب ما شاء من ذهب....ثم غزا أيضا البحر ، ثم انصرف"[3]

ويعلقC.Cahen عما أصاب حبيب من ذهب بقوله: بأن غنيمة غزوة سنة 734م تدلّ على أن الذهب كان مستغَلاً، وإن هناك إذًا، حثٌ على ذلك لكن في إطار جهويّ محض، ويرى أنه من المحتمل عدم وجود أهمية كبرى يمكن تعليقها على هذه الحملة" المذهلة" التي " انطلقت من السوس إلى بلاد السودان"، وهو تعبير غامض وهدفها غير معروف بالضبط، وهي لا تختلف، بدون شك، عن كل الحملات التي قادها العرب، في كل الاتجاهات، خارج فتوحاتهم الخاصة، وقد عَثَرَ على الذهب حقيقة، مما سمح له باكتشاف وجوده، إن لم يكن يعلم ذلك مسبقا، غير أنه لم ينتج عن هذه العملية تنظيم طريق تجاري آنذاك[4]ولكن هناك ما يناقض هذا الرأي ويثبت

---

(1) Les métaux dans l'ancien monde, PP 207-208.

(2) Id.

(3) فتوح إفريقية والأندلس، ص 122 .

(4) L'or du sudan avant les Almoraivides, PP .540-541 ؛يذكر ابراهيم فخار أن ابن عبد الحكم يتكلم عن"أول" حملة قام بها عبيد الله إلى السوس، جنوب المغرب،ثم يعقب كلامه بقوله" نحو أرض السودان" ، دون أن يبين المقصود بأرض السودان هي غانة. علما بأنها كانت موجودة في أيامه، قبل 870 م، لأن الفزاري الفلكيي الذي ذكر قبل القرن الثامن عدة بلاد إفريقية، ذكر منها إقليم غانة بلاد التبر(تجارة القوافل ي العصر الوسيط ودور التجار الليبين في حضارة الصحراء الكبرى، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد 1404 هـ /1984م، ص 63).

عكسه.

ففي وصف البكري للطريق" من تامدلت إلى مدينة أودغست" يشير إلى أن بئر الجمّالين الواقعة على مرحلة من تامدلت و" عمقها أربع قامات من أنباط عبد الرحمن بن حبيب"[(1)] كما يشير إلى " بئر(أخرى) أنبطها عبد الرحمن بن حبيب واحتفرها في حجر ادعج صلب طولها أربع قامات"[(2)] على بُعد أربع عشرة مرحلة من البئر الأولى، وعلى ثلاثة مراحل أخرى بئر ثالثة" يقال لها ويطونان، وهي كبيرة لا تنــزف، ماؤها زعاق....وهي من عمل عبد الرحمن بن حبيب أيضا، طولها ثلاث قامات....[(3)]

و لا يذكر البكري ما من شأنه أن يساعد على التعرف على هُويّة عبد الرحمن بن حبيب هذا، و لا على تاريخ حفره تلك الآبار، غير أن المصادر تتحدث عن ابنٍ لحبيبٍ بن أبي عبيدة يسمّى عبد الرحمن، خاض إلى جانبه وإلى جانب كلثوم بن عياض معركة بقـــــــدورة أو نقدورة، ضد الخوارج الصفرية، على وادي سبُو سنة 123 أو 124هـ/740-741-742م، وبعد قتل والده وهزيمة أصحابه لجأ عبد الرحمن إلى الأندلس ومكث هناك إلى سنة 126 هـ/ 744م، وعندئذ عبر البحر إلى تونس وقام بتأسيس الإمارة الفهرية بها[(4)]

فهذا الابن ، لا شك، وأنه هو نفسه عبد الرحمن بن حبيب الذي حفر الآبار التي ذكرها البكري، على الطريق الذي يعبر الصحراء إلى بلاد السودان، وإذا ثبتت صحة هذا الاستنتاج فإن تاريخ حفر تلك الآبار، لا بد أن يكون محصورا فيما بين سنة 116هـ/734م تاريخ الحملة التي قام بها والده إلى بلاد السودان، وبين سنة 123هـ -740/124-741 أو 741 -742م، تاريخ لجوئه إلى الأندلس بعد هزيمة بقدورة ، وهذه المعلومات إذا ما تأكدت صحتها يمكن أن يستنتج منها، أولا ، الدليل المادي الذي يؤكد قيام حملة حبيب بن أبي عبيدة على بلاد السودان والذي يكون قد كَلّف، قبلها أو أثناءها أو بعدها بقليل، ابنَه عبد الرحمن بمهمة حفر تلك الآبار، وثانيا، أن طريق تامدلت- أودغست، إذًا،كان حتى ذلك الوقت لا يتوفر على أدنى

(1) المُغرب، ص 156.

(2) نفس المصدر ، ص 157.

(3) نفسه.

(4) عن هذا الموضوع ، أنظر محمد بن عميرة، المرجع السابق، ص 74 فما بعدها من عدة صفحات .

حدّ مما تحتاجه القوافل، من ماء، للتزوّد به، أثناء سفرها، ولا شك أن ذلك الحفر تم لكي يضمن لها هذا الشرط الضروري لعملية السفر، عبر الصحراء، وهو يكون قد ساهم ، بكل تأكيد، في انتظام الرحلات: شمال-جنوب ، جنوب-شمال، بعد ذلك، أي منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري (النصف الأول من القرن الثامن الميلادي).

وإلى الشرق من هذا الطريق يستخلص T.Lewicki، مما ذكره كلّ من الوسياني والدرجيني عن أفلح بن عبد الوهاب بن رستم، عندما أراد السفر، ذات يوم، إلى جُوجُو (كُوكُو أو كاوكاو) أمره أبوه بالتخلّي عن مشروعه/ فتراجع عنه،أن تلك المحاولة كانت أثناء حكم الإمام عبد الوهاب الذي دام أربعين سنة، بين سنة 784-85 إلى سنة 823-824 ،أي أنها كانت ، قبل هذا التاريخ الأخير ، وهذا يسمح في نظر Lewicki باستنتاج قيام علاقة بين كوكو و بين بلاد المغرب في بداية القرن التاسع الميلادي[1]

ويلاحظ نفس المؤلف أن أوّل من وصف طريق: تاهرت-سجلماسة- أودغست غانة هو اليعقوبي (حوالي (891-882)،وكانت سجلماسة الواقعة بما يسمى اليوم بلاد تافيلالت تُشكل نقطة انطلاق أغلب القوافل المسافرة، عبر الصحراء، إلى السودان الغربي" بلد الذهب" كما يسميه الجغرافيون العرب القدماء، وقد أسس الصفرية بها دولة مستقلة، حوالي 757-758 م، استمرت حتى منتصف القرن العاشر ، ، وكان لها مع إمارة تاهرت علاقة وطيدة تجسدت فيما سجلته المصادر العربية من إقامة تحالف مبني على المصاهرة بينهما في نهاية القرن الثامن أو بداية القرن التاسع الميلاديين، حيث تزوّج مدرارُ بنُ الأمير الصفري، أبي منصور اليَسُع، عُروَةَ ابنةَ الإمام الأباضي، عبد الرحمن بن رستم، وكان الدور المعتبر الذي تلعبه سجلماسة آنذاك في التجارة المغربية (N.Africaine)مع السودان الغربي، وراء هذا التقارب، إذ يحتمل أن يكون الإمام قد احتاط بهذا التحالف، لأن تجار تاهرت غالبا ما يسافرون إلى السودان الغربي عن طريق سجلماسة، صحبة تجار مدن مغربية أخرى[2]

---

(1) L'état Nord africain de Tahert, PP.523-524 •

(2) Ibid,PP.527-528 .

ويوافق J.Devisse على هذا الطرح ويتخذ منه دليلا على أن الرستميين، لم يهملوا، في عهدهم الطريق الجاري فتحه في النواحي الغربية (من الصحراء)، ويبرّر ما حصل من زواج بإرادة الحصول على حريّة المرور فيه[1]

ويسجلLewicki أن هناك طريقاً آخر، كان يقطع في عهد الرستميين شرق طريق: تاهرت-سجلماسة-أنبية- أودغست-غانة، ومن محطاته وارجلان ، شمال الصحراء، ومدينة تادمكة(حطام السوق في يومنا) وكوكو (gao)، وكانت مراحل هذا الطريق، فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين، هي تنس- مليانة -المسيلة ومُقاطعة الزاب، عن طريق واحة طبنة وبسكرة ثم وارجلان(ورقلة) التي يسكنها بربر أباضيون، وهي مركز تجاري هام، ودورها كنقطة انطلاق للقوافل التي تنتقل من بلاد المغرب(L'Afrique du Nord) إلى السودان الغربي يمكن مقارنته بدور سجلماسة ، في الطريق التجاري تاهرت غانة[2]

ويصف الادريسي وارقلان(ورقلة) بأنها" مدينة قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجوّلون في بلاد السودان إلى غانة، وبلاد ونقاوة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم، وهم وهبية أباضية نكار خوارج من دين الإسلام"[3]ويتوقف Lewicki عند هذا النص مستنبطا أن العلاقات التجارية، بين ورقلة وبلاد السودان، كانت موجودة، منذ القرن التاسع الميلادي، أي في عهد الأئمة الرستميين الذين كانت سلطتهم تمتد إلى وارقلة، وعلاقة هذه بتاهرت في العهد الرستمي تكاد تكون غير معروفة تماما، غير أن أحد العلماء الإباضيين ويسمّى أبا يعقوب السدراتي الأطرافي الورجلاني كان يدرس، قبل سنة 784-785م بتاهرت ، عند الإمام عبد الرحمن بن رستم، وبعد تخريب إمارة تاهرت سنة 909 م على يد الفاطميين، كان لجوء آخر الأئمة الرستميين ، يعقوب بن أفلح ، إلى وارقلة[4]

ويستخلص Lewicki في نهاية بحثه أن معطيات المصادر العربية التي في حوزته، وبالأخص الأباضية منها تبين أن أوائل التجار المسلمين الذين عُرف تواجدهم بالسودان الغربي، قَدموا من تاهرت وكانت غالبيتهم، على الأقل، على المذهب الأباضي، والأكيد أنهم لم يكونوا

---

(1) La question d'Awdağust,TedaoustI,P.137 .
(2) T.Lewicki:op, cit, PP.531-532 .
(3)القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ص 197 .
(4) T.Lewicki:op, cit, PP.532- .

هم التجار الأوائل الذين وصلوا السودان الغربي، منذ أن فتح العرب بلاد المغرب، إذ يتوقع أن تجار تاهرت الذين ظهروا بالسودان الغربي سنة 780م/164-165 هـ قد سبقهم إلى أسواق غانة وكوكو (gao)ومدن سودانية أخرى تُجارٌ مسلمون (يقصد غير خوارج) قدموا من مدينة سجلماسة الصفرية ومدينتي زيز ودرعة المجاورتين لها واللتين كانتا مزدهرتين، قبل تألقها التجاري أو تجار بربر، من عاصمة السوس الأقصى ترقلة، في أقصى الجنوب، وكانت تربطها بغانة مسافة ثلاثة أشهر[1]، ويلاحظ أن Lewicki لم يُشر هنا إلى طريق تامدلت-غانة، مع أنها كانت ولا شك الطريق الأولى التي استخدمت، بعد الفتح الإسلامي، لبلاد المغرب، للسفر إلى بلاد السودان الغربي، ولا يُعرف لماذا وصف تجار ترقلة، عاصمة السوس الأقصى، بالذّات بالبربر؟

وقد أشادJ.Devisse بما توصل إليهLewicki من نتائج تبيّن أن الرستميين أخذوا يهتمون بإقامة علاقات مع كوكو (gao) منذ 780م/164—165 هـ، مبيّنا أنه كان على الذين يرغبون في السفر إلى هذه المدينة، مرورا بتادمكة، أن يصلوا إلى الطريق الذي يمرّ عن بسكرة إلى وارقلة وفي نفس الوقت كانت إمارة سجلماسة التي أسست حوالي 757-758م/ 140-141 هـ، تحاول، على ما يبدو، أن تجعل العلاقات الجنوبية أكثر انتظاما، وقد انتقلت سلطة المدينة الجديدة، حوالي 770م/153-154هـ إلى أسرة بني مدرار التي احتفظت بالسلطة فيها مدة قرنين تقريبًا، وبعد قرن آخر، في رأي Devisse ، فإن طريقا معروفا ولكنه غير منظم،كما ينبغي، ربط سجلماسة ببلاد السودان،ويعتبر نفس المؤلف أن تلك الفترة تُسجل أكبر نشاط تجاري بين أوليل والنيجر عن طريق أودغست[2]

ومع أن C.Cahen يوافق، مثل J.Devisse، Lewicki على ما توصل إليه من نتائج إلا أنه يلاحظ عدم وجود شهادات مباشرة عن ممارسة تجارة هامة للذهب ، منذ القرن الثامن الميلادي، وكان بإمكان سلع أخرى أن تموّن القوافل، ومن بينها الرقيق[3]

ويتساءلJ.Devisse عن مصدر الذهب الذي كانت إفريقية القرن التاسع الميلادي، في حاجة إليه ، لعمليات سك النقود التي كانت تستخدمها في المبادلات التجارية، وقد تيقّن، من خلال

• Lewicki:op.cit, P.335(1)

• La question d'Awdağust,PP.136-137(2)

• L'or du soudan avant les Almoravides,P541(3)

مقارنته لعدد من القطع النقدية السنوية التي تم العثور عليها ولأوزانها، أن إفريقية كانت تتزود بالذهب للضرب، و أن جزءاً من القطع النقدية كان يأخذ طريقه إلى المشرق، إما لأسباب سياسية أو كمقابل للمستوردات المكلِّفة ، ومن الصعب، حسب رأيه تصوّر ورود قطع ذهبية شرقية إلى إفريقية لتزويد الأغالبة بمعدن الضرب، وبالتالي يمكن التسليم بأن إفريقية المجرّدة من معادن الذهب، كانت تحصل عليه من بلاد السودان (Afrique)، ويكمن دليل ذلك في سكّ النقود، فلم يحدث أن انقطع وصوله إليها تماما، وعليه فهناك احتمال كبير أن يكون قسم هام من الذهب المصدّر من السودان الغربي قد انصرف في الطريق الذي يسيطر عليه الأباضيون في اتجاه افريقية[1]

ويرىMauny أن وصول التجار العرب إلى أودغست وغانة وغيرهما، ابتداءا من القرن الثامن، ربّما كان منشطا قويا لزيادة إنتاج الذهب الذي كان قبل ذلك خاصا بالسوق الدّاخلية، ولا تَعبُر الصحراء منه سوى نسبة قليلة، في مقابل منتوجات متوسطية.[2]

صادرات بلاد المغرب إلى بلاد السودان

ينقلE.F.GAUTIER عن اليعقوبي قوله :بأن القوافل العربية كانت تحمل إلى غانة، زيادة عن ملح تغازا، الصمغ، أي القطران النباتي، وحُلَي الزّجاج الأزرق(النظم) وخواتم النحاس[3]، ومن جهته يذكر البكري أنّه يُجلب إلى أودغست" القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام، على بُعد، وسعر القمح عندهم، في أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل وكذلك التمر والزبيب[4]" كما يُتجهّز إليها كذلك" بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمراء والزرقة مجنحة"[5]وأكثر ما يُتجهّز به إلى غانة"الملح والوَدَع والنحاس، والغربيون والودع أنفس (أغلى)" شيء[6]بها.

---

(1) La question d'Awdağust,Tagdaoust I, PP.139-140.

(2) Tableau géographique, P.300.

(3) L'or du soudan dans l'histoire, P.118 ؛ مع العلم أنني لم أعثر على هذه المعلومات في الطبعة التي اعتمدت عليها في هذا البحث، وهي طبعة ليدن 1967 التي لم يتعرض فيها اليعقوبي بتاتا إلى غانة .

(4) المُغرب، ص 158.

(5) نفس المصدر ، ص 159 .

(6) نفس المصدر ، ص 179.

ويذكر الادريسي أن أهل المغرب الأقصى يسافرون إلى مدينة تكرور " بالصوف والنحاس والخرز"[1] و أن المرجان الذي كان يصاد بمدينة سبتة كانت له فيها" سوق لتفصيله وحكّة وصنعه خرزًا مثقوبا وتنظيمه، ومنها يتجهّز به إلى سائر البلاد وأكثر ما يُحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان ، لأنه في تلك البلاد يُستعمل كثيرا"[2]، وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة، إلاّ ما يجلب إليها من التمر، من بلاد سجلماسة أو من بلاد الزاب، ويجلبه إليهم أهل وارقلان الصحراء[3]" ويجلبون أيضا الكتب والعطور وخاصة منها القرنفل والمصطكي إلى مدن الساحل حيث توزع جنوبا على الأسواق الإقليمية [4]، غير أن أهم بضاعة كانت مطلوبة في بلاد السودان، على الإطلاق، هي الملح.[5]

أهمية الملح بالنسبة للسودان

وتعود أهمية الملح لبلاد السودان إلى كونها تفتقده تماما ، ذلك أن الطبيعة ، كما لاحظ Ch.De la Roncière وزّعت الملح بوفرة شمال الخط الذي يربط واحة سيوة شرقا بالرأس الأبيض غربا[6]، فهو يوجد في كل مكان:إما في التكوينات الجيولوجية القديمة، كما في الحقبة الترياسية[7] حيث يوجد في شكل صخور، بين الطيات الأرضية؛ وإمّا في غرين الزمن الجيولوجي الرابع بقعر السباخ[8]

وكان الإنسان يبحث، منذ عصر ما قبل التاريخ عن الملح لنفسه،بقدر ما كان يبحث

(1)القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ص 34 .

(2)نفس المصدر، ص 249 .

(3) نفس المصدر، ص 34.

(4) أنظر الشيخ الأمين عوض الله: تجارة القوافل، بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضرية حتّى القرن السادس عشر ميلادي، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد 1404 هـ/1984م، ص 85 فما بعدها) .

(5) قارن، الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص 25 ؛ Ch.De la Roncière, la découverte de l'Afrique, T.1,P.88 .

(6) op.cit,P.88 .

(7) Capot-Rey:L'Afrique blanche fr.T2.P214 ؛ والحقبة الترياسية هي الحقبة الثلاثية، أقدم عصور الدهر الوسيط (المنهل الوسيط(المنهل، ص 1044).

(8) Id- .

عنه لقطعان حيواناته، وقد أعفى الانتشار الواسع، للمراعي المالحة، رعاة السهوب من إعطاء الملح لحيواناهم[1]

أمّا سكان جنوب خط :سيوة-الرأس الأبيض الذي يشكل بلاد السودان والغابات، باستثناء السواحل البحرية، فإنهم اقتصروا على استخلاص ملحهم من رماد النباتات، وقد أثبتت دراسات إنتروبولوجية مختلفة أن حاجة جسم الإنسان،وبالأخص الإنسان الأسود، للملح المعدني ملّحة، وحيوية ، لا يعوّضها استهلاك الملح المستخرج من النبات[2]لأنه يعرق أكثر من الإنسان الأبيض فيحتاج إلى ذلك حتى يعوّض جسمه ما أفرزه من العرق وعليه أيضا إعطاء الملح لحيواناته لتعويض غياب النباتات المالحة[3]

وقد أودعت الطبيعة في هذه المناطق الأخيرة، بلاد السودان،الذهب[4] حيث يتواجد بغرب إفريقيا في الطبقة الجيولوجية البيريمية(Birrimien) التي تغطي جزءا هاما من المناطق السودانية والغينية الغربية بالإضافة إلى أن أودية كثيرة تجرى فوق أراضي ما قبل العصر الكمبري (précambriens) تحمل شذرات(paillette)الذهب، ويعثر عليه في غرين تلك الأودية[5]. وبفضل هذا التوزيع ظهرت الحاجة إلى التبادل وصارت القوافل، منذ فترة التاريخ القديم، تعبر الصحراء حاملة الملح من الشمال إلى الجنوب وفي المقابل المعدن الثمين من الجنوب إلى الشمال، وهذا القانون الاقتصادي، أمْلَى منذ ذلك العهد الحاجة إلى طرق القوافل[6].

دور القوافل في نقل ملح الصحراء إلى بلاد السودان.

وقد تبيّن لـــV.M.gordinho، مما لاحظه في تجربة حديثة، أن وزن حمل الجمل من الملح يتراوح من 120 إلى 160 كلغ، وأن 200 كلغ تكفي لإرهاقه،كما أورد عن ابن خلدون أن القوافل التي كانت تتوجه من مالي إلى تكدا والقاهرة تتكون من 1200 جمل وأن الأزالاي (l'Azalai) أي القوافل السودانية التي كانت تتردد على معادن ملح كوّار،في أقَادَس (Agadés)

•Capot Rey:op.cit.,P.214(1)
• Mauny:Tableau géographique, P321(2)
•Capot-Rey:op.cit,P214(3)
• Ch. De la Roncière:op.cit.,.P.88(4)
. Mauny:Tableau géographique, P.293(5)
.Ch..De la roncière:op.cit.P.88(6)

لم يكن عددها يقل عن عشرين ألف بعير؛ ومن هذه المعطيات يستنتج godinho أن عدد الجمال في العصر الوسيط لم يكن بدون شك، أقل من ذلك، وقدرة حمولة قافلة كهذه، بعد اسقاط الحيونات المحملة بِقِرب الماء وأكياس الأمتعة والمؤن، لا يَقلّ عما يقارب الألف طن، بكلّ تأكيد، تصل سنويا من بيلمة إلى الآير(L'Air) والنيجر وبالتالي فإنه بالرّغم من نقص المعلومات عن قوافل تغازا وإيجيل فمن المحتمل أن بلاد السودان كانت تتلقى نفس القدر من هذه المعادن الغربية ومن أوليل بل أكثر من ذلك(1).

ويردّ Mauny تجمع هذا العدد الهائل من الجمال في القافلة الواحدة إلى دواعي أمنية حيث أنها كانت تخشى نهب قبائل الطوارق ويذكّر بما فعلته القافلة التي سافر فيها ابن بطوطة، أثناء عودته من تكدا إلى توات،بحيث رتبت أمورها لاجتياز أرض الهقار أثناء شهر رمضان، وهو الشهر الوحيد الذي لا يُغِير فيه الطوارق ولا يعترضون طريق القوافل، وإذا وجد سرّاقهم المتاع في الطريق لا يتعرضون له وكذلك يفعل غيرهم من البربر(2).

ويعترف Devisse أنه ليست لديه فكرة عن عدد القوافل التي كانت تجلب سنويا الملح إلى أودغست لكنه يعتقد أن كل شيء يبعث على التفكير بأنها لا تصل سوى مرة واحدة في العام الواحد، ويرجح أن تكون أعدادها كبيرة، وخاصة عندما يكون وصولها من الصحراء وليس من أوليل فقط(3)غير أنCapot-Reyيقول بأن القوافل الكبرى المسماة الأزلاي(Azalai) ومعناها الحرفي تجمّع الجمال تتنقّل مرّتين في العام، في الفترتين القصيرتين اللتين تفصلان موسم الحرارة الشديدة وموسم البرد والعواصف الرملية القوية، أي فصلي الربيع والخريف من منطقة الساحل السوداني إلى الملاّحات لتبديل الذرة بالملح(4)

و لا يُعرف على أي أساس بنىV.M.godinhoرأيه القائل: إنه" منذ القرن العاشر الميلادي، على أكثر تقدير، أخذت القوافل القادمة من أودغست تجتاز الطاقنت(le Tagant) للوصول

• L'économie de l'empire portugais, P.119(1)

Mauny;op.cit,P.401(2)؛ يُلاحظ أن نص ابن بطوطة لا يذكر ما إذا كان ترتيب وقت هذه الرحلة في رمضان مقصودًا لأسباب أمنية ، كما تصور Mauny أم أنه من باب الصدفة أم فرضته الظروف المناخية التي تتحكم عادة، في وقت السفر، أكثر من أي شيء آخر(أنظر، رحلة ابن بطوطة، ص 455) •

• op.cit.P.114(3)

. L'Afrique blanche française, T.2,P.215(4)

إلى أوليل بمنطقة طرارزة كي تحمل الملح إلى أسواق السودان"[1]

ومنذ النصف الأول من القرن الثاني عشر، وربما قبل ذلك، كان السودان، حسب نفس المؤلف، يستغلون ملاحات تغازا، وكان وصول الأزلاي سنويا، محملة بالملح، إلى غانة ومدن الإمبراطورية السّراكولية الأخرى[2]وفي مكان آخر يناقض هذا المؤلف نفسه ويقول :" إن المسلمين في المغرب و"الملثمين"(لنلاحظ عملية التفرقة) كانوا يتعاطون التجارة وحدهم، على ما يبدو، إلى القرن الثاني عشر، ومنذ نهاية القرن الثاني عشر أخذ السودان يسافرون عبر الصحراء لممارسة التجارة جنوب غرب المغرب الأقصى"[3]

وقد يكون هذا الرأي الأخير أقرب إلى الصواب، لأن المصادر العربية لا تتحدث إطلاقا عن أي نشاط تجاري للسودان في الصحراء، فيما قبل نهاية القرن الثاني عشر، وابن بطوطة هو أول من تحدث من أصحابها عن وصول السودان، في القرن الرابع عشر الميلادي، إلى تغازا لحمل ملحها[4]و لا يُستبعد أن تكون تلك العملية إذًا بدأت خلال القرن الثالث عشر.

ويتحدث H.gaden عن مبادلات كانت تتم،حسب رأيه،في شبه جزيرة أيوني:تُسلم فيها الأقمشة والذرة(Mil)والدقيق، في مقابل الملح والعنبر الرمادي الذي كان يجمع آنذاك من الساحل ثم تتكون القوافل وتنطلق نحو أودغست وغانة وتبحر المراكب التي يحتمل أن تكون من جذْعيات الصيادين السنغاليين(Ouolofs)نحو مصب النهر لتصعد في اتجاه صُنغانة وتكرور[5]مع الإشارة إلى أنGaden هنا لم يوثق هذه المعلومات التي لا يوجد لها أثر في النصوص العربية المستخدمة في هذا البحث؛ كما أن البضائع التي ذكر أنها تُبدل بالملح والعنبر عادة ما يكون بعضها، مثل الأقمشة، من شمال الصحراء والبعض الآخر، مثل الذرة والرقيق، من جنوبها أي من بلاد السودان فهل يعني بذلك أن قوافل الشمال كانت تلتقي بقوافل الجنوب هناك؟

وقد لاحظMauny،عكس Gaden، عدم وجود أية معلومات عن الطريقة التي كان يُسوّق بها ملح أوليل في العصر الوسيط، غير أن الطرق، في رأيه، لا تكون مختلفة كثـــــيرا عن

• L'économie de L'empire portugais,P108(1)

• Ibid,P.105(2)

• Ibid,P.118(3)

(4)أنظر .رحلة ابن بطوطة، ص 441 •

. Les salines d'Aoulil ,P.443(5)

اليوم،واليوم فإن الملح يظهر في شكل ألواح مختلفة الأبعاد والأوزان، حسب الطبقات التي يستخرج منها ، وينقل إلى نهر السنغال؛ وفي بعض السنوات عندما تكون فيضانات النهر قوية تستطيع المراكب أن تقترب كثيرا من الملاّحات، مستعملة شبكة الخلـــــــجان (marigots) أو الشّعاب الناجمة عن تلك الفيضانات وعند ذلك تشحن تلك المراكب الكبيرة لتصعد النهر إلى مدينة كَايَسْ(Kayes-Medine)حيث المحطة النهائية للملاَحة، وينقل الملح من كل نقاط التوقف، ثانية، على الجمال، والثيران الحمالة، والحمير نحو الأسواق المحلية الصغيرة حيث يُسوّق[1] والمفروض أن منطقة توزيع الملح هي المجاورة لنهر السنغال والتي تبعد عنه من 100 إلى 200 كلم، على ضفته اليُسرى حيث يدخل بسرعة في منافسة مع الملح البحري الوارد من سِينْ سَلُوم (Sine- saloum)وكانـــت ألواحُه مخـــــصصة للتــــــبادل بذهب قالم(galem) والبُوري le Bouré [2]

أما فيما يخص ملح تاتنـــتال أو تغازا الذي يفيد البكري أنه يتجهز به" إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان"[3] فإن Mauny يرى أن الجمال كانت تحمل ألواحه لتعبر بها حوالي 800 كلم من الصحراء إلى تمبكتُ التي كانت السوق الرئيسية لملح إفريقية السوداء بكاملها، ومن هناك كان بإمكانه أن يأخذ عدّة اتجاهات[4] مع العلم أن مدينة تمبكتُ لم تكن موجودة في عهد البكري الذي توفي في شهر شوال من سنة 487هـــ/أكتوبر، نوفمبر 1094 م[5] بل تأسست بعد ذلك بقليل، أي حوالي 494هـــ/1100 م[6] وهو ما يفسر عدم إشــــارته إليها لكن هذا لا يعني أن مكانها لم يكن نقطة مرور ملح تغازا إلى بلاد السودان بدليل أنها أسست

---

(1) Mauny:op.cit, PP.357-358 .

(2) Ibid,P.358 .

(3) المُغرب، ص 171 .

(4) Mauny:op.cit, P.359 .

(5) أنظر Le Baron De slane:Description de l'Afrique par Abou-obeid-el-Bekri, P.11 .

(6) كان تأسيسها حول آبار ماء عذب مما جعل التجار يتخذونها مقاما للراحة فنقطة التقاء لهم، وبلغت أوجها في القرن العاشر الهجري/16م(عنها أنظر بشاري لطيفة: التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الامارة الزيانية ، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر،1406-1407هـــ/1986-1987م، ص 68-69) .

لتكون سوقا له.

تسويق الملح في بلاد السودان

ويبدو أن ألواح الملح التي كانت تعتبر من المنتوجات الكمالية(produit de luxe)في العصر الوسيط،كانت لها الأولوية في التبادل بالتبر ولذلك فهي كانت تُنقل نحو مالي على بعد 900كلم، مستغرقة مدة أربعين يوما من السفر، ويأخذ جزء آخر منها اتجاه دييني (Dienné) التي تستغرق الزوارق الكبيرة للسفر إليها أربعة عشر يوما ومن هناك تأخذ طريقها إلى البيتو (Bittou) لتُبدل بذهبه في حين تنقل ألواح أخرى إلى منطقة البوري (Bouré) أو غينيا العليا (haute guinée)لنفس الغرض[1]

وهناك جزء آخر من ملح تغازا يُحمل إلى بلاد الفَرا(pays des Kolas)،وهو منتوج كمالي كذلك، وكان اللّوح يُقطع إلى اثنتي عشرة قطعة، عرض كل واحدة منها ثلاثة أصابع، تسمىKokotla وتستخدم كوحدات صرف هناك، ويرجع سبب كثرة الطلب على ألواح الملح لأنها تُحفظ أحسن من غيرها في المناطق الرطبة؛ والمفروض أن ملح الصحراء كان قد سُوّق في مناطق أخرى لكن المصادر لم تخبرنا بذلك[2]

وكان المغاربة، أصحاب القوافل يشتركون ،حسبE.F.gautier ، مع وسطاء متعوّدين على ممارسة التجارة في جنوب السودان، ومن ثمة فإن المعاملات التجارية الأخيرة كانت تتم عن طريق التبادل المباشر بين السلع وبين التبر، ويستند نفس المؤلف إلى ما ذكره ياقوت الحموي(1178-1229)م من أن التجار المغاربة، كانوا عندما يقتربون من مشارف نهر السنغال يعلنون وصولهم بدق الطبول، وبمجرّد ما كان سودان مناطق الذهب يسمعون صوت الطّبل، يخرجون من مخابئهم وينتظرون، في سكون تام، على مسافة معينة، ويشرع التجار في وضع أسعار لبضائعهم، ثم ينسحبون ،ويتقدّم السودان فيضعون كمية محدّدة من التبر ثم ينسحبون بدورهم ليعود الأوائل ويأخذ كل واحد منهم ما يجده من الذهب، بجانب بضاعته ثم يغادرون المكان بدقّ الطبول، تاركين وراءهم البضائع المباعة، وهو ما يعرف بتجارة البُكم[3]

---

(1) Mauny:op.cit, PP.359-360 ؛ أنظر الخريطة رقم 13 .

(2) Ibid,P.360 .

(3) E.F.gautier:L'or du soudan dans l'histoire, P.118 .

وفي محاولته التعرّف على الأسعار التي كان الملح يباع بها يلاحظ Maunyأن دراستها بإفريقيا الغربية، في العصر الوسيط، محفوفة بالصعاب لأن قيمتها بالمثقال والدينار، وهو تعبير متكافئ، تقريبا، في أذهان أصحابها، ثم يتساءل نفس المؤلف عن نوعية هذا الدينار؟ أهو دينار القرآن، كما يقول، أو دينار الموحّدين والمرينيين، ذو 4,729 غ؟ أو 4,25 غ، وهو ما تدعونا دائرة المعارف الإسلامية (T.I.,P.1002) إلى الأخذ به، أم هو الدينار المرابطي ذو 3,864غ إلى 3.960 غ ودنانير أخرى تتحدث عنها المصادر[1].

والجدير بالملاحظة أن ابن حوقل، لم يقل، كما نقل عنهJ.Devisse، خطأً،" إن الملح يساوي في غانة من 200 إلى 300 دينار"[2] بل يقول" وربما بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلثمائة دينار"[3] وينقل محمد زنيبر هذه الترجمة الخاطئة عن Devisse وينسب ما تتضمنه من معلومات إلى ابن حوقل، وهذا غير صحيح[4]

وانطلاقا من تقدير وزن حمل الملح بما بين 125 و150كلغ، ومتوسط وزن الدينار بـــ 3,8 غ من الذهب قام Devisse بعملية حسابية انتهى فيها إلى تحديد تكلُفة حمل الملح بمبلغ ذهب يترواح ما بين 760 و 1140 غ[5]

وقد ترجم Mauny عبارة البكري" وبلاد الفرويين يُبدل الملح فيها بالذهب"[6]بأن الملح يباع في بلاد الفرويين بعيدًا في الجنوب، وزنه بوزن الذهب"[7]أي أن قيمة وزنين متماثلين، من الملح والذهب واحدة، وراح يُعلق على نصّ البكري بقوله: إن البكري يبالغ، بدون شك، وكل ما نحتفظ به، أن قيمة الملح كانت مرتفعة جدًا[8] غير أن المتمعّن في معـــــــــنى " يبــــدلُ الملح فيها بالذهب"، يرى أنه ليس شرطا أن يكون معناه"وزنًا بمثله كما فَهِم Mauny ، ومـــع

---

(1) R.Mauny:Tableau géographique, P. ،

(2)أنظر La question d'Awdaġuste, P.112 ،

(3)صورة الأرض، ص 101 .

(4)أنظر .زنيبر محمد: المرجع السابق، ص 179 .

(5)op.cit.PP.112-113 .

(6)المُغرب ، ص 174 .

(7)Tableau géographique, P.302.

(8)Id.

التسليم بوجود نوع من الغموض في هذا التعبير إلاّ أننا نرجّح أن يكون معناه:يُبْدل الملح فيها بنسبة معينة من الذهب.

وقد انساق باحثون كثيرون، وراء فكرة Mauny وبالغوا فيها، ومن بين هؤلاء الشيخ الأمين عوض الله الذي يعتبر " الملح من أهم السّلع بالنسبة للسودانيين، ولا تقل عن أهمية الذهب بالنسبة للمغاربة، ولذلك لم يبالوا في مبادلته بالذهب وزنًا بوزن"[1] والسؤال الذي يمكن طرحه على هذا المؤلف هو:لو كان الملح يباع بوزنه ذهبا، لماذا يحمل التجار إلى جانبه بضائعَ أخرى كالنحاس والودع والأقمشة وغيرها والتي تحدث عنها هو نفسه في إطار السلع المغربية التي تصدّر لبلاد السودان"[2] والتي تباع كلها تقريبا بأقل من وزنها ذهبا بكثير، وتشكل أحمالا كثيرة من كل قافلة تجارية ، خاصة وأن الملح كان مطلوبا بكثرة في بلاد السودان وبيعه كان مضمونًا؟

ويعود Mauny إلى ما ذكره ابن بطوطة من أن سعر حمل ملح تغازا يساوي من 8 إلى 10 دنانير بإيوالاتن(oualata)[3] ومن 20 إلى 30 وحتى أربعين بِمَالِي[4] ويضيف أن سكان ودَّان كانوا يشترون ملح إيجيل بقيمة مثقال ونصف للحمل الواحد من أربعة ألواح ويبيعونه بمثقالين، وفي تمبُكت يباع الحمل، مع الجمل الذي أتي به،من100 إلى 120 مثقالا، وكانت الأسعار تتغيّر، على ما يبدو، حسب الظروف المناخية، فهي تنخفض بنسبة كبيرة في السنوات التي تتوفّر فيها المراعي، وتضمن فيها ظروف حسنة للسفر والعكس صحيح[5] وهذه القاعدة يمكن تطبيقها على ملح المعادن الأخرى كتغازا وأَوْليل وغيرهما وكذلك على بقية السلع؛ وفي تمبكتُ يلتقي ملح إيجيل بملح تغازا وتطبق عليهما نفس الطريقة في التسويق[6]

---

(1) المرجع السابق، ص 84 .

(2) نفس المرجع، ص 85 .

(3) op.cit.,P. 422؛وقد تأسست مدينة إيولاتن سنة 1224م، شمال غانة ، في طريق القوافل القادمة من سجلماسة وعلى مسيرة حوالي شهرين منها، وهي تبعد عن تمبكت غربا بحوالي 450 كلم، وعن المحيط الأطلسي، شرقا ، بحوالي 900 كلم، وكانت سوقا يقصده التجار المغاربة(أنظر ، بشاري لطيفة: المرجع السابق، ص 66) .

(4) Id, .

(5) Ibid, P.423 .

(6) Ibid, PP.359-360 .

ويذكر ابراهيم فخار ، نقلا عن السلاوي، أن التاجر المغربي إذا سافر إلى غانة بثلاثين جملا، رجع منها بثلاثة جمال أو بجملين، واحد لركوبه، والثاني للماء وأن ثمن أحمال الثلاثين جملا، يوضع فيها من التبر ما بمـــلأُ مزودًا واحدًا[1]

دور القوى السياسية المغربية في تنشيط التجارة مع السودان

ومما تجدر الإشارة إليه أن المصادر المختلفة المستخدمة في هذا البحث لا تتحدث أبدًا عن تصدير ملح المناطق التلية الأطلسية الواقعة شمال الصحراء إلى بلاد السودان بل إن تلك المناطق كانت تزوّد القوافل بمختلف المنتوجات الفلاحية والصناعية المطلوبة هناك[2] وكان التجار ينقلون البضائع من مدن الشمال كالقاهرة وطرابلس وتونس وتلمسان وفاس إلى المحطات النهائية في طرق القوافل الصحراوية وهي: سجلماسة و وارجلان وغدامس أو زويلة والتي يعتبرها محمد زنيبر" كموانئ بالنسبة للصحراء" ومِنْ هؤلاء التجار مَنْ يبيع بضاعته هناك ومنهم من ينضمّ إلى القوافل ليحملها بنفسه إلى بلاد السودان.[3]

ومع الأسف الشديد فإن المصادر لا تفدنا بمعلومات عن الكيفية التي كانت تتزوّد بها القوافل التجارية بالملح من ملاحات توتك وتاتنتال أي تغازا وإيجيل و أوليل، وكل ما تفيدنا به أن ذلك الملح كان يجلب إلى بلاد السودان عن طريق القوافل دون إضافة أي شيء يساعد المتتبع لهذه العملية على فهم آلياتها وهو ما ترك الباب مفتوحا على مصراعيه للدارسين كي يضعوا ما شاءوا من الافتراضات التي يروها مناسبة .

من ذلك أن J.Devisse يرى نوعا من التوازن السياسي في شمال شرق إفريقية، أي السهول والمرافئ التونسية الوفية لبغداد السنيّة والتي كانت في قبضة الأغالبة، وكانت متصلة بصقلية عن طريق البحر وبمصر وبالمشرق وبإفريقية الأباضية التي تحيط بها من كل جانب، مما يكون قد أدّى إلى توازن اقتصادي: إذ أن افريقية (السنية) كانت تستورد منتجات شرقية كثيرة يمكن أن تكون تيهرت(الاباضية) في حاجة إليها، ممّا يوحي بقيام علاقات هامة بين منطقتيهما،

(1)فخار ابراهيم: المرجع السابق، ص 65-66 .

(2)أنظر ما قبل، ص 456-457.

(3)أنظر زنيبر: المرجع السابق، ص 181؛ قارن Lombard:les métaux dans l'ancien monde, PP 207-208 .

و يلاحظ نفس المؤلف أن سيطرة الأغالبة كانت ضعيفة على النواحي الجنوبية من إفريقية التي كانت خاضعة بكاملها للمنشقين (الأباضيين)في نهاية القرن التاسع الميلادي بالإضافة إلى بلاد الجريد وجبل نفوسة اللّذين استمرا يشكلان لهم نقطتي دعم دائمتين حتى العهد الزيري، وهذا يدلّ على وجود احتكار حقيقي لهؤلاء الخوارج،من أباضية وصفرية،في القرن التاسع الميلادي، ممّا حال دون قيام علاقات مباشرة بين الكيانات المغربية الأخرى وبين العالم السوداني،وكان الذهب الذي يصل النواحي الشمالية من إفريقيا آنذاك يمرّ عن طريق سجلماسة وبالأخص عن طريق تاهرت[1]

ويتفق M.Lombardمع هذا الطرح معتقدا أن الرستميين كانوا يسيطرون على خط القصور الممتد من جنوب المغرب الأقصى (Maroc) إلى خليج قابس وأن كل المحطات النهائية لقوافل الذهب،من جبل نفوسة إلى سجلماسة،مرورًا بوارجلان وكذالك على جميع طـــــرق القوافل[2]وبطبيعة الحال،فإن وصول الذهب إلى إفريقية وغيرها من حواضر بلاد المغرب كان مرهونا بوصول منتجاتها الصناعية والفلاحية زيادة عن الملح إلى بلاد السودان.

فالمعلومات كلها تؤيّد حسب Devisse، بأن الطريق الكبير المتّبع لدخول بلاد السودان الغربي، في القرن التاسع الميلادي لم يزل ذلك الذي يمرّ بتادمكة وكوكو(gao) ، وكان آنذاك مبتورًا من جزئه الشرقي، فيما وراء فزّان ، غير أنه لعب دورا اقتصاديا وسياسيا رئيسيا، لكن تنظيم التجارة الجنوبية لا يكون مفيدًا إلاّ بتوفير المقابل الذي يُبدل بالذهب، ولا تستطيع الصناعة المحلية لأباضيي تاهرت ولا لصفريّي سجلماسة و لا منتجاتهم الفلاحية توفير ذلك مقارنة بما يستطيعه سكان إفريقية، وتبقى مراقبة الملح وحدها هي التي تمكّن أولئك من تلبيّة ذلك الشرطـــ، وهذا ما جعلDevisse يرى بوضوح كبير، كما يقول، ما دفع R.Mauny إلى التفكير بمنطق قويّ في أن ملح تغازا أخذ يلعب دورا في هذه التجارة، منذ القرن الثامن والتاسع الميلاديين إلاّ أن Devisseيعتقد أن الأمر كان يختلف عن ذلك، لأن نصوص كل من اليعقوبي وابن حوقل والبكري، كما تظهر له، تمنعه من هذا التفسير ومن ثمة فهو يرى أنه ينبغي التسليم من أن التجار القادمين من الشمال ربُما كانوا يسعون إلى التزوّد بملح أوليل،حتى القرن العاشر الميلادي، وبالتالي ينبغي التفكير في أن الطرق التجارية كانت تقع غرب طرق نهاية القرن العاشر

(1) La question d'Awdağust, Tegdaoust I,PP.137-138؛ أنظر الخريطة رقم 15.

(2) Les métaux dans l'ancien monde, P.230 .

الميلادي[1] ولعل أقوى دليل يصلح لتبرير فكرة Devisseهذه يكمُن في تلك الآبار التي حفرها حبيب بن أبي عبيدة في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي في الطريق الذي يربط تادملت بأدوغست[2] والذي كان ولاشك يُقطع، منذ ذلك الوقت، في السفر عبر الصحراء، بين المدينتين المذكورتين.

وقد ارتبط الفاطميون، منذ ظهورهم في بلاد المغرب بسجلماسة، فاستولوا عليها سنة 909م -297هـ واستولوا، وهم في طريقهم إليها، تاهرت الأباضية، والمعروف أن هؤلاء كانوا في حاجة ماسة إلى الذهب لتموين سياستهم التوسعية[3]

---

(1) La question d'Awdaguste, TegdaousteI,PP.140-141

(2)أنظر ما قبل، ص 71-72 .

(3) أنظر J.Devisse:op.cit.PP.141-142؛ عن سياسة الفاطميين التوسعية أنظر، لقبال موسى:دور كتامةفي تاريخ الخلافة الفاطمية، منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري(11م)، الشركة الوطنية للنشر والكتاب، الجزائر 1979 ، ص 457 فما بعدها من عدة صفحات،ويتسائلC.Cahenعن أصل السبب الذي جعل الفاطميين يقصدون سجلماسة البعيدة بالذات، مضيفا أنه لو كان السبب هو وجود تجارة الذهب في قبضة أباضيي وارجلان أمكن القول إنه كانت لهم رغبة في تحويله ولكن سجلماسة، كما يضيف، هي الأخرى أباضية، إضافة إلى أن تموين افريقية الأغلبية بالذهب، في العهد الأغلبي يدل على أن الأباضيين لم يكن لديهم مانع من ترك العمليات التجارية تسير، وإن كانت لصالح خصومهم المذهبيين، ومن جهة أخرى فإن الحصول على الذهب والرقيق كان يتطلب أن يقدّم تجار الشمال اسهامات من أشياء أخرى ، لأن الْتقاط الملح من الصحراء لم يكن كافيا،وكان بإمكان ؛ إفريقية توفير التكملة المطلوبة أكثر من المغرب الأقصى وبالأخص النحاس(L'or du soudan avant les Almoravides,PP.542-543)؛ ومن اللاّفت للانتباه هنا أن C.Cahenاعتبر المذهب الذي كان منتشرا في سجلماسة،في تلك الفترة، أباضيا، فهل كان يجهل أنها كانت صفرية؟ والأهم من ذلك أنه عمّم قاعدة إقامة الأباضيين لعلاقات جيّدة مع خصومهم المذهبيين وحاول أن يسوّي بين علاقاتهم بالأغالبة المعروفة بطابعها السلمي وبين علاقاتهم بالفاطميين الذين أسقطوا دولتهم وخرّبوا عاصمتهم ،دون أن ينتبه إلى أنه في مثل هذه الحالات يكون من الطبيعي أن يتوقع الفاطميون منهم ردود فعل سلبية، وفعلا فقد أوشك النّكار، منهم، بقيادة أبي يزيد الزناتي أن يقضوا على دولتهم، مما ضاعف من مخاوفهم، وصاروا يحتاطون، بدون شك، من الوقوع في شباك العصبية الزناتية المنتشرة في المناطق الاستبسية الفاصلة بين مناطق التل والصحراء، وخاصة في النواحي الشرقية والوسطى من البلاد؛ ويبدو أن هذا الأمر خفي أيضا علىJ.Devisse الذي كتب يقول: إن إفريقية الجنوبية والطريق الذي كان السكان يسيطرون عليه، كان بإمكانه تموينهم (أي الفاطميين) بالذهب شريطة أن يتفق على ذلك الخوارج بمختلف اتجاهاتهم مع الخليفة الشيعي الجديد؛ ومن باب العبث أن يحصل هذا، ولا نرى بوضوح كيف أن السيد إدريس M.Idris أعلن أن الفاطميين كانوا، في بداية القرن العاشر يسيطرون على كل الطرق المؤدية نحو السودان " (Devisse:op.cit,P.142) مع العلم أن المصادر لم تسجل أي اتفاق بين الأباضيين وبين الأغالبة و لا بين هؤلاء وبين الصفرية، عندما زودوهم بالذهب قبل ذلك.

ويردّ B.Rosenberger سبب تركيز جهودهم على سجلماسة إلى استمرار السيطرة الأباضية على الطرق الصحراوية بالرغم من السيطرة على تاهرت، وإلى أن الطريق الغربي لم يكن،على ما يبدو، تحت سيطرتهم ممّا جعلهم يستولون عليه[1] وأصبحوا يتحكمون ، حسب Lombard، في الخط الرابط بين بلاد الجريد وبين سجلماسة التي كانت مصدر دخل جبائي يقدّر بـــ400.000 دينار[2]

ويرىDevisse أنه من الواضح أن السيطرة على سجلماسة وزيادة المبادلات بينها وبين بلاد السودان كانت بالنسبة لهم أبسط(من السيطرة على وارجلان)، لأن تحرّشات الزناتيين الأباضية لا تستطيع أن تضايق توسعهم مدة طويلة ، وأن بداية عهدهم كانت غير موفقة لأنهم ركّزوا جهودهم على الساحل الشمالي من إفريقيا استعدادًا لشنّ حملة على الأمويّين بالأندلس أكثر من تركيزهم على مراقبة سجلماسة وطريق الذهب الغربي[3]

ويُدرج نفس المؤلف المعارك التي دارت رحاها آنذاك في نكوّر(Nakur)سنة305 هـــ/ 917م وسجلماسة سنة311 هـــ/923 م واستيلاء الأمويين على سبتة سنة 319 هـــ/ 931م، بين الفاطميين من جهة، والأمويين وأنصارهم الزناتيين،من جهة أخرى، في إطار الصراعات من أجل السيطرة على طريق التجارة ملاحظا أنها اتخذت ولأول مرة طابعا عنيفا ، بسبب التواجد الفاطمي[4]

---

(1) Rosenberger:op.cit,PP.209-210 ؛ يرى نفس المؤلف أن تخريب تاهرت سنة 908 م خلف فراغا، وازداد دور تلمسان فصارت توزع، نحو موانئ البحر المتوسط ونحو الشرق، المنتوجات القادمة من الجنوب عن طريق سجلماسة .

(2) Les métaux dans l'ancien, monde, P.142.

(3) La question d'Awdağust,P.142.

(4) La question d'Awdağust,P.142؛ وقد هاجم نكّور القائد الفاطمي مصالة بن حبوس المكناسي فاستولى عليها وقتل رئيسها سعيد بن صالح ثم قصد فاسا فهزم أميرها يحي بن إدريس ثم صالحه على أن يبايع للخليفة عبيد الله المهدي، وعلى مال يدفعه له ثم عقد له على فاس ولموسى بن أبي العافية المكناسي على أعمال المغرب و عاد مصالة إلى تيهرت ثم قام بحملة أخرى سنة 309 هـــ/921-922 م فاستعاد نكور من بني صالح وقصد فاسا بعدها فاستولى عليها ونفى أميرها يحي بن إدريس إلى ناحية أصيلا و ولى عليها ريحانا الكتامي ثم سار إلى سجلماسة واستولى عليها وانتهب أموالها وقتل بها أحمد بن مدرار و ولى عليها المعز بن محمد بن مدرار ثم راح يهاجم زناتة(عن هذه الأحداث، أنظر بن عميرة محمد:المرجع السابق، ص178 فما بعدها)وقد تم الاستيلاء على مدينة سبتة، بعدها أعلن أمير قرطبة ،عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله خلافته سنة 317هـــ/929-930م، وأمر أن يلقب بالناصر لدين الله ويخطب له بأمير المؤمنين وأن يُلْعن الخلفاء الفاطميون على منابر بلاده واستولى على سبتة سنة 319 هـــ/931-932م (نفس المرجع، ص 185، فما بعدها) .

وكان الفاطميون يفكّرون، فعلا، منذ بداية عهدهم، في غزو بلاد الأندلس، وراحوا يستولون على تاهرت وسجلماسة، وكانتا سوقين كبيرتين تتحكمان في التجارة المغربية السودانية، وكان الأُمويون يعتمدون كثيرا، حسبما يبدو، على الذهب السوداني الذي كان يتحول إلى عملة في سجلماسة وأغمات وفاس ثم ينتهي إلى الأندلس، وكان الفاطميون على علم بذلك، لأن المهدي عاش لاجئا في سجلماسة فحاولوا حرمانهم منه[1]

وتمكنّ الأمويون من تحقيق بعض النجاح في الوهلة الأولى، وحاولوا إضعاف خصومهم بمساندتهم لثورة أبي يزيد، وبمجرّد ما قضى الفاطميون عليها سنة 950م راحوا يستردّون سلطتهم على سجلماسة التي تتصل بالسودان، عن طريق أودغست، سوق الملح، التي ازداد دورها وأصبحت نقطة التقاء كل التجار[2]

وكان من نتائج فشل ثورة أبي يزيد، حسبDevisse، عزل إفريقية، بطريقة لم يسبق لها مثيل عن محيطها الجنوبي-الإباضي، فالمسألة لابّد وأن يكون لها انعكاس على السفر في طريق وارقلة التي صارت سيطرة الفاطميين عليها مستحيلة، مما زاد من قيمة الطريق الغربي عندهم وبالتالي أصبحت إعادة سيطرتهم على المغرب الأقصى ومراقبة سجلماسة أمرا حيويا، بالنسبة إليهم ،إن أرادوا الاستمرار في جمع الذهب الضروري للقيام بحملتهم المبرمجة على مصر، وقد تمكنوا فعلا من الهيمنة على المغرب الأقصى، فيما بين سنتي 950 و 971م، على الأقل، ومن وضع حدّ للتحالفات التي عقدها خصومهم في المنطقة[3]

ويرى المؤلف نفسه أن الفاطميين هم أوّل من بحث بانتظام،عن الحصول،من إفريقيا السوداء، على أكبر كمية ممكنة من المعدن الثمين، وبما أنّ السفر في طريق وارقلة كان صعبا، بالنسبة، إليهم، فإنهم راحوا يستكشفون الطريق الغربي ويركزون عليه،فهم المسؤولون،بكلّ تأكيد،عن سرعة ازدهاره في القرن العاشر،ويحتمل أن يكون ذلك بعد سنة 960م على الخصوص[4]

---

(1)أنظر. بن عميرة محمد:المرجع السابق، ص 184-185 .

(2) Rosenberger:op.cit,P210 ؛عن ثورة أبي يزيد أنظر محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص 197 فما بعدها من عدة صفحات.

(3)Devisse:op.cit.144-145 .

(4) Ibid, P.145 ؛ وتمثل سنة 960م عودة القائد جوهر الصقلي إلى المهدية من الحملة التي أخرجه فيها الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله سنة 347هـــ/958-959م والتي تمكن فيها من السيطرة على الموقف في أغلب أنحاء المغرب، خلال ثلاثين شهرا (أنظر بن عميرة محمد: المرجع السابق، ص 230 فما بعدها) .

ويلاحظ C.Cahen أن ذلك الازدهار كان إلى جانب، أو على حساب، الطريق التقليدي[1] أي طريق وارقلة؛ وإذا تصورنا أن الفاطميين تحصلوا على أكبر كمية من الذهب الذي وَرد المنطقة حتى ذلك الحين، فلابّد أن نــتصوّر كذلك أنه كان في مقابل تصدير أكبر كمية من البضائع المغربية وخاصة منها ملح الصحراء.

وقد تمكن الأمويون، بعد استقرار الفاطميين بمصر سنة 969م من القضاء على الأدراسة الذين طالما تردّدوا بين طاعتهم وطاعة خصومهم الفاطميين ونقلوهم إلى الأندلس[2] كما تمكنوا أيضا من طرد بني زيري الصنهاجيين، من المغرب الأقصى، في نهاية القرن العاشر الميلادي وأصبحوا يسيطرون بشدة على محور طريق ناكور-فاس-سجلماسة، بواسطة حلفائهم الزناتيين، في حين اقتصرت سلطة بني زيري على النواحي الشرقية من بلاد المغرب[3]

والملاحظ أن Lombard الذي يقول بأنه تمّ للأمويين بعد ذلك، إحكام سيطرتهم، بواسطة مواليهم الزناتيين،"على المغرب الأقصى وإفريقية، أي طُرُق الذهب الشرقية والوسطى[4] يتجاوز كثيرا الحدود التي تمت فيها السيطرة الأموية فعلا، فهل خَفي عليه أن افريقية كانت تحت السيطرة الزيرية؟ أم هي مجرد هفوة استخدم فيها كلمة إفريقية بدل المغرب الأوسط مثلا؟

والمهم أن السيطرة الأموية-الأندلسية استمرت إلى أن هبت عليها ريح الفتنة الداخلية، بين الأطراف المتنازعة فيها على الحكم منذ سنة 398 أو 399 هـ/1007-1009م[5]وبعدئذ تحررت زناتة من تبعيتها للأمويين وصارت تحتكر بدورها الطرق الصحراوية مدّة نصف قرن ، تقريبا، حيث احتفظ الأباضيون بالسيطرة على وارقلة وعلى الطريق المؤدي إلى كوكو، شرقا، وسيطر المغراويون، انطلاقا من مقر إقامتهم، بسجلماسة ، على مناطق المغرب الأقصى المشرفة

---

(1) L'or du soudan avant les Almoravides, P.543 .

(2) Lombard:les métaux,P.231 ؛ أنظر بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص 245 فما بعدها من عدة صفحات.

(3) B.Rosenberg:op.cit,P.210.؛ Devisse,op.cit,P.148، Les métaux,P.231؛ Lombard .

عن موضوع الصراع الذي دار ببلاد المغرب بين الأمويين وأنصارهم الزناتيين من جهة وبين بني زيرى الصنهاجيين ، من جهة أخرى،(أنظر بن عميرة: المرجع السابق، ص 244 فما بعدها بعدة صفحات)، أنظر الخريطة رقم 16

(4) Lombard:op.cit.P.231.

(5)عن هذا الموضوع، أنظر بن عميرة محمد: المرجع السابق، ص 277، هامش6 .

على علاقات افريقيا الغربية[1] أي بلاد السودان الغربي.

ويعتقدCahen أن وصول الذهب السوداني استمر إلى المناطق الزيرية حتى منتصف القرن الموالي، أي الحادي عشر، عن طريق المغرب الأقصى، أي سجلماسة، دون أن يكون في حاجة إلى تغيير طريقه، وأن كميته، على ما يبدو، أقلّ، في كل من المغرب الأقصى والأندلس[2] لكن Devisseيرى أن إفريقية الزيرية عرفت تدهورا اقتصاديا، زادت حدته في بداية القرن الحادي عشر الميلادي، وسبب ذلك، في نظره، لا يعود إلى الغزو الهلالي[3] ولكن إلى تحويل تدفق الذهب الغربي الذي كان،إلى عهد قريب، يخصص لسك العملة فيها، وقام بذلك التحويل الأندلسيون وحُلفاؤهم[4] وقد حُمّل عرب بني هلال مسؤولية تدهور أوضاع هذه المنطقة التي كانت أغنى من غيرها إلى ذلك الحين لأن الأزمة صادفت قدومهم اليها على اعتبار أن العادة الجارية كانت معاداقم[5]

ويرى Cahen أنه من المحتمل أن تكون الغزوات الهلالية قد أثرت على أمر التزوّد بالذهب السوداني أو على الامكانيات التجارية للمواد التي تدفع بدلاً عنه[6]، وقد يكون الهلاليون تسببوا، حسب Lombard في قطع الطرق التجارية الشرقية العابرة للصحراء وسدّ مجرى الذهب الذي يموّن الشرق الاسلامي[7] في حين يذهب V.M.godinho إلى القول:إن بعض" شهادات" الادريسي، على ما يبدو، تُبطل نظريةLombardهذه، حيث أن الادريسي الذي لم يتغافل عن أضرار الأعراب، لا يذكر شيئا عن انقطاع الطريق المزعوم نحو إفريقية ولا نحو مصر، وعلى العكس من ذلك، فهو يصف دون لَبسٍ، تجارة الواحات ومـــــــدن جنوب

---

(1) Devisse,op.cit,PP.149-150.

(2) L'or du soudan avant les Almoravides,P.543.

(3) occident et orient au X siècle, Actes du IX congrès de la société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur publique, Dijon, 2-4 Juin1978, Paris 1979 P.153 ؛ وقد بدأت تلك الغزوات، الواحدة تلو الأخرى انطلاقا من ضفة النيل الشرقية سنة 441 هـ/1049-1050م(عن هذا الموضوع أنظر بن عميرة محمد: المرجع السابق، ص 294 فما بعدها من عدة صفحات).

(4) Id.

(5) Rosenberger:op.cit,P.213.

(6) Cahen:op.cit,P.544.

(7) les métaux,P.232.

تونس وطرابلس مع بلاد السودان ويكشف(repère)الطرق المؤدية من تلك الأماكن إلى مصر، في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي،أي بعد قرن من بدء عملية تدفق البدو على ملتقى الطرق هذا، معنى ذلك أن نتائج الغزو الفوضوية قد زالت على الأقل جزئيا آنذاك، أي في عهد الادريسي[1]

أما في الطرف الآخر من المغرب، فقد تأسست في تلك الفترة، على طول الطرق الغربية للذهب، دولة المرابطين، واستولت على سجلماسة سنة 446 هـ/ 1053-1054م ووضعت حدًا لهيمنة مغراوة الزناتية عليها، ومنها توجه عبد الله بن ياسين إلى أودغْست فتمكن منها، هي الأخرى، وبذلك تمكن المرابطون من السيطرة على النقطتين الأساسيتين، في الصحراء الغربية خلال عامين، ولا يبدو التّزامن بين العَمَليّتين، بالنسبة لكثير من المؤرخين من باب الصدفة، بل يدخل ذلك في إطار خطة مرسومة، هدفها سيطرة صنهاجة الجنوب على الطريق التجاري الغربي في النقطتين المذكورتين وطرد الزناتيين منهما[2]

أمّا تدخّل أبي بكر بن عمر العسكري للقضاء على تمرّد قبيلة جدّالة سنة 464 هـ/ 1071-1072م، فقد مكّن، حسب V.Lagardére، المرابطين من السيطرة على قطبي انطلاق الملح: أوليل وتانتال(تغازا)[3]، ولأن ابن حوقل أوضح أن" علاقات مَلِك أودغست مع مَلِك غانة كانت مؤسسة على الضرورة: يحتفظ أحدهما بالملح القادم من الشمال الذي ينقص الآخر، مثل بقية بلاد السودان والثاني يحتفظ بالذهب الذي كان نقله إلى المغرب يحقق فوائد كبيرة[4] فإنه كان على المرابطين أن يستولوا، بعد أودغست وأوليل، على غانة كي يضمنوا استمرار التزوّد بحاجتهم من الذهب و وضع حد لتبعية غانة[5]

---

(1) L'économie de l'empire portugais, P.121.

(2) B.Rosenberger:op.cit,P212:Devisse:la question d'Audaguste,P.132.

(3) Les Almoravides jusqu'au règne de yusuf b.Tašfīn, P.86.

(4) Ibid,P.87 ؛ ومضمون نص ابن حوقل هو:" ومَلك أودغست هذا يخالط ملك غانة، وغانة من أيسر على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال المدّخرة من التبر....وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام فإنه لا قوام لهم إلا به..."(صورة الأرض، ص 101).

(5)يعتقد Lagardère أن السبب الاقتصادي لم يكن وحده وراء الاستيلاء على غانة بل تضاف إليه الصراعات القبلية والاعتبارات الدينية (المذهبية) بين صنهاجة السنية وزناتة الأباضية(عن هذا الموضوع أنظر Lagardère P.87 sqq) لكن آراءه في هذا الموضوع لا تستند على أسس متينة.

المهم أن هؤلاء الجمالة الملثمين، سيطروا، بعد قيام الدولة المرابطية على أسواق الذهب والملح،في الساحل السوداني وعلى شبكة طرق صحراء صنهاجة، وصار الذهب يتدفق مباشرة نحو المغرب الأقصى والأندلس [1] والملح بطبيعة الحال يتدفق إلى بلاد السودان.

ويخلص J.Devisse في نهاية بحثه عن أودغست إلى القول بأن كل المصادر المدروسة تؤكد أن النشاط الاقتصادي، لم يسبق له أن كان أقوى،على المحاور الصحراوية،من الوقت الذي أعطى فيه المرابطون وحدة استغلال أكبر وأن البكري لم يُسند إليهم فضل ذلك لأسباب سياسية،خاصة به شخصيا،والمرابطون لم يحطموا التجارة التي كانت موجودة، وقد تكون الخلافات الدّاخلية للمجتمع المرابطي قد ساهمت، على أكثر تقدير،في تحويل طرقها نحـــــو الشرق[2].

وفي وسط بلاد المغرب، انتهزت، حسبLombard،كلّ من وارقلة وسدراته وفيما صار يعرف فيما بعد بمنطقة ميزاب فرصة انقطاع طرق التجارة السودانية-الشرقية، آنذاك لمنافسة المرابطين في جزء من المبادلات التي تمارس بواسطة الطرق الغربية في حين أخذت تجارة الميزابيّين تتسع، في آن واحد، نحو السودان ونحو التلّ حيث كان الذهب يوجه[3]وكان استيلاء النّرمان على صقلية، في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، قد زاد، كما يعتقد نفس المؤلف، من حدّة انقطاع الاتصالات بين بلاد المغرب وبلاد المشرق، مما يسّر مشاريع البحر المسيحية في الحوضين الغربي والجنوبي للبحر الأبْيض المتوسط، فقدمت السفن الجنوية،في القرن الثاني الميلادي، لتحمل الذهب السوداني من المرسى الكبير الذي وصله بواسطة الطرق الوسطى التي يسيطر عليها الميزابيون؛ وفي القرن الثالث عشر شُحنت السفن المسيحية بحمولات ذهب من ماسة بساحل السوس الأقصى وكان وصوله بواسطة الطرق الغربية المتجهة نحو نول لمطة[4]

ويرى Rosenberger أن الإضطرابات زالت والمنافسات بين الطرق التجارية خفّت، منذ قيام الدولة الموحدية، في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وذلك راجع إلى توحيد بلاد المغرب سياسيا، ويفسّر النشاط الذي عرفته افريقية آنذاك على أنه تتويج للمجهـــــودات التي

• B.Rosenberger op.cit.P.212;. lombard:les métaux,P.234(1)
. La question d'Awdaġuste,P.116(2)
. Les métaux, P.234(3)
. Id(4)

بُذلت انطلاقا من بجاية وتونس لإرسال قوافل إلى السودان عن طريق ورأقلة، ولاحظ تراجع انعدام الأمن مع نهاية الصراعات السياسية ولكن الحكام الجدد المنحدرين من الجبال المأهولة بالسكان المستقرين اهتموا بالزراعة أكثر مما اهتموا بالتجارة(1)

ويبرّرLombard الصراعات التي يقول إنّها كانت قائمة، جنوب الصحراء وشمالها، برغبة مختلف القوى السياسية في السيطرة على المحطات التّجارية النهائية هنا وهناك، بسبب ما كانت التجارة تجلبه من فوائد:ففي الجنوب ، حسب رأيه، دخل التجار البربر في أودغست غربًا (جنوب غرب الصحراء) وتادمكة شرقا(جنوب شرق الصحراء) في منافسة مع الممالك السودانية في غانة، من جهة، وكوكو ثم كانم، من جهة أخرى، إلى أن جاء المرابطون فهزموا الإمارات السودانية(غانة، كوكو، وكانم) وأقاموا دولة كبيرة لمجالات الذهب من السودان إلى الأندلس؛ وفي الشمال أحكمت كلُّ واحدة من دول المغرب والأندلس ومصر قبضتها على مجموعة من الطرق، وعلى إحدى المحطات النهائية للتجارة الصحراوية.

وبقيت تلك الدول كلها تحْلم باحتكار بقية المحطات النهائية، وقد بلغ هذا الهدف، في نظره، في المرة الأولى، رُستميّو تاهرت في القرن التاسع الميلادي، وفي المرة الثانية الفاطميون في العاشر منه(2)

فوائد التجارة المغربية السودانية

وكانت تجارة القوافل، تجلب فوائد جمة للتجار الذين يمارسونها، وفي هذا الصدد يذكر godinho أن كل واحد من تجار أغمات كانت له، في القرن الثاني عشرالميلادي، من 70 إلى 100 حمل من البضائع في القافلة الواحدة المتجهة إلى بلاد السودان، ولكن توجد ضمنها بضائع خاصة بتزويد المسافرين بما يحتاجونه من زاد لسفرهم(3) مع العلم أن الأحمال الباقية تكون من منتوجات مختلفة، فلاحية وصناعية، كما تتزودُ القافلة، عادة بأحمال من الملح، من إحدى الملاحات الصحراوية أثناء رحلتها، ومن ثمة يكون من الصعب تقدير كميات الذهب التي تدفع مقابل ذلك، ومما يزيد من تعقيد المشكل فإن المقابل الذي يدفع بديلا عن تلك البضائع يختلف من مكان لآخر أوّلاً، ولا يُقتصر على الذهب وحده ثانيا، بل تدفع مقابلـــــها أشياء أخرى

---

(1) L'histoire économique du Maghreb,PP.214-215.

(2) Lombard:les métaux dans l'ancien monde PP.228-229.

(3) Godinho:op.cit,P.119.

كالرقيق والقطن والفول السوداني والكولا والعاج وغير ذلك[1] ومن ثمة يصعب كثيرا تقدير كميات الذهب، من بين البضائع الأخرى التي يجلبها التجار من بلاد السودان وخاصة أنهم، كما يقول godinho ،كانوا يفضلون إرسال كميات قليلة من المعدن الثمين، لأسباب أمنية بدليل ما رواه ابن حوقل من أنه رأى" بأودغست صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار" وهو ديْن يمثل من 150 إلى 180 كلغ ذهبا[2]

ومن بين المستفيدين من تجارة القوافل أيضا القبائل الرحل التي تراقب الطرق[3] بحيث أن بعضها كقبيلة مسوفة كان لها، حسب Mauny شبه احتكار لاستغلال طرق محدّدة كالتي تنطلق من سجلماسة نحو الجنوب، على سبيل المثال، حيث يقول عنهم ابن حوقل" إنهم يملكون تلك الطريق"[4] وبالتالي فالتجار يدفعون لهم حقوقا في مقابل مرورهم بها؛ وقبيلة مسوفة هذه هي التي كانت تستغلَ في القرن الرابع عشر، مسلك سجلماسة- إيوالاتن(Oualata) بطريقة أكثر عقلانية بحيث أن مقدم الرّفقة التي سافر فيها ابن بطوطة كان رجلا من مسّوفة والعبيد الذين كانوا يحفرون على الملح بتغازا كانوا لمسوفة ومنهم أيضا التكشيف أي الرجل الذي يكتريه أهل القافلة، ليتقدّم إلى "إيوالاتن" بكتب الناس إلى أصحابهم فيها ليكتروا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربعة أيام[5].

وبالإضافة إلى الحقوق التي كانت القافلة تدفعها عند مرورها على القبائل، كانت تدفع كذلك حقوقا عند خروجها من مدن الشمال، وعند وصولها إلى مدن الجنوب التجارية ، وفي المقابل كان لها حق الحماية على الحكام ورؤساء القبائل الذين تلقوا تلك الرسوم (Taxes)مما لم يمنع، بطبيعة الحال، غارات القبائل المعادية أو اللصوص المعزولين الذين كانوا ينشطون لحسابهم

---

(1)عن موضوع الصادرات السودانية إلى بلاد المغرب، أنظر .الشيخ الأمين عوض الله: تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي، ص 88-89 ؛ السّر سيّد أحمد العراقي: تجارة القوافل بشمال وغرب افريقيا وآثرها الحضاري، ص 151 .

(2)أنظر النص الأصلي لابن حوقل في: صورة الأرض؛ مع العلم أن عدد الدنانير التي سجله Godinhoعنه هو 40.000 دينار فقط وليس 42000 كما ورد في نص ابن حوقل (op.cit.P.119) .

(3)أنظر: Lombard:les métaux,P.28 .

(4)أنظر: صورة الأرض ، ص 101 .

(5)أنظر ابن بطوطة ، رحلة، ص Mauny:Tableau, P.400؛441.

الخاص، ومثل هذه الغارات هي التي ساهمت في خلق أسباب ترك الطريق الجنوبي القديم، الرابط بين مصر وغانة، في القرن العاشر أو قبله ، حسب ما ذكر ابن حوقل، وقد تحدث البكري أيضا عن غارات جزولة على القوافل في وانْزمين(Ouan zemin)وعن تعرض السودان لها أيضا بجبل أزجُونان (AZOUNAN)[1]

وفيما كانت دول المغرب تستفيده من تجارة القوافل الصحراوية يضربGodinho مثالا بما كانت تجْبيه إمارة سجلماسة من رسوم(impôt) ومكوس(revenues de douanes)وأجرة سك العملة للخواص، ويُقدر سنويا بحوالي000 400 دينار [2]أي ما بين 1500 و1800 كلغ من الذهب، وهو مبلغ يبدو فيه نوع من المبالغة، كما يظهر له، ويضيف أن معرفته في موضوع توزيع هذا الذهب، بين مختلف دول بلاد المغرب (royaumes Nord- africains) الأخرى توحي أن كميته فيها أقل من ذلك، والشيء الوحيد المؤكد، بالنسبة إليه، هو أن إصدار النقود، من وادي النيل إلى المحيط الأطلسي، وفي شبه الجزيرة الإيبيرية وفي جزء من بلدان المحيط الهندي كان موقوفا على الذهب الوارد إليها من بلاد السودان[3]

فالاتصالات بين بلاد المغرب وبلاد السودان، كانت موجودة، عبر الصحراء، قبل الفتح الإسلامي، وقد تكون التجارة هي أحد أهدافها غير أنه لم تكن لها أهمية إلا بعد الفتح.

وقد كانت مدن الشمال تحصل على ما تحتاجه من ذهب لسك عملتها من بلاد السودان وبالمقابل كانت تصدّر لها منتوجات فلاحية وصناعية، عن طريق محطات صحراوية معروفة هي:سجلماسة و وارجلان وغدامس وزويلة، وفي الصحراء كانت القوافل التجارية تتزوّد بأهم بضاعة كانت بلاد السودان بحاجة إليها،ألاَ وهي الملح الذي تفتقده تماما مع أنه ضروري جدًا للإنسان والحيوان في آن واحد، وكان يوفره لها عددُ من الملاّحات هي:توتـــك

---

(1) عن هذا الموضوع أنظر Lombard: les métaux, P.229;Mauny:op.cit,P.402 ؛ عما رواه ابن حوقل عن الطريق التي كانت في سالف الزمان مسلوكة، من مصر إلى غانة تواترت الرياح على قوافلهم فأهلكت الكثير منها و" قصدهم العدوّ فأهلكهم غير دفعة فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة(أنظر، صورة الأرض، ص61)؛وعن غارات جزولة ولمطة على الرفاق بوانزمين وأزجُونان (أنظر-المُغرب، ص 157) .

(2) op.cit,P.119 ؛ وكانت دور الضرب تأخذ واحدا بالمائة مما تسكه من عملة الخواص على مستوى كل العالم الإسلامي(أنظر زنيبر محمد: المرجع السابق، ص 177).

(3) Ibid, PP.119-120 .

وتاتنتال(تغازا) وإيجيل وأوليل، وكانت هذه البضاعة الأخيرة تبدل في بلاد السودان بنسب معتبرة من وزنها ذهبًا.

وكانت مختلف القوى السياسية في المنطقة تساهم بمختلف إمكانياتها في تنشيط هذه التجارة والاستفادة منها،قدر الإمكان، كما كانت تتنافس أحيانا في السيطرة على محطاتها الصحراوية وخاصة في العهدين الفاطمي والزيري، و لم يختف هذا التنافس إلاّ في ظل قيام الدولة الموحدية، في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي(6 هــ) وتمكّنها من توحيد بلاد المغرب سياسيا.

وبما أن الملح كان يشكل أهم البضائع المطلوبة في بلاد السودان على الإطلاق، آنذاك، مثلما تبين من خلال المراحل المختلفة للبحث، يمكن مقارنة أهميته بأهمية المحروقات في أيامنا، بحيث يعتبر كلاهما مصدرا رئيسيا للعملة الصعبة: الدولار أو الينّ أو الأورو وغيرها من العملات القابلة للتحويل والصرف التي تستخدم اليوم في المعاملات التجارية تماما كالذهب الذهب الذي كان يستخدم لنفس الغرض في الفترة التي يغطيها البحث من العصر الوسيط.

الخـــــــاتمة :

يتبين من هذه الدراسة التي قمت بها أن أغلب الجغرافيين و المؤرخين يعتـــبرون العقبــة الكبيرة أو الكبرى أو السلّوم الحد الفاصل، بين مصر غرباً، و بين بلاد المغرب شرقاً، و هي تحدّ مُراقية المصرية من ناحية شمالها الغربي، على الرّغم من انتشار السكان البربر، مختلطين بغـــيرهم، في المناطق الواقعة إلى الشرق منها.

و لا شك أن الخط المشكّل لحدودها الغربية و الذي يســـتمر امتـــداده إلى منخفـــض الوادي، بين واحة سيوة أو سنترية أو أمون، غربا، و وادي نترون، شرقا، هو نفسه الخط الذي يحدّ المغرب، من ناحية جنوبه الشرقي و مصر من ناحية جنوبها الغربي، بالرّغم كذلـــك، مـــن انتشار السكان البربر في الواحات الواقعة شرق سنترية، و هو ما ينسجم مع الخط الوهمي الذي رسمه ابن حوقل من الإسكندرية شمالا و أرض الصعيد مرورا بظهر (خلف) الواحات إلى بريـــة تنتـــهي إلى أرض النوبـــة جنوبـــا، ثم رسمـــه بعـــده بقليـــل و بكيفيـــة أدقّ الإصطخـــري (ت. بعد 340هـــ/ 951م)، حيث جعل امتداده بين الإسكندرية و برقة من حدّ بحـــر الـــروم (الأبيض المتوسط) حتى يمضي على ظهر الواحـــــات إلى بريّـــة (صحـــراء) تنتـــهي إلى أرض النوبة.

و ينسجم المؤرخون أكثر من الجغرافيين في تعيين حدود بلاد المغرب الشمالية، و هـــم، باستثناء، تردّد ابن عذاري المراكشي، مجمعون على تحديدها بالخط الســـاحلي لضفـــة البحـــر الأبيض المتوسط الجنوبية، و هذا الموقف المشترك يرجّح كفّة الجغرافيين الذين كانت لهم مواقف مشابهة، و بالتالي يمكن القول أنّ أغلب الجغرافيين و المؤرخين العرب يعتبرون حـــدود بـــلاد المغرب، من الناحية الشمالية مرسومة بخط السّواحل الجنوبية للبحر الأبيـــض المتوســـط، و لا تتجاوزها إلى الأندلس و لا إلى جزر البحر المذكور.

و يدعّم هذه النتيجة، بطبيعة الحال، العنصر الديموغرافي، بحيث أنّنا إذا طبّقنا القـــاعدة المعمول بها في رسم الحدود الشرقية و الجنوبية و التي يُراعى فيها العنصر البشري على اعتبار أن بلاد البربر (la Berberie) هي نفسها بلاد المغرب، فتُرسم حدود بلاد المغرب مع نهاية انتشار السكان البربر في نواحي بلاد المغرب، و منها الناحية الشمالية.

و المعروف تاريخيا، أن انتشار البربر شمالا، لم يتجاوز الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط، إلاّ بعد مساهمتهم الفعّالة في حركة الفتوحات الإسلامية، التي اتجهت إلى الأندلس و الجزر المتوسطية، بعد نهاية القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)،غير أن الأعداد التي استقرّت منهم هناك، كانت محدودة نسبيا، و يمكن القول إنهم لم يكونوا فيها ببلادهم.

أمّا من الناحية الجنوبية فإن معظم المصادر، عند تطرقها لموضوع الحدود، كانت تأخذ بعين الاعتبار الجانب العمراني، بحيث كانت تعتبر المدن الواقعة على مشارف الصحراء، كسجلماسة و وارقلان و غدامس و زويلة المحطات الأخيرة التي يتجمع فيها المسافرون، و بالأخص التجار، للتوغّل في الصحراء، و عبورها إلى بلاد السودان، و تمتدّ تلك الصحراء، على طول بلاد المغرب الجنوبية، من الشرق إلى الغرب.

و عند أخذ العنصر البشري بعين الاعتبار نجد أن تلك الصحراء كانت دائما مجالا للبربر من مختلف القبائل: يتجوّلون فيها طولا و عرضا، و لهم مراكز تجمع كثيرة كنغيرة الواقعة بالقرب من المحيط الأطلسي، جنوب موريطانيا الحالية، على بعد ست مراحل من نهر السّنغال، و أوّليل جزيرة الملح، الواقعة على مسافة مجرى (أي يوم واحد) من نفس النهر، و أَوْدَغُست التي تفصلها عن مدينة باريسَى السودانية اثنتا عشر مرحلة، و تادمكّة على الحافة الجنوبية للصحراء، في أدرار إيفوراس، على تسع مراحل من مدينة كوكو السودانية و كوّار، غرب كتلة تيبستي، في وسط الطريق الذي يربط بين فزّان، شمالا، و التّشاد، جنوبا، و أخيرا الواحات شمال- شرق كوّار.

مع العلم أن التواجد البشري البربري، شمال خط تادمكة- أودغست – نغيرة- أَوْليل، مؤكد أكثر منه في الخط الواقع شرق تادمكة و نواحي كوّار و الواحات، حيث يُلاحظ نوع من التداخل العرقي بين السكان البربر البيض و السكان السودان الزنوج، في مناطق كثيرة.

و في النهاية يمكن القول: إن حدود بلاد المغرب تبدأ من الناحية الشمالية الشرقية، عند بداية هضبة برقة، عند السلوم، و تتبع سواحل البحر الأبيض المتوسط، إلى مدينة سلا، في أقصى الناحية الشمالية الغربية، ثمّ تنعطف جنوبا، على طول سواحل المحيط الأطلسي، إلى موقع أوليل ثم تنعطف شرقا إلى أَوْدغُست فتادمكة فكوّار ثم الواحات في الناحية الجنوبية الشرقية لتعود إلى نقطة البداية، و هي السلوم.

و الذي يمكن قوله في أشكال تواجد الماء، على الطبيعة و حفظه و طرق استغلاله، في إطار بلاد المغرب، من بداية الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين، أن مناخ بلاد المغرب، لم يتغيّر تغيرا ملحوظا، منذ بداية الألفية الأولى، قبل الميلاد، على الأقل، و ما يتساقط بها من الأمطار يكون كافيا للزراعة، على السفوح الشمالية لجبال الأطلس، فقط، ثم تتقلص كمياتها كلّما سرنا نحو الدّاخل، بحيث أنّ معدّلها لا يزيد عن 200مم في السّنة، على بُعد 100 أو 150كلم من الساحل، و تسقط في الصحراء مُعَدّلات سنوية تدور حول 100 مم و أقل، في شكل عواصف مدمّرة، في أغلب الأحيان، و تتميّز أمطار بلاد المغرب بعدم انتظام سقوطها، و تكرار تعرّض البلاد للجفاف الذي يمتدّ أحيانا لسنوات عديدة.

و تصرف مياه الأمطار المتساقطة ببلاد المغرب في أنهار مناطق المناخ المتوسطي و أنهار مناطق الإستبس و الأنهار الصحراوية، و هي أنهار تكون غزيرة، وقت سقوط الأمطار، و جافة عندما تكون الحاجة ملحّة للرّي، و من ثمة فإن الجزء الأهم المستعمل للزراعة يعتمد، في ريّه على المطر في أغلب الأحيان، بالإضافة إلى تجهيزات مائية تقليدية متواضعة كالعيون و الآبار العادية و الأرتوازية و الفجّارات، و يمارس الريّ في الصحراء كذلك بتعويم مياه الفيضانات و استغلال مياه القلت و الغدران و إقامة سدود تقليدية على مجاري الأودية المؤقتة.

و قد كانت المصادر الجغرافية العربية، تشير دائما، تقريبا، إلى مواقع المدن و القرى، بالنسبة لموارد مياهها و خاصة منها الأنهار، مع إشارتها، عموما، و باختصار شديد، إلى ما كانت تلك الأنهار أو الوديان تفيد به السكان، في شربهم و شرب حيواناتهم و مزروعاتهم، لكنها لم تقدّم أيّة معلومات عن طرق استغلال ميّاهها، و لحسن الحظ فإن الكتب الفقهية، و بالأخص منها كتب النوازل، ملأت هذا الفراغ، فزوّدتنا بمعلومات إضافية عن الطرق التي كان الناس يستغلون بها تلك المياه.

فقد بيّنت كيفية تقسيم المياه القليلة التي لا تعلو للشرب (أي السقي) إلاّ بحبسها اعتماداً على مبدأ الأسبقية، و بقدر معلوم، أو بالتناوب أو بتقسيم فم النهر عرضا بخشبة بها ثُقُب مقدرة، حسب حق كل واحد منهم،أو أن يحفر كل واحد على وجه الأرض شربا مقدّرا، حسب اتفاقهم، و يراعى في التقسم: مساحة الحقل و عدد مُزارعيه، و أحيانا، بعده عن مصدر السّقي.

و عندما يتم جلب الماء من بعيد، يكون تقسيمهُ و أغراض استعماله، وفق عقود مبرمة، بين المستفيدين، و يكون هؤلاء على علم بحقوقــهم في الاســتفادة و واجبــاهم في الصيانــة و الكنس، وفق قواعد يحدّدها الشرع، و تأخذ بعين الاعتبار العادة و العُرف و تفضل الإنســان على الحيوان، و الحيوان على الزرع، و تبيح للاّحق الاستفادة من فضل ماء السابق، و عندمــا يكون نقص يتحمله اللاّحق، قبل السابق، و عادة ما تتكيّف تلك القواعــد مــع الظــروف المحلية.

كما كانت المصادر العربية تشير دائما، تقريبا، إلى العيون الموجودة في المدن أو القــرى التي تتعرّض لوصفها، دون إغفال الحديث عما تتميّز به كل واحدة منها، و من ذكر أهميتــها بالنسبة للمنطقة التي توجد بها.

و قد بيّنت الدراسات الحديثة كيفية تسرّب مياه الأمطار في التربة التي لها قابلية للنفــاذ، و تجمّعها في أماكن معينة تحت الأرض، فيما يُعرف بالمياه الجوفية التي تتنقّل، قــرب ســطح الأرض، لتنبع منه: إمّا تلقائيا و إمّا بمساعدة الإنسان الذي قام باستنباطها بخبرة تعــبّر عنــها مهارته في إنجاز الفجّارات بمناطق صحراوية كثيرة، و السيطرة على تقنياتها المعقدة، في الفــترة المخصصة لهذا البحث.

و قد بيّنت الأحكام الشرعية المطبقة، على مستوى دار الإسلام، بما فيه الكفاية، طــرق استغلال مياه العيون، بوضوح كامل، و هي تعتمد في أساسها على القرآن و السنة لكنــها لا تتغاضى، إطلاقا، على الأعراف الجارية، محليا، بين سكان منطقة معينة، بحيــث أن الفقــهاء، كانوا، دائما، يأخذونها في الحُسبان، لإصدار أحكامهم في مختلف التراعات القائمة بين الناس في شأن ماء العيون.

و كثيرا ما ذُكرت الآبار هي الأخرى، في المصادر العربية إلى جانب العيون، و كثيرا ما ذكرت، أيضا: بمعزل عنها، و عادة ما كانت تذكر نوعيّة مياهها و مدى صلاحيتها للشــرب، و ما كانت توفّره للزراعة من ريّ، خاصة في المناطق شبه الجافة و في الصحراء.

و تتميز البئر عن الحاسي أو الحسي أو العين بعمقها الكبير، و هي تحتاج إلى رفع مائــها مثل الحاسي، عكس العين التي يسيل ماؤها على الأرض؛ أمّا الآبار الأرتوازية التي يصل عمقــها إلى الطبقة المائية الجوفية، فإن مياهها تصعد بفعل الضغط، لتسيل على ســطح الأرض كميــاه العيون. و الآبار العادية هي التي لا تنبعث مياهها بفعل الضغط، إلى سطح الأرض، و من ثمــة

كان على الإنسان أن يخترع آلات تساعده على استخراجها لغرض استغلالها، و هذا ما فعله، و من الآلات التي كانت معروفة في بلاد المغرب خلال الفترة التي يشملها البحث: الدولب أو الدولاب و الخُطارة أو الأنجقة أو الأنجفة و الساقية .

و قد اهتمت الدراسات الحديثة بموضوع آلات الري التقليدية الخاصة باستخراج مياه الآبار، و التي كانت مستعملة قديما، و استمر العمل بها في أيامنا بمناطق كثيرة من بلاد المغرب، و من خلال الاطلاع عليها يمكن تكوين فكرة تقريبية عن الآلات التي كانت تستخدم في العصر الوسيط.

مع ملاحظة أن الأحكام الشرعية بينت، بوضوح، شروط ملكية الآبار و كيفية الانتفاع بمائها، مرجحة، بصراحة تامة، المصلحة العامة عن الخاصة، و الإنسان عن الحيوان، و الحيوان عن الزرع. و لا بد من الإشارة إلى ما كانت الآبار تلعبه من دور معتبر في كل من الحياة التجارية و العسكرية ببلاد المغرب في الفترة المخصصة لهذا البحث.

و قد كانت وسائل توصيل المياه و تخزينها، بسيطة و قليلة، في المنطقة المحصورة بين برقة و تونس، باستثناء المنشآت التي كانت موجودة في قرطاجة، منذ العهد الروماني.

أما القيروان و منطقة مزاق (Byzacéne) ، فقد عرفت فيها تلك المنشآت تطورا ملحوظا، منذ خلافة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/ 724-743م)، بتقنيات محلية متطورة و خاصة في عهد الأغالبة الذين طبقوا سياسة مائية ناجحة، تمكنوا، بفضلها، من ترقية وضعية دولتهم الإقتصادية.

غير أن المناطق الوسطى و الغربية من بلاد المغرب، على ما يبدو، لم تعرف تطورا مماثلا إلا في العهد الموحدي الذي ترك لنا مخلفات أثرية تدل على ما بذلوه من جهد كبير في مجال الإنجازات الخاصة بوسائل نقل الماء و تخزينه.

مع العلم أن المصادر و المراجع العربية و الأجنبية منها، على السواء، تخلط بين مصطلحات تجميع المياه و تخزينها، إذ قلما نجد منها من يميز بين الصهريج و الماجل و الجب، و قد ترجم كل منها بـ citerne وréservoir و bassin في آن واحد.

و كان التصرف في مياه هذه التجهيزات خاضعا هو الآخر، للأحكام الشرعية و الظروف المحلية، مثلها في ذلك، مثل مياه الأنهار و العيون و الآبار التي كثيرا ما كان الناس يتعاملون بها كبضاعة من البضائع التجارية: تباع و تشترى و ترهن وتحبس و تقترض؛ و من

أنماط التعامل المعروفة فيها " تجارة الماء " التي كانت لها قواعد خاصة لضبطها. و كان مـــالك الماء يتحمل على عاتقه مسئولية ما عسى أن ينجم عنه من أضرار.

و لكي يكون موضوع الموارد المائية و طرق استغلالها ببلاد المغرب، من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين، كاملا،تطرّقت فيه لأشياء يتوقف وجودها على الماء كالأسماك الـــتي لا يمكنها العيش خارجه و الملح الذي يستخلص مما تحمله مياه الفيضانات إلى الأحواض المغلقــة المشكلة من طبقات أرضيّة غير منفذه و من البحار.

و فيما يخصّ تواجد الأسماك ببلاد المغرب يمكن القول أن أصلح المناطق لعيشها كـــانت و ما تزال هي المناطق الواقعة شرق مدينة عنابة، من السواحل المتوسطية، و كذلك في ســواحل المحيط الأطلسي، و هذا لا يعني أنها كانت معدومة في السواحل الأخرى، بل كـــانت متوفّـــرة فيها، هنا و هناك، و لكن بدرجة أقلّ، كما كانت تعيش في بعض الأنهار و البحيرات الدّاخليــة بل حتى في المناطق الصحراوية.

و كان صيد الأسماك ممارسا في أماكن كثيرة من سواحل بـــلاد المغــرب المتوســطية و الأطلنطية و كذلك في الأنهار و البحيرات الدّاخلية و حتى في بعض المناطق الصحراوية بطرق مختلفة، و كان هناك تشريع خاص بهذه العملية، لا يعرف إلى أي حدّ كان مطبقا، و كـــانت صناعة التمليح و التجفيف قائمة في جهات كثيرة، من هذه المنطقة، منذ العهد الفنيقـــي، ممـــا ساعد على تصدير عدّة أنواع من الأسماك إلى المناطق الدّاخلية و حتى إلى الخارج، و بـــالأخص المرجان، بعد تصنيعه.

أمّا الشيء الثاني، و هو الملح و الذي يتكوّن عادة في الأحواض المغلقة و فيه أصنـــاف متعدّدة و استعمالات كثيرة و حكمه الشرعي كحكم المعادن، و هو موجود و مستغل، محليــك في كل المناطق الواقعة شمال الصحراء، و لكن معادنه المعروفة في الصحراء، في فترة ما بين الفتح الإسلامي لبلاد المغرب و بين سقوط دولة الموحدين، لا تتجاوز بضعـــة ملاّحـــات يـــتركّز وجودها غرب ما صار يعرف بخطّ غرينويتش و هي: ملاحات أُولِيـــل و تاتنتـــال (تغـــازا) و إيجيل و توتك؛ أمّا في شرق الخط المذكور فلا تتحدّث المصادر عن وجوده مما لا يعني أنه غير موجود في مناطق كثيرة و لا غير مستغل بدرجة تقترب من درجـــة اســـتغلاله في النواحـــي الغربية.

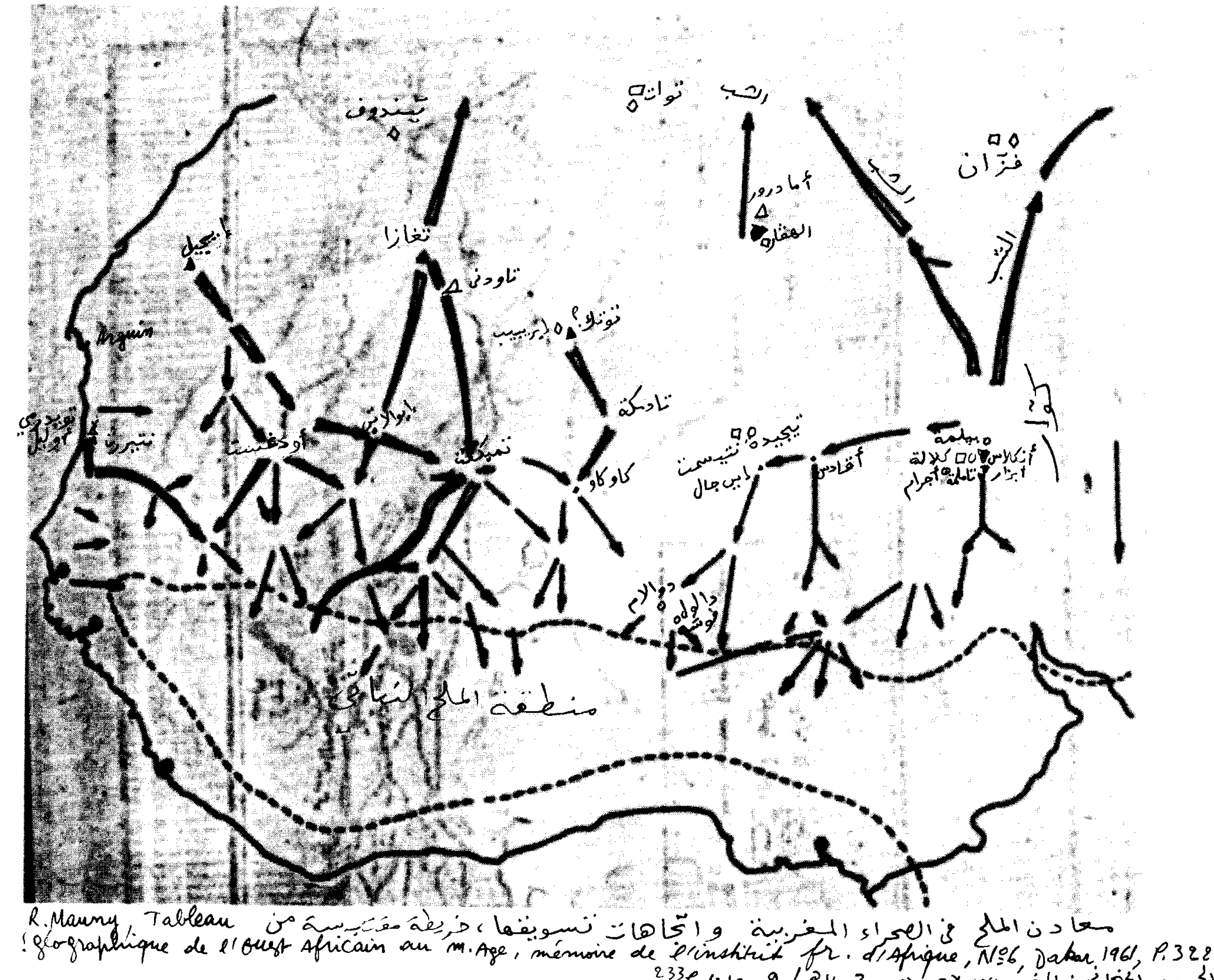
و كانت الاتصالات بين بلاد المغرب و بين بلاد السودان موجودة، قبل الفتح الإسلامي، و قد كانت مدن الشمال تحصل على ما تحتاجه من ذهب، لسك عملتها، من بلاد السودان، و بالمقابل كانت تصدّر لها منتوجات فلاحية و صناعية، عن طرُق محطات صحراوية معروفة، هي: سجلماسة و وارجلان و غدامس و زويلة، و في الصحراء كانت القوافل التجارية تتزوّد بأهم بضاعة، كانت بلاد السودان بحاجة إليها ألا و هي الملح الذي تفتقده، تماما، مع أنّه ضروري جدًّا للإنسان و الحيوان، في آن واحد، و كان توفره لها الملاحات الصحراوية المذكورة، و كانت هذه البضاعة الأخيرة تبدل في بلاد السودان بنسب معتبرة من وزنها ذهباً.

و كانت مختلف القوى السياسية في المنطقة تساهم بمختلف إمكانياتها في تنشيط هذه التجارة و الاستفادة منها، قدر الإمكان، كما كانت تتنافس، أحيانا، في السيطرة على محطاتها الصحراوية، و خاصة في العهدين الفاطمي و الزيري، و لم يختف هذا التنافس إلا في ظل قيام الدولة الموحدية، في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي (6هـ) و تَمكّنها من توحيد بلاد المغرب سيّاسيا.

و بما أنّ الملح كان يُشكل أهم البضائع المطلوبة في بلاد السودان، على الإطلاق، آنذاك، يمكن مقارنة أهميته بأهمية المحروقات في أيامنا، بحيث يعتبر كلاهما مصدرا رئيسيا للعملة الصعبة، ~~تماما كالذهب الذي كان يستخدم لنفس الغرض في الفترة التي يغطيها البحث من العصر الوسيط.~~

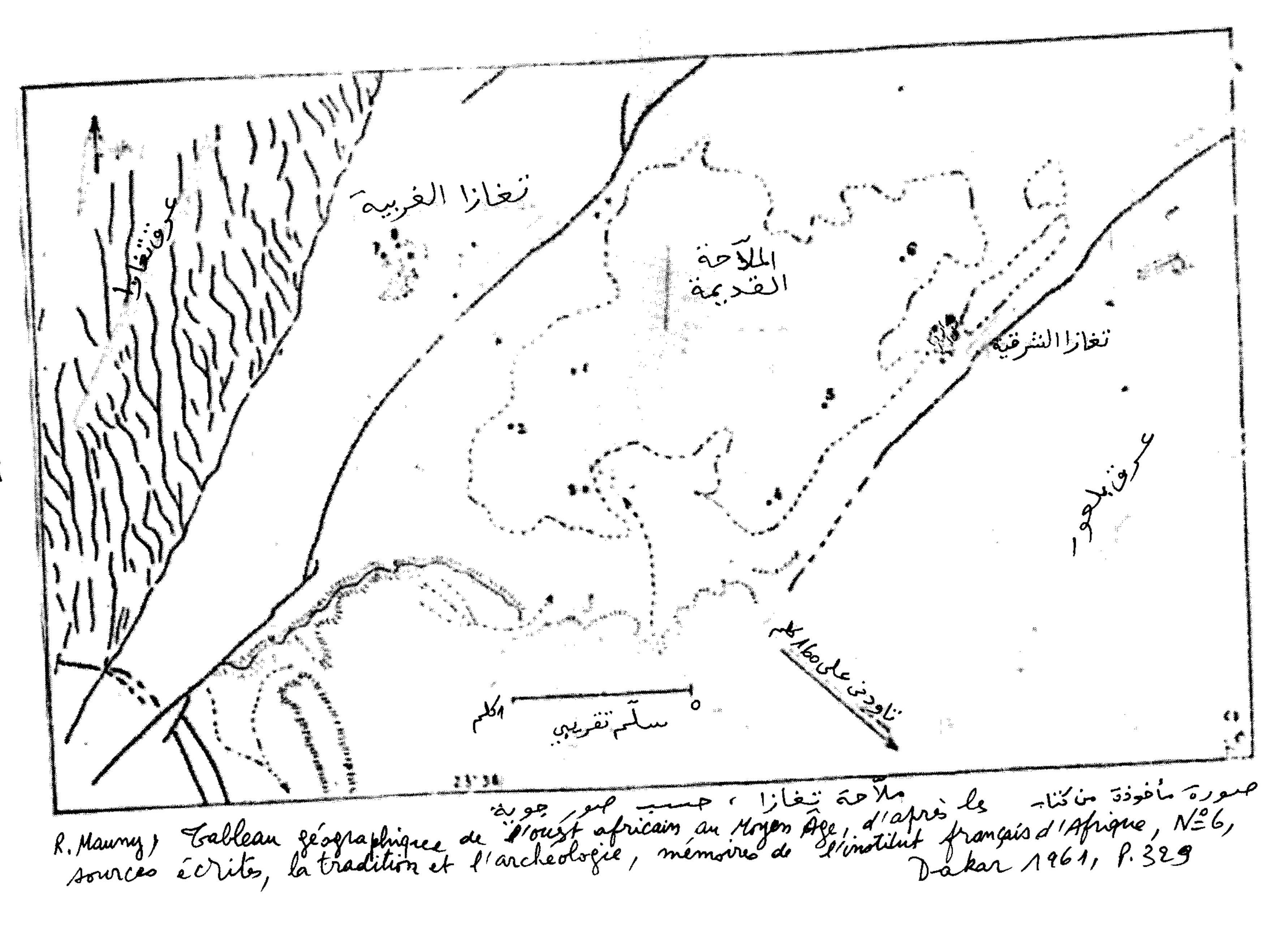
صور و خرائط الباب الرابع

الخريطة رقم 13



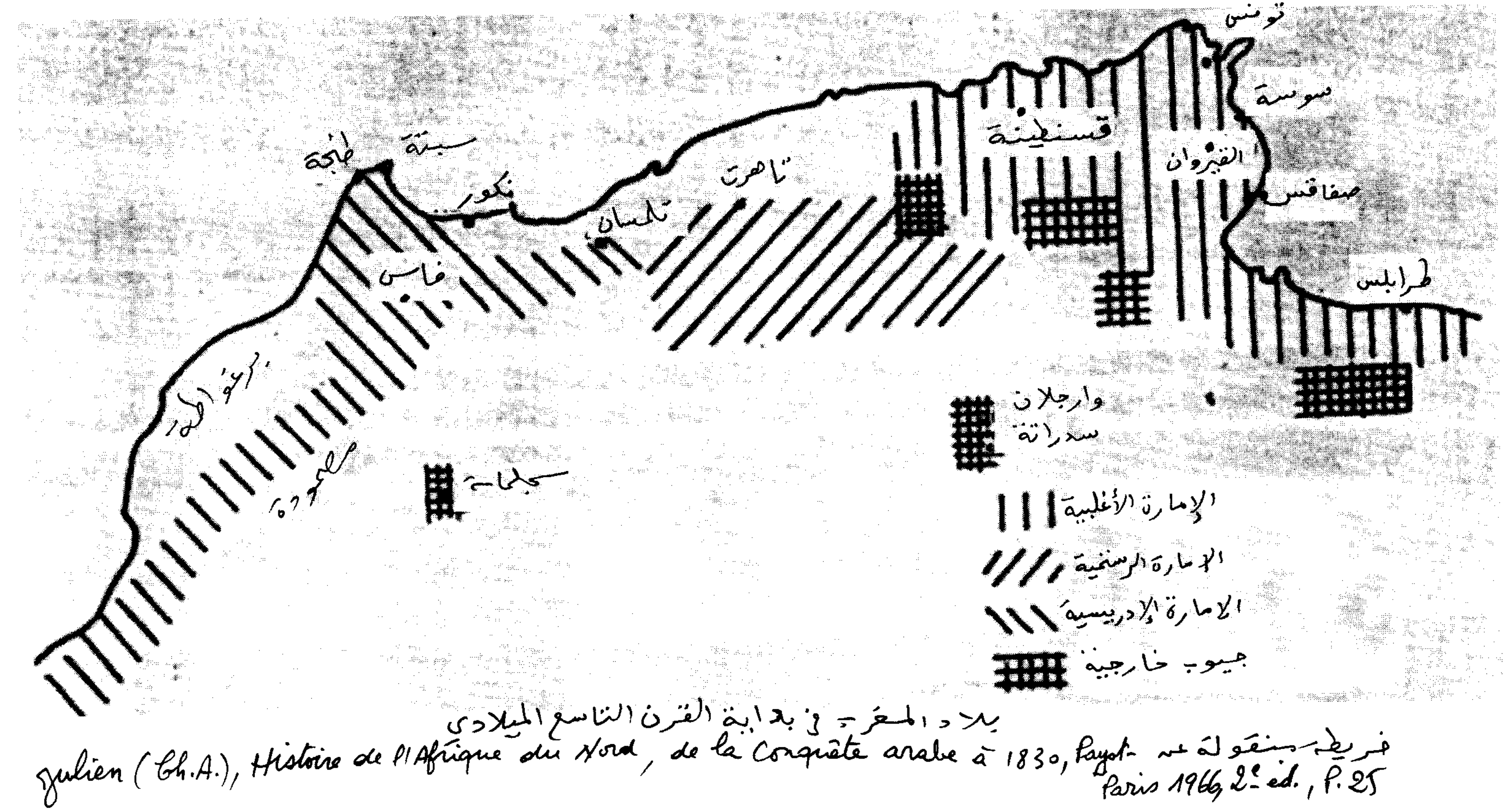
معادن الملح في الصحراء المغربية واتجاهات تسويقها، خريطة مقتبسة من: R. Mauny Tableau géographique de l'Ouest Africain au M. Age, mémoire de l'Institut fr. d'Afrique, N° 61, Dakar, 1961, P. 322.
الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي (ق. 3-4 هـ / 9-10 م) ص 233

الخريطة رقم 14



ملاحة تغازا، حسب صور جوية، صورة مأخوذة من كتاب R. Mauny, Tableau géographique de l'ouest africain au Moyen Âge, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, mémoires de l'institut français d'Afrique, N°6, Dakar 1961, P. 329

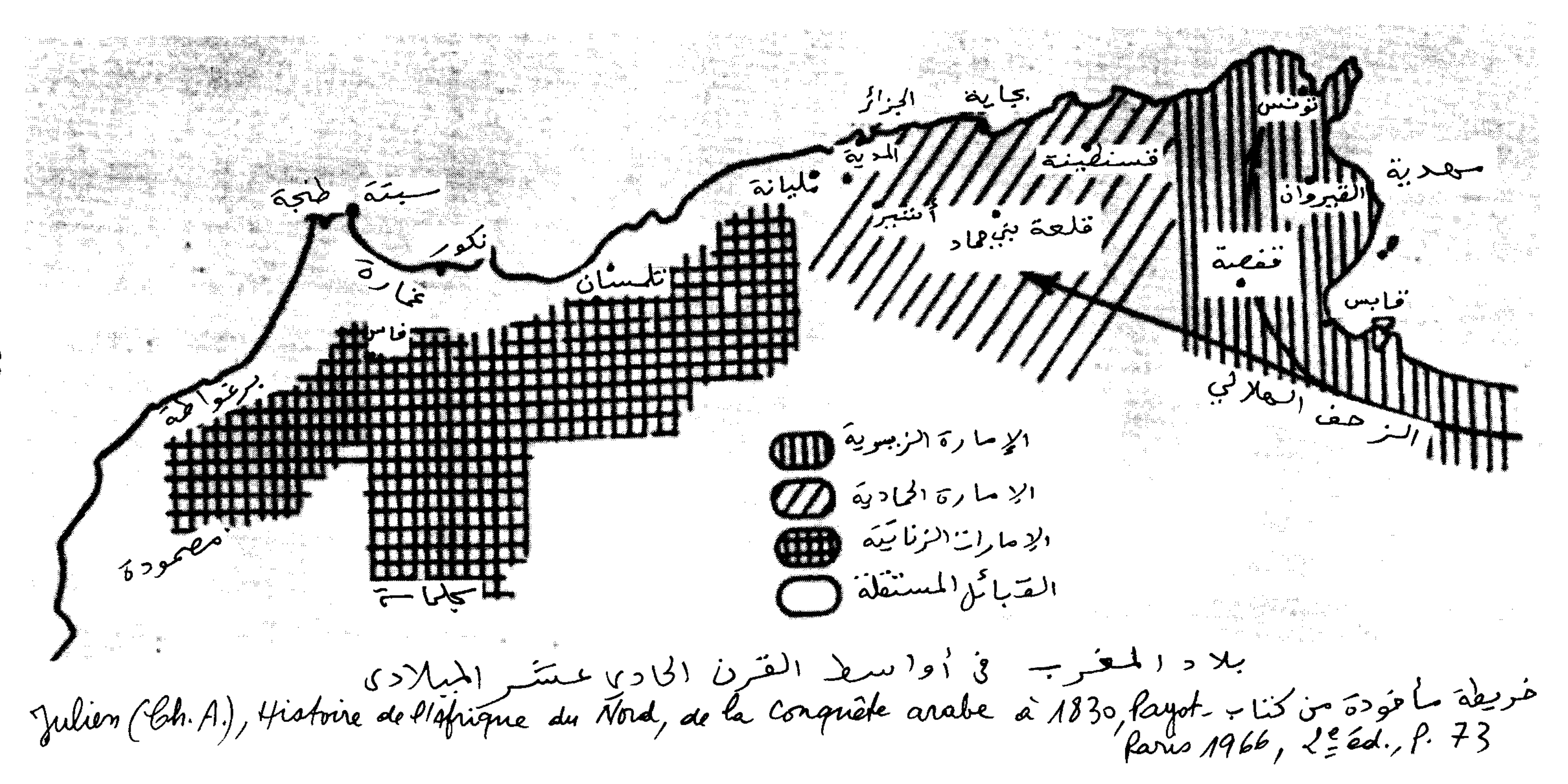
الخريطة رقم 15



بلاد المغرب في بداية القرن التاسع الميلادي

خريطة منقولة عن Julien (Ch.A.), Histoire de l'Afrique du Nord, de la Conquête arabe à 1830, Payot Paris 1966, 2e éd., P. 25

الخريطة رقم 16



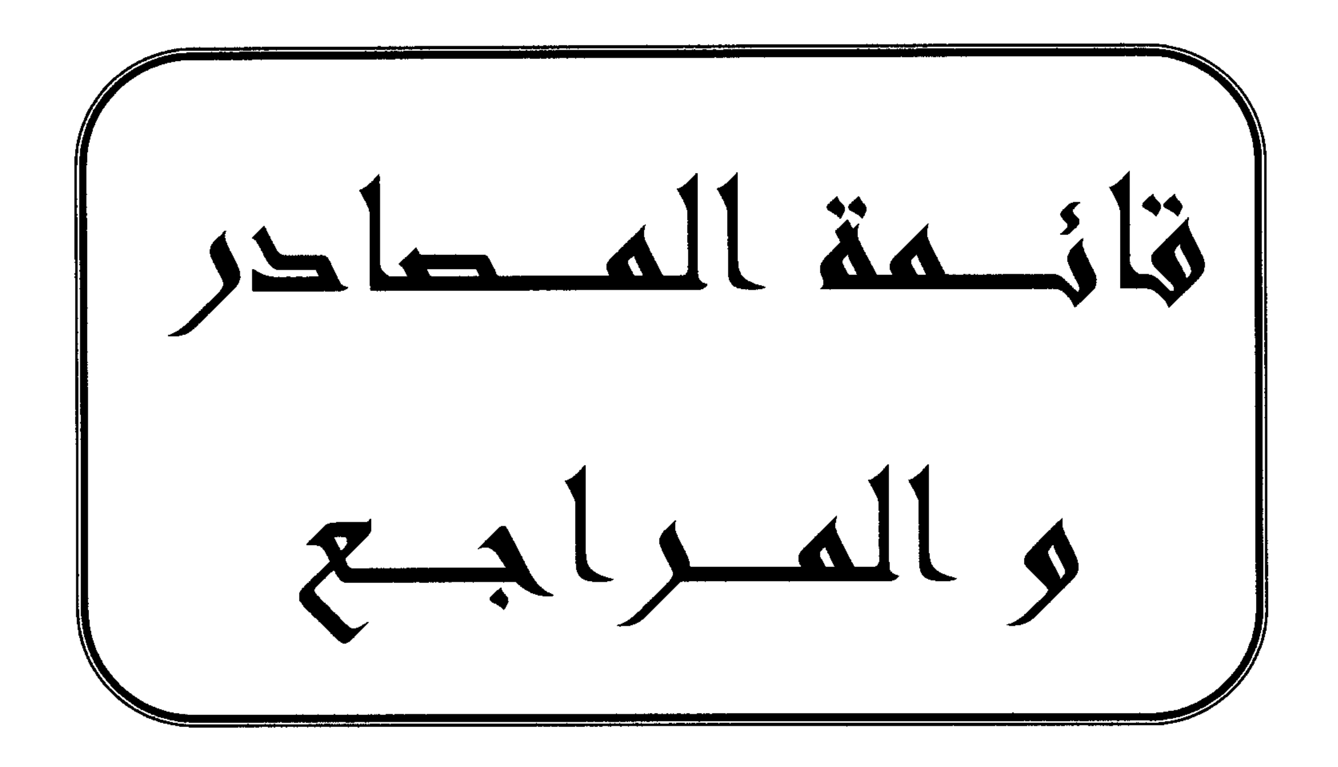
بلاد المغرب في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي

خريطة مأخوذة من كتاب Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du Nord, de la conquête arabe à 1830, Payot- Paris 1966, 2e éd., p. 73

الفهارس

فـــهرس الأعـــلام

فهرس المصطلحات الجغرافية


قائمة المصادر
والمراجع

قائمة المصادر والمراجع العربية

- ابن الأخوة(محمد بن محمد بن أحمد القرشي(ت.729هـ/1329م):معالم القربة في أحكام الحسبة، عنى بنقله وتصحيحه روبن ليوى،ط.كمبرج .1937
- الادريسي(أبو عبد الله الشريف(548هـ/1154م): القارة الافريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق وتقديم وتعليق اسماعيل العربي،الجزائر 1983.
  - المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق للادريسي، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق،الجزائر 1983.
-الإصطخري(أبو اسحاق ابراهيم-وضع كتابه حوالي 318-321هـ/930-931م:كتاب المسالك والممالك،وهو معول على كتاب صور الإقليم للبلخي،ط.ليدن 1967.
-بحاز ابراهيم بكير:الدولة الرستمية(160-296هـ/777-909م)،دراسة الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية،ط. 1985.
-البُرزلي(أبو القاسم بن أحمد بن محمد): جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا بالمفتين، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 1333
-بشاري لطيفة:التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 1406-1407هـ/1986-1987م.
-ابن بطوطة(ت.1377):رحلة ابن بطوطة المسمّاة تحفة الناظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،دار الكتاب اللبناني،مكتبة المدرسة.
- أبو بكر محمد بن محمد بن محمد(ت.829 هـ):شرح أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المالكي المتوفي 1072هـ وبالهامش حاشية أبي علي الحسن بن رحال المعداني المتوفي سنة 1140 هـ،المجلد الأول، ضبطه وصححه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن،المجلّد الأول،دار الكتب العلمية بيروت- لبنان 1420 هـ/2000م
-البكري(أبو عبيد،ت 487هـ:المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب،وهو جزء من كتاب المسالك والممالك،ط.بغداد.
-البلاذري(أحمد بن يحي بن جابر،ت.حوالي 279):كتاب فتوح البلدان،القاهرة 1956

- الثميني(الشيخ ضياء الدين عبد العزيز،ت.1223هـ):كتاب النيل وشفاء العليل، صححه وعلّق عليه بَكْلي عبد الرحمن بن عمر،ط.1387هـ/1968،وهو اختصار من كتاب الإيضاح للشيخ أبي ساكن عمر بن علي الشماخي(ت.792 هـ)
-جبور عبد النور وسهيل إدريس:المنهل،قاموس فرنسي-عربي،دار الآداب،بيروت،يونيو 1970
-الجنحاني(الحبيب):المغرب الإسلامي،الحياة الاقتصادية والاجتماعية (ق.3-4هـ/9-10م)، الدار التونسية للنشر-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر.
-جودت عبد الكريم يوسف:العلاقات الخارجية للدولة الرستمية،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1984.
-حسن حُسني عبد الوهاب:ورقات الحضارة العربية بإفريقية التونسية،القسم الثالث،جمع محمد العروسي المطوي،تونس 1972
-ابن عبد الحكم(ت.257هـ/871م):كتاب فتوح إفريقية والأندلس،نشره وترجمه إلى الفرنسية Albert gateau الجزائر 1948.
-ابن حماد(أبو بد الله محمد الصنهاجي،ت.626هـ/1230م):أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي،الجزائر 1984
-ابن حوقل(عاصر الاصطخري،قابله سنة 340هـ/951-952م):صورة الأرض،ط.بريل 1967.
-ابن خلدون(عبد الرحمن):كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ط.بيروت 1959.
- مقدمة،وهي الجزء الأول من كتاب العبر،ط.المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
-خليل بن إسحاق:المختصر في الفقه،النص العربي مرفوق بترجمة فرنسية لـ: N.seignette قسنطينة 1878م.
-ابن أبي دينار القيرواني(عاش آواخر القرن الحادي عشر الهجري): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس،تحقيق وتقديم محمد شمام،المكتبة العتيقة، تونس.
-ابن رُشد(أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي،ت.520هـ: مقدمات ابن رشد لبيان ما اقتضته المدوّنة من الأحكام،في سحنون بن سعيد التنوخي:المدوّنة الكبرى للإمام مالك بن أنس الأصبحي،نشر دار الفكر بيروت 1406هـ/1986م

-بداية المجتهد ونهاية المقتصد جـــ.1،نشر دار اشريفة 1409هـــ/1989م
-رضا (يوسف محمد رضا):الكامل الكبير،قاموس اللغة الفرنسية الكلاسيكية المعاصرة والحديثة فرنسي عربي،مكتبة لبنان،ناشرون-بيروت 1996.
-الرقيق القيرواني(ق.5هـــ)تاريخ إفريقية والمغرب،تحقيق المُنجي الكعبي،نشر رفيق السيقيطي تونس.
-ابن عبد الرؤوف: رسالة أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف في آداب الحسبة والمحتسب في ثلاث رسائل أندلسيّة، في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق إ.ليفي بروفانسال القاهرة 1955.
- ابن أبي زرع الفاسي(أبو الحسن علي بن عبد الله):كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط.UPSALIAE، 1943.
-سعد زغلول عبد الحميد:تاريخ المغرب العربي،من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال(ليبيا-تونس-الجزائر والمغرب)،الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية جلال حزّي وشركـــاه، 1995،4 أجزاء.
-زنيبر محمد:تجارة القوافل في المغرب،في تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،معهد البحوث والدراسات العربية،بغداد 1404هـــ/1984م.
-الزهري(أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت.في منتصف القرن 6 هـــ/12م):كتاب الجغرافية تحقيق محمد صادق نشره L'institut français de Damas ,Bulletin d'études orientales,T.XXI,année 1968
-ابن أبي زيد القيرواني(ت.386):متن الرسالة، نشر مكتبة النهضة،الجزائر.
- سحنون بن سعيد التنوخي(ت.240هـــ)المدوّنة الكبرى للإمام مالك بن أنس الأصبحي، رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن الإمام عبد الرحمن ابن قاسم، نشر دار الفكر بيروت 1406هـــ/1986م.
-السر سيد أحمد العراقي:تجارة القوافل،بين شمال وغرب إفريقيا وأثرها الحضاري، في تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد 1404 هـــ/1984م

-ابن سعيد المغربي:كتاب الجغرافيا[تمّ تأليفه 721-723هـ/1231-1233م]، تحقيق إسماعيل العربي،الجزائر 1982.
- الشعراوي(محمد متولي):قصص الأنبياء،جمع المادة العلمية منشاوي غانم جابر، كتب الحواشي وراجعها،توزيع دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،جـ.2.تفسير الشعراوي،ط.أخبار اليوم،المجلد 11.
-الشيخ الأمين عوض الله:تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي، في تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد 1404 هـ/1984م.
-طالبي محمد:الدولة الأغلبية(184-296هـ/800-909م): التاريخ السياسي، نقله إلى العربية المنجي الصيّادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985.
-العبدري(محمد البلنسي):الرحلة المغربية، قام بها سنة 688 هـ، تحقيق أحمد جدّو، نشر كلية الآداب الجزائرية.
-ابن عبدون: رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، في ثلاث رسائل أندلسية، في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق. إ.ليفي بروفنسال، القاهرة 1955
-ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ح-س كولان ومراجعة إ. ليفي بروفنسال،ط.بيروت.
-أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني(ت.333هـ/944م): طبقات علماء إفريقية وتونس، تقديم وتحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر 1968
-عز الدين أحمد موسى:النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، خلال القرن السادس الهجري،دار الشروق بيروت-القاهرة 1403هـ/1983م
-العقباني(أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني،ت871هـ/ 1467 م:كتاب تحفة الناظر وغيبة الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر تحقيق على الشنفي Bulletin d'études orientales ,institut français de Damas , 1967 1966,T.XXI,année

-العُمري(ابن فضل الله،ت.749 هـ/1349م): وصف افريقية والأندلس(أواسط القرن الثامن الهجري 14 م، مقتطف من مسالك الأبصار وممالك الأمصار، نشر وتعليق حسن حسني عبد الوهاب Les cahiers de Tunisie,T.XXI,n° 81-82, 1 er et 2 eme trimestre 1973

-بن عميرة محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984

-فخار إبراهيم: تجارة القوافل في العصر الوسيط ودور التجار الليبين في حضارة الصحراء الكبرى ، تجارة القوافل ودورها الحضاري في نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، معهد البحوث و الدراسات العربية،بغداد 1984/1404م

-أبو الفداء (السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل): كتاب تقويم البلدان (تم تأليفه سنة 721هـ/1321م)،طبع و تصحيح رينود والبارون ماك كوكين دوسلان، باريس 1840

- الفراء (أبو يعلى محمد الفراء الحنبلي،ت458هـ)ك الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي، مصر 1356هـ/ 1938م

-الفقي(الحبيب)و آخرون ، في القاضي النعمان بن محمد: كتاب المجالس و المسايرات، تحقيق الحبيب الفقي و آخرون، تونس 1978.

- القزويني(زكرياء بن محمد بن محمود،ت . 682هـ 1283):آثار البلاد و أخبار العباد،ط دار صادر، بيروت

-لقبال موسى: الغرب الإسلامي، منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج، سياسة ونظم ،ط .أولى، مطبعة قسنطينة 1969

-دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري 11م،الجزائر 1979.

- المازري (الغمام أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر ،ت 536هـ/ 1141م): المعلم بفوائد مسلم،تقديم و تعليق محمد الشاذلي النيفر، ط الثانية،دار الغرب الإسلامي ،بيروت 1992

-فتاوي المازري، تقديم وجمع و تحقيق الطاهر العموري، تونس 1994

-المازوني (أبو زكريا يحيى بن أبي عمران...الماغلي، ت.883): الدرر المكنونة في نوازل مازونة مخطوط بالمكتبة الوطنية ،الجزائر، رقم 1335،جـ.1-2

- مالك بن أنس.179: متن مُوطَأ الإمام مالك، رواية يحي بن يحي الليثي، نشر دار الكتب،الجزائر.

-المالكي(أبو عبد الله بن أبي عبد الله.ت.453هـ): كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضلائهم و أوصافهم، نشره حسين مونس، القاهرة1951

-الماوردي(علي بن محمد حبيب،ت.450هـ) الأحكام السلطانية و الولايات الدينية ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر 1983

-المجيلدي (أحمد بن سعيد، ت 1094:كتاب التيسير و أحكام التسعير، تقديم و تحقيق موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-الجزائر

- اللواء محمد مختار باشا: كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسّنين الإفرنكية والقبطية، من سنة 1 إلى سنة 750هـ، مجلدان المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط.الأولى 1400هـ/1980م

-المراكشي(عبد الواحد):المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،تم تأليفه سنة 621هـ ضبطه وصححه و علق عليه،و أنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1368هـ/ 1949م

- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف و الملوك،مج.1،ج.1 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،ط الرابعة، مصر 1384هـ/1964

-مؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن عشر الميلادي: كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار و عبد القادر زمامة،ط الدار البيضاء.

-مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر النص العربي Alfred de Kremer ،ط. فيينة 1852

- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين) لسان العرب، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط،ط.بيروت 1988

- مؤنس حسين:تاريخ المغرب وحضارته، من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، من القرن السادس إلى القرن السادس عشر الميلاديين، 2 مج، 4أجزاء، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان 1412هـ-1992م.
-القاضي النعمان بن محمد المغربي (ت.363هـ/974م):كتاب الاقتصار، تحقيق محمد وحيد ميرزا، نشره المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 1376هـ/1957م
-دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام من أهل بيت رسول الله عليهم أفضل السلام،تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف بمصر 1379هـ/1960م.
-كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح ومحمد البعلاوي، تونس 1978
-الوسياني(أبو الربيع، عاش من 550 إلى 600هـ)سير مشائخ المغرب، تحقيق وتعليق ، إسماعيل العربي،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر 1985
-الونشريسي (أحمد بن يحي،ت.914):المعيار المُعْرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب،خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف د. محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي،بيروت 1401هـ/1981
-يحي بن عمر الأندلسي(ت.289 هـ/901م):كتاب أحكام السوق، تقديم وتحقيق محمد علي مكّي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الرابع،العدد 1-2 1375هـ/1956م
-ياقوت الحموي:معجم البلدان،نشره أحمد الشنقيطي،1323هـ/1906م
-اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب)كتاب البلدان،ط.ليدن 1967.

قائمة المصادر التي نشرت بالعربية وترجمت إلى الفرنسية

-Ibn Val'Acim-Maliki al-gharnati(m.829^{h}/1426 J.C):Al-Açimiga ou Tuhfat al-Hukkam fi-nuktat al-uqoud wal ah'kam, édité, traduit et annoté par Léon Berber, Alger 1958

-Abu Hamid Andalousie, àdjâ'ib el makhloukāt, dans extraits relatifs au Maghreb, traduits de l'arabe et annotés par E.Fagnan, Alger 1924.

-Ibn el-Athir :Annales du Maghreb et de l'Espagne, traduit par E.Fagnan dans revue africaine n° 223, 1896 ;224,1897 ;n°225,1897 ; 226 ,1897 ; 227,1897 ;228,1898 ;-230,1898 ;231 ,1898 ;232,1899 ;233-234,1899 ;237,1900 ;238-239,1900 ;240,1901 ;241-242,1901.

-E.Fagnan : L'Afrique septentrionale au XII siècle de notre ère, description extraite du kitab-el-istibçar(écrite en 587 h/1191 traduite par E.Fagnan, Constantine 1900

-Ibn Faqih al-Hamadani, extrait du kitab al-Buldân, dans description du Maghreb et de L'Europe au III e= IXe siècle, texte arabe et traduction française par Hadj sadak Mahammad,Alger 1949.

-Ibn Ábd al-Hakam(m.257/871) :Conquête de L'Afrique du Nord et de L'Espagne, texte arabe et traduction française, 2eme èd, revue et augmentée par Albert gâteau.

-Ibn –Khaldoun : Histoire des berbères et des dynasties musulmanes de L'Afrique septentrionale , traduite de L'Arabe par le Baron de Slane, Paris 1978.

-Ibn Khurra dādhbih : Description du Maghreb et de L'Europe au IIIe =IXe siècle, extrait du Kitab al-Massalik wa'l-mamalik, texte arabe et traduction française par Hadj- sadak Mahammad, Alger 1949

-Mauwerdi (Abou l- Hassan Ali) : les statuts gouver mentaux ou règles du droit public et administratif, traduits et annotés par E.Fagnan, Alger 1984.

-Merràkechi Abd el-Wahib : L'histoire des Almohades, traduite par E.Fagnan, dans Revue africaine 1893, n° 208-209

-Monteuil V. :Al-Bakri, Routier de L'Afrique Blanche et Noire dans Bulletin de L'I.F.A.N, T.XXX, série B, n° 1, 1968.

-Al-Muqaddasi (m.vers 390 h/1000) : Description de l'occident musulman au IVe= Xe siècle, texte arabe et traduction par Charles Pellat, Alger 1950.

-En-Nouweiri (14e – siècle) : Conquête de L'Afrique septentrionale par les musulmans et histoire de ce pays sous les émires Arabes, traduit par le baron de slane, dans Ibn Khaldoun : Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de L'Afrique septentrionale, T.1 , Paris 1968, appendice.

-Omari Ibn Fadl Allah : Massalik et Absar fi mamalik el-Amsar, T.1 traduit et annoté avec une introduction et 5 cartes par gaudefroy-Demonbynes, Paris 1927.

-Ibn Saïd gharnati(Ali ben Moussa b.Mohamed,m.en 673ou685) :Kitab el-Bedï, dans E.Fagnan ,extraits relatifs au Maghreb, traduits de l'arabe et annotés par E.Fagnan, Alger 1924.

-Ibn said al-gharnati (ou encore al-Maghribià , dans J.M.Cuoq, Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIIIe au XVe siècle, traduction et notes par J.M .Cuoq, Paris 1975.

-As-Sakaṭi de Malaga (Abu Abd Allah Muhammad b.Abi Muhammed, fin 11ème début 12ème siècle) : Un manuel hispanique de la hisba, texte arabe publié avec une introduction , des notes linguistiques, un glossaire en une traduction française, Hesperis, T.XXI, Paris, 1931.

-Mac guckin de slane : Description de L'Afrique septentrionale par Abou-Obeid el-Bekri, traduit par Mac Guckin de slane, Paris 1965.

-Yakut (617 h/ sep.1220)Mu'adjam al-buldān, dans recueil des sources arabes concernant L'Afrique occidental du VIIIe au XVIe –siècle, traduction et notes par Joseph M.Cuoq, Paris 1975.

-IBN Zenbel(Ahmed b.Ali Mahallabi) , il vivait au Xe siècle de L'hégire, Tohfat el-Molouk , extraits relatifs au Maghreb , traduits de L'Arabe et annotés par .E.Fagnan, Alger 1924.

-Jean Léon l'africain (m.en 1552 à Tunis) : Description de L'Afrique, n elle édition, traduit de l'italien par A.Epaulard et annoté par A.Epaulard, Ch.Monard, H.Lhote et R.Mauny, Paris, 1980.

قائمة المراجع باللغة الفرنسية

-Ch.Alain : les citernes et les Margelles de sidi Bou-othmane, Hepéris, T.38 , année 1951, 3 et 4 trimestre.

-Basset Henri : Un aqueduc almohade à Rabat, Revue africaine, soixante quatrième année, N° 316-317 , 3e et 4e trimestre 1923.

-Bercher (Léon) dans Ibn Ácim. al-gharnati (m.829/1426) : Al Ácimiyya ou Touh'fat alHukkam fi-nukt al uqoud Wa'l ah.kam, édité, traduit et annoté par Léon Bercher, Alger 1958

-Borrel (A) : Les pèches sur la côte septentrionale de la Tunisie, Presses Universitaires de France, Paris 1956.

-Brunshivig (R) Conception monétaire chez les juristes musulmans (VIIIe-XIIIe siècle), Arabica, T.14 année 1967.

-Bucaillé (R.) : Takaddâ, pays du cuivre, Bulletin de L'I.F.A.N, T.37 , série n°4, 1975

-Claude Cahen : L'or du soudan avant las Almoravides : Mythe ou réalité ? le sol, la parole et L'écrit, mélange en hommage à Raymont Mauny, histoire d'outre mer 1961.

-Le service de l'irrigation en Iraq au début du XI s, Bulletin d'études orientales, T.XIII 1949-1951

-Cambuzat Paul-Louis : L'évolution des cites du **Tell** en Ifrikya du VIIe au XIe siècle, Alger, O.P.U

-Cauvet (C nt) : Les poissons du Sahara algérien, Bulletin de la société de géographie D'Alger et de L'Afrique du Nord, 4éme trimestre dix-huitième année 1913

-Capot –Rey (R.) : L'Afrique Blanche française, T.2 , Le Sahara français, Presses Universitaires de France, Paris 1953.

-El-Chennafi, Mohammed : Sur les traces D'Audaġust : Les Fogdā 'wste et leur ancienne cite, Tegdaouste I, recherches sur Aoudaghost, Paris 1970

-Colin (Georges S.) : L'exploitation de la mine d'argent de Zgounder (Siroua) au XIII siècle, Hepéris, 1 er et 2 eme trimestre 1954.

-Cuoq Joseph M : Histoire de l'islamisation de L'Afrique de l'ouest, dès origines à la fin du XVI^{e} siècle, Paris.

-Recueil des sources arabes concernant L'Afrique occidental du VIII ^{e} au XVI^{e} siècle (bilad al- Sudan), traduction et notes par J.M .Cuoq, Paris 1975.

-B.Darley,Les poissons des côtes algeriennes, I.N.E.S. agrenomie , Tizi-ouzou , illustration J.C,Deniel ,B.Darley réimpression O.P.U Alger 1992.

-Daveau suzanne : Itinéraire de Tamedalt à Aoudaghost selon AL-Bakri , Tegdaouste I, Recherches sur Aoudaghoste, Paris 1970

-M.Delafosse : Les relations du Maroc avec le soudan à travers les âges , Hespéris, T.IV, 1924

-Le gâna et le Mali et l'emplacement de leurs capitales , Bulletin du Comite d'études historiques et scientifiques de l'Afrique occidentale francaise, T.IX, n^{O} 3 , Juillet- septembre 1924

-Despois (J.) : L'Afrique blanche , T.1 l'Afrique du Nord, Presses Universitaires de France, Paris 1964.

-Devisse(J) : La question D'Audaġuste , Tegdaoust I, recherches sur Aoudaghost, Paris, 1970

-Les mines en Afrique de l'ouest du VIII^{e} au XVI^{e} siècle, Miscellanea, GE.N.T 1975

-Djait H,La wilaya d'Ifriqiya au II^{e} /VIII^{e} siècle : études institutionnelle, studia islamica, T.27 , 1967.

-Doumenge M.F. : Problème de la pêche en Méditerranée occidentale, Bulletin de L'association de géographes français n[0] 276-277, Juin – Juillet 1958.

-Gaden H. : Les salins d'Aoulil, Revue du monde musulman , Vol.12 n° 11, novembre 1910.

-Galand (L.) : Les noms D'Awdagast et de Tagdawest, Tegdaoust I, Recherches sur Aoudaghost, Paris 1970

-E.F.gautier : L'or du soudan dans l'histoire, annales d'histoire économique et sociale , T.VII , n° 32 , 31. Mars 1935

-L'Afrique Blanche, Paris 1939

-Le passé de L'Afrique du Nord (Les siècles obscurs) petite bibliothèque payot, Paris 6 [e]

-Le Sahara, Paris 1923

-Gateau A, Les poissons du lac de Bizerte au VI-XII[e] siècle et à l'époque actuelle, dans Bulletin des études arabes, Alger, Janvier-Février 1942, n ° 9, 2 [ème] année.

-Gadinho (V.M.) : L'économie de L'empire portugais aux XV[e] et XVI[e] siècles, Paris 1969.

-Golvin Lucien : Les modes d'expressions artistiques au Maghreb, dans le Maghreb médiéval, éd française, Aix-en –Provence 1991

-Le Maghreb central à l'époque des Zirids , recherches d'Archéologie et d'histoire, Arts et métiers graphiques Paris 1957

-Recherches archéologiques à la Qálaâ des Banû Hammad, Paris 1965

-Mahdiya à la période fatimide, Revue de L'occident musulman et de la Méditerranée, n° 27 ,1[er]trimestre 1979

-Gostynski T. : La Libye antique et ses relations avec L'Egypte, Bulletin de L'I.F.A.N , T.37, série B, n°, 3 1975

-Gruvel A. / Les Pêches maritimes en Algérie, Paris 1926

-Gsell stephane : Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, reprint de la premières édition publiée à Paris , printed in W.Germany osnabrück 1979

-Vieilles exploitations minières de L'Afrique du Nord, dans Hespéris, T.8 1928

-H.H Abdul Wahab : Les steppes tunisiennes (Région de gamonda) pendant le moyen age, les Cahiers de Tunisie , 1er trimestre n ° 5, 1954

-du nom arabe de la Byzacène,Revue tunisienne, n° 38-39-40,2e-3ème-4ème trimestre 1939

-Hady Roger Idris : Contribution a L'étude de la vie économique en occident musulman et de la Méditerranée , n° 15-16, 2 ème trimèstre 1973

-Julien (Ch.André) : Histoire de L'Afrique du Nord , Tunisie -Algérie- Maroc, de la conquête arabe à 1830, 2ème édition , revue et mis à jour par Roger Le Tourneau, Payot-Paris 1966

-Pierre Laforgue : Notes sur Aoudaghost , ancienne capitale berbers lamtouna (Mauritanie saharienne), société de géographie et d'archéologie d'Oran , 66 ème année, T.64 ,année 1943

-Lagardère vincent : Les Almoravides jusqu' au règne de Yusuf b. Tasfin (1039-1106), ed, L'Harmattan , Paris 1989

-Lessard jean –Michel : Sidjilmassa, La ville et ses relations commerciales au XIe siècle d'après El-Bekri , Hsperis-Tamuda, Volume X fasc. .1-2 , 1969.

-Lewis Bernard et autres, Le monde de l'islam,Elseivier séquoia, Paris Bruxelles 1976.

-Lewichi Tadeuz : Un état soudanais médiéval inconnu : Le royaume de Zàfun(U), cahiers d'études africaine, vol XI, n° 44, 1971

-L'état nord- africain de Tahert et ses relations avec le soudan occidental à la fin du VIII et au IX e siècle, Cahiers d'études africaines, vol.II, 1965

-Lezine Alexandre :Mahdiya, société tunisienne de diffusion 1968 .

-Lhote (H) : Recherches sur Tekadda, ville décrite par le voyageur arabe Ibn Battota et située en Air, Bulletin de L'I.F.A.N,T. XXXIV, série B, n° 3, 1972.

-Les salines d'Amadror et le géographe El-Bekri, Bulletin de liaison saharienne, n ° 14, oct.1955

-Contribution à l'étude des Toureg soudanais Bulletin de L'I.F.A.N. T.17 , Série B , N ° 3 et 4, 1955.

-Contribution à L'étude des Toureg soudanais, Bulletin de L'I.F.A.N, série B.T.18, n ° 3-4, Juillet –octobre 1956

-Chars de guerre et routes antiques du Sahara, Bulletin de liaison saharienne, n° 12, Avril 1953

-Lombard (Maurice) : Espaces et réseaux du haut moyen âge, Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane, VII[e] XI[e] siècle, Mouton éditeur , Paris- Lahye.

-Les métaux dans l'ancien monde du V[e] au XI[e] siècle, Paris- Lahaye 1974.

-L'islam dans sa premières grandeur (VIII[e]- XI [e] siècle), Paris 1971

-Maire (rené) : La flore et la végétation du Sahara occidental, société de biographie, VI, la vie dans la région désertique nord-tropicale de l'ancien monde, Paris VI , 1938.

-Marçais (G) : La Berberie musulmane et l'orient au moyen âge, Aubier, ed Montaigne, Paris 1946.

-Les arabes en Berberie, du IX [e] au XIV [e] siècle, Constantine- Paris 1913.

-Les fouilles à Abbâssiya, près de Kairouan, extrait du bulletin archéologique 1925, Paris imprimerie nationale 1927.

-G.Marçais et A.Dessus –Lamare : Tihert –tagdemt , Revue africaine T.X C , n° 406-409,1946

-Mauny (Raymond) : Notes d'archéologie au sujet de gao, Bulletin de L'institut français d'Afrique Noire, Dakkar I.F.N, T.XIII, n° 3, Juillet 1951

-Les contacts terrestres entre Méditerranée et Afrique tropicale et occidentale pendant l'antiquité, Afrique Noire et monde méditerranéen dans l'antiquité, Colloque de Dakkar : 19-24 Janvier 1976, Dakkar-Abijan 1978

-Un Itinéraire transsaharien du moyen âge, Bulletin de liaison saharienne, N ° 13, Juin 1953.

-Les siècle obscurs de l'Afrique Noire, éd.Fayard, 1970.

-Les navigations médiévales sur les côtes sahariennes antérieures à la découverte portugaise (1434), Lisboa 1960.

-Tableau géographique de l'oueste- africain au moyen âge d'après les sources écrites , la tradition et l'archéologie, Mémoires de l'institut français de l'Afrique, N° 6, Dakkar 1961.

-Mélançon Claude : Les poissons de nos eaux, 4ème édition , Montréal 1973

-Monteuil Ch : Les « ghana « des géographe arabes et européens, Hésperis, 3eme et 4 trimestre 1951.

-Rosenberger (B) : L'histoire économique du Maghreb, Handbuch der orintalistik, Erste Abteinlung ,VI Band ,6 Abschnitt, Teil 1,Leiden/ Koln, E.J.Brill 1977.

-Tamdult, cité minière et caravaniere près saharienne, IXe – XIVe-siècle, Hespéris-Tamuda , vol , XI , FASC, Unique 1970.

-De la Roncière (Ch) : la découverte de l'Afrique au moyen age , Cartographes et explorateurs, T.1 l'intérieur du continent, mémoire de l'institut royal de géographie d'Egypte , T.V , M D CCC XXIV (1924).

-Mac guckin de Slane : Description de l'Afrique septentrionale par Abou-Obeid-el-Bekri, traduit par Mac guckin de Slane Paris 1965.

-Solignac (Marcel) :Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII[e] au XI[e] siècles (J-C) Alger 1953.
-Souville Georges : La pêche et la vie maritime au néobithique en Afrique du Nord, Bulletin d'Archéologie marocaine, T.III, 1958-1959.
-Terrasse(Henri) : Histoire du Maroc, dès origines à l'établissement du protectorat français, édition Atlantide, Casablanca 1949
-Conséquence d'une invasion berbère :le role des almoravide dans l'histoire de l'occident, Mélanges d'histoire du moyen âge, dédiés a la mémoires de louis Halphn, Presses universitaires de France, Paris 1951.
-Vonderheyden (M.) :La pêche sur les cotes barbaresques au moyen age.
-Xairer de Planhol : Les fondements géographiques de l'histoire de l'islam, Paris 1968.
-Yiver(G.) : Encyclopédie de l'islam, art. Maghreb,T.III
-Zolotareiskey(B.)et Murat (M.) : Division naturelle du Sahara et sa limite méridionale, Société de Biographie, VI , la vie dans la région désertique nord tropicale de l'ancien monde, Paris VI , 1938.

فهرس الموضوعات

العنوان الصفحة

الباب الرابع: